منشورات اتحاد
المؤرخين العرب

القاهرة
١٤٢٧/٢٠٠٦

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الخامس عشر

مارس ٢٠٠٧م

منشورات اتحاد
المؤرخين العرب
القاهرة
١٤٢٧/٢٠٠٦

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الخامس عشر
مارس ٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتـــاح

احتلت مجلة المؤرخ العربى التى يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة مكانة متميزة فى المكتبة التاريخية العربية، وأصبحت من أهم الدوريات العلمية المتخصصة فى الوطن العربى. يدل على ذلك عشرات الرسائل الواردة للاتحاد من شوامخ المشتغلين بالدراسات التاريخية فى الجامعات العربية، التى تشيد بالمستوى الرفيع للبحوث والدراسات المنشورة، وتميزها بالأصالة والجدية والمنهجية العلمية.

ويرجع الفضل فى هذا الإنجاز - بعد الله سبحانه وتعالى - إلى جهود الباحثين من مختلف الجامعات العربية، وحرص أعضاء هيئة تحرير مجلة الاتحاد على أن تكون المجلة على قمة الدوريات التاريخية المتخصصة فى الوطن العربى.

ويصدر العدد الخامس عشر من مجلة المؤرخ العربى (مارس ٢٠٠٧) متضمنا مجموعة من البحوث والدراسات التاريخية الجديدة، تحمل عناوين لموضوعات متنوعة منها: دراسات وبحوث عن مراكز الصناعة فى بلاد اليمن فى عصر صدر الإسلام، ومملكة الفرنجة بين اللومبارديين والبابوية، وأضواء على عهد الخليفة المتوكل على الله العباسى، والسياسة الخارجية لدولة الشاه البيضاء فى آسيا الصغرى أو فرسان مالطة وسياستهم فى طرابلس الغرب، كما يحتوى هذا العدد من المجلة على تحقيقات لنصوص تنشر لأول مرة منها: مملكة القسطنطينية فى مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى، ودور النصارى فى النشاط الاقتصادى فى مصر الفاطمية فى ضوء أوراق البردى العربية، وغير ذلك من البحوث والدراسات المتعمقة.

وترحب هيئة تحرير مجلة المؤرخ العربى بالبحوث والدراسات التاريخية للباحثين من سائر الجامعات لنشرها بعد تحكيمها ضماناً للجودة. ويشترط ألا يكون العمل المقدم للنشر قد سبق نشره، أو قُدم للنشر لأية جهة أخرى. ويُراعى أن تتراوح صفحات البحث بين ١٥-٣٠ صفحة. ويقدم البحث مكتوباً على الكمبيوتر على ورق كوارتور (A4)، ومسجلاً على أسطوانة مدمجة وفق برنامج Word، ومساحة الكتابة فى الصفحة ١٢×١٩سم، والهوامش والتعقيبات فى نهاية البحث، وبنط النص ١٤، وبنط الهوامش ١٢، وبنط العناوين الرئيسية ١٦ أسود، وبنط العناوين الفرعية ١٤ أسود، والمساحة بين السطور AUTP، وترفق الرسومات والصور والأشكال على ورق كلك، قابلة للاستنساخ مباشرة.

وفقنا الله جميعاً لما فيه رفع شأن الدراسات التاريخية فى الوطن العربى، والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير.

أ.د. حسنين محمد ربيع
رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التحرير

يسر أسرة تحرير مجلة المؤرخ العربى أن تقدم العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربى والمجلة حريصة على أن تكون نافذة وضاءة لكل بحث جاد فى الوطن العربي فهناك أبحاث من مصر والسعودية واليمن.. وهناك بحث يتناول صراع السلطة فى اليمن منذ فجر الإسلام حتى قيام الدولة الطاهرية، وبحث عن أهم مراكز الصناعة فى اليمن فى العهد النبوى، ومن البحوث ما تناول تاريخ الدولة العباسية والفاطمية وما تناول تاريخ فلسطين والعلاقات بممالك قشتالة وأراعون ومالطة ورعاية الأيتام فى العصر المملوكى.

وقد جعلت المجلة قسماً سيكون ثابتاً فى إصدارها يضم تلخيص لأنشطة الاتحاد الثقافية. فلقد عقد الاتحاد عددا من الندوات لاقت حضوراً طيباً وإن كنا نأمل المزيد من المشاركة، فهناك ندوة عن الأهمية الاستراتيجية لشبه جزيرة سيناء شارك فيها أ.د. عبدالحليم نور الدين فى التاريخ القديم وأ.د. زبيدة عطا تحدثت عن بدو سيناء والاحتلال الإسرائيلى واللواء منير أحمد شاش محافظ جنوب سيناء السابق، وقد تحدث عن التنمية فى سيناء، وجرت مداخلات عدة أثرت الندوة. وحلقة نقاش عن تاريخ العصور الوسطى الإسلامية والأوربية شارك فيها كل من أ.د. حامد زيان، وأ.د. حسنين ربيع، وأ.د. زبيدة عطا، وأ.د. عفاف صبرة، وأ.د. فايزة إسكندر، وأ.د. محمود سعيد عمران. وحلقة النقاش عن التشرذم فى العالم العربى بين التاريخ والسياسة شارك فيها أ.د. جمال زكريا، وأ.د. السيد فليفل، وأ.د. أحمد زكريا الشلق. وندوة مسئولية البابوية حول الحروب الصليبية شارك فيها كل من أ.د. إسحق عبيد وأ.د. حامل زيان، وأ.د. زبيدة عطا، وأ.د. عفاف صبرة. وحلقة نقاش حول الدراسات التاريخية اليونانية الرومانية فى مصر (الواقع والمأمول) شارك فيها أ.د. محمود السعدنى، ود. أبو اليسر عبدالعظيم فرح.

ولقد تم إعداد ملخصات كما سيكون هناك باب ثابت لأهم الإصدارات التاريخية فى كل عام. كما نرجو كل من لديه فكرة أو مقترح من السادة أعضاء الاتحاد بالنسبة للمجلة أن يوافينا به.

رئيس التحرير	هيئة التحرير
أ.د. زبيدة محمد عطا	أ.د. عفاف صبرة - أ.د. عفيفى إبراهيم

برنـامج نــدوات اليوم الواحد

(الموسم الثقافى ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧)

وضع اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة قائمة بعدد من الندوات والسمنارات تمت الموافقة عليها فى مجلس إدارة الاتحاد للموسم الثقافى (٢٠٠٦-٢٠٠٧م)، وقد تم تنفيذ البرنامج بمقر أنشطة الاتحاد على النحو التالى:

١- تم عقد ندوة بعنوان «الأهمية الاستراتيجية لشبه جزيرة سيناء» مساء يوم الخميس الموافق ٢٨ ديسمبر ٢٠٠٦م اشترك فيها كل من أ.د. عبد الحليم نور الدين، وأ.د. زبيدة عطا، واللواء منير شاش محافظ جنوب سيناء الأسبق. وقام أ.د. حسنين محمد ربيع رئيس الاتحاد بإدارة الندوة. وحظيت الندوة بحضور مكثف، كما كانت هناك الكثير من المداخلات التى أثرت الندوة.

٢- عقدت حلقة نقاش بعنوان «تاريخ العصور الوسطى الإسلامية والأوربية» مساء الخميس الموافق ٨ فبراير ٢٠٠٧م شارك فيها كل من أ.د. حامد زيان غانم، وأ.د. حسنين محمد ربيع، وأ.د. زبيدة عطا، وأ.د. عفاف سيد صبرة، وأ.د. فايز نجيب إسكندر، وأ.د. محمود سعيد عمران، أ.د. عفيفى محمود إبراهيم، وأ.د. محمود إبراهيم السعدنى، وأ.د. أيمن فؤاد سيد، وأ.د. ليلى عبد الجواد إسماعيل. وقام أ.د. حسنين محمد ربيع بإدارة الندوة.

٣- عقدت حلقة نقاش حول موضوع «التشرذم فى العالم العربى بين التاريخ والسياسة» مساء يوم الخميس الموافق ١٥ مارس ٢٠٠٧ تحدث فيها كل من: أ.د. جمال زكريا قاسم، وأ.د. السيد على فليفل، وأ.د. أحمد زكريا الشلق. وقام بالتعقيب مجموعة من أساتذة التخصص والسادة الحضور.

٤- عقدت ندوة موضوعها «مسئولية البابوية حول الحروب الصليبية» مساء الخميس الموافق ٢٤ مايو ٢٠٠٧ شارك فيها كل من أ.د. اسحق عبيد، وأ.د. حامد زيان، وأ.د. عفاف صبرة. وقام بإدارة الندوة أ.د. زبيدة عطا، وقام بالتعقيب مجموعة من أساتذة التخصص منهم أ.د. محمد محمود النشار.

٥- ثم عقدت حلقة نقاش موضوعها «الدراسات التاريخية اليونانية الرومانية فى مصر (الواقع والمأمول)» مساء الخميس الموافق ١٤ يونيو ٢٠٠٧م وتولى إدارتها والمشاركة فيها أ.د. محمود السعدنى مع د. أبو اليسر عبد العظيم فرج، وحضرها مجموعة من أساتذة التاريخ القديم فى الجامعات المصرية.

وسيقوم الاتحاد قريباً بنشر ملخصات حصاد هذه الندوات وحلقات النقاش والمداخلات والتعقيبات.

المحتـويـات

صفحة

د.طارق أبوالوفا محمد

أهم مراكز الصناعة فى اليمن من العهد النبوى وحتى قيام دولة بنى يعفر

تمهيد:

(الموقع الجغرافى لليمن)

تقع اليمن فى القسم الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية(١)، ويحدها من الشمال بلاد الحجاز(٢)، ويحدها من الشرق عمان(٣)، تطل اليمن على المحيط الهندى من الشرق(٤) والجنوب(٥) وتطل على مضيق باب المندب(٦) والبحر الأحمر من الغرب(٧).

عوامل قيام الصناعة وازدهارها: اهتم المسلمون بالصناعة فى العصر الإسلامى فنجد النبى صلى الله عليه وسلم يحث على العمل ويرغب فى أن يعتمد المسلم على صنعته وكد يده(٨)، فأقبل أهل اليمن على الصناعة، وكان هناك عدة عوامل كان لها أكبر الأثر فى وجود الصناعة باليمن وكان أهمها:

توافر المواد الخام الطبيعية التى كونت الدعامة للصناعات المختلفة فكان بها الحديد الذى وجد فى صنعاء وعدن والذى استخدام فى صناعة السيوف، كما كان للثروة الحيوانية فى اليمن أثرها فى نمو صناعة الجلود والملابس، كما كان لكثرة أنواع الصخور وتوافر خامات البناء والمعادن بصنعاء أثره فى تطور عملية البناء، كما كان للأحجار الكريمة فى اليمن ولوجود الذهب والفضة أكبر أثر فى ازدهار صناعة الحلى(٩).

وكذلك كان لوفرة الأيدى العاملة المدربة أثرها فى وجود الصناعة حيث وجد عدد من الرقيق(١٠) كما حظيت بعض مدن اليمن مثل صنعاء وعدن بوجود عناصر غير عربية من الفرس الذين استوطنوا اليمن قبل الإسلام(١١) كان له أثره فى ازدهار الصناعة، حيث نقلوا خبرتهم إلى أهلها، كما كان للعصبية القبلية والوراثة أكبر الأثر فى احتفاظ بعض بيوتات ومدن اليمن بأسرار بعض الصناعات فنسبت إليها مثل صناعة النعال الرخمية(١٣)

والبرود الشرعبية[١٣]، كما كان لحكام اليمن دورهم فى تشجيع الصناع، حيث شجع هؤلاء الحكام الصناع المهرة منذ العهد النبوى، حيث كان للفرس دور مهم فى الصناعة، استمر حتى عصر بنى يعفر[١٤] ولذلك كثرت وتنوعت الصناعات فى اليمن خلال تلك الفترة.

أهم مراكز الصناعة فى اليمن:

أ - صناعات النسيج:

تطورت هذه الصناعة فى اليمن تطورا كبيرا واعتمدت على توافر المواد الخام من حرير وقطن وكتان[١٥] وعلى صناعة أخرى تمهد لصناعة النسيج وهى صناعة الغزل التى ازدهرت لتوافر شعر الماعز والصوف من الضأن وغيرهما[١٦]

وقد شارك نساء اليمن فى الغزل وينقسم غزل نساء اليمن على وجهين:
أ– الفارسى: الذى يدخل الإبهام على الأصبع الوسطى من فوق الغزل.

ب– الحميرى: الذى يخرج الأصبع الوسطى على الإبهام فى الغزل[١٧]، أما عن صناعة نسيج الأقشمة والثياب، فقد اشتهرت هذه الصناعة فى اليمن منذ القدم فقد ورد أن ملوك اليمن فى عصور ما قبل الإسلام أنشأوا دورا للنسيج كانت تدر عليهم دخلا كبيرا من المال[١٨]، كما كانت منسوجات اليمن هى السائدة فى أسواق الجزيرة العربية وغيرها[١٩]، فقد كسيت بها الكعبة قبل الإسلام[٢٠] كما ازدهرت صناعة المنسوجات اليمنية وتطورت وبلغت شهرة فائقة فى العصر الإسلامى فكانت هذه الثياب والمنسوجات لباس رسول الله (ص) وخاصة يوم الجمعة ومواسم الأعياد وعند مقابلة الوفود، يقول اليعقوبى عند ذكره لباس رسول الله (ص) أنه كان يلبس برد الحمر ازرا أو أردية بيضاء والقلنسوة الحبر والجبة والسندس الخضراء[٢١] كما كفن الرسول (ص) فى ثلاثة أثواب سحولية[٢٢] نسبة إلى سحول، من كرسف ليس فيها قميص ولا عمامة أدرجوه فيها إدراجا[٢٣] واستمرت صناعة نسيج الثياب فى اليمن فى ازدهار إبان العصرين الأموى والعباسى، حيث دفعت دقة صناع اليمن فى هذه الصنعة الخلفاء والولاة إلى إقامة دور لمناسج االطراز الخاصة بمدينة صنعاء[٢٤] فكان منها دار لطرز الخلافة والملوك[٢٥].

كما كانت هناك دور للطراز أيضا فى عدن[٢٦]، وكانت بعض مصانع النسيج تنقش شعاراتها على المنسوجات باللون الذهبى وهذا التوقيع يشبه إلى حد كبير العلاماُت التى تضعها المصانع فى العصر الحديث على إنتاجها حرصا على عدم التزييف[٢٧]، أدى اهتمام حكام اليمن بصناعة النسيج خلال تلك الفترة إلى تنوع تلك المنسوجات وازدهار الملابس فى اليمن ومن أهم هذه الأنواع:

١- البرود:[٢٨] وكانت تنسج من الكتان، وكانت ذات شهرة كبيرة، حيث كانت تباع إلى البلدان الإسلامية، وظلت اليمن محتفظة بمكانتها كأكبر مصدر للبرود الغالية حتى القرن الرابع الهجرى[٢٩] ويقال أن البرد الواحد منها كان طويلا ويصل طول الواحد منها إلى ثمانية أذرع، وغالبا ما تصنع من الكتان[٣٠]، وقد نسجت البرود فى صنعاء وحضر موت ونجران وشرعب[٣١] وكانت ذات شهرة كبيرة حتى أن الجمل كان يحمل منها ١٢٢ بردا[٣٢] وقد برع أهل صنعاء فى نسج البرد مما كان له أثره فى ارتفاع ثمن البرود الصنعانية فكان سعر البرد الواحد يصل إلى ٥٠٠ دينار[٣٣] حيث أقبل عليه تجار البلاد الأخرى، كما استخدمت هذه البرود فى البلاط الأموى[٣٤]. وكانت ملابس أهل الريف تختلف عن ملابس أهل صنعاء فكانوا يرتدون البرود[٣٥] لاسيما البرود المفوفة[٣٦] التى عرفت منذ صدر الإسلام على الأقل[٣٧].

٢- الحبرات: وتعمل بصنعاء الحبرات من القطن التى لايقدر فى غيرها على اتخاذ مثلها ومنها تحمل إلى البلاد [٣٨] وقد تصنع من الحبرة السرودقات، فيذكر خالد بن صفوان أنه قدم على الخليفة هشام بن عبدالملك، وقد ضرب له سرادق من حبرة، كان يوسف بن عمر صنعه له باليمن فيه نطاع فيه أربعة فرش من خز أحمر[٣٩].

وقد تميزت ثياب أهل البادية من الأثرياء عن غيرها حيث ارتدوا الحبرة[٤٠] وهى من الألبسة الخارجية للرجال[٤١] وكانوا يأتون بها من صنعاء. أما ملابس المرأة اليمنية الخارجية فكانت تتمثل فى الحبرة التى عرفت فى صنعاء. قبل الإسلام وهى عبارة عن ملاءة كبيرة تغطى جسمها وتقى ملابسها من التراب والطين[٤٢] ولعل اللاتى ارتدين هذا النوع من الثياب هن نساء البدو والأثرياء أو نساء الطبقة المتوسطة بصنعاء[٤٣].

٣- البيرم: وهو نوع من المنسوجات وطول الواحد ستة أذرع[٤٤]

٤ - السباعيات: وهى نوع من الأردية وطولها سبعة أذرع فى عرض أربعة أذرع، وهى على صنفين من الحرير الخالص ونوع آخر ممزوج بالكتان[٤٥].

٥- السعيدية: نوع من برود اليمن تشتهر به مدينة صنعاء لذا يقال سعدية صنعاء، دلالة على نسجها بها[٤٦].

٦- شقق الحرير: وطول الشقة عشرون ذراعا[٤٧]

٧- العصب: وهو ثياب نسج بصنعاء ارتدينه النساء وكانت صنعاء ومدن اليمن هى الممول الرئيسى لشبه الجزيرة العربية من العصب حتى نهاية القرن الرابع الهجرى[٤٨].

٨ - الفوط: عرف أهل اليمن الفوط[٤٩] التى كانت تنسج بصنعاء[٥٠]. وكان عامة الحجاج اليمنيين يتشحون بها أثناء حجهم[٥١].

٩- الملايا: نوع من الفرش تصنع من المنسوجات القطنية والكتانية[٥٢]

١٠- الخمر: اشتهرت اليمن بصناعة الخمر وخاصة الخمر السود الجيشانية وعرفت بها جيشان[٥٣].

١١- النقب والبراقع: وهو النقاب الذى تستر به المرأة وجهها، ويكون من القماش الأسود الخفيف[٥٤] أما البراقع فكان أول من أمر النساء بارتدائها الإمام الهادى إلى الحق «يحيى بن الحسين ت.٢٩٨هـ/ ٩١٣م[٥٥]

١٢- الوشى: اشتهرت اليمن بالوشى حتى نسب إليها فيقول الثعالبى: «وشى اليمن وعصب اليمن» ويضرب بهما الممثل فى الحسن[٥٦].

١٣- الوصايل: هى نوع من الأقمشة التى كانت تنسج منذ عصور ما قبل الإسلام واستمر نسجها فى العصر الإسلامى، ويتميز هذا النوع من النسيج بعدم وجود تصميم زخرفى مسبق، وإنما تتم زخرفته عن طريق استخدام خيوط ملونة تستخدم فى السداة واللحمة بطريقة متصلة أو منفصلة[٥٧]. ومن الجدير بالذكر أن الوصايل استخدمت فى كساء الكعبة قبل الإسلام وكان أول من كساها بالوصايل هو (تبع أبوكرب أسعد) عندما قدم فى طريقه من المدينة إلى مكة متجها إلى اليمن[٥٨] وهكذا تعددت أنواع المنسوجات اليمنية حتى أضحت اليمن أهم معقل من معاقل صناعة النسيج فى الجزيرة العربية إبان تلك الفترة. استلزمت صناعة النسيج قيام صناعة أخرى وهى صباغة الملابس، وكان يتم صبغاتها بعد نسجها أو بعد خياطتها، وأحيانا يصبغ الغزل قبل نسجه[٥٩].

فأقبل الصناع فى اليمن على استخدام طريقة الصباغة فى عمل المنسوجات ومن المعروف أن الأصباغ فى ذلك العصر كان معظمها أصباغ نباتية تستخرج من بعض النباتات وقد اعتمد النساجون فى صنعاء في هذا المجال على الأصباغ المحلية مثل الزعفران[٦٠] وكان الزعفران فى اليمن يسمى الورس[٦١] وهو نبات يشبه السمسم، وكانت جمال اليمن التى تحمل الزعفران إلى الشمال تتأثر ألوانها بتأثير لون أحمالها من الزعفران حيث كان هذا النبات ذا لون أصفر[٦٢]، إلى جانب مدينة صنعاء فقد اشتهرت مدينة زبيد باستخدام النيلة فى الصباغة وهى مادة زرقاء يستعملها الصباغون[٦٣] وكذا مدينة عدن التى اشتهرت بتلك الصنعة باستخدام الورس والزعفران أيضا[٦٤] استخدم أهل اليمن فى تنظيف ثيابهم عدة صناعات مثل صناعة الصابون بنوعيه السائل والجامد التى اشتهرت به مدينة صنعاء[٦٥] أما فى عدن فقد اشتهرت قرية الممباه[٦٦] بصناعة الحطم، وكان يستعمل فى تنظيف الثياب كالصابون[٦٧] فكان أهالى الممباه يصنعون الصابون من عصارة أوراق شجر حمضى ينبت على ساحل عدن يسمى «العصل» وذلك من خلال حرقها بطريقة خاصة بحيث تسيل من الأوراق عصارة لزجه إلى حفر فى الرمل تتماسك بعد أن تبرد، وتترك حتى تصير قطعا صلبة بشكل الحفر[٦٨].

ب - الصناعات المعدنية

تعد المعادن من أهم الأشياء التى يستخدمها الإنسان نظرا لنفاستها لذا فقد استخدمها فى الزينة والمعاملات اليومية وفى غيرها ومن أهم الصناعات المعدنية:

١- صناعة السكة[٦٩] وهى الصناعة التى تهتم بها الدولة لضرب العملات المتنوعة من الذهب والفضة والنحاس ويتم سك العملة من خلال ثلاث مراحل:

توفير الخامات التى تسك منها العملة، ثم إعداد السبائك[٧٠] وذلك بوضعها فى داخل تنور (فرن) مبنى من الأحجار حتى يتم صهرها ثم تصب فى القوالب الخاصة بالعملة وكانت هذه القوالب منقوشا عليها ما يراد كتابته على العملة[٧١]. القوالب لضرب العملة تنتج عن عملية السك، والقالب هو الذى يكون عليه المعلومات المراد وضعها على العملة[٧٢]. تنفرد اليمن عن غيرها من بلاد شبه الجزيرة العربية بأنها أقدم البلاد من حيث تبادل العملة، وترجح بعض المراجع أن أقدم النقود يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد وبعضها يعيدها إلى القرن الثالث قبل الميلاد[٧٣]، ثم قامت الدولة الحميرية بضرب النقود حيث عثر على نقود تحمل اسم الملك الحميرى (شمر يرعش)[٧٤]، وكانت النقود اليمنية معروفة فى عموم الجزيرة العربية وما حولها من الأقطار[٧٥] هذه العملات التى عرفت بالعملات اليمنية ويقصد بها الدرهم الحميرى[٧٦] تدل على أنها ضربت بمدينة صنعاء لكونها حاضرة البلاد، ولما قدم الفرس إلى اليمن حوالى (٥٧٥م) تعاملوا بالدرهم الفارسى وبالتالى انخفضت قيمة الدرهم الحميرى أمام الدرهم الفارسى حتى إنه أصبح يعادل سدس الدرهم الفارسى وأطلق عليه دانق[٧٧]، أما فى العصر الإسلامى فقد أبقى النبى (ص) على العملة السائدة باليمن بدليل فرضه النبى (ص) الزكاة بهذه العملة[٧٨]. أما عن دور الضرب فى اليمن فقد تعددت أماكنها فكانت أقدم دار ضرب فى اليمن تم إنشاؤها فى العصر العباسى فى عام (١٨٣هـ/ ٧٩٨م - ٨٠٠م) كما أشارت المصادر التاريخية على يد والى صنعاء محمد بن خالد البرمكى[٧٩]

إلا أن الأثريين يؤكدون أنه ظهرت عملات منذ عهد المنصور، حيث أكد أحد الباحثين أن أقدم العملات الإسلامية فى اليمن عرفت حتى الآن هى الفلس[٨٠] ويشير أحد الباحثين إلى أنه يوجد فى متحف الآثار التركية فى اسطنبول، وقد ضرب سنة (١٥٦ هـ/ ٧٧٢م - ٧٧٣م) فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور، أمر بضربه ابنه المهدى فى حياته وكان خاله يزيد بن منصور واليا على اليمن، وعلى هذه العملة نص واضح هو (مما أمر به المهدى محمد ابن أمير المؤمنين)[٨١]، ويشير إلى أنه توجد فى المتحف الوطنى بصنعاء فلوس من نفس الدار ضربت* عام (١٥٦هـ/٧٧٢م - ٧٧٣م) مكتوب عليها (ضرب هذا الفلس فى اليمن)

وذكرت سنة الضرب، ولم يذكر المكان[٨٢] فإذا كانت سنة (١٥٦هـ/ ٧٧٢ م – ٧٧٣م) هى أقدم السنوات من حيث ظهور العملة آنذاك والفلس الأول يدل على أنه كان من الجائز أن يضرب ولى العهد عملة باسمه فى حياة أبيه وعدم ذكر مدينة صنعاء يجعل هناك استنتاجين أولهما: وجود أكثر من دار لسك العملة فى مدن مختلفة من اليمن، وربما تكون هذه المدن قريبة من صنعاء لكونها مركز لمقر الوالى، أما الاستنتاج الآخر وهو الذى أرجحه أن وجود عبارة ضرب باليمن يقصد بها مدينة صنعاء لكونها حاضرة اليمن وأكثر مدنه رقيا فإنه كما يقال ضرب بمصر ويكون محل السك العاصمة فإنه قياسا على ذلك ربما انطبق ذلك على صنعاء أيضا التى ظلت تسك بها العملة من قبل العباسيين[٨٣]. وتعددت دور الضرب فى اليمن وتنوعت العملات فكان منها: ذهب – جرام». ذهب دينار مطوق ٢,٩٧ جم.، فضة درهم قفلة ٢,٢٧ جم، ڤ ثلث درهم ٠,٩٩ جم، ربع درهم ٧٤, ٠جم.، سدس درهم ٠,٤٩ جم.، درهم يمنى من عشرة قراريط ٠,٩٥ جم.، ثلث الدرهم اليمنى ٠,٦٥ جم، سدس الدرهم اليمنى ٠,٣٢ جم[٨٤].

٢- صناعة الحلى: كانت اليمن تمثل مركزا من أهم مراكز تصنيع الحلى فى الجزيرة العربية وقد تعددت أنواع الحلى فكان منها الحلى الذهبية والفضية وكان منها ما هو مصنوع من الأحجار الكريمة.

صناعة وصياغة الذهب واستخراجه: وجد الذهب فى جبل نقم[٨٥] ويكثر من منطقة همدان ذهب «المخلفة» من أرض حجور (فى أعالى وادى مور غرب البون) وفى منطقة خولان معدن ذهب «الفقاعة» ويقع غربى صعدة ونجران، ووصف ذهب هذه المعادن بأنه من أحسن أنواع الذهب[٨٦].

وكانت ذمار مركزا قديما لإنتاج الذهب، وسميت بعض قراها باسمه مثل سامة العليا وسامة السفلى، وكذلك استخرج الذهب والفضة من أرض همدان وخولان والجوف[٨٧]

ويستخرج الذهب بحفر آبار ضيقة كالكظائم[٨٨] وبعد أن تتم عملية استخراج الذهب تبدأ عملية تصنيعه، ويشير الهمدانى إلى صناعة الحلى الذهبية فيذكر أن الذهب كان يخلط بالفضة والنحاس حتى يصبح سميكا قويا ويندمج ويطرق بالنار بعد خلطه بالنحاس والفضة[٨٩]، وكان يصنع من الذهب الأساور والخواتم والخلاخيل التى كانت ترتديها النساء[٩٠]، كذلك اشتهرت عدن بصناعة صياغة الذهب التى قام بها اليهود، حيث كان يوجد فى عدن حى خاص باليهود يمارسون فيه تلك الصناعة[٩١] وقد برع اليهود فى صناعة الحلى الذهبية التى كانت تتميز بالدقة وحسن الذوق. وقد ساعد على ازدهار هذه الصناعة حياة الترف التى كان يحياها الولاة والتجار فى عدن[٩٢].

استخراج الفضة وصهرها:

وجدت الفضة باليمن منذ أقدم العصور، وقد قام أهل صنعاء باستخراجها من «نهم»[٩٣] كما كانت تستخرج من جبل معدل فى حضر موت[٩٤] وهى القرية التى تستخرج منها[٩٥] وكانت عملية صهر الفضة تتم فى تنانير وكان بكل تنور منفاخان يقف على كل منفاخ رجل يقوم بعملية النفخ، وإذا كان يتبعه آخر، وكانت توضع الأخشاب مع الفضة حتى تتم عملية الصهر وعندما تبرد الفضة يتم تقطيعها[٩٦]. وكان عدد تنانير صهر الفضة فى قرية الرضراض أربعمائة تنور فى أيام الهمدانى[٩٧] فقد استخدم أهل صنعاء الفضة جنبا إلى جنب مع الذهب فى الزخارف وفى الصفائح التى غلفت بها أبواب مساكن الملوك وخشب سقوفهم.[٩٨] كما استخدموها فى مقابض خناجرهم[٩٩] وسيوفهم المحنية الصغيرة[١٠٠] كما استخدمتها النساء كحلى فارتدينها كأساور وخواتم وخلاخيل[١٠١].

العقيق: وجد العقيق منذ أقدم العصور وأشار ابن الفقيه[١٠٢] إلى وجود العقيق فى صنعاء فيقول: «ويحمل العقيق من مخاليف صنعاء» وأجود ما آتى به من قرية تسمى مقرى وقرية أخرى تسمى الهان وجبل يقال له قاسر، فيعمل بعضه باليمن ويحمل بعضه إلى البصرة. أما عن طريقة استخراج العقيق فعندما كان يعثر عليه يكسر ويلقى فى الشمس عند شدة الحر ثم يسجر له التنور لإبعاد البلل ويجعلونه فى شىء ملامس للنار فيسير منه ماء يجرى فى مجرى وضعوه له، ثم يستخرجونه لم يبق منه إلا الجوهر وما عاداه صار رمادا[١٠٣] وأحيانا يكون العقيق فى الجبال كالحصاة فيلتقط من بين الحجارة[١٠٤]، ومن أنواع العقيق أيضا الجذع ويستخرج بنفس طريقة استخراج العقيق.

تعددت أنواع العقيق فمنه نوع يسمى المثلث وهو غالى الثمن يمتاز بأن له وجه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود، ومنه أيضا صنف اسمه السعوانية نسبة إلى الجهة التى يستخرج منها وهى وادى سعوان المجاور لمدينة صنعاء. وهو فص أسود فيه عرق أبيض[١٠٥] واشتهر اللونان الأحمر والأصفر[١٠٦] من بين ألوان العقيق لارتفاع ثمنيهما كما وجدت ألوان أخرى متميزة ونادرة[١٠٧] ومن أنواع العقيق أيضا الجذع وهو أنواع نسب كل نوع إلى مكان استخراجه كالنقمى[١٠٨] نسبة إلى جبل نقم شرق صنعاء، والجذع العشارى نسبة إلى وادى عشار[١٠٩]، كما نسبت بعض أنواع الجذع إلى أسماء أماكن خارج اليمن وشبه الجزيرة العربية كالنوع المسمى الفارسى والآخر الذى أطلق عليه الحبشى[١١٠] وحملت بعض أنواع الجذع أسماء صفات كالمعرق

والعسل[١١١] وأيضا تفاوتت أحجامه بين الصغير والدقيق الذى يصنع منه الخرز[١١٢] والكبير الذى صنعت منه الأوانى العظيمة[١١٣].

وكان العقيق يستخدم فى صناعة مقابض السيوف[١١٤] كما استخدمت نساء اليمن الذهب والفضة والحلى استخدمن أيضا العقيق فصنع لهن من العقيق الفصوص والخرز[١١٥] والعقود أيضا[١١٦] وقد ساعد الصناع على ذلك كثيرة ألوان العقيق[١١٧].

الياقوت: استخدم أهل اليمن الياقوت للزينة، خاصة بمختلف ألوانه من الأحمر والأصفر والأزرق[١١٨]. كما وجد اللؤلؤ فى اليمن وخاصة فى عدن[١١٩] ويعد اللؤلؤ من أعظم المنتجات البحرية وأغلاها ثمنا[١٢٠] وقد استخدم اللؤلؤ فى الزينة[١٢١] كما وجد النحاس فى اليمن فى أماكن كثيرة مثل ذمار[١٢٢] وغير ذلك من مدن اليمن. ولقد استخدم الإنسان فى اليمن النحاس فى صنع بعض الأوانى والصناديق والعلب[١٢٣]. وامتاز أسلوب الصانع اليمنى فى تلك الفترة باستخدام أساليب متنوعة فى صناعة النحاس مثل الصب أو التكفيت[١٢٤].

٣- صناعة الأسلحة:

تعددت أنواع صناعة الأسلحة فى اليمن فكان منها:

صناعة السيوف: تفنن صناع اليمن فى صناعة السيوف، حيث كان للسيف أجزاؤه المتعددة فحديدته هى النصل، ومتن السيف هو ظهر النصل، وصدر السيف هو مقدمة، وعرضاه هما صفحتاه، فأما حداه فهما الزلقان والذبابان، والمسمار الذى فى القائم والكلب، والحرباء فى كل قائم كلبان والمحمل هو الحمالة، والنجاد هو السير الذى يركب بالعاتق ويحمل به السيف، فإذا سهل خروجه من غمده قيل عنه سلس وزلق، وإن تعثر قليلا قيل عنه نصب، وإن انكسر السيف قيل انقصف[١٢٥].

وكانت السيوف تزين فتنقش عليها تماثيل أو يكتب عليها أو يصور عليها صور، ويذكر ابن المجاور[١٢٦] أن هناك نوعا من السيوف يعرف بالصنعانى يضرب فى صنعاء، متقدم قصير، لأنه سيف الرجالة، وكان هناك أيضا نوع من السيوف المستقيمة بعضها ذو حد واحد وبعضها ذو حدين، وهى الأكثر استعمالا وشيوعا[١٢٧]، وكانت سيوف اليمن تصدر إلى البلاد المجاورة[١٢٨].

الخناجر: وإلى جانب السيوف كانت هناك صناعة الخناجر[١٢٩]، التى اشتهرت فى اليمن قبل الإسلام واشتهرت صنعاء بنوع خاص من هذه الخناجر المقوسة، وكانت تلك الخناجر ذات مقابض من العظم المطعم بالفضة وأحيانا من الذهب بغرض التجميل[١٣٠].

الرماح: اشتهرت اليمن بصناعة الرماح فتعددت أنواعها ومراكز صناعاتها[١٣١] مثل الرماح الشرعبية[١٣٢] والردينية[١٣٣] والخطية وهى رماح عرفت بجودتها وصلابتها وحسن صناعتها[١٣٤]. فقد اشتهرت بعض مناطق اليمن كصعدة بصناعة الرماح ذات المقابض الحديدية وذلك لوجود خام الحديد بالقرب منها[١٣٥].

الدروع: اشتهرت اليمن منذ القدم بنوع من الدروع يسمى الدروع السلوقية[١٣٦].

التروس: اشتهرت اليمن بصناعة التروس التى كانت تصنع عادة من جلود الإبل القوية[١٣٧].

صناعة الدبابة: وكان هذا السلاح معروفا فى جرش من مخاليف اليمن، وبها صناع حاذقون فى مختلف أنواع الأسلحة منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث أرسل اثنين من الصحابة إلى جرش[١٣٨] لكى يتعلموا صناعة الدبابة[١٣٩] وذلك بعد أن علم بهذه الآلة وبقدرتها على اقتحام الحصون.

المنجنيق:[١٤٠] من الأسلحة الثقيلة وأشد الآلات الحربية تأثيرا فى الحصار والهجوم ويتركب من ثمان وعشرين قطعة من الخشب تعمل منها القاعدة، وفوقها قائمتان على الجانبين، وتتصل هاتان القائمتان بعرضة، ثم يركب على هذه العرضة سهم يراعى أن يكون أحد طرفيه قصيرا والآخر طويلا، وكان يركب فى الجهة الطويلة كفة يوضع فيها حجر معد للقذف، وكان للمنجنيق رجال مرتبون، وكان له ألواح تقيهم من سهام الأعداء وتقربهم من أسوارهم[١٤١]، وقد استخدم المنجنيق فى اليمن حيث أشارت المصادر إلى ذلك[١٤٢].

ج: الصناعات الخشبية

ازدهرت الصناعات الخشبية باليمن وقد ساعد على ذلك كثرة أنواع الخشب المتوفرة فى صنعاء والتى جلبت أحيانا إليها من أنحاء اليمن وأحيانا أخرى من البلاد الخارجية. ومن أنواع الخشب التى توفرت لديهم فى ذلك الوقت: شجر السدر وشجر الجوز وشجر التألب وشجر القرظ والعرعر والطلح والقتاد وغيرها[١٤٣]. وقد برع النجار اليمنى فى صناعة أغلفة ومقابض الجنبية اليمنية وهى عبارة عن خنجر صغير، حيث كانت توضع الجنبية فى غلاف أو غمد، وتصنع هذه الأغلفة الخشبية من خشب يطلق عليه خشب الطنب الذى ينمو فى اليمن ويتميز بامتصاص الرطوبة ويكسى هذا الغلاف الخشبى من الخارج بطبقة من الجلد المدبوغ، ومن الداخل بطبقة من القطن الناعم، وللأغلفة الخشبية أنواع مختلفة تبعا لصناعاتها فى المدن اليمنية المختلفة، وكان منها ما يعرف بالغلاف الصنعانى[١٤٤] أما مقابض الجنبية فتصنع أيضا من

الخشب والعاج والفضة والنحاس والحديد وعادة ما يناسب المقبض قبضة اليد ويثبت مع النصل بواسطة مسمارين[١٤٥] ولم يكتف النجار الصنعانى بصناعة أغلفة ومقابض الجنابى فقط، بل قام بزخرفتها، ومن الجدير بالذكر أن الجنبية عرفت فى صنعاء منذ القدم وأن أول من صنعها أهل بيت أطلق عليها بيت الصنعانى[١٤٦]. وقام أهل صنعاء بعمل السقوف من الخشب وابتكر صناعها طريقة تعرف بالمصندقات واستخدموها فى صناعة سقف الجامع الكبير بصنعاء[١٤٧]، فى القرن الثالث الهجرى فى عصر بنى يعفر الذين استخدموا هذه الطريقة أيضا فى أسقف المسجد الكبير بمدينة شبام[١٤٨] وعادة ما يتكون سقف المصندقات من عوارض ضخمة رأسية تتقاطع معها عوارض أخرى أفقية مشكلة على هيئة أشكال مربعة أو مستطيلة تقسم من الداخل إلى مناطق مربعة، ويتم بعد ذلك عمل المصندقات وزخرفتها ثم رفعها وتثبيتها فى أماكنها عن طريق إطارات مربعة تركب على العوارض[١٤٩]. ولما كانت زخارف هذه الأسقف يستخدم فيها التلوين فقد استوجب ذلك الحفاظ عليها وحمايتها عن طريق تغطيتها بطبقة سميكة من الشمع تجنبا لتأثير الرطوبة وغيرها من العوامل الجوية، كما أن الأوان المستخدمة فى التلوين عادة ما كانت تذاب فى صفار البيض أو الصمغ من رق الغزال[١٥٠] ومن الجدير بالذكر أن أسقف الجامع الكبير بصنعاء اشتملت على زخارف هندسية بالغة الدقة [١٥١] وبعد الانتهاء من عمل السقف الأصلى (سقف المصندقات) تترك مسافة من أعلاه تتراوح ما بين ٥٠ سم إلى ٦٠ سم حيث يعمل سقف آخر (عادى) وذلك لحماية السقف الأصلى المنقوش وعادة ما كانت تستخدم هذه الفراغات كخزانات لحفظ المصاحف القديمة التى تتلف لكثرة القراءة فيها، كما كان يوضع بها فى بعض المساجد الحصر والفرش وغيرها من المتعلقات الخاصة بالمسجد[١٥٢].

كما اعتبرت الصناعات الخشبية من الصناعات المهمة التى ازدهرت فى عدن كصناعة المراكب حيث دعت مهنة صيد السمك التى يمارسها معظم أهالى عدن[١٥٣] إلى الاهتمام بتلك الصناعات فاشتغل بعض أهالى عدن بعملية صنع المراكب[١٥٤] وذلك بجانب صناعة السفن وترميمها والتى كان يمارسها أهالى عدن أيضا أسفل باب الصناعة المجاور لميناء عدن[١٥٥] وساعدهم على ذلك وفرة الأخشاب مثل شجر النخيل بحضرموت[١٥٦] وشجر الكامى بسواحل عدن إلى جانب أشجار البيذان والعنباء والبابى، والعواسج[١٥٧]، واشتهرت صناعة السفن فى عدن. كما برع الصناع اليمنيين فى العديد من المصنوعات الخشبية مثل الأبواب والنوافذ والسقوف والمنابر والمقاسير والدكك وكراسى المصاحف والأسياج والأحجبة والمحاريب الخشبية وكراسى العشاء والصناديق والدواليب والمحاريث[١٥٨] والأثاث المنزلى كما كانت تصنع الرحال (الهوادج)

التى توضع على ظهر البعير المعد للركوب وكانت تغطى بالأقمشة المنقوشة، فضلا عن أدوات التدريب على القتال كالرماح والسهام والنبال والأقواس(١٥٩) وغير ذلك من المصنوعات الخشبية الأخرى. وكانت معظم المصنوعات الخشبية فى القرنين الأول والثانى الهجريين عليها زخارف هندسية متأثرة بالفرس مثل الأوراق الخماسية وأشكال الصنوبر وثمار الرمان والعناصر الكأسية والدوائر وأنصافها والمثلثات والمربعات والمستطيلات فضلا عن وضع الكتابات الكوفية وبعض العناصر الزخرفية من أشكال الحيوانات والطير(١٦٠). أما عن أدوات النجارين فى اليمن المستخدمة فى ذلك العصر فكان منها:

الكرزين: بالكسر وهى فأس عظيمة يقطع بها الشجر، والقدوم: وهو الفأس الصغيرة، والمنشار وهو ما يقطع به الخشب، والمحفرة: وهو آلة يحفر بها الخشب ومثلها المنقار، والمسحل: وهو مبرد الحديد، وهو الذى يسحل به الخشب أى ينحت والصغير من ذلك مبرد، والمثقب وهو آلة يثقب بها الخشب والكلبتان: وهى آلة يجذب بها النجار المسمار من الخشب ويأخذ بها الحداد الحديد المحمى، والعتلة: وهى آلة من حديد لها رأس فأس وتطلق أيضا على العصا الضخمة من الحديد ولها رأس مفلطح(١٦١) وغيرها من الأدوات الأخرى.

د. صناعة الفخار والخزف

صناعة الفخار: عرفت اليمن صناعة الفخار وكانوا يصنعون منه القلل لشربهم، وكانت تعرف أحيانا باسم الكعدة(١٦٢) ويحدثنا الرازى(١٦٣) عن القلل الصنعانية الموجودة فى أيامه والسابقة على عصره وعن صنعها وعذوبة مائها فيذكر أنها كانت مزدهرة وعندما لجأ صناعها إلى غش الخامات وتدليسها التى تصنع منها صنعتهم لم تعد تلقى نفس القبول لدى المستهلكين ولم يعد للماء المحفوظ بداخلها نفس عذوبته ورائحته. وربما ذلك مرده إلى ندرة المواد الأصيلة التى تدخل فى صناعة الفخار. وكذلك صنع من الفخار إلى جانب الأحجار(١٦٤) الأكواب والأطباق والقدور والدلاء لجلب الماء(١٦٥).

أما عن الخزف فقد كشفت التنقيبات الأثرية لمنطقة تهامة وحضر موت والمنطقة الساحلية والتى قامت بها بعض البعثات الأجنبية فى اليمن(١٦٦) عن وجود قطع من الأوانى الخزفية الإسلامية المستوردة وهى:

الخزف العراقى: أمكن العثور على بعض قطع من الخزف العراقى الذى يعود إلى العصر العباسى وخاصة الخزف ذو الزخارف المحزوزة أو البارزة المنفذة بطريقة القالب، فضلا عن بعض قطع من الخزف العباسى ذى البريق المعدنى.

أما عن الخزف اليمنى المحلى: فقد كان فى مدينة زبيد ومدينة حيس التى اشتهرت بإنتاج نوع من الفناجين الصغيرة الفريدة فى شكلها بين أنواع الخزف الإسلامى[١٦٧].

هـ: صناعة البناء

ازدهرت فى اليمن صناعة البناء حيث اهتم أهلها ببناء المبانى الجميلة وكانت هذه المبانى تتخذ من الطوب اللبن أو الحجارة أو الأجر، أو الأخشاب والقضاض فكانت المبانى المقامة من الطوب اللبن أو الطين منتشرة لسهولة الحصول عليه[١٦٨] وتشكيله فكان يصنع منه وحدات البناء ويجفف بالشمس، ويسمى فى هذه الحالة بيتا أو طوبا طينيا ويستخدم بعد ذلك فى بناء الحوائط على شكل حزام يشكل تعرجا عند الأركان، ويسمى عندهم فى صنعاء بالزابور أو يستخدم فى تغطية الأسقف الخشبية فى الغرف والعناصر الخشبية فى الجدران.

وكان هناك أيضا المبانى التى تتخذ من الحجارة كالقصور ومنها قصر غمدان والحصون والمنازل وكانت الحجارة متوفرة بصنعاء وكان من أشهرها حجر الطف وتمتاز صخور الطف بتعدد ألوانها الجميلة وصلابتها المتوسطة وهذا ما جعلها أفضل الصخور المستخدمة فى البناء[١٦٩]، كما وجدت الصخور الجرانيتية وأحجار البلق فى نواحى صنعاء[١٧٠]، وليس أدل على كثرة الصخور فى منطقة صنعاء أكثر مما أكده أحد الباحثين أنه قام بأخذ سبع عشرة عينة صخرية جميعها من حوض صنعاء[١٧١] وأورد أسماءها المحلية والعلمية[١٧٢] ويبدو أن المقصود بكلمة حوض صنعاء منطقة أرحب، حيث ذكر الباحثون أن أرحب الواقعة شمال صنعاء بها حرة لها لابة استخرج الناس منها حجارة سود لبناء البيوت[١٧٣] وهذا يدل على وجود منطقة بركانية قرب صنعاء قد خمد بركانها منذ زمن بعيد فأقبل الناس على جلب تلك الصخور من هذه المنطقة. وكان يتخذ من الأجر المبانى أيضا وكان الآجر يتم استخدامه إلى جانب اللبن فى البناء[١٧٤] كما استخدمت الأخشاب والقضاض وكان يشبه الأسمنت ويستعمل لعدم تسرب المياه من الأسقف[١٧٥]، كما انتشرت صناعة البناء فى زبيد، حيث اهتم أهلها ببناء المبانى العالية الذوق والتى استخدم فى بنائها الآجر إلى جانب اللبن[١٧٦] كما انتشرت صناعة الآجر بلخبة ومنها كان ينقل لعدن[١٧٧].

كما اعتمد الفنان اليمنى على مادة الجص اعتمادا كبيرا فى زخرفة مبانيه، ويتجلى إبداعه فى استخدام هذه المادة من خلال تلك الثروة الضخمة من الزخارف الجصية الكتابية والنباتية والهندسية التى تزخر بها المساجد اليمنية المختلفة والتى تدل على فهمه لأسرار هذه المادة وتطويعها للاستخدام الزخرفى بشكل قوى.

ويستخدم الجص عادة فى كسوة جدران العمائر من الداخل أو الخارج لتغطية قوالب الطوب أو أحجار البناء وإكسابها شكلا منسجما. فضلا عن استخدامه فى كسوة مساحات معينة من الجدران أو بطون القباب والمحاريب ونقشها بأدق أنواع الزخارف، ويذكر الهمدانى عند حديثه عن «شبام سخيم»: «ومن شبام هذه تحمل القصة إلى صنعاء»(١٧٨).

وللجص اليمنى مزية التماسك والالتصاق النادرة، فهو لايطبع الألبسة ببياضه إذا اتكأ المرء عليه، وإذا ثبت فيه مسمار فلا يحدث شقوقا أو تفتتا، فإذا جصصت به الجدران أصبحت كأنها الفضة البيضاء الناصعة(١٧٩) وتعود شدة تماسك هذا الجص إلى الخيرة التى تخلط معه وما تحويه من مادة الغرة(١٨٠) وتطلق لفظة الجصاص على الذى يتخذ الجص، وكذلك الذى يختص بقلع الحجارة وعمل الجص منها، فقد جرت العادة أن تكون اتاتين الجصاصين خارج المدن(١٨١). وفى بعض الأحيان كان الصانع يجمع بين حرفة البناء والجصاصة(١٨٢) ومن خلال توقيعات الصناع الذين اشتغلوا بهذه الحرفة فى اليمن نلاحظ استخدام عبارة «وكان التجصيص» وعبارة «عمل المقصص»، ويرجع ذلك إلى اختلاف لهجة بعض أهل اليمن، مثل لهجة أهل صنعاء الذين لايعرفون الجيم فيستبدلونها بالقاف(١٨٣). أما الأدوات والآلات التى يستخدمها المجصصون فبدائية وبسيطة لاتتعدى السكين للحفر والفرجار (بيكار) والمسطرة للرسم إضافة إلى (برورة) و(مالح) للتسطيح.

وقد اعتمد الفنان اليمنى فى عمل زخارف هذه النوافذ والعقود على الزخارف النباتية والهندسية والكتابية، وإن لعبت الزخارف والتكوينات النباتية الدور الأكبر فى الزخرفة، ولدى فنانى العقود اليمنية الحاليين اصطلاحات عديدة تدل على أنواع الزخارف والتكوينات النباتية الدور الأكبر فى الزخرفة، ولدى فنانى العقود اليمنية الحاليين اصطلاحات عديدة تدل على أنواع الزخارف المنجزة فوق عقودهم، منها الزنجيرى - نصف زنجيرى - عقيق - نصف عيقى - جرايد - خواتم - زهرات - شجرى - حاشية رأس ونصف وغيرها من الأسماء، وتدل هذه الأسماء على نوعية التكوين الزخرفى وألوانه فى معظم الأحيان(١٨٤). كما أقبل الفنان اليمنى على استخدام بعض المواد الأخرى فى الزخرفة مثل الحجر والرخام وإن تم ذلك بشكل محدود وفى فترات ومناطق قليلة. استخدمت ألواح رقيقة من المرمر يبلغ سمكها (١سم) فى تغطية النوافذ الصغيرة ويرجع هذا الاستخدام إلى أصول يمنية قديمة كما تشير بعض المصادر إلى أن هناك بيوت عالية يرجع تاريخها إلى قرون عديدة وهى ذات نوافذ صغيرة يغطيها لوح واحد أو لوحان رقيقان من الرخام

الشفاف المعروف فى اليمن باسم «القمرية» يسمح بدخول النور من خلاله دون السماح بالرؤية الواضحة، ويؤدى الخامة لمعان الشمس إلى القصة فتقلبها بجوهرها وبريقها»[١٨٥].

لعل سبب تسمية هذه الألواح بالقمرية بياضها الناصع الذى تتميز به[١٨٦] ولأن النور الذى ينفذ منها يكون أبيضا هادئا أشبه بضوء القمر، كما أن ألواح بعض النوافذ دائرية أشبه ما يكون شكلها بالقمر فى ليلة التمام[١٨٧].

وتجلب القمرية كأحجار كبيرة إلى صنعاء من مكان يقال له شبام الغراس حيث يستخرج من مقالع عظيمة من باطن الأرض على بعد ثمانية أمتار[١٨٨] ثم يقطع إلى ألواح رقيقة حسب الحاجة[١٨٩].

ولعل أقدم استخدام للإضاءة ربما وجدناها فى «قصر غمدان» إذ كان فى أعلاه غرفة لها لهج، وهى الكوة، كل كوة منها بناء رخام.. وسقف الغرفة رخامة واحدة صفيحة[١٩٠]

و - الزجاج

وجد الأثريون بعض القوارير الزجاجية محفوظة بمتحف صنعاء وأكدوا أنها تشبه من حيث شكلها العام القوارير المصرية التى صنعت خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وكانت خالية من أى كتابات وزخارف مما يعنى وجود صناعة للزجاج فى القرون الثلاثة الأولى[١٩١].

وقد عثر الأثريون فى بعض المواقع الأثرية اليمنية[١٩٢] على قطع من الزجاج معظمها مكسور تشكل بعض أجزاء من أوانى وقنينات وكئوس، ويتميز بعضها برقة جدرانه الشديد والبعض الآخر بسمك جدرانه كما عثر فى سهل عدن على كميات من الزجاج على السطح تشتمل على قطع من الزجاج الأخضر اللون، وبعض المواد المتكلسة أو شبه المصهورة يصنع منها الزجاج (الفريتة) إلى جانب بعض الأفران مما يبرهن على وجود صناعة محلية للزجاج فى تلك المنطقة، ويمتاز الزجاج الذى عثر عليه فى هذه المنطقة بخطوطه الضيقة، أما من حيث الشكل فإن أكثر القطع التى عثروا عليها تلك الأساور التى يبدو أن مصانع الزجاج فى عدن قد تخصصت فى إنتاجها[١٩٣] .

ز - الصناعات الغذائية:

قامت فى اليمن عدة صناعات تعتمد على ما تنتجه الأرض الزراعية فكان هناك صناعة طحن الحبوب المختلفة كالبر والحنطة والشعير والعلس[١٩٤] وعادة ما تتم هذه الصناعة عبر الطواحين التى تقوم بطحن هذه الحبوب لاستخراج

الدقيق من أجل استخدامه فى الخبز والأطعمة المختلفة. وتأرجحت هذه الصناعة بين الازدهار والاضمحلال وذلك تبعا للاستقرار السياسى فى اليمن[١٩٥].

كما انتشرت فى اليمن صناعة معقدات الفاكهة (المربى) فكان لأهل اليمن افتنان من صناعة معقدات الفاكهة من اترج وجزر، وخوخ ونحوها مما إذا شرع الجاهل فى أكله قضم بعض أنامله، كما كان لهم الشهد الحضورى الذى كان من شهرته أنه يهدى إلى ولاة مكة والخلفاء فى العراق وسائر البلدان[١٩٦] وكان يعمل بأن يوضع فى الشمس ويصير فى عقود قصب اليراع وأقيمت تلك القصبة أياما فى بيت بارد حتى يعود إلى جموده، ثم ختمت أفواه القصب بالقصة، وحمل فإذا أراد تقديمه على الموائد ضرب بالقصبة على الأرض فانفلقت عن قصبة عسل قائمة ثم يقطع بالسكين ثم يأكل[١٩٧]. ويصدر هذا النوع إلى العراق ومكة وسائر البلدان لأنه حلو المذاق[١٩٨] . وقد انتشرت تلك الصناعة فى أماكن عديدة فى اليمن جنبا إلى جنب مع تعبئة العسل - نتيجة لكثرة زراعتهم للزهور - الذى انتشرت مناحله فى أرجاء اليمن حتى أطلق على اليمن بلاد العسل[١٩٩].

ح - صناعة عصر الزيوت

كانت هناك أيضا صناعة عصر الزيوت: وقامت هذه الصناعة فى اليمن على استخراج الزيوت من المحاصيل الزراعية وأهمها السمسم[٢٠٠] لذا انتشرت فى معظم أرجاء اليمن، وهذه الصناعة تحتاج إلى خبرة حيث إن طريقة عصر زيت السمسم كانت تتم عبر صهاريج على الأرض يبنى حولها، وكان يستخدم لعملية العصر حجر كبير له يد خشبية طويلة يربط بها حبل ثم يتم ربط الطرف بسرج مشدود على دابة والتى غالبا ما تكون جملا معصوب العينين بعصابة سوداء[٢٠١]، وبطبيعة الحال تتأثر الصناعة بطبيعة الأحداث السياسية فى اليمن[٢٠٢].

ط - صناعة العطور

ازدهرت فى اليمن صناعة العطور من النباتات التى تنمو فى اليمن وقد اشتهرت بها صنعاء، التى عرفت صناعة تركيب العطور شأنها فى ذلك شأن بعض المدن اليمنية الأخرى، وساعدها على ذلك ازدهار زراعة الورود والياسمين[٢٠٣] والرياحين[٢٠٤] فيها بالإضافة إلى بعض النباتات الأخرى التى حصل أهل صنعاء منها على زيوتها واستخدموها فى دهان الشعر والجسم[٢٠٥] كما عرفت زبيد صناعة تركيب العطور التى توفرت لها المواد الخام حيث وجود زراعات واسعة من الورد والياسمين والرياحين أيضا، وخاصة ورد الكاذى، فلم يكن يوجد أطيب منه رائحة[٢٠٦]. ومن المرجح أن هذه الصناعة كانت رائجة بسبب كثرة العنبر فى سواحل عدن[٢٠٧] التى

اشتهرت بصناعة أجود أنواع العطور منذ عهد ما قبل الإسلام، وظلت محتفظة بعد الإسلام بهذه الشهرة[٢٠٨].

وساعد على ازدهار صناعة العطور تشجيع ولاة عدن لها، لما تدره على الخزانة العدنية من أرباح كبيرة[٢٠٩] وتوفر المادة الخام اللازمة لتلك الصناعة مثل العنبر[٢١٠] الذى يعتبر المادة الأساسية لصناعة العطور[٢١١] علاوة على مهارة أبناء عدن فى تلك الصناعة، وأصدق مثال على ذلك ما ذكره التوحيدى أنه لم يكن فى الأرض طيبا ولاحذق صناعة للطيب من عدن[٢١٢] ولما كانت العطور العدنية تتميز بالجودة العالية فقد خصص ولاة عدن أسواق خاصة لبيع العطور.

ى - الصناعات الجلدية

دبغ الجلود:

قامت الصناعات الجلدية فى اليمن قبل الإسلام وتحديدا منذ مجيء الفرس الذين قاموا ببناء مدابغ الجلود والأدم، وهو الجلد الأحمر المدبوغ[٢١٣] واستمر حكام صنعاء يولون صناعة دبغ الجلود اهتمامهم، واستمر ذلك الاهتمام فى العصر الإسلامى حتى عم أرجاء اليمن كلها مما دفع ابن الفقيه إلى القول عن أهل اليمن إنهم قوم ليس فيهم إلا سائس قرد أو دابغ جلد أو ناسج برد[٢١٤]، وقد ذكرت المصادر أن دباغة الجلود فى صنعاء احتلت المكانة الثانية بعد صناعة النسيج وقد أحصيت معاملها فى سنة (٣٩١هـ/ ١٠٠٠ م - ١٠٠١م) فبلغ عدد مطاحن القرض الذى يدبغ به الجلود ثلاثة وثلاثون مصنعا[٢١٥] تعنى بتطهير الجلود وتنقيتها واستخدامها فى الأغراض المختلفة. وقد ساعد على ازدهار صناعة دبغ الجلود ملائمة مناخ صنعاء لهذه الصناعة، وتوفر الحيوانات التى تؤخذ منها الجلود كالإبل والبقر والغنم[٢١٦]، ويبدو أن تصدير اليمن للجلود المدبوغة استمر حتى القرن الخامس الهجرى حيث يذكر ناصر خسرو[٢١٧] أن الجلود كانت تجلب من اليمن إلى اليمامة والإحساء، وقد عرفت عدن صناعة دباغة الجلود منذ القدم ولكنها لم تلق اهتماما يذكر إلا منذ بداية القرن الثالث فى عهد بنى زياد الذين اهتموا بصناعة الأنواع الجيدة من الجلود، واقتنوا فى قصورهم قطعا نادرة منه[٢١٨] .

وعلى الرغم من عدم توفر بعض مقومات هذه الصناعة مثل الجو الملائم[٢١٩] إلا أن تلك الصناعة قامت بعدن بسبب ازدهار النشاط التجارى بين عدن وغيرها إلى جانب وجود الأيدى العاملة المدربة مثل الفرس والزنوج الذين برعوا فى صناعة الجلود[٢٢٠]. ولما كانت الدولة تتقاضى رسما ثابتا على معامل دباغة الجلود[٢٢١] فقد استمر اهتمام ولاة عدن بتلك الصناعة وانتشرت معامل الجلود فى عدن[٢٢٢] التى اعتمدت على الأدم[٢٢٣] المستورد من

مكة ونجران وجرش[٢٢٤] وفارس أيضا[٢٢٥] ثم تقوم بدباغتها وتنظيفها ثم تعيد تصديرها مرة أخرى[٢٢٦].

وقد استخدم الدباغون فى اليمن أدوات عديدة منها المحط ، الذى يستخدم لصقل الأدم ، وكان مصنوعا من الخشب وأحيانا من الحديد ، والمجلاة تستخدم لإزالة ما علق بالجلد من قاذورات أو شوائب والميحنة ، وتستخدم فى دق الأدم وهى من الحجر أو غيره[٢٢٧] وكانت عملية الدباغة تتم فى بداية الأمر بماء الجير[٢٢٨]. ونتج عن دبغ الجلود قيام صناعات جلدية متعددة ومتنوعة كانت من أهمها الانطاع ، وهى عبارة عن قطعة كبيرة من الجلد المدبوغ تستخدم كمفرش وقد اشتهرت مدينة صنعاء بإنتاجها[٢٢٩]. ومنها أيضا نوع عرف باسم الصمت الذى لاينفذ منه الماء لمتانة صنعه[٢٣٠].

ويروى الرازى[٢٣١] أن طاووس كان يستخدم الأنطاع للجلوس عليها ، كما اتخذ الفرش الثمين من جلود النمور[٢٣٢]. وازدهرت بصنعاء أيضا صناعة السياط التى كان يؤخذ الجلد المطلوب لها من جلود قفا الجمال[٢٣٣]، وكان هناك أيضا صناعة القرب التى اعتمد أهل صنعاء عليها فى سقايتهم، وهى عبارة عن وعاء كبير من الجلد لحفظ الماء وتصنع من جلود الماعز لكونها أسمك وأقوى من جلود الغنم[٢٣٤]. وكانت هناك أيضا صناعة النعال فكان منها النعال المشعرة[٢٣٥]. وقد تنوعت الصناعات الجلدية على الآدم المدبوغ فى معامل عدن ما بين الأحذية والسروج والدروع والأحزمة والدلاء[٢٣٦] كما استخدمت الجلود كقفازات وجوارب للمسافرين فى الصحارى كوقاء من لدغات الأفاعى والحشرات الجارحة[٢٣٧] علاوة على تجليد الكتب حيث كان الجلد هو المادة الأساسية لتجليد الكتب[٢٣٨] لقد سبقت صناعة تجليد الكتب صناعة ممهدة لها وهى صناعة الخرازة وهى خياطة الجلود وتفصيلها[٢٣٩]، ولقد تطورت صناعة التجليد فى اليمن على أيدى الفرس والزنوج وغيرهم من الذين وجهوا العناية بالتجليد وزخرفة جلود الحيوانات[٢٤٠] واعتبر عملهم متمما لعمل الخطاط ، فوقع على كاهلهم حفظ أوراق الكتاب من التلف[٢٤١] وكانوا يستخدمون النشا فى صناعة تجليد الكتب[٢٤٢] كما شارك بعض سكان عدن فى صناعة التجليد[٢٤٣] بجانب بعض العناصر الأجنبية والعربية.

ومن ذلك الرحالة المقدسى، الذى أقام بعدن مدة لتحصيل العلوم واشتغل بتجليد الكتب على طريقة أهل الشام ، وأعجب أهل اليمن هذا التجليد الحسن وكانوا يبذلون فيه أجرا كبيرا فكانوا يعطون المقدسى الكتب ليجلدها مقابل دينارين عن تجليد المصحف الواحد[٢٤٤]. وقد عرف صناع اليمن طريقة الضغط على الجلد بآلة خاصة وتعرف هذه الطريقة عند أهل الصنعة بطريقة

الدق، ويترتب على استعمالها أن يبقى سطح الجلد العلوى حافظا للزنة الأصلى على حين يكتسب السطح المضغوط لونا غامقا من أثر الضغط عليه. كما عرفوا أيضا اللسان(٢٤٥)، الذى يحمى الأطراف اليسرى لصفحات المصحف.

ك - صناعات صغيرة أخرى

قامت إلى جانب تلك الصناعات فى اليمن صناعات صغيرة منها:

- الشموع:

ومن الصناعات المهمة فى عدن كانت صناعة الشموع التى اشتهرت بها منذ القدم(٢٤٦) وزاد الاهتمام بتلك الصناعة فى العهد الإسلامى لتوفير كميات كبيرة منها لسد حاجة البلاد خاصة فى الأعياد والمناسبات الدينية كشهر رمضان(٢٤٧). وقد ساعد على تقدم تلك الصناعة بعدن وضواحيها وفرة الأسماك، حيث كان دهن السمك وخاصة الحيتان من المواد الخام الأساسية التى يعتمد عليها الشماعيون فى صناعة الشموع فى عدن(٢٤٨) ويشير المقدسى إلى ذلك فيقول: «إن أكثر ما يقودون مصابيحهم بالصبغة وهو دهن السمك ونورتهم سوداء»(٢٤٩)، وتعتبر مدينة عدن وضواحيها مثل الممباه(٢٥٠) من أهم مراكز إنتاج الشموع باليمن بسبب جوها الرطب الذى يساعد على سرعة تماسك المواد المصنع منها الشمع(٢٥٢).

وقد اختلفت أحجام الشموع المصنعة فى عدن من الصغيرة التى يحملها الصبية فى شهر رمضان إلى الكبيرة التى تستعمل فى المنازل والقصور كقصر الإمارة(٢٥٢).

■ الحبال:

ومن المرجح أن صناعة الحبال فى منطقة تهامة عامة كانت ذات اهتمام خاص وذلك لوفرة النخيل بها حيث كانت تصنع من ليف النخيل(٢٥٣).

ومن الصناعات الأخرى التى وجدت باليمن فى زبيد صناعة السموم وكان لها صناع مهرة ومتخصصون، ويبدو أنهم كانوا بعيدين عن الأنظار، وكان يصنع السم فى مخلاف بكيل(٢٥٤).

كما كان لصناعة الخمور مجالها الواسع واشتهرت اليمن بصناعة الخمور لكثرة أعنابها. وخاصة فى اثافت وتوجد بها معاصر لها(٢٥٥)، ويبدو أن هذه الخمور لم تكن مُسكرة بل ربما كانت من الجعة نظرا لتحريم الإسلام الخمر. وهكذا اضحت اليمن معقل من أهم معاقل الصناعة فى شبه الجزيرة العربية وكان للصناعة فيها مراكز متعددة إبان تلك الفترة.

الهوامش

(١) نزار عبداللطيف الحديثى: أهل اليمن فى صدر الإسلام، دورهم فى الأمصار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت د.ت ص ١٧؛ محمد بن أحمد الحجرى: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق وتصحيح ومراجعة: إسماعيل بن على الأكوع: دار الحكمة العربية، صنعاء، ط٢ سنة (١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م) ج٤، ص٧٨٦.

(٢) الحجاز: بالكسر وآخره زاى، وسمى بذلك لأنه حجز بين نجد وتهامة الهمدانى: مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربى، بيروت ط١ سنة (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م) ص ٢٩؛ ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت دت، ج٢، ص٢١٨ - ٢١٩.

(٣) الهمدانى: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن على الأكوع، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، (١٩٨٩م)، ص ٩١؛ ياقوت: المصدر نفسه، ج٥ ص ٤٤٨.

(٤) الهمدانى، المصدر نفسه، ص٩٠؛ محمد بن أحمد الحجرى: مجموع بلدان اليمن وقبائلها ج٤، ص٧٨٦.

(٥) الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة سنة (١٤١٤ هـ / ١٩٩٤م) ج١، ص٩.

(٦) الإدريسى: المصدر نفسه، نفس الجزء نفس الصفحة.

(٧) الهمدانى: صفة جزيرة العرب، ص ٩٠؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٤٤٧.

(٨) لقوله (ص): (ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده) المتقى الهندى: كنز العمال، تحقيق بكر حيانى: مؤسسة الرسالة بيروت (١٤١٣ هـ /١٩٩٣م) ج٤ ص ٨ ، حديث ٩٢٢٣.

(٩) الواسعى: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر والتوزيع ط ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص١٠٥؛ حسين على الويسى: اليمن الكبرى، مطبعة النهضة العربية، القاهرة (١٩٦٢م)، ص ١٣٩، ١٤٠، زياد الديرى: دراسة وتصنيف أحجار البناء فى الجمهورية اليمنية، مجلة دراسات يمنية، عدد ٤٣ رجب - ذو الحجة (١٤١١هـ/ يناير - يونيو - ١٩٩١م) ص ٣٠٨.

(١٠) عبدالله محمد السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، مجلة الدارة العدد الثالث السنة التاسعة عشرة ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الآخرة (١٤١٤هـ)، ص١٣٤ - ١٣٥.

(١١) الهمدانى: صفة جزيرة العرب، ص٢٢٧.

(١٢) نسبة إلى التراخم من حمير والتى نسبت إليهم لكونهم هم الذين ابتدعوها، الهمدانى: الإكليل، حققه وعلق عليه محمد بن على الأكوع بن الحسين الحوالى، الطبعة الثالثة (١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م)، بيروت لبنان ج٢ ص١٩١؛ محمد أمين صالح، تاريخ اليمن الإسلامى فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٢٠٧.

(١٣) ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٣٣٥؛ إسماعيل الأكوع، البلدان اليمانية عند ياقوت الحموى، بيروت، ط٢، (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م). ص١٥٦.

(١٤) الهمدانى: الجوهرتين العقيقتين من الصفراء والبيضاء (الذهب، الفضة) إعداد وتحقيق محمد محمد الشعيبى، الطبعة الأولى مطبعة دار الكتاب بدمشق، ١٩٨٢م، ص٤٦؛ عبدالله السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص١٣٥.

(١٥) عبدالله محمد السيف، المرجع نفسه ص١٣٦؛ ربيع حامد خليفة، الفنون الزخرفية فى اليمن

فى العصر الإسلامى، الدار المصرية اللبنانية ط١ ١٩٩٤م، ص١٦٨.

(١٦) مصطفى شيحه: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى الجمهورية اليمنية، ط١، القاهرة، (١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م). ص١١٣، طارق أبوالوفا، «صنعاء منذ فجر الإسلام حتى سقوط دولة بنى يعفر ٣٩٣ هـ / ١٠٠٢م.» رسالة دكتوراة غير منشورة، آداب الزقازيق، فرع بنها عام ٢٠٠٤ م، ص ١٧٨، محمد إسماعيل، «مدينة زبيد ٢٠٠ - ٥٥٤هـ/ ٨١٥ - ١١٥٩م»، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية آداب جامعة جنوب الوادى - قنا - ٢٠٠٥م، ص٨٨.

(١٧) ابن المجاور: تاريخ المستبصر القسم الثانى، القاهرة د.ت،ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

(١٨) مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى الجمهورية العربية اليمنية، ص ١١٢.

(١٩) الثعالبى: لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الأبيارى وحسن كامل الصيرفى، دار إحياء الكتب العربية (١٣٧٩ هـ / ١٩٣٢م) ص٨.

(٢٠) ابن إسحاق: المبتدأ والمبعث والمغازى، ص ٢٩ - ٣١؛ ابن كثير: السيرة النبوية، ضبطه وصححه أحمد عبدالشاقى، بيروت، دت، ج ١، ص١٠ - ١١.

(٢١) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، المجلد الثانى ،دار صادر بيروت ص ٨٨ - ٨٩، زنوبة نادى مرسى: «التنظيمات الاقتصادية والحياة الاجتماعية فى اليمن منذ صدر الإسلام حتى آخر القرن الثالث الهجرى»، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٩٢ م ص ٨٠.

(٢٢) وسحول أحد مخاليف اليمن وهو حقل يبدأ من سفوح مدينة إب الشمالية ويمتد شمالا إلى رحاب، وهو من أخصب حقول اليمن وأكثرها خيرا وعطاءا. إسماعيل بن على الأكوع: البلدان اليمانية عند ياقوت الحموى ص١٤٥.

(٢٣) البخارى: الصحيح ج١، ص ١٦٩؛ مسلم : الصحيح ج١، ص ٣٠٦ صفى الرحمن المبارك فورى: الرحيق المختوم، ص ٥٥٧.

(٢٤) الطراز: هو لفظ مشتق من الكلمة الفارسية (ترازيدن) بمعنى التطريز والنسج وأصبحت تطلق على المنسوجات التى تشتمل على أشرطة من الكتابة تتضمن اسم الخليفة الذى نسجت فى عهده والمكان والتاريخ، ثم أصبحت تطلق على مناسج الطراز وعلى المشرف عليها، ربيع حامد: مناسج الطراز الخاص بمدينة صنعاء، مجلة الإكليل، عدد ٢، السنة السادسة، ١٩٨٨م، ص٥٢.

(٢٥) وفية عزى، نماذج من الفنون الإسلامية فى اليمن، مجلة المجلة، العدد ٧١ ديسمبر ١٩٦٢م، ص٢٩؛ ربيع حامد خليفة، الفنون الزخرفية اليمنية ص١٦١.

(٢٦) الجندى: السلوك فى طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن على الأكوع وزارة الإعلام والثقافة اليمنية ، ج١، ص ٢٤٥.

(٢٧) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، ص ١٦٣.

(٢٨) الثعالبى: لطائف المعارف، ص ١٩٩، وقد تعددت أنواع البرود اليمنية وأسمائها فهى أكثر من عشرة أنواع أنظر: ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، ص١٥٥، ١٥٦.

(٢٩) ابن رستة: الإعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٧، ج ٧ ص١١٢، نزار الحديثى: أهل اليمن فى صدر الإسلام، ص ٤٢ - ٤٣.

(٥) نزار الحديثى: المرجع نفسه: ص ٥٠ - ٥٥. زنوبة نادى مرسى: التنظيمات الاقتصادية والحياة الاجتماعية فى اليمن منذ صدر الإسلام حتى آخر القرن الثالث الهجرى، ص٦٧.

(٣١) مصطفى شيحه: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى اليمن ص،١١٣.

(٣٢) ربيع خليفة: مناسج الطراز الخاص. مدينة صنعاء، ص٥١ الفنون الزخرفية فى اليمن،

ص١٧٢.

(٣٣) ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ج٧، ص١١٢.

(٣٤) عبدالله السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص ١٣٨، ١٣٩.

(٣٥) البرود: (جمع بردة وهو كساء مربع أسود فيه صغر تلبسه الأعراب) ابن منظور: لسان العرب المحيط، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١ م، ج١٠، ص٢٥٠.

(٣٦) (مفوفة مؤنث مفوف وهو نوع من برود اليمن من القطن والفوفة، وهى قشرة النواة دون لحم البلح والبرود المفوفة عبارة عن ثياب اليمن) ابن منظور: لسان العرب، ج٥ ص ٣٤٨٦؛ صالح أحمد العلى، ألوان الملابس العربية فى العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمى العراقى، المجلد السادس والعشرون ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥م، ص١٠٤.

(٣٧) صالح أحمد العلى: المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(٣٨) محمد عبدالمنعم الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ط١ سنة ١٩٨٤م ص٣٦٠، عبدالله محمد السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص١٤٠.

(٣٩) عبدالله محمد السيف: المرجع نفسه، ص١٤٠.

(٤٠) الحبرة: (ضرب من برود اليمن الجديد منمق ناعم، ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص٧٤٩

(٤١) عبدالله محمد السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص١٣٩.

(٤٢) حسن إبراهيم حسن: اليمن البلاد السعيدة، دار المعارف القاهرة، د.ت، ص٤٥

(٤٣) طارق أبوالوفا: صنعاء منذ فجر الإسلام ص٢٧٤، ٢٧٥.

(٤٤) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص٨٩.

(٤٥) ربيع خليفة: مناسج الطراز الخاص، مدينة صنعاء، ص٥١؛ الفنون الزخرفية فى اليمن، ص١٧١

(٤٦) صالح أحمد العلى: الأنسجة فى القرنين الأول والثانى، مجلة الأبحاث، دار الكتاب، بيروت، السنة الرابعة عشر ١٩٦١م، ج٤، ص٥٦٤ – ٥٦٧؛ مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى اليمن، ص١١٢.

(٤٧) ربيع حامد خليفة: مناسج الطراز الخاص، مدينة صنعاء، ص٥١، الفنون الزخرفية فى اليمن ص ١٧١.

(٤٨) عبدالله محمد السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص٩٥ – ٩٦.

(٤٩) الفوط: جمع فوطة وهى ثوب غليظ من صوف فاخر وهو غليظ وهو مخطط ابن منظور: لسان العرب، جـ٥، ص ٣٤٨٦.

(٥٠) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، ص١٧٢.

(٥١) ناصر خسرو: سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة العامة للكتاب، ص١٩٩٣، ص١٥١

(٥٢) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، ص١٧٢.

(٥٣) مادة خمر وقال فيها: الخمر جمع خمار للمرأة وهو النصيف وقيل: الخمار ما تغطى به المرأة رأسها وجمعه أخمرة وخمر – ابن منظور: لسان العرب، م٤، ص١٢٦١.

(٥٤) ربيع حامد خليفة: مناسج الطراز: ص٥١؛ الفنون الزخرفية، ص١٧٢.

(٥٥) محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامى، ص٢٢٦، نقلا عن العباسى، سيرة الهادى إلى الحق، ص١٢٦، وص ٣٨٦.

(٥٦) الثعالبى: ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب، القاهرة (١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨م) ص٥٣٤؛ زنوبة

نادى مرسى: التنظيمات الاقتصادية والحياة الاجتماعية فى اليمن منذ صدر الإسلام حتى آخر القرن الثالث الهجرى، ص٨٥.

(٥٧) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص١٥٥.

(٥٨) رأى فى المنام أنه يكسو البيت الحرام، فكساها الخصف، وهو نسيج من خوص النخيل، ثم رأى مرة أخرى أنه يكسوها أحسن من ذلك فكساها المعافر، ثم رأى أنه يكسوها أحسن من ذلك فكساها الملاء والوصائل، ابن هشام: سيرة النبى (ص)، القاهرة، د.ت. ج١، ص٢٢؛ ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، ص١٥٤ وعن المعافر انظر نشوان الحميرى: منتخبات فى تاريخ اليمن، من كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، باعتناء عظيم الدين أحمد، دار الفكر، دمشق ط٢ (١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م) ص٧٣.

(٥٩) صالح أحمد العلى: ألوان الملابس العربية فى العهود الإسلامية الأولى، ص٩٣؛ عبدالله محمد السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص١٤٠.

(٦٠) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، ص١٦٨.

(٦١) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٣٨، ص٢٣١؛ الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ج١، ص٥٣

(٦٢) عصام عبدالرؤوف: اليمن فى ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول، القاهرة ١٩٨٢، ص٢٤٧؛ ربيع حامد خليفة، مناسج الطراز الخاص مدينة صنعاء ص٤٩، الفنون الزخرفية اليمنية، ص١٦٩.

(٦٣) ابن المجاور: تاريخ المستبصر ص١٤٠.

(٦٤) عصام الدين عبدالرءوف: اليمن فى ظل الإسلام ص٢٤٥.

(٦٥) الهمدانى: الجوهرتين، ص٥٦؛ طارق أبوالوفا محمد: صنعاء منذ فجر الإسلام حتى سقوط دولة بنى يعفر ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م، ص١٩٣.

(٦٦) «الممباه» هى قرية تبعد عن عدن بمقدار ربع فرسخ، بامخرمة: ثغر عدن، ج١، ص٨١ .

(٦٧) بامخرمة: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(٦٨) عصام عبدالمنعم: «التطور السياسى ومظاهر الحضارة فى عدن منذ بداية القرن الثالث حتى نهاية حكم بنى طاهر (٢٠٤ – ٩٢٣هـ/٨١٩ – ١٥١٧م» رسالة دكتوراة غير منشورة آداب بنها، ١٩٩٩ م، ص١١٤.

(٦٩) Croken, Barbara Eileen: Zabid Under The Rasulids Of Yemen, Ph. D Harvard University, 1990 pp 41 - 43

(٧٠) ضيف الله يحيى الزهرانى: دار السكة نشأتها وأعمالها وإدارتها. مجلة الدارة، العدد ٢ السنة الثانية (١٣٩٧هـ) ص١٤

(٧١) الهمدانى: كتاب الجوهرتين العتيقتين، ص٢٥ . Bates,M, Yemen And Its Conquest by The Ayyubids, Chicago 1975p.280.

(٧٢) عبدالرحمن فهمى: موسوعة النقود العربية وعلم النميات وفجر السكة العربية، القاهرة ١٩٦٥م، ص٢٠٨؛ ضيف الله يحيى الزهرانى: دار السكة، نشأتها وأعمالها وإدارتها، ص٢٢.

(٧٣) أحمد قائد بركات: الموسوعة اليمنية، ج٢، ص١٦٤، مادة النقد.

(٧٤) شمر يرعش: هو ابن الملك ياسر يهنعم وقد حكم شمر اليمن منذ العقد السادس من القرن الثالث الميلادى إلى أوائل القرن الرابع الميلادى وكان له نفوذ بداخل اليمن والجزيرة العربية بأسرها وكانت له صلات تجارية مع الدول الأجنبية آنذاك، مظهر على الإريانى: الموسوعة اليمنية، ج١، ص٥٥٤، مادة شمريرعش.

(٧٥) أحمد قائد بركات: الموسوعة اليمنية، ج٢، ص٩٦٦، مادة النقد.

(٧٦) الدرهم: عملة فضية وهى عملة أعجمية مأخوذة عن الكلمة اليونانية الدراخمة ويقابلها بالفارسية، وراخم وديدام، حسان على حلاق: تعريب النقود والدواوين فى العصر الأموى، القاهرة ١٩٧٨م، ص١٥

(٧٧) طاهر راغب حسين: النقود الإسلامية الأولى، القاهرة ١٩٨٤م، ص١٦

(٧٨) فجعل فى كل خمس أوراق من الفضة الخالصة التى لم تغش خمسا وهى (النواة) وفرض فى كل عشرين دينارا ونصف دينار، المقريزى: النقود الإسلامية القديمة، القاهرة ١٩٨٧م ص ٣٥، ربيع حامد خليفة: طراز المسكوكات اليمنية فى العصرين الأموى والعباسى، مجلة التاريخ والمستقبل كلية آداب جامعة المنيا، المجلد الثانى العدد الثانى يوليو (١٩٩٢) ص ٣٧.

(٧٩) الرازى: تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين عبدالله العمرى، بيروت، الطبعة الثالثة – ١٩٨٩م، ص١٥٥.

(٨٠) ولفظ الفلس اشتقه العرب من اليونانية (fallis) وكان يرمز لقيمة القطعة بالحرف الأبجدى اليونانى (M) على أحد وجهى الفلس، أما الوجه الآخر فكان يحمل صورة الإمبراطور البيزنطى المعاصر. انظر، حسان على حلاق، تعريب النقود والدواوين فى العصر الأموى، ص١٦.

(٨١) أحمد قائد بركات: النقد الموسوعة اليمنية: ج٢ ص٩٦٦.

(٨٢) أحمد قائد بركات: المرجع نفسه، نفس الجزء، نفس الصفحة.

(٨٣) طارق أبوالوفا: صنعاء منذ فجر الإسلام حتى نهاية دولة بنى يعفر، ص٢٣١ – ٢٣٨.

(٨٤) طارق أبوالوفا: نفس المرجع ص٢٣٨.

(٨٥) الهمدانى: صفة جزيرة العرب، ص٣٢١؛ عصام عبدالرؤوف: اليمن فى ظل الإسلام، ص٢٥٣.

(٨٦) الهمدانى: الجوهرتين العتيقتين، ص ٤٢ – ٤٣.

(٨٧) الهمدانى: المصدر نفسه، ص٩٨.

(٨٨) الهمدانى: المصدر نفسه، ص ٤٩ – ٥٠.

(٨٩) الهمدانى: المصدر نفسه، ص١٢٦.

(٩٠) الهمدانى: المصدر نفسه، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠.

(٩١) ابن المجاور: تاريخ المستبصر جـ١ ص١٣٢.

(٩٢) عمارة اليمن: تاريخ اليمنى، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، بيروت، ١٩٩٢م.

(٩٣) نهم فى الشمال الشرقى من صنعاء، محمد بن أحمد الحجرى: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٤ ص ٧٤٦.

(٩٤) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، ص١٧.

(٩٥) الهمدانى: الجوهرتين: ص٤٥.

(٩٦) الهمدانى: المصدر نفسه، ص٩٧، ١٢٣.

(٩٧) الهمدانى: المصدر نفسه، ص٤٦، ٤٧.

(٩٨) الهمدانى: المصدر نفسه، ص ١٠٨.

(٩٩) حسن محمد جوهر، محمد السيد أيوب، اليمن، القاهرة د.ت ص ٤٨.

(١٠٠) Encyclopedia de L' Islam, Vol.3, p.149

(١٠١) الهمدانى: الجوهرتين ص١٠٨، ١٠٩، ١١٢.

(١٠٢) مختصر كتاب البلدان: ص٣٨.

(١٠٣) ناصر خسرو علوى: ص١٢٤؛ زنوبة نادى مرسى: التنظيمات الاقتصادية والحياة الاجتماعية فى اليمن منذ صدر الإسلام حتى آخر القرن الثالث الهجرى، ص٧٤.

(١٠٤) الاصطخرى: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال الحسينى، القاهرة ١٩٦١م، ص٢٦.

(١٠٥) الهمدانى: الإكليل، حققه نبيه أمين فارس، القاهرة ١٩٩٩ -٢٠٠٠م ج٨، ص ٣٠، صفة جزيرة العرب ص٣٢١، عبدالله عبدالكريم: المقتطف من تاريخ اليمن، ص٢٦، ٢٧.

(١٠٦) الهمدانى: صفة جزيرة العرب، ص٣٢٢.

(١٠٧) صالح أحمد العلى: ألوان الملابس العربية فى العهود الإسلامية الأولى، ص٩٠.

(١٠٨) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٣٨.

(١٠٩) ابن الفقيه: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(١١٠) عبدالله السيف: الصناعة في اليمن في العصر الأموى، ص١٤٦ . كتاب البلدان، ص٣٨، عبدالله سيف: المرجع نفسه، نفس الصفحة

(١١١) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٣٨، عبد الله السيف، نفس المرجع والصفحة السابقة.

(١١٢) عبدالله السيف: المرجع نفسه، ص١٤٦.

(١١٣) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٣٨، عبدالله السيف: المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(١١٤) ناصر خسرو: سفر نامة، ص١٤٢ - ١٤٣.

(١١٥) عصام عبدالرءوف: اليمن فى ظل الإسلام، ص٢٥٣، عبدالله سيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص١٤٦.

(١١٦) عبدالله سيف: المرجع نفسه نفس الصفحة.

(١١٧) صالح أحمد العلى: ألوان الملابس العربية فى العهود الإسلامية الأولى، ص٩٠.

(١١٨) حسين فيض الله الهمدانى وحسن سليمان محمود: الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن (٢٦٨هـ/٦٢٦هـ)، القاهرة د.ت. ص ٣٢٤ - ٣٢٩.

(١١٩) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص١٤، القزوينى: آثار البلاد، ص١٠١.

(١٢٠) القزوينى: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

(١٢١) حسين فيض الله الهمدانى، الصليحيون، ص٣٢٤ - ٣٢٩

(١٢٢) الحجرى: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٢، ص ٣٤١.

(١٢٣) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية ص١٧.

(١٢٤) يعنى كلمة التكفيت من الناحية الزخرفية، زخرفة معدن بمعدن آخر يختلف عنه فى اللون والقيمة وتتلخص هذه الطريقة بالخطوات الآتية: ١- رسم الزخارف على سطح التحفة المعدنية ٢ - حفر هذه الرسوم حفرا غائرا، ٣ - تملأ الأجزاء المحفورة بمادة التكفيت، ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية، ص٤٢.

(١٢٥) الآلوسى: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، بيروت، ز.د.ت، ج ٣، ص٤٠١-٤٠٣.

(١٢٦) صفة بلاد اليمن: القسم الأول، ص٤١.

(١٢٧) مصطفى شيحه: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى اليمن، ص١٢٢

(١٢٨) عبدالعزيز إبراهيم العمرى: الحرف والصناعات فى الحجاز فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ص٢٢١.

(١٢٩) الخنجر: هو العظيم من السكين، الأسيوطى، الخصائص الكبرى ج١/٣٠١؛ عبدالعزيز العمرى:

الحرف والصناعات فى الحجاز فى عصر الرسول، ص٢٢٣.
(١٣٠) طارق أبوالوفا محمد: صنعاء منذ فجر الإسلام حتى سقوط دولة بنى يعفر، ص١٨٦، ١٨٧.
(١٣١) انظر الثعالبى: لطائف المعارف، ص٧.
(١٣٢) قيل شرعب مخلاف باليمن وقيل هى قرية باليمن. ياقوت الحموى: معجم البلدان ج ٥ ص٦٧، إسماعيل الأكوع: البلدان اليمانية عند ياقوت الحموى ص١٦٥.
(١٣٣) ردينه موضع تنسب إليه الرماح وهى قرية على شط البحر فى المشرق. الهمدانى: صفة جزيرة العرب، ص ١٧٩؛ نزار الحديثى أهل اليمنى فى صدر الإسلام ص٤٢.
(١٣٤) انظر الهمدانى: المصدر نفسه والصفحة، القزوينى، آثار البلاد وأخبار العبا،د ص٩١.
(١٣٥) دائرة المعارف ج١٤، العدد الأول ص٢٠٤.
(١٣٦) الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص٧٩.
(١٣٧) السهيلى: الروض الأنف ج٢/٢٩٨؛ وجواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثالثة بغداد، عام ١٩٨٠، ج٧ص٥٨٩.
(١٣٨) وهما عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة وعنهما انظر «ابن حجر: الإصابة، بيروت د.ت ٤٧٦/٢، وج ١٨٩/٣، ابن عبدالبر، الاستيعاب حاشية على الإصابة ج ١٨٩/٣.
(١٣٩) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٧٩م ج١٣٢/٣
(١٤٠) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر «تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، صيدا ١٩٨٧م،ج٣، ص٤١١.
(١٤١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، القاهرة، ص١٩٨٥، ج١ ص٣٩١؛ صفاء حافظ عبدالفتاح، نظم الحكم فى الدولة العباسى، من أوائل القرن الثالث الهجرى إلى دخول بنى بويه بغداد، القاهرة ١٩٨٥م، ص ٢٠٧، ٢٠٨.
(١٤٢) ابن عبدالمجيد: بهجة الزمن، ص٥٨، يحيى بن الحسين: أبناء الزمن، ص٦٢
(١٤٣) الهمدانى: الجوهرتين، ص٥٥، ٥٦، ١٠٤؛ الرازى: تاريخ مدينة صنعاء، ص١٩٠؛ مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى اليمن، ص١٤٢.
(١٤٤) مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى اليمن، ص١٣٥.
(١٤٥) مصطفى شيحة: المرجع نفسه، نفس الصفحة.
(١٤٦) مصطفى شيحة: المرجع نفسه، ص١٣٥، ١٣٦.
(١٤٧) مصطفى شيحة: المرجع نفسه، ص١٤٣
(١٤٨) عارف أحمد المخلاف: دراسة أثرية لتيجان أعمدة فى جامع صنعاء، مجلة الأكليل، صنعاء، العدد الأول، السنة السابعة، ربيع أول، ص ٦٣، ٦٥
(١٤٩) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، ص١٣١.
(١٥٠) ربيع حامد خليفة المرجع نفسه، نفس الصفحة.
(١٥١) عفيف البهنسى: الجامع الكبير بصنعاء، الطبعة الأولى، باريس، ص١٠٦.
(١٥٢) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص١٣١.
(١٥٣) بامخرمة: ثغر عدن، ج١ ص١٤.
(١٥٤) مايلز: الخليج بلدانه وقبائله، القاهرة، ١٩٨٣، ص٣٣٠.
(١٥٥) بامخرمة: ثغر عدن، ج١ ص١٤.
(١٥٦) بامخرمة: المصدر نفسه، ج١، ص٢٠.
(١٥٧) بامخرمة: المصدر نفسه، ج، ص٢٢.

(١٥٨) مصطفى شيحه: مدخل إلى العمارة اليمنية، ص١٣٩؛ يوسف محمد عبدالله: أوراق فى تاريخ اليمن وآثاره، بحوث ومقالات ج١، ط١ صنعاء ١٩٨٥م، ص١٦.

(١٥٩) عبدالله محمد السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص١٤٨.

(١٦٠) مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى اليمن، ص١٠٩..

(١٦١) الألوسى: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، ج٣، ص٣٩٨-٤٠٠.

(١٦٢) الواسعى: فرجة الهموم، ص٣٢.

(١٦٣) تاريخ مدينة صنعاء، ص٢٤٦، ٢٤٧؛ محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامى، ص٢٣٠؛ عبدالله السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص١٤٩.

(١٦٤) عبدالله السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص١٤٩.

(١٦٥) عبدالرحمن الشجاع: النظم الإسلامية فى اليمن، ص١١١ عبدالله السيف: المرجع نفسه ص١٤٨، ١٤٩.

(١٦٦) Lealan Anderson: Hsitorical Considerations in Yemeni Vernacur, Phd,the Ohio State University 1997, Pp.205 - 207

(١٦٧) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص ٢٠٥ - ٢١٠.

(١٦٨) الألوسى: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، ج٣، ص٣٨٩.

(١٦٩) يحيى عبدالله المفلحى: الصخور الإنشائية والصناعية فى اليمن، الموسوعة اليمنية، ج٢ص٥٦٥

(١٧٠) حسين على الوسى: اليمن الكبرى، ص١٣٩ - ١٤٠

(١٧١) زياد الديرى: دراسة وتصنيف أحجار البناء فى الجمهورية اليمنية، ص٣٠٨

(١٧٢) زياد الديرى: المرجع نفسه، ص٣٠٨ - ٣٠٩.

(١٧٣) جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام، المجمع العراقى، (١٩٢٥م/١٩٥٦) ج١ ص١٠٨

(١٧٤) أمين أحمد محمود: مواد البناء التقليدية المستخدمة فى العمارة، الموسوعة اليمنية ج٢، ص٦٨٦.

(١٧٥) أمين أحمد محمود: مواد البناء التقليدية، الموسوعة اليمنية ج٢، ص٦٨٧.

(١٧٦) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ص٧٨.

(١٧٧) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن ج١ ص ٢١ -٢٢

(١٧٨) الهمدانى: الجزء الثامن من كتاب الإكليل، ج٨، ص ١٥٠.

(١٧٩) الرازى: تاريخ مدينة صنعاء ص١٩٦.

(١٨٠) غازى رجب محمد: الستائر الجصية فى الفن العربى اليمنى (العقود اليمنية) دراسات يمنية العدد ٢٨ (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) حاشية رقم٥.

(١٨١) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص١٧٨، طارق أبوالوفا محمد: صنعاء منذ فجر الإسلام حتى سقوط دولة بنى يعفر ص ١٩٥

(١٨٢) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص ١٧٨؛ طارق أبو الوفا: صنعاء منذ فجر الإسلام، ص١٩٥.

(١٨٣) ربيع حامد خليفة: المرجع نفسه، نفس الصفحة

(١٨٤) غازى رجب: الستائر الجصية فى الفن العربى اليمنى ص٦٨.

(١٨٥) الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص ٣٥٣، غازى رجب المرجع نفسه، ص٦١.

(١٨٦) غازى رجب: الستائر الجصية، ص٦٣.
(١٨٧) الواسعى: تاريخ اليمن ص٣١٦.
(١٨٨) الوسى: تاريخ اليمن الكبرى: ص٧٢.
(١٨٩) غازى رجب: الستائر الجصية ص٦٤.
(١٩٠) الهمدانى. الإكليل: ج٨ ص ١٩؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٤ ص٢١٠، ٢١١.
(١٩١) مصطفى شيحة: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى اليمن، ص١١٧.
(١٩٢) ربيع حامد خليفة: المرجع نفسه، نفس الصفحة
(١٩٣) Porter (V),Op Cit,P236.
(١٩٤) ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ج٧، ص١٠٩، ١١١
(١٩٥) انتشرت مطاحن الغلال فى اليمن ولكن نتيجة لكثرة الاضطرابات التى تعرضت لها اليمن فى منتصف القرن الرابع الهجرى وخاصة مدينة صنعاء فقد انخفضت بها مطاحن الغلال وقد قدرت بـ ٢٢ مطحنا، مصطفى عبدالعال تمام: مدينة صنعاء ومسيرة التطور الاستيطانى الحضرى، ص١٨٣؛ عبدالله عبدالسلام الحداد: صنعاء تاريخها ومنازلها الأثرية، ص٣١
(١٩٦)الهمدانى: صفة جزيرة العرب ص ٣١٦، محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامى، ص٢٢٥؛ طارق أبوالوفا محمد: صنعاء منذ فجر الإسلام ص٢٧١.
(١٩٧) الهمدانى: المصدر نفسه، ص٣١٧؛ محمد بن أحمد الحجرى: مجموع بلدان اليمن وقبائلها ج٣ ص ٤٩٤، محمد أمين صالح: المرجع نفسه نفس الصفحة.
(١٩٨) آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، نقله إلى العربية محمد عبدالهادى أبوريدة، القاهرة ١٩٤٠م، ج٢ ص٣٠٦.
(١٩٩) ابن خلدون: المقدمة تحقيق على عبدالواحد وافى، دار الشعب، القاهرة، د.ت، ص٣٦٠.
(٢٠٠) عبدالرحمن الشجاع: النظم الإسلامية فى اليمن ميلادا ونشأة، ص ١١٠.
(٢٠١) أحمد قائد بركات: المعصرة، الموسوعة اليمنية ج ٢، ص ٨٨٥، ٨٨٦.
(٢٠٢) فعلى سبيل المثال فى مدينة صنعاء فى شهر صفر فى عام (٣٨١هـ/ أبريل – مايو ٩٩١م) قدر عدد معاصر السمسم فى صنعاء ٥٤ معصرة، بينما تناقص عددها إلى ١٤ معصرة فى عام (٣٩١هـ/ ١٠٠٠م–١٠٠١م)، إسحاق بن جرير: تاريخ صنعاء، ص ١٦١؛ الرازى: تاريخ مدينة صنعاء، ص ١٦٣، ١٦٤.
(٢٠٣) ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ج ٧، ص ١١١، ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، قسم ٢، ص ٢١٤؛ عصام عبدالرءوف: اليمن فى ظل الإسلام، ص ٢٤٥، ٢٤٦.
(٢٠٤) ابن رستة: المصدر نفسه، نفس الجزء، نفس الصفحة.
(٢٠٥) عبدالرحمن الشجاع : النظم الإسلامية فى اليمن ميلادا ونشأة، ص ١١٠؛ عبدالله السيف : الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص ١٤٩.
(٢٠٦) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ص ٨٢
(٢٠٧) المقدسى: أحسن التقاسيم ص ٩٧.
(٢٠٨) التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة ص ٨٤
(٢٠٩) التوحيدى: المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(٢١٠) المقدسى: أحسن التقاسيم ص ١٠١؛ ابن مجاور: تاريخ المستبصر، ج ١، ص ١٢٠
(٢١١) عبدالله السيف: الصناعة فى اليمن، ص ١٤٩.
(٢١٢) التوحيدى: الإمتاع والمؤانسة، ص ٨٤.

(٢١٣) محمود عباس محمود: تاريخ الكتاب الإسلامى، القاهرة، دت، ص ٦٥.
(٢١٤) ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص٤٢، عبدالله محمد السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص ١٣٥، ١٤٣.
(٢١٥) إسحاق بن جرير: تاريخ صنعاء، ص ١٦١؛ الرازى: تاريخ مدينة صنعاء، ص ١٦٤.
(٢١٦) ربيع حامد خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية، ص ٢٤١.
(٢١٧) ناصر خسرو: جزيرة العرب كما رآها الرحالة ناصر خسرو، ترجمة أحمد البدلى، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض ١٩٧٩م مجلد ٦، ص ٤٠.
(٢١٨) المقدسى: أحسن التقاسيم ص ١٠٠
(٢١٩) القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، القاهرة، (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ج ٥ ص ١٠؛ ابن بطوطة؛ تحفة، النظار فى غرائب الأمصار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، بيروت، د. ت، ص ١٦٨.
(٢٢٠) عصام الفقى: اليمن فى ظل الإسلام ص ٢٥٠؛ آدم ميتز: المرجع السابق، ج، ٥ ص ٣٣٣
(٢٢١) بامخرمة: ثغر عدن ج١، ص ٦٩، سحر عبدالعزيز سالم: عرب الخليج وطريق تجارة التوابل فى المحيط الهندى فى العصر الإسلامى: مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة العدد الرابع عام ١٩٩٠ ص ٣٦٨
(٢٢٢) ابن مجاور: تاريخ المستبصر ج ١، ص ٩٧– ٩٨.
(٢٢٣) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٧، ص ٥٨٧
(٢٢٤) الهمدانى: الإكليل، الجزء الأول» حققه وعلق حواشيه محمد بن على الأكوع الحوالى، القاهرة، (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م). ج ١ ص ١٢٤؛ ياقوت: معجم البلدان ،ج ٢، ص ١٢٦.
(٢٢٥) سحر عبدالعزيز سالم: عرب الخليج وطريق تجارة التوابل فى المحيط الهندى، ص ٣٦٧، ٣٦٨
(٢٢٦) المرجع نفسه ص ٣٦٨.
(٢٢٧) عبدالله محمد السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص ١٤٥.
(٢٢٨) محمود عباس: تاريخ الكتاب الإسلامى، ص ٦٥.
(٢٢٩) السيد عبدالعزيز: دراسات فى تاريخ العرب، تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية، د.ت. ص١٢.
(٢٣٠) عبدالله محمد السيف: الصناعات فى اليمن فى العصر الأموى. ص ١٤٥.
(٢٣١) تاريخ مدينة صنعاء، ص ٣٤٨.
(٢٣٢) عبدالله السيف: الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، ص ١٤٥.
(٢٣٣) عبدالرحمن الشجاع: النظم الإسلامية فى اليمن، ص ١١١.
(٢٣٤) ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، تحقيق عبدالله الحميد صالح حمدان، مكتبة مدبولى، ط ٢، ١٩٩٦، ج ٢٠، ص ٣٩، وفى نهاية القرن الرابع كانت تباع أربع قرب ماء بدانق، الرازى: تاريخ مدينة صنعاء، ص ١٤٥، محمد أمين صالح: تاريخ اليمن الإسلامى، ص ٢٢٤.
(٢٣٥) ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ج ٧، ص ١١٢.
(٢٣٦) ابن مجاور: تاريخ المستبصر ج ١ ص ٩٧.
(٢٣٧) المطاع، تاريخ اليمن الإسلامى: ص ٢٩٦.
(٢٣٨) المقدسى: أحسن التقاسيم ص ١٠٠.
(٢٣٩) الزبيدى، تاج العروس، ج ٤، ٣١٣
(٢٤٠) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٠٠، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٢، ص ٢١٨.
(٢٤١) محمود عباس محمود: تاريخ الكتاب الإسلامى.

(٢٤٢) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٠٠.
(٢٤٣) المقدسى: المصدر نفسه؛ آدم ميتز: الحضارة الإسلامية، ج ٢ ص ٣٣٣؛ عصام الفقى: اليمن فى ظل الإسلام، ص ٢٥٠– ٢٥١.
(٢٤٤) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٠١.
(٢٤٥) اللسان: تضاربت الآراء حول أصل هذه الظاهرة، ففى حين يعتبرها البعض ابتكارا إسلاميا يرى البعض الآخر أن المجلدين المسلمين نقلوها عن الأقباط، عصام الدين عبدالرءوف الفقى.. اليمن فى ظل الإسلام، ص ٢٥٠، ٢٥١.
(٢٤٦) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ١٠١، بامخرمة: ثغر عدن، جـ ١، ص ١٨.
(٢٤٧) عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع: اليمن فى عيون الرحالة فى القرن الرابع الهجرى، ص١٢٦.
(٢٤٨) المقدسى: المصدر نفسه، ص ١٠٠؛ عبدالرحمن الشجاع: المرجع نفسه، ص ١٢٦.
(٢٤٩) المقدسى: المصدر نفسه، نفس الصفحة.
(٢٥٠) بامخرمة: ثغر عدن، جـ ١، ص ١٨.
(٢٥١) ابن مجاور: تاريخ المستبصر، جـ ١، ص ١٤٨.
(٢٥٢) بامخرمة: ثغر عدن، جـ ١، ص ٤٧.
(٢٥٣) عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع: النظم الإسلامية فى اليمن ص ١١٢.
(٢٥٤) الحجرى: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج١، ص ١٢٦.
(٢٥٥) ياقوت: معجم البلدان، ج١ ص ٨٩.

قائمة بأهم المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية:

– الإدريسى «أبوعبدالله محمد بن إدريس، عاش بالقرن السادس الهجرى.
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، جزءان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (١٩٩٤م)

اسحاق بن جرير: «أسحاق بن يحيى بن جرير الطبرى ت٤٥٠/١٠٥٨م»
– تاريخ صنعاء، تحقيق عبدالله محمد الحبشى، مكتبة السنحانى، صنعاء، دت.

– الاصطخرى: ابن أسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرخى (فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى).
المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال الحسينى، القاهرة ١٩٦١م.

– ابن بطوطة: شمس الدين أبوعبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى (٧٧٩هـ/ ١٣٣٧م).
– رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب، بيروت د. ت.

الثعالبى «أبو منصور عبدالملك بن محمد ت ٤٢٩هـ – ١٠٣٧م»:
– لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الإبيارى وحسن كامل الصيرفى، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٠م.

الحميرى: «محمد عبدالمنعم الحميرى ت (٨٦٦ هـ/ ١٤٩٤م».
– الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق .إحسان عباس، بيروت ط١، سنة ١٩٨٤م.

ابن خلدون: «عبدالرحمن بن خلدون، ت(٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م»
– المقدمة، تحقيق على عبدالواحد وافى، دار الشعب، د.ت.

الرازى: «أحمد بن عبدالله بن محمد، ت: (٤٦٠هـ/١٠٦٨م)
تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين بن عبدالله العمرى، دار الفكر المعاصر، بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٩م.

ابن رستة: «ابن على أحمد بن عمر بن رستة، ت ٣٠١هـ/٨٤٤م».
– الإعلاق النفيسة، ج٧، مطبعة بريل، ليدن ١٩٦٧م.

الطبرى: «أبوجعفر محمد بن جرير، ت ٣١٠ هـ/٩٢٢م».
– تاريخ الرسل والملوك، ١٠ أجزاء تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٧٩م».

عمارة اليمنى: «نجم الدين عمارة بن ابى الحسن على الحكمى، ت

٥٦٩هـ/١١٧٤م).
– تاريخ اليمن، تحقيق محمد زينهم محمد عذب، بيروت ط١، ١٩٩٢م
* أبوالفدا: «الملك المؤيد عمادالدين إسماعيل بن الملك الأفضل نورالدين على بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة. ت «٧٣٢ هـ/١٣٣١م».
– تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه ريفود والبارون ماك كوكبين ديسلان، باريس ١٨٥٠م.
ابن فضل الله العمرى: «شهاب الدين بن العباس أحمد يحيى، ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م».
– مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار، القسم الخاص بمملكة اليمن، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ط٢، القاهرة، ١٩٧٢ م، الجزء ٢٠ تحقيق عبدالحميد صالح حمدان، مدبولى، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦.
* ابن الفقيه: «أبوبكر أحمد بن محمد الهمذانى ت ٣٦٥هـ/ ١٩٧٥م»
مختصر كتاب البلدان، بيروت، ١٩٨٨م.
القلقشندى: «أبوالعباس أحمد بن على، ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م:
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء، ١٤ جزءا، المصرية، القاهرة، ١٩٨٥م).
ابن كثير: «أبوالفداء إسماعيل بن كثير، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م».
السيرة النبوية، جزءان، تحقيق أحمد عبدالشافى، تحقيق أحمد عبدالشافى، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
ابن المجاور: «يوسف بن يعقوب بن محمد على بن المجاور، ت ٦٩٠هـ – ١٢٩١م».
صفة بلاد اليمن مكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، راجعه ووضع هوامشه ممدوح حسن محمد، القاهرة، ١٩٩٦م.
ابى مخرمة: «أبو محمد بن عبدالله الطيب بن أحمد ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م».
– تاريخ ثغر عدن، تحقيق أوسكار لومجرين، جزءان، ليدن ١٩٣٦م.
المسعودى: «أبوالحسن على، ت (٣٤٦هـ/ ٩٥٧م»
مروج الذهب ومعادن الجوهر، (٤ أجزاء)، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، صيدا، ١٩٨٧م.
المقدسى: «شمس الدين أبوعبدالله محمد الشافعى المعروف بالبشارى ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م»
– أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، بريل، ليدن ١٩٠٩م.
المقريزى: «تقى الدين أحمد بن على ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م»
النقود الإسلامية الأولى «ملحق بكتاب «النقود العربية والإسلامية وعلم النميات» للأب أنستاس الكرملى، القاهرة ١٩٨٧م.
* ابن منظور: «محمد بن مكرالله المعروف بابن منظور، ت ٧١١هـ/ ١٣١١م».

- لسان العرب المحيط» ٦ أجزاء، القاهرة ١٩٨١م.
* ناصر خسرو:
- سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٩٣.
* الهمداني: «أبومحمد الحسن بن أحمد بن يعقوب، ت ما بين ٣٥٠ هـ - ٣٦٠هـ/ ٩٦٠ - ٩٧٠م»
- الإكليل، الجزء الأول، حققه وعلق حواشيه محمد بن على الأكوع، القاهرة ١٩٦٣م.
- الإكليل الجزء الثاني، حققه وعلق عليه محمد بن على الأكوع بن الحسين الوالى، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م
- الإكليل جـ ٨، حققه نبيه أمين فارس، القاهرة ١٩٩٩/٢٠٠٠م.
الجوهرتين العتيقتين من الصفراء والبيضاء (الذهب والفضة) إعداد وتحقيق محمد محمد الشعيبى، ط١ دمشق ١٩٨٢م.
- صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن على الأكوع، الشئون الثقافية، بغداد ١٩٨٩م.
* ياقوت: شهاب الدين أبوعبدالله ، ت ٦٢٦ هـ /١٢٢٩م».
- «معجم البلدان» ٥ أجزاء، بيروت، د.ت.
اليعقوبى: «أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م»
- تاريخ اليعقوبى، جزءان، ، بيروت د.ت.

ثانيا: المراجع والدوريات والبحوث العربية:
- إسماعيل على الأكوع: البلدان اليمانية عند ياقوت الحموى، بيروت ط٢ ١٩٨٨م.
- جواد على: العرب قبل الإسلام، ٨ مجلدات، المجمع العراقى، ١٩٢٥م-١٩٥٦م.
- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد، مكتبة النهضة عام ١٩٨٠م.
- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، القاهرة، ١٩٨٥م.
اليمن البلاد السعيدة، القاهرة د.ت.
- حسن سليمان محمود، وحسين بن فضل الله الهمدانى: الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن، (٢٦٨هـ/ ٢٦٢هـ) القاهرة، د.ت.
حسين بن على الويسى: اليمن الكبرى، القاهرة، ١٩٦٢م.
ربيع حامد خليفة: طراز المسكوكات اليمنية فى العصرين الأموى والعباسى، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب جامعة المنيا، المجلد الثانى، العدد

الثانى، يوليو (١٩٩٢م).
– الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، القاهرة ١٩٩٤م.
– مناسج الطراز الخاص بمدينة صنعاء، مجلة الإكليل، عدد ٢ السنة السادسة، ١٩٨٨م.
– زنوبة نادى مرسى: «التنظيمات الاقتصادية والحياة الاجتماعية فى اليمن منذ صدر الإسلام حتى آخر القرن الثالث الهجرى»، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٩٩٢م.
– زياد الديرى: دراسة وتصنيف أحجار البناء فى الجمهورية اليمنية، مجلة دراسات يمنية، عدد ٤٣، رجب – ذو الحجة ١٤١١ هـ/ يناير – يونيو ١٩٩١م.
– السيد عبدالعزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب – تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية د.ت. صالح أحمد العلى: ألوان الملابس العربية فى العهود الإسلامية الأولى، مجلة المجمع العلمى العراقى، المجلد السادس والعشرون، (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م)
الأنسجة فى القرنين الأول والثانى، مجلة الأبحاث، دار الكتاب، بيروت، السنة الرابعة عشرة،م، ج٤ ١٩٦١م
– صفاء حافظ أحمد عبدالفتاح: نظم الحكم فى الدولة العباسية من أوائل القرن الثالث الهجرى إلى دخول بنى بويه بغداد، القاهرة ١٩٨٥م.
– ضيف الله يحيى الزهرانى: دار السكة نشأتها وأعمالها وإدارتها، مجلة الدارة، العدد٢، السنة الثانية (١٣٩٧هـ).
– طارق أبوالوفا محمد: «صنعاء منذ فجر الإسلام حتى سقوط دولة بنى يعفر ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣ م»، رسالة دكتوراة غير منشورة، آداب بنها ٢٠٠٤م.
– عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع: النظم الإسلامية فى اليمن ميلادا ونشأة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ، دمشق، طبعة أولى ١٩٨٩م.
اليمن فى عيون الرحالة المسلمين فى القرن الرابع الهجرى، مجلة الإكليل، العدد الأول، السنة السابعة ١٩٨٩م.
– عبدالله محمد السيف : الصناعة فى اليمن فى العصر الأموى، مجلة الإدارة، العدد الثالث، السنة التاسعة عشرة، ربيع الآخر – جمادى الأول – جمادى الآخرة، (١٤١٤هـ).
– عصام الدين عبدالرؤف الفقى : اليمن فى ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بنى رسول، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٢م
– عصام عبدالمنعم إبراهيم : التطور السياسى ومظاهر الحضارة فى عدن منذ بداية القرن الثالث حتى نهاية حكم بنى طاهر (٢٠٤ – ٩٢٣هـ/٨١٩ – ١٥١٧م)، رسالة دكتوراة غير منشورة، آداب بنها ١٩٩٩م.

- عفيف البهنسى : الجامع الكبير بصنعاء، الطبعة الأولى، باريس، ١٩٩١م.
- غازى رجب محمد: الستائر الجصية فى الفن العربى اليمنى (العقود اليمنية) مجلة دراسات يمنية العدد ٢٨ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)
متز آدم: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، جزءان، نقله إلى العربية محمد عبدالهادى أبوريدة، القاهرة١٩٤٠م.
- محمد بن أحمد الحجرى: مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ٤ أجزاء، تحقيق وتصحيح ومراجعة إسماعيل بن على الأكوع، دار الترجمة اليمانية، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.
- محمد أمين صالح (الدكتور): تاريخ اليمن الإسلامى فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٥م.
- محمود شكرى الألوسى: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، ٣ أجزاء، بيروت، د.ت.
- محمود عباس محمود: تاريخ الكتاب الإسلامى، القاهرة، د.ت.
- مصطفى عبدالعال تمام: مدينة صنعاء ومسيرة التطور الاستيطانى الحضرى، مجلة كلية الآداب جامعة صنعاء، العدد (٨/١٩٨٨م).
- مصطفى عبدالله شيحه: مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية فى الجمهورية اليمنية، ط١ القاهرة، ١٩٨٧م.
- نزار عبداللطيف الحديثى: أهل اليمن فى صدر الإسلام دورهم واستقرارهم فى الأمصار، بيروت، د.ت.
- الواسعى: عبدالواسع يحيى الواسعى اليمانى
تاريخ اليمن المسمى فرجه الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٩٨٤م.
وفيه عزى: نماذج من الفنون الإسلامية فى اليمن، مجلة المجلة، العدد ٧١، ديسمبر ١٩٦٢م.
- يوسف محمد عبدالله : صنعاء المدينة العربية الإسلامية، نبذة عن تاريخها ودعوة إلى صيانتها، مجلة الإكليل، عدد ٣، ٢ سنة (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م)

ثالثاً: المراجع والدوريات الأجنبية

- Bates, M:
Yemen And Its Conquest By The Ayyubids. Chicago, 1975 .
Brhsunlich, E:
The Gold In Ancient Arabia In Islamic, Leiden 1965.
-Croken, Barbara Eileen:
Zabid Under The Rasulids Of Yemen, Ph.d. Harvard Uniersity, 1990.
- Encyclopedia Of Islam Vo.1, Iv.
- Lealan Anderson:
Historical Consideration In Yemeni Vernacular, P.H.D, The Ohio State University, 1997.
Play Fair: History Of Arabia Felix, Leiden 1960.

د. عبد الرحمن بشير (*)

صراع السلطة فى اليمن منذ فجر الإسلام حتى قيام الدولة الظاهرية

مقدمة:-

اكتسى تاريخ اليمن السياسى فى ظل الإسلام بكثير من الغموض، والمصادر المتوفرة لا تجلى الحقيقة خاصة فى المراحل التاريخية المبكرة من تاريخ الإسلام فى اليمن. فى المقابل نجد أن التاريخ القديم لليمن قد حظى بعناية كبيرة من خلال الدراسات التى كشفت عن الكثير من الأحداث فى فترات تاريخية موغلة فى القدم، حيث قدمت الكشوف الأثرية خدمة جليلة للدراسات التاريخية ووضعت كثيرا من الأحداث فى سياقها التاريخى، والسبب فى ذلك هو اهتمام المستشرقين بدراسة التاريخ القديم لليمن فى إطار اهتمامهم المتزايد بتاريخ اليهود والنصارى فى المنطقة، وبتاريخ دولتى الفرس والروم اللتين تنازعتا السلطة فى جنوب شبه الجزيرة قبيل الإسلام، وجاءت كتابتهم ثرية لاعتمادهم على نتائج الحفريات الأثرية بجانب ما كتبه المؤرخون البيزنطيون.

ظلت العادات والتقاليد هى القاسم المشترك بين عصر ما قبل الإسلام والعصر الإسلامى بسبب تضاريس اليمن، إذ أن المناطق المقفلة تظل الموروثات تتردد فى أرجائها فترة أطول مما لو كانت مفتوحة على جيرانها، وبالتالى احتفظ اليمنيون على مر التاريخ بتقاليد السلطة الذاتية أو الحكم الذاتى، وهى خصوصية من خصوصيات الحكم القبلى الذى لازم القبيلة اليمنية منذ فجر التاريخ وحتى العصر الحاضر، ولم يستمر إذعان القبائل اليمنية لسلطة الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من عشر سنوات حتى عادت حركات التمرد على السلطة من جديد، كما تأثر سكان اليمن من غير العرب بتلك التقاليد وتحكمت فيهم هذه الموروثات، وهى الصراع على السلطة، حيث كان هدف أجدادهم من دخولهم إلى اليمن هو السيطرة على البلاد والانفراد بالحكم قبل الإسلام، إذ ترصد المصادر

(*) مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة كلية الآداب – جامعة الزقازيق

التاريخية قيام دولتين فى اليمن واحدة للأحباش وأخرى للفرس، كما أن أهل الذمة هم الآخرين اتسمت علاقتهم بالسلطة بالتملق والولوج إلى مفاصل الحكم عن طريق التقرب من السلطان بكل الوسائل الشرعية وغير الشرعية، فقد لعب النصارى واليهود دورا مهما فى مسيرة اليمن التاريخية والسياسية قبل الإسلام، أما بعد الإسلام فانحازوا إلى صاحب السلطان، ودخلوا فى معيته فى محاولة منهم لتأمين حياتهم داخل المجتمع اليمنى كأقلية دينية، كما كان للمرأة دورا فى سد فراغ السلطة على مر تاريخ اليمن، حيث تحملت المسئولية السياسية فى فترات مختلفة خلال العصور الوسطى.

وفى هذه الورقة نحاول أن نحلل الأحداث، ونرصد ذلك الصراع بقدر من الموضوعية فى ظل كتابات متنوعة فيها ما هو متحيز وما هو مبتور، وفى بعض الأحيان متضاربة خاصة فى رصد تاريخ القرون الثلاثة الأولى للهجرة، أما بعد ذلك فهى كتابات محلية إقليمية متعصبة وأخرى عامة متحيزة، وهى محاولة متواضعة لرصد العلاقة بين أهل اليمن وسلطة الدولة وفق معطيات المراحل التاريخية المختلفة التى مرت بها البلاد خلال العصر الإسلامى بداية من سلطة الولاة الذين حكموا اليمن بتفويض من حكومات المدينة المنورة ودمشق وبغداد، ومرورا بسلطة الدول المحلية القبلية والمذهبية التى استقلت بالبلاد وأخيرا سلطة العجم. هذه هى القوى السياسية التى اعتلت هرم السلطة فى اليمن خلال العصور الوسطى، فبتغير الحكام تتغير السياسات وتتبدل الاتجاهات نحو سكان البلاد، وسنرصد بحول الله تعالى تلك العلاقة مع المكونات الرئيسية لسكان اليمن بدءا بالقبيلة التى تعبر عن جل سكان اليمن مرورا بالعبيد والأبناء وأهل الذمة، ثم وقفة مع علاقة الدولة بالمرأة. والله اسأل أن يجنبنا الذلل أنه نعم المولى ونعم النصير.

الدولة والقبيلة

لم تتغير الحياة القبلية فى اليمن بعد الإسلام، فالقبيلة هى الوحدة الأساسية فى المجتمع اليمنى، وهى التنظيم البدائى الذى يقوم على رابطة الدم والقربى والسلطة الأبوية، حيث تتكون القبيلة من بطون وعشائر وعائلات وأسر، وهى دائما ما تتمرد على السلطة وترفض الهضيمة وتعشق الحرية فهى لا تخضع لأى سلطة ما إلا لضعف أو لمصلحة (فالعصبية تتكون من الالتحام بالنسب أو فى معناه وذلك أن صلة الرحم طبيعى فى البشر ومن صلتها النعرة على ذوى القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة)(١) وبهذا المعنى يتأصل النظام القبلى فى اليمن منذ دولة سبأ القبلية حينما عرض النبى سليمان عليه السلام على ملكتها بلقيس الإسلام فقالت: (رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)(٢) أى أنها لم تسلم لسليمان ولم تخضع

لسلطانه باعتبارها ندا له، وظلت القبائل اليمنية على هذا الحال يخضعون للدولة فى إطار من الحرية الذاتية، ولدينا مثال على ذلك من نجران، حيث ظل بنو عبد المدان وهم من سلالة شداد بن عاد يتمتعون بحكم ذاتى (لا يطيعون لملك الغز (دولة بنى رسول) ولا سلاطين العرب)(٣)، فالإنسان العربى مجبول على الحرية، وهو لا يطيق الخضوع لأحد غير قبيلته على أن لا يؤثر ذلك فى حريته الشخصية(٤).

وظل الأمر كذلك بعد دخول الإسلام اليمن ففى أيام الخليفة عثمان بن عفان عندما قدم عليه خيفان بن عرابه، حيث سأله: (كيف تركت أفاريق العرب فى ذى اليمن ؟ فقال: هذا الحى من بلحارث بن كعب فحسك امراس ومسك أحماس، تتلظى المنية فى رماحهم، وأما هذا الحى من أغار بجيلة وخثعم فجوب أب، وأولاد عله، ليست بهم ذلة، ولا قلة، صعابيب وهم أهل الأنابيب، وأما هذا الحى من همدان، فانجاد بسل، مساعير غير عزل، وأما هذا الحى من مذحج فمطاعيم فى الجدب، مساريع فى الحرب)(٥) وهذا الحديث وإن كان يعدد الخصال الكريمة التى تمتعت بها القبائل اليمنية فإنه يدلل على استمرار نظام القبيلة كوحدة سياسية واجتماعية وعسكرية فى اليمن. اختلفت القبيلة اليمنية عن غيرها من القبائل العربية الأخرى فى شبه الجزيرة العربية فى كثير من الخصائص والصفات فأهل الحضر منهم لا يأنفون من العمل ولا يستصغرون شأن الحرف مما يدحض نظرية ابن خلدون (٦) فى أن العرب أبعد الناس عن الصنائع، ويرجع هذا الاختلاف والتباين إلى الطبيعة التى أثرت على أجسامهم وعقولهم، فجعلتهم من أنشط شعوب شبه الجزيرة العربية فى ميدان العمل والحيلة فى كسب الرزق وفى إقامة المجتمعات، ومع أن فريق من القبائل اليمنية عاشوا حياة الاستقرار والحضر لكنهم بقوا مخلصين لمثل البوادى ولطبيعتها فى الحياة، فهم فى قراهم ومدنهم بيوت وبطون ويتمسكون بالعصبية(٧) ولا يختلف نمط الحياة فى اليمن كثيرا بين المدينة والقرية أو البادية فوجود القبائل فى المدن يعتبر استيطانا قبليا ولا يتحول إلى مواطنة فى المدينة، إذ أن فكرة الوطن ارتبطت دائما بالقبيلة ولم ترتبط بالحدود الجغرافية(٨) إلا فى حالات فرضتها الظروف سوف يأتى تفصيلها.

استظلت القبيلة بظل الدولة الإسلامية من خلال الحكم المركزى للخلافة الإسلامية عن طريق الولاة طالما كان هذا الحكم يمسك بتلابيب هذه القبائل عن طريق زعمائها أما وقد بدأت هذه الحكومة المركزية فى الضعف، فإن الأمر أصبح متروكا لزعيم القبيلة حسب قوة القبيلة وعدد بطونها، فإما أن يستقل بمنطقة نفوذه ومعه بطون القبيلة مكونا دولة، وإما أن يدخل فى حلف من القبائل الاخرى يستجيب لمتطلباته، وظل هذا النظام القبلى يشارك فى قيادة

اليمن قبل الإسلام وبعده، وهذا يوافق قول أحد الدارسين بأن أكثر مؤسسى الأسر الحاكمة فى اليمن كانوا سادات قبائل فى الأصل، استغلوا مواهبهم وإمكانيات قبيلتهم وسخروها فى سبيل الحصول على الملك وعلى التلقب بلقب ملك أو سلطان، حيث يجمع الزعيم شمل عدة قبائل ويترأسها، وقد ينصب نفسه ملكا عليها[٩].

تأتى العلاقة بين القبيلة والدولة ضمن إطارين الأول: علاقة القبيلة بالدولة القبلية التى تستمد سلطتها من عصبيتها بمعنى (إنه لابد لها من العصبية التى بها يتم أمرها)[١٠]، والثانى : علاقة القبيلة بالدولة الدينية التى تعتمد على المذهب الدينى فى بسط سلطانها، وباستعراض النوع الأول نجد أن تاريخ اليمن من قبل الإسلام وبعده وحتى قيام الإمامة الزيدية كانت إلى حد ما عبارة عن حكم قبيلة استطاعت أن تخضع لسلطتها ونفوذها بشكل مباشر أو غير مباشر مجموعة من القبائل المغلوبة على أمرها أو المتحالفة معها من أجل مصالح معينة يأتى ذلك انسجاما مع قول ابن خلدون «العصبية متألفة من عصبيات كثيرة، وتكون واحدة منها اقوى من الأخرى فتغلبها وتستولى عليها حتى تصيرها جميعا فى ضمنها وبذلك يكون الاجتماع والغلب»[١١] ، وكانت سلطة الدولة القبلية لا تعدو كونها نوعا من الإشراف على القبائل كمجموعات، إذ أن النظام القبلى ذو نزعة قوية للحكم الذاتى، وبالتالى فإن السلطة داخل القبيلة سواء كانت حاكمة أو محكومة كانت دائما من اختصاص زعمائها، ومن ثم كان ولاء زعماء القبائل أو عدائهم يعنى ولاء القبيلة كلها أو عدائها[١٢]، فالدولة القبلية نقابلها فى اليمن منذ سنة ١٣٠٠ ق.م تقريبا، حيث قامت الدولة المعينية فى منطقة الجوف فيما بين حضرموت ونجران، ثم عاصرتها دولة قبيلية أخرى وهى مملكة حضرموت التى ظهرت فى منطقة حضرموت وسقطت فيما بين سنة ٣٧٠-٣٣٥ق.م، كما عاصرت الدولة المعينية حكومة قبلية أخرى هى حكومة قتبان فى وادى بيجان شمال غربى عدن، وانتهى استقلالها فى القرن الثالث ق.م وقامت فى صرواح ومأرب دولة سبأ فى القرن الثامن ق.م تزعمتها بطون حمير، ومرت بثلاثة أدوار حيث ضمت إليها فى آواخر القرن الثانى ق. م ذو ريدان ثم حضرموت وزادت سيطرتهم على بلاد اليمن خلال القرن الثالث م حيث أصبح ملكها يكنى بملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت[١٣]، ولقد مهد التطاحن القبلى لدخول الأحباش اليمن، حيث يؤكد نقش بالخط المسند على اشتعال الحرب بين سبأ وحمير ورحبة وكندة ومضر وثعلبة[١٤]، وبالتالى أنهى الأحباش الحكم القبلى اليمنى، ثم يأتى الفرس بدعوة من حمير ليقوضوا حكم الأحباش[١٥]، ويكاد حكم الغرباء من الأحباش والفرس يكون مقصورا على العاصمة صنعاء وما جاورها وتظل

قبائل اليمن تتمتع أبدا بحريتها وأن الحكم فيها كان للأسر المالكة القديمة، وهم فى صراع دائم فيما بينهم [١٦].

دخل الإسلام اليمن واهتدت القبائل بجهود صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمر العقد لباذان أو باذام الفارسى بعد إسلامه على اليمن ومخاليفها « لم يزل عامل رسول الله أيام حياته فلم يعزله عنه.. حتى مات »[١٧] وبعد وفاته قسم الرسول صلى الله عليه وسلم اليمن إلى خمسة أقسام وولى على كل قسم أميرا من الصحابة يعلمهم أصول الدين الجديد، وهم خالد بن سعيد على صنعاء، والمهاجر بن أبى أمية على كندة، وزياد بن لبيد على حضرموت، ومعاذ بن جبل على الجند، وأبا موسى الأشعرى على منطقة زبيد، وزمعة على عدن والساحل [١٨]، وحاول الرسول صلى الله عليه وسلم التخفيف من غلواء العصبية بين القبائل اليمنية فجعل الصدقة فيما بينهم [١٩]، ويأتى اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم باليمن ضمن تأمين جنوب دولته حتى يتفرغ لنشر الإسلام خارج شبه الجزيرة، فكان إيفاده لعلى بن أبى طالب وخالد بين الوليد، وهما من خيرة الصحابة إلى اليمن وبصحبتهما عدد من أصحاب البلاد مثل أبو موسى الأشعرى وعامر بن شهر بن باذان دليلا على هذا الاهتمام « قال البخارى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب وصحبته خالد بن الوليد إلى اليمن قبل حجة الوداع » [٢٠] وكان عمال الرسول صلى الله عليه وسلم عند وفاته على اليمن ثلاثة هم أبان بن سعيد بن العاص على صنعاء وأعمالها، ومعاذ بن جبل على الجند ومخاليفها وزياد بن لبيد على حضرموت وأعمالها[٢١] فبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بخمسة ولاة على خمس ولايات، وعند موته أصبحت ثلاث، فالرسول يعرف طبيعة البلاد وطبيعة أهلها ففى البداية حاول أن يعالج التمزق الحاصل بين السكان ونزعتهم الاستقلالية والميل إلى الزعامة، وبروح الإسلام وبعمل الدعاة قلص الرسول صلى الله عليه وسلم الولاة إلى ثلاث فى طريق الوحدة وزاد من عدد الدعاة، وبالتالى وحد البلاد وطوع القوة الكامنة عند أهلها لخدمة الإسلام فخرجت بطون من القبائل اليمنية تشارك فى الفتح شرقا وغربا، ومدح الرسول فيهم خصالهم الحربية عندما قال الإبدال بالشام والنجباء بمصر والعصب باليمن والأخيار بالعراق [٢٢] والعصب هنا تعنى التجمع للحرب[٢٣].

تمردت القبائل اليمنية على سلطة الدولة حيث لم تطل مدة خضوعهم لدولة الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة، وانقادت برغبة منها وراء المتنبى الأسود العنسى، ويدعى عبهلة بن كعب الذى ينسب إلى قبيلة مذحج التى أيدته وبمساعدتها سيطر على نجران وصنعاء [٢٤]، وتوالى تأييد القبائل له مثل كندة وحضرموت مما زاد من قوته[٢٥]، فوحد اليمن تحت سلطانه،

وطرد عمال الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الدارسين [٢٦] وضع هذا التمرد فى مضمونه الحقيقى باعتباره ثورة وطنية طبقية تحمل فى محتواها معارضة للسلطة وممثليها فى اليمن، وليس ردة عن الإسلام، وإنما ردة عن المشروع الاجتماعى الإسلامى متمثلا فى الزكاة التى هى عصب هذا الاجتماع. أما من حيث أنها ثورة طبقية فهى موجهة إلى ممثلى السلطة الأعاجم، حيث كان باذان وإلى اليمن يمثل للأسود مواطن من الدرجة الثانية، وبالتالى فإن القضية تحمل إشكاليتين الأولى : تتعلق بالدور الذى لعبه الابناء الفرس فى حكم اليمن لاسيما وأن جمع الرسول صلى الله عليه وسلم لباذان اليمن كله لم يكن أمر مقبولا من جانب القبائل القوية [٢٧]، والثانية: تتعلق بالزكاة كنوع من المغارم أذعنت له القبائل بغير رضى نفس، وهو مما سهل مهمة الأسود. مما سبق يتضح أنه لا صلة بين هذه الثورة والردة عن الدين الإسلامى، بل هو صراع على السلطة من جانب، وتحلل من الواجبات الاجتماعية التى تهدف إلى الترابط والتكافل بين المسلمين من جانب آخر، والأمر الذى يفسر صراع السلطة، هو أن الذى قتل الأسود هم من قام ضدهم بالثورة، وقضى على مكاسبهم السياسية، أى الفرس حيث اشتركت زوجة شهر بن باذان التى اصطفاها الأسود لنفسه مع فيروز الديلمى وداذويه وقيس بمن مكشوح المرادى فى تنفيذ المهمة[٢٨].

واصل الخلفاء الراشدون المهمة التى بدأها الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث أرسلوا البعوث والسرايا إلى اليمن، وفى عهد على بن أبى طالب كرم الله وجهه كان للفتنة بينه وبين معاوية صداها فى اليمن مثلما كان لها صدى على العالم الإسلامى، حيث أرسل معاوية إلى اليمن بسر بن أرطأة العامرى فعاث فيه قتلا وتذبيحا [٢٩] وعسف بأهله واستحل الحرام وعاث فى البلاد على حد قول الخزرجى [٣٠] فأرسل عليا قائده حارثة بن قدامة السعدى الذى أعاد الأمور إلى نصابها مؤقتا، ثم عاد إلى مكة فلما دخلها بلغه موت على بن أبى طالب كرم الله وجهه [٣١]، وهنا نرصد معارضة قوية لمعاوية من القبائل التى تشيعت لعلى ابن أبى طالب فى اليمن خاصة كندة التى هاجرت بطون منها إلى الكوفة وناصرت على بن أبى طالب ونشأ فيها منوعات من الغلو الشيعى[٣٢]، وكذلك بطون من خولان التى استدعت وساندت بعد ذلك الإمام الزيدى الهادى إلى الحق [٣٣]، والملاحظ على هذه الفترة أن والى صنعاء كان يتفوق على أقرانه ولاة الجند وحضرموت، ومن الصعب تحديد الدور الدقيق لهؤلاء الولاة، ومدى سلطتهم وسيطرتهم على القبائل اليمنية لكن يظل الدور المهم لهم هو نشر الإسلام فى هذا البلد الذى يعانى من صعوبة التضاريس والاتصالات، وتعليم الناس كيفية ممارسة شعائرهم، وخلق جو من الحياة الإسلامية الجديدة على مجتمع اليمن[٣٤].

خضعت اليمن للخلافة الأموية، وتوالى وصول الولاة لليمن الذى ازداد عددهم فى تلك الفترة حيث بلغ ما يزيد عن خمسة وعشرين واليا فى تسعين سنة هى عمر الخلافة الأموية، ويأتى ذلك متوافقا مع سياسة الدولة الأموية فى التخوف من النزعات الانفصالية للولاة، واستثناءا من هذه القاعدة كانت ولاية يوسف بن عمر الثقفى من قبل هشام بن عبد الملك حيث استمرت ولايته ثلاث عشرة سنة (٣٥)، كما أنه من الصعوبة بمكان تحديد الدور الدقيق للولاة ومدى سلطتهم التى كانت فيما يبدو محدودة أو ربما منعدمة خارج منطقتهم(٣٦)، لذلك نجد مناطق قبلية شبه مستقلة فى العصر الأموى عن الولاة، وكانت القبائل دائمة الثورة والتمرد على السلطة، فعلى سبيل المثال ثار أهل اليمن سنة ١٤٢هـ/٧٥٩ م على عامل أبى جعفر المنصور عبد الله بن الربيع، حيث وجه لهم معن بن زائدة الشيبانى فقتل الكثير واقام فى اليمن تسع سنين(٣٧)، وفى ولاية حماد البربرى أيام الرشيد عسف الوالى بالرعية وقتل جماعة من زعمائهم، فشكا أهل اليمن عاملهم للرشيد فى مكة أثناء موسم الحج، فلم يجبهم إلى شىء مما سألوه، فانتفض الهيضم بن عبد الحميد، وامتنع فى جبال العضد (٣٨) واستولى عليها فأجابه الكثير من بطون القبائل اليمنية. وتحضن معه زعماء هذه القبائل (٣٩)، لم يستطع حماد القضاء على التمرد، فطلب المساعدة من هارون الرشيد وما أن وصلته حتى استأمن الهيضم، فحاربه على الطاعة وظفر حماد بالجبل الذى تحصن فيه الهيضم وقبض عليه وعلى أهل بيته وكذلك على رؤساء القبائل التى تحالفت معه وأرسلهم إلى هارون الرشيد فى مدينة الرقة، فقتل الهيضم وصرف سائر من كان معه (٤٠)، فالعصبية القبلية ورغبة التحرر من السلطة كانت دائما حاضرة عند القبائل اليمنية، وما أن يعبر ثائر أو متمرد عن شق عصا الطاعة على السلطة حتى يجد الكثير من المناصرين والمساندين من هذه القبائل، لكن هذا الأمر ظل خلال فترة الرسول صلى الله عليه وسلم والدولة الأموية تحت السيطرة فى إطار المنظومة القديمة للعلاقة بين القبيلة والسلطة.

ظفرت القبيلة بالحكم الذاتى فى اليمن من خلال دول قبلية محلية، فبعد سيل الفتوحات الإسلامية حدث نوع من الاختناق لم يجد سوى قنوات الحروب الأهلية والثورات للتعبير ومحاولة الدخول فى سياق السلطة (٤١)، وبدا ذلك واضحا منذ بداية القرن الثالث الهجرى، حيث تصدرت القبائل اليمنية هرم السلطة فى اليمن منسلخين من الخلافة العباسية الضعيفة ومتدثرين بغطاء شرعى منها، وليس من قبيل المصادفة أن ترتقى بطون قبيلة حمير (٤٢) سلم السلطة وتقيم دولتين متزامنتين، فأجدادهم كانوا أصحاب آخر دولة قبلية فى

اليمن قبل الإسلام كما بينا سابقا. أما الدولتان فهما دولة بنو زياد (٢٠٣هـ-٤٠٩/٨١٨-١٠١٨م) [٤٣] التى اتخذت من مدينة زبيد عاصمة لها، ودولة بنو يعفر (٢٣٢هـ-٣٨٧هـ/٨٤٧-٩٩٧م) [٤٤] التى سيطرت على صنعاء وجعلتها عاصمة لها، اعتمد نفوذ وسيطرة الدولتين القبليتين على العصبية القبلية، حيث يتوقف نفوذ الدولة واتساع رقعتها على حال عصبيتها من جهة، وحال العصبية فى المناطق التى تحكمها، أو التى تريد بسط نفوذها عليها من جهة أخرى [٤٥]، ويأطر ذلك ابن خلدون [٤٦] عندما يقول «كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها، والسبب فى ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين لها لابد من توزيعهم حصصا على الممالك والثغور التى تصير إليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو» فبعد موت الوصى على عرش الزياديين الحسين بن سلامة سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦ م ضعفت الدولة، وظهرت حالات من التمرد القبلى حيث انفردت بنو معن [٤٧] بعدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت كما ثار بنو الكرندى وسيطروا على سمدان والدملوه والتعكر[٤٨].

لم يمر قرن من الزمان حتى ظهرت دولة قبلية أخرى فى اليمن عندما تطلعت قبيلة همدان [٤٩] للقفز على السلطة فى منطقة صنعاء وما حولها مستغلة بطونها الكثيرة هناك[٥٠]، فالقبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة فلابد من عصبية تكون اقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها[٥١]، فقد أقامت همدان دولة قبلية فى صنعاء (٤٩٢-٥٦٩هـ/١٠٩٩-١١٧٣م) وخلعوا على أنفسهم لقب السلطان، وتداولت السلطة بين ثلاث أسر من همدان هم بنو حاتم المغلسى وبنو القبيب وبنو إليامى، ويأتى تداول السلطة فيما بينهم قسريا بناء على اجتماع كلمة بطون همدان[٥٢]، والأسرة الأخيرة حظيت بنوع من التوثيق التاريخى الذى عرض لأهم الإنجازات التى حققتها الدولة خاصة فى ظل حكم السلطان حاتم ت٥٦٦هـ/١١٦١م[٥٣]، الذى قضى اثنتا عشرة سنة من حكمه فى نشر السلام فى شمال اليمن، فبحلول سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م كان قد سيطر على المنطقة الواقعة شمال صنعاء باستثناء صعدة التى كانت بأيدى الزيديين، وظل الصراع مع الأئمة الزيديين حتى وفاته، حيث قررت همدان أن تنقل السلطة للمرة الرابعة لأسرة القبيب لكنها لم تفلح[٥٤].

وبحلول ٥٧٠هـ/١١٧٤ م استطاع توران شاه قائد الأيوبيين أن يسير شمالا من تعز [٥٥] فاصبح على الهمدانيين مواجهة تحدى جديد أنهك قواهم، ومع ذلك ظلوا يمثلون قوة سياسية يسيطرون على مناطق من شمال اليمن إما بصورة مستقلة أو بالتحالف مع الزيديين، كما كانوا يسيطرون على صنعاء من وقت لآخر [٥٦]، ويقرر أحد الدارسين [٥٧] أن دولة الهمدانيين كانت إسماعيلية [٥٨]

بدليل التعاون بينها وبين دولة بنى زريع الإسماعيلية فى محاربة على بن مهدى، وهو أمر يحتاج إلى تفسير فى ضوء ما هو متوفر لدينا من مادة، فلم يرد فيما وصلنا من مصادر أى اتصالات بين مؤسس الدولة والدولة الفاطمية، واعتناقهم للمذهب الإسماعيلى يعنى خضوعهم للملكة أروى زعيمة الصليحيين، فكيف نفسر احتلال السلطان حاتم صنعاء الصليحية واستقلاله عنها، وعلى الرغم من ذلك يبدو أن السلطان حاتم كان يميل إلى المذهب الإسماعيلى لسببين الأول : هو من باب المنافسة المذهبية الشمالية من قبل الزيديين، والثانى، هو تطبيق الأساليب الإسماعيلية فى فرض الضرائب على الرعية من جانب التخفيف على القبائل التى سئمت المغارم، وهو ما يجمع إليه ولاء هذه القبائل (٥٩). كما أن فى أخبار سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م يورد يحى بن الحسين ما يثبت أن الباطنية كان يخطب لها على منابر صنعاء فى عهد السلطان الهمدانى حاتم بن أحمد اليامى، واللافت للنظر أن السلطان رضخ لشروط الإمام الزيدى أحمد بن سليمان الذى طلب منه منع الخطبة للباطنية فى صنعاء (٦٠) مما يدلل على عدم التمسك بالمذهب.

أما الإطار الثانى من علاقة الدولة بالقبيلة فى اليمن فيتجسد فى علاقة القبائل اليمنية بالدولة الدينية التى تعتمد على المذهب الدينى فى بسط سلطانها، فتأييد الدول المذهبية من جانب القبائل اليمنية له مدلول سياسى واجتماعى من حيث إنهاء التنافس والتحاسد على الرئاسة بين القبائل، وتفويض الأمر لإناس ذات مكانة دينية تاريخية وهو ما ذهب إليه ابن خلدون عندما قال: «الصبغة الدينية تذهب التنافس والتحاسد الذى فى أهل العصبية»(٦١)، بمعنى أن القبائل اليمنية احتضنت واجهة دينية لم تكن طرفا فى التناحر والاقتتال القبلى رغبة منها فى وضع حدا لهذه للصراع على السلطة (٦٢)، يتضح ذلك جليا من خلال نموذج الدولة الزيدية التى تعتبر أول دولة مستقلة سياسيا ومذهبيا فى اليمن، واتخذت من مدينة صعدة عاصمة لها سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م بزعامة الهادى للحق يحى بن الحسين(٦٣)، وهو من الفرع الحسنى (٢٤٥-٢٩٨هـ/٨٥٩-٩١٠م) وهى تتخذ من المذهب الشيعى الزيدى معتقدا لها، والزيدية من أكثر فرق الشيعة اعتدالا وهى أقربهم إلى أهل السنة والجماعة. جاء الهادى من المدينة المنورة تلبية لدعوة قادة وزعماء القبائل التى تضرب فى شمال اليمن، خاصة قبيلة خولان التى تسكن فى صعدة، حيث لم تتفق القبائل على اختيار زعيم منهم ليحكم فيهم (٦٤)، فنصبوه كأول إمام زيدى فى اليمن سنة ٨٩٧/٢٨٤م (٦٥)، وظلت دولتهم صامدة تختفى من على مسرح الأحداث حينا وتظهر أحيانا أخرى حتى سنة ١٩٦٢ م تتحالف مع القبائل القوية وتنقلب على القبائل الضعيفة، وتضعف وتدخل فى زوايا النسيان، فعندما تتبدل

الاحوال ويصير لها النفوذ والسلطان يرصدها المؤرخون ويرتفع ذكرها فى كتب التاريخ، وعندما يتصارع الأئمة ويصير الأمر إلى أكثر من إمام فى وقت واحد تضعف ويهملها التاريخ(٦٦).

لم ينه حكم الدولة الزيدية صراع الزعامة والسلطة بين القبائل كما كان المرجو، إذ أنها انتهجت سياسة (فرق تسد) مع القبائل اليمنية فلم تسمح بتفوق قبيلة على أخرى مما أسهم فى استمرار الصراع والتنافس بين الجماعات القبلية متخذة فى سبيل ذلك العديد من الأساليب، ومثلت دور الخصم والحكم والحليف فى وقت واحد، والذى مكن الأئمة من هذا الدور كونهم يقفون خارج التركيب القبلى(٦٧)، وهذا الوضع المستقل مكنهم من المناورة(٦٨)، واستغلت الدولة الزيدية مفهوم الدين كعامل أيديولوجى بقصد تحقيق غاية سياسية بحتة عن طريق تحويل المعتقد الدينى إلى نظرية سياسية دينية(٦٩)، مما ألب عليها بنى العباس، حيث أعطت الخلافة العباسية فى بغداد تفويض للدولتين المواليتين الزيادية واليعفرية فى مقاومة هذه الدولة، وقد نجحوا إلى حد كبير فى مهمتهم، فقد كان صراعا بين الدولة القبلية والدولة الدينية، حيث بدأ الإمام الهادى يهدد نفوذهم فى البلاد عندما دخل مدينة صنعاء سنة ٢٨٨ هـ/٩٠١ م وبقى فيها لمدة سنة(٧٠).

ضعفت الدولة الزيدية بعد موت الهادى نتيجة ضعف خلفائه، ثم صار الأمر لفرع آخر من فروع أبناء زيد بن على حيث برز منهم الإمام المنصور بالله القسم بن على العيانى سنة ٣٨٩هـ/٩٩٨م، وتحالف مع همدان التى قدمت له الدعم السياسى والعسكرى ودخل صعدة، وولى عليها ولده جعفر وجعل له نصف خراجها، ونصفا لبنى الهادى،وكذلك نصيبا من مكوس التجارة، وارتفع شأن الدولة الزيدية مرة أخرى مع هذا الفرع الجديد، حيث دخلت صنعاء فى طاعتهم لفترات متقطعة،ودخلت بطون القبائل فى شمال اليمن معهم فى تحالفات طالما كانت تخدم مصالحهم السياسية والاقتصادية (٧١) لذلك تميزت العلاقة بين الطرفين القبيلة والدولة الدينية خلال ما يقرب من الف عام بالتقلب والتحول من حين لآخر، فكما كانت القوة والمساندة القبلية تمثل عامل دعم ومساندة فى قيام دولة الإمامة، فقد تحولت بعد ذلك لعامل هدم لها، ومنذ مطلع القرن العاشر الميلادى، وحتى منتصف القرن العشرين ظلت العلاقة تعتمد على حالة التوازن، كما أصبحت كل منهما قوة سياسية عسكرية معارضة ومنافسة للأخرى، بحيث ان أيا منهم لم يكن قادرا على أن يحسم السلطة لنفسه دون أن يواجه بمعارضة ومنافسة شديدة من القوى الأخرى (٧٢).

تعتبر دولة الصليحيين الإسماعيلية الموالية للفاطميين ٤٣٩-٥٣٢هـ/١٠٤٧-١١٣٨م(٧٣) هى الأخرى دولة قبلية ذات مذهب دينى، فمؤسس

الدولة محمد بن على الصليحى ينسب إلى قبيلة حاشد الهمدانية (٧٤)، تمكن من تأسيس دولة شيعية المذهب باليمن ٤٣٩هـ/١٠٤٧م، ولم تنته سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م إلا وقد فرض على بن محمد الصليحى نفوذه على دولة مترامية الأطراف تمتد من مكة حتى حضرموت (٧٥)، حيث اتخذ من صنعاء عاصمة له، وأصبح الصليحى يحكم اليمن باعتباره نائبا عن الخليفة الفاطمى المستنصر فى مصر(٧٦)، وبفضل الصليحى عادت الوحدة السياسية لليمن بعد غياب طويل، حيث شهدت اليمن حالة من الصراع السياسى بين القبائل وكان الحال عبارة عن أحلاف تارة ونزال وخصام تارة أخرى، ولو أخذنا صنعاء على سبيل المثال فى فترة الفراغ السياسى قبيل قيام الدولة الصليحية نجد خولان وهمدان وحمير والأبناء نهاية القرن الخامس الهجرى وعلى التحديد سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٦م ينتفضون فى صنعاء التى كان لها حاكم كل شهر فى تلك الفترة، حيث دخلها الإمام يوسف بن يحيى والشريف محمد بن القسم الزيدى، ولم ينتظم لهم فيها الأمر إلا نصف شهر (٧٧) وتدخل همدان فى الصراع السياسى فى صنعاء بشكل واضح للعيان، فهى التى أرجعت أحمد بن قيس ابن الضحاك إلى الإمارة فى صنعاء سنة ٤٠٩هـ/١٠١٧ م بعد أن كثر الاختلاف بين أمرائها وخروجه منها (٧٨) وكانت تستدعى الزيديين، ثم تجتمع للحرب عليهم مع غيرها من القبائل فى سنة ٤١٦هـ/١٠٢٤ م، ثم تستدعى جعفر بن الإمام القسم بن على العيانى سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩ م، ثم تفترق عنهم ثم تستدعيه أخرى (٧٩). نخرج من هذا أن صنعاء فى هذه الفترة كانت تتقاذفها الأمواج والحكم فيها لمن غلب، وتداول السلطة فيها يتم بالقوة، وتحاول القبائل وخاصة همدان إيجاد غطاء شرعى لها من الزيديين، وعندما تجد أنهم لا يلبون طموحاتهم ينقلبون عليهم، لذلك كانت صنعاء فى تلك الفترة وأعمالها كالخرقة الحمراء بين الأيدى على حد قول يحيى بن الحسين حتى دخلها على بن محمد الصليحى (٨٠).

دخلت القبائل فى الدعوة الفاطمية مع كونها تخالف إلى حد ما معتقداتهم المذهبية، فقد فرض على بن محمد الصليحى سيطرته بالقوة على كل الكيانات القبلية التى حولت بلاد اليمن إلى جزر منعزلة (٨١)، بيد أن هذه الوحدة لم تعمر طويلا، إذ بموت على بن محمد الصليحى سنة ٤٧٣هـ/١٠٨١م(٨٢) عادت اليمن إلى ما كانت عليه من تفتت سياسى ولم يأت توحيد اليمن إلا بفكر سياسى عالى من الصليحى الذى خبر نفسية القبائل العربية ونزوعهم إلى الحرية والمساواة، وكراهيتهم للظلم وثورتهم على كل سلطة، فتسلح بالمذهب الدينى وحاول أن يوازن ما بين اصله القبلى ومذهب الدينى لأنه يعلم أن القبائل لن تمكنه من استقرار سلطانه لذلك جمع الصليحى زعماء القبائل (الملوك والأكبار) فى معيته أينما حل حتى يضمن ولائهم ويأمن غدرهم (٨٣)،

كما أنه أظهر الحرية المذهبية خاصة مع أهل السنة فى زبيد (٨٤). بعد موته وعودة زعماء القبائل إلى بلادهم رفعوا راية العصيان مرة ثانية ضد حلفاء على بن محمد الصليحى وانفرط عقد بلاد اليمن مرة أخرى (٨٥). ففى عهد السيدة أروى تزعمت خولان الثورة والمعارضة لدولة الصليحيين مما أثار مخاوف الفاطميين فى مصر فأرسلوا أحد قوادهم الذى يدعى على بن إبراهيم بن نجيب الدولة الذى وصل إلى اليمن سنة ٥١٣هـ/١١٣٠م وعمل على إنهاء التمرد (٨٦) بعد موت سبأ بن أحمد الصليحى سنة ٤٩١ أو ٤٩٢ هـ/١٠٩٨ أو ١٠٩٩م خرجت صنعاء وأعمالها عن مملكة الصليحيين، حيث استولى عليها يومئذ السلطان حاتم المغلسى الهمدانى (٨٧).

أما النموذج الثالث فى إطار علاقة القبيلة بالدولة الدينية فى اليمن فيظهر فى الدولة المهدية ٥٤٤-٥٦٩هـ/١١٥٩-١١٧٣ م ويبدو هذا النموذج مختلفا بعض الشىء عن نموذج الدولة الزيدية، ويتوافق مع الدولة الصليحية بحسب أن الدولة المهدية هى دولة قبلية ذات مذهب دينى، حيث ينسب على بن مهدى إلى حمير (٨٨)، والفرق الوحيد بين المهديين والصليحيين أن استراتيجية على بن محمد الصليحى تجاه القبائل كانت أكثر فاعلية، فضلا عن كثرة بطون همدان وانتشارها فى المناطق الهامة فى البلاد، وغالبا ما كان يقال أن المهديين خوراج (٨٩) بالرغم أنه لا يوجد ما يساند هذه الدعوى (٩٠) باستثناء افتراض أنهم كانوا يؤمنون بأن كل معصية من المعاصى هى كفر توجب إقامة الحد وهو القتل، ويؤكد على ذلك عمارة اليمنى(٩١) بقوله «أن المذهب الذى كان عليه على بن مهدى وما يعتقده كان حنفى الفروع» وهو أمر مقبول بدليل مساندة علم النجاحية (٩٢) لعلى بن مهدى فى بداية ظهوره سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م، ومعلوم أن زبيد عاصمة النجاحيين كانت حنفية المذهب (٩٣) وكون ابن مهدى قبلى ويعرف طبائع القبائل أراد من خلال دعوته الدينية أيا كانت صبغتها من السيطرة على القبائل ليقود بتحالف منهم دولته حيث خرجت معه بعض بطون خولان وأهل الجبال(٩٤)، كما أنه يعرف نزعتهم الانفصالية فشدد على طاعتهم له طاعة عمياء باسم الدين، ووصلت طاعتهم له أنه فى حالة غضبه على أحد من أكابر أتباعه يحبس نفسه فى الشمس ويمتنع عن الطعام والشراب ويقاطع أسرته، ولا شفاعة له حتى يرضى عنه المهدى من تلقاء نفسه، كما أنه يعرف أن قوة القبائل تحفزهم على الخروج على السلطان فمنع عنهم الخيل وجعلها فى اسطبلاته يدفعها إليهم عند الحاجة(٩٥).

يضاف إلى الدول القبلية ذات الصبغة المذهبية دولة بنى زريع فى عدن التى ينتسب حكامها إلى قبيلة يام الهمدانية، حيث كانت عدن تابعة فى أول أمرها إلى الصليحيين وحكامها نوابا لهم، وبعد ضعف الدولة الصليحية

استقلوا بالمدينة وأقاموا دولة شيعية [٩٦]، ومن أشهر حكامهم الداعى سبأ بن أبى السعود (٤٨٩-٥٣٣هـ/١٠٩٥-١١٣٩م)، حيث ارتفع شأنه نتيجة انقسام الخلافة الفاطمية بعد اغتيال الخليفة الآمر فى ذى القعدة سنة ٥٢٤هـ/١١٨٠م بتمسك الحرة أروى بالدعوة للإمام الطيب بن الآمر، بينما انحاز سبأ إلى الخليفة الحافظ [٩٧]، فلم يتوان الفاطميون فى إسباغ أنواع التبجيل والتكريم على حاكم عدن الجديد واعتباره ممثلهم فى اليمن بعد ضعف دولة الصليحيين ثم زوالها بموت الحرة أروى (٥٣٢هـ/١١٣٨م)، وقلده الخليفة الفاطمى بمصر الدعوة، وسمى بالداعى سبأ المعظم [٩٨]. أما بالنسبة لسكان عدن فإن موقعها كان سببا فى تعدد الأجناس فيها، فالهمدانى المهتم بدراسة القبائل يعدد سكانها من القبائل مثل الأصابح الحمريين سكان ريف عدن ثم بطون من مذحج وكندة وبنى عامر [٩٩]، والمقدسى المتوفى فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى [١٠٠] يقول «أن أكثرأهل عدن فرس»، وابن المجاور يرصد سكانها خلال القرنيين الخامس والسادس الهجريين / الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين بأنهم عرب مجمعة من الإسكندرية ومصر والريف والعجم والفرس وحضارم ومقادشة وجبالية وأهل ذبحان وزيالع وحبوش.. وغالب أهلها حبوش وبرابر[١٠١]، وتعدد عناصر السكان وأجناسهم بهذا الشكل يؤدى إلى تلاشى العصبية كما أن ارتفاع مستوى معيشة أهل عدن بسبب رواج التجارة فى المدينة حيث يعتبرها الهمدانى أقدم أسواق العرب [١٠٢] ربما ساهم أيضا فى هدوء العلاقة بين السكان والدولة، واقتصر الصراع على السلطة فى عدن فى بداية الأمر على محاولات نواب الصليحيين من بنى معن فى الاستقلال بعدن فرماهم الصليحيون ببنى زريع الذين ما لبثوا هم الآخرون أن استقلوا بعدن، وما لبث أن شب صراع آخر على السلطة من داخل أسرة بنى زريع الحاكمة [١٠٣].

ضعفت الكيانات السياسية أمام تنازع السلطة من جانب القبائل اليمنية، وإذا كنا قد علمنا أن على بن مهدى التى تعرضنا لدولته سابقا دان له خمس وعشرون دولة من دول أهل اليمن [١٠٤] وما قام به الصليحى من اعتقال لزعماء القبائل، فإن ذلك يبين مدى الخطر الذى كانت تمثله القبيلة على الدولة أيا كانت قبلية أم مذهبية، ومن تلك الأمثلة يتضح حتى وإن كان هناك دولا كبيرة مذهبية أو قبلية كانت فإن هناك دولا قبلية صغيرة تمثل بطونا صغيرة لها حكومتها المحلية وقوانينها الخاصة، بل واقتصادها الذى تعتمد عليه فى استقلالها السياسى، أى: دولة داخل الدولة، ويعتبرهذا النظام امتدادا لنظام الأقيال والأذواء الذى كان متبعا فى اليمن قبل الإسلام ونظرة سريعة على حالة الفوضى السياسية عشية غزو الأيوبيين لليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م نرى كيانات سياسية منها ما هو قبلى ومنها ما هو مذهبى، حيث كانت دولة بنى مهدى

تسيطر على تهامة من مدينة زبيد العاصمة، ودولة بنى زريع نواب الصليحيين الشيعة كانوا يحكمون عدن وما حولها، والأئمة الزيديون من بنى الهادى يسيطرون على الجزء الشمالى من البلاد وعاصمتهم صعده، وبنو عمومتهم أبناء الإمام القسم العيانى شهارة وبلادها [١٠٥]، وبنو حاتم يسيطرون على منطقة صنعاء، والجوف وما إليه لآل الدعام، وهناك دولة صغيرة فى المنطقة المحيطة بحرض حيث يتمتع فيها السليمانيون ببعض السلطة [١٠٦]. لذلك فإن هذه الكيانات السياسية الضعيفة لم تقو أمام الأيوبيين الذين قضوا على كل سلطان لها فعاد اليمن من جديد شبه موحد، حيث احتل الأيوبيون من جنوب صنعاء فى الشمال حتى شواطئ المحيط الهندى بما فى ذلك تهامة والسهل الساحلى الغربى وعدن فى الجنوب وحتى حضرموت من جهة الشرق واسسوا عاصمة جديدة لهم وهى تعز [١٠٧]، هذا الوصف لملك الأيوبيين هو وصف عام، لكن يمكن القول أنهم حققوا نوعا من المركزية والوحدة بدلا من الفوضى السياسية التى انتابت البلاد نتيجة الصراع السياسى بين القبائل اليمنية.

واللافت للنظر فى خلال الفترة السابقة أن آفة التحاسد والتنافس بين القبائل اليمنية أتت بالغرباء ليحكموا البلاد فمنذ القدم يرى ابن خلدون [١٠٨] أن العرب أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة والمنافسة فى الرئاسة فقلما تجتمع أهواءهم، ولا يمكن التعميم فى هذه القضية، فكما شهدت اليمن قيام دول قبلية متماسكة شهدت أيضا انقسام بين القبائل، بل كان هناك انشقاق داخلى لبطون القبيلة الواحدة، فعلى سبيل المثال عرفت قبائل ربيعة اليمنية بتخاصم بطونها بعضها ببعض وبتباغضها وبتحاسد رؤسائها، لذلك لا تقبل بتملك رئيس منها عليها، ولا يرجع الأمن إليهم إلا بذهابهم إلى قبيلة كندة لتنصيب ملوك منها عليهم [١٠٩]، وحتى فى العصور التالية اعتبر غالبية الأصابح [١١٠] فى عدن سلطان لحج زعيمهم الأكبر يخضعون له أكثرما يخضعون لزعيمهم [١١١]، ويبدو أن منطقة سكناهم أثرت على تماسك عصبيتهم من خلال اتصال عدن بالعالم الخارجى، واختلاطهم بعدد من الجنسيات المختلفة، وما تبع ذلك من تأثير حضارى عليهم، ويضاف إلى التحاسد والتنافس والتأثير الحضارى سبب ثالث فى قبول القبائل اليمنية بحكم الغريب هو القوة، فلا سبيل أمامهم إلا الانصياع لحكم الغريب القوى حيث يخضعون له ويهابونه ويأخذون برأيه فيهم مادام قويا ويقبلون بمن ينصبه عليهم [١١٢].

طرأ تغير على علاقة القبيلة بالدولة فى عصرى الأيوبيين (٥٦٩-٦٢٦هـ/١١٧٣-١٢٢٨م) والرسوليين [١١٣] (٦٢٦- ٨٥٨هـ/١٢٢٨-١٤٥٤م) بسبب سيطرة الدولة على الأرض الزراعية وجعلها إقطاعا خاصة لها[١١٤]، فسلبت

الدولة من القبائل أهم مصدر لتمويل قوتها، فقد كانت القبيلة خلال الفترة السابقة التى اتسمت بضعف الدولة وعدم الاستقرار السياسى تتمتع بقدر كبير من القوة والتنظيم بفضل استقرارها وممارسة الزراعة كمهنة رئيسية حتى صارت المرجح الأساسى فى اعتلاء السلطة.

هبت رياح غير مواتية على القبيلة اليمنية مع النظام الجديد، وبدا واضحا هذا التغير على القبائل التى تعتمد على الزراعة فى حياتها، وأصبح من السهولة ملاحظة مناطق تتميز بالتواجد القوى للنظام القبلى، وأخرى تتميز بضعف واضمحلال هذا النظام لدرجة اختفاء التنظيمات القبلية فيها، أما المناطق التى استمر تواجد النظام القبلى قويا فيها فهى المناطق شبه الصحراوية [١١٥] خاصة المنطقة الشرقية المحاذية للربع الخالى والمرتفعات العليا الممتدة من يريم وذمار شمالا حتى صعدة، وهى تتميز بقلة الامطار وقلة خصوبة الأرض وتضاريس وعرة فضلا عن الصحراء الجرداء، ويعتمد سكانها على اقتصاد الغزو حيث فرضت الطبيعة عليهم هذا النوع من الإنتاج[١١٦]، فلم يستطع السلطان المظفر يوسف بن المنصور عمر ثانى حكام الدولة الرسولية أن يسيطر على المنطقة المرتفعة شمال صنعاء على الرغم من قوة شكيمة الدولة فى عهده فقد استعمل القوة فى ضم تهامة والمرتفعات وصنعاء ثم حضرموت وجنوب الجزيرة حتى ميناء ظفار لكنه لم يستطع استمالة القبائل الشمالية التى تخضع لسلطة الزيديين فأبرم معهم سلام سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م [١١٧].

أما المناطق التى ضعف فيها النظام القبلى فتشمل فى الغالب المرتفعات الوسطى والغربية مع أجزاء كبيرة من تهامة وتتميز بخصوبة أراضيها ووفرة المياه. هذه المناطق أصبحت مركز جذب سكانى أدى إلى تغير فى التركيبة الأثنية، ويعبر ابن خلدون [١١٨] عن ذلك بقوله: «ثم وقع الاختلاط فى الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الأنساب بالجملة وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت ثم تلاشت القبائل ودثرت العصبية بدثورها» واندثار العصبية أفرز عاملا جديدا فى تماسك الجماعة وهو وحدة الإقليم أى الانتساب إلى المكان، ويضاف إلى هذا أيضا هيمنة الدولة الأيوبية على هذه المناطق الغنية بفرض سلطة وهيبة الدولة مما أضعف من النظام القبلى[١١٩]، ويرى أحد المستشرقين[١٢٠] أن القبائل الجبلية لديها وعى بالتملك، وهذا الوعى غير موجود بين نظرائهم من البدو سكان الصحراء، بمعنى أن وعى التملك كان من ضمن عوامل ضعف النظام القبلى، وأيا ما كان السبب فى ذلك الطبيعة أو سلطة الدولة أو الوعى أو ثلاثتهم، فبمرور الزمن أصبحت المناطق الخصبة خاضعة لسلطان الدولة، ومن ثم غابت سلطة القبيلة، أما المناطق الفقيرة فظلت متمسكة بالنظام القبلى.

واستمر حكم الغرباء للدولة اليمنية وطالت المدة وزاد ضعف القبائل فى المناطق الخاضعة لحكوماتهم، وبدأ نمط جديد من أنماط العلاقة فى تلك المناطق أطلق عليه أحد الدارسين علاقة بين الدولة والقرية، حيث اختفى تقسيم السكان إلى قبائل وحل محله وحدات جغرافية، ويبدو أن القبيلة بشكل عام فى البادية والقرية، فى أيام هاتين الدولتين تعرضت لهزة شديدة خاصة أن الحكام ليسوا عربا ويمقتون العصبية وزاد جهدهم فى إضعافها إذ أن فى ضعفها قوة لهم، وقد نجح الأيوبيون فى ذلك وورث ذلك الرسوليون عنهم، لكن القبائل لم تسلم بالرغم من ضعفها ووهنها، حيث عانى الرسوليون كثيرا على أيدى المتمردين من القبائل، وعندما مات الناصر أحمد سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٤م آخر الحكام الأقوياء تدهورت الدولة بسرعة، ولم يكن بوسع من أتى بعده أن يوقف المد الذى يجرى ضده بقوة، وساء من الموقف تفشى مرض الطاعون فى البلاد، وزاد الطين بله أن الأمراء الرسوليين بدءوا فى التنازع فيما بينهم، ومع سقوط عدن فى أيدى الطاهريين سنة ٨٥٨هـ/١٤٠٤م واستسلام الأمير الرسولى هناك انتهت هذه الأسرة (١٢١).

ينتهى حكم الغرباء مؤقتا لليمن باستيلاء حكام من أهل البلاد على السلطة، حيث أقاموا دولة عرفت فى التاريخ بالدولة الطاهرية ٨٥٨-٩٢٣هـ/١٤٥٤-١٥١٧م على أنقاض الدولة الرسولية حكامها يعود أصلهم إلى منطقة جبان والمقرانة (١٢٢) حيث استولوا سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣ م على لحج التى تبعد بضعة أميال شمال عدن، ومن هناك استولوا على الميناء الرئيسى لليمن سنة ٨٥٨هـ/١٤٥٤م وكانوا أقل طموحا من أسلافهم الأيوبيين والرسوليين فى مناطق المرتفعات الشمالية التى يتحصن بها الزيديون والقبائل المتحالفة معهم، لكن أعادوا زبيد مرة أخرى إلى الواجهة باتخاذها عاصمة شتوية مما جعلها تستعيد دورها السابق كعاصمة ثقافة لليمن. فى أوائل القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى قرر حكام مصر المماليك غزو اليمن واستغلالها كقاعدة ضد التهديد البرتغالى المتزايد لطريق التجارة الشرقية، حيث وصل أسطول مملوكى إلى جزيرة كمران التى تقع قبالة ساحل زبيد سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م، ورفض السلطان الطاهرى الظافر عامر تموين السفن مما أعطى ذريعة للمماليك بشن حرب ضده، ودارت المعركة بين الطرفين قرب زبيد فاضطر الظافر عامر إلى التقهقر إلى تعز. وتدخل فيها الزيديون لصالح المماليك، كما ساندهم السلطان العثمانى سليم الأول باسلحة نارية كانت تستخدم لأول مرة مما أفقد التوازن بين الطرفين، ولاحق المماليك الظافر عامر إلى تعز حيث استولوا عليها وواصلوا إلى المقرانة، وفشلت محاولات الطاهريين فى قطع الطريق إلى صنعاء أمامهم مما أدى إلى سقوطها فى أيديهم،

وقبض المماليك على عامر وهو يحاول الهرب لتصل الأسرة الطاهرية إلى نهايتها (١٢٣). وعادت اليمن مرة أخرى لحكم الغرباء.

خلاصة القول أن الصراع على السلطة كان سمة الحكم فى اليمن خلال العصر الإسلامى الوسيط حيث تدخلت القبيلة بكل قوتها فى محاولة منها للمحافظة على استقلالها وخصوصيتها، ونهجت فى سبيل ذلك كل الطرق الممكنة وغير الممكنة، فعقدت التحالفات ونقضتها، فتارة توالى الحاكم وأخرى تقلب له ظهر المجن، وساعدها على ذلك تجهيزها العسكرى، وطبيعة اليمن الجغرافية، لذلك ظلت فى الواجهة يخطب ودها كل من تاق إلى السلطة والحكم، ولم تستسلم إلا فى بعض الفترات التى خضعت البلاد فيها لحكم الغرباء الذين استعملوا القوة العسكرية والسياسة والاقتصادية فى إضعاف العصبية القبلية.

العبيد والدولة

قبل الخوض فى تفاصيل علاقة العبيد بالسلطة فى اليمن لابد من إلقاء نظرة على الهجرة الحبشية إلى اليمن وكيف أن الجغرافية لعبت دورا مهما فى هذه الهجرة، ففى عصر البلايستوسين (١٢٤) حوالى مليون سنة قبل الميلاد ظهر اليمن منفصلا عن إفريقيا بسبب تصدع الأخدود الإفريقى وتكوين البحر الأحمر، وبفضل التصدع والبراكين تكونت الهضبة اليمنية والحبشية، واصبحتا تشكلان لوحين قاريين متقابلين(١٢٥)، كما أن الأخدود ترك أرخبيلا من الجزر(١٢٦) عند مدخل البحر الأحمر من الجنوب فى المنطقة الواقعة بين اليمن والحبشة وهذه الجزر فضلا عن ضحالة مياه البحر ساعدت على سهولة الهجرة بين البلدين ويقول ابن المجاور «يقال أنه كان فى قديم العهد لم يكن هذا بحرا(الأحمر) وإنما كان عرصة(١٢٧) إلا أنه لا فرق بين بر العرب وبر السودان، فالأجل ذلك أن السودان كانت تملك إقليم اليمن جميعا فى زمن الجاهلية والإسلام، ولما كثر الماء فى البحر وظهرت صعوبته من قريب صاروا يعدونه فى المراكب» (١٢٨).

فالأصول التاريخية لعدد من قبائل الحبشة يعود لقبائل يمنية هاجرت فى قرون بعيدة عبر البحر الأحمر، وظلت منطقة تهامة تولى وجهها شطر الجانب الإفريقى فى علاقة متصلة أكثر من علاقاتها بالداخل اليمنى، حيث كشفت الحفريات الأثرية التى قامت بها بعثات أمريكية سنة ١٩٨٥ م وأخرى إيطالية سنة ١٩٨٥-١٩٨٧ م فى منطقة مأرب أنه فى هذا الشريط الممتد على ساحل البحر الأحمر حتى منطقة أبين كان هناك حضارة مزدهرة استمرت المئات من السنين قبل الميلاد تسمى حضارة صبر تعود للقرن الثالث عشر حتى منتصف القرن التاسع ق.م قامت على الزراعة والرعى والصيد البحرى

والتجارة، ثم تعطينا الحفريات معلومات عن عبور حيوانات من أصل إفريقى لليمن ترجع للقرن السابع ق.م، مما يعنى هجرات بشرية من الحبشة إلى اليمن فى تلك الفترة، ثم قامت مملكة أكسيوم على غرار الممالك اليمنية، حيث لعبت قصة الملك سليمان وبلقيس دورا أساسيا فى القاعدة الشرعية التى قام عليها الحكم الملكى فى الحبشة لمدة ثلاثة آلاف سنة من خلال ذلك الطفل مينيليك مؤسس المملكة الحبشية، والذى تزعم الأساطير أنه كان ثمره حب الملك سليمان وبلقيس التى تسمى فى التراث الأثيوبى ماكيدة أو ملكة الجنوب(١٢٩).

طلب الحميريون النجدة من ملوك أكسيوم فى حربهم مع السبائيين، مما يعنى تبادل الهجرات البشرية على الضفتين، ولقد مهدت الحروب الأهلية الداخلية لدخول الأحباش إلى اليمن، إذ يبين نقش بالخط المسند أنهم عبروا إلى اليمن بعدما استعرت الحرب بين سبأ وحمير ورحبة وكندة ومضر وثعلبة، ومن ضمن الأسباب الأخرى التى قدمها المؤرخون لغزو الأحباش لليمن هو تلك العدواة القديمة بين الأحباش وعرب اليمن بسبب خطف الأحباش من سواحل الحبشة وبيعهم أرقاء في بلاد العرب(١٣٠)، هذا الأمر يطرح قضية الرقيق الأسمر القادم من ضفة البحر الأحمر المقابلة لليمن فى شرق إفريقيا ويضعنا فى موضع مناقشة لقضية العلاقة الجغرافية بين الضفتين، إذ أن البحر الأحمر كان مخاضة لقلة مائة (١٣١) فمن السهل عبور الجيوش والمهاجرين إلى اليمن، وعلى أثر ذلك قامت دولة كبيرة قبل الإسلام يتزعمها الأحباش فى اليمن بمساعدة الحبشة وبدعم رومانى (١٣٢) وهنا يبدو التأثير الحضارى ففى الجانب اليمنى استقرت العناصر الإفريقية، ونقلوا معهم أنماط حضارتهم وأثروا فى التركيب السكانى والجسمانى والثقافى (١٣٣)، وكذلك تأثرت عادات وتقاليد أهل اليمن بالعادات والتقاليد الإفريقية، ويبدو طراز المسكن الإفريقى المخروطى الشكل الذى يتكون من قش وفروع الأشجار الذى انتشر بين سكان السفوح الغربية لهضبة اليمن المطلة على البحر الأحمر نموذجا على هذا التأثير (١٣٤).

قيام دولة فى اليمن يتزعمها موالى كانوا عبيدا وهى دولة بنى نجاح ٤٠٣-٥٥٥ هـ/١٠١٣-١١٥٠ م يطرح سؤالا هو لماذا ظل مؤرخى اليمين يرددون هذه الصفة صفة العبد أو العبيد التى لازمت حكام هذه الدولة ؟ هل هو نوع من التحقير أم هو تعصب من جانبهم، فالمصادر تقول (وزالت دولة بنى زياد وانقلت إلى عبيد عبيدهم) (١٣٥) وهو يعنى بذلك انتقال السلطة من الحسين بن سلامة (١٣٦)- وسلامة هذه هى أمه ؟ آخر حكام دولة بنى زياد وهو من مواليهم إلى مراجان وهو من عبيد الحسين بن سلامة الذى كان بدوره هو الآخر له عبدان

من عبيد الحبشة (فحلان) رباهما فى الصغر هما نفيس ونجاح ووقع بينهما التنافس كانت الغلبة فيه لنجاح الذى اقام الدولة، فلماذا لم يطلق المؤرخون على دولة الأحباش فى اليمن التى قامت سنة ٥٢٥ م وظلت تحكم البلاد لمدة خمسين سنة (١٣٧) مثل تلك الصفة ؟ والإجابة تبدو فى حكام الدولة، فدولة الأحباش الأولى تزعمها الغزاة القادمين من الحبشة لاحتلال البلاد، أما الثانية فتزعمها من كانوا عبيدا مستضعفين يعملون فى بلاط الدول القبلية تعصب عن تصعب المؤرخين اليمنيين وميلهم إلى التحقير من شأنهم.

وهنا نطرح قضية الرقيق الذين اقاموا دولا فى العالم الإسلامى، فمنذ أن أقام المملوك أو العبد سبكتكين قواعد الدولة الغزنوية فى غزنة بأفغانستان، ثم توسع فى جنوب غرب آسيا وشمال الهند، وذلك فى أواخر القرن الرابع الهجرى / أواخر القرن العاشر الميلادى، حيث انسلخ من الدولة السامانية، وظل اسلافه يتوارثون الحكم حوالى قرنين من الزمان (١٣٨)، وتوالى قيام دول أخرى على هذا المنوال حيث عاصرت دولة بنى نجاح هذه الدولة وسارت على نفس النهج وهو السطو على الحكم فى غيبة الأقوياء من بنى زياد، وفى نفس الوقت أقام عماد الدين زنكى دولة فى الموصل على أنقاض سادته السلاجقة(١٣٩)، وتلى ذلك فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى قيام دولة المماليك فى مصر على أنقاض سادتهم الأيوبيين متزامنة مع دولة أخرى قامت فى الهند باسم سلطنة دهلى أقامها عبيد العبيد(١٤٠)، مثل دولة بنى نجاح على حساب دولة الغور الإسلامية، كمان أن دولة بنى رسول التى قامت فى اليمن على أنقاض الدولة الأيوبية بعد أقل من قرن من نهاية دولة بنى نجاح هى الأخرى دولة لأتابكة الأيوبيين الذين كانوا بدورهم أتابكة لنور الدين محمود (١٤١) كل هذه الدول تشابهت فى ظروف قيامها وهو شراء أطفال لم يبلغوا الحلم وتتم تربيتهم فى البلاط، كان هذا النظام متبعا فى اليمن، فمرجان عبدا لحسين بن سلامة يشترى طفلين من الأحباش لم يبلغا الحلم ويربيهما فى بلاط الوزارة، فيقول ابن المجاور (" فاستقرت الوزارة لمرجان وكان له عبدان فحلان من الحبشة رباهما فى الصغر وولاهما فى الكبر أحدهما يسمى نفيس والثانى يسمى نجاح) (١٤٢) فهل هو نوع من المصادفة أم هو إفراز طبيعى لفساد السلطة وأصحاب السلطان ؟

تبدأ علاقة العبيد بالسلطة بالدخول فى خدمة الحكام ومن مواقعهم داخل كواليس الحكم يستمدون الخبرة فى أصول الحكم، وبالتالى يمكن القول أن دولة بنى نجاح ولدت من رحم الدولة الزيادية، وهو الأمر الذى يختلف مع ما رصدناه سابقا فى علاقة القبيلة بالدولة، حيث رصدنا هذه العلاقة بأنها علاقة الند للند، أما هذه العلاقة فتبدأ بعلاقة سيد تابع وتنتهى باعتلاء التابع

السلطة، ويبدو أن هذا النظام كان سمة من سمات الحكم الإسلامى خلال العصور الوسطى خاصة فى فترات ضعف الدول وهرمها، فالخلافات داخل الأسر الحاكمة وصراع السلطة هى مدخل هؤلاء إلى الحكم، وقد يفضل الحاكم أن يورث الحكم لعبده بدلا من ابنه أو أخيه، وهو ما حدث بالفعل فى نهاية الدولة الأيوبية فى اليمن، حيث أوصى آخر حكام الدولة الأيوبية فى اليمن الملك المسعود ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م بحكم اليمن إلى أتابكه نور الدين عمر بن على بن رسول، وجاء فى وصيته لاتابكه نور الدين «قد عزمت على السفر وقد جعلتك نائبى فى اليمن فإن مت فأنت أولى بملك اليمن من أخوتى لأنك خدمتنى وعرفت منك النصيحة والاجتهاد، وإن عشت فأنت على حالك وإياك أن تترك أحدا يدخل اليمن من أهلى ولو جاءك الملك الكامل ولدى مطويا فى كتاب» (١٤٣).

استمدت دولة بنى نجاح قوتها من الكم الهائل من الأحباش الذين استوطنوا اليمن منذ القدم مهاجرين وغازين، وكذلك من خلال الهجرة المباشرة بعد الإسلام إلى اليمن، فقد اراد نجاح أن يرتكن هو الآخر على عصبية من السود تعضد دولته مثلما كانت الدولة القبلية فى اليمن تعتمد على العصبية، حيث استكثر منهم وأسكنهم فى مدينة خاصة بهم وهى مدينة حيس (١٤٤) التى لم يكن فيها بيت من العرب (١٤٥)، وفى المقابل استعان حكام الدولة الصليحية بالكثير منهم حتى فى حروبهم مع دولة بنى نجاح نفسها بنو جلدتهم (١٤٦)، فعندما هجم سعيد الأحول بن نجاح هو وجنوده على معسكر على بن محمد الصليحى اعتقد الناس أنهم من جملة جنود الصليحى (١٤٧)، وقد التفت الصليحى إلى هذا التشابه فى حربه الأولى معهم عندما قال لجيشه : (اعلموا أن عرب هذه الناحية يستولدون الجوار السود فالجلدة السوداء تعم العبد والحر، ولكن إذا سمعتم من يسمى العظم عزما فهو حبشى (١٤٨) فاقتلوه، ومن سماه عظما فهو عربى فاتركوه) (١٤٩) والنص يدلل على اكتساب المولدين من جوار حبشيات لصفات أمهاتهم الشكلية أما العادات المكتسبة مثل اللغة فهى خاضعة لطبيعة التربية العربية للنشء بعيدا عن أمه، وبالتالى استطاع الصليحى أن يشق الصف النجاحى مستغلا الحالة الاقتصادية المتردية للأحباش.

جعل بنو نجاح من جزيرة دهلك(١٥٠) محطة انتظار بين بلادهم واليمن، فهى حصن لمن ملك تهامة على حد تعبير الهمدانى (١٥١) حيث تحصنوا فيها ريثما تستقر الأمور ويلتقطون أنفاسهم ويترقبون ثغرات فى الحكم الصليحى ينفذون منها مرة أخرى إلى السلطة، حيث قصدها جياش بن نجاح، وانتظر أخيه سعيد الأحول بن نجاح فى زبيد فى جوار وحماية زعيم خولانى يستطلع الأمر حتى وجد الفرصة المناسبة، فاستدعى الأحباش من دهلك ودخلوا فى

معركة مع الصليحيين قتل فيها على بن محمد الصليحى، وانتعش الأمل من جديد فى السلطة حيث تسيدوا زبيد من جديد وبسطوا سلطتهم على تهامة سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م بقيادة جياش بن نجاح ت ٤٩٨هـ/١١٠٦ م الذى ما لبث أن تنازع أبناؤه على السلطة بعد وفاته، وتحالف بعضهم مع أعدائهم الصليحيين ضد بعض إلى أن جاء على بن مهدى وقضى على الجميع (١٥٢)، وبالتالى انتهت دولة العبيد فى اليمن سنة ٥٥٥هـ/١١٥٠م (١٥٣)، لكن ظلت أثارها الاجتماعية فى اليمن باقية حتى الآن متمثلة فى بعض الصفات الجسمية والشكلية وبعض أنماط المعيشة.

الدولة والأبناء

انتفض سيف بن ذى يزن ضد حكم الأحباش واستنجد بالإمبراطور البيزنطى ضدهم، لكن الامبراطور رفض التدخل لكون سيف يهودى من نسل ذى نواس (١٥٤)، فلجأ إلى كسرى فارس أنوشروان الذى نصره، وأرسل إلى عدن حملة فارسية من نزلاء السجون الفارسية بقيادة وهريز سنة ٥٧٥م (١٥٥) على أن يتزوج الفرس من نساء اليمن، وأن لا يتزوج اليمنيون من النساء الفارسيات (لاحظ هذا الشرط المتعسف تبناه أحد الولاة العرب أيام الخليفة المأمون)، ويرى أحد الدارسين أن فى هذا الشرط نظرة استعلائية على أهل اليمن(١٥٦) بعد ذلك استطاعت هذه الحملة هزيمة النصارى الأحباش وغزو صنعاء(١٥٧)، هذا الاختلاط والتزواج أفرز نوعا جديدا من السكان ذات دماء مختلطة أطلق اليمنيون عليهم لقب الأبناء، واستتب الأمر لسيف بن ذى يزن على أن يدفع الجزية والخراج السنوى لكسرى أنوشروان.

قتل سيف بن ذى يزن على أيدى عبيده الأحباش انتقاما منه فعاد وهريز مرة أخرى إلى اليمن، وأمره كسرى ألا يترك باليمن أسود ولا ولد عربية أسود إلا قتله (١٥٨)، ومنذ ذلك الوقت تولى الفرس مهمة حكم اليمن حتى دخول الإسلام فاسلم الحاكم الفارسى باذان وأقره الرسول صلى الله عليه وسلم واليا على اليمن (١٥٩) انتقل الصراع على السلطة بين العرب والأبناء، فهذه الطبقة الحاكمة التى ظلت تحكم اليمن منذ سيف بن يزن آن لها أن تضعف أمام التغيرات الجديدة التى حدثت فى اليمن بعد دخول الإسلام، وكان أول اختبار حقيقى لقوة الأبناء هو تمرد الأسود العنسى الذى كان فى مجمله ثورة على الحكم الأعجمى ومحاولة للبحث عن السلطان الضائع للقبائل العربية أصحاب الأرض (١٦٠). خرج الأبناء من هذا المأزق أكثر ضعفا (صحيح أنهم استطاعوا أن يضعوا نهاية لحياة الأسود بالحيلة والخديعة إلا أنهم خرجوا من محنة ليجدوا اختباراً أصعب) فهذه المرة كان عليهم إما أن ينتصروا وإما أن يتم نفيهم إلى

فارس مهد أجدادهم الأولين، فقد قرر قيس بن مكشوح حليفهم فى قتل الأسود العنسى (١٦١) مدفوعا بعصبية جاهلية أن ينفى الأبناء إلى فارس بعدما رأى من خليفة المسلمين أبو بكر الصديق مساندة لهم، حيث أقر فيروز الديلمى واليا على اليمن (١٦٢).

استجار فيروز الديلمى بأخواله من قبيلة خولان من قيس بن مكشوح، وأرسل الخليفة أبو بكر الصديق المهاجر بن أبى أمية لمعونة الأبناء ضد قيس(١٦٣)، وتم القضاء على هذه الحركة لتعود من جديد علاقة الأبناء بالسلطة على فترات متقطعة حيث استعمل معاوية بن أبى سفيان سعد بن داذويه ثم أقر عبد الله بن الزبير عندما ظهر بمكة الضحاك بن فيروز الديلمى (١٦٤) لتنتهى علاقة الأبناء بالسلطة، حيث خضعوا لنظام الأقليات العرقية فى اليمن، ويتعرضون لبعض المشاكل العرقية، حيث تعصب والى اليمن فى زمن الخليفة العباسى المأمون يزيد بن جرير بن خالد القسرى للعرب فأمر بطلاق نساء العرب منهم، وهو أمر عزله بموجبه الخليفة المأمون (١٦٥) الذى كان نتاجا من زواج عربى بفارسية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن جد هذا الوالى أسد بن عبد الله القسرى هو الذى استعمل العنف مع الدعاة العباسيين الفرس من أهل خراسان وأذاقهم سوء العذاب وقطع أعناقهم عندما كان واليا من قبل الأمويين على خراسان (١٦٦) ويبدو أن ترحيلهم إلى عدن فى محاولة نفيهم التى لم تتم زاد من أعدادهم فيها خاصة بعد ازدهارها التجارى، وعلى الرغم من ذلك فإن لهم بقية فى بعض قرى اليمن (١٦٧)، ويلخص الهمدانى علاقتهم بالسلطة فيقول: «كانوا يميلون مع كل سلطان يقدم من العراق عليهم، يزورون الشهادات ويبرون ويرشون المكائد، فإذا انقطع ذلك السلطان ألقوا بأيديهم إلى السلم، ومتوا القديم ونظروا إلى من حولهم نظر المغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوهم بألسنة حداد وقلبوا لهم الأمور» (١٦٨)، وهو قول فيه مبالغة وعصبية مقيتة إلا أنه يعبر عن واقع هذه الفئة التى اعتلت قمة السلطة قبل الإسلام وبعده، ثم هوى بها التدافع والتنازع عليها، فحاولت أن تحافظ على وجودها على الساحة اليمنية باتباع مقولة ميكافيلى الغاية تبرر الوسيلة.

أهل الذمة والدولة

أولا: النصارى

معلوم تركز النصارى فى نجران ولهم فيها تاريخ طويل قبل الإسلام، ومحنتهم مع اليهود مشهورة ذكرت فى القرآن الكريم، وحظوا بعطف الرومان ورعايتهم، إذ أن النظام السياسى الرومانى كان مرتبطا بالكنيسة ويخدم

النبى رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم.. لا يفتن أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته، وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية، ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ ارضهم جيش.. ولهم على ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبى أبدا حتى يأتى أمر الله» (١٧٨).

ظل الأمر على هذا الحال يدفعون الجزية والخراج، وبالطبع سرى الأمر على كل نصارى اليمن، وقد يتساءل المرء لماذا خص الرسول صلى الله عليه وسلم نصارى نجران بهذا الكتاب دون عامة نصارى اليمن ؟ والجواب يبدو فى سببين الأول : الكثافة العددية لهم فى نجران، إذ يخبرنا البلاذرى(١٧٩) أن عددهم فى نجران بلغ نحو أربعين ألفا، ويبدو أن صاحب الرواية عند البلاذرى كان تقديره بناء على الجزية أو الخراج الذى كان مفروضا عليهم، ولم يضع فى الاعتبار باقى الأفراد المعافين من الضريبة، ومع ذلك فإن هذا الرقم يتناسب مع مدينة ليس لها أى عوامل جذب للنصارى غير قيمتها التاريخية بالنسبة لهم، والدور الذى تلعبه فى التجارة فى شبه الجزيرة. أما السبب الثانى : فهو ثراؤهم حيث امتلكوا الأراضى والعقارات (١٨٠) بجانب عملهم فى التجارة وعلاقتهم المباشرة مع مكة حيث كانت مدينة نجران (عليها المعول فى البيع والشراء) (١٨١). كانت هذه أول علاقة للنصارى بالسلطة فى ظل الإسلام، فقد اعتلوا هرم السلطة فى اليمن قبل الإسلام لمدة قد تزيد عن نصف قرن، ثم أذعنوا لسلطة الفرس لمدة تقل عن نصف قرن بقليل، ويبدو أن ما تمتعوا به من سلطة وسلطان وجبروت فى فترة حكمهم انقلب عليهم فى فترة الحكم الثانية وانزووا فى غياهب النسيان، ولم ينهض بهم إلا ظهور الإسلام.

أجلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نصارى نجران إلى الشام والنجرانية بناحية الكوفة، ويعود ذلك لنقضهم ما صالحهم عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بأكلهم الربا، كما أن البلاذرى يضيف سببا آخر بناء على رواية أحد رواته وهو التنافس والتحاسد فيما بينهم، حيث أتوا عمربن الخطاب وقالوا له أجلنا (١٨٢) وأيا ما كان الأمر فى جلائهم نقضهم العهد أو التنافس فإن الأمر لم يتعد غيرهم فى الجلاء وظل باقى نصارى اليمن يزاولون أعمالهم فى حرية كاملة ويدفعون الجزية (١٨٣) وحتى من أجلى من نصارى نجران سرعان ما عاد إليها خاصة بنو الحارث، إذ يبدو أن هناك عصبية لهم فى تلك المنطقة مكنتهم من العودة، حيث امتلكوا الضياع وكونوا ثروات كبيرة من التجارة (١٨٤). شكل النصارى تهديدا للأمن القومى اليمنى خاصة أنهم يعتنقون نفس عقيدة البيزنطيين والأحباش المتربصين بشبه الجزيرة (١٨٥). ويبدو أن قرار الجلاء كان خاصا بنصارى نجران فقط ولم يمتد ليسرى على باقى نصارى اليمن الذين عاشوا فى أمن وحرية ولم ترصد كتب التاريخ أى صدام لهم لا مع

المسلمين ولا مع السلطة، وقد يرجع ذلك لسببين الأول: قلة أعدادهم فى المدن الأخرى مقارنة بإخوانهم فى نجران والسبب الثانى: هو فيما يبدو ضعف قوتهم الاقتصادية فى هذه المدن، وتعزو قلة الإشارات إلى نصارى اليمن خلال العصور الوسطى إلى ضعف انتشار المسيحية بين أهل اليمن خاصة بعد ظهور الدين الجديد، والدليل أن الكتاب المقدس لم يترجم إلى العربية فى عصر ما قبل الإسلام، وترجم إلى لغات البلاد التى انتشرت فيها المسيحية بشكل واسع، وليس ثمة ما ينهض دليلا على أن الكنائس اليمنية استخدمت اللغة العربية، ويغلب على الظن أنها استخدمت السريانية أو العبرية [١٨٦].

وعلى الرغم أن نصارى نجران كانوا أهل عصبية لكنهم لم ينحازوا لعلى أو معاوية والتزموا الحياد فى هذه الفتنة فليس هناك ما يمكن التضحية من أجله، فالنزاع يخص المسلمين بعضهم بعضا يظهر ذلك بوضوح فى مقالة بسر بن أرطأة قائد معاوية لنصارى نجران «والذى لا إله غيره لئن بلغنى عنكم ما أكرهه لأكثرن من قتلاكم» [١٨٧] وهو قول واضح لا لبس فيه من التزام النصارى بالحياد، وهو عمل عاقل أمام فتنة إسلامية داخلية التدخل فيها لصالح أحد الطرفين فيه خسارة وإن كسب من تحالفوا معه، لكن نزاع المصالح الخاصة البعيد عن ما يضر بسلطة الدولة كان حاضرا من خلال نزاعهم مع بطون همدان التى تسكن نجران مما استدعى تدخل الدولة، ويبدو أن كثرة عددهم فى نجران وقوة شوكتهم بانتمائهم إلى بنى الحارث وغناهم جعلهم ندا لسكان نجران المسلمين، حيث قدم الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين أمام الدولة الزيدية من صعدة سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م بعسكر كثيف لإعادة الأمن المفقود إلى المدينة، وأنهى النزاع وصالح الاطراف ورد المظالم وأعاد إلى النصارى ضياعهم التى سلبت منهم، وقرر أن يضع حلا لضريبة الأرض عند أهل الذمة من النصارى واليهود حتى يحقق التوازن بين الشريعة والواقع، ويزيل الحقد الطبقى بين المسلمين وأهل الذمة، فأهل الذمة سارعوا إلى شراء الأراضى الزراعية من المسلمين، وانعدم العشر على هذه الأرض لأنه لا زكاة على ذمى، وبالتالى انقطع مورد مالى كبير كان ينتفع به المحتاجون، فقرر الهادى إلى الحق ضريبة التسع على أراضيهم التى تسقى سيحا أو بماء المطر ونصف التسع على التى تسقى بمشقة، وهو نوع من الاجتهاد الفقهى من جانب الهادى حتى لا يتساووا بالمسلمين الذين يدفعون العشر، كما قرر الجزية التى أقرها عمر بن الخطاب، وكتب عهدا بما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق، واشترط عليهم بأن يعملوا بهذا الصلح حقنا لدمائهم وأشهد على هذا الصلح جمعا من نصارى نجران وجمعا من المسلمين [١٨٨].

يبدو أن أعداد النصارى الذين سكنوا اليمن فى العصور الوسطى بدأ فى التناقص بسبب اعتناق الإسلام أو الهجرة. حيث يقرر ابن المجاور[١٨٩] أن سكان جميع اليمن « حنابلة المذهب.. ومن الأديان اليهود خلاف جميع الملل» وفى مكان آخر يقرر وجود نصارى فى نجران عندما يرصد سكانها حيث يقول (وينقسم أهلها على ثلاث ملل : ثلث يهود وثلث نصارى وثلث مسلمين) [١٩٠]. فمن المعقول أن يهجروا البلاد إلى مناطق أخرى بجوار إخوانهم فى الدين خاصة تلك الجماعات النصرانية التى لا ترتبط بعصبية فى البلاد، لذلك نجد أن تواجدهم فى مدن اليمن الداخلية كان قليلا جدا بالمقارنة مع تواجدهم فى المدن التجارية البحرية والبرية، حيث نجدهم يشاركون فى تجارة عدن التى جذبت الكثير من الأجناس ذوى الملل والأديان المختلفة سعيا وراء التجارة التى ازدهرت فيها منذ أواخرالقرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى فقد كان المسلمون مع الفرس والنصارى قبل هذا التاريخ يشاركون بنصيب وافر فى التجارة الخارجية بين عدن والهند ثم لعبوا مع اليهود دورا أكبر فى فترةالازدهار بتشجيع من الحكومة الفاطمية[١٩١]، ويذكر بفصاحة أنه كان فى عدن أسقفا حتى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م.

وكان فى منطقة صنعاء خمسة أساقفة حتى أواخر الدولة الأيوبية [١٩٢]، وهذا العدد الكبير للأساقفة فى صنعاء يدلل على كثرة النصارى فى العاصمة القديمة، وسعيهم دوما إلى العيش فى المدن الكبرى بالقرب من السلطة، والانخراط فى العمل التجارى، وفى المهن المختلفة بعدما انتهت سطوتهم فى نجران، كما أن وجود أسقف للنصارى فى مدينة زبيد سنة ٦٠٨هـ/١٢١٠م [١٩٣] يؤكد أيضا على ارتياد النصارى للمدن الكبرى فى اليمن بحثا عن فرصة العمل التجارى والحماية من جانب السلطة، ونلخص من ذلك أن التواجد النصرانى ظل له صدى فى اليمن حتى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى على أيام الدولة الرسولية وتركز معظمه فى المدن اليمنية الكبرى، وذلك عكس ما اعتقده بعض الدارسين [١٩٤]، بأنهم اعتنقوا الإسلام تدريجيا ولم يصبح لهم وجود وبالتالى لم تذكرهم المصادر بعد القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى. اتسمت علاقة النصارى بالسلطة بالحذر وابتعدوا عن المشاركة فى التنازع عليها لضعف قوتهم وقلة حيلتهم ورأوا أن عملهم بالتجارة وبالحرف هو طريقهم للعيش داخل المجتمع اليمنى.

ثانيا : اليهود

تهود عرب اليمن زمن اسعد أبو كرب الحميرى الذى حكم فيما بين ٣٨٥-٤٢٠ م تقريبا، فهو (أول من أخذ بدين اليهودية)، وذكر فى سبب تهوده أنه لما غزا المشرق مر بيثرب فملكها، وتهود على يد أحبار بنى قريظة [١٩٥] ويرى أحد

الدارسين (١٩٦) أن اعتناق الملك الحميرى للدين اليهودى لم يكن لمجرد إعجابه بفصاحة وبلاغة الحبرين، خاصة أن العرب هم أهل الفصاحة والطلاقة، بحيث تتضاءل أمامهم فصاحة هؤلاء اليهود، بل أن السبب يكمن فى أن هذين الحبرين قد نجحا فى إقناع الملك بأن اعتناقه اليهودية سيدعم نفوذه السياسى فى بلاده، ويخلص بلاد اليمن من الفوضى والانقسامات الدينية التى كانت تهدد وحدتها، وبالتالى كان التهود من أجل السلطة والحكم، وظلت اليهودية هى الدين الرسمى للدولة اليمنية ما يزيد عن قرن من الزمان ولم يترك اليهود السلطة إلا قسرا عندما غزا الأحباش النصارى اليمن سنة ٥٢٥ م (١٩٧)، وعانوا معاناة الأقلية الدينية وشربوا من نفس الكأس الذى أذاقوه للنصارى، لكن لم تطل المدة عن قرن من الزمان حتى دخل الإسلام اليمن فقنن وضع أهل الذمة فى الأمة الإسلامية.

انحصر سكن اليهود عند ظهور الإسلام فى المواضع الخصبة وطرق المواصلات والتجارة البرية والبحرية من جزيرة العرب، وانحصر عملهم فى التجارة والربا وفى الزراعة وفى بعض الصناعات التى تخصصوا بها وهى أمور جعلت لهم نفوذا عند سادات القبائل والأمراء والملوك (١٩٨)، وبالتالى لم يكن خروجهم سهلا من اليمن مثل النصارى الذين خرجوا أيام عمر بن الخطاب، ولم ينقل عن أى من الخلفاء الراشدين أنه أجلى يهودا من اليمن، وإنما أجلى عمر بن الخطاب يهود خيبر إلى تيماء وأريحا من ارض الشام (١٩٩)، وهناك من الأسباب التى تؤيد بقاءهم فى اليمن باعتبارهم جماعات متفرقة مبعثرة داخل البلاد ويعملون فى الأعمال التى يأنف منها العرب ولا غنى عنها للمجتمع، كما أن اليهود لم يكن يمثلون أى تهديد للأمن عكس النصارى الذين كانوا يعتنقون نفس عقيدة البيزنطيين والأحباش المتربصين بشبه الجزيرة (٢٠٠). وظل اليهود فى اليمن يدفعون الجزية لحكام البلاد، وينتحل صالح بن داود الأنسى والأعذار للخلفاء الراشدين ولحكام الشمال اليمنى الزيديين لعدم إجلائهم لليهود من البلاد بانشغالهم بالعديد من المهام التى تعتبر أخطر من هذا العمل(٢٠١).

أتاح النظام القبلى فى اليمن فرصة لليهود فى التمتع بالحماية، حيث عاش اليهود فى جوار وذمة القبائل اليمنية وهذا النظام وفر لهم الحرية فى شراء الأراضى الزراعية وجعلهم أعضاء نشطاء خاصة فى مجتمع نجران (٢٠٢)، حيث كانوا يمثلون ثلث المجتمع فى المدينة خلال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى (٢٠٣)، أما فى مدينة صنعاء عاصمة اليمن القديمة فبلغت نسبتهم فيها سنة ٣٨١هـ/٩٩١م (٢٠٤) أكثر من ٥ , ٣٪ بقليل من مجموع السكان(٢٠٥)، ويبدو أن قلة عددهم فى صنعاء عنه فى نجران راجع إلى اعتناق الكثير منهم الإسلام على أيدى معاذ بن جبل فى القرن الأول الهجرى (٢٠٦)، كما سكنوا

مدينة صعده فى شمال اليمن ولهم بها معبد تعرض للحرق سنة ٥٤٧هـ/١١٤٢م من جانب الإمام الزيدى أحمد بن سليمان عندما أكثروا الفساد فى مجتمع المدينة [٢٠٧].

ضيقت الدولة فى عهد على بن مهدى على اليهود[٢٠٨] كما ضيقت على غيرهم من أهل البلاد المسلمين[٢٠٩]، ويبدو أن هذا التضييق كان نتيجة روح التسامح والحرية السياسة والاقتصادية والمذهبية التى تمتع بها اليهود فى عصر الصليحيين الشيعة الموالين للفاطميين، خاصة أن موقف الدولة الفاطمية معروف تجاههم، حيث زادات مكاسبهم الاقتصادية، وتقربوا من أصحاب السلطان مما أوغر صدر المتمرد الجديد عليهم، نجا من هذا الموقف يهود عدن الذين يتبعون دولة بنى زريع الشيعة وكذلك يهود الشمال الذين تمتعوا بحماية الزيديين، تبوأ يهود عدن قيادة اليهود فى أنحاء اليمن نتيجة قربهم من اصحاب السلطان، وكذلك سيطرتهم على النواحى التجارية فى المدينة وتغير وضعهم الاجتماعى من ضعفاء يندرجون تحت حماية القبائل اليمنية إلى أقوياء يتمتعون بحماية حكام المدينة، واختلطوا بأهلها[٢١٠]، وتمعتوا بحق المواطنة والمساواة مع أهل المدينة[٢١١]، وبدءوا يخططون للسيطرة على التجارة فى عدن من خلال حماية حكامها لهم حيث أسند سبأ بن أبى السعود (٤٨٩-٥٣٣هـ/١٠٩٥-١١٣٩م) الذى دام حكمه لعدن ما يقرب من ثلاثة وأربعين عاما، عددا من الإصلاحات الاقتصادية كان أهمها هو تنظيم العمل فى الميناء، وعهد بهذه الإصلاحات لرئيس اليهود مضمون بن حسان[٢١٢] الذى كان شريكا لصاحب السلطة الفعلية فى عدن نائب الزريعين بلال بن جرير[٢١٣]، واجتمعت الثروة والسلطة لليهود، وظل ذلك خلال عصر الأيوبيين، حيث ظهرت طبقة جديدة من اليهود فى عدن وهم تجار الكارمية الذين سيطروا على التجارة الهندية وظلت تعمل لمدة ٣٠٠ سنة من سنة ١١٨١ م حتى سنة ١٤٨٤م[٢١٤].

زادت سطوتهم فى ظل الدولة الرسولية حيث كانوا أصحاب السلطة الفعلية فى أهم مرفق من مرافق التجارة الداخلية والخارجية، حيث أسند إلى خلف بن مضمون قيادة فريق عمل لوضع التشريعات وسن القوانين الخاصة بالضرائب والجمارك فى عدن، وظلت هيمنة اليهود على عصب الحياة الاقتصادية فى عدن ومينائها. هذه المكانة التى أحرزوها لدى الحكام، والثروة التى جمعوها جعلتهم يأتون بأفعال من شأنها أن تجلب عليهم غضب العامة من المسلمين وسخطهم، حيث استحدثوا ضرائب على التجار، وشغلوا الناس عن صلاة الجمعة مما دفع أحد الفقهاء إلى قتل اليهودى المسئول عن هذه الأعمال وعرض نفسه للحبس من جانب السلطان[٢١٥]، كما أن منزلة اليهود لدى السلطان جعلتهم يتغاضون عن الالتزامات التى اشترطها الشرع على أهل

الذمة، ففى عهد السلطان الرسولى نور الدين تقابل القاضى الصالح أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إسماعيل المازنى ت٦٣٨هـ مع طبيب يهودى يعمل لدى السلطان راكبا بغلة، فألقاه على الأرض وضربه بنعله، فاشتكى اليهودى إلى السلطان فأرسل معه رسول إلى الفقيه وقال لليهودى : تقدم مع الرسول إلى الفقيه ليعرفك ما يجب عليك من الشرع أن تفعله(٢١٦)، ولم ينكر السلطان على الفقيه ما فعله باليهودى لمكانة الفقهاء وخوفا من غضب العامة بحساب التوازنات. هذه الأعمال تنم عن اطمئنان اليهود للسلطة فهم فى بلاط السلطان يمرحون وبه وبحمايته يتفاخرون، وربما اساءوا إلى المسملين وهم يعلمون أنهم فى مأمن من العقاب.

خالف اليهود الشرع الإسلامى وبنوا معابد جديدة لهم حيث تصدى لهم الفقهاء، ففى دولة بنى رسول ألزم الفقيه شرف الدين إسماعيل بن عبد الله ت٨٣٨هـ/١٤٣٤م اليهود بالزنار وخرب ما أحدثوه من معابد(٢١٧)، وهذه المخالفات على ما يبدو كانت لإحساس اليهود بمساندة السلطة لهم، ووصل الأمر بهم أن تهجموا على الرسول صلى الله عليه وسلم، ففى عدن احتكم المسلمون إلى القاضى جمال الدين بن محمد بن سعيد (ت٧٤٢هـ) الذى تولى قضاء عدن سنة ٧٠٨هـ من قبل الحكام الرسوليين فأمر القاضى بحبس اليهودى الذى تهجم على الرسول الكريم(٢١٨) إلا أن الجمع الغفير لم يسمع حكم القاضى لكثرة الهرج والمرج بل توهم الأكثرية منهم أنه قال لهم اقتلوه فرماه مصرى يقيم فى عدن بحجر فى رأسه أرداه قتيلا(٢١٩).

علاقة اليهود بالدولة فى اليمن كغيرها من علاقات اليهود بالسلطة فى كل مكان فهى علاقة مصلحة وأينما حل السلطان حلوا معه، ففى البداية كانت حمايتهم من جانب القبائل التى مثلت الحكومة المركزية فى اليمن فمنهم من رأى أن مصلحته فى عدم مفارقة هذه البطون باقية فى اليمن أم خرجت لتشترك فى الفتوحات الإسلامية، فمن الناحيتين كسب لليهود، وكان لهم شأن فى البلاد المفتوحة، وفى اليمن كان الفراغ السكانى سببا فى زيادة امتلاكهم الأرض واستقرارهم لكن الاستقرار فى ظل هذا البحر المتلاطم من العصبيات والنزعات المذهبية يتطلب قدرة ومهارة على المواءمة بين مصالحهم، ورضاء السلطة أيا كانت للقبيلة أو للدولة، ويبدو أن الحفاظ على علاقات قوية مع القبيلة كان أهم من علاقة الدولة خاصة فى الفترة الأولى من دخول الإسلام حتى دولة الصليحيين وأل زريع، عندما توحدت اليمن تحت زعامة على بن محمد الصليحى وأمسك بتلابيب السلطة، حيث وصلت العلاقة فيها بين اليهود والدولة إلى أعلى منحى لها فى اليمن، صاحب ذلك تدنى مستوى العلاقة مع القبيلة خاصة فى المدن التى انعدمت فيها العصبية، وفترات التوتر مع

الدولة فى اليمن كانت قليلة وقصيرة سرعان ما تعود مرة أخرى للانتعاش، لذلك استمر الوجود اليهودى فى اليمن حتى ثورة ١٩٦٢ وهذا دليل على العلاقة الوطيدة بين اليهود والسلطة حيث لم يفرقهم عنها إلا الدعوة العنصرية الصهيونية بإقامة وطن قومى لهم فى فلسطين بيد أن القليل منهم فضل عدم ترك اليمن ومازالوا هناك حتى الآن.

الدولة والمرأة

منذ القدم والمرأة فى اليمن لها علاقة بالسلطة داخل الأسرة وفى القبيلة وفى المعبد، ثم فى الدولة، حيث ساد فى عصر ما قبل الميلاد ما يسمى بالنظام الأموى - بمعنى سيادة الأم فى الأسرة - داخل بعض القبائل اليمنية خاصة التى تضرب فى البادية وهو عكس النظام الأبوى المعروف، ويبدو أن هذا النظام ظل متبعا مع بعض التغيرات التى تلاءم كل منطقة طبقته(٢٢٠)، وهذا النظام يضع المرأة أمام مسئولياتها، ومن بقايا هذا النظام فى اليمن ما هو موجود فى منطقة ظفار على سبيل المثال، حيث لا يباح للمرأة حلب الماشية كما لا يباح لها أن تطهو الطعام، فهذه الأعمال تعتبر من الأعمال المخصصة للرجال، ويقتصر عملها على الرعى ورعاية الماشية وجمع الحطب وجلب الماء وهى وظائف خارجية أما الوظيفة الأساسية لديها هى الإنجاب(٢٢١)، كما تقلدت منصب الكاهن لمعبد الإله (عم) فى دولة قتبان(٢٢٢) وامتد هذا النظام ليشمل القبيلة حيث ينسب الكثير من القبائل العربية اليمنية إلى امرأة، فقبيلة تجيب تنسب إلى تجيب امرأة شأرس بن السكون بن أشرس بن كنده، وكذلك قبيلة عاملة تنسب هى الأخرى إلى امرأة من قضاعة وولدت للحارث بن عدى بن مرة بن أدد الكهلانى، فنسب إليها ولدها(٢٢٣) وكما أن هناك بطن من خولان يدعى بنى فطيمة(٢٢٤)، ومعلوم طبيعة اليمن من حيث المناخ والجغرافيا التى تؤثر فى حياة الفرد حيث تصبح القوة العضلية أهم شروط الحياة فى هذه المنطقة لكن يبدو أن المرأة تغلبت على ذلك باستعمال عقلها وذكاءها، وتبدو الصورة أوضح من خلال استمرار هذا الوضع حتى فى ظل الإسلام، ففى أيام بنى رسول تقلدت امرأة زعامة قبيلة المعازبة، وكانت تدعى بنت عاطف(٢٢٥).

تتضح علاقة المرأة أكثر بالسلطة فى اليمن فى تقلدها قمة الهرم السياسى فى الدولة فبعد أن كان لها دورها القيادى فى الأسرة ثم فى القبيلة جاء دورها لتولى سلطة الدولة، حيث اعتلت بلقيس عرش مملكة سبأ، وكان لها مع النبى سليمان علاقات وبعض المصادر تؤكد على زواجه منها(٢٢٦) وتحدد مدينة بعلبك بالشام مهرا لها(٢٢٧) لكن الذى يهمنا هنا هو قدرة المرأة على تصريف الامور فى الدولة، وامتثال الذكور فى هذا المجتمع الذكورى لقراراتها، ويبدو أنها أظهرت من الحكمة ما جعلها تتمكن من أعناق الرجال،

حيث ينسب إليها بناء سد مأرب بعد سنوات اقتتال بين القبائل على الماء[٢٢٨]، ويبدو أنها أصبحت بعد ذلك قدوة ومثالا لنساء اليمن فى ظل الإسلام الذى جاء ليأطر الأدوار الاجتماعية، ويضع الأمور فى نصابها فيما يتعلق بدور المرأة والرجل.

والصورة الأبرز لنساء يمنيات اثروا فى الحياة اليمنية وكانوا اصحاب سلطة تبدأ مع الدولة الصليحية بحسن تصرف السيدة أسماء زوجة على بن محمد الصليحى مؤسس الدولة ووالدة المكرم الذى خلف والده، حيث أسرها بنى نجاح بعد قتل زوجها، فألهبت مشاعر ولدها ومشاعر قبيلتها والقبائل المتحالفة معها بخطاب فيه من الجرأة أكثر من الخدعة التى أرسلته بها، فقد أرسلت إلى ولدها المكرم رسالة تحريض على فك أسرها ادعت فيها أنها حملت من العبد الأحول (سعيد الأحول) زعيم النجاحيين، وأرسلت رسالتها فى رغيف خبز عن طريق سائل ضعيف[٢٢٩] وإرسال الرسالة فى داخل رغيف الخبز ينم عن ذكاء فطرى لدى السيدة أسماء وتقابلنا هذه الحيلة فى تاريخ فتح بلاد المغرب مع حسان بن النعمان والكاهنة عندما أرسل خالد بن يزيد الأسير لدى الكاهنة رسالة إلى قائده حسان فى رغيف خبز يدله فيها على عورات جيش الكاهنة[٢٣٠]، وظلت السيدة أسماء تمارس الحكم بتفويض من ولدها حتى وفاتها[٢٣١].

السيدة الثانية والأكثر شهرة فى تاريخ اليمن الوسيط كانت أروى زوجة المكرم وهى التى تربت وتأدبت على أيدى السيدة أسماء أم المكرم السابقة الذكر فى بيت الصليحى[٢٣٢] ففاقت التلميذة معلمتها. تزوجت أروى من المكرم سنة ٤٥٨هـ/١٠٤٥م فى حياة ابيه على بن محمد الصليحى ودفع الأخير خراج مدينة عدن مهرا لها[٢٣٣]، واختيار عدن له دلالة تقدير من الصليحى لهذه المرأة، إذ أن خراج عدن فى ذلك الوقت يعد أعظم خراج فى الدولة من حيث امتلاكها ناصية تجارة الترانزيت بين الشرق والغرب[٢٣٤] ويبدو أن على بن محمد الصليحى أراد أن يكون مهر الحرة أروى مثل مهر بلقيس مما جعل المؤرخين يلقبونها ببلقيس الصغرى[٢٣٥] والسيدة الحرة الملكة. بعد وفاة السيدة أسماء أم زوجها المكرم وحاضنتها ومعلمتها فوض المكرم الأمر إليها بسبب مرضه بالفالج[٢٣٦]، وهذا التفويض جعل منها سيدة دولة من الطراز الأول، فالبعد الاستراتيجى بنقلها عاصمة الدولة من صنعاء المتطرفة فى الشمال، والتى كانت مطمعا لكل القبائل إلى ذى جبلة تلك المدينة التى تقع على سفح جبل ما بين نهريين جاريين صيفا وشتاء يطل عليها من هذا الجبل حصن التعكر[٢٣٧] يجعلها فى حماية طبيعة كما أن صنعاء ارتبط اسمها باسم الخلافة العباسية وتريد أروى أن تخلد ذكر دولتها بعاصمة مستقلة، وقدرتها على الإقناع جعلت زوجها المكرم يوافق على الانتقال معها إلى ذى جبلة بعد أن

عرضت له مزايا العاصمة الجديدة وعيوب صنعاء[٢٣٨]، حيث صدق حدسها عندما خرجت صنعاء من الحظيرة الصليحية لصالح السلاطين الهمدانيين بعد موت القائد سبأ بن أحمد الصليحى[٢٣٩].

اهتمت الملكة أروى بالزراعة وبتربيةالحيوانات لتوفير الدعم المادى لحكمها، حيث أوقفت نواحى ذى جبلة وبعض الحقول تصرف غلاتها فى شراء الفحول من البقر، كما أوقفت أراضى ثمينة خصبة لرعى المواشى[٢٤٠]، وبعد أن استقر بها الحال فى ذى جبلة قررت أن تأخذ ثأر الصليحيين من سعيد الأحول النجاحى الذى قتل مؤسس دولتهم على بن محمد الصليحى، ووضعت خطة للإيقاع به وتم لها ذلك[٢٤١]، وخلع الخليفة الفاطمى المستنصر عليها الألقاب فلقبها«بالحرة الملكة، السيدة الرضية الزكية وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام ذخيرة الدين. عصمة المسترشدين، كهف المستجيبين، وكافلة أوليائه الميامين»[٢٤٢] ولية أمير المؤمنين، واعتبر الخليفة المستنصر السيدة أروى مثالا أعلى للمرأة،لتقلدها قلائد التقوى ولكفاءتها فى إدارة شئون البلاد، وليقظتها فى أمور الدعوى الفاطمية، ولذلك لا يعدها من ضمن أرباب الحجاب[٢٤٣] استعانت الملكة أروى بمستشارين من مصر[٢٤٤]، ومن الطبيعى بل ومن المنطقى أن تستعين الحرة ببنى جنسها بجانب الرجال تستأنس برأيهن وتبتغى منهن المشورة،ويبدو أنهن كانوا على شاكلتها من رجاحة العقل وسمو الفكر فالبعض منهن نسخ العديد من المخطوطات والكتب بتشجيع من الملكة أروى التى استهواها حب المطالعة والمعرفة فكانت «تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ» ومما يدلل على ذلك تلك التعليقات والتحليلات التى كانت تدونها على ما تقرأه من كتب[٢٤٥]، ومن أنشطتها أيضا إنشاء مدرسة لتدريس الصحيحين بذى جبلة وكذلك بناء المساجد وتوسيع مسجد صنعاء [٢٤٦]، فقادت الدولة أكثر من نصف قرن فى حياة زوجها مفوضة منه وبعد وفاته كملكة شرعية للبلاد وشاخت الدولة مع شيخوختها وانتهت بموتها سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م عن عمر يناهز اثنين وتسعين سنة.

عاصرت الملكة أروى سيدة أخرى، وهى جارية حبشية تسمى علم، يبدو أنها كانت تحاكى السيدة اروى فى أعمالها فقد وصلت إلى عرش الدولة النجاحية سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م بعد مقتل سيدها الوزير أنيس الفاتكى على يد منصور بن فاتك بن جياش حيث اصطفاها منصور لنفسه، فولدت له فاتك بن منصور الذى تولى الأمر بعد أبيه. فوض منصور بن فاتك الأمر إليها، حيث كان لا يقطع أمرا دونها يصفها يحيى بن الحسين بقوله : «كانت عاقلة لبيبة كاملة أديبة . . أحسنت إلى فقهاء وقتها وأرباب العلم والعبادة . . وكانت تحج بالناس برا وبحرا»[٢٤٧] وأطلق عليها نفس لقب أروى فتسمت بالحرة الملكة[٢٤٨] سمعت عن ورع وتقوى على بن مهدى فى بداية ظهوره، فأسقطت عنه وعن أقاربه ومن

يلوذ بهم خراج أراضيهم(٢٤٩)، ويبدو أن مجلسها يشابه مجلس الملكة أروى من حيث حضور النساء العالمات اللائى يتصفن بالعلم ويمشين فى الخير وتستأنس برأيهن فى إدارة شئون الدولة، ويأتى إليها قائدها سرور الفاتكى يراجع معها أمور الدولة «يفضى إليها بما حسن عنده أن يفعله من التدبير فى تلك السنة من ولاية وعزل وإنعام وقتل، ثم لا يزال جالسا بين يديها. . حتى يقوم إلى صلاة الظهر»(٢٥٠).

ومن نساء العصر الأيوبى والتى شاركن فى حكم البلاد أيضا هى الخاتون أم الناصر بن طغتكين التى تحملت عبء حكم اليمن بعد اغتيال ولدها الناصر سنة ٦١١هـ، حيث سمه وزيره غازى بن جبريل وباشرت شئون الحكم لمدة ستة شهور بسبب عدم وجود أمير من البيت الأيوبى يتولى حكم البلاد(٢٥١). هؤلاء النساء اللائى شاركن فى العمل السياسى داخل بلاد اليمن هن نساء صنعتهن الظروف والمواقف فأظهرن حنكة فى إدارة الدولة، وهذا أمر غير مألوف فى مجتمع إسلامى تقليدى ويعلل أحد الباحثين ذلك بأمرين الأول : الدور التى كانت تلعبه المرأة الريفية فى السفوح الغربية من اليمن، إذ أنها باشرت نشاطها بكثير من الحرية التى فقدتها المرأة فى المناطق المنعزلة، والثانى : تسامح الدولة الفاطمية مع نساء الصليحيين أعطى مثالا وقدوة لباقى النساء اللاتى تولين السلطة فى اليمن بعد ذلك(٢٥٢).

خلاصة القول أن الحرية السياسية للقبائل اليمنية افرزت الصراع على السلطة بين بطونها، وظهرت لعبة التحالفات بشكل جلى فى سبيل ذلك مما أفضى إلى عدم الاستقرار السياسى فى البلاد، فتاريخ اليمن السياسى يمتلئ بالكثير من الأحداث التى تجسد الفوضى السياسية، وانقلاب القبائل وانحيازها يحدد شكل السلطة فى ظل بلاد ذات جغرافية خاصة تمثل الجبال فيها حصون وحواجز ساعدت على المناورات العسكرية، كما أن هذه الخاصية كانت سببا فى تزامن كيانات سياسية يمنية تصارعت من أجل السلطة ولم تخضع القبائل إلا لسلطان القوة. أما علاقة العبيد بالسلطة فهى علاقة تمكين وانتقال سلمى للسلطة من سلطة قبلية متهالكة إلى عبيد تملكوا وتمكنوا بفعل الزمن، وانشغال أسيادهم بهموم أخرى غير السياسة، فتضلعوا فيها ووجدوا من عصبيتهم من يناصرهم. أما الأبناء فهم من كانوا على قمة السلطة يوم ظهر الإسلام فأسلموا، وظلوا ولاة للرسول صلى الله عليه وسلم، وكلما تنحوا عن السلطة بفعل فاعل عادوا إليها، لكن ضعفهم وقلتهم أخرجتهم من سباق الصراع على السلطة، كما أن علاقة أهل الذمة بالسلطة كانت علاقة خفية من خلال تسللهم إلى أصحاب السلطان والعمل فى خدمتهم واكتساب ثقتهم مما يحصنهم ضد غدر الرعية، أما المرأة فغالبا ما لعبت الصدفة فى اعتلائها هرم السلطة فى اليمن لكنهن أظهرن حنكة سياسية فى إدارة الدولة وفى الصراع السياسى.

الهوامش:

١- ابن خلدون، المقدمة، دار القلم بيروت ١٩٨٤م ، ص ١٢٨.
٢- سورة النمل، الآية ٤٤
٣- ابن المجاور، جمال الدين أبى الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيبانى الدمشقى، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض والحجاز المسماة تاريخ المستبصر، اعتنى بتصحيحه وضبطه أوسكر لوفجرين، ليدن ١٩٥١م، ص ٢١٠.
٤- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد ١٩٩٣م، ٤، ص ٤٠٨.
٥- الزمخشرى، محمود بن عمر، الفائق فى غريب الحديث، تحقيق محمد البجاوى، محمد أبوالفضل إبراهيم، ط ٢ دار المعرفة لبنان، ٣ ص ١٠٨، وأمراس جمع مرس بكسر الراء، وهو الشديد الذى مارس الأمور وجربها، ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقى المصرى، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٠ ص ٤٨٨، ويستشهد ابن منظور بنفس الحديث للتعريف بكلمة أمراس، وأحماس مفردها الحمس من الحماسة والمنع والمحاربة، ابن منظور، نفسه، ٦ ص ٥٧، الأنبوب ما بين العقدتين فى القصب والقناة، وأنبوب القصبة والرمح كعبهما، ابن منظور نفسه، ١ ص ٧٤٧.
٦- المقدمة، ص ٤٠٤.
٧- راجع جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد ١٩٩٣م، ١ ص ٢٨٨، ٤ ص ٢٨٣.
٨- قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ، دار المعارف، ط ٢ ١٩٨٥م، ص ٦٥.
٩- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٤، ص ٣٤٣.
١٠- ابن خلدون، المقدمة، دار القلم بيروت ١٩٨٤م، ص ٢٩٠.
١١- المقدمة، ص ١٦٦.
١٢- فضل على أحمد أبوغانم، القبيلة والدولة، ص ١٤٥.
١٣- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٢، ص ٧٣، ١٢٩، ١٧١، ٢٥٨.
١٤- محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم، ص ٣٦٩.
١٥- وهب بن منبه، التيجان فى ملوك حمير، ص ٣١٧.
١٦- محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم، ص ٣٨٩.
١٧- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ، ٢، ص ٢٤٧. ومخاليف مفردها مخلاف وهو الكورة أو الإقليم أو البلد.
والمخاليف لأهل اليمن كالأجناد لأهل الشام والكور لأهل العراق، والرساتيق لأهل الجبال «ابن منظور، لسان العرب، ٩ ص ٨٤»، ويعدد اليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٤هـ عدد المخاليف فى اليمن أربعة وثمانون مخلافا «تاريخ اليعقوبى، دار صادر، بيروت، ١، ص ٢٠١».
١٨- اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، ٢، ص ١٢٢؛ البكرى، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣هـ، ٢ ص , ٦٧٤.
١٩- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ص٢، ص٣٠٠.
٢٠- الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، الفصول الخمسة الأولى من الباب الرابع من كتاب الكفاية والإعلام فيمن ولى اليمن وسكنها من ملوك الإسلام، تحقيق راضى دغفوس، الكراسات التونسية الجزء ٢٧ رقم ١٠٧- ١٠٨ لسنة ١٩٧٩م، ص ٣٧.
٢١- الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص ٥٢، هناك تضارب فى الروايات حول عدد عمال الرسول صلى الله عليه وسلم على اليمن حال وفاته، حيث ينقل الخزرجى عن الأفضل الرسولى صاحب كتاب نزهة الأبصار أن ولاة اليمن عندما توفى الرسول صلى الله عليه وسلم هم الطاهر بن أبى هالة على بلاد عك من تهامة، وعمرو بن حزم الأنصارى وأبوسفيان بن الحارث على نجران، وخالد ابن سعيد

بن العاص على ما بين زبيد ونجران، وفيروز الديلمى على صنعاء، ويعلى بن أمية على الجند، وعلى مأرب أبوموسى الأشعرى، ويبدو أن معظم المؤرخين نقلوا عن الطبرى إذ إن كل الروايات شبه متطابقة مع روايته، تاريخ الرسل والملوك، ٢، ص ٢٩٣. انظر، اليمن فى عهد الولاة، ص ٥٤، ويبدو لأن المناطق الثلاث هى أهم مناطق اليمن فهى المراكز القيادية وتشرف على باقى المناطق، ومن هذه المراكز يتنقل الصحابة بين أعمالها مثلما فعل معاذ بن جبل الذى كان ينتقل بين الأعمال ليعلمهم القرآن ويفقههم فى الدين، راجع الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ٢، ص ٢٩٣؛ الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص ٤٥- ٥٥.

٢٢- الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص ٢٧.

٢٣- ابن منظور، لسان العرب، ١، ص ٦٠٧.

٢٤- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ٢، ص ٢٥١.

٢٥- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ٢، ص ٣٠٠.

٢٦- زهير هوارى، السلطة والمعارضة فى الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٣م، ص ١٢٠- ١٢١؛ فاطمة علوى الصافى، المرويات اليمنية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الثانى الهجرى، دار الثقافة، الشارقة ٢٠٠٢م، ص ٣٩٩.

٢٧- زهير هوارى، السلطة والمعارضة فى الإسلام، ص ١٢١.

٢٨- راجع الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ٢ ص ٢٥١.

٢٩- اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، ٢، ص ٢٠٠.

٣٠- اليمن فى عهد الولاة، ص ٦٣.

٣١- الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص ٦٣.

٣٢- زهير هوارى، السلطة والمعارضة فى الإسلام، ص ٣٧٩.

٣٣- يحيى بن الحسين، أنباء الزمن فى أخبار اليمن، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون، ص ٤١.

٣٤- Smith, G., Rex, The political history of the Islamic Yemen down to the first Turkish invasion, in Studies in the Medieval history of the Yemen and South Arabia, Variorum, 1997, 1p 129.

٣٥- الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص ٧٠.

٣٦- Smith, The political history of the Islamic Yemen.p 129.

٣٧- اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، ٢ ص ٣٧٢.

٣٨- جبال العضد من أعمال شبام أقيان، راجع، الهمدانى، لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن على الأكوع، دار اليمامة ١٩٧٧م، ص ١٢٣.

٣٩- الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص ٩١ - ٩٢.

٤٠- الرازى، أحمد بن عبدالله الصنعانى، تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين عبدالله العمرى، عبدالجبار زكار، صنعاء ١٩٧٤م، ص ١٠٨.

٤١- زهير هوارى، السلطة والمعارضة فى الإسلام، ص ٥٣٣.

٤٢- عمارة اليمنى، نجم الدين عمارة بن أبى الحسن على الحكمى اليمنى «ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م»، تاريخ اليمن، تحقيق حسن سليمان محمود، القاهرة، ص ٣٨.

٤٣- عمارة، تاريخ اليمن، ص ٤٥؛ ابن المجاور، المستبصر ص ٦٧؛ أبى مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ليدن ١٩٣٦م، ١ ص ٩؛ الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص ١٠٠، ويرى عبدالرحمن الشجاع أن هناك خطأ فى تاريخ بداية الدولة إذ يرى أن التاريخ الحقيقى للدولة هو «٢٧٩ - ٤١٢ هـ/ ٨٩٢ - ١٠٢٢م»، بناء على اختبار النصوص انظر، تاريخ اليمن فى الإسلام، دار الفكر المعاصر صنعاء ١٩٩٧م، ص ١٧٨- ١٨٦، فقد أورد ابن المجاور أن «دولة بنى زياد فى اليمن «دامت» مائتين وثلاث سنين لأنهم

اختطوا مدينة زبيد سنة أربع ومائتين وزالت عنهم سنة سبع وأربعمائة»، انظر المستبصر، ص ٧١.

٤٤- من الصعوبة بمكان تحديد تاريخ معين لقيام هذه الدولة فى ظل ضبابية المعلومات، ولكنا أخذنا برأى Smith باعتبار أن انتصار يعفر بن عبدالرحمن الحوالى على قوات العباسيين ودخوله صنعاء كان هو البداية الحقيقية، وهذا خلاف ما أخذت به فضيلة الشامى إذ حددت التواريخ الآتية لبداية ونهاية الدولة «الدولة اليعفرية بصنعاء والجند، ونشاطها السياسى والعسكرى ٢٢٥هـ/ ٣٩٣م، المؤرخ العربى ١١، ١٩٧٤، ص ٣٣٤»، أما عبدالرحمن شجاع «تاريخ اليمن فى الإسلام، ص ١٧٢، ١٧٨»، فلم يعين تاريخا محددا لبداية الدولة.

٤٥- ملك ابن زياد إقليم الجبال والتهائم وحضرموت وديار كنده والشحر ومرباط وأبين ولحج وعدن والتهائم إلى حلى.. وملك من الجبال الجند وأعمالها ومخلاف المعافر ومخلاف جعفر وصنعاء وصعدة ونجران وبيجان، «انظر عمارة، تاريخ اليمن، ص ٣٧- ٣٨؛ ابن المجاور، المستبصر، ص ٦٧»، وبسط يعفر بن عبدالرحمن الحوالى سيطرة بنى يعفر على مناطق واسعة من اليمن من صعدة فى الشمال إلى الجند فى الجنوب، وفى سنة ٢٥٨هـ/ ٨٧٢م تنازل يعفر عن السلطة لولده محمد بن يعفر بعد أن طعن فى السن، وحصل محمد على تقليد من الموفق طلحة شقيق الخليفة المعتمد العباسى - صاحب الأمر والنهى فى الدولة العباسية - فى نفس العام بولاية اليمن فغلب على صنعاء والجند وحضرموت، وكان مع ذلك يوالى ابن زياد صاحب زبيد ويحمل إليه الخراج، راجع، الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص ١١١.

٤٦- المقدمة، ص ١٦١.

٤٧- حكم بنو معن فى تلك المناطق باعتبارهم نوابا عن دولة بنى زياد ثم استقلوا عنهم بعد موت الحسن بن سلامة وظلوا كذلك لمدة ربع قرن إلى أن استولى على بن محمد الصليحى على عدن وما حولها عام ٤٥٥ هـ فدخلوا فى دولته وتحت طاعته فأبقاهم نوابا له فى حكم تلك المناطق، وهذا مما يفسر تمرد القبائل عندما تضعف سلطة الدولة ثم خضوعها لها فى حالة قوتها، راجع، ابن المجاور، المستبصر، ص ١٢١؛ محمد أمين صالح، بنو معن ثم آل زريع فى عدن، مجلة المؤرخ العربى اتحاد المؤرخين العرب، بغداد العدد ١٥ لسنة ١٩٨٠م، ص ٣٢١

٤٨- نعمان محمود جبران، روضة سحيم حمد آل ثانى، تاريخ الجزيرة العربية فى العصور الإسلامية الوسطى، الأردن ١٩٩٩م، ص ٤٦، ١٠٨ هامش ٨٤.

٤٩- عن نسب همدان راجع الهمدانى، لسان اليمن أبى محمد الحسن بن أحمد ابن يعقوب، الإكليل من أخبار اليمن وأنساب حمير، تحقيق، محمد بن على بن الحسين الأكوع، مكتبة الجيل الجديد صنعاء، ١٩٩٠م، ١٠؛ ص ٣٥.

٥٠- تسكن بطون كثيرة من همدان فى المنطقة الممتدة من شمال صنعاء إلى جنوب صعدة، عن سكن بطون همدان، راجع إيمان أحمد شمسان، اليمن فى العصر العباسى الأول، دار الثقافة العربية للنشر، الشارقة، جامعة عدن ٢٠٠١م، ص ٥٤.

٥١- ابن خلدون، المقدمة، ص ١٣٩.

٥٢- راجع، يحيى بن الحسين، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٨ م ص ٢٩٧، ظل الحكم فى أسرة بنى حاتم هذه حتى سنة ٥١٠ هـ/ ١١١٦م عندما تدخلت القبائل الهمدانية ونقلت السلطة من السلطان معن آخر سلطان ضعيف من بنى حاتم إلى حماس وأخيه هشام بن القبيب من بنى القبيب وهى الأسرة الثانية والتى كان أقوى حكامها هو السلطان حاتم بن حماس القبيب وبعد وفاته سنة ٥٣٣ هـ/ ١١٣٨ ضعفت الأسرة نتيجة الصراع على السلطة بين أولاده مما اضطر القبائل الهمدانية التدخل للمرة الثانية ونقلت السلطة إلى السلطان حاتم بن أحمد بن عمران بن مفضل اليامى لتتولى أسرة ثالثة الحكم حتى دخول الأيوبيين إلى اليمن.

راجع، يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٣١٤؛

smith, The political history of the Islamic Yemen, p 134.

٥٣- يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٣١٤،
smith, The political history of the Islamic Yemen, p 134.

٥٤- فى شهر رمضان مات السلطان حاتم بن أحمد الهمدانى فى درب صنعاء، وقام بعده ولده على بن حاتم، فبايعه أهل همدان، ثم خرج إلى حصنه فى ظهر، فأقام فيه أياما، فخالف عليه أهل همدان، ومالوا إلى رجل من آل القبيب، وهو محمد ابن حماس، راجع، يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٣١٤.

٥٥- يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٣٢٣، وعن دخول الأيوبيين إلى اليمن، انظر بعده.

٥٦- Smith, The political history of the Islamic Yemen, p 134.

٥٧- محمد بن عسيرى، اليمن فى ظل الأيوبيين، رسالة ماجستير كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن مسعود ١٣٩٩ هـ، ص ٢٩.

٥٨- R.B. Serjeant and Ronald, Sana an Arabian Islamic City, world of Islam festival trust, 1983, p 50

٥٩- حيث النص، أمر عماله أن يقتضوا من الرعية الخمس مجردا عن غيره من سائر المطالب، على طريقة العبديين، راجع يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٣١٥.

٦٠- يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٣٠٨.

٦١- المقدمة، ص ١٥٨.

٦٢- فضل على أحمد أبوغانم، القبيلة والدولة فى اليمن، دار المنار، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ١٣١، تشبه حيثيات قيام الدولة اليزيدية فى اليمن وعلاقة القبائل بها دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى التى قامت فى سنة ١٧٢هـ عندما فروا من بطش الدولة العباسية فى المشرق، حيث ارتضت القبائل البربرية المتصارعة حكم الأدارسة أصحاب المذهب الزيدى عبدالرحمن بشير، المعتزلة فى المغرب الأوسط عصر الدول المستقلة، ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العصور الوسطى، تحرير حاتم الطحاوى، دار عين للدراسات والبحوث ٢٠٠١م، ص ٤٠.

٦٣- راجع، يحيى بن الحسين، أنباء الزمن فى أخبار اليمن، ص ٧ - ٥٣؛ الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص ١١٨؛ Smith, the Political History of the Islamic Yemen, p 130.

٦٤- محمد عبدالله ماضى، دولة اليمن الزيدية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث، العدد الأول ١٩٥٠م، ص ٢٣.

٦٥- محمد عبدالله ماضى، دولة اليمن الزيدية، ص ٣١.

٦٦- ترى الزيدية جواز وجود إمامين فى وقت واحد طالما توافرت فيه شروطهم، انظر ابن المجاور، المستبصر، ص ٢٠٦.

٦٧- راجع على سبيل المثال سيرة الإمام يحيى من لحظة دخوله بلاد اليمن وحتى وفاته، حيث حفلت بالعديد من هذه الأساليب، يحيى بن الحسين، أنباء الزمن فى أخبار اليمن، ص ١٠ - ٥٣.

٦٨- عبدالله على عبدالله الغسيل، دور التقاليد العرفية فى نشأة القانون اليمنى وتطوره، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٧م، ص ١٣٢.

٦٩- فضل على أحمد أبوغانم، القبيلة والدولة، ص ١٣٨، ١٤٠.

٧٠- الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص ١١٨؛ smith, The Political History of the Islamic Yemen, p 130.

٧١- يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٢٢٧- ٢٢٨.

٧٢- فضل على أحمد أبوغانم، القبيلة والدولة، ص ١٣١، ١٣٢.

٧٣- دخلت دعوة الشيعة إلى اليمن بعد سنة ٢٦٨ هـ/ ٨٨١م على أيدى اثنين من دعاتها هم ابن حوشب الكوفى، وعلى بن الفضل اليمانى فى عدن لاعة، انظر عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٣٩.

٧٤- أحمد حسين شرف، اليمن عبر التاريخ، ١٩٨٠م، ص ١٩٥، عن نسب حاشد الهمدانية انظر الهمدانى، الإكليل، ١٠ ص ٤٧.

٧٥- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص٥١؛ أبى مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ص١٦١؛ يحى بن الحسين، غاية الأمانى، ص٢٤٧.
٧٦- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص٥١؛ محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمى فى العرب، دار الفكر العربى، القاهرة، ط٢ ١٩٥٧، ص٧٢-٧٤.
٧٧- يحى بن الحسين، غاية الأمانى، ص٢٣٤.
٧٨-يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص٢٤٠.
٧٩- نفسه ص٢٤٥-٢٤٦.
٨٠-نفسه ص٢٤٠.
٨١- كانت السلطة فى بلاد اليمن موزعة كالآتى: الحواليون ملوكا لشبام وكوكبان، وبنو الضحاك ملوك حاشد، وبنو الكرندى سلاطين المعافر، والمناخيون أصحاب المذيخرة، والشهابيون حكاما لصنعاء «راجع عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٤٩؛ نعمان محمود جبران، روضة سحيم حمد آل ثانى، تاريخ الجزيرة العربية فى العصور الوسطى، ص ٨٤»، أما اليمن الأعلى فانقسم بين آل الضحاك وبنى أبى الفتوح أولاد الإمام الداعى يوسف بن يحيى وأولاد الإمام القسم بن على العيانى «يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٢٤٢».
٨٢- ترصد المصادر موت مؤسس الدولة الصليحية سنة ٤٥٨ أو ٤٥٩ هـ إلا أن أحد الدارسين حقق تاريخ وفاته وقرر أن الصحيح هو سنة ٤٧٣ هـ/ ١٠٨١م انظر أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى، المعهد العلمى الفرنسى للدراسات الشرقية، القاهرة ١٩٧٤ م، ص ٣٨٥.
٨٣- حيث النص «ومن سنة خمس وخمسين استقر الصليحى بصنعاء، فأخذ معه ملوك اليمن، التى أزال ملكها، فأسكنهم معه، وولى فى الحصون غيرهم» عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٥١، ٥٢، وفى رحلته للحج التى قتل أثناءها»، ولى أعمال الحصون والجبال لقوم يثق بهم، وأخذ الملوك الأكابر فى صحبته، راجع، نفسه، ص ٥٥.
٨٤- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٥٢.
٨٥- محمد حسين فرح، اليمن فى تاريخ ابن خلدون، ص ٥٧٤.
٨٦-كان هناك سجال بين الحرة وخولان، فقد استقلوا بحصن النعكر ثم استعادته «ولم تزل هذه حالة خولان مع الحرة» انظر، عمارة، تاريخ اليمن، ص ٨٧- ٧٦؛ نعمان محمود جبران، روضة سحيم حمد آل ثانى، تاريخ الجزيرة العربية فى العصور الوسطى، ص ٩٧.
٨٧- أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى، ص ٣٨٧.
٨٨- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ١٢٠.
٨٩- كتب الدكتور محمد أمين صالح مقالا بعنوان دولة الخوارج فى اليمن، بنو مهدى فى زبيد فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية م ٢٥ لسنة ١٩٧٨م، لكنه لم يقدم النصوص التى تبرهن على اعتناق بنو مهدى لمذهب الخوارج واكتفى بقوله «إن ابن مهدى أقام حكمه على أساس دينى، فهو من أهل السنة على المذهب الحنفى تضلع فى معارف علماء العراق ثم اتخذ مسحة من مبادئ الخوارج» ص ١٣٢، وحتى مؤرخ الدولتين فى تاريخه لفتح اليمن على يد توران شاه أخو صلاح الدين يقول: «قبض على الخارجى» ويقصد به على بن مهدى، راجع أبوشامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى، الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٧م، ٢ ص ٢٧١، ٢٧٢.
٩٠- Smith, The political history of the Islamic Yemen.p 135
٩١- تاريخ اليمن، ص ١٢٦.
٩٢- عن علم النجاحية، انظر بعده
٩٣- ابن المجاور، المستبصر، ص ٨٨.

٩٤- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ١٢١، ١٢٢.

٩٥- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ١٢٧.

٩٦- لمزيد من التفاصيل عن قيام دولة بنى زريع فى عدن راجع، محمد أمين صالح، بنو معن ثم آل زريع في عدن، ص ٣٢١- ٣٢٤.

٩٧- محمد أمين صالح، بنو معن ثم آل زريع في عدن، ص ٣٢٧؛ محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، ص ٩١- ٩٣.

٩٨- من الألقاب التى أطلقت عليه: الداعى الأوحد المظفر، مجد الملك، شرف الخلافة، عضد الدولة وسيف الإمام، تاج العرب، ومقدمها داعى أمير المؤمنين، عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٨٣.

٩٩- الهمدانى، صفة جزيرة العرب، ص ٧٢؛ محمد أحمد محمد، عدن من قبيل الإسلام وحتى إعلان الدولة العباسية، دار الثقافة العربية، الشارقة ٢٠٠١م، ص ١١١.

١٠٠- محمد أبن أحمد، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، تحقيق غازى طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، دمشق ١٩٨٠م، ١، ص ١٠٧.

١٠١- ابن المجاور، المستبصر، ص ١٣٤.

١٠٢- الهمدانى، صفة جزيرة العرب، ص ٧٠.

١٠٣- عن صراع السلطة بين الإخوة وأبناء العم فى دولة بنى زريع راجع، عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٨٣؛ ابن أبى مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ٢ ص ٨٩، محمد أمين صالح، بنو معن ثم آل زريع فى عدن، ص ٣٢٨.

١٠٤- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ١٢٤.

١٠٥- شهارة من معاقل اليمن المشهورة وهى من أحد جبال هنوم بلاد همدان، راجع، الهمدانى. صفة جزيرة العرب، ص ٢٦٦.

١٠٦- يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٣١٦؛ احتل الأشراف الحسنيون منطقة شمال تهامة وأقاموا الدولة السليمانية، واتخذوا من مدينة حرض عاصمة لهم، لكن متى خرجوا من مكة ومتى وصلوا إلى حرض؟ قد تعدو الإجابة مجرد افتراض تقريبى من أحد الباحثين وهو سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م، انظر Smith, The Political History of the Islamic Yemen, p 132.

وبحلول سنة ٥٦٠هـ /١١٦٤م سار عبدالنبى بن على مهدى شمالا الى حرض وهزم جيش السليمانيين بقيادة وهاس بن غانم واستولى على أموالهم وسبى نساءهم، (يحى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٣١٦) وقتل وهاس فى المعركة، وخلفه أخاه قاسم بن غانم الذى طلب مساعدة من الأيوبيين فى مصر، وعندما وصلوا بقيادة توران شاه سنة ٥٦٩هـ /١١٧٣م نشأ تحلف بينهما، واستطاع قاسم هزيمة المهديين، واستمرت الأسرة السليمانية فى اليمن وإن كانوا نادرا ما يشاركون بصورة واضحة فى شئون البلاد، ويمكن القول أن ظهور الأيوبيين فى اليمن وضع حدا لمشاركتهم الفعلية فى شئون البلاد، Smith, The Political History , p 132.

١٠٧- انظر، محمد حسين فرح، اليمن فى تاريخ ابن خلدون، ص ٦٠٣- ٦٠٤.

١٠٨- المقدمة ص ١٥١.

١٠٩- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٤ ص ٣٤٦، ٣٤٧.

١١٠- الأصابح هم ولد أصبح بن عمرو بن الحارث ذى أصبح بن مالك وينسبون إلى حمير الأصغر ومساكنهم لحج، راجع الهمدانى، صفة جزيرة العرب، ص ٧١.

١١١- جاد طه، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن، دار الفكر العربى، ص ٧.

١١٢- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ١، ص ٢٦٤.

١١٣- انتقل الحكم من الأيوبيين إلى خلفائهم الرسوليين، الذين انتقلت إليهم السلطة سلميا فى الفترة ٦٢٦- ٦٢٨ هـ/ ١٢٢٩- ١٢٣١م، حيث اعتمدوا على الأساس المتين الذى أرساه الأيوبيون مما

مكنهم من تأسيس حكم وإدارة ليس لها نظير فى اليمن

(G.R. Smith, The Ayyubids and Rasulids The Transfer of power in 7th/ 13 th centuryYemen, Islamic culture, vol. XL.III. no. 2 1969, p 175

وكان اليمن مقسما فى بداية عهدهم إلى قسمين، الأول: صنعاء وما يواليها أو ما يسمى باليمن الأعلى تحت سيادة الزيديين، والقسم الثانى: ويشمل باقى البلاد تحت سيطرة الرسوليين «الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، مقدمة المحقق، ص ٩».

١١٤- طبق الأيوبيون نظام الإقطاع فى اليمن، وأصبحت أراضى اليمن إقطاعا خاصا لهم يهبونه لمن شاءوا من الأمراء والقواد «أبى مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ٢ ص ٣٨؛ محمد بن على عسيرى، اليمن فى ظل الأيوبيين، ص ١٩٦- ٢٠٥»، وقد أرغم طغتكين ملاك الأرض الزراعية فى الهضبة الوسطى على بيعها له وتحويلهم إلى أجراء لدى الدولة مما أفقدهم روح المحافظة على النظام القبلى «محمد أنعم غالب، اليمن، دار الكاتب العربى، بيروت ١٩٦٦ م ص ٣٤»، واستمر الوضع كذلك فى عصر الرسوليين الذى شهد نشاطا ملحوظا من جانب الحكام بالنشاط الزراعى، فقد ألف الملك الأشرف عمر بن يوسف الرسولى تقويما زراعيا بعنوان: «التبصرة فى علم النجوم، وألف الملك الأفضل العباس بن على كتاب: «سلوة المهموم فى علم النجوم» راجع

Daniel Martin Varisco, Al - tawqi, at fi taqwim al - zira a al- majhul min asr muluk Bani Rasul, in Medieval Folk Astronomy and Agriculture in Arabia and the Yemen, Varioum, 1997, n. xvl, pp, 192- 222.

١١٥- محمد متولى، محمود أبوالعلا، جغرافية شبه جزيرة العرب، الأنجلو المصرية، ١٩٨٨م، ص ٣٥.

١١٦- فضل على أحمد أبوغانم، القبيلة والدولة، ص ٦٢.

Smith, The Political History of the Islamic Yemen down to the first Turkish invasion, p 137.

١١٨- ابن خلدون، المقدمة، ص ١٣٠.

١١٩- قائد الشرجى، القرية والدولة فى المجتمع اليمنى، دار التضامن، بيروت ١٩٩٠م، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

١٢٠-برترام توماس، البلاد السعيدة، ترجمة محمد عبدالله، وزارة التراث القومى والثقافة، عمان ١٩٨١م، ص ١٣٧.

١٢١- Smith, The Political History of the Islamic Yemen,p 137.

١٢٢- اتخذ الملك عامر بن عبدالوهاب بن طاهر مدينة المقرانة عاصمة له راجع، الهمدانى، صفة جزيرة العرب، ص ١٤١ الهامش.

١٢٣- Smith, The Tahirid Sultan of the Yemen, in Sutdies in the Medieval History of the Yemen and south Arabia, Variorum, 1997,p 141.

١٢٤- أحد العصور الجيولوجية

١٢٥- عثر على حجر صوان فى منطقة حضرموت تشبه كثيرا تلك التى عثر عليها الباحثون فى شرقى أفريقية، محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندريةم، ص ١٩٦.

١٢٦- أضيق جزء فيما بين اليمن والشاطئ الأفريقى فى العصر الحديث يتمثل فى المنطقة التى تقع عند باب المندب وفيها جزيرة بريم كما يسميها المؤرخون الغربيون وميون كما يسميها المؤرخون العرب، تبعد هذه الجزيرة عن عدن بنحو ٩٦ ميلا، وتبعد نحو ميل ونصف الميل عن الساحل اليمنى وأحد عشر ميلا عن الساحل الأفريقى، راجع جاد طه، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن، دار الفكر العربى، ص ١٧.

١٢٧- العرصة هى كل موضع واسع لا بناء فيه، انظر، ابن منظور، لسان العرب، ٧ ص ٥٣.

١٢٨- ابن المجاور، المستبصر، ص ٥١.

١٢٩- عزالدين باش شاويش، اليمن السعيد أناشيد المياه أناشيد الحجر، ترجمة خالد النجار www. nizwa. com/ volume 32/ p 12_ 24 html- 435 k على الرغم من أن هذه الأساطير قد تجافى كثيرا من الحقيقة لكنها تدلل على العلاقة الوثيقة بين الحبشة واليمن منذ القدم.

١٣٠- محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم، ص ٣٦٩.
١٣١- ابن المجاور، المستبصر، ص ١٠٦.
١٣٢- الهمدانى، الإكليل، تحقيق نبيه أمين فارس، برنستن ١٩٤٠ م ج ٨ ص ٢٢٦.
١٣٣- محمد أحمد محمد، عدن من قبيل الإسلام وحتى إعلان الدولة العباسية، ص ١١٠.
١٣٤- محمد متولى، محمود أبوالعلا، جغرافية شبه جزيرة العرب، الأنجلو المصرية ١٩٨٨م، ص ١١٨.
١٣٥- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٤٤؛ ابن المجاور، المستبصر، ص ٧١.
١٣٦- كان أميرا كبيرا أسود نوبيا وكان مولى لرشيد بن زياد، وكان يدعى باسم أمه سلامة وبها كان يعرف، ولما مات سيده رشيد وزر لإسحق بن إبراهيم، ثم تولى أمر البلاد بعد إسحق حيث لم يبق من بنى زياد من يصلح لذلك غير طفل صغير اسمه أبوالجيش وهو ابن سيده إسحق، وبعد موته سنة ٤٠٢هـ/ ١٠١٢م اضطرب ملك بنى زياد وانقرضوا، حيث تولى أمر الدولة طفل من آل زياد اسمه عبدالله وكفلته عمته وعبده أستاذ الدار واسمه مرجان وهو من عبيد الحسين بن سلامة، وذلك ما جعل ابن المجاور يقول أن الدولة انتقلت إلى عبيد عبيدهم، انظر عمارة اليمنى، تاريخ اليمنى، ص ٤٠؛ ابن المجاور، المستبصر، ص ٧١؛ ابن أبى مخرمة تاريخ ثغر عدن، ٦١.
١٣٧- الهمدانى، الإكليل، ج ٨ ص ٢٢٦.
١٣٨- عن قيام الدولة الغزنوية راجع عصام الدين عبدالرءوف، الدول الإسلامية المستقلة فى المشرق، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٧م، ٦٧- ١٤٥.
١٣٩- راجع حسن محمود، أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامى فى العصر العباسى، دار الفكر العربى، ط ٥، ص ٥٧٥.
١٤٠- عصام الدين عبدالرءوف، الدول الإسلامية المستقلة، ص ٣٥٢.
١٤١- الخزرجى، العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، ١، ص ٣٢- ٤١.
١٤٢- المستبصر، ص ٧١.
١٤٣- الخزرجى، العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، ١، ص ٤٠ – ٤١، ينتقد أحد الدارسين هذه الرواية ويرى أنها تفوح منها رائحة المبالغة، راجع محمد بن على عسيرى، اليمن فى ظل الأيوبيين، ص ١٥٩.
١٤٤- كورة من نواحى زبيد، بينهما مسيرة يوم، راجع ياقوت، أبوعبدالله الحموى، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، ٢ ص ٣٣٢.
١٤٥- ابن المجاور، المستبصر، ص ٢٣٥.
١٤٦- إذا كان هناك من الأحباش من باع نفسه للصليحى فإن هناك منهم من اعتنق عبدالله شقيق على الصليحى وسقط به على الأرض، ونادى: اقتلونى أنا والرجل فإن عز قومى رخيص بقتلى، وفى المقابل كان بعض العرب لا تصبر على حر الطعان، بمعنى أن الحروب وما فيها من دماء وإزهاق للأرواح تظهر معدن الإنسان عربيا كان أم حبشيا، راجع عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٩٤.
١٤٧- عمارة اليمنى ، تاريخ اليمن، ص ٩٣، ٩٤.
١٤٨- اللغة الحبشية من اللغات السامية مثلها مثل اللغة العربية وتنطق الظاء عندهم صاد وليست زين «عبدالفتاح البركاوى، مدخل إلى علم اللغة الحديثة، القاهرة ١٩٨٤، ص ٨٥»، ولكن يبدو أن العامة ينطقونها زين.
١٤٩- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٥٩ المولدون من الجوار السود يتربون تربية عربية وبالتالى عربيتهم سليمة.
١٥٠- دهلك اسم أعجمى معرف وهى جزيرة فى بحر اليمن، ياقوت، معجم البلدان، ٢ ص ٤٩٢.
١٥١- صفة جزيرة العرب، ص ٦٨.
١٥٢- عن قتل على بن محمد الصليحى والتاريخ العسكرى والسياسى لخلفاء راجع، عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٩٢- ١٠٢.

١٥٣- ابن المجاور، المستبصر، ١٠٧.

١٥٤- Yosef Tobi, The Jews of Yemen, p 34.

١٥٥- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ١ ص ٤٤٥؛ على حسنى الخربوطلى، العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود، معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٦٩م. ص ٥٢.

١٥٦- محمد أحمد محمد، عدن من قبيل الإسلام وحتى إعلان الدولة العباسية، ص ١١٤.

١٥٧- وهب بن منبه، التيجان فى ملوك حمير. رواية أبى محمد عبدالملك بن هشام، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء ١٩٦٨م، ص ٣١٧؛ جورجى زيدان، العرب قبل الإسلام، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٦م، ص ١٧٧.

١٥٨- محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم، ص ٣٨٩.

١٥٩- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ٢ ص ٢٤٧.

١٦٠- انظر قبله

١٦١- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ٢ ص ٢٥١.

١٦٢- Serjeant, Sana,p 53

١٦٣- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ٢ ص ٢٩٦.

١٦٤- لمزيد من التفاصيل عن ولاة اليمن راجع قائمة الولاة Serjeant, Sana,p 53

١٦٥- الخزرجى، اليمن فى عصر الولاة، ص ٩٤.

١٦٦- راجع السيد عبدالعزيز سالم، العصر العباسى الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٥م، ص ٢٣، ٢٤.

١٦٧- الهمدانى، صفة جزيرة العرب، ص ٧٩.

١٦٨- نقلا عن إيمان أحمد شمسان، اليمن فى العصر العباسى الأول، ص ٨١.

١٦٩-عز الدين باش شاويس، اليمن السعيد.

١٧٠- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ص٦١٩؛ عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الإسلام، ص٢٨٦.

١٧١- الطبرى، تاريخ والملوك، ١ص٤٤٠.

١٧٢- أحمد فخرى، اليمن، ماضيها وحاضرها، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٧، ص ٥٦.

١٧٣- الهمدانى، صفة جزيرة العرب، ص٧٢-٧٣.

١٧٤- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ١ص٤٣٩؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، تحقيق أبى الفداء عبد إله، دارالكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥، ١ص٣٣٤.

١٧٥- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ١ص ٣٣٥.

١٧٦- Yosef Tobi,The Jews of Yemen ,Leiden,1999,p34.

١٧٧- أحمد فضل بن على محسن العبدلى، هدية الزمن فى ملوك لحج وعدن، القاهرة١٥٣١هـ، ص٥٠.

١٧٨- للاطلاع على كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى نصارى نجران، انظر، البلارى، أحمد بن يحى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق، رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت١٤٠٣هـ، ص٧٦.

١٧٩-فتوح البلدان، ص٧٧.

١٨٠- نفسه، ٧٨.

١٨١- ابن المجاور، المستبصر، ص٢٠٩.

١٨٢- البلاذى، فتوح البلدان، ٧٧, ٨٧, ١٦٠.

١٨٣- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ص٦٢٠.

١٨٤- هم بنى الحارث بن كعب بن علة بن جلد بن مالك وهو من مذحج ضربوا فى نجران. أسلمت

كثير من بطونهم على أيدى خالد بن الوليد سنة ١٦هـ/ وفد زعمائهم وأعيانهم على الرسول صلى الله عليه وسلم بصحبة خالد بن الوليد فقال من هولاء الذين كأنهم من رجال الهند، الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص٤٥؛ عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الإسلام، دار الفكر العربى، ١٩٨٢ص٢٨٩.

١٨٥- Yosef Tobi, The Jews of Yemen p.37.

١٨٦- عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الإسلام، ص٢٨٦.

١٨٧- اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، ٢ص١٩٩.

١٨٨- يحيى بن الحسين، أنباء الزمن فى أخبار اليمن، ص١١؛ عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الإسلام، ص٢٩٠-٢٩١.

١٨٩- المستبصر، ٢٨٠.

١٩٠- المستبصر، ص٢٠٩.

١٩١- Werner Daum,From Aden to India and Cairo,: Jewish World trade in years of art and civilization the 11the and 12the centuries,in Yemen 3000 in Arabia Felix,ed.Werner Daum, Frankfurt,1987,p169.

١٩٢- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ص٦١٩.

١٩٣-جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام،٦ ص٦١٩.

١٩٤-إيمان أحمد شمسان، اليمن فى العصر العباسى الأول، ص٨٤.

١٩٥- عن أصل اليهودية فى اليمن راجع وهب بن منبه، كتاب التيجان فى ملوك حمير، رواية أبى محمد عبد الملك بن هشام، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الجمهورية العربية اليمنية، صنعاء ١٩٧٩م، ص٣٠٦و٣٠٧؛ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٢ص٦١؛ عبد الرحمن بشير، عدن واليهود، وقائع تاريخية، مركز الدراسات التاريخية، جامعة القاهرة العدد الأول ٢٠٠٤م.

١٩٦- على حسنى الخربوطلى، العلاقات السياسية بين العرب واليهود فى العصور القديمة والإسلامية، معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٦٩م، ص٤٦.

١٩٧- الهمدانى، الأكليل، ٨ص٢٢٦.

١٩٨- جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦ص٥٤٩.

١٩٩- صالح بن داود الأنسى، فتح الملك المعبود فى ذكر إجلاء اليهود، تحقيق محمد عيسى الحريرى، ندوة التاريخ الإسلامى، المجلد الخامس (١٩٨٥م)ص٢٢٠.

٢٠٠- Yosef Tobi, The Jews of Yemaen, P37

٢٠١-الملك المعبود، ص ٢٢٠-٢٢٣

٢٠٢- يحيى بن الحسين، أنباء الزمن فى أخبار اليمن، ص١١.

٢٠٣- ابن المجاور، المستبصر، ص٢٠٩.

٢٠٤-الرازى، تاريخ مدينة صنعاء، ص١١٤؛الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص٣١.

٢٠٥- الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص٣١.

٢٠٦- الخزرجى، اليمن فى عهد الولاة، ص٤٤.

٢٠٧- يحيى بن الحسين، غاية الأمانى، ص ٣٠٧، ٣٠٨.

٢٠٨- Joseph Tobi,The Jews of Yemen,p41.

٢٠٩- راجع، عمارة اليمنى؛ تاريخ اليمن، أبى مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ٢ص١٢٨.

٢١٠- Goltein, Jews and Arabs,: Their Contacts Through the Ages,NewYork,1974,p74.

٢١١- Eliyahu Ashtor,The Jews and Mediterranean Economy 10the-15the centuries,London 1983,p165.

٢١٢- المستبصر، ص١٤٠؛ جوايتاين، خطابات ووثائق عن تجارة الهند فى العصور الوسطى، ص٤٧٢، وعن أسرة زعيم اليهود مضمون بن حسان وعلاقاتهم التجارية فى عدن ومع السلطة فى

عدن، راجع، عبد الرحمن بشير، عدن واليهود، مجلة وقائع تاريخية، مركز الدراسات التارخية جامعة القاهرة، العدد الأول، ٢٠٠٤م.

Goitein,From Aden to India, Journal of the Economic and Social History of Orient,vol.xx111,pats1 and2,1980,p54'

Werner Daum,From Aden to India and Cairo Jewish World trade in the11the and 12the centuries,p169.

٢١٥- عبد الوهاب بن عبد الرحمن البريهى السكسكى اليمنى، طبقات صلحاء اليمن، تحقيق عبد الله محمد موسى، مكتبة الرشاد، صنعاء ١٩٩٤م، ص١٧٨.

٢١٦- الخزرجى، على بن الحسن، العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح وتنقيح، محمد بسيونى عسل، القاهرة ١٩١٤م، ١٦٦-١٦٧.

٢١٧- السكسكى، طبقات صلحاء اليمن، ص٢١٩.

٢١٨- استعان به أحد المقعدين المسلمين فقال له اليهودى (اترك محمد ينفعك ويقيمك) راجع، السكسكى، طبقات صلحاء اليمن، ص٣٢٣.

٢١٩- السكسكى، طبقات صلحاء اليمن، ص٣٢٣.

٢٢٠- المتعارف عليه فى الإسلام هو إرجاع النسب إلى الأب أما الانتساب إلى الأم فإنه قليل الوقوع، راجع جواد على المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد ١١٩٩٣ص٥٢٧.

٢٢١- برترام توماس، بلاد اليمن السعيد، ص١٣٧.

٢٢٢- محمد بيمى مهران، تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٨م، ص٢٥٦.

٢٢٣- المقرى، أحمد بن محمد المقرى التلمسانى، نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨م، ١ص٧٨, ٢٩٦؛ مصطفى أبو ضيف، القبائل العربية فى الأندلس، الدار البيضاء، ص٤٦١.

٢٢٤- يحى بن الحسين، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، ص١٦٧.

٢٢٥- أسامة أحمد حماد، مظاهر الحضارة الإسلامية فى اليمن فى العصر الإسلامى، عصر بنى أيوب وبنى رسول، مركز الإسكندرية للكتاب ٢٠٠٤م، ص٤٧٧.

٢٢٦- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ١ص٢٩٢، ويروى ابن الأثير أن النبى سليمان أحبها حبا شديدا فبعد زواجه منها ردها إلى ملكها باليمن وكان يزورها كل شهر مرة يقيم عندها ثلاثة أيام، الكامل، ١ص١٨١.

٢٢٧- ياقوت، معجم البلدان، ١ص٤٥٤؛ الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٥٦.

٢٢٨- ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢م، ٢ص١٦١.

٢٢٩- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص٥٦.

٢٣٠- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ٤ص١٣٦.

٢٣١- عمار اليمنى، تاريخ اليمن، ص٦٢.

٢٣٢- كان على بن محمد الصليحى يخص أروى فى صغرها بالعطف والكرم، وكان يقول لأسماء: «أكرميها فهى والله كافلة ذرارينا، وحافظة هذا الأمر (الحكم) على من بقى منا انظر، عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص٦٢.

٢٣٣- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص٦١.

٢٣٤- راجع عبد الرحمن بشير، عدن واليهود.

٢٣٥- يبدو أن شخصية بلقيس استهوت الحرة وأرادت أن تحاكيها، فبعد موت زوجها المكرم أراد القائد سبأ بن أحمد الزواج منها فرفضت فأرسل للمستنصر الفاطمى طالبا منه أن يأمرها بذلك فهو صاحب الشرعية والزعيم الروحى لشيعة اليمن فكتب المستنصر رسالة من ثلاثة سطور يأمرها فيها

بنكاح سبأ فردت على رسول المستنصر«أما كتاب مولانا فأقول فيه: أنى ألقى إلى كتاب كريم أنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم، ولا أقول فى أمر مولانا : يا أيها الملأ افتونى فى أمرى، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون» انظر، عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص٦٨.

٢٣٦- يروى عمارة وينقل عنه من جاء بعده أن سبب تفويض الأمر للحرة تفرغ المكرم للهو والسماع والشراب وعكوفه على الملذات ثم يعود ويقول أنه أصابه الفالج وعكف على الملذات فهل يتسق مرضه بالفالج مع معاقرة الخمر والاستمتاع بما لذ وطاب انظر، تاريخ اليمن، ص٦٢-٦٣.

٢٣٧- ياقوت، معجم البلدان، ٢ص١٠٦.

٢٣٨- راجع عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص٦٢؛ يحى بن الحسين، غاية الأمانى، ص٢٦١؛ أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى، ص٣٧٨.

٢٣٩- انظر قبله

٢٤٠- حسن سليمان محمود، الملكة أروى سيدة ملوك اليمن، مكتبة مصر، القاهرة، ص٢٩.

٢٤١- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص ٦٣-٦٤.

٢٤٢- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص٦٨.

٢٤٣- عبد المنعم ماجد، السجلات المستنصرية، دار الفكر العربى، القاهرة، ص ٢٩.

٢٤٤- حسن سليمان محمود، الملكة أروى، ص٩٢.

٢٤٥- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص٦١.

٢٤٦- حسن سليمان محمود، الملكة أروى، ص٩٣.

٢٤٧- غاية الأمانى، ص٢٨٩-٢٩٠.

٢٤٨- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص,١٠٣.-

٢٤٩- يحيى بن الحسين، غاية الامانى، ص ٢٩٩.

٢٥٠- عمارة اليمنى، تاريخ اليمن، ص١١٨.

٢٥١- عصام الدين عبد الرءوف، اليمن فى ظل الإسلام، ص٣٠١؛ أسامة أحمد حماد، مظاهر الحضارة الإسلامية فى اليمن، ص٤٧٧.

٢٥٢- على محمد زيد، تيارات معتزلة اليمن فى القرن السادس الهجرى، صنعاء ط ١٩٩٧م، ص٣١.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير، «محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني ت٦٣٠هـ»، الكامل في التاريخ، تحقيق أبى الفداء عبد إله القاضى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥.
- البكرى، «أبو عبيد البكرى الأندلسى ت٥٨٧»، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق : مصطفى السقا، عالم الكتب بيروت ١٤٠٣هـ
- البلاذرى «أحمد بن يحى بن جابر ت٢٧٩هـ»، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ.
- ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢م
الخزرجى«أبو الحسن الخزرجى ت٨١٢/١٤١٠م»، - اليمن فى عهد الولاة، الفصول الخمسة الأولى من الباب الرابع من كتاب الكفاية والإعلام فيمن ولى اليمن وسكنها من ملوك الإسلام، تحقيق راضى دغفوس، الكراسات التونسية الجزء ٢٧ رقم ١٠٧-١٠٨ لسنة ١٩٧٩م.
- العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح وتنقيح محمد بسيونى عسل، القاهرة ١٩١٤م.
- الرازى، «أحمد بن عبد إله الصنعانى ت٤٦٠/١٠٦٨» م، تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق حسين عبد الله العمرى، عبد الجبار زكار، صنعاء ١٩٧٤م.
- الزمخشرى، «محمود بن عمر ت٥٣٨» هـ، الفائق فى غريب الحديث، تحقيق محمد البجاوى، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ دار المعرفة لبنان .
- السكسكى، «عبد الوهاب بن عبد الرحمن البريهى السكسكى اليمنى»، طبقات صلحاء اليمن، تحقيق عبد الله محمد موسى، مكتبة الرشاد، صنعاء ١٩٩٤م
- أبو شامة، «شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى ت٦٦٥هـ»، الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٧م.
- صالح بن داود الأنسى، فتح الملك المعبود فى ذكر إجلاء اليهود، تحقيق محمد عيسى الحريرى، ندوة التاريخ الإسلامى، المجلد الخامس (١٩٨٥م)
- الطبرى، «محمد بن جرير الطبرى أبو جعفر ت٣١٠هـ»، تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ.
- العبدلى، «أحمد فضل بن على محسن»، هدية الزمن فى ملوك لحج وعدن، القاهرة ١٣٥١هـ
عمارة اليمنى، نجم الدين عمارة بن ابى الحسن على الحكمى اليمنى ت٥٦٩ هـ»، تاريخ اليمن، تحقيق حسن سليمان محمود، القاهرة.
- ابن المجاور، «جمال الدين أبى الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيبانى الدمشقى ت٦٩٠هـ/١٢٩١م»، صفة بلاد اليمن ومكة

وبعض والحجاز المسماه تأريخ المستبصر، اعتنى بتصحيحه وضبطه أوسكر لوفجرين، ليدن ١٩٥١م
– أبى مخرمة، «أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله ت٩٤٧ هـ»، تاريخ ثغر عدن، ليدن ١٩٣٦م.
– المقدسى، «محمد بن أحمد ت٣٩٠هـ»، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، تحقيق غازى طليمات وزارةالثقافة والإرشاد القومى، دمشق ١٩٨٠م.
– المقرى، «أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ت١٠٤١هـ/١٦٣١م»، نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨ م.
– ابن منظور، «محمد بن مكرم بن منظور الإفريقى المصرى ت٧١١هـ»، لسان العرب، دار صادر بيروت.
الهمدانى، «لسان اليمن أبى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ت٣٦٠هـ»الأكليل من أخبار اليمن وانساب حمير، الجزء العاشر، تحقيق، محمد بن على بن الحسين الأكوع، مكتبة الجيل الجديد صنعاء ١٩٩٠ م، والجزء الثامن، تحقيق نبيه أمين فارس، برنستن ١٩٤٠م.
صفة جزيرةالعرب، تحقيق محمد بن على الأكوع، دار اليمامة ١٩٧٧ م.
– اليعقوبى، «أحمد بن أبى يعقوب ت٢٨٤ هـ»، تاريخ اليعقوبى، دار صادر بيروت
– وهب بن منبه ت١١٤ هـ، كتاب التيجان فى ملوك حمير، رواية أبى محمد عبد الملك بن هشام، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الجمهورية العربية اليمنية، صنعاء ١٩٧٩.
– ياقوت «أبو عبد الله الحموى ت٦٢٦ هـ»، معجم البلدان، دار الفكر، بيروت
– يحيى بن الحسين (١١٠٠هـ/١٦٨٩م)، أنباء الزمن فى أخبار اليمن من سنة ٢٨٠–٣٢٢هـ مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون تاريخ.
– غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، محمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر،القاهرة ١٩٦٨م.

ب-المراجع

–أحمد حسين شرف، اليمن عبر التاريخ ١٩٨٠م.
–أحمد فخرى، اليمن، ماضيها وحاضرها، معهد الدراسات العربية،القاهرة ١٩٥٧م .
–أسامة أحمد حماد، مظاهر الحضارة الإسلامية فى اليمن فى العصر الإسلامى، عصر بنى أيوب وبنى رسول، مركز الإسكندرية للكتاب،٢٠٠٤م.
–السيد عبد العزيز سالم، العصر العباسى الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٥م.
–إيمان أحمد شمسان،اليمن فى العصر العباسى الأول، دار الثقافة العربية

للنشر، الشارقة، جامعة عدن ٢٠٠١م

– أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى، المعهد العلمى الفرنسى للدراسات الشرقية القاهرة ١٩٧٤م.

– برترام توماس، البلاد السعيدة، ترجمة محمد عبد الله، وزارة التراث القومى والثقافة. عمان ١٩٨١م.

– جاد طه، سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن، دار الفكر العربى، القاهرة

– جواد على، مفصل تاريخ العرب قبل الإسلام، بغداد ١٩٩٣م

– جورجى زيدان، العرب قبل الإسلام، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٦م

– حسن محمود، أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامى فى العصر العباسى، دار الفكر العربى، القاهرة.

– زهير هوارى، السلطة والمعارضة فى الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٣م.

عبد الرحمن بشير، المعتزلة فى المغرب الأوسط عصر الدول المستقلة ضمن كتاب دراسات فى تاريخ العصور الوسطى، تحرير حاتم الطحاوى، دار عين للدراسات والبحوث ٢٠٠١م.

– عبد الفتاح البركاوى، مدخل إلى علم اللغة الحديث، القاهرة ١٩٨٤.

– عبد الله على عبد الله الغسيل، دور التقاليد العرفية فى نشأة القانون اليمنى وتطوره، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٧م.

– عبد المنعم ماجد، السجلات المستنصرية، دار الفكر العربى، القاهرة.

– عز الدين باش شاويش، اليمن السعيد أناشيد المياه أناشيد الحجر، ترجمة خالد النجار.

– عصام الدين عبد الرءوف، الدول الإسلاميةالمستقلة فى المشرق، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٧م .

اليمن فى ظل الإسلام، دار الفكر العربى، ١٩٨٢م .

– فاطمة علوى الصافى، المرويات اليمنية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الثانى الهجرى، دار الثقافة، الشارقة ٢٠٠٢م.

– على حسنى الخربوطلى، العلاقات السياسية بين العرب واليهود فى العصور القديمة والإسلامية، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٩م.

– فضل على أحمد أبو غانم، القبيلة والدولة فى اليمن، دار المنار، القاهرة ١٩٩٠م.

فضيلة الشامى، الدولة اليعفرية بصنعاء والجند، ونشاطها السياسى والعسكرى ٢٢٥هـ/٣٩٣م، المؤرخ العربى ١١, ١٩٧٤م

– قائد الشرجى، القرية والدولة فى المجتمع اليمنى، دار التضامن، بيروت ١٩٩٠م .

– قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٥م.

- محمد أحمد محمد، عدن من قبيل الإسلام وحتى إعلان الدولة العباسية، دار الثقافة العربية، الشارقة ٢٠٠١م .
- محمد أمين صالح، بنو معن ثم آل زريع فى عدن، مجلة المؤرخ العربى اتحاد المؤرخين العرب، بغداد العدد ١٥ لسنة , ١٩٨٠.
- دولة الخوارج فى اليمن، بنو مهدى فى زبيدً، بحث منشور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية م ٢٥ لسنة ١٩٧٨م.
- محمد أنعم غالب، اليمن، دار الكاتب العربى، بيروت ١٩٦٦.م.
- محمد بيومى مهران، تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٨م .
- محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب، دار الفكر العربى، القاهرة ط٢ ١٩٥٧م.
- محمد عبد الله ماضى، دولة اليمن الزيدية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث، العدد الأول، ١٩٥٠م.
- محمد بن على عسيرى، اليمن فى ظل الأيوبيين، رسالة ماجستير كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود ١٣٩٩هـ.
- محمد متولى، محمود أبو العلا، جغرافية شبه جزيرة العرب، الأنجلو المصرية، ١٩٨٨م.
- نعمان محمود جبران، روضة سحيم حمد آل ثانى، تاريخ الجزيرة العربية فى العصور الإسلامية الوسطى، الأردن ١٩٩٩م .
- مصطفى أبو ضيف، القبائل العربية فى الأندلس، الدار البيضاء .

المراجع الأجنبية

-Daniel Martin Varisco, Al-tawqi, at fi taqwim al-zira'a al-majhul min asr muluk Bani Rasul, in Medieval Folk Astronomy and Agriculture in Arabia and the Yemen, Variorum 1997 , 1983 .

- Eliyahu Ashor, The Jews and Mediterranean Economy 10th cen turise, London 1983.

- Goitein, From Aden to India, Journal of the Economic and Social History of Orient, Vol.xx, Parts 1 and 2, 1980.

- Jews and Arabs,: Their Contacts through the Ages, New York, 1974.

- Serjeant and Ronald Sana an Arabian Islamic City, World of Islam festival trust.

- Smith, G. Rex The Ayyubids and Rasulids- The Transfer of Power in 7th/ 13th century Yemen, Islamic culture, Vol.XLIII, no. 2, 1969 The Polltical History of the Islamic Yemen Down to the first Turkish invasion, in Studies in the Medieval History of the Yemen and South Arabia, Variorum,1997.

- The Tahird Sultan of the Yemen, in Studies in the Medieval History of the Yemen and South Arabia, Variorum 1997.

- Werner Daum, From Aden to India and Cairo,: Jewish World Trade in the 11 Felix,ed Werner Daum, Frankfurt, 1987.

- Yosef Tobi, The Jews of Yemen, Leiden, 1999.

د. آمنة بنت حسين جلال (*)

دور مكة المكرمة والمدينة المنورة في الثقافة الإسلامية عصر الوليد بن عبدالملك ٨٦- ٩٦هـ

مقدمة :

بلغ نفوذُ المسلمين السياسي وازدهارهم الحضاري شأواً كبيراً في عصر الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م . فكان عصره تتويجاً لما بلغه المسلمون في هذين المجالين في العصر الأموي.

فقد اتسعتْ الدولة الإسلامية في عصر بني أمية بالتوسع في الفتوحات الإسلامية ، مما أدى إلى دخول أعداد كبيرة من العجم في الإسلام، وبذلك انتشرتْ العلومُ الشرعيةُ بين أهل البلاد المفتوحة.

وكانتْ مكةُ المكرمةِ والمدينةِ المنورةِ أولَ من حملَ مشعلَ تلك العلوم، ونالتْ العلومُ الشرعيةُ أو النقليةُ اهتمام الخلفاء لارتباطها بالإسلام خاصةً أنها مستمدة من الدين ومنقولةٌ عنه.

فالإسلام يحثُ على العلمِ والحض على طلبه. وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي ورد فيها ذكرُ القراءة والكتابة والقلم والصحف والسجل، وفضلُ العلم وأهله وطلابه ومن ذلك قوله تعالى: «اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »(١) فهي دعوةٌ صريحةٌ إلى العلم والترغيب فيه لقوله عز وجل: « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ »(٢).

ويحثُ الإسلامُ على المعرفة والتدبر وإعمال الفكر لقوله تعالى: «الرَّحْمَنُ ،عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ »(٣) وقال تعالى: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»(٤).

(*) أستاذ مساعد – قسم التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة أم القرى – مكة المكرمة

فالإسلامُ يخاطبُ العقلَ، ويحثُ على التفكير ، ويعلي مكانة العلماء في قوله تعالى: « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ[٥] .

كما أن الله يزن يومَ القيامةِ مداد العلماء بدماءِ الشهداء، كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن منزلة العلماء تلي منزلة الأنبياء لقوله: « العلماء ورثة الأنبياء »[٦].

كما حث الرسولُ صلى الله عليه وسلم على تعلم القراءةِ والكتابةِ ، خاصةً عندما فرض على كل أسير من أسرى بدرٍ لا يملك مالاً ويجيدُ القراءة والكتابة أن يعلمَ عشرةً من أبناءِ المسلمين[٧].

كما حث الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه على تعلم اللغات المختلفة فنصح زيد بن ثابت[٨] أن يتعلم لغة اليهود العبرية قراءةً وكتابة لأنه كان لا يأمن جانبهم، كما أنه كان يكتب للرسول صلى الله عليه وسلم الرسائل إلى سائرِ الملوك والأمراء[٩] .

كما حث على تعليم المرأة حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم : « طلبُ العلم فريضة على كل مسلمٍ ومسلمةٍ »[١٠] .

وقد أثمرت توجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم ثمرةً طيبة، فتعلم كثيرٌ من الصحابة رضوان الله عليهم القراءة والكتابة ، وكان لبعضهم ملكاتٌ علمية بارزة[١١]. ولذلك من الطبيعي أن يشهد المسجد النبوي حركةً علمية أخذتْ في النمو والازدهار تدريجيا[١٢]، خاصةً أن العامل الديني سيطرَ على الحركة العلمية خلال الفترة الممتدة من ظهور الإسلام إلى نهاية العهد الأموي، فهذا أمر طبيعي، فإن علماء هذه الحقبة إما من الصحابة أو من التابعين، وكان أقصى إهتمامهم العمل على نشرِ الإسلامِ وتعاليمه[١٣].

وقد اضطلع علماء الحجاز بدور الريادة في الحياة العلمية، فقد أخذوا علمهم عن معلم البشرية خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم واستمر هذا الدور في عصر الخلفاء الراشدين، ثم في عصر الدولة الأموية، حيث اهتم خلفاء بني أمية بتدوين العلوم الإسلامية، خاصة الحديث الشريف منذ سنوات حكمهم الأولى، فقد حرص مروان بن الحكم[١٤] أثناء ولايته على المدينة المنورة في خلافة معاوية بن أبي سفيان[١٥] على تدوين العلم خشية الضياع، فأراد أن يحفظ معارف كبار الصحابة، فاستقدم زيد بن ثابت الأنصاري وطرح عليه عدداً من الأسئلة بينما كان الكُتاب الجالسون يدونون الإجابات، فلما لحظ ذلك زيدٌ خرج وقال: «يا مروان عذراً إنما أقولُ برأي»[١٦].

– وإذا كان هذا شأن خلفاء بني أمية جملة فإن عصر الوليد بن عبد الملك[١٧] شهد نهضة علمية كبرى، وكان الحرمان الشريفان منارة لنشر العلوم الدينية.

ونتناول في البحث: العلوم الشرعية بمجالاتها الأربعة، وهي: علم القراءة، وعلم التفسير، وعلم الحديث وعلم الفقه، كما نتناول: مظاهر النشاط العلمي، التي تمثلت في: حلقات العلم في الحرمين الشريفين، ومجالس العلماء، ودور الكتاتيب والمؤدبين، وطرق التعليم ومناهجه، والرحلات العلمية.

الاستقرار السياسي فى الحجاز بعد القضاء على حركة ابن الزبير فى عهد الدولة الأموية:

كان قرار الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي اتخذه سنة ٨٧هـ بإسناد ولاية الحجاز إلى عمر بن عبد العزيز[١٨] خطوةٌ هامة في سبيل تحقيق تلك النهضة العلمية المتميزة التي شملتْ : الحرمين الشريفين، وأسهمت بدورها في ازدهار الثقافة الإسلامية في أنحاء الخلافة الأموية كلها.

فكان الاستقرار السياسي الذي شهدته بلاد الحجاز في ولاية عمر بن عبد العزيز، ثم من بعده خالد بن عبد الله القسري[١٩] أثره في تعزيز دور مكة المكرمة والمدينة المنورة العلمي. ولم يَحل تحول حاضرة الخلافة الإسلامية في بلاد الحجاز من خلال الدور البارز لعلماء الحرمين الشريفين في إرساء قواعد العلوم الإسلامية والنهوض بها.

وشهد عصر الوليد بن عبد الملك ازدهار الثقافة الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث كان الاستقرار السياسي بعد القضاء على حركة عبد الله بن الزبير[٢٠] التي شغلت أحداثها فترة من تاريخ الأمويين.

ولاشك أن عبد الملك بن مروان نهج سياسة أبيه (مروان بن الحكم) الذي استفاد من مدرسة المدينة المنورة التي نشأ فيها، وتلقى بها أول دروس العلم والثقافة الإسلامية. واشتهر عبد الملك بن مروان كأبيه بالعلم والفصاحة، حتى أن الذهبي[٢١] يصفه بقوله: « فقهاء المدينة سعيد بن المسيب، وعبد الملك بن مروان، وعروة بن الزبير، وقبيصة بن زؤيب « ويذكر عنه ابن العماد الحنبلي[٢٢] : «ما رأيت في المدينة أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك ».وهكذا نشأ الوليد بن عبد الملك في تلك البيئة التي أعطت اهتماماً كبيراً: للعلوم، والثقافة الإسلامية، والفنون، والعمارة.

وقد اهتم عبد الملك بتعليم أبنائه، ومنهم الوليد وتربيتهم على القيم الأخلاقية، وحرص على اهتمامهم باللغة العربية، وعلوم القرآن الكريم، ومن أقوال الخليفة عبد الملك بن مروان لأولاده قوله : « يا بني تعلموا العلم فإن كنتم سادةً فقتم، وإن كنتم وسطاً سدتم ، وإن كنتم سوقةً عشتم»[٢٣].

كما حذا الوليد حذو أبيه في الاهتمام بالعمارة ، والعلوم، والفنون. وكان مغرماً ببناء الجوامع وعمارتها، فعنى بتجديد الكعبة المشرفة، والمسجد النبوي.

حلقات العلم في الحرمين الشريفين :

ارتبط العلم ارتباطاً وثيقاً بالمساجد، حيث يعتبر نظام الحلقات العلمية هو نظام الدراسة المتميزة بالمساجد. وكان هذا النظام تقليداً ظلت الأجيال تتوارثه، حيث اتسعت وظيفته حين جلس الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسجد معلماً، وعدَّ الرسول صلى الله عليه وسلم مجالس العلم بمثابة رياض الجنة إذ قال: « إذا مررتم برياض الجنة فأرتعو، وقالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: مجالس العلم». (٢٤) فالمسجد هو مكان لإقامة الصلاة وللتفقه بالعلوم الدينية والدنيوية، وهو مكان للقضاء بين الناس، ومجالاً لعقد ألوية الجيوش، ومكاناً لاستقبال وفود القبائل وسفراء الدول(٢٥).

فالمسجد وحلقاته العلمية يُعد مدرسة الإسلام الأولى، وسمةٌ من سمات الحياة الثقافية الإسلامية. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة، ويلتف حوله الصحابة حلقاً حلقاً يستمعون إليه، ويتلقون منه مبادئ الإسلام وتعاليمه(٢٦)، وقد سُميتْ الحلقة بهذا الاسم لأن الطلاب يلتفون جلوساً حول شيخهم ، مما يوضح أن عددهم كان محدداً(٢٧). أما المدارس بالمعنى المعروف فلم تعرف إلا في القرن السادس الهجري حول الحرمين الشريفين. وكذلك الأربطة(٢٨) التي توقف على الفقراء الذين يأتون لأداء الحج والعمرةُ ثم يتخلفون للإقامة بالأربطة حول الحرمين الشريفين.

وقد ضمت هذه الحلقات عدداً من أبناء مكة وعشائرها أو ممن هاجروا إلى مكة وجاوروا إلى مهبط دينهم ينشدون الاطمئنان، ويطلبون العلم ويعلمون غيرهم مثل ابن عباس الذي اتخذ مجلسه أمام بئر زمزم يعلم الناس الأحكام وأمور دينهم(٢٩): وكانت حلقة سعيد بن المسيب(٣٠) أشهر حلقات المسجد النبوي، وكان يبدأ مجلسه بأن يركع ركعتين ثم يجلس فيجتمع إليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم الفقه(٣١). وأيضاً عبيد الله بن عتبة بن مسعود، وكان معاصراً لسعيد بن المسيب وهو أحد الفقهاء السبعة(٣٢) في العصر الأموي، خاصة في عصر الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان إماماً في الفقه والحديث، وقد وصف عمر بن عبد العزيز حلقته بقوله: «لأن يكون لي في مجلس من عبيد الله أحب إليَّ من الدنيا وما فيها»(٣٣).

ويذكرُ المقريزي(٣٤) : أن الخليفة الوليد بن عبد الملك حين دخل المسجد النبوي لينظر إلى بنائه بعد أن خرج الناس منه، ولم يبق غير سعيد بن

المسيب فقيل له: لو سلمت على أمير المؤمنين قال : والله لا أقومُ إليه قال عمر بن عبد العزيز: فجعلتُ أعدل بالوليد في ناحية المسجد لئلا يراه، فالتفت الوليد إلى القبلة فقال : من ذلك الشيخ ؟ أهو سعيد بن المسيب؟ قال عمر : نعم ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر. فقال الوليد : قد علمت حاله ونحن نأتيه، فدار في المسجد ثم أتاهُ فقال: كيف حالك أيها الشيخ؟ فقال: بخير والحمد لله، فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله؟ فأنصرف الوليد وهو يقول لعمر: هذا بقية الناس.

وكان لمدرسة المدينة المنورة الفقهية أثرها العلمي على الحجاز كله وعلى سائر المدارس في الأمصار الأخرى، حيث تتلمذ أصحابها على زيد بن ثابت، وأخذوا عنه ونهجوا نهجه في الفقه(٣٥).

وقد ذكر ابن القيم(٣٦) أن العلم والدين والفقه انتشر في الأمة الإسلامية عن أصحاب ابن مسعود، وزيد بن ثابت وأصحاب عبد الله بن عمر وابن عباس رضي الله عنهم. فكان ابن عباس(٣٧) يدْرسُ الفقه لطلاب العلم يوماً، ويجعل للتأويل والتفسير يوماً، وللشعر يوماً، ولأيام العرب، وللمغازي يوماً، وما رُئي عالمٌ قط جلس إليه إلا أقر له بالعلم الغزير والفهم العميق، وما سأله سائلٌ إلا وجدَ عنده علماً(٣٨).

وقد حظي المسجد الحرام باهتمام الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي شهد عصره حركة علمية عمرانية كبيرة بمكة المكرمة أشاد بها معاصروه فقد أرسل إلى عامله على مكة (خالد بن عبد الله القسري) سنة ٨٩هـ ثلاثين ألف دينار ضربتْ صفائح ذهبية فجعلت على باب الكعبة والأساطين والميزاب، فكان الوليد أول من ذهب البيت في الإسلام(٣٩) . واهتم برعاية طلاب العلم، وصارت حلقات المسجد الحرام موضع اهتمام الفقهاء، فمنعوا الناس من استطراق حلَق الفقهاء والقراء صيانةً لحرمتها(٤٠).

وكان طالبُ العلم يحضر حلقة أستاذه وشيخه، وعندما يستكمل دروسه وينجح في فهمها يجيزه أستاذه، ويسمحُ له بتعلم الفرع الذي درسه وأتقنه في حلقة مستقلة، وقد أدى تعدد الحلقات إلى تنوع التخصصات، فبعضها تخصص في دراسة القرآن الكريم وتفسيره، وبعضها في الفقه والحديث(٤١)، والبعض في دراسة اللغة العربية وآدابها(٤٢).

ولم تكن هناك إجازة يُشترط أن يحصل عليها المعلم ليكون صالحاً للتعليم، وإنما كان الحال كما أشار السيوطي(٤٣) : « إن من علم نفسه الأهلية جاز له ذلك وإن لم يجزه أحد».

ونرى أن التقليد الذي استجد بعد ذلك بمنح الإجازات للقائمين بأمر التدريس في حلقات العلم كان لإرشاد طلاب العلم إلى هؤلاء العلماء. وقد أوضح ذلك السيوطي بقوله: «إنما اصطلح الناس على الإجازة، لأن أهلية الشخص لا يعلمها غالباً من يريد الأخذ عنه من المبتدئين ونحوهم»[٤٤].

وقد ذكر ابن حنبل وسفيان الثوري وغيرهم: «أنه لا يجوز أن يأخذ المعلم أجراً على تعليم القرآن الكريم والحديث»[٤٥] لأن إقامة سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإرشاد عباد الله إلى الحق قد استوجبت على القائمين بأمر التدريس أن يكون تعليمهم الأمور الدينية ابتغاء وجه الله، والقيام بتعليم تلك العلوم شرعاً[٤٦].

ولكن بعد أن صارت علوم الدين علوماً تُدرس في حلقات بالمسجد، أجاز بعض العلماء والأئمة مثل الإمام مالك أخذ الأجر على تعليم القرآن، ولا ريب أن ذلك ينطبق على بقية علوم الدين[٤٧].

وهذا لا يتعارض مع ما ذكره ابن عبد البر[٤٨] من أن يكون تعليم أمور الدين ابتغاء وجه الله. فالأجر الذي كان يتقاضاه المعلم كان أجراً زهيداً يكفيه مؤونة إعالة نفسه ومن يعولهم ليتفرغ للعلم والتعليم، يشترك فيه طلاب حلقة العلم ولا يشكل عبئاً كبيراً عليهم .

كما حرص الوليد بن عبد الملك على تخصيص جزءٍ من العطاء للعلماء فكانت أسماء العلماء تدون في الديوان، فقد ذكر الإمام الزُهري: «أن الوليد بن عبد الملك فرضَ لي في الديوان وأمر لي بخادم»[٤٩]. كما يذكرُ المقريزي[٥٠] أن الوليد بن عبد الملك كان يأمر بالإنفاق من بيت المال على القراء المتفرغين لطلب العلم في الحرمين.

وقد كانت سياسة الخليفة الوليد أن يَبُر حملة القرآن والعلم، ويقضي عنهم ديونهم، وهذا يشيرُ إلى قلة دخل العلماء وزهدهم في الدنيا، لذلك حرص الوليد على تخصيص جزءٍ من العطاء لهم، فكانت أسماء العلماء تدون في ديوان العطاء، ومع ذلك كان بعض العلماء يرفض أخذ العطاء كسعيد بن المسيب عالم المدينة المنورة الذي كان يشتغل بتجارة الزيت[٥١].

الكُتاب [٥٢]:

تعد الكتاتيب من أسبق أماكن تعليم الأطفال شيوعاً. وكانت معروفة في الجاهلية لأن أهل الحيرة وغيرهم كانوا يفردون أماكن يطلقون عليها اسم الكُتاب ليتعلم فيها الصبيان القراءة والكتابة[٥٣].

وقد ظهر الكُتاب كمؤسسةٍ تعليمية منذ أوائل العهد الإسلامي لتقوم بتربية صغار المتعلمين، وسمي بهذا الاسم لأن الطفل يتعلم فيه القراءة والكتابة، وحفظ القرآن، والتعرف على مخارج الحروف وضبطها بالشكل، ثم يتدرج المعلم في تعليم الصبي أصول الحساب وغيره. وعندما يتم تعليم الصبي حفظ القرآن تلاوة وكتابة وتجويداً يجازُ من شيخهِ ويصبح حافظاً[٥٤].

وهناك من يرى أن الكُتاب كان معروفاً عند العرب خاصة في مكة بدليل وجود سبعة عشر رجلاً من قريش كانوا يعرفون القراءة والكتابة قبل مجيء الإسلام وهذا دليل على وجود أماكن لتعليم القراءة والكتابة، ولكن هذا الاستنتاج غير قطعي، فالقرشيون كانوا على اتصال بالأمم الأخرى عن طريق التجارة فربما أخذوا عنهم القراءة والكتابة[٥٥]. وقد أشار ابن قتيبة إلى أسماء بعض معلمي الكتاتيب، فذكر منهم: الحجاج بن يوسف الثقفي، وأبوه اللذان كانا يعلمان الأولاد في الطائف، ولاشك أن الصبيان الذين كانوا يكتبون للرسول صلى الله عليه وسلم تعلموا القراءة والكتابة في بعض كتاتيب مكة قبل الإسلام[٥٦].

ولا يمكننا أن نحدد بالضبط بداية نشأة الكُتاب في الدولة الإسلامية، إلا أنه من الراجح أنه نشأ مع بداية تكوين الدولة الإسلامية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن الإسلام يحضُ على العلم والتعلم، فكان الأطفال ينتظمون فيها لتعلم القراءة والكتابة، وقراءة القرآن[٥٧].

– وقد ذكر الكتاني[٥٨] أن أم سلمة رضي الله عنها (زوج النبي صلى الله عليه وسلم) بعثت إلى معلم الكتاب أن أبعث إليَّ غلماناً، وفي مكان آخر أن عمر بن الخطاب هو أول من أمر ببناء بيوت المكاتب، ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم.

ونشأة الكتاتيب منفصلة عن المسجد، فيتم تعليمهم في مكان يستأجره المعلم للتعليم، ويؤيد ذلك قول الإمام مالك حين سئل عن تعليم الصبيان في المسجد فقال: «لا أرى ذلك يجوز لأنهم يتحفظون من النجاسة، ولم ينصب المسجد لتعليم الصغار»[٥٩] وقد أكد الشيرازي[٦٠] على ذلك أن الفقهاء منعوا معلمي الصبيان من تعليمهم في المساجد، بسبب ما يحدث من الصغار من العبث بمرافق المسجد. وذكر أنه على المعلمين أن يتخذوا للتعليم حوانيت في الدروب وأطراف الأسواق، أو يتخذ المعلم حجرة لتعليم الصبيان في داره[٦١].

وأشار ابن سعد أن عطاء بن رباح[٦٢] كان معلم كُتاب بمكة المكرمة قبل أن يصبح إمام المسجد الحرام وأنه أدرك مائتين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[٦٣].

وكان المعلمون على ضروب شتى، منهم: من يتولى تعليم أبناء العامة وهؤلاء يطلق عليهم «المعلم»، ومنهم الذين يتولون تعليم أبناء كبار رجال الدولة والولاة والأثرياء، وهؤلاء يسمون «مؤدبين» والمؤدب عادة ما يتولى تعليم الصغار وتأديبهم في بيوتهم الخاصة. وكانت أدوات الدراسة لا تتجاوز عدد من الألواح والمحابر والأقلام. ويحضر الصبيان إلى الكُتاب صباحاً ثم ينصرفون بعد صلاة الظهر للغداء، ثم يعودون بعد صلاة العصر(٦٤).

وكان معلم الكتاب يعلم تلاميذه القراءة والكتابة، لأن حفظ القرآن لا يحصل إلا بتعليمها، كما يقوم بتعليم الصبيان الشكل والهجاء والخط والترتيل(٦٥).

وكان منهج التعليم عند الخاصة يقوم على الوصايا، ويتضح ذلك من خلال وصايا الخليفة عبد الملك بن مروان لمؤدب ابنه الوليد بن عبد الملك أن بني أمية حرصوا على أن يتضمن برنامج الدراسة لأبنائهم دراسة القرآن الكريم وتفسيره، والحديث النبوي، والسيرة النبوية، وعلم الأنساب، واللغة العربية، خاصة الشعر، كما تضمن توجيهات عامة للمؤدبين في أن يكونوا قدوة لطلابهم في كل أمور الحياة، ذلك أن خلفاء بني أمية خاصة منذ عصر الخليفة عبد الملك بن مروان، خصصوا جزءاً كبيراً من الثروات للجانب التعليمي في أنحاء الخلافة عامة، وفي بلاد الحجاز خاصة، كما اهتم الأمويون بتعليم أبنائهم. ولذلك ظهر في هذا العصر المؤدب الخاص في بيوت الخلفاء والأمراء، وكبار رجال الدولة، والأثرياء الذين كانوا لا يرغبون في أن يختلط أبناؤهم بأبناء العامة في الكتاتيب وهؤلاء هم الأئمة من العلماء والرواد، وعليهم مسئولية تعليم أولاد الخاصة: الشعر، والعلوم الدينية، واللغة العربية، وهؤلاء يعيشون في جناح خاص في قصر الخليفة ليكون إشرافهم على الأمير أقرب وأحكم(٦٦).

وكان للوليد بن عبد الملك مؤدباً خاص اهتم بتعليمه أصول الدين واللغة العربية، وقد ذكر البلازري وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده بقوله: «علمهم كتاب الله حتى يحفظون، وفقههم على ما بين الله فيه من الحلال والحرام حتى يعقلوه ، وخذهم من الأخلاق بأحسنها، ومن الآداب بأجمعها، ومن الشعر أعفه؛ ومن الحديث أصدقه، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يفهمون، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة»(٦٧).

وكان من أشهر المؤدبين لأولاد الخليفة عبد الملك بن مروان: أبو معبد الجهني (ت٨٠هـ)، وعامر الشعبي (ت١٠٥هـ)، وإسماعيل بن عبدا لله بن المهاجر، وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر، وصالح بن كيسان معلم أولاد الوليد ابن عبد الملك(٦٨).

وهكذا كان الكُتاب جنباً إلى جنب مع المسجد يسهم في نشر نور العلم والمعرفة، وكان الكُتاب يتخذ من المسجد مقراً له في بعض الأحيان، لأن بعض معلمي مكة المكرمة كانوا يقومون بتأدية رسالتهم في المسجد الحرام.

الرحلات العلمية:

تعلم الصحابة في المدينة المنورة علوم الدين على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ارتحل بعض هؤلاء العلماء إلى الأمصار الإسلامية لتفقيه الناس أمور دينهم، وكونوا أساس الحركة العلمية بها. وكان لهم فضل في وضع أسس الثقافة الإسلامية في الأمصار المفتوحة، فالمدينة المنورة كانت مركز تجمع الصحابة فرحل إليهم العلماء من أنحاء الدولة الإسلامية لمعرفتهم بأصول الدين والأحكام والحديث والسُنن والتفسير، وتفاصيل الهجرة، والمغازي، وتصدي الصحابة وأبنائهم لمهمة التعليم، ورواية السير والمغازي.

وكان لرحلة العلماء لطلب العلم بين مكة المكرمة والمدينة المنورة. ومنهما إلى الأمصار الإسلامية أثرها في ازدهار الحياة الثقافية في تلك الأمصار، وتلقي العلوم من مصادرها الأصلية. وقد أشار سعيد بن المسيب بقوله: «كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث»[٦٩].

كما يشير حاجي خليفة بقوله: «ثم كَثُر الترحال إلى الآفاق وتداخل الناس والتقوا وانتدب أقوام لجمع الحديث النبوي»[٧٠].

أما في العصر الأموي فرغم أن مقر الخلافة قد انتقل إلى دمشق، إلا أن بلاد الحجاز ظلت حاضرة الثقافة الإسلامية، ففي رحاب المسجد الحرام ازدهر النشاط الفكري، كما ارتحل طلبة العلم من حواضر العالم الإسلامي شرقاً وغرباً لكي يؤدوا مناسك الحج والعمرة، حيث يتلقون العلوم على أيدي علماء المسجد الحرام[٧١].

وكان طلبة العلم من اليمن من أنشط الوفود إلى المسجد الحرام، وتشير المصادر التاريخية إلى أسماء كثير من العلماء الذين أتوا اليمن مثل: طاووس بن كيسان اليماني[٧٢] الذي تتلمذ على يد عبد الله بن عباس، وقد شهد له ابن عباس: بالعلم، والورع، والتقوى، وعده من أفقه شيوخ اليمن.

ومن بلاد الشام وفد إلى المسجد الحرام الإمام مكحول الدمشقي، مولى هذيل وفقيه دمشق المتوفى سنة ١١٣هـ الذي يؤثر عنه قوله: « طفت الأرضَ في طلب العلم»[٧٣]. وأيضاً مسروق بن الأجدع[٧٤] الذي تلقى العلم عن ابن مسعود، وقال عنه الشعبي: «ما رأيتُ أطلب للعلم منه»[٧٥].

ووفد من الشام العالم سلمان بن موسى، والإمام الأوزاعي الذي درس العلم على يد شيخ الحرم المكي (عطاء بن رباح) حتى أنه صار من أهل الفتوى في المسجد الحرام(٧٦).

كما طاف معظم علماء مكة المكرمة معظم بلدان العالم الإسلامي، ففي عصر الوليد بن عبد الملك اشتهر منهم سعيد ابن جبير(٧٧) الذي أخذ على عاتقه نشر العلم، فغادر مكة المكرمة، وتنقل بين مدن العراق وفارس وأصبهان وأزربيجان، ثم استقر به المقام في الكوفة، وكان محل تقدير واحترام الناس في البلاد التي تنقل فيها. وأخذ عنه طلاب العلم علمه في: التفسير، والفقه، وعلم الحديث(٧٨).

وكان للحج دور كبير في إثراء كثير من العلوم الإسلامية لتجمع وفود العلماء من الأمصار، ولقائهم بعلماء الحرمين الشريفين في أكبر تجمع سنوي للمسلمين(٧٩).

وكان كثير من طلاب العلم يؤثِرُ البقاء بجوار الحرمين الشريفين بعد انتهاء موسم الحج، وشكل المجاورون طبقة اجتماعية كبيرة في المجتمع المكي والمدني حتى صار أثرياءُ المجتمع في مكة المكرمة والمدينة المنورة يقومون بالإنفاق عليهم. وكانت تحبس الأحباس عليهم ليستفيد المجاورون من ريعها، ثم ما لبثوا أن اختلطوا بالمجتمع في مكة والمدينة عن طريق المصاهرة(٨٠). وقد أمر الوليد بن عبد الملك بالإنفاق على هؤلاء المجاورين من بيت مال المسلمين(٨١).

والباحث في مصادر تاريخ مكة المكرمة، وكتب الأدب يجد أسماء عديدة لرواة وفقهاء وعلماء من غير أهل الحجاز وفدوا واستقروا بجوار الحرمين الشريفين. وقد أشار المقريزي(٨٢) أنه وفد إلى مكة المكرمة عدد كبير من العلماء أثناء موسم الحج سنة ٩١هـ أثناء حجة الوليد بن عبد الملك.

مظاهر النشاط العلمي

غدت كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة في العصر الأموي مركز الحركة العلمية الرئيسية في العالم الإسلامي، والمعروف أن الصحابة شارك الكثير منهم في الفتوحات، فتأسست المدارس العلمية في الأمصار الإسلامية، وكان أساسها: علوم القرآن ، والحديث، والفقه، وهي بداية التأليف العلمي عند العرب، ووثيقة الصلة بتلك الأمصار.

كما ازدهرت الحركة الفكرية في العصر الأموي، وشملت: العلوم الدينية، واللغوية، والتاريخ والجغرافيا، وعلم الفلك، والرياضيات، وعلوم الطب، والكيمياء.

واهتم الوليد بن عبد الملك اهتماماً كبيراً بعلماء الحرمين، فازدهرت تبعاً لذلك العلوم الشرعية، وسوف نوضح كيف كان لعلماء مكة المكرمة والمدينة المنورة أثرهم في وضع أسس تلك العلوم، وتشمل العلوم الدينية مجالات أربع وهي: علم القراءات، وعلم التفسير، وعلم الحديث، وعلم الفقه.

١- علم القراءات:

يعد علم القراءات من أجل العلوم التي اشتغل بها علماء المسلمين في عهد الوليد بن عبد الملك. والسبب في ذلك طبيعة الخط العربي، فإن الرسم الواحد يُقْرأ بأشكال متعددة، ومختلفة تبعاً للنقط فوق الحروف، أو تحتها، كما أن للكلمة حالات مختلفة من حيث الإعراب مما كان سبباً في ظهور هذا العلم[٨٣]، إلى جانب اختلاف نطق الحروف عند العرب باختلاف قبائلهم. ويعرف علم القراءات بأنه العلم الذي يبحث في صور نُطق كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة.

ويرتبط بهذا العلم علم التجويد، وهو يُعنى بإعطاء كل حرف حقه من الصفات كالمد، والترقيق، والتفخيم، وأحكام القراءة، وغايته بلوغ النهاية في إتقان لفظ القرآن الكريم على ما تلقى عن رسول الله، وصون اللسان عن الخطأ[٨٤].

ويُعرف القفطي[٨٥] علم القراءة بأنه: «العلم الذي يختص بالطرق المتبعة بالإسناد لا المبتدعة في قراءة القرآن ورسمه».

أما (القُراء) فلفظٌ أطلق في البداية على حفظة القرآن تميزاً لهم عن سائر الصحابة، لأنهم كانوا يعرفون القراءة فقيل لحملة القرآن قراء[٨٦]. ومنذ عهد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه خُص به من اشتهر بحسن قراءته[٨٧].

كما كان للقراءات رجالها من الصحابة رضوان الله عليهم، الذين كان لهم عظيم الأثر في علم القراءات، وتتلمذ على يديهم عدد من التابعين الذين نشطوا في تعلم القراءة أخذاً ورواية، ونشروا علم القراءة في الأمصار المختلفة.

ومن التابعين الذين اضطلعوا بهذه المهمة ، وأسهموا في هذا العلم في عصر الوليد بن عبد الملك: عكرمة[٨٨] (مولى عبد الله بن العباس) المتوفى سنة ١٠٥هـ، وكان ابن عباس يجعل في رجله الكبل يعلمه القرآن والسُنة، وكان يسمى «البحر» لسعة علمه. وأيضاً يزيد بن القعقاع الذي توفي في المدينة المنورة سنة ١٢٧هـ، وعبد الله بن كثير (ت١٢٠هـ)، واشتهر من القراء وحملوا لواء هذا العلم سبعة أئمة هم الذين تنسب إليهم القراءات السبع[٨٩].

ويذكر الذهبي أن طريقة حفظ القرآن الكريم في عهد الوليد بن عبد الملك - كان أول من أحدثها هشام بن إسماعيل بن المغيرة المخزومي - هي طريقة التكرار وراء قارئ ما وقد يكون المكرر فرداً أو جماعة[٩٠].

ويذكر الذهبي شارحاً طريقة مسلم بن جندب الهذلي[٩١] الذي عاصر الوليد ابن عبد الملك، وكان من أشهر قراء المدينة المنورة. فقد ذكر قول تلميده جعفر ابن الزبير: «كان مسلم يعلمنا غدوة ثلاثين آية، وعشية ثلاثين آية، وفي رواية يقرأ علينا»[٩٢] وقد تلقى مسلم بن جندب أصول قراءة القرآن بالمدينة المنورة عن الصحابة رضوان الله عليهم، وكان معلم عمر بن عبد العزيز، وكان يثني عليه بقوله: « من سره أن يقرأ القرآن غضاً ليقرأه على قراءة مسلم بن جندب» وكانت له مكانة خاصة بين علماء المدينة حتى أن ابن حجر قال عنه: «كان أهل المدينة لا يهمزون حتى همز ابن جندب فهمزوا» أي أظهروا حرف الهمزة[٩٣].

وأيضاً كان من سادة القراء المشهورين بالمدينة المنورة: عبيد بن حنين، وسليمان بن يسار الهلالي[٩٤]، وسالم بن عبد الله بن عمر[٩٥] الذي قال عنه مالك: «لم يكن أحد في زمان سالم بن عبد الله أشبه بمن مضى من الصالحين في الزهد والفضل منه، وكان أشبه ولد ابن عمر به سالم» توفي سنة ١٠٦هـ[٩٦].

أما سليمان بن يسار ففقيه المدينة المنورة وعالمها، وقد فضله بعضهم على سعيد بن المسيب. يقول الحسن بن محمد بن الحنيفية: «سليمان بن يسار عندنا أفهم من سعيد بن المسيب»، وقد ولي سوق المدينة للأمير عمر بن عبد العزيز، توفي سنة ١٠٧هـ[٩٧].

ومن قُراء المسجد الحرام عبد الله بن كثير[٩٨] الذي توفي بمكة سنة ١٢٠هـ وهو مولى عمر بن علقمة الكناني الذي توفي سنة ٩٨هـ وهو أحد القُراء السبعة، وكان قاضي مكة، وأيضاً: حفص بن عامر، وكان حجة في هذا العلم. وسعيد بن جبير وكان يؤم الناس بالمسجد الحرام في رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله ابن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره[٩٩].

وكان المختصون بهذا العلم على إلمام كبير بالعلوم الأخرى خاصة النحو[١٠٠].

٢- علم التفسير:

يتناول علم التفسير: فهم كتاب الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه[١٠١].

والمقصود بالتفسير هو: كشف المراد من اللفظ[١٠٢]، وهو يعني بمدلول ألفاظ القرآن الكريم، ومعانيه، وأسباب نزوله. وهو فرع من علم الحديث، لأنه في أصله مجموعة من الأحاديث المأثورة عن الرسول صلى الله عليه وسلم[١٠٣].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتلقى التنزيل ثم يتولى توضيحه لأصحابه، فقد كان ينزل جملاً جملاً، وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية. فأخذ الصحابة هذا العلم لاحتكاكهم المباشر به، ومعرفتهم الظروف التي نزل فيها القرآن، وأُشتهر نخبة من الصحابة بهذا العلم، فكان لهم السبق في التفسير منهم: علي بن أبي طالب[١٠٤]، وأبي بن كعب، وأبي هريرة، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وابن عباس، وعبد الله بن مسعود، ويرجع ذلك إلى قوتهم باللغة العربية، وهي لغة القرآن، ثم أخذ التابعون بعدهم بهذا العلم، حتى أصبح علماً من العلوم فيما بعد، ودوت الكتب، ونقلت الآثار عن الصحابة والتابعين[١٠٥].

ومن أشهر المفسرين التابعين أصحاب عبد الله بن العباس، مجاهد بن جبر[١٠٦] وكان من أئمة المفسرين إلا أنهم كانوا يتقون تفسيره لأنه كان يسأل أهل الكتاب ، ولكنه كان عالماً فقيهاً[١٠٧].

ومع اتساع الدولة الإسلامية في عصر الأمويين، ودخول الموالي في الإسلام أصبحت الحاجة ملحة لتوضيح معاني القرآن، وتفسير ما خفي على هؤلاء فهمه من معاني الآيات، ومقاصدها، واشتهر مجلس سعيد بن جبير (ت٩٤هـ) في المسجد الحرام في تفسير القرآن الكريم، وألف كتاب في التفسير بناء على طلب الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٤هـ. قال عنه سفيان الثوري: «لقد مات ابن جبير وما على وجه الأرض أحدٌ إلا هو محتاج إلى علمه»[١٠٨] ومع ذلك كان يتورع عن القول في التفسير برأيه[١٠٩].

وبرز من المفسرين في عهد الوليد بن عبد الملك: سالم بن عبد الله بن عمر (ت١٠٥هـ)، وعبيد بن حنين (ت١٠٥هـ)، والقاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما (ت١٠٧هـ)، وطاووس بن كيسان اليماني تلميذ ابن عباس في التفسير، وكان من خاصة تلاميذه، وكان عالماً مفسراً لكتاب الله[١١٠].

كما برع أبو عبد الله (عكرمة المكي) (ت١٠٥هـ) مولى ابن عباس، وهو من أشهر المفسرين في المسجد الحرام تلقى العلم عن ابن عباس قال عنه الشعبي: «ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة»[١١١] حتى أذن له ابن عباس بالفتيا[١١٢]، ويبدو أن طلب العلم والحاجة والفقر دفعت عكرمة إلى كثرة التنقل من بلد إلى آخر وكان له كتاب تفسير عن ابن عباس[١١٣].

وأيضاً عروة بن الزبير (ت٩٤هـ)، وهو صاحب الوليد بن عبد الملك، كان دائماً يسأل عن القرآن. كما أسهم محمد بن مسلم الزهري[١١٤] في علم التفسير في عصر الوليد بن عبد الملك، ثم من بعده في عصر الخليفة عمر بن عبدالعزيز.

تلك المنابع التي استقصى منها علماء التفسير علمهم ، وما اشتملت عليه آياته من أحكام، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، والنقل عن الصحابة، والتابعين. وكان علماء الحرمين الشريفين هم دعامته الأولى حتى أصبح مع مرور الزمن علماً من العلوم(١١٥).

٣- الفقه :

يُعد الفقه(١١٦) أحد أبرز فروع العلوم الشرعية التي اهتم بها المسلمون، وهو مُستنبط بالرأي والاجتهاد، وقد أحتيج إليه لتيسير شئون الجماعة الإسلامية ووضع الضوابط الحكمية بين الرعايا في: أحوالهم الشخصية ومعاملاتهم، وهو المسمى: بعلم الحلال، والحرام، والشرائع، والأحكام، وكان أساسه القرآن الكريم والسُنة النبوية.

وتستدعي معرفة الفقه بالضرورة فهم القرآن الكريم، والحديث الشريف، لأن السُنة النبوية شارحة للقرآن الكريم تُبين مُجمله. وقد أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله: «أنا أقضي بينكم بالرأي فيما لم ينزل فيه وحي»(١١٧).

وقد استدل بذلك على جواز الاجتهاد أو الرأي منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بأدلة كثيرة أوردها واضعو أصول الأحكام.

وبذكر الآمدي قوله تعالى: « وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ»(١١٨) والمشورة إنما تكون فيما يحكم فيه بطريق الاجتهاد لا فيما يحكم فيه بطريق الوحي، لأن الحكم بغير القرآن لا يكون إلا اجتهاداً(١١٩).

ثم ظهر بعد ذلك القياس، أو الاجتهاد، وهو ما عبر عنه فيما بعد بالرأي(١٢٠).

وقد سُئل الإمام الشافعي: «في القياس أهو الاجتهاد، أم هما مفترقان؟ قال: هما اسمان لمعنى واحد»(١٢١).

وكان الصحابة يقولون بآرائهم في عصره عليه الصلاة والسلام، فيبلغه ذلك فيصوب المصيب ، ويُخطئ المخطئ(١٢٢).

كما كان هناك مصدر من مصادر الفقه وهو الإجماع، وكان ظهوره نتيجة الاجتهاد بالرأي، وقد دعت إليه الحاجة الضرورية في الحياة العامة، حيث بدأ تطور الفقه مباشرة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو رابع مصدر بعد القرآن، والسُنة النبوية، والقياس، وهي أصول الفقه التي يعتمد عليها في الفتيا والقضاء، فربما جدت أمور استعصى حلها على أولي الأمر من الصحابة، فأحتيج إلى إجماعهم. وقد ذكر ابن القيم أن أبا بكر إذا استعصي عليه أمر ولم

يجده في الكتاب والسُنة جمع رؤوساء الناس وأستشارهم فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به[١٢٣]. وكانت الفتيا مختصة بحاملي القرآن، العارفين بناسخه ومنسوخه ومحكمه، ويطلق عليهم القراء، وعندما عظمت أمصار الإسلام أطلقوا عليهم: الفقهاء والعلماء[١٢٤].

وقد ظهر في عهد الوليد بن عبد الملك عدداً من الفقهاء الذين كانت آرائهم الفقهية مرجعاً لمن أتى بعدهم من طلبة العلم، وبرز منهم الفقيه (مجاهد بن جبر) وقد قال: «كنت اصطحب ابن عمر في السفر فإذا أردت أن يأتيني فيمسك، وإذا ركبت سوى ثيابي، وكان يسأله، ويستفسر عن الأمور الفقهية أو الأحاديث النبوية»[١٢٥].

كما برز (عكرمة مولى ابن عباس)، وعمرو بن دينار الذي قال عنه ابن سعد: « إذا قدمت مكة فعليك بعمرو بن دينار فإن أذنيه كانت قمعاً للعلماء»[١٢٦]. وأيضاً (عطاء بن رباح) شيخ الإسلام، ومفتي الحرم المكي، لازم الحرم وصار من فقهائه بلا منازع، وذلك بشهادة علماء الصحابة والتابعين. قد أشاد المؤرخون بعلمه، حتى قالوا عنه: «كانت الفتيا في المسجد الحرام لابن عباس، وبعده لعطاء بن رباح، وكان أعلم الناس بالمناسك حتى أن بني أمية كانوا يأمرون في الحج منادياً يصيح «لا يفتي الناس إلا عطاء بن رباح»[١٢٧].

وقال عنه الإمام الأوزاعي شيخ المسجد الأموي بدمشق : « مات عطاء بن رباح وهو أرضى أهل الأرض عند الناس ، وكان أزهد أهل الأرض وكان الإمام الأوزاعي يسأله في المسائل الصعبة في الفقه والتفسير[١٢٨] .

وقد تتلمذ على يد عطاء بن رباح: الإمام الأوزاعي، والزهري، وابن جريج، وحمل عنه الكثير من العلماء العلم إلى شتى أقطار الأرض، وكان مجلسه لا يخلو من طلبة العلم على اختلاف أجناسهم، وقد خصص له الخليفة الوليد بن عبد الملك عطاءً كان يأتيه من بيت مال المسلمين لأنه لم يتقاض أجراً على علمه[١٢٩].

وأيضاً من فقهاء المدينة المنورة: سعيد بن المسيب (ت٩٤هـ) وعروة بن الزبير (ت٩٤هـ)، وأبو بكر بن عبد الرحمن (ت٩٤هـ)، وخارجة بن زيد (ت١٠٠هـ)، هؤلاء العلماء عاصروا الدولة الأموية خاصة عصر الوليد بن عبد الملك التي شهدت الحجاز في زمانه حركة علمية حية[١٣٠].

٤- الحديث :

احتل علم الحديث مكانة مميزة بين العلوم الإسلامية، ويُراد بالحديث أو السنة النبوية (ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال، أو التقارير الشارحة للقرآن الكريم، المبينة مراده) وقد قال تعالى:

« وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»(١٣١). ولذلك يعتبر الحديث بمثابة التفسير والبيان لكتاب الله الذي تستمد منه أحكام الشريعة، ولذلك وجب على كل عالم أن يُتقن علم الحديث ليتمكن من معرفة ما ورد في القرآن الكريم من أحكام الشرع(١٣٢). وبذلك أصبحت الحركة العلمية في الأمصار الإسلامية تكاد تدور على رواية الحديث، والحرص على الإحاطة به وفهمه.

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم اعتمد رواة الحديث على الصحابة، لأنهم كانوا يسمعون قوله، ويشاهدون عمله، ويتحدثون بما رأوا وسمعوا، ثم جاء التابعون وعاشوا مع الصحابة وسمعوا منهم.

وذكر أن السيوطي «أنه استطاع أن يجمع أكثر من عشرة آلاف حديث في تفاسير النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، وذلك في كتاب بعنوان ترجمان القرآن» استخرج منه مختصراً في ستة أجزاء، أطلق عليه اسم « الدر المنثور في التفسير»(١٣٣) وهذا يدعم الرأي الذي يقول بأن التفسير كان فرعاً من الحديث، وهناك قول مأثور عن الشافعي إنه قال «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث»(١٣٤).

وكان سعيد بن جبير يكتب الحديث، فقد ذكر ابن سعد أن سعيد يسأل ابن عباس قبل أن يعمى فلم يستطع أن يكتب معه فلما عمى ابن عباس كتب فبلغه ذلك فغضب(١٣٥). وكان سعيد بن جبير يكتب الحديث بالمدينة المنورة، ويرجع الفضل في ذلك إلى عمر بن عبد العزيز الذي أراد أن يسجل الحديث الصحيح، فكتب إلى عامله بالمدينة المنورة «أبي بكر بن حزم الأنصاري» يأمره أن يدون حديث رسول الله فقال له «انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكتبه إني خفت درس العلم، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً(١٣٦).

وهناك كانت مدونات متفرقة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم: كصحيفة عبد الله بن عمر، إلا أنها كانت أعمالاً فردية(١٣٧). لأن أبي سعيد الخدري أستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في كتابة العلم فلم يؤذن له(١٣٨)، وذلك حتى لا يتخذ مع القرآن الكريم كتابٌ يُضاهى به، ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ(١٣٩).

ولم يتخذ تدوين الحديث طابعاً رسمياً إلا في أواخر القرن الأول الهجري، لأن الأحزاب السياسية مثل الخوارج، والشيعة، وغيرهم وضعت أحاديث عديدة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في محاولة لتقوية ادعاءاتها(١٤٠).

وكان من أشهر الموالي الذين كان لهم دور في الحركة العلمية بالمدينة المنورة: سليمان بن يسار الديلمي(١٤١)، وأيضاً سعيد بن المسيب الذي قال: «كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد»(١٤٢).

على أن تدوين الحديث بالمعنى الحقيقي تم على يد محمد بن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ) بأمر من عمر بن عبد العزيز، وذلك منذ بداية القرن الثاني الهجري، فصار تدوين الحديث أمراً لازماً.

وقد ذكر ابن سعد : أن صالح بن كيسان قال : اجتمعت أنا والزهري ونحن نطلب العلم فقلنا: نكتب السُنن، فكتبنا ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقلنا: نكتب ما جاء عن الصحابة فإنه سُنة، قال: «قلت: إنه ليس بسُنة، ولم أكتب، فكتبه فأرجح وضيعت»(١٤٣) فكان عمر بن عبد العزيز يقول: «عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسُنة الماضية منه»(١٤٤).

واعتنى نقاد الحديث منذ أول الأمر بمعرفة رواة الحديث، وضبط أسمائهم والحكم عليهم بأنهم ثقات أو ضعفاء، ثم نظروا في الأساس الذي يُبنى عليه الحكم، أي الصفات التي يجب توفرها في المحدث الثقة، وهو ما يعرف بقواعد الجرح والتعديل(١٤٥).

الخاتمة

ومن العرض السابق يتضح الدور الكبير الذي قامت به مكة المكرمة، والمدينة المنورة في الحياة الثقافية الإسلامية، في عصر الخليفة الوليد بن عبد الملك، حيث اضطلع علماء الحجاز بدور الريادة في الحياة الثقافية، وشهد عصر الوليد بن عبد الملك نهضة علمية كبرى.

وكان للاستقرار السياسي الذي شهده الحجاز في ذلك العصر، أثره في أن أصبحت مكة المكرمة ، والمدينة المنورة منارة للعلوم الإسلامية، يفد إليها العلماء من أنحاء العالم الإسلامي شرقاً، وغرباً. ولم يحل تحول حاضرة الخلافة من المدينة المنورة إلى بلاد الشام، عن بقاء الريادة العلمية الثقافية الإسلامية في بلاد الحجاز ، من خلال الدور البارز لعلماء الحرمين الشريفين في إرساء قواعد العلوم الإسلامية ، والنهوض بها.

وأسهمت حلقات العلم في الحرمين الشريفين في ازدهار الثقافة الإسلامية. وكان موسم الحج أكثر فترات العام ازدهاراً ثقافياً، لتجمع وفود العلماء من الأمصار، ولقائهم بعلماء الحرمين الشريفين، في أكبر، وأهم تجمع سنوي للمسلمين، وبذلك غدت كل من مكة المكرمة، والمدينة المنورة مركز للحركة العلمية في العالم الإسلامي، وازدهرت في علوم الدين التي أفادت منها مراكز الثقافة في الأمصار الإسلامية.

الهوامش والحواشى

(١) سورة العلق، آية : ٣-٥ .

(٢) سورة المجادلة، آية : ١١ .

(٣) سورة الرحمن، آية : ١-٤ .

(٤) سورة فاطر، آية : ٢٨ .

(٥) سورة الزمر، آية : ٩ .

(٦) البخاري : الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبي المغيرة بن بررزية (ت٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، القاهرة، ج١، ص٢٥.

(٧) الطبري: محمد بن جرير (ت٣١٠هـ)، تاريخ الأمم والملوك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م، ج٢، ص٨٧؛ ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهدي (ت٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج٢، ص٣٥٨؛ خضر: فخري رشيد، تطور الفكر التربوي، الرياض، ط٤، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص١١٥-١١٦؛ البسام : لطيفة محمد، الحركة العلمية في الحجاز منذ ظهور الإسلام إلى قيام الدولة العباسية، دراسة تاريخية من ١هـ إلى ١٣٢هـ، كلية الآداب، جامعة الرياض، رسالة دكتوراه، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٥٩ ؛ بن دهيش : منيرة عبد الملك: دور المسجد في القرن الأول الهجري في الحجاز والشام، دراسة تاريخية حضارية، مكة، ط١، ١٤٢٥هـ.

(٨) زيد بن ثابت الأنصاري الخزرجي، استصغر يوم بدر وقيل شهد أحداً وكانت معه راية بني النجار يوم تبوك، كتب الوحي للرسول صلى الله عليه وسلم، وكان من علماء الصحابة، روى عنه أبي هريرة وأنس وابن عمر، جمع القرآن. ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الدمشقي (ت٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، القاهرة، ١٣٢٨هـ، ج١، ص٥٦١.

(٩) صحيح البخاري، ج١، ص٢٧ ؛ بن دهيش: دور المسجد في القرن الأول الهجري، ص١٤٩ ؛ البسام: الحركة العلمية في الحجاز، ص٦٣-٦٤.

(١٠) صحيح البخاري، ج١، ص٣٠ .

(١١) توماس : أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة : حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، القاهرة، ١٩٤٧م، ص٦٠-٦١ .

(١٢) بن دهيش : دور المسجد في القرن الأول الهجري، ص١٤٩.

(١٣) البسام : الحركة العلمية في الحجاز، ص٧٠ .

(١٤) مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، ولد بعد الهجرة بسنتين، توفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان سنين، روى عن عمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم وزيد بن ثابت رضى الله عنه، شهد الجمل مع عائشة رضي الله عنها، وصفين مع معاوية، ولاه إمرة المدينة المنورة حتى أخرجهم ابن الزبير في خلافة يزيد بن معاوية. تولى الخلافة سنة ٦٤هـ، توفي سنة ٦٥هـ . ابن حجر: الإصابة، ج٣، ص٤٧٧-٤٧٨؛ العلائي: إبراهيم محمد ايدمر، الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور وأحمد السيد دراج، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ص٦٢-٦٣.

(١٥) معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي الصحابي، صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتزوج بأخته أم حبيبة أم المؤمنين، وكان كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، تولى الخلافة بعد تنازل الحسن عنها سنة ٤١هـ، توفي بدمشق سنة ٦٠هـ. العلائي: الجوهر الثمين، ص٥٧.

(١٦) ابن سعد : الطبقات، ج٢، ص٣٥٨ .
(١٧) الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ولد سنة ٥٠هـ. تولى الخلافة بعد أبيه عبد الملك بن مروان الذي قضى على الفتن والأزمات، فأثمر جهود والده في الفتح والإصلاح والعمارة، توفي سنة ٩٦هـ. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٤٦٩ .
(١٨) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ولد سنة ٦٣هـ، ولاه الخليفة الوليد بن عبد الملك المدينة المنورة سنة ٨٦هـ، وظل والياً عليها حتى وفاة الوليد بن عبد الملك وذلك بعد أن عزله الوليد متأثراً برأي الحجاج بن يوسف الثقفي بأنه فتح بلاد الحجاز لأهل العراق الساخطين على سياسة الحجاج فيهم. الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٤٧-٤٨ ؛ ابن ظهيرة : جمال الدين محمد (ت٩٨٦هـ)، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، بيروت، ١٩٨٢م، ص١٩٨.
(١٩) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز بن عامر البجلي، يكنى أبا القاسم ويعرف بالقسري، أمير مكة والعراق، ولي مكة للوليد بن عبد الملك ولأخيه سليمان بن عبد الملك، وولي العراق لهشام بن عبد الملك حوالي خمسة عشر سنة ثم عزل وعذب عذاباً شديداً حتى مات، هو أول من أدار الصفوف حول الكعبة، وبنى الكثير من البرك والسقايات حول الحرم . ابن فهد : عز الدين بن عبد العزيز بن عمر بن محمد الهاشمي القرشي (ت٩٢٢هـ)، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق : فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج١، ص١٩٤-١٩٥ .
(٢٠) عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشي أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، ولد عام الهجرة، وحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير جملة من الأحاديث، وروى عن جده أبي بكر الصديق، وعمر، وعائشة، وهو أحد العبادلة الشجعان، شهد اليرموك مع أبيه، وجاهد في فتح أفريقيا، وشهد الدار، وقاتل عن عثمان رضى الله عنه، ثم شهد الجمل مع عائشة، بايع لمعاوية، وامتنع عن بيعة يزيد بن معاوية رضى الله عنه، وتحول إلى مكة مطالباً بالخلافة بعد وفاة يزيد بن معاوية حتى تغلب عليه عبد الملك وقتله سنة ٧٣هـ. ابن حجر: الإصابة، ج٢، ص٣٠٩-٣١٠؛ ابن فهد: غاية المرام، ج١، ص١٤٠ حتى ص١٥٣.
(٢١) الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان التركماني الأصل (ت٧٤٨هـ)، العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت، ١٤٠٥هـ، ج١، ص٧٥.
(٢٢) ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي (ت١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، ج١، ص٩٧.
(٢٣) خضر: تطور الفكر التربوي، ص١١٦ .
(٢٤) المنذري: عبد العظيم عبد القوي: الترغيب والترهيب، القاهرة، ١٩٠٠م، ج١، ص٦٥. ويذكر البخاري حديث أبي واقد الليثي رضى الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بالمسجد والناس معه إذا أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذهب واحد، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً . فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة. أما أحدهما فأوى إلى الله عز وجل فآواه الله، وأما الآخر فأستحا من الله فأستحيا الله منه، وأما الآخر يعني الثالث فأعرض فأعرض الله عنه. صحيح البخاري، ج١، ص٢٠.
(٢٥) خضر : تطور الفكر التربوي، ص١٣١ ؛ العقل : ناصر عبد الكريم، أثر العلماء في تحقيق رسالة المسجد، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مكة، ١٤١٩هـ، ص١٣-١٤-١٥ .
(٢٦) ابن الأثير : عز الدين بن أبي الحسن علي بن أبي الكرم (ت٦٣٠هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، بيروت، ج٢، ص٤٧٦ .
(٢٧) الهيثمي : علي بن أبي بكر (ت٨٠٧هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب، بيروت،

١٤٠٧هـ، ج١، ص١٣٢ .

(٢٨) الأربطة : مفردها رباط، كانت ثكنة عسكرية للمرابطين الذين يحرسون الثغور جهاداً في سبيل الله، ثم تطورت وظيفة الرباط فأصبح مكاناً لإعاشة الفقراء والمساكين ينفق عليهم من ريع ما يوقف عليه الرباط، وذلك منذ القرن الخامس الهجري، وكانت به مجالس للعلم والذكر وقراءة القرآن. مصطفى: صالح لمعي، التراث المعماري الحضاري في مصر، بيروت، ١٤٠٤هـ، ص١١٩ .

(٢٩) بن دهيش، دور المسجد في القرن الأول الهجري، ص١٥٧ ؛ السنيدي: عبد العزيز، الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، ط١، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٥٤-٥٥.

(٣٠) هو سعيد بن المسيب بن حزن بن وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن كعب بن لؤي القرشي المخزومي المدني، توفي سنة ٩٤هـ، ويكنى أبا محمد، وهو أحد الفقهاء السبعة، وسيد التابعين، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب، وقيل لأربع منها، أخذ العلم وتعلمه من الصحابة مثل عثمان وعلي، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وابن عباس وسعد وعائشة، وأبي هريرة وكان زوج ابنته . ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٢، ص٣٨ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب وتقريب التقريب، دار الفكر، القاهرة، ١٤١٥هـ، ج٣، ص٣٧٢ ؛ الذهبي : تذكرة الحفاظ، دار الكتب، بيروت، ج١، ص٥٦٠ ؛ سير أعلام النبلاء، تحقيق : شعيب الأرنؤوطي، بيروت، ١٩٨٦م، ج٤، ص٢١٧ .

(٣١) المحاسبي : أبي عبد الله الحارث بن أسد، رسالة المسترشدين، ط١، ترجمة وتحقيق : عبد الفتاح أبو غدة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٦١ ؛ ابن القيم : شمس الدين أبي عبد الله بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية (ت٧٥١هـ) : أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق : طه عبد الرءوف مسعد، بيروت، ١٩٧٣م، ج١، ص٣٣ .

(٣٢) الفقهاء السبعة : هم سعيد بن المسيب، عروة بن الزبير، القاسم بن محمد، خارجة بن زيد، وأبي بكر بن عبد الرحمن، سليمان بن يسار، عبيد الله بن عتبة بن مسعود . ابن القيم : أعلام الموقعين، ج١، ص٣٣ .

(٣٣) ابن القيم : نفس الجزء والصفحة .

(٣٤) المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (ت٨٤٥هـ)، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق : جمال الدين الشيال، وطه عبد الرءوف مسعد، الإسكندرية، ١٩٥٥م، ص٣١ ؛ الخلف : عبد الله بن سالم : مجتمع الحجاز في العصر الأموي بين الآثار الأدبية والمصادر التاريخية، مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص١٢٧ .

(٣٥) ابن القيم : أعلام الموقعين، ج١، ص٢٣ .

(٣٦) المصدر السابق، ج١، ص٢٣ .

(٣٧) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من المكثرين في رواية الحديث، وأحد فقهاء المدينة، ويسمى البحر لسعة علمه، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم والفهم فهو مكي المولد، مدني المقام، حصل علوماً نافعة تميز بها على أقرانه . ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٨١ ؛ ابن حجر : الإصابة، ج٢، ص٣٣٣ ؛ تهذيب التهذيب، ج١، ص٤٢١ ؛ ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلدون (ت٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس، بيروت، ١٣٩٨هـ، ج٣، ص٦٢ .

(٣٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٨١ ؛ ابن الأثير : أسد الغابة، ج٣، ص٢٩٢ ؛ سعد بن موسى الموسى، مكة المكرمة، المؤتمر العالمي الثالث للاقتصاد الإسلامي، ربيع الثاني، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٩٥ ؛ السنيدي : الحياة العلمية في مكة، ص٥٤-٥٥ .

(٣٩) ابن الأثير : أسد الغابة، ج٣، ص٢٩٢ .

(٤٠) ويذكر ابن كثير : عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)،

البداية والنهاية، ١٩٩١م، ج٩، ص٧٦ . ويذكر اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي (ت٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م، ص٢٩ . أن أول من ذهب البيت عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٤١) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٥، ص٤٦٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٦١ .

(٤٢) ابن فرحون : إبراهيم بن علي بن محمد (ت٧٩٩هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٢٠ .

(٤٣) السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ١٩٨٣م، ج١، ص١٧٨ .

(٤٤) السيوطي : نفس الجزء والصفحة .

(٤٥) السمرقندي : نصر بن محمد بن أحمد (ت٣٧٢هـ)، بستان العارفين، طبع ضمن كتاب تنبيه الغافلين للمؤلف نفسه، ط١، بيروت، ١٤٠٩هـ، ص٤ .

(٤٦) ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي الأندلسي (ت٤٦٣هـ)، جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب، بيروت، ج١، ص٥٢ .

(٤٧) يذكر البلازري : أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي (ت٢٧٩هـ)، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمود رضوان، بيروت، ١٣٩٨هـ، ص٥٥٨ ؛ أن حين فرض سعد بن أبي وقاص أيام ولايته على العراق لمن يقرأ القرآن كتب إليه عمر بن الخطاب أن لا يعطى على تعليم القرآن أجراً .

(٤٨) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٥٢ .

(٤٩) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٩، ص٢١٥ .

(٥٠) المقريزي : الذهب المسبوك، ص٣١ .

(٥١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص٥٢-٥٣ .

(٥٢) الكتاب والمكتب معروفان، فالمكتب هو موضع الكُتاب والجمع كتاتيب . ابن منظور : محمد بن مكرم بن علي (ت٧١١هـ)، لسان العرب، القاهرة، ١٩٨٨م، ١٣٠٠هـ، ج١، ص١٩٢ ؛ القرشي : محمد بن محمد بن أحمد (ت٧٢٩هـ)، معالم القربة في أعمال الحسبة، تحقيق : محمد محمود شعبان، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٧٣ .

(٥٣) الظهار : نجاح أحمد عبد الكريم، بدايات الحياة العلمية والأدبية للمرأة في المملكة العربية السعودية، ط١، جدة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٣٤ ؛ خضر : الفكر التربوي، ص١٣٣ .

(٥٤) ابن دهيش : عبد اللطيف عبد الله، الكتاتيب، ط١، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١٢ ؛ عبد الرحمن بن صالح بن عبد الله : تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ط١، ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م، ص٥٢ .

(٥٥) عبد الرحمن بن صالح عبد الله : تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ص٥٢-٥٣ .

(٥٦) ابن قتيبة الدينوري : أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦هـ)، عيون الأخبار، دار المعارف، ١٩٩٠م، ص٥٤٧؛ خضر: الفكر التربوي، ص١٣٣؛ الظهار: بدايات الحياة العلمية والأدبية للمرأة، ص٣٤-٣٥ .

(٥٧) ابن سحنون : محمد بن سحنون بن عبد السلام بن سعيد التنوخي (ت٢٥٦هـ)، آداب المعلمين، ملحق بكتاب التربية في الإسلام للأهواني، دار المعارف، القاهرة، د. ت، ص٣٥٣ .

(٥٨) الكتاني : عبد الكبير بن القطب محمد الحسن الإدريسي، التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، الرباط، ١٣٤٦هـ، ج٢، ص٢٩٣ .

(٥٩) القابسي : علي بن محمد بن خلف (ت٤٠٣هـ)، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، رسالة ملحقة بكتاب التربية في الإسلام للأهواني، القاهرة، ج٣، ص٣٢٣ .

(٦٠) الشيرازي : عبد الرحمن بن نصر (ت٥٨٩هـ)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق : السيد

الباز العريني، ط٢، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص١٠٤ .

(٦١) عارف عبد الغني : نظم التعليم عند المسلمين، ص٥٢ .

(٦٢) هو محمد بن عطاء بن رباح، وهو إمام المسجد الحرام، قالوا كان المسجد الحرام فراش عطاء بن رباح عشرين سنة، روى عن كثير من الصحابة خاصة عبد الله بن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة، وابن الزبير، وروى عنه الكثير من التابعين . الأصبهاني : أبي نعيم أحمد بن عبد الله (ت٤٣٠هـ)، حلية الأولياء في طبقات الأصفياء، القاهرة، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م، ج٣، ص٣١٠.

(٦٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٥، ص٤٦٨، ص٤٧٥ . ويذكر ابن حزم أنه لما تولى عمر بن الخطاب الخلافة، وفتحت بلاد فارس طولاً وعرضاً وأيضاً الشام ومصر والجزيرة ولم يبق بلد إلا وبنيت فيه المساجد، ونسخت فيه المصاحف، وقرأ الأئمة القرآن، وعلمه الصبيان في المكاتب شرقاً وغرباً . الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٢، ص١٠ .

(٦٤) Honard R. Turever Science in Medival Islam University of Texas press 1997, P.29.

(٦٥) ابن خلدون: عبد الرحمن بن عمر (ت٨٠٨هـ)، مقدمة ابن خلدون، القاهرة، ص٦٣٠-٦٣١ .

(٦٦) ابن قتيبة : عيون الأخبار، ج٤، ص١٦٧ .

(٦٧) البلازري : أنساب الأشراف، بيروت، ١٩٧٤م، ج١١، ١٧٠ .

(٦٨) البسام : الحركة العلمية في الحجاز، ص١٥٦-١٥٧ .

(٦٩) ابن قتيبة : عيون الأخبار، ج٤، ص١٦٧ ؛ ابن عبد البر : جامع بيان العلم، ج١، ص٩٤ .

(٧٠) حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله القسطنطي الرومي الحنفي (ت١٠٦٧هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠م، ج١، ص٨٠ .

(٧١) ابن عبد البر : الاستيعاب عن معرفة الأصحاب، ج٢، ص٣٧٠ .

(٧٢) طاووس بن كيسان الخولاني الهمذاني : أبو عبد الرحمن من أكابر التابعين فقيهاً في الدين ورواية الحديث، وقيل كان طاووس القرآن، حدث عن عائشة وأبي هريرة ومجاهد ابن دينار، ج٥، ص٣٠٦ ؛ الأصبهاني : حلية الأولياء، ج٤، ص٤ .

(٧٣) الذهبي : العبر في أخبار من غبر، ج١، ص٥٠ .

(٧٤) مسروق بن عبد الرحيم الهمذاني كان عالم من علماء الشام، اشتهر بالعلم والتقوى والصلاح والزهد والتبحر في العلم . الأصبهاني : حلية الأولياء، ج٢، ص٩٥ .

(٧٥) الذهبي : العبر في خبر من غبر، ج١، ص٥٠ .

(٧٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٩، ص٢١٥ .

(٧٧) سعيد بن جبير بن هشام الأسدي، مولى بني أسد، يكنى بأبي محمد أو بأبي عبد الله، وهو حبشي الأصل، أسود اللون، أبيض الخصال، ويعتبر من كبار التابعين، وإمام أئمة الإسلام في التفسير، كان كاتباً لعبد الله بن مسعود، ثم لأبي بردة الأشعري ثم تفرغ للعلم، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق، سنة ٩٥هـ. ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٦، ص٢٥٦ ؛ الفاسي : تقي الدين محمد أحمد الحسني المكي، ت٨٣٢هـ، العقد الثمين بأخبار البلد الأمين، تحقيق : فؤاد السيد، القاهرة، ١٩٦٤م، ج٤، ص٥٥٠-٥٥١ .

(٧٨) عبد العزيز الهلالي : الحركة العلمية في مكة في عهد بني أمية، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة التاسعة عشرة، جماد الآخرة، ص٤٤ .

(٧٩) سعد الموسى، مكة المكرمة، ص٩٥ ؛ بن دهيش : دور المسجد في القرن الأول الهجري، ص١٥٨.

(٨٠) ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ)، صفوة الصفوة، القاهرة، ١٤١١هـ، ج٢، ص١٢٥ .

(٨١) الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق : عبد السلام تدمري، بيروت، ١٩٨٥م، ج١،

ص٩٨ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف، ص١٨ ؛ ابن الجوزي : صفوة الصفوة، ج٢، ص١٢٥ .
(٨٢) المقريزي : الذهب المسبوك، ص٣١ .
(٨٣) كان قاضي مرو يحيى بن معمر هو أول من نقط المصاحف، وكان من فضلاء الناس وعلمائهم، أخذ العربية عن أبي الأسود الدؤلي . ابن كثير : البداية والنهاية، ج٥، ص١٠ . وكان أول من دون هذا العلم أبو عمر، وحنفي بن عمر الدروي . محمد بن سالم الحسين، الإشارات الجلية في القراءات السبع من طريق الشاطبية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٥ .
(٨٤) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن، ج١٠، ص٢١٠ .
(٨٥) القفطي : جمال الدين أبي الحسن علي يوسف بن إبراهيم، أنباء الرواة، بيروت، ١٩٧٤م، ج٣، ص١٨٦–١٨٨ .
(٨٦) ابن خلدون : المقدمة، ص٥٤٣ . ويذكر أن الصحابة قرأوا القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة إلى أن استقرت على سبع طرق معينة تواتر نقلها أيضاً بأدائها، واختصت بالانتساب إلى من اشتهر برواياتها من الجمع الغفير، فصارت هذه القراءات السبع أصولاً للقراء، وربما يزيد بعد ذلك قراءات أخرى ألحقت بالسبع إلا أنها عند أئمة القراء لا تقوى إلى قوتها في النقل . المقدمة، ص٤٣٧ .
(٨٧) ابن الجزري: شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد (ت٨٨٣هـ)، النشر في القراءات العشرة، القاهرة، ١٩٩٣م، ص١٠ .
(٨٨) عكرمة مولى ابن عباس، وهو بربري المغرب، اجتهد ابن عباس رضى الله عنه في تعليمه، روى عن عائشة رضي الله عنها، وأبي هريرة، والحسين بن علي، وعبد الله بن عمر رضوان الله عليهم، وروى عن الشعبي، وجابر بن زيد وكان أعلم الناس في زمانه بالقرآن، وعند موته قيل مات أفقه الناس (ت١٠٥هـ) . ابن سعد :الطبقات الكبرى، ج٥، ص١٢١ ؛ الذهبي : اللباب في علوم الكتاب، بيروت، ١٩٨٨م، ج١، ص٤٧ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٤٥، ص٢٦٥ .
(٨٩) القراء السبع هم : نافع بن عبد الرحمن أبي نعيم (ت١٩٦هـ) عبد الله بن كثير المكي (ت١٢٠هـ)، وابن عمرو بن العلاء (ت١٥٤هـ)، وعبد الله بن عامر اليحصبي (ت١١٨هـ)، وعاصم بن عمرو بن أبي النجود (ت١٢٧هـ)، وحمزة بن خبيب (ت١٥٦هـ)، وعلي بن حمزة (ت١٨٩هـ) .
(٩٠) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٣٢٦ .
(٩١) مسلم بن جندب الهذلي : أبو عبد الله المدني من الطبقة الثانية من أهل المدينة، تولى قضاء المدينة، توفي بعد عام ١١٠هـ . ابن حجر : تهذيب التهذيب،ج١٠، ص١١٢ .
(٩٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٣٢٦ .
(٩٣) ابن حجر : تهذيب التهذيب، ج١٠، ص١١٢ .
(٩٤) هن أيوب بن سليمان بن يسار، وكان من أحسن الناس وجها، وكان فقيه أهل المدينة وعالمها، اشتهر بالتقوى والزهد، توفي سنة ١٠٧هـ . الأصبهاني : حلية الأولياء، ج٢، ص١٩٠، ص١٩٢ .
(٩٥) هو أبو عمر سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، كان خاشعاً متواضعاً قانعا، توفي سنة ١٠٦هـ. الأصبهاني : حلية الأولياء، ج٢، ص١٩٣ .
(٩٦) الذهبي : تذكرة الحفاظ، ج٥، ص٥٣، ص٦٠ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب، ج٨، ص٢٩٩–٣٠٠.
(٩٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٤٤٨ .
(٩٨) عبد الله بن كثير : هو من قراء المسجد الحرام من الطبقة الثانية، وهو أحد القراء السبعة، يقال له الداراني لأنه كان عطارا، والعطار بالحجاز يقال عنه داراني . الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٣١٨، ص٣٢٢ .
(٩٩) الذهبي : اللباب في علوم الكتاب، بيروت، ١٩٩٨م، ج١، ص٤٣ .
(١٠٠) يذكر كتاب مفتاح السعادة في التعريف بعلم القراءات أنه العلم الذي يبحث في صور كلام الله

عز وجل من حيث وجوه الاختلافات المتواترة، وهو يعتمد على العلوم العربية التي تعين على تحصيل هذه الملكة، وفائدة ذلك صون كلام الله من التغير والتحريف، ويبحث أيضاً في الاختلافات غير المتواترة مما وصل إلى حد الشهرة زاده : أبو الخير محمد مصطفى طاش كبرى (ت٩٦٢هـ)، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوع العلوم، تحقيق : كامل بكري، القاهرة، ج١، ص١٤٧ .

(١٠١) الزركشي: بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله (ت٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص١٣٠.

(١٠٢) الأندلسي : أبو عبد الله محمد بن علي بن يوسف بن حيان (ت٧٤٥هـ)، تفسير البحر المحيط، بيروت، ١٩٩٥م، ج١، ص١٣ . والتفسير في اللغة : الإيضاح، ومنه قوله تعالى : « ولَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً » [سورة الفرقان، آية : ٣٣] .

(١٠٣) السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن تمام أبو نصر (ت٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق : محمود بن محمد الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، القاهرة، ١٩٦٤م، ج٥، ص٣٥٠ .

(١٠٤) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو الحسن، أول الناس إسلاماً ولد قبل البعثة بعشر سنين، وتربى في حجر المصطفى عليه الصلاة والسلام، شهد كل الغزوات ما عدا تبوك، وهو زوج فاطمة الزهراء، وأول فدائي في الإسلام، ورابع الخلفاء الراشدين . ابن حجر : الإصابة، ج٢، ص٥٠٧.

(١٠٥) ابن خلدون : المقدمة، ص٤٢٨ – ٤٣٩ ؛ البسام : الحركة العلمية في الحجاز، ص٨٢ .

(١٠٦) أبو الحجاج مجاهد بن جبر العالم الحبر ذو الأحلام والصبر، صاحب التأويل والتفسير والأقاويل والتذكير، وهو مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، سمع من أم هانئ وسعد بن بن أبي وقاص، وأبي هريرة، وابن عباس، وقد لزمه في المسجد فترة طويلة وكان يقول « كنت أقف عند كل آية وأسأل فيما نزلت»، توفي ١٠٣هـ . ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٥، ص٣١٣ ؛ الأصبهاني : حلية الأولياء، ج٣، ص٢٧٩ .

(١٠٧) البسام : الحركة العلمية في الحجاز، ص١٢٤ .

(١٠٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٥، ص٢٨٧ ؛ الأصبهاني : حلية الأولياء، ج٤، ص٢٧٣ ؛ البسام: الحركة العلمية في الحجاز، ص١٢٤ .

(١٠٩) الترمذي : محمد بن عيسى بن سورة (ت٢٧٩هـ)، الجامع الصحيح، سنن الترمذي، تحقيق : إبراهيم عطوه عوض، ط١، القاهرة، ج١، ص٦٧ .

(١١٠) الذهبي : سير النبلاء، ج٤، ص٥٩٨، ج٥، ص٦٩ ؛ تذكرة الحفاظ، ج١، ص٩٢ ؛ الداودي : طبقات المفسرين، ج٢، ص٣٠٧ .

(١١١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج٩، ص٢٥٤، ص٢٦٠ .

(١١٢) ابن كثير : المصدر السابق ؛ البسام : الحركة العلمية في الحجاز، ص١٢٤-١٢٥ .

(١١٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٥، ص٢٨٧ .

(١١٤) هو الإمام محمد بن مسلم الزهري المدني، أحد الأئمة العلماء الحفاظ، أشتهر بسعة علمه واطلاعه، نزل ببلاد الشام، وروى عن الصحابة والتابعين، واستفاد من علمه عدد كبير من طلاب العلم . الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٣٢٦، ص٣٥٠ .

(١١٥) ابن خلدون : المقدمة، ص٤٣٨ .

(١١٦) الفقه لغة: هو العلم بالشيء والفهم له : ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٣٤٥ .

(١١٧) الآمدي: أبي الحسن علي بن أبي علي محمد (ت٦٣١هـ)، الأحكام في أصول الأحكام، ج٤، ص٣٢٤.

(١١٨) سورة آل عمران، آية : ١٥٩ .

(١١٩) الآمدي : الأحكام في أصول الأحكام، ج٤، ص٣٢٤ .

(١٢٠) الشيرازي : طبقات الفقهاء، ص٣، وقد أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن

مسعود أقضي بالكتاب والسنة فإذا لم تجد الحكم فيهما فاجتهد برأيك .

(١٢١) الشافعي : أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن السائب (ت٢٠٤هـ)، الرسالة، تحقيق : أحمد محمد شاكر، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٦٦ .

(١٢٢) الشيرازي : طبقات الفقهاء، ص٣ .

(١٢٣) ابن القيم : أعلام الموقعين، ج٢، ص٧٠-٧١ .

(١٢٤) البسام : الحركة العلمية، ص٩٣ .

(١٢٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٤٥ ؛ طبقات المفسرين، ج٢، ص٣٠٧.

(١٢٦) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٥، ص٤٧٩-٤٨٠ .

(١٢٧) الأصبهاني : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٣، ص٣١١ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب، ج٥، ص٥٦٧ ؛ ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت٣٢٧هـ)، الجرح والتعديل، تحقيق : عبد الرحمن المعلمي، حيدر أباد، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ج٣، ص٣٣٠ .

(١٢٨) الأصبهاني : حلية الأولياء، ج٣، ص٣١١ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب، ج٥، ص٥٦٩ .

(١٢٩) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٨٩ ؛ ابن الجوزي : صفوة الصفوة، ج٢، ص١٢٧-١٢٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج٥، ص٤٠١ .

(١٣٠) البسام : الحركة العلمية بالحجاز، ص٩٦ .

(١٣١) سورة النحل، آية : ٤٤ .

(١٣٢) ابن عبد البر : جامع بيان القرآن، ج١، ص٨٦ .

(١٣٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٦، ص٢٥٧ .

(١٣٤) ابن عبد البر: جامع بيان العلم، ج١، ص٨٢-٨٣؛ البسام: الحركة العلمية في الحجاز، ص١٢٤.

(١٣٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٨، ص٣٥٣ .

(١٣٦) صحيح البخاري، ج١، ص٣٦ ؛ ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم، ج١، ص٦٣ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج١، ص٣٨٧ ؛ الخرعان : عبد الله بن عبد الرحمن : أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ط١، الرياض، ١٤٢٤هـ، ص٩١ .

(١٣٧) ابن عبد البر : جامع بيان العلم، ج١، ص٦٣ .

(١٣٨) نفس المصدر والصفحة .

(١٣٩) ابن عبد البر : جامع بيان العلم، ج١، ص٣٤-٣٥ .

(١٤٠) البسام : الحركة العلمية بالحجاز، ص٩٠ .

(١٤١) سليمان بن يسار الديلمي : هو مولى ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ولي سوق المدينة لعمر بن عبد العزيز عندما كان أميراً عليها في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، روى الكثير من الأحاديث، عن زيد بن ثابت، وأبي هريرة وعائشة وابن عباس وأم سلمة، وكان ثقة عاليا، رفيقاً فقيها، وكان أعلم أهل المدينة بالطلاق، أثنى عليه العالم الجليل سعيد بن المسيب . البسام : الحركة العلمية، ص١٢١ .

(١٤٢) ابن عبد البر : جامع بيان العلم، ج١، ص٩٤ . الخرعان : أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ص٨٧ .

(١٤٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٨٢ .

(١٤٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٤، ص١٧٧ .

(١٤٥) السيوطي : تدريب الراوي في شرح تغريب النواوي، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت، ١٩٧٩م، ج١، ص١٧٧ .

المصادر والمراجع

- ابن الأثير : (عز الدين بن أبي الحسن علي بن أبي مكرم ت٦٣٠هـ) .
– أسد الغابة في معرفة الصحابة، بيروت، (د.ت) .
- الأصبهاني : (أبو نعيم أحمد بن عبد الله ت٤٣٠هـ) .
– حلية الأولياء في طبقات الأصفياء، القاهرة، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م .
- الآمدي : (أبو الحسن علي بن أبي علي محمد ت٦٣١هـ) .
الأحكام غي أصول الأحكام .
- الأندلسي : (أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان ت٧٤٥هـ).
– تفسير البحر المحيط، بيروت، ١٩٩٥م .
- البخاري : (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ت٢٥٦هـ) .
– صحيح البخاري، القاهرة .
- البلازري : (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي ت.٢٩هـ) .
– فتوح البلدان، تحقيق : رضوان محمد رضوان، بيروت، ١٣٩٨هـ .
أنساب الأشراف، بيروت، ١٩٧٤م .
- الترمذي : (محمد بن عيسى بن سوده ت٢٧٩هـ) .
–الجامع الصحيح .
– سنن الترمذي، تحقيق : إبراهيم عطوه عوض، ط١، القاهرة، ١٣٨٥هـ.
- ابن الجوزي : (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ت٥٩٧هـ) .
– صفوة الصفوة، القاهرة، ١٤١١هـ .
- ابن الجزري :(شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد ت٨٨٣هـ) .
– النثر في القراءات العشرة، القاهرة، ١٩٣٣م .
- ابن أبي حاتم : (عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ت٣٢٧هـ) .
– الجرح والتعديل، تحقيق : عبد الرحمن المعلمي، حيدر أباد، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م .
- ابن حزم : (علي بن أحمد الظاهري الأندلسي ت٤٥٦هـ) .
– الفصل في الملل والأهواء والنحل، بيروت، ١٤٠٣هـ .
- ابن حجر :(شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الدمشقي ت٨٥٢هـ) .
–الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، القاهرة، ١٣٢٨هـ . تهذيب التهذيب وتقريب التقريب، القاهرة، ١٤١٥هـ .
- حاجي خليفة :(مصطفى بن عبد الله القسطنطي ت١٠٦٧هـ).
– كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، ١٩٩٠م .

- ابن خلكان : (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلدون ت٦٨١هـ) .
– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس، بيروت، ١٣٩٨هـ .
- ابن خلدون :(عبد الرحمن بن عمر ت٨٠٨هـ) .
–مقدمة ابن خلدون .
- الدروي : محمد بن سالم الحسن .
– الإرشادات الجلية في القراءات السبع من طرق الشاطبية، القاهرة، ١٩١٤هـ .
- الداوودي : شمس الدين محمد بن علي بن أحمد (ت٩٤٥هـ) .
طبقات المفسرين، ط١، بيروت، ١٤٠٣هـ .
- الذهبي : (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ت٧٤٨هـ).
– اللباب في علوم الكتاب، بيروت، ١٩٨٨م.
– العبر في خبر من غبر، تحقيق : أبو هاجر محمد بسيوني زغلول، بيروت، ١٤٠٥هـ .
تذكرة الحفاظ، دار الكتب، بيروت (د . ت).
– سير أعلام النبلاء، تحقيق : شعيب الأرنؤوطي، بيروت، ١٩٨٦م .
- زاده : (أبو الخير أحمد مصطفى ت٩٦٢هـ) .
– مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوع العلوم، تحقيق : كامل بكري، القاهرة د. ت.
- الزركشي :(بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله ت٧٩٤هـ) .
البرهان في علوم القرآن .
- ابن سعد : (محمد بن سعد بن منيع الزُهدي ت٢٣٠هـ) .
–الطبقات الكبرى، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
- ابن سحنون : (محمد بن سحنون عبد السلام ت٢٥٦هـ) .
– آداب المعلمين ملحق بكتاب التربية في الإسلام للأهواني، القاهرة (د.ت).
- السمرقندي : (نصر بن محمد بن أحمد ت٣٧٢هـ) .
– بستان العارفين، طبع ضمن كتاب تنبيه الغافلين، ط١، بيروت، ١٤٠٩هـ .
- السبكي : (تاج الدين عبد الوهاب بن علي ت٧٧١هـ) .
– طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق : محمود بن محمد الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، القاهرة، ١٩٦٤م .
- السيوطي : (جلال الدين عبد الرحمن بن محمدت٩١١هـ) .
– الإتقان في علوم القرآن، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، ١٩٨٣م .
– تقريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت، ١٩٧٩م .

- الشافعي : (أبو عبد الله محمد بن إدريس ت٢٠٤هـ) . الرسالة، تحقيق : أحمد بن محمد شاكر، القاهرة، ١٩٧٩م .
- الشيرازي : (عبد الرحمن بن نصر ت٥٨٩هـ) .
نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق : السيد الباز العريني، ط٢، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
- الطبري : (محمد بن جريرت٣١٠هـ). تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٩٧١م.
- ابن ظهيرة :(جمال الدين محمد ت٩٨٦هـ).
الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، بيروت، ١٩٨٢م
- ابن عبد البر : (أبو عمر يوسف بن عبد الله ت٤٦٣هـ) .
– جامع بيان العلم وفضله، بيروت . الاستيعاب في معرفة الأصحاب، القاهرة، ١٣٢٨هـ .
- العلائي : إبراهيم محمد ايدمر .
–الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور وأحمد السيد دراج، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م .
- ابن العماد : (أبو الفلاح عبد الحي ت١٠٨٩هـ) .
– شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت .
- ابن فرحون : (إبراهيم بن علي بن محمد ت٧٩٩هـ) .
الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، ١٩٧٢م .
- الفاسي: (تقي الدين محمد بن أحمد ت٨٣٢هـ).
– العقد الثمين بأخبار البلد الأمين، تحقيق : فؤاد السيد، القاهرة، ١٩٦٤م .
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق : عبد السلام تدمري، بيروت، ١٩٨٥م .
- ابن فهد : (عز الدين عبد العزيز بن عمر ت٩٢٢هـ) .
– غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق : فهيم شلتوت، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .
- ابن قتيبة الدنيوري :(أبو محمد عبد الله بن مسلم ت٢٧٦هـ) .
–عيون الأخبار، دار المعارف، ١٩٩٠م .
- القابسي : (علي بن محمد بن خلف ت٤٠٣هـ)
– الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، رسالة ملحقة بكتاب التربية في الإسلام للأهواني، القاهرة، (د.ت) .
- القرشي : (محمد بن محمد بن أحمد ت٧٢٩هـ).
–معالم القربة في أعمال الحسبة، تحقيق: محمد بن محمود شعبان، القاهرة،

١٩٧٦م .
. القفطي : (جمال الدين أبي الحسن ت٦٢٤هـ).
– أنباء الرواة، بيروت، ١٩٧٤م .
. ابن القيم : (شمس الدين أبي عبد الله المعروف بابن القيم الجوزية ت٧٥١هـ) .
– أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق : طه عبد الرءوف مسعد، الإسكندرية، ١٩٥٥م .
. الكتاني : عبد الكبير بن القطب محمد بن الحسن .
– التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلية، الرباط، ١٣٤٦هـ .
. ابن كثير : (عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ت٧٧٤هـ) .
– البداية والنهاية، دار الغد العمري، ١٩٩١م .
. ابن منظور : (محمد بن مكرم بن علي ت٧١١هـ).
–لسان العرب، القاهرة، ١٣٠٠هـ/١٩٨٨م .
. المقريزي : (تقي الدين أحمد بن علي ت٨٤٥هـ) .
– الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق : جمال الدين لشيال، طه عبد الرءوف مسعد، الإسكندرية، ١٩٥٥م .
. المحاسبي : أبو عبد الله الحارث بن أسد .
– رسالة المسترشدين، ترجمة وتحقيق : عبد الفتاح أبو غدة، ط١، نشر دار لسلام للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٥م .
. الهيثمي : (علي بن أبي بكرت٨٠٧هـ) .
– مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت، ١٤٠٧هـ .
. اليعقوبي :(أحمد بن أبي يعقوب ت٢٨٤هـ)
– تاريخ اليعقوبي، بيروت، ١٩٨٠م .

المراجع والرسائل والمجلات

- البسام : لطيفة محمد : الحركة العلمية في الحجاز منذ ظهور الإسلام حتى قيام الدولة العباسية، دراسة تاريخية من ١هـ إلى ١٣٢هـ، كلية الآداب، جامعة الرياض، رسالة دكتوراه، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
- بن دهيش : عبد اللطيف: الكتاتيب، ط١، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- بن دهيش : منيرة عبد الملك : دور المسجد في القرن الأول الهجري في الحجاز والشام، دراسة تاريخية حضارية، ط١، مكة، ١٤٢٥هـ .
- توماس : أرنولد : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة : حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، القاهرة، ١٩٤٧م .
- الخرعان : عبد الله عبدا لرحمن : أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية، ط١، الرياض، ١٤٢٤هـ .
- خضر : فخري رشيد : تطور الفكر التربوي، ط٤، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- السنيدي : عبد العزيز: الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، ط١، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .
- الظهار : نجاح عبد الكريم : بدايات الحياة العلمية والأدبية للمرأة في الملكة العربية السعودية، ط١، جدة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .
- عبد الله : عبد الرحمن صالح: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ط١، ص١٣٩٢هـ/١٩٧٣م .
- العقل : ناصر عبد الكريم : أثر العلماء في تحقيق رسالة المسجد، وزارة الشئون الإسلامية للأوقاف والدعوة والإرشاد، مكة، ١٤١٩هـ .
- لمعي : مصطفى صالح: التراث المعماري الحضاري في مصر، بيروت، ١٤٠٤هـ .
- المنذري : عبد العظيم عبد القوي : الترغيب والترهيب، القاهرة، ١٩٠٠م.
- الموسى : سعد موسى : مكة المكرمة، المؤتمر العالمي الثالث للاقتصاد الإسلامي، جامعة أم القرى، ربيع الثاني، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .
- الهلالي : عبد العزيز : الحركة العلمية في مكة في عهد بني أمية، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة التاسعة عشرة، جماد الآخرة .

Honard R. Turever Science in Medival Islam University of Texas press 1997 .

د/ عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين (*)

عهد المتوكل على الله العباسى
بين الحقيقة التاريخية وظلم المؤرخين

إذا ما نظرنا إلى التاريخ العالمى نجد أنه لا يعبر فى تحقيبه عن شعوب العالم، وأممه، إذ أن الفواصل التاريخية التى تقسم التاريخ إلى مراحل، وضعت نسبة إلى أحداث القارة الأوروبية.

فالتاريخ وفق هذا التقسيم ينقسم إلى ثلاث مراحل رئيسية، هى: التاريخ القديم، والتاريخ الوسيط، والتاريخ الحديث والمعاصر.

ولو بحثنا فى حيثيات هذا التقسيم، نجد أن التاريخ القديم يبدأ بمعرفة الإنسان الكتابة، وينتهى بسقوط روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية تحت وطأة الجرمان، كما وضع تاريخ بناء القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية بداية للتاريخ الوسيط، وسقوطها نهاية لهذه الحقبة، ويبدأ التاريخ الحديث بعهد النهضة الأوروبية، وينتهى بنشوب الحرب العالمية الأولى، وكل هذه الأحداث دارت فى القارة الأوروبية، فأين مساحة الأحداث لبقية العالم، الذين شاءوا أم أبوا وضعوا ضمن هذا التقسم.

وما يزيد الأمر سوءً أن التاريخ الإسلامى وفق هذا التقسيم وضع ضمن حقبة العصور الوسطى، التى لها سمات معينة فى تصورات الناس، فهى عصور الظلام والتأخر والجهل وسيطرة الكنيسة بتعاليمها البالية على الحياة الدينية والزمنية فى أوروبا.

وإذا ما خضنا فى التاريخ الإسلامى، وأمعنا النظر فى تقسيماته، نجد أن ثمة حاجة لإعادة النظر فى هذا التقسيم، إذ هو بداية يعتمد التقسيم الأوروبى، فهو ضمن حقبة العصور الوسطى، كما أنه يوضع ضمن

(*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة تعز

مرحلة زمنية انقضت، وكأنه أصبح من تركة الماضى، وهذا مخالف للواقع، فنحن ما زلنا فى دول تدين بالإسلام، وتعتمده فى إدارة شئونها، ونعيش فى مجتمعات تدين بالإسلام وتحيا به وله.

وإذا ما أوغلنا أكثر فى التقسيمات لحقب التاريخ الإسلامى نجد أن الأخطاء تتكرر، - ولا عجب من هذا لأن صياغة التاريخ الإسلامى فى العصر الحديث قد بدأت على أيدى المستشرقين الذين كانت لهم أغراضهم من هذه الصياغة، فالعصر العباسى يقسم إلى حقبتين رئيسيتين، عصر عباسى أول تميز بالقوة والازدهار، وآخر وسم بالضعف والتراجع والإضمحلال.

وهو تقسيم يعتمد على نظرة جزئية أحادية للتاريخ، إذ اعتمد المؤرخون أصحاب هذه النظرة، جانباً واحداً من جوانب التاريخ المتعددة للحكم علي عصور التاريخ العباسى، هو الجانب السياسى، فاعتمدوا ما حدث من ضعف سياسى وتفكك بعض أوصال الدولة العباسية وضعف بعض خلفاء المرحلة المتأخرة، وفقدانهم السيطرة على مقاليد الأمور، وما صاحب ذلك من مظاهر، اعتمدوها أساساً لتقسيم الحكم العباسى إلى عصرين متميزين، عصر عباسى أول يتسم بالقوة، وعصر عباسى ثانى يتصف بالضعف والضمور.

فأغفلت هذه النظرة جوانب أخرى من التاريخ لا تقل أهمية عن الجوانب السياسية إن لم تفقها، أعنى بذلك الجوانب الحضارية والعلمية، خصوصاً وأنا نعلم أنّ من غايات التاريخ السامية، رصد تطور الحضارة الإنسانية، ومدى إسهام الشعوب والأمم فيها، فالمرحلة المتأخرة من عمر الدولة العباسية، وإن عانت من الضعف السياسى، وانفرط عقدها، إلاّ أنه لا يستطيع أحدٌ أن ينكر أن جل العلوم الدينية والطبيعية، وإن كان بعضها قد نشأ فى العصر العباسى الأول، لم تنم وتترعرع، ولم تزدهر وتتألق، إلا فى العصر العباسى الثانى، فكان بمثابة الرحم الذى تخلّقت فيه الحضارة الإسلامية، وأن ذلك الضعف السياسى أتاح تنوع المنتج الحضارى فى شكله، وإن كان متوحداً فى جوهره، فظهرت ثلاثة مراكز حضارية فى بغداد القاهرة، وقرطبة، أثرت الحضارة الإسلامية.

ومع ذلك، وإن وافقنا هؤلاء المؤرخين فى اعتماد المعيار السياسى أساساً للتمييز بين مرحلتين مختلفتين من عمر الدولة العباسية، فإننا نأخذ عليه أن الحدود الفاصلة بين هاتين المرحلتين (العصرين) فيها بعض التجاوز.

إذ اتخذت جل الدراسات التى عرضت للتاريخ العباسى(١)، من سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، نهاية للعصر العباسى الأول وبداية للعصر العباسى الثانى، وهى المرحلة الفاصلة بين عهدى الواثق بالله، والمتوكل على الله، وتبعاً

لهذه النظرة، وذلك التقسيم، صُنِّف عهد الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧ - ٨٦١م) على أنه بداية عصر الضعف والانحطاط.

وقد كان لهذا التصنيف أثره الواضح فى رسم صورة باهتة - خلافاً للواقع - لهذا الخليفة، ولعهده، لدرجة أن بعض هذه الدراسات تكاد لا تشير إلى عهد هذا الخليفة، فالانطباع الأول الذى يخرج به المطالع لمعظم الدراسات المحدثة عن التاريخ العباسى، هو أن المتوكل خليفة ضعيف، لا له حول ولا قوة، وأنه كان ألعوبة بأيدى قوّاد جيشه من الأتراك، خلافاً لما يخرج به الباحث المدقق المنصف من خلال المصادر المعاصرة والقريبة من عهد المتوكل، إذ يجد الباحث نفسه إزاء واحد من خلفاء بنى العباس الأقوياء، وعهده من أكثر العهود إصلاحاً.

الإصلاحات العامة:

وإذا ما انفككنا من أسر هذه الدراسات التى اعتمدت قوالب جاهزة لحقب التاريخ الإسلامى، وبالارتداد صوب المرحلة التى تخلقت فيها أحداث التاريخ العباسى، وحاولنا الإطلاع عليها من خلال المصادر الأصلية، والمنابع الصافية للتاريخ الإسلامى، نجد أنفسنا أمام خليفة لا يقل عن أسلافه من الخلفاء العباسيين إن لم يفق بعضهم، وهو ما أكده أحد معاصريه من العلماء(٢)، حيث قال: «الخلفاء ثلاثة أبو بكر الصديق قاتل أهل الردة، وعمر بن عبد العزيز رد مظالم بنى أمية، والمتوكل محا البدع وأظهر السنن»(٣)، وهذا لا يعنى بالتأكيد انتقاصاً من بقية الخلفاء قبل وبعد المتوكل، وإنما إشارة إلى الإنجازات الكبيرة لهؤلاء الخلفاء، وقال آخر: «لما استخلف المتوكل على الله، نظر فى إصلاح العامة، والتفت إلى المظالم والمسجونين، والجبر لقلوبهم»(٤)، بل ويشير بعض المؤرخين إلى إنه كان أفضل ممن سبقه من الخلفاء حيث يقول: «وانتهج سياسة تأليف الناس بعد أن قلاهم وأعنتهم الخلفاء من قبله، فقال المتوكل معبراً عن ذلك: «إن الخلفاء كانت تتعصب على الناس ليطيعوهم، وأنا ألين لهم ليحبونى ويطيعونى»(٥)، فقرب التجار والفلاحين والصناع وأغدق عليهم الأموال، وأراد إصلاح الأرض وإجراء الأقنية، وأجّل أخذ الخراج المفروض على المزروعات إلى ما بعد نضج الثمر(٦).

وهو ليس خليفة ضعيفاً كما يصوره بعض المؤرخين، إذ تمكن طوال عهده من تصويب الأخطاء السياسية والانحرافات الفكرية والمخالفات الإدارية، التى غرقت فيها الدولة، أو كادت، وأصابت بالخلل أجهزتها فى عهد أسلافه، وهو شىء لا يتصدى له إلاّ خليفة قوى.

مواجهة النفوذ التركى:

جاء المتوكل إلى الخلافة، وقد استبدت بها القيادات التركية التى نمت وترعرعت فى عهد المعتصم، ثم سيطرت وتحكمت فى عهد الواثق، فاستبدت بالسلطة واستأثرت بالمال، وزاد نفوذها فى البلاط العباسى، وكان هؤلاء يستجلبون أبناء جلدتهم، لتدعيم مراكزهم السياسية والعسكرية، فحاول المتوكل الحد من هذه السيطرة، والكبح من ذلك النفوذ والاستبداد لهذه القيادات التركية المتسلطة، فجرد بعضهم من مراكزهم السياسية والعسكرية، وحاسبهم فيما حازوه من أموال بطرائق غير شرعية فصادر بعضها(٧)، بل إنه عزم على اتخاذ عاصمة جديدة للدولة تكون بعيدة عن سامراء(٨)، والعراق، حيث تركز العناصر التركية، فوقع اختياره على دمشق وسار إليها سنة (٢٤٤هـ / ٨٥٨م)، إلا أنه كما تقول الروايات، استثقل ماءها، فعاد إلى سامراء بعد شهرين من المقام بدمشق(٩) وقد أوغرت هذه الإجراءات صدور القادة الترك ضد المتوكل وظلوا يتربصون به حتى قتلوه(١٠)، ثم استبدوا بعد ذلك بالخلافة وسيطروا على الخلفاء، فأصبح الخلفاء بعد ذلك يسيرون حسب إرادتهم، ولذلك فبموت المتوكل ابتدأ نفوذ الأتراك واستمر، ومعه ابتداء عصر الضعف السياسى للدولة العباسية، المعروف بالعصر العباسى الثانى(١١).

وربما أغرى تدخل القيادات التركية فى تولية الخليفة المتوكل على الله، بعد أن ترك أخوه الواثق الأمر دون أن يعهد إلى خليفة بعينه، ثم قَتْلُ المتوكل بعد ذلك بأيديهم، ربما أغرى ذلك بعض المؤرخين(١٢)، بتصور أن المتوكل كان خليفة ضعيفاً، جاء بأيدى الأتراك ثم ذهب على أيديهم، إلا أن ثمة سؤال يستوقف الباحث المدقق المنصف، ما الذى حدث على مدى خمسة عشر عاماً، بين تولية المتوكل (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، وقتله سنة (٢٤٧هـ / ٨٦١م)؟ ألم يجرِّد هذا الخليفة هؤلاء الأتراك وغيرهم من المتسلطين المسيئين استخدام السلطة، من سلطاتهم ونفوذهم؟ ألم يحاسبهم فيما انتهبوا من أموال الدولة، وفيما اغتصبوه من أموال الناس؟ ثم ألم يكن ذلك سبباً فى حقدهم عليه وتخلصهم منه

إعادة التوازن فى العلاقة بأهل الذمة:

كما أعاد المتوكل على الله التوزان المختل فى علاقة أهل الذمة بالمسلمين، بعد أن أفرط الخلفاء قبله فى التسامح مع أهل الذمة على نحو من الغفلة، ألحق الضرر بالمسلمين، وتجاوز الحدود التى وضعها الله للتعامل معهم، حتى استحوذوا على الوظائف المالية والإدارية فى الدولة، وتحكموا فى المسلمين وساموهم ألوان العسف.

فتدخل العلماء لدى المنصور لمنع ظلم موظفيه من أهل الذمة للناس(١٣)، وقويت شوكتهم أيام المهدى، فأنكر عليه العلماء تسليمه الأمانة التى خصه الله بها لأهل الذمة دون المسلمين(١٤)، وتظلم أهل مصر لدى المأمون لما قدم مصر، ممن استخدم عليهم من النصارى(١٥)، وعندما ولى المتوكل الخلافة كان قد استفحل خطر موظفى الدولة من أهل الذمة، وأخذوا يغصبون الناس ضياعهم ودورهم، فلامه العلماء فى تركهم يعبثون بالمسلمين، وأفتوه بعدم جواز استعمال أهل الذمة فى أعمال الدولة وتقديمهم على المسلمين(١٦)، فضلاً عن أنه اكتشف، غشهم للمسلمين، ونصحهم لأعدائهم(١٧)، ومحاولة الإيقاع بين الخليفة وكبار معاونيه، فقد دخل سلمة بن سعيد النصرانى(١٨)، على المتوكل، وكان يأنس به، فقال: «يا أمير المؤمنين أنت فى الصحارى والصيد، وخلفك معادن الذهب والفضة ومن يشرب فى آنية الذهب والفضة ويملؤها ذهباً عوضاً عن الفاكهة»(١٩)، ثم لما عرف المتوكل، حقيقة الأمر، أمر بعزل أهل الذمة من وظائف الدولة(٢٠)، ونهاهم عن التشبه بالمسلمين فى ملبسهم ومركبهم(٢١)، مسترشداً فى ذلك بتوجيهات العلماء(٢٢).

غير أن هذه الإجراءات التى اتخذها المتوكل ضد أهل الذمة لم تصل إلى حد الاضطهاد، كما رأى بعض المستشرقين(٢٣)، إذ أن ما فعله هو تجريدهم من المكاسب غير الشرعية التى حازوها، فى ظل تفريط بعض الخلفاء، وعدم التزامهم بحكم الله تعالى فيهم، إذ أراد لهم الصغار حيث تكبروا على دينه ورسوله، وحيث نهى عن الاستعانة بهم فى كثير من الآيات، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر»(٢٤)، كما أنها لم تمنع الخليفة من الوفاء بالتزام الدولة إزاءهم، بل وإعفائهم من بعض الالتزامات المفروضة عليهم لدى عجزهم عن الوفاء بها، فانقص عن يهود نابلس(٢٥)، دينارين من الخراج عندما شكوا إليه ضعفهم وعجزهم عن أدائه(٢٦).

إنها فتنة القول بخلق القرآن:

لعل أهم عمل قام به المتوكل أنه وضع حداً للانحرافات الفكرية التى أغرقت المسلمين فى بحر من الجدل والحيرة، وكادت تعصف بالمجتمع، وتأتى على بنيانه من القواعد، فأوقف فتنة القول بخلق القرآن، وتتبع مروجيها من المعتزلة بعد أن جرَّدهم من السلطات الواسعة التى تمتعوا بها فى عهود أسلافه من لدن المأمون وحتى الواثق(٢٧)، وواجه سائر البدع التى ظهرت فى عصره(٢٨).

وفى المقابل مال إلى العلماء وقربهم إليه، وألحَّ على من أبى منهم لإتيانه، فالتمس أحمد بن حنبل(٢٩)، واستجلب ذا النون المصرى(٣٠).

وقد كانت هذه الإجراءات الإصلاحية التى قام بها المتوكل موضع إعجاب وتقدير العلماء والشعراء والمؤرخين، فقال أحمد بن حنبل: «كان الناس فى خوض من الباطل واختلاف شديد يغتمسون فيه، حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين – يعنى المتوكل – فنفى الله به كل بدعة، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المحابس، ووقع ذلك من المسلمين موقعاً عظيماً»[٣١].

وعبرً عن ذلك أيضاً على بن إسماعيل[٣٢]، حيث قال: «أطفأ المتوكل نيران البدعة، وأوقد مصابيح السنة»[٣٣]، وهو تعبير عن ارتياح العلماء ورضاهم عن عهد المتوكل، إذ كان رأيهم هو المعيار الذى تقاس عليه المراحل التاريخية استقامة وسقوطاً قوة وضعفاً، فهم لا يحابون ولا يداهنون، ولا يخافون فى الله لومة لائم، وأثنى عليه الشعراء لإنهائه فتنة القول بخلق القرآن فقال البحترى[٣٤]:

ردوت الدين فذا بعد أن قد	أراه فرقتين تخاصمان
قصمت الظالمين بكل أرض	فأضحى الظلم مجهول المكان[٣٥]

وأكد ذلك المؤرخون سواء المعاصرون أم المتأخرون، فعدوا عهده امتداد لعصر القوة والازدهار، فقال اليعقوبى[٣٦]: «نهى المتوكل الناس عن الكلام فى القرآن، وأطلق من كان فى السجون من أهل البلدان، ومن أخذ فى خلافة الواثق»، وقال خليفة بن خياط[٣٧]: استخلف المتوكل فأظهر السنة وتكلم بها فى مجلسه، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة، وبسط السنة، ونصر أهلها»[٣٨]، وأكد ذلك المؤرخون المتأخرون فقال ابن الجوزى[٣٩]: «ولى المتوكل فأظهر الله به السنة وكشف تلك الغمة فشكره الناس على ما فعل» وزاد على ذلك الذهبى[٤٠]، فقال: «فى سنة (٢٣٤هـ / ٨٤٩م)، أظهر المتوكل السنة، وزجر عن القول بخلق القرآن، واستقدم المحدثين».

وعلى مستوى العلاقات الخارجية، استعادت الدولة العباسية فى عهد المتوكل هيبتها، وقوى مركزها فى مقابل القوى المحيطة بها، فأعاد المتوكل تنشيط الجهاد بعد أن توقف تماماً فى عهد الواثق[٤١] فافتتح مدينة بارة[٤٢]، فى المغرب فى مستهل خلافته[٤٣]، وأخضع إقليم البُجة[٤٤]، سنة (٢٤١هـ/ ٨٥٥م)[٤٥]، وانتصر على الروم سنة (٢٤٦هـ / ٨٦٠م)[٤٦]، وبلغ من اهتمام المتوكل بالجهاد أن حدَّث الأسطول البحرى الإسلامى، فزاد فى عدد سفنه وشحنها بالجنود[٤٧]، وحصَّن العواصم[٤٨]، والثغور[٤٩].

معيار التفكك السياسى:

وإذا كان البعض قد اتخذ من بداية التفكك السياسى مبرراً للتقسيم إلى

عصرين متميزين، عصر قوة، اتسمت فيه الدولة بالتماسك، وعصر ضعف بدأت أوصال الدولة تتفكك، حتى أفضى إلى انفراط عقدها، وتناثر الدويلات المستقلة هنا وهناك، فإن هذا لم يحدث ابتداءً من عهد المتوكل بل بدأ مع ظهور الدولة العباسية، وفى عصر الخلفاء الأوائل الذين وصفوا بالقوة، ووصف عصرهم بالعصر الذهبى للدولة العباسية، فالأمويون استقلوا بالأندلس سنة (١٣٨هـ/ ٧٥٥م)، فى عهد المنصور، وبنو مدرار استقلوا فى سجلماسة بالمغرب الأقصى سنة (١٤٠هـ/ ٧٥٧م)، أيضاً فى عهد المنصور، وفى خلافة المهدى استقل الخوارج الأباضية بالمغرب الأوسط (١٦٠هـ/ ٧٧٧م)، وأسسوا الدولة الرستمية(٥٠)، وأسس الشيعة الأدارسة لهم دولة فى المغرب الأقصى ابتداءً من سنة (١٧٢ – ٣٦٤هـ / ٧٨٩ – ٩٧٥م)، فى خلافة الرشيد(٥١)، ومثلهم الأغالبة، (١٨٤ – ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ – ٩٠٩م)(٥٢)، وهكذا فإن حركات الاستقلال عن الدولة العباسية قد بدأت مع ظهور الدولة، ولم تبدأ فى عهد المتوكل حتى نجعل من عهده بداية لمرحلة الضعف وتفكك أوصال الدولة.

وإذا كان اغتيال الخليفة المتوكل من قبل بعض أعوانه بمساندة بعض أفراد أسرته يعد مؤشراً على ضعف الخليفة والخلافة، فإن مثل هذا الأمر قد حدث قبل عهد المتوكل على الله، وإلاّ فماذا نسمى ما حدث للخليفة عمر بن الخطاب، الخليفة الثانى، عندما قُتل فى المدينة، وبعد ذلك ما حدث لعثمان ابن عفان، وما استتبع ذلك من قتل للخليفة على بن أبى طالب، وفى العصر الأموى قتل الوليد بن يزيد على يد ابن عمه يزيد بن الوليد، بل إن العصر العباسى الأول شهد هو الآخر قتل للخليفة الأمين على يد أخيه المأمون، وهكذا لو كان قتل الخليفة معيار لقوة أو ضعف الدولة أين سنضع عهود هؤلاء الخلفاء الذين ينتمون إلى عصور الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعصر العباسى الأول، عصور القوة والازدهار؟.

ثم إن امتداد خلافة المتوكل على مدى خمسة عشرة عاماً، ما كان له أن يحدث لو أن فى الخليفة شيئاً من الضعف.

ثم لنا أن نتساءل، إذا كانت هذه صفات المتؤكل، وذلك نهجه وسياسته، وتلك مجريات الأحداث فى عهده، وذلك رأى معاصريه، والمؤرخين بعد ذلك فيه، فلماذا يوضع عهده ضمن العصر العباسى الثانى الذى وسم بالضعف؟ ثم من الذى وضع هذا التقيم وتلك الحدود الفاصلة بين عصور التاريخ، ومعايير تقسيم الحكم العباسى إلى عصرين؟ أليس بشراً يصيب ويخطئ؟ وهل هذه التقسيمات مقدمة بحيث يُحظر على الباحث الاقتراب منها والتعاطى معها، واستقراء مبرراتها؟ ثم لماذا نلزم أنفسنا بهذه التقسيمات ما دامت مبرراتها غير مقنعة؟ وغير ذلك من الأسئلة التى تجول فى ذهن الباحث لهذه

المرحلة من التاريخ الإسلامى، وعليه فقد يسمح لنا العرض السابق لتحديد نهاية العصر العباسى الأول بتجاوز الفترة الزمنية التى اصطلح على أنها نهاية للعصر العباسى الأول وهى سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، إلى الدخول فى عهد المتوكل، وعده امتداداً للعصر العباسى الأول، عصر قوة الخلفاء والدولة، وعليه فسنة (٢٤٧هـ / ٨٦١م) هى الحد والتاريخ الفاصل بين العصرين العباسيين الأول والثانى.

النتائج والتوصيات:

- إعادة النظر فى التحقيب الحالى للتاريخ العالمى.
- إعادة تحقيب التاريخ الإسلامى نسبة إلى الأحداث المؤثرة فى المجتمعات الإسلامية.
- إعادة النظر فى تقيم العصر العباسى إلى أول وثانى بناءً على معايير حضارية وسياسية، إضافة عهد المتوكل على الله إلى العصر العباسى الأول، واعتماد سنة ٢٤٧هـ بداية للعصر العباسى الثانى بدلاً من سنة ٢٣٢هـ.

الهوامش

(١) أحمد الحفناوى: الحضارة الإسلامية فى ظل الخلافة العباسية، الجهاز المركزى للكتب الجامعية، المنصورة، ط١، ١٩٧٩م، ص٣٩؛ حسن أحمد محمود: العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص٨٢؛ حسين محمد سليمان: الدولة الإسلامية فى العصر العباسى، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٢١؛ شاكر مصطفى: دولة بنى العباس جـ١، ص٤؛ نادية صقر: السلم فى العلاقات العباسية البيزنطية فى العصر العباسي الأول، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م، ص٢٥.

(٢) إبراهيم بن محمد التيمى: قاضى البصرة، أحد علماء الحديث، وإن ضعَّفه بعضهم، لم أقف له على تاريخ وفاة، الطبرانى: المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسينى، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، جـ٤، ص١٣٠؛ ابن الجوزى: العلل المتناهية، تحقيق: خليل أنيس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، جـ١، ص٢٩٧.

(٣) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد، ص٣١٢، ٣١٣؛ مرعى بن يوسف: تنوير بصائر المقلدين فى مناقب الأئمة المجتهدين، ص١٢٣.

(٤) ابن وادران: تاريخ العباسيين، تحقيق: المنجى الكعبى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٥٧١.

(٥) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج١٢، ص٣٢؛ السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٨.

(٦) يوسف العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص١٠٥.

(٧) يقول الذهبى: انحرفت الأتراك عن المتوكل لمصادرته وصيفاً وبُغا حتى اغتالوه، سير أعلام النبلاء، جـ١٢، ص٣٨.

(٨) هى فى الأصل: سُرَّ من رأى بناها المعتصم لتكون مقراً لجنده الأتراك بعد أن عثوا فى بغداد فساداً، وشكا منهم أهلها للمعتصم، وتقع بين بغداد وتكريت شرقى نهر دجلة، ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٩٥.

(٩) عز على أهل العراق أن تنتقل عاصمة الخلافة عنهم، إلى الشام، فتلطف شاعرهم يزيد بن محمد المهلبى لدى المتوكل لثنيه عن الانتقال إلى دمشق قائلاً:

أظن الشام يشمت بالعراق إذ عزم الإمام على انطلاق

فإن تدع العراق وساكنيه فقد تبكى المليحة بالطلاق

(١٠) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، دار صادر، بيروت، (د.ت)، جـ٢، ص٤٩٢؛ الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٢، ص٣٨.

(١١) ومن نتائج دراسة أجراها أحمد سعود أحمد الحسن، خلص إلى أن تحول منصب الخلافة من الهيبة والقوة إلى الضعف والإضمحلال، تم بصورة سريعة، وليس تدريجياً حيث كان منصب الخليفة العباسى منذ نشأة الدولة العباسية (١٣٢ هـ / ٨٤٨م)، وحتى مقتل المتوكل سنة (٢٤٧هـ / ٨٦١م)، يتميز بالقوة، وأن الخليفة هو الشخص المباشر التصرف فى إدارة شئون الخلافة، دور العامة فى الأحداث السياسية فى العصر العباسى من (٢٤٧هـ / ٨٦١م، إلى ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد ٢٢، يناير سنة ١٩٩٨م.

(١٢) يقول صابر محمد دياب: والحق أن تاريخ وفاة الخليفة الواثق بن المعتصم (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، هو البداية الحقيقية لتدخل النفوذ التركى، وتغلغله فى شئون الدولة، فالواثق لم يعهد بعده بولاية

الأمر، ما دفع الترك لتجاوز ابنه وتولية أخيه المتوكل على الله الذى مات مقتولاً بأيدى الأتراك أنفسهم، (٢٤٧هـ / ٨٦١م)، الخلافة ونظم الحكم فى الدولة الإسلامية، دار الأنصار، القاهرة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٦٨.

(١٣) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، تحقيق: صبحى الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، جـ١، ص ١٦٧، ١٦٨.

(١٤) المصدر نفسه: ص ١٦٨، ١٦٩.

(١٥) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج١، ص١٧٩، ١٧١.

(١٦) الخلال: أحكام أهل الملل، تحقيق: سيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤/١٩٩٤م، ص٥١، ٥٤.

(١٧) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جـ١ ص١٧١، ١٨٧.

(١٨) سلمة بن سعيد النصرانى: أحد كُتّاب المتوكل، كان يختان الأموال العامة، ويعبث بها، ولم يكتف بذلك، بل حاول الإيقاع بين الخليفة وبين المخلصين من أعوانه ليخلو له المجال، فيستحوذ على الخليفة، إلا أن الخليفة تنبه لما يريد فعزله وصادر أمواله. الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٥، ص٣٥٨.

(١٩) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جـ ١، ص ١٧١، ١٧٢.

(٢٠) المصدر نفسه: ص ١٧٢، ١٧٤.

(٢١) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جـ ٢، ص١٨٣، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٤١، ٧٤٢؛ الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٢، ص٣٤؛ السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٢.

(٢٢) المصدر السابق: ص ص٧٦٠، ٧٦١.

(٢٣) يقول «أرنولد» فى كتابه الدعوة إلى الإسلام: لكن حال المسيحيين لم تكن قائمة على هذا التسامح الذى كان فى خلفاء صدر الإسلام، فقد كانت تفرض أحياناً فى سبيل خدمة المؤمنين المخلصين بعض الحالات التى تضايق الأهالى من غير المسلمين (أو أهل الذمة) بحجة ضمان المزايا الاجتماعية السامية للمؤمنين، وقد قام بعض الخلفاء بمحاولات غير مجدية لإقصائهم عن الوظائف العامة، فأصدر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥م) والمتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ - ٨٦١م) مراسيم بهذا الصدد، أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص٧٠؛ انظر كذلك أحمد أمين: ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت)، جـ ٢، ص٤٨.

(٢٤) آل عمران: الآية ١١٧.

(٢٥) نَابُلُسُ: مدينة مشهورة بأرض فلسطين، بين جبلين، وفيرة المياه بينهما وبين القدس عشرة فراسخ، وبظاهر نابليس جبل ذُكِرَ أن آدم عليه السلام سجد فيه، وذهب البعض فى تفسير اسمها إلى أنها كانت فى الأساس واد فيه حية عظيمة تسمى لُس، متغلبة على الوادى، فاحتالوا عليها حتى قتلوها، ونزعوا نابها، فسمى المكان بنابلس أى ناب لس. ياقوت: معجم البلدن، جـ ٥، ص٢٨٨.

(٢٦) البلاذرى: فتوحَ البلدان، تقحيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٢١٦.

(٢٧) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص ٣٥، ٣٦.

(٢٨) واجه المتوكل البدع التى ظهرت فى عهده، مثل التبرك بالقبور والأشجار، وسب الصحابة، وغيرها، من ذلك تبرك بعض أهل قزوين بشجرة بجوار مسجد الربيع بن خثيم، واجتماع بعض

الرافضة على سب الصحابة، البلاذرى: فتوح البلدان، ص٤٥١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص٣٥١.

(٢٩) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد، ص٣١٩، ٣٢٢؛ الذهبى: سير أعلام النبلاء: جـ ١٢، ص٣٦.

(٣٠) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٥.

(٣١) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد، ص٣٣٠.

(٣٢) على بن إسماعيل بن أبى بشر – إسحاق – بن سالم بن إسماعيل، ينتهى نسبه إلى أبى موسى الأشعرى، له مصنفات كثيرة فى الرد على الملحدة والمعتزلة والرافضة والجهمية، وهو بصرى سكن بغداد وتوفى بها سنة (٣٣٢هـ / ٩٤٤م)، الخطيب: تاريخ بغداد، جـ ١١، ص٣٤٦، ٣٤٧.

(٣٣) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد، ص٣١٣، ٣١٤.

(٣٤) البحترى: اسمه الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد الطائى البحترى المنبجى، يكنى بأبى عُبادة شاعر عصره، مدح الخلفاء والوزراء، وقد أثنى على شعره معاصروه من الشعراء أمثال أبى تمام بمنبج توفى سنة (٢٨٣هـ / ٨٦٩م)، الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٣، ص٤٨٦، ٤٨٧.

(٣٥) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٩.

(٣٦) تاريخ اليعقوبى: جـ ٢، ص ص ٤٨٤، ٤٨٥.

(٣٧) خليفة بن خياط العصفرى: يكنى بأبى عمرو، من تابعى التابعين فى البصرة، أحد علماء الطبقات والتاريخ، ومع ذلك فقد اهتم بالحديث فرواه عن عدد من العلماء، أهم كتبه تاريخ خليفة بن خياط والطبقات، توفى سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٧م، الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١١، ص ص ٤٧٣، ٤٧٤.

(٣٨) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص٣١.

(٣٩) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص٣١٢.

(٤٠) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص٣٤.

(٤١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ص ٣٢٤، ٣٣١؛ ٣٣٢، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ص ص ٢٦٥، ٢٦٦.

(٤٢) بارة: مدينة بالمغرب على شاطئ البحر، فى أرض تعرف بالأرض الكبيرة بينها وبين برقة مسيرة خمسة عشر يوماً، كان أهلها نصارى من غير الروم، غزاها جبلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها، ثم غزاها خلفون البربرى، ففتحها أول خلافة المتوكل على الله، البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٢٨.

(٤٣) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٢٨.

(٤٤) البُجة: نسبة إلى البجاوة، وهم أمم عظيمة تقطن النوبة، وهى تفصل بين العرب والحبش، ومدينتهم يقال لها هجر، يأتيها المسلمون للتجارة، وأهل البجة ليس لهم بيوت، إنما ينزلون خياماً من الجلود، ذكر اليعقوبى أنهم – لا دين لهم، يأكلون الذرة، وينتفون لحاهم، ويحاربون على الجمال، اليعقوبى: كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، ص٩٥؛ ياقوت: معجم البلدان، جـ ١، ص٤٠٣.

(٤٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ص ٣٣٤، ٣٣٥.

(٤٦) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص٣٤.

(٤٧) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢٢٣.

(٤٨) العواصم: من عَصَمَ يعصم عصماً، فهى مفرد عاصمة بمعنى مانعة، والعواصم التى نحن بصدد

الحديث عنها، بلاد بين المسلمين والروم قصبتها أنطاكية، وهى مدن حصينة، سميت بذلك لأنها تعصم المسلمين من عدوهم، ابن منظور: لسان العرب، جـ ٤، ص ٢٩٧٩.

(٤٩) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ص ٢٣٣، ٤٦٢، الثغور: جمع ثغر وهو فى اللغة كل فرجة فى جبل أو بطن وادٍ أو طريق مسلوك، ويوصف به الفم، وبالذات ما تقدم من الأسنان، ويقصد به هنا أطراف البلدان التى يخشى عليها خطر الغزو، براً وبحراً، فهو على ذلك ما يلى دار الحرب، ويفصلها عن بلاد المسلمين، ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص ٤٨٦؛ أحمد عطية: القاموس الإسلامى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠م، جـ ١، ص٥٣٨.

(٥٠) الحريرى: مقدمات البناء السياسى للمغرب العربى «الدولة الرستمية»، مكتبة الشباب، القاهرة، ط ١، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ص ١٩١، ٢٠٠.

(٥١) انظر حسن على حسن: تاريخ المغرب العربى (عصر الولاة)، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١، د. ت، ص١٧٧.

(٥٢) انظر حسن على حسن: تاريخ المغرب العربى (عصر الولاة)، ص ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المخطوطات

مرعى بن يوسف: (بن أبى بكر بن أحمد الكرمى الحنبلى ت ١٠٣٣هـ / ١٦٢٣م).
- تنوير بصائر المقلدين فى مناقب الأئمة المجتهدين، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم (٢٣٩٨)، ميكروفيلم (٣٥٧٨٢)، تاريخ طلعت.

ثالثاً: المصادر المطبوعة:

البلاذرى: (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م).
- فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، ، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
ابن الجوزى: (أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن البغدادى ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م).
- مناقب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق سعد كريم الفقى، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت.
- مناقب الإمام أحمد بن حنبل، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، د.ت.
الخطيب: (أبو بكر أحمد بن على البغدادى ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م).
- تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
الخلال: (أبو بكر أحمد بن محمد ت ٣١١ هـ /٩٢٣م).
- أحكام أهل الملل (من الجامع لمسائل الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق سيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د. ت.
الذهبى: (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م).
- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٢/ ١٩٨٢م.
السيوطى: (جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين ٩١١ هـ /١٥٠٥م).

- تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الشماخى الرفاعى، محمد عثمان، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

ابن شداد: (عز الدين محمد بن على بن إبراهيم ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م).

- الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى زكريا عبارة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

الطبرى: (محمد بن جرير ت ٣١٠/ ٩٢٢م).

- تاريخ الأمم والملوك، تحقيق نخبة من العلماء الأجلاء، مكتبة الاستقامة، القاهرة، ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م.

- تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ابن قيم الجوزية: (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى بكر ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠م).

- أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحى الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

- أحكام أهل الذمة، تحقيق عبد الرؤوف سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.

ابن وادران: (حسين بن محمد كان حياً سنة ١١٧٢هـ / ١٧٥٩م).

- تاريخ العباسيين، تحقيق المنجى الكعبى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ط١، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣م.

ياقوت. (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى ت ٦٢٦هـ /١٢٢٩م).

- معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ /١٩٩٠.

- اليعقوبى: (أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م).

- تاريخ اليعقوبى، دار صادر، بيروت، د.ت.

- كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨.

رابعاً: المراجع الحديثة:

- أحمد أمين: ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

الحريرى. محمد عيسى: مقدمات البناء السياسى للمغرب العربى (الدولة الرستمية)، مكتبة الشباب، القاهرة، ط ١٣٩٩، ١هـ/ ١٩٧٩م.

- حسن أحمد محمود: العالم الإسلامى فى العصر العباسى، مطبعة الإستقلال الكبرى، القاهرة، د.ت.

- حسن على حسن: تاريخ المغرب العربى (عصر الولاة)، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١، د.ت.

- حسين محمد سليمان: الدولة الإسلامية فى العصر العباسى، دار عالم

الكتب، الرياض، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- شاكر مصطفى: دولة بنى العباس، وكالة المطبوعات، الكويت ، ط١، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- صابر محمد دياب: الخلافة ونظم الحكم فى الدولة الإسلامية، دار الأنصار، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م.
- ولاية المظالم ومجالسها، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.
العش. يوسف: تاريخ عصر الدولة العباسية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٦/١٩٩٨م.
- نادية حسين صقر: السلم فى العلاقات العباسية البيزنطية فى العصر العباسى الأول، المكتبة الفيصلية مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

خامساً: المراجع المعرّبة: الأجنبية:

- أرنولد، سير. توماس.
- الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين إسماعيل النحراوى، مكتبة النهضة، المصرية، القاهر، د.ت.

سادساً: بحوث منشورة فى دوريات:

- أحمد سعد أحمد الحسن
- دور العامة فى الأحداث السياسية فى العصر العباسى من بعد سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد: ٢٢، رمضان ١٤١٨/ يناير ١٩٩٨م.

د. محمد سيد كامل (*)

النصارى والنشاط الاقتصادى فى مصر الفاطمية فى ضوء أوراق البردى العربية

التمهيد:

تمتع النصارى بوجه عام فى مصر الفاطمية بالتسامح والمساواة، فقد أطلق لهم حرية العقيدة، والمشاركة فى الوظائف الإدارية والمالية، هذا بالإضافة إلى دورهم الاقتصادى فى مصر عامة.

فمن خلال دراستي لأوراق البردي العربية حاولت إلقاء الضوء على أنشطة النصارى الاقتصادية في مصر في العصر الفاطمي فقمت بتقسيم الموضوع إلى تمهيد يتناول مدى الحرية والتسامح التي تمتع بها نصارى مصر الفاطمية ثم دراسة لأنشطتهم الاقتصادية كما وردت في أوراق البردي العربية من خلال عدة نقاط:

أولاً: حرية امتلاك الأراضي الزراعية للأقباط والضرائب المفروضة عليها.

ثانياً: اهتمام الأقباط ببعض المحاصيل الزراعية.

ثالثا: النصارى والتقدم الصناعي والحرفي.

رابعا: النصارى والتجارة الداخلية في المدن والقرى المصرية.

خامساً: النصارى وحقهم في بيع وشراء العقارات.

ولقد بدأ التسامح الدينى من قبل الفاطميين للنصارى بمجرد وصول القائد جوهر الصقلى إلى الديار المصرية فى سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨م، واستعان ببعض النصارى فى الإشراف على بعض كور مصر من أمثال أبو اليمن قزمان بن مينا الذى ظل فى منصبه الإشرافى حتى زمن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى(١). ومما لاشك فيه أن الخليفة المعز اشتهر منذ بداية حكمه بمصانعتهم والاعتماد عليهم فى الكثير من المناصب الإدارية، بعد

(*) مدرس بكلية دار العلوم - جامعة المنيا.

تيقنه من تعذر الاعتماد على أهل السنة فى هذه الأمور ، لمخالفتهم له وللفاطميين عموماً فى المذهب ، فى حين أن أهل الذمة وخاصة النصارى عرفوا ببعدهم عن التعصب لهذا المذهب أو ذاك ، فضلاً عن كفاءتهم الإدارية فى النواحى الاقتصادية.

كذلك اهتم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بدور العبادة القبطية كالكنائس والأديرة التى انتشرت فى أرجاء البلاد، ومن ذلك أنه أمر بإعادة ترميم بعض الكنائس ، وأصدر مرسوماً بترميم كنيسة المعلقة بقصر الشمع ، وقام بدفع نفقات البناء من خزانته الخاصة ، وأوكل إلى بعض جنوده بحراسة هذا العمل حتى لا يتعرض إليهم المسلمون[٢].

ولم يقتصر تسامح الخليفة المعز لدين الله الفاطمى على ذلك ، بل شمل شيئاً أخر أكثر أهمية يتصل باهتمامات المعز برجال الكنيسة فى الديار المصرية، فشملهم بالرعاية والتكريم ، ونضرب لذلك مثلاً بما كان يصنعه بساويرس بن المقفع - أسقف مدينة الأشمونين بمصر الوسطى- الذى كان يستدعيه إلى مجلسه الخاص وتجرى بينه وبين كبار فقهاء المذهب الشيعى مناقشات ومحاورات دينية، فكثيراً ما تناظر ساويرس بن المقفع والقاضى النعمان فى هذه الأمور ، وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على محاولة الخليفة الربط بين رجال الدين المسيحى ورجال الفقه الشيعى فى دولته.

كذلك لم يتدخل الخليفة فى شئون الكنيسة الداخلية، ولم يعترض على تعيين البطاركة، وذلك بعد وفاة الأنبا مينا البطريرك الحادى والستين للكنيسة القبطية، حيث اجتمع الأساقفة لانتخاب من يخلفه من البطاركة ، فوقع اختيارهم على أحد التجار ويدعى إبراهيم بن زرعه ، فرسموه بطريركاً عليهم باسم الأنبا إبراهام السوريانى ، ليكون البطريرك الثانى والستين للكنيسة القبطية[٣] وقد كان معروفاً أن البطريرك يعتبر موظفاً حكومياً ولابد من تعيينه مع موافقة الخليفة[٤]. فيشير ترتون[٥] فى كتابه إلى أن تعيين البطاركة كان باستئذان الولاة والخلفاء ، كما حدث فى عهد الوإلى قره بن شريك حيث قدم الملكانيون ألف دينار لخزانة الدولة فعين نسطاسيوس بطريركاً ملكانياً للإسكندرية، وكما حدث فى خلافة هشام بن عبد الملك الأموى عندما استأذن الإمبراطور «لاون» الخليفة فى تمكين أحد الخلقدونيين من الوصول إلى البطريركية فى قزما Kasmos أن أقاموا بلا بطرك سبعاً وسبعين سنة.

وعلى نسق المنهج الخلافى السابق سار الخليفة العزيز بالله على سياسة أبيه الخليفة المعز لدين الله فى التسامح والعطف مع نصارى مصر، وأظهر اهتماماً واضحاً بكنائسهم إلى درجة ترميم بعضها على نفقته ككنيسة

القديس مرقص أبو مرقودة (٦) ، وكنيسة أبو سيفين بظاهر مدينة الفسطاط (٧)، فضلاً عن ارتباطه برباط المصاهرة مع النصارى فتؤكد الروايات أنه تزوج من سيدة مسيحية أنجبت له ابنه الحاكم بأمر الله وابنته ست الملك، والتى كان لها تأثير كبير فى سياسة الدولة الداخلية آنذاك (٨).

وقد بلغ من عطف الخليفة العزيز بالله على نصارى مصر أن سمح بمشاركة المسلمين للأقباط فى احتفالهم بأعيادهم الدينية مثل عيد الغطاس مخالفاً بذلك والده المعز لدين الله الذى منع القبط من أعمال اللهو والمجون فى هذا اليوم (٩)، كما شارك المسلمون فى كورة أخميم فى صعيد مصر الأقباط الاحتفال بعيد دير الطير (١٠).

وحتى عصر الحاكم بأمر الله الذى ينسب إليه تعصبه للشيعة واضطهاده لأهل الذمة وخاصة القبط (١١) ، نجد أنهم تمتعوا ببعض المميزات السياسية والاقتصادية، فكان من بينهم وزراء للحاكم بأمر الله وعمالاً للخراج الذين كانوا من القبط دون اليهود (١٢)، حيث عين عيسى بن نسطورس فى منصب الوساطة فى الدولة(١٣) .

وقد أوجز ابن الراهب (١٤) سياسة الحاكم تجاه الأقباط بقوله : «أنه تشدد على النصارى ... ونكل بهم، وأخرب كنائسهم ، وقتل أكابرهم ، وعاقبهم وأسلم منهم خلق كثير».

وفى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤١١ هـ/ ١٠٢٠، منح الأقباط الأمان على أرواحهم وأموالهم وأملاكهم وترك لهم الحرية الدينية، حيث عاشوا فى هدوء وسلام، فزادت حرية الرهبان فى امتلاك الأراضى الزراعية بالسجل الذى أصدره الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م، فقد أبقى الأراضى فى أيديهم، ومكنهم من استغلالها، كما سمح لهم بالمحافظة على زراعتهم وغلاتهم فى سائر الأقاليم والمدن، وصان الأراضى الموقوفة على الأديرة (١٥).

وفى خلافة الخليفة الآمر بالله سنة ٥١٥ هـ / ١١٢٠ م تساهل مع ملاك الأراضى - مسلمين وأقباط- فلم يحصل منهم ما كان معروفاً باسم البواقى(١٦) أو يطالبهم بسداده ، حين كتب وزيره الأفضل بن أمير الجيوش مرسوماً قرأ فى جميع البلدان والأقاليم بترك بواقى الخراج من المتقبلين وضامنى الأراضى الزراعية (١٧)، فأفاد الأقباط من ذلك كثيراً .

وتشير أوراق البردى إلى العديد من الوظائف الدينية فى مصر خاصة فى القرى منها وظيفة الأسقف أو الأسقفى كما ورد فى البردية: «شهد إبراهيم بن كيل بن سويرس الأسقفى، وهو من أصحاب المراتب الدينية، ويكون موجوداً فى كل

بلد من تحت يد المطران»، وقد ورد لقب الأسقفى ضمن مجموعة البردى المحفوظة فى المعهد الشرقى فى شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية (١٨) وهناك لقب الشماس وهو من الألقاب الشائعة التى وردت فى نصوص ايصالات الجزية والخراج ودافعى الضرائب، والتى حفظها جروهمان فى قوله: «أدى أبميرة الشماس . . .» (١٩).

أولا : حرية امتلاك الأراضى الزراعية للأقباط والضرائب المفروضة عليها :

أهتم الفاطميون بالأراضى الزراعية، فقد امتلكت الدولة الفاطمية الأراضى التى كانت من أملاك الأسرة الإخشيدية، أما الأراضى التى كانت لأفراد الشعب فتركت فى أيديهم تبعاً لما نصت عليه وثيقة الأمان سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨م(٢٠)، كذلك أتاح الفاطميون لأقباط مصر حرية امتلاك الأراضى الزراعية ، والتصرف فيها بالبيع والشراء كيفما شاءوا دون تدخل من الخلافة، وتشير إلى ذلك وثائق البردى العربية بصورة واضحة، فهناك وثيقة كشفت فى الفيوم تشير إلى ذلك بقولها: «هذا ما اشترى يحنس بن شنوده بن بطاقس من مقطلنى بنت شنوده بن أيوب، وهما جميعا من سكان ططون من كورة الفيوم حصتها من الأراضى المشاع بينهما . .»(٢١)، إن النص السابق يضع أيدينا على جملة من الحقائق الخاصة بعقود البيع فى ذلك الوقت منها : توثيق عقد الشراء والنص عليه بأسماء الأشخاص ، إلى جانب تحديد الرقعة المكانية للقطعة المشتراة، وما يهمنا فى هذه البردية تعيين اسمى «يحنس بن شنوده – مقطلنى بنت شنودة» وهما قبطيان.

كذلك تشير الوثيقة نفسها إلى شئ من العلاقات الطيبة بين الأقباط والمسلمين فى كورة الفيوم آنذاك حيث شهد أحد المسلمين على وثيقة البيع المذكورة، بقولها : «يشهد عبد الصمد بن يوسف بن هارون على إقرار مقطلنى بجميع ما فى هذا الكتاب ويكتب شهادته بخطه» (٢٢).

كذلك منح الفاطميون الحرية لأغنياء القبط فى التبرع بأملاكهم إلى الأديرة ووقف الأراضى عليها ، فقد سمح الخليفة العزيز بالله لأحد تجار مدينة قفط بصعيد مصر بالتبرع بأربعين زوجاً من البقر لأحد الأديرة، من أجل إدارة السواقى الملحقة بأراضى الدير لتسهيل عمليات الرى بها (٢٣).

كذلك اتيحت للأقباط فى عهد العزيز حرية امتلاك الأراضى الزراعية وخاصة للأديرة ، فكان هناك كثير من الأراضى الزراعية والبساتين الموقوفة على الأديرة ليصرف منها على متطلبات الرهبان فى حياتهم اليومية (٢٤)، دون أن يفرض عليهم الضرائب واشتغل كثير منهم بحرفة الزراعة داخل أديرتهم مثل دير رهبان ريفة بأسيوط، ويشير العمرى (٢٥) عن رهبانه بقوله :«ولساكنيه

رزق من الاشتغال بالزراعة ، كذلك الدير الأبيض بأخميم الذى يعمل رهبانه فى زراعة النخيل (٢٦) أما عن دير أبى مقار فقد عمل رهبانه على الإشراف على أراضى زراعية كبيرة بها كروم وبساتين ورعى المواشى ويدار فيها طواحين ومعاصر للزيت (٢٧) ، وقد أكد ساويرس بن المقفع ذلك بقوله (٢٨) : «وبالدير خيرات كثيرة لا تحصى».

وقد تعددت الأديرة فى مصر التى بها حق امتلاك أراضى زراعية فى العصر الفاطمى لدرجة أنه قيل إن الرهبان كانوا يقومون بأعمال الزراعة والفلاحة فى عدد كبير منها، وأنهم استخدموا السواقى لرى تلك الأراضى، ففى دير القديس ميخائيل بقنا كان الرهبان يزرعون أراضى الدير ويغرسون الأشجار عن طريق السواقى والأبقار هذا إلى جانب زراعة الخضر والقمح والكتان (٢٩).

ويشير أبو صالح الأرمنى (٣٠) إلى أن هناك العديد من الأراضى الزراعية التى أوقفها الفاطميون على الكنائس والأديرة، لم تؤخذ منها ضريبة الخراج، وتقدر بحوإلى تسعمائة وخمسة عشر فداناً منها أربعمائة وسبعة وستين بالوجه القبلى، وأربعمائة وثمانية وأربعين بالوجه البحرى، وذلك حتى نهاية عام ٥٦٩ هـ /١١٧٩م.

وقد ساد نظام فى العصر الفاطمى وهو تقبل الخراج وجابيته على الأراضى الزراعية، أى أن يقوم شخص فى المزاد العلنى بدفع الضرائب المقررة نقداً أو أقساطاً على الأراضى المنزرعة فى قرية معينة أو عدة قرى، ثم يقوم بتحصيلها من أفراد الجهة التى التزم بقبالتها(٣١)، وكانت الأراضى الزراعية يتقبلها متقبلوها بالأربع سنوات، لاتاحة الفرصة للمتقبل لكى يعوض النقص فى حالة المحصول السئ.

وكان على المتقبل أن يقوم بشق الترع، وإصلاح الجسور، وإقامة المشاريع فى النواحى المتقبلها ، إلى جانب حمل ما على أهل البلاد من الخراج فى أوقاته، ففى وثيقة من أوراق البردى مؤرخه بالقرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى جا فيها: «مزاحم بن اسحق تقبل الأرض على ما جرى به العادة أربع سنوات»(٣٢) ، ويؤكد نظام القبالة فى مصر عدد كبير من وثائق البردى العربية.

وقد عمل العديد من أقباط مصر فى الوظائف الخاصة بالزراعة والشئون الزراعية فى مصر الفاطمية، فكان ديوان الخراج فى القاهرة له فروع فى الأقاليم كان يتولى إدارته والإشراف عليه موظف يسمى الجسطال، وأن هؤلاء الموظفين كانوا فى الغالب من الأقباط، والجسطال كما وردت فى أوراق البردى

العربية لفظ يونانى معناه : «مساعد صاحب الكورة ، وقد وردت هذه الوظيفة بصيغة الجمع مبتدئة بحرف القاف «قساطيل» مرتبطة بعدة أسماء قبطية منها «بتانة وأندونه – وأصطفن – القساطيل بمعزة خليفتى عامل ... (٣٣)». كذلك كان متولى جمع الضرائب وتحرير الوثائق يسمى موظفوه بالجهابذه، وأن أغلبهم من الأقباط أيضاً والجهابذة من الوظائف الشهيرة عموماً فى نصوص البرديات العربية ، وهى تعنى الصراف الذى يعنى عمله جمع الخراج وتحرير سجلات وكشوف الخراج والجزية والضرائب الأخرى ، وغيرها من الأمور الهامة المتعلقة بمصالح الدولة المالية والإدارية (٣٤).

وهناك العديد من وثائق البردى العربية تشير إلى ذلك ففى وثيقة يشار إلى اسم الجسطال بقوله «أدى فلان بن الموفق عن يديه على أناس شتى ... ثلثة دنانير ونصف وثلث وثلث ربع مثقال – الدينار الذهبى– إلى مينا القسطال بحضرة خليق بن فلان ...» ، ويضيف فى البردية نفسها «شهد سعيد بن القسم على إقرار مينا بن إبراهيم الجسطال ...(٣٥) ويدل اسم الجسطال على أنه قبطى الديانة، وأنه يتسلم مال الخراج فى مقابل إعطاء إقرار على نفسه بدفع هذه الضريبة، وأن هناك شاهد على هذا الدفع مع ذكر اسمه.

وقد وضحت هذه الأشياء كذلك فى بردية أخرى عبارة عن إيصال خراج يدفعه إلى الجسطال يفهم منها أن اسمه قبطى ، مع وجود شاهد على الإقرار ، فتشير بردية بقولها «أدى عيسى بن أحمد عما يلزمه من الخراج عن قرية تدعى سير من ضياع الأمير أيده الله نصف وثلث وثمن مثقال إلى .... بن ايهبوه القسطال بحضره خليفة محمد بن عيسى ...» (٣٦).

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن مستأجرى الأراضى من النصارى كانوا يقومون بدفع ما عليهم من خراج إلى الجهابذه وهم أيضاً من الأقباط ، وذلك ما أشارت إليه وثيقة من البردى العربى بقولها : «أدى يحنس بن اتناس وسلهوه بن يحنس عما يلزمهما من الخراج عما زرعا على مروان بن أحمد بسبوا دينارين وثلثى وثمن دينر مثاقيل بلا صرف ولا أجرة إلى ايهيوه بن ماعه ومينا بن شنودة الجهبذين ....» (٣٧).

ويحدد جروهمان اسم الجهبذ فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٥ م باسم بقام بن شنودة الجهبذ (٣٨).

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن قيام العديد من الأقباط للعمل على جمع الضرائب كصرافين وجهابذة أدى إلى ازدياد ثرواتهم بصورة واضحة لدرجة أن الرحالة ناصر خسرو (٣٩) الذى زار مصر فى عهد الخليفة

المستنصر الفاطمى يقول أنه رأى نصرانياً لديه من الطعام ما يمكنه من إطعام أهل مصر لمدة ستة سنوات كاملة ، وذلك حينما نقص ماء النيل فى إحدى السنوات السبع ، مما يدل على ما تمتع به الأقباط من حرية الأمتلاك وكسب الأرزاق.

كذلك نلحظ أن بعض رجال الدين من الأقباط كانت تفرغ عليهم ضريبة الخراج عن الأراضى الزراعية المملوكة إليهم، وقد وجدت وظيفة الشماس وهى من الوظائف الدينية المعروفة لدى الأقباط وألصقت باسم ابميرا وفرضت عليه الضريبة فتشير البردية بقولها «أدى ابميرا الشماس وسمية عما يلزمهما من الخراج» (٤٠).

وهناك العديد من البرديات العربية التى تحمل كشوف بأسماء دافعى الضرائب من الأقباط، والتى تؤكد أنهم كان لهم الحق فى امتلاك الأراضى الزراعية أو استئجارها من أصحابها والقيام بالزراعة والوثيقة عبارة عن سجل ضريبة قبطى مكتوبة على شكل زوايا قائمة ، وبجانب الاسم مقدار الضريبة التي عليه (٤١).

ويشير أبو صالح الأرمنى (٤٢) إلى أن ملاك الأراضى الزراعية كثيراً ما كانوا يقومون بتأجيرها فى حالة تعذر زراعتها إلى غيرهم ممن يستطيع القيام بتلك الأعباء مع مراعاة قيام المستأجر بالالتزام بالعناية بالأرض وإقامة الجسور وأداء ضريبة الخراج ، فقد قام أحد رجال الدين الأقباط بتأجير قطع من أراضى الدير لعدد من المسلمين فى مقابل مبالغ معينة من المال .

كذلك تشير وثيقة من أوراق البردى العربية وهى عبارة عن إقرار بصحة اتفاق خاص بكراء أراضى زراعية بقولها «شهد الشهود . . . على إقرار انتناس بن سستة بن انتناس الساكن القرية المعروفة بنواية من قرى أسفل أشمون. . . وجواز أمره أن سلائخ أراضى الأملاك المعروفة بهور قلته والمنسوبة إلى بقام بن هلستوس . . وأقر انتناس بن سسته بن انتناس أنه تسلم من مزاحم أراضى الأملاك المذكورة» (٤٣).

كذلك كان من القبط بعض الذين عملوا كأجراء فى الأراضى الزراعية ، مهمته القيام بأعمال الحرث والغرس وغيرها فى مقابل أجر معلوم سواء كان نقداً أم عيناً، ففى وثيقة من البردى ترجع إلى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى عبارة عن حساب أجور عمال الزراعة فيه عدد كبير من الأسماء ما بين أسماء مسلمة وأسماء قبطية ورد اسم «... ابن اسحاق يونـاس (٤٤)» ومن الاسم يعرف أنه قبطى الأصل.

ثانيا : اهتمام الأقباط ببعض المحاصيل الزراعية :

يأتى فى مقدمة المحاصيل الزراعية التى اهتم بها أقباط مصر محصول القمح، فهو من المحاصيل الشتوية التى تزرع فى الأراضى الخصبة فى جميع أنحاء مصر ويكثر زراعته فى الصعيد (٤٥) لأنه الغذاء الأساسى للسكان، وكان منه معظم متحصل الديوان من الغلال ومبلغه نحو مليون أردب فى السنة(٤٦).

وتشير أوراق البردى إلى أهمية محصول القمح فى مصر، فكان أصحاب الضياع يطالبون وكلائهم بالمحافظة عليه، فى وثيقة ترجع إلى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى عبارة عن خطاب مرسل من وكيل أحد المزارعين إلى صاحب ضيعة يقول فيه : «وذكرت يا سيدى أيدك الله أمر القمح وشدة حاجتك إليه. . .»(٤٧).

وهناك وثيقة من البردى كشفت فى الفيوم ترجع إلى عام ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م عبارة عن إقرار بدين يدفع قمحاً بين عدد المزارعين الأقباط وآخرين من المسلمين تقول : «أقر ابيمه بن بجوش المزارع ببلجسوق ... ديناً ثابتاً وحقاً لازماً له من الإقرار به لزمزم بن نصر من القمح، ... أقر عبدالمسيح بن بول الشمس المزارع ببلجسوق ... ديناً ثابتاً وحقاً لازماً له من الإقرار به لزمزم بن نصر من القمح. . .»(٤٨).

كذلك تشير بردية أخرى ترجع إلى المحرم سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م وكشفت فى الفيوم أيضاً عبارة عن إقرار بدين عينى يدفع قمحاً بين قبطى ومسلم على تحديد نوع القمح المسلم بدل الدين بقولها: «أقر شبيب بن مقاره المزارع .. وفى ذمته خالص ماله ديناً ثابتاً أقر لزمزم بن نصر من القمح الطيب الصالح السالم من العلث أربعة أرادب وثلث النصف من أردبين وسدس. .»، وكذلك أمر بلتوس بن الخليج المزارع .. لزمزم بن نصر من القمح الطيب الصالح السالم من العلث ثلثة أرادب وربع أردب. .(٤٩).

كذلك اهتم الرهبان بزراعة القمح فى أديرتهم ، فكان يزرع فى دير القديس ميخائيل بقنا مساحات واسعة من القمح(٥٠)، كما كان يزرع فى بعض أديرة أسيوط وأخميم نوع ممتاز من القمح يطلق عليه اسم القمح اليوسفى(٥١).

كذلك اهتم الأقباط بغرس النخيل فى طول البلاد وعرضها، فقد زرع فى أسوان على جانبى الطريق وكانت النخلة تنتج منه ما يقرب من عشرة أرادب تمراً(٥٢)، وزرع النخيل فى قوص والبلينا ودندره وأسنا التى اشتهرت بزراعته ويحصل منها فى السنة الواحدة أربعون ألف أردب تمراً(٥٣).

وقد اهتم الرهبان بغرس النخيل فى بعض أديرتهم مثل دير المراغة التابعة لأخميم فقد كان فيه أكثر من أربعمائة رأس نخلة مثمرة(٥٤)، كذلك اهتم رهبان طمويه بإزاء حلوان بالنخيل والكروم(٥٥)، وهناك عدة أديرة فى صعيد مصر خاصة فى قرية دندرة زرع بها النخيل بكميات كبيرة، وغرس النخيل بكميات كبيرة فى الدير الأبيض بأخميم ، والذى اشتهر رهبانه بزراعته(٥٦).

ثالثاً: النصارى والتقدم الصناعى والحرفى :

برع الأقباط فى العديد من الصناعات والحرف فى مصر الفاطمية ويأتى فى مقدمتها صناعة النسيج، حيث ورثوا كثيراً من أسرار الصناعات عن أجدادهم ، كما انتشرت مراكزها فى العديد من الأماكن التى أقام فيها الأقباط كمناطق الصعيد فى أخميم وأسيوط والبهنسا والأشمونين، ومناطق الشمال كالدلتا ودمياط وتنيس(٥٧)، وقد مال الأقباط فى حرف النسيج إلى الإكثار من رسم الحمام فى زخارفهم ، ورمز الحمام عندهم إلى روح القدس وليس ببعيد أن يكون ثمة علاقة بين الفنانين الأقباط فى استعماله فى تلك الزخرفة وبين التسامح الدينى الذى تمتع به القبط بوجه عام فى عهد الفاطميين، وانتشرت صناعة المنسوجات الحريرية فى أخميم بصعيد مصر، وترجع معظم المنسوجات المستخرجة من مقابر هذه المنطقة إلى اسم زخريا النساج القبطى(٥٨) وهذا يدل دلالة واضحة على براعة الصناع الأقباط فى تلك الصنعة، وتنوع صناعتهم، ليس فى صناعة المنسوجات الصوفية والكتانية فقط، بل فى صناعة المنسوجات الحريرية.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى تفوق أقباط إخميم فى تصدير منتجاتهم من النسيج المعروف بالصوف الرفيع أو المعلم أو المطرف من الكتان ، فكان الثوب منها يقدر بعشرين ديناراً ، كما وجد فى أخميم مصانع أهلية إلى جانب المصانع الحكومية التى اشتهرت بصناعة النسيج المعروف بالطراز(٥٩).

وقد انتشرت صناعة النسيج فى مدينة الأشمونين، التى تدلل وثائق البردى العربية على وجود الأقباط بها وتمركزهم فى قراها ، ففى وثيقة ترجع إلى سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٢م فى العصر الفاطمى عبارة عن عقد بيع منزل ما نصه :«اشترى اسطوروس التنيسى من بيسه الساكن مدينة الاشمونين من المكنا القزاز بن مينا السقا الساكن بهذه المدينة المذكورة(٦٠) » ووثيقة أخرى ترجع إلى الفترة نفسها تشير إلى ذلك بقولها : «هذا ما اشترى . . . من قلته بن كيل بن جريج النصرانى الساكن مدينة الأشمونين» ، ويضيف هذا المنزل المطل على الكنيسة المعروفة «بالبرتاتس»(٦١) وفى وثيقة أخرى ترجع إلى نفس

الفترة بتاريخ ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٩م كشفت فى الأشمونين تشير إلى عقد بيع منزل بين «بييسه التنيسى النصراني»، وريحان بن نشوان المعروف بالعجلاتى[٦٢]، والاسم الاول واضح أنه قبطى يقيم فى الأشمونين. وقد ازدهرت صناعة النسيج بصورة واضحة فى الأشمونين، وأنتجت مصانعها الأهلية الأبسطة والستور والمضارب والمقاطع السلطانية والثياب[٦٣]، بالاضافة إلى غزل الصوف لشهرتها بتربية الأغنام، وقد أشار ابن ظهيرة[٦٤] إلى شهرة الأشمونين فى صناعة المنسوجات الكتانية وجودتها لدرجة أنها كانت تصدر إلى عاصمة الديار المصرية.

ولقد لعب أقباط مدينة تنيس دوراً بارزاً فى صناعة نوع من أستار هوادج الجمال ولبود الخاصة بالخلفاء الفاطميين من نسيج البوقلمون[٦٥].

وبقيت أسرار صناعة النسيج وصناعة الأصباغ ذات الألوان الثابتة فى أيدى الأقباط طوال العصور الإسلامية - حتى العصر الفاطمى[٦٦] - سواء من أعتنق الإسلام منهم أم من ظل على ديانته، وقد شارك بعض الرهبان فى أديرتهم فى هذه الصنعة، وأتقنوا فنها، وفى حالة تصدير هذه المنسوجات جرت العادة أن يكتب عليها نوع كل قماش ليطمئن المستهلك على ما يشترى[٦٧] فمنها الصوف الشفاف والمطارف، والمطرز والمعلم الأبيض، والملون، وأقمشة المساند والمخاد، والبسط والستور، والعصائب والطرح[٦٨].

ويشير العديد من وثائق البردى العربية إلى إزدهار صناعة النسيج بين الأقباط فى مصر بعامة والصعيد بخاصة، منها وثيقة عبارة عن إيصال خاص بنسيج الكتان ورد فيها ما نصه: «ستين حزمة من كتان تدفتها - أى نسجتها»[٦٩] كما وردت صيغة البزاز، أى تاجر الثياب وبائعها وهى فى الواقع غير حرفة الخياط وذلك لأن البزاز إنما يقوم بعمل التاجر الذى يبيع ويشترى الثياب ومتاع البيت بينما الخياط يقوم على حياكة وصنع هذه الثياب ولقد اتضح ذلك من خلال نص إحدى البرديات الموجودة بمتحف اللوفر فى باريس، حيث ورد ذكر كلتا الحرفتين فى سطر واحد «.. البزازين يحبسوا المتاع والخياطين للسوق يسرعوا ولا كنهم يفسدوا المتاع وكنت أوصيت ..[٧٠]»، أما فى أوراق البردى العربية فقد وردت عدة وثائق منها وثيقة عبارة عن أثمان أقمشة مصنوعة عن طريق بزاز، ومباعة فى السوق[٧١].

ومن الجدير بالذكر أن الأقباط اتخذوا لأنفسهم خطاً واحداً فى صناعتهم فكانوا إذا نسجوا شيئاً من المنسوجات كتبوا اسمهم عليه، وهذه كانت عادتهم جيلاً بعد جيل[٧٢].

ومما يدلل على أهمية عنصر الأقباط فى صناعة النسيج ما ذكر فى وثائق البردى العربية والتى كشفت فى منطقة البهنسا بصعيد مصر، وهى وثيقة ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الهجرى / العاشر أو الحادى عشر الميلادى عبارة عن قائمة بعدة أشخاص يملكون أنوالاً يدوية للنسيج، خاصة نسيج الكتان والقطن فى داخل منازلهم ، وعددهم ثلاثة عشر شخصاً يمتلكون ما بين نولاً واحداً وخمسة أنوال(٧٣).

ولأهمية صناعة النسيج فى العصر الفاطمى، فقد فرضت الحكومة سيطرتها على تجارته، فأجبرت الأهالى على تحديد قيمة الأثواب، خاصة ما تنتجه المصانع من الأثواب الأهلية ، فهناك وثيقة من البردى ترجع إلى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى عبارة عن كشف حساب وتسليم أثواب مختلفة ، يحدد فيه عدد الربطات التى تحوى المنسوجات، وتظهر الوثيقة كيفية البيع وتسليم هذه الملابس، وكتبت أثمان الأقمشة على كل ربطة من النسيج بقولها: «أن سلم . . رزقه عددها خمسة عشر ثوب مرتفعة الثمن ستة عشر ثوب مرتفعة الثمن منها ثلث عشر» (٧٤) وهذا يوضح ارتفاع ثمن أسعار الأقمشة فى تلك الفترة، ورغبة التجار فى جمع أكبر قدر ممكن من المال.

وظهرت عدة حرف يدوية متنوعة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بصناعة النسيج منها: حرفة الخياطة، وحياكة الثياب ، فقد وردت هذه الصيغة على عدة شواهد قبور كشفت فى جبانة أسوان، وهى محفوظة فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة عليها صيغة الخياط (٧٥). كذلك ورد لقب الخياط فى العديد من الوثائق البردى التى ترجع إلى العصر الفاطمى مثل وثيقة سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٩م وكشفت فى الأشمونين عبارة عن عقد بيع ورد فيها هذا اللقب بقوله : ينتهى إلى اصطبل المكنا بأبوالسرى الخياط(٧٦).

كما انتشرت صناعة اللبود وصباغة الثياب وتلوينها فى مصر، وذلك نتيجة طبيعية لقيام الأقباط بزراعة مادة النيلة ، التى سهلت عملية الصباغة وتلوين المنسوجات، لاستخراجها من هذا النبات (٧٧) ،وهناك العديد من شواهد القبور تشير إلى حرفة الصباغة بين الأقباط والمسلمين على حد السواء(٧٨).

لم تكن صناعة النسيج هى الحرفة الوحيدة التى برز فيها أقباط مصر، واتقنوا صناعتها، بل تعدى ذلك إلى فن العمارة والبناء ، حيث اشتهروا بكثرة إقامة الأبنية والكنائس ، التى تشهد بقاياها على مهارتهم وعظمة صنعتهم ، ليس ذلك فى العصر الإسلامى فحسب ، بل عملوا فى تلك الحرفة فى العصر الرومانى، فقد شيدوا العديد من الأبنية والكنائس ، وهى تشهد على مهارتهم

فى إسنا وطيبة وسقارة وأسوان والدير الابيض والدير الأخمر (٧٩) ، ولابد أن نشير هنا إلى أن المسلمين استعانوا بمهرة القبط فى تشييد مبانيهم ومساجدهم فى العصور الإسلامية ، وقد ذكر كثير من الأثريين أن العرب تأثروا فى مساجدهم بالأقباط ، كالمحراب فى المسجد فإنه مأخوذ من الحنيه التى توجد فى صدر الكنيسة من جهة الشرق ، والمئذنة المأخوذة فى أبراج الكنيسة ، وهذا يدل على تسامح العرب مع القبط بأن تركوا لهم هذه الصناعة مدة طويلة فى أيديهم (٨٠) ، ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى ما ذكره المقريزى (٨١) إلى أن الخليفة المستنصر الفاطمى ووزيره الأفضل بن أمير الجيوش قد استعانا بقبطى فى الإشراف على بناء سور القاهرة وأبوابه وهو يوحنا الراهب ، الذى قام بعمله على خير وجه.

كذلك برع الأقباط فى الصناعات الخشبية التى ورثوها عن أجدادهم ، فكانوا على دراية كبيرة بفن زخرفة الأخشاب (٨٢).

وإلى جانب سبق الأقباط فى صناعة النسيج ، فقد برعوا فى صناعة السكر والحلوى فى مصر الفاطمية ، وهى الصناعة التى قامت فى أماكن زراعة قصب السكر ، حيث إحتاج هذا المحصول إلى درجة حرارة عالية ، فتمركزت زراعته فى صعيد مصر ، وفى وثيقة من البردى العربية ، كشفت فى الأشمونين ، تعود إلى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى تشير إلى حساب أسبوعى لسكر موزع على عدة أفراد بعضهم من القبط جاء فيها : «سمويل بن حلياس ستة عشر ابلوجة .. وورثه قتوس ثلثة عشر ابلوجة (٨٣)».

كما برع الرهبان فى الأديرة والكنائس فى صناعة السكر، خاصة فى أخميم(٨٤) وقوص وريعة بأسيوط (٨٥) وإسنا ، واستمر الرهبان فى دير السيدة العذراء بأسيوط لا يدفعون خراجاً عن الأراضى التابعة لكنيستهم حتى قيام الدولة الأيوبية على الرغم من أن رهبان هذا الدير كانوا يديرون بساتين من النخيل والزيتون والرمان والخضراوات وقصب السكر بالإضافة إلى طاحونة للغلال ، وعدة أفران ومعصرة للزيت الحار (٨٦) ، وهذا يدل على تسامح الدولة الفاطمية مع الأقباط.

أما عن أشهر مصانع الحلوى والسكر فقد تمركزت فى عدة مدن منها مدينة سمهود بقوص ، أقيم بها سبعة عشر حجراً لعصر القصب (٨٧) ، حيث انفردت مدينة قوص وقفط بمكانة عظيمة بزراعة قصب السكر وصناعته ، فكان ما يقرب من أربعين مسبكاً للسكر معظمها تحت سيطرة الأقباط ، وفى دير أبى مكار كان هناك طواحين ومعاصر للعسل والزيت ، وبها خيرات كثيرة لا تحصى (٨٨). ومن وثائق البردى العربية نستنتج حق امتلاك الأقباط لمعاصر القصب فى

صعيد مصر بالذات ففى وثيقة ترجع إلى سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٦م كشفت فى قرية ببلجسوق فى قرى إقليم الفيوم ، عبارة عن عقد بيع منزل بين عدد من الأقباط تشير حدود المنزل امتلاك بعض الأقباط إلى معصرة قصب سكر فى تلك القرية بقولها: «الحد الثانى هو الحد البحرى للمنزل ينتهى إلى معصرة ورثته أولاد أرون» مما يؤكد الدور الفعال للأقباط فى القرى وامتلاكهم معاصر للقصب واستخراج العسل فيها»[٨٩].

هذا إلى جانب انتشار الإتجار فى عسل السكر إلى العاصمة ، فتشير وثيقة من البردى عبارة عن خطاب خاص بشحن سفينة من الصعيد بمدينة إدفو إلى تاجر عسل بالعاصمة ، بقوله : «فأنظر إيدك الله أن تأمر بمن يحمل إلى مركبة مائة جره وسبع عشرة جره عسل» [٩٠] ويشير المقريزى[٩١] إلى أهمية صناعة الحلوى فى صعيد مصر بقوله :«وأغذية أهل مصر مختلفة فأهل الصعيد يتغذون كثيراً بتمر النخل والحلاوة المعمولة من قصب السكر ، ويحملونها إلى العاصمة وغيرها ، فتباع هناك وتؤكل».

رابعا : النصارى والتجارة الداخلية فى المدن والقرى المصرية :

شارك الأقباط فى تسيير حركة التبادل التجارى داخل مصر فى العصر الفاطمى جنباً إلى جنب مع المسلمين، فقد كانت التجارة هى عصب الاقتصاد القومى، لما تطلبه المحاصيل الزراعية والحرف والصناعات لتصريف فائض انتاجها فى الأسواق ، وهناك عدة وثائق من البردى العربى تشير إلى أسماء أقباط فى متنها، فتشير إحدى الوثائق إلى تجارة الخشب بقولها : «وصل بقية الخشب الذى بالأقصر، وهو ستة وعشرين قطعة ، وقد حملتها على معدية عيسى بن تنوس [٩٢]»، والاسم المذكور يدل دلالة قاطعة على أنه من الأقباط، ولابد هنا أن نشير إلى أن الدولة الفاطمية قد فرضت على نوع معين من الأخشاب نظام الاحتكار فلا يستطيع التجار العاديين البيع أو الشراء فى هذا النوع وهو السنط فقد فرضت الدولة عليه رعايتها ، نظراً لأهميته فى صناعة السفن، ولكن على الرغم من ذلك فإن بعض أنواع الاخشاب يسمح بالاتجار بها، ويحق للتجار نقلها عن طريق المراكب والمعديات التى يمتلك أكثرها الأقباط ففى وثيقة من البردى العربى ، ترجع إلى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى تشير بقولها :«كتابى يا سيدى ... وكتبت إلى أن أمضى مع أبى بقوله النجار أن أمضى معه حتى أصلح الخشب [٩٣]».

ولم تقتصر تجارة الأخشاب على النقل بالسفن، بل تعداه إلى تجارة الحطب نفسه ، وعملية نقله من مكان إلى آخر وتحديد سعره ، ففى وثيقة ترجع

إلى سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م وهى عبارة عن خطاب خاص لدفع أموال يقول فيه : «.....لشيخى العزيز اسحق النوبى من محبة مينا بن شنوده ... ما بينى وبينك عن الحطب .. بالعشرة دنانير على أنك تقوم بها - وتسلمها- أخى بقام بن رهه... » تسلم له العشرة دنانير ويكون دنانير حاكمية كلها» ومن ذلك يتضح التبادل التجارى فى الحطب بين بعض الأسماء القبطية والمسلمين ، كما نلاحظ تحديد نوع الدينار بالدنانير الحاكمية التى ضربت فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وهى من الدنانير الذهبية (٩٤).

ومن الطبيعى أن تقام الأسواق فى المدن والقرى ، ومن المشهود له أن مدن مصر غنية بأسواقها ، حيث امتدت دكاكينها على طول الشوارع على الجانبين ، وقد اتسعت شهرة بعض تلك الأسواق كأسواق القاهرة والفسطاط، فقد قدر عدد أسواقها بحوإلى مائتى سوق (٩٥) كذلك اشتهرت أسواق أخميم التى اختصت ببيع منتجات معينة كالأقمشة الصوفية والكتانية والفواكه المختلفة والحبوب (٩٦) ، ولاتساع شهرة أسواق أخميم كان التجار يأتون إليها من خارج المدينة، فانتشرت بها العديد من القياسر والفنادق والخانات لإقامة التجار الأجانب فيها (٩٧).

ولتأكيد تمركز النصارى فى مدينة أخميم ، فقد جرت العادة فى أعيادهم أن يخرج أقباطها من كنيستى سوتير- أى المخلص من العذاب- وكنيسة مارى ميخائيل مع الأناجيل والشموع العظيمة فى شوارع أخميم ويقفون على باب قاضى المدينة - احتراما وتبجيلاً - وعلى أبواب كبار رجالات الحكم من المسلمين وأعيان المدينة يقرءون بعض فصول من أناجيلهم فى فرح وابتهاج(٩٨).

هذا إلى جانب تمركز النشاط التجارى فى المدن بالأسواق ، كان لكل طائفة من التجار بالفسطاط قسم معين يجلسون فيه ، ويستمر البيع فى هذه الأسواق إلى ما بعد الظهر ، ثم يتناول التجار غذائهم ولا يذهبون إلى بيوتهم إلا فى المساء (٩٩).

وقد وردت صيغة تجار الفسطاط فى وثيقة من البردى المحفوظة فى متحف اللوفر فى باريس بفرنسا، وهى تحدد جهة عمل هؤلاء التجار، ولم تحدد البردية نوع التجارة التى يمارسونها، وهى بردية غير مؤرخة عثر عليها فى مدينة الفيوم بمصر، تشير إلى تعبير تجار الفسطاط بقولها :«فأما التجار الذى كتب عليهم تجار الفسطاط بالجزية فانظر فى الكتب ... »(١٠٠).

وقد أشار الرحالة ناصر خسرو (١٠١) إلى عظمة واتساع أسواق الفسطاط،

وتعدد أنواع الفواكه والخضراوات بها ، كما استخدم تجارها نهر النيل فى نقل بضائعهم وربط أسواقها بمختلف أسواق المدن الكبرى فى شمال مصر وجنوبها، وتشير وثيقة من البردى كشفت بمدينة أدفو بأسوان - إلى شحن سفينة بكميات من العسل إلى الفسطاط ، لتوزع فى أسواقها وتباع ، بقولها: «انظر أعزك الله أن تأمر من يحمل إلى - الفسطاط- مائة جره وسبع عشر ة جره (١٠٢)».

ويشير الأدريسى (١٠٣) إلى استخدام تجار بلاد النوبة لنهر النيل ، فى نقل سلعهم حتى منطقة الجنادل، ومن ثم تنقل البضائع على ظهور الجمال حتى مدينة أسوان ، وتقدر هذه المسافة بالطريق البرى بحوإلى اثنى عشر مرحلة، ثم تنقل هذه البضائع مرة ثانية على ظهر السفن بالنيل حتى تصل إلى الفسطاط .

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى كثرة أسواق القاهرة ، والتى عددها المقريزى(١٠٤) فى مؤلفه وأشهرها سوق أمير الجيوش بدر الجمإلى ، وسوق العطارين وسوق البزازين وسوق الحريرين وغيرها من الأسواق ، التى كان يتم التبادل التجارى بها عن طريق إقامة الكثير من الدكاكين والمحال التجارية حتى قدر عددها بأكثر من عشرين ألف دكان ، والتى فرضت الخلافة الفاطمية عليها أحكام الحسبة، وتعتبر الدكاكين ملكاً خاصاً للدولة تقوم بتأجيرها للتجار فى نظير مبلغ معلوم يدفع كل شهر، ويقدر ما بين دينارين وعشرة دنانير (١٠٥).

ولم تقتصر الأسواق على المدن البارزة فى مصر الفاطمية والعواصم فقط، بل نجد أن هناك العديد من الأسواق فى صعيد مصر ، فهناك أسواق منيه بن خصيب التى امتازت بوقوعها على نهر النيل مما ساعد على ازياد نشاطها التجارى خاصة أن السفن النيلية المقلة للحجاج والمسافرين من القاهرة إلى قوص يمرون بها فإخميم بها العديد من الفنادق والخانات لإقامة التجار بها. وبالتإلى ازدهرت التجارة الداخلية وعمرت الأسواق بها(١٠٦).

كما زخر إقليم البهنسا بصعيد مصر بالعديد من الأسواق ، وارتفعت مكانه أسواقه لوقوعه على طريق الواحات، فعمرت التجارة وكثرت المنتجات، وتخصصت بعض الأسواق بسلع معينة مثل التمر والزبيب والفواكه (١٠٧).

أما عن أشهر التجار الأقباط بمصر الفاطمية ، فإننا نجد فى عهد المعز لدين الله التاجر إبراهيم بن زرعة ، الذى اشتهر بسعة ثروته وكثرت تجارته، وعظيم إحسانه وصدقاته (١٠٨) كذلك التاجر إبراهيم بن بشر من تجار

الإسكندرية، الذى ذاع صيته فى عهد الحاكم بأمر الله ووصلت مكانته إلى درجة عالية فى البلاط الحكومى، نتيجة لكثرة هداياه ولعظم بضاعته من الجواهر وغيرها والتى كان يبيعها لرجالات الدولة (١٠٩).

ولا يفوتنا أن نشير فى حديثنا هذا عن تمتع الأسواق والتجار الأقباط بالأمان والأمن، نتيجة ما نشرته الحكومة الفاطمية من تسامح مع الأقباط والطمأنينة فى نفوس التجار، لدرجة أنهم فى بعض الأسواق كسوق البزازين بالفسطاط كان تجار الحلى والصاغة لا يغلقون أبواب دكاكينهم فى أثناء غيابهم ومغادرتهم السوق، بل كانوا يسدلون عليها الستائر ولا تمتد يد اللصوص إلى تلك الاشياء الثمينة (١١٠).

خامسا: النصارى وحقهم فى بيع وشراء العقارات:

وإذا نظرنا إلى وثائق البردى العربية بعين متفحصة، فإننا نجد أن التجارة الداخلية لم تكن قاصرة على التبادل التجارى فى الأسواق فقط، بل نجد أن هناك بيعاً وشراء للعديد من العقارات والأراضى الزراعية بين الأقباط أنفسهم أو بينهم وبين المسلمين فعلى سبيل المثال هناك وثيقة ترجع إلى شهر رجب سنة ٤٠٦ هـ/١٠١٦م عبارة عن عقد بيع منزل، كشف فى مدينة الفيوم، جاء فيه «.... هذا ما اشتراه متوس بن ثيدر الأجير وزوجته سرنه ابنت سلة بن هرمينه من بلهيو ابنت فوريل ومن والدتها قرهبوه ابنت قرى وهما جميعاً من أهل الضيعة المعروفة ببلجسوق قرية من قرا كورة الفيوم اشتروا ... جميع المنزل الذى هو ملكها إرثا عن والدها قوريل وعمها ببنوده الشماسى(١١١)». ومن هذه البردية يتضح أن الاسماء قبطية سواء الشارين أم البائعين بالاضافة إلى أن المنزل كان ورثاً من أحد الشمامسة.

كما تمدنا الوثيقة نفسها عن قيمة العملة المتداولة فى هذا العقد بقولها «... بثمن مبلغه من العين الوازن خمس دنانير عينا ذهباً وازنه جيادا..»(١١٢) مما يوضح أن قيمة العملة كانت من الدنانير الذهبية الخالصة ليس بها غش أو تدليس.

وفى وثيقة أخرى من أوراق البردى العربية عبارة عن عقد بيع منزل آخر ترجع إلى سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٣م كشف فى مدينة الفيوم بقرية منهرى- وهى من القرى التى تمركز فيها النصارى حتى يومنا الحالى - تشير هذه الوثيقة إلى أن التبادل التجارى والبيع والشراء لهذا المنزل كان بين أشخاص من القبط، وأنه تم فى العصر الفاطمى ويثبت ذلك تحديد الوثيقة بعام ٤٢٣ هـ/١٠٣٣م كما

تشير إلى أن الشهود على هذا العقد كانوا من المسلمين الذين كتبوا العقد بايديهم ، بقولها : « هذا ما أشترى اسحق بن انبيله من ابنت اخته دليمه ابنت يعوق المنهراوى ... اشترى بنصف دينار وثمن دينار ... شهد فضل بن فرج بجميع ما فى هذا الكتاب وكتب بيده ، شهد مسلم بن إسماعيل على إقرار صح المقر بما فيه وكتب بيده فى تاريخه (١١٣)».

ولم يقتصر بيع المنازل بين الأقباط فى قرى أقليم الفيوم ، بل كان شاملاً العديد من المدن والقرى فى الديار المصرية فى العصر الفاطمى، ودليلنا على ذلك الوثيقة التى كشفت فى مدينة الأشمونين بمصر الوسطى والتى ترجع إلى سنة ٤٤١ هـ /١٠٥١م والتى تدل أسماء المشترين والبائعين على أنهم من الأقباط فى الأشمونين ومقيمين بها بقولها : « هذا ما أشترى المكنا بأبو العلا القزازا بن مينا السقا الساكن مدينة الأشمونين من قلته بن كيل بن جريج النصرانى القزاز الساكن بهذه المدينة المذكورة .. وفى الجانب البحرى منها على الكوم المطل على الكنيسة المعروف بالبرتانس... مبلغه أربعة دنانير وازنه مستنصرية وخمسة رباعيات وازنه معزية .. (١١٤)».

وهذه الوثيقة توضح لنا إلى جانب كون الشارى والبائع من القبط ، فإن تعاملهما بالدنانير الذهبية التى ضربت فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وأن التداول بالدينار المعزى الذى ضرب في عهد الخليفة الفاطمى الأول المعز لدين الله الفاطمى كان مازال التعامل به حتى ذلك التاريخ ، وربما اشتد الطلب على بقايا هذه الدنانير بعد الشدة العظمى فى عهد المستنصر بالله الفاطمى.

ولم تتوقف عملية بيع وشراء هذا المنزل عند هذا الحد ففى وثيقة أخرى ذكرت بعام ٤٤٢ هـ /١٠٥٢م أى بعد عام واحد من اتمام عقد الشراء السابق قام المالك الجديد وهو أبو العلا القزاز بن مينا السقا ببيع هذا المنزل إلى أحد الأقباط وهو اسطوروس التنيسى بين بيسه الساكن مدينة الاشمونين بمبلغ أقل مما اشترى « ... دفع المشترى اسطوروس ... إلى البايع المكنا بأبو العلا القزاز بن مينا السقا جميع الثمن ومبلغه أربعة دنانير وازنة مستنصرية (١١٥)».

وهذا يؤكد أن عمليات البيع والشراء تأثرت بصورة كبيرة فى عهد المستنصر بالله الفاطمى ، وأن القيمة الشرائية قلت فى تلك الفترة ، مع اختفاء الدينار المعزى من الوثيقة.

وإذا دققنا النظر فى أوراق البردى العربية فإننا نرى أن بيع وشراء العقارات لم يكن قاصراً على النصارى فقط ، بل هناك حركة تبادل فى البيع بين المسلمين أو بين المسلمين والأقباط فى العصر الفاطمى، ففى بردية تعود إلى شوال سنة ٤٤٦ هـ /١٠٥٦م عبارة عن عقد بيع بين أبو اليسر بن شبيب عاله لنفسه من خليفة بن يمن المقدامى اشترى منه جميع ما ذكر أنه له من والدته فطيمة ابنه بلقاش (١١٦)».

وإذا دققنا النظر فى وثائق البردى العربية فإننا نرى إلى جانب عملية تيسير البيع والشراء هناك نظام السمسرة، الذى يحدد أى الطرفين يتحمل قيمة السمسرة ففى وثيقة من العصر الفاطمى ترجع إلى سنة ٤٥٩ هـ / ١٠٦٩ م عبارة عن عقد بيع منزل بين سارة ابنت قلته القزاز الساكنة مدينة الأشمونين ورد فى الوثيقة بقولها: « ... بذلك وقعت الشهادة وعلى هذا المشترية سمسرة هذا النصف من جميع المنزل فهو حق السوق دون البايعين لها (١١٧)».

الهـوامش

١- ساويرس بن المقفع: سيرة الآباء والبطاركة، حـ٢، صـ ٨٨، مخطوط رقم ٦٤٣٤ بدار الكتب المصرية ٤ أجزاء.

٢- أبو صالح الأرمنى: تاريخ أبو صالح الأرمنى، المعروف بتاريخ كنائس وأديرة مصر، صـ ٤٥، طبعة أوكسفورد سنة ١٨٩٣م ؛ وقد وردت صيغة «حراس القبط» ضمن البرديات العربية المحفوظة فى مكتبة المعهد الشرقى فى براغ بجمهورية التشيك ، وهى بردية تنسب للقرنين ٢- ٣هـ/ ٨-٩م، ولفظة حراس القبط تعنى الحراس الأقباط وبالبردية ثبت يشير إلى أجور الحراس الأقباط، «بقية أجرى بلقورة ...» هذا بالإضافة لوجود العديد من أسماء القبط مثل مونه، وبهيوه، وبقام وغيرهم (سعيد مغاورى: الألقاب وأسماء الحرف والوظائف فى ضوء البرديات العربية ، ج١ ، ص ٣٣٧، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) .

٣- ابن الراهب: تاريخ ابن الراهب، صـ ١٣٣، نشر لويس شيخو ، طبعة بيروت عام ١٩٠٣م.

٤- ترتون: أهل الذمة فى الإسلام، ص، ٩٣، ترجمة حسن حبشى، طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٧م.

٥- ترتون: نفس المرجع السابق صـ ٨٣.

٦- أبو صالح الأرمنى: تاريخ أبو صالح ، صـ ٣٥.

٧- الروزاورى: ذيل تجارب الأمم، حـ٣، صـ ١٨٦؛ يحتوى على حوادث خمسة وعشرون سنة من ٣٦٩هـ إلى ٣٩٣هـ، طبعة القاهرة سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م ؛ كذلك لم يتدخل العزيز بالله فى اختيار رؤسائهم، فعندما توفى البطريرك أوفانيوس اجتمع البطاركة لاختيار خليفة له وهو البطريرك إبراهام دون تدخل من العزيز وذلك سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، ثم أقام اليعاقبة خلفاً له البطريرك فيلايلوس سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٦م لمدة أربعة وعشرون سنة دون تدخل من العزيز (المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، جـ ٤، صـ ٣٩٨ ، طبعة النيل سنة ١٣٢٤هـ).

٨- يحيى بن سعيد الأنطاكى: صلة تاريخ أوتيخا المعروف بالتاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جـ ٢، صـ ١٦٤: ١٦٥، ترجمة كراتشكوفيسكى وفاسيليف، باريس سنة ١٩٣٤.

٩- ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ ١، صـ ٤٦: ٤٧، الطبعة الأولى، بولاق سنة ١٣١١هـ.

١٠- عيد دير الطير: سمى بذلك لما قيل أن الطير المعروف ببوقير يأتى إلى الدير من كل مكان، ويدخلون رؤوسهم فى شق من الجبل الواحد تلو الآخر، وهم يصيحون إلى أن يعلق رأس أحد هذه الطيور فيضطرب حتى يموت، ومن ثم يرجع باقى الطير عن هذا الموضع. (الشابستى: الديرات، صـ ٢٠١- ٢٠٢، تحقيق كوركيس عواد، الطبعة الثانية، طبعة المعارف ببغداد، سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).

١١- يشير المقريزى إلى أن الحاكم بأمر الله تشدد مع أقباط مصر وأمرهم بهدم بعض الكنائس وأباح ما فيها من أثاث وبنى فى مواضيعها المساجد، وقد أكد كلامه بأن أصدر كتبه إلى ولاة الأعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والأديرة فعم الهدم سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣ م، (الخطط، جـ١، صـ ١٨٤)، كذلك أمر الحاكم بأمر الله بمنع الاحتفال بعيد الزيتون، لما كان يحدث فيه من اللهو حيث أمر بألا يحمل ورقة من ورق الزيتون، ولا من سعف النخيل فى كنيسة من الكنائس ولا يرى شيئا من ذلك فى يد مسلم أو قبطى (آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ ٢، صـ ٢٨٥، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، طبعة دار الكتب العربية بيروت، لبنان).

١٢- فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى ، جـ ١، صـ ١٨٤، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م.

١٣- وللحقيقة التاريخية فإن عيسى بن نسطورس كان وزيراً فى الدولة منذ عهد العزيز بالله حيث استبد بشئون الحكم دون المسلمين لدرجة أن ارتفعت الشكوى منه للخليفة العزيز فأمر بالقبض عليه لولا تدخل ست الملك وشفاعتها عنه وتقديمه مبلغ ثلثمائة ألف دينار لخزينة الدولة (الروزاوزى: ذيل تجارب الأمم، جـ ٣، أحداث سنة ٣٨٠هـ، صـ ١٨٧، المقريزى: الخطط، جـ٤، صـ ٣٩٩).

١٤- تاريخ ابن الراهب، صـ٨٢: ٨٣، لقد وصل اضطهاد القبط مداه فى الدولة العباسية فى عهد الخليفة المتوكل على الله، سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م عندما أمرهم بلبس الطيالسة عسيلة اللون، ووضع إشارة الصليب على صدورهم وغيرها من الشروط (ابن زين القاضى : شروط النصارى ، مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٥٢ تاريخ ورقة رقم ١٢؛ ترتون: أهل الذمة فى الاسلام، صـ ١٣١.

١٥- Sterm: Fatimid decrees, P. 160, driginal, Documents from the Fatimid chamcey, P. 160. (London, 1937).

١٦- قد جرت العادة فى نظام القبالة فى العصر الفاطمى أن يحسب لكل متقبل المبالغ التى ينفقها على عمارة الجسور وشق الترع وحفر الخلجان وأن يتأخر من مبلغ الخراج فى كل سنة من جهات المتقبلين، ويقال لما تأخر من مال الخراج البواقى، (المقريزى: الخطط، جـ ١، صـ ١٣١).

١٧- المقريزى: نفس المصدر السابق والجزء، صـ ١٣٤.

١٨- سعيد مغاورى: الألقاب ، جـ ١، صـ ١١٨.

١٩- سعيد مغاورى، نفس المرجع السابق، والجزء، صـ ٤٩٧.

٢٠- المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ص ٧٠ ، نشره وحققه جمال الدين الشيال ، طبعة دار الفكر العربى سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.

٢١- جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ ١، صـ ١٥٣، ستة أجزاء، ترجمة حسن إبراهيم حسن، وراجع الترجمة عبد الحميد حسن، طبعة دار الكتب المصرية.

٢٢- جروهمان: نفس المرجع السابق، والجزء والصفحة.

٢٣- أبو صالح الأرمنى: تاريخ أبو صالح، صـ ١١٠.

٢٤- Sterm: Fatimid Decrees Driginal, Documents from the Fatimid chemcey, P. 17.

٢٥ - مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، جـ ١، صـ ٣٨٤، تحقيق أحمد زكى، طبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٩٢٤م.

٢٦- العمرى: نفس المصدر السابق، والجزء ، صـ ٣٧٤.

٢٧- ساويرس بن المقفع : سيرة الآباء البطاركة، جـ ٢، صـ ١٠٤.

٢٨- نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

٢٩- اعتمد المصريون فى رى أراضيهم على مياه النيل أما بالنسبة للأديرة فقد اعتمدوا فى رى أراضيهم على السواقى والدواليب ومياه الآبار والعيون التى ترفع مياهه بواسطة الأبقار (أبو صالح الأرمنى: تاريخ أبو صالح، صـ ٩٨) .

٣٠- أبو صالح الأرمنى: المصدر السابق، صـ ١٣١ ، وقد استعان العزيز بالله بكثير من الأطباء من الأقباط ورفع من مكانتهم من أمثال الطبيب القبطى منصور بن مقشر المعروف بأبى الفتح المصرى (ابن القفطى: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، صـ ٢١٩، طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٢٦هـ).

٣١- المقريزى الخطط، جـ ١، صـ ١٣١.

٣٢- جروهمان: أوراق البردى العربية ، جـ٢، صـ ٥٤.

٣٣- سعيد مغاورى : الألقاب ، جـ١ ، ص ٣٠٥ .

٣٤- سعيد مغاورى : نفس المرجع والجزء ، ص ٣١٤.
٣٥- جروهمان: أوراق البردى العربية ، جـ٣، صـ ١٣٩: ١٤٠.
٣٦- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء، صـ ١٤٦.
٣٧- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء ، صـ ١٥٤.
٣٨- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء، صـ ١٦٣.
٣٩- سفرنامه ، صـ ٦٢؛ تحقيق يحيى الخشاب، الطبعة الأولى، القاهرة سنة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م.
٤٠- جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ ٣، صـ ١٥٩.
٤١- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء ، صـ ٢٢٩، ٢٣٠.
٤٢- تاريخ أبو صالح ، ص ٥٥ .
٤٣- جروهمان: أوراق البردى العربية ، جـ٢، صـ ٥٦: ٥٧.
٤٤- جروهمان: نفس المرجع السابق ، جـ٦، صـ ٦١: ٦٢.
٤٥- ابن مماتى: قوانين الدواوين، صـ ٣٥٨.
٤٦- المقريزى: الخطط، جـ١، صـ ٩٨.
٤٧- جروهمان: أوراق البردى، جـ ٥، صـ ١٥.
٤٨- جروهمان: نفس المرجع السابق ، جـ٢، صـ ١٢٨.
٤٩- جروهمان: نفس المرجع، والجزء، صـ ١٣٢، ١٣٨، ١٣٩.
٥٠- أبو صالح الأرمنى: تاريخ أبو صالح، صـ ٣١.
٥١- أبو صالح الأرمنى: نفس المصدر السابق، صـ ١١١.
٥٢- المقريزى: الخطط، جـ١، صـ ٣٠٦. أسوان بالضم ثم السكون وواو، والف ونون، وهى مدينة كبيرة، وكورة فى آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة على النيل فى شرقه (ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، صـ ١٩٤).
٥٣- المقريزى: نفس المصدر السابق والجزء، صـ ٣٨٢، قوص: فى صعيد مصر وهى من الولايات الهامة فى العصر الفاطمى.
٥٤- أبو صالح الأرمنى: تاريخ أبو صالح، صـ ١١٧، أخميم بالكسر، والسكون، بلدة بالصعيد على شاطىء النيل (ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١، صـ ١٢٣).
٥٥- الشابستى: الديارات، صـ ٢٩٨، طموية قرية على بعد خمسة أميال نازله من النيل عند حلوان، وتعتبر من المتنزهات المشهورة (الشابستى: نفس المصدر والصفحة).
٥٦- العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، جـ ١، صـ ٣٨٤.
٥٧- تنيس : بكسرتين وتشديد النون جزيرة فى مصر قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، فيها تعمل الثياب الملونة والفرش البوقلمون (ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ٢، صـ ٥١) ؛

Becker: Encyclopedia of Islam, vol. II, P.5 (Leyden, 1927) .

٥٨ - محمد عبد العزيز مرزوق: الزخرفة المنسوخة فى الأقمشة الفاطمية، صـ ٨٣، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٢م.
٥٩- سعاد ماهر: محافظات الـ ج.م.ع، صـ ٣٨، إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، الكتاب الرابع ١٩٦٦م، الطراز كلمة فارسية بمعنى ترازيدن، وطراز بمعنى التطريز، وعمل المدبخ Brodeiere وكان يطلق فى العصر الفاطمى على ملابس الخليفة والأمراء، ولاسيما إذا كان بها شيء من أشرطة الكتان (زكى محمد حسن: الفن الإسلامى فى مصر، جـ ١، صـ٨٤، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٥م) وكان بأخميم ديوان للطراز التى يشرف علي منسوجات العامة إلى

جانب منسوجات الخليفة، ويحفظ السجلات الخاصة بتلك الملابس (القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، جـ ٣، صـ ٤٩٤، طبعة القاهرة ، ١٣٢٣هـ/ ١٩١٤م) .

٦٠- جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، صـ ٢٠٣ .

٦١- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء، صـ ١٩٥، ٢٠٣.

٦٢- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء، صـ ٢١٥.

٦٣- المقريزى: الخطط ، جـ ١، صـ ٢٣٧.

٦٤- الفضائل الباهرة فى محاسن مصر القاهرة ، صـ ٦١ ، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، القاهرة ، ١٩٦٩م.

٦٥- ناصر خسرو: سفر نامه ، صـ ٤٠؛ وانتشر البوقلمون فى العصر الفاطمى، وهو عبارة عن قماش متعدد الألوان متقلب حسب ساعات النهار، ولا يصنع إلا فى مدينة تنيس فقط. (ناصر خسرو: نفس المصدر السابق، صـ ٣٨).

٦٦- وفى العصر الفاطمى شارك المسلمون الأقباط فى صناعة النسيج وفرضت الدولة على المصانع الأهلية الضرائب كما أعتنى بزخرفة النسيج على شكل الموضوعات الهندسية والنباتات.

٦٧- محمد عبد العزيز مرزوق: الزخرفة المنسوجة، صـ ٣٧.

٦٨- ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، صـ ٦٣ .

٦٩- جروهمان: أوراق البردى العربية ، جـ ٢، صـ ١٤٧.

٧٠- سعيد مغاورى: الألقاب، جـ ١، صـ ٢٢٨.

٧١- جروهمان: أوراق البردى العربية ، جـ٦، صـ ٨٥.

٧٢- المقريزى: الخطط، جـ١، صـ ٢٣٧.

٧٣- جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ ٦، صـ ٧١.

٧٤- جروهمان: نفس المرجع السابق والجزء، صـ ٧٨.

٧٥- حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، جـ٢، صـ ٥٥٦ وغيرها من الصفحات ، طبعة دار النهضة العربية، ١٩٦٦م.

٧٦- جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١ ، صـ ٢٢١ ؛

Weit: Steles Fumeraire Catalogas du Musses Arabe, Tom, 7, P. 101(Paris1937) .

٧٧ - ابن مماتى: قوانين الدواوين ، صـ ٢٥٤، الطبعة الأولى تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣م ؛ ونبات النيلة يحصد مرة كل مائة يوم من زراعته، ويمكث فى الأرض ثلاث أعوام (ابن مماتى: نفس المصدر السابق والصفحة)، وتقدر الدولة ضريبة الخراج على الفدان المنزرع نيله ثلاثة دنانير فى السنة (القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٣، صـ ٤٥٣).

٧٨- حسن الباشا: الفنون الاسلامية والوظائف، جـ٢، صـ ٧٠٣، ٧٠٤ ؛

Weit: Steles, T7, P.87.

٧٩ - زكى محمد حسن: بعض التأثيرات القبطية، صـ ٧، ٨.

٨٠- زكى محمد حسن، نفس المرجع السابق، صـ ٨.

٨١- الخطط، جـ١، صـ ١٦٢.

٨٢- زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر، جـ١، صـ ٩٢.

٨٣- جروهمان: أوراق البردى، جـ ٦، صـ ٣٨٤.

٨٤- المقريزى: الخطط، جـ٤، صـ ٤١٧، ١٢٧.

٨٥- ابن فضل الله العمرى: مسالك الامصار، صـ ٣٨٤.

٨٦- أبو صالح الأرمنى: تاريخ أبو صالح، صـ ١٥٩.
٨٧- ابن مماتى: قوانين الدواوين، صـ ١٥٩.
٨٨- ساويرس بن المقفع: سير الآباء البطارقة، جـ٢، ورقة ١٠٤.
٨٩- جروهمان: أوراق البردى العربية، جـ١، صـ ١٦٧.
٩٠- جروهمان: نفس المرجع السابق، جـ٥، صـ ١٣٦.
٩١- الخطط ، جـ ١، صـ ٧١.
٩٢- جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ٥ ، ص ٥٩
٩٣- جروهمان : نفس المرجع المرجع السابق والجزء ، ص ٤٥ .
٩٤- جروهمان : نفس المرجع المرجع السابق والجزء ، ص ١٢٩ : ١٣٥.
٩٥- ناصر خسرو : سفرنامه ، ص ٦٣ .
٩٦- الأدريسى : نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان ، ص ٤٨ ، نسخة خطية غير مرقمة، بمكتبة رفاعة رافع الطهطاوى ، بمجلس مدينة سوهاج ، رقم ١٦ جغرافيا.
٩٧- ابن دقماق : الإنتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ ٥ ، ص ٢٥ ، الطبعة الأولى ، طبعة بولاق سنة ١٣١٠ هـ ؛ القياسر : عبارة عن منشأت اعدت للتجار ، وبها حوانيت ومخازن .
٩٨- المقريزى : الخطط ، جـ ٤ ، ص ٤٣٤ ؛ فقد جرت عادة الأقباط أن يحملوا أغصان الزيتون وقلوب سعف النخيل والصلبان وتزيين كنائسهم بالشموع ومنازلهم بسعف النخيل (القلقشندى: صبح الاعشى ، جـ٢ ، ص ٤١٥) .
٩٩- آدم متز : الحضارة الاسلامية ، جـ٢ ، ص ٣٨٥ .
١٠٠- سعيد مغاورى: الألقاب ، جـ١ ، ص ٢٧٣.
١٠١- سفر نامه : ص ٦٠ .
١٠٢- جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ ٥ ، ص ٣٦، .
١٠٣- نزهة المشتاق ، جـ ٢١ .
١٠٤- الخطط ، جـ١ ، ص ٣٧٥ وغيرها من الصفحات .
١٠٥- ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ٤٨ .
١٠٦- ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، جـ٥ ، ص ٢١ ، ٢٢ .
١٠٧- سعاد ماهر : محافظات : الج . ع. م. ، ص ٥٩ .
١٠٨- ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، جـ٢ ، ص ٩١ .
١٠٩- ساويريس بن المقفع: نفس المصدر السابق والجزء ، ص ١١٦؛ الإسكندرية : بناها الأسكندر بن فيلغوس الرومى المعروف بالأسكندر الأكبر وهى على البحر الأبيض المتوسط ، وبها منارة الاسكندرية (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ١ ، ص ١٨٣ : ١٨٥) .
١١٠- ناصر خسرو : سفر نامه ، ص ٦٤ .
١١١- جروهمان : أوراق البردى العربية ، جـ١ ، ص ١٦٦، ١٦٧.
١١٢- جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٦٧ .
١١٣- جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
١١٤- جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .
١١٥- جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٢٠٤ .
١١٦- جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٢٣٣ .
١١٧- جروهمان : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

د/ إبراهيم علي السيد القلا (*)

بنو الجراح في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين

مقدمة

شهدت الفترة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين فوضى سياسية غلبت على المسلمين وفرقت جهودهم، وأضاعت وحدتهم وسط خضم من الأهواء الذاتية والمطامع الفردية، الأمر الذي دفعني إلى الاهتمام بطيئ إحدى بطون القبائل العربية في هذا الموكب الانفصالي، لذا عكفت على دراستها وإلقاء الضوء عليها لإبراز معالم الجبهة الإسلامية، فيتضح من خلال الأحداث ما شهدته المنطقة من فوضى واضمحلال.

واختيار دراسة بني الجراح في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين يوضح مدى تفضيل الأهداف والمكاسب الشخصية دون مراعاة لمصالح الأمة عامة، حيث استغل عرب طيئ في فلسطين فترات الفوضى التي ألمت بالدولتين العباسية والفاطمية - ورفعوا راية العصيان، فكانت فلسطين مسرحًا لفتنة كبرى في فترات عديدة بسبب أعمالهم.

وتهدف الدراسة إلى توضيح الفرصة التي أتيحت أمام بعض القبائل العربية لإقامة مناطق نفوذ وإمارات لهم، والمشاركة مع أمراء العرب المحليين في الصراع السياسي في بلاد الشام، مما ساعد على خلق موقف سياسي معقد ومتشابك في بلاد الشام.

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية – قسم التاريخ والآثار – كلية الآداب – بقنا

ومما يحبذ دراسة بني الجراح هو موقفهم من القوى المتصارعة في المنطقة ومدى تأثيرهم في حسم النزاع بين الطرفين ودورهم المؤثر في ذلك، فقد مالوا إلى السلب والنهب وجمع الأموال، ولذا كان من الصعب عليهم الانضواء تحت راية السلطة الحاكمة، وفى حالة نشوب أي نزاع بين قوتين كانوا يسيرون مع من يدفع لهم أوفر، ويشبع مطالبهم.

وستوضح الدراسة أنهم كثيرًا ما تسببوا في هزيمة الجيش الذي يتخلون عنه، وفشل الحركات التي يتركونها بعد مناصرتها.

ويتضمن البحث نسب بنى الجراح، ومناطق نفوذهم، والبدايات الأولى لظهورهم على المسرح السياسي في الدولة الإسلامية، ثم ظهورهم في شكل كيان سياسي معترف به من قبل القوى الإسلامية الحاكمة في مصر والشام، وكذلك الدولة البيزنطية ثم يتناول البحث علاقات بنى الجراح بجيرانهم، من خلال مشاركتهم بنصيب وافر في الأحداث التي ألمت ببلاد الشام خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، فكانت العلاقات على درجات متفاوتة، ففي حين كانت هذه العلاقات جيدة مع حلفائهم وجيرانهم من بنى مرداس في حلب وغيرهم من القبائل العربية ، وأيضا مع أمير مكة في الحجاز، والبيزنطيين، كانت علاقتهم الودية أيضا مع القرامطة، حيث انضموا إلى جانبهم في حركتهم، ثم تخلوا عنهم.

وكانت العلاقات مع الفاطميين غير مستقرة تبعا لموقف الخلفاء الفاطميين من بنى الجراح، وتبين الدراسة الدور المؤثر لبنى الجراح في مجريات الأحداث، فقد تحالفوا مع القرامطة ليس حبا في مذهبهم ولكن نكاية في الفاطميين وكانوا سببا في نجاح حركتهم، ولما خذلوهم وتخلوا عنهم كان ذلك سببا في هزيمتهم والقضاء على خطرهم أيضًا ساندوا أمير مكة وأعانوه على الخروج على الخلافة الفاطمية وإعلان نفسه خليفة. وبفضلهم تمكن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله من القضاء على حركة أبى ركوة التي سببت له الكثير من الاضطرابات في مصر وغيرها.

وقد تحالف بنو الجراح مع بنى مرداس الكلابيين، والقبائل العربية الأخرى من بنى كلب في بلاد الشام بهدف تكوين حلف عربي لاقتسام بلاد الشام فيما بينهم وتحقيق المكاسب الشخصية للاستيلاء على الرملة والاستقلال بها.

ويوضح البحث الهدف الذي سعى لتحقيقه زعيم بني الجراح حسان بن مفرج من محالفة الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م/ ٣٦٦-٤١٦هـ) في بعض الفترات، وكان هدفه من ذلك ليس الكسب المادي بقدر ما هدف إلى تحقيق كسب معنوي وهو اعتراف البيزنطيين به كيانًا سياسيًا، مما يعضد مكانته ضد الدولة الفاطمية المناوئة له في الكثير من الفترات.

ويعرض البحث تدهور بني الجراح واضمحلالهم واختفاءهم من مسرح الأحداث السياسية في فلسطين والدولة الإسلامية، وذلك في أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادي عشر الميلادي.

ومجمل القول أن بني الجراح كانوا كيانًا سياسيًا سعى إلى تحقيق المكاسب المادية والمعنوية بانضمامهم إلى إحدى القوى المتصارعة التي تحقق هدفهم، ولكنهم لم يتمكنوا من تأسيس إمارة مستقلة لهم في فلسطين، بل اكتفوا باعتراف الفاطميين بقوتهم، ولعل ذلك راجع إلى عدم انضباطهم واتباعهم سياسة السلب والنهب، الأمر الذي أدى إلى انتشار الفوضى والفتن، ومن ثم ضعف كيانهم وانهيارهم.

نسب بنى الجراح:

ينسب بنو الجراح لقبائل طيئ[١] اليمنية، حيث كانت إحدى بطون هذه القبيلة، وهم ينسبون إلى جدهم حوط بن عمر بن خالد بن عدى بن أفلت الطائي[٢]، وبنو طيئ نسبة إلي طيئ بن أودين بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ[٣]، ولبطون طيئ أفخاذ عديدة مثل بنى جديلة، وبني جدعان والثعالب، وبني قرواش وبني سنبس وبني بولان وبني صيفي وبني حارثة[٤]، ومنها انحدر آل ربيعة، وهم بنو ربيعة بن حازم بن على بن مفرج بن دغفل بن الجراح[٥].

وانقسم آل ربيعة إلى ثلاثة أفخاذ، لكل منها أمير يتزعمها:

- الفخذ الأول: فضل، وديارهم ممتدة من حمص إلى قلعة جعبر والرحبة في جانب نهر الفرات.

الفخذ الثاني: آل مرا، ومنازلهم حوران .

الفخذ الثالث: آل على، وديارهم غوطة دمشق[٦].

بالنسبة للفخذ الأول يتضح أن فضلا هذا من آل جراح، وهو جدهم لأنه فضل بن ربيعة بن الجراح وربيعة ينسب إلى مفرج الذي هو كبير بني الجراح[٧].

موطنهـم:

كانت منازلهم في بلاد اليمن، يذكر ابن حزم أن بني طيئ لما خرجوا من اليمن بعد سيل العرم وانهيار سد مأرب خرجوا إلى الحجاز، واستقروا هناك وجاوروا بني أسد في جبلي أجأ وسلمى، فسكنوهما وما بينهما[٨] والتي تعرف حاليًا بمنطقة حائل وشمال نجد، ونزل بنو أسد ما بينهما وبين العراق، ثم انقرض بنو أسد وورثت طيئ بلادهم فيما وراء الكرخ في أرض نجد، وكذلك ورثوا منازل بأرض نجد فيما بين البصرة والكوفة واليمامة[٩].

ومن مواطن بنى الجراح في فلسطين من جبلي أجأ وسلمى المعروفين أيضًا باسم جبلي طيئ، يؤلفان جزءًا من أرضهم بجانب إقليم البلقاء بجبال الشراة(١٠).

ومعظم بني طيئ الذين سكنوا الشام كانوا في فلسطين دون غيرها ومنهم بنو الجراح، وفي القرن الرابع الهجري حدث تغير في أماكن استقرار القبائل العربية، منها انتقال بنى طيئ المقيمين في حمص إلى فلسطين جنوب الشام في الإقليم الواقع شرق نهر الأردن، والأطراف الغربية لصحراء الشام(١١)، وكان كبيرهم مفرج بن دعفل بن الجراح، وكان من إقطاعه الرملة ، ومن ولده حسان، وعلى، ومحمود، وحرار، وولى حسان بعده، فعظم أمره وعلا صيته(١٢)، وهو الذي مدحه الشعراء.

وفي أول الإسلام تفرقوا زمن الفتوحات الإسلامية، وانتشروا في الشام والحجاز والعراق، ويذكر ابن خلدون ذلك بقوله «وبلادهم كثيرة يملؤها أمم كثيرة تملأ السهل والجبل ، حجازا وشاما وعراقا»(١٣)، ثم اضطرت إلى الجلاء عن جنوبي فلسطين، فهبطت مصر ونزلت إقليم البحيرة مع بنى قرة الجذاميين(١٤).

ويذكر أن الرياسة في طيئ كانت لإياس بن قبيصة من بنى سبأ بن عمرو بن الغوث من أشراف طيئ وفصحائها المشهورين، وإياس هذا هو الذي ملكه كسرى على الحيرة (٦١٣-٦١٨م)، حينما تركها النعمان والتجأ إلى قبائل طيئ ولكنها رفضت حمايته، فكانت مكافأة كسرى لإياس تعيينه ملكا على الحيرة بعد موت النعمان(١٥)، وإياس هذا هو الذي صالح خالد بن الوليد عن الحيرة على الجزية، ولم تزل الرياسة على طيئ إلى بنى قبيصة هؤلاء في صدر الإسلام، ولعل بني الجراح وآل فضل من أعقابهم، وإن كان انقرضت أعقابهم ويذكر ابن خلدون أن الرياسة على الأحياء والشعوب إنما تتصل في أهل العصبية والنسب، أما عن عبادتهم، فكانت طيئ تعبد في الجاهلية سهيلاً والفلس(١٦).

إسلامهم:

في سنة ٩هـ/ ٦٣٠م قدم على النبي صلى الله عليه وسلم(وفد طيئ فيهم زيد الخيل(١٧)، وهو رئيسهم فأسلم وأسلموا، وحسن إسلامهم، وكان زيد أحد شعراء الجاهلية فطنا شجاعا كريما(١٨). قال النبى صلى الله عليه وسلم: «ما ذكر لي رجلا من العرب بفضل ثم جاء لي إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ الذي فيه»، وسماه (زيد الخير، وقطع له فيئا وأرضا

معه، وكتب له بذلك[١٩]. ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم بعد زيد الخيل عدى بن حاتم الطائي المعروف في قومه بالكرم والشجاعة وأسلم[٢٠]، وكان لوفادة عدى بن حاتم الطائي على النبي صلى الله عليه وسلم (وإسلامه وهو كبير في قومه شريف فيهم أثر طيب في نفوس طيئ، فأسلم منهم خلق كثير إسلامًا حقا[٢١]، فلم يرتد، ولم يرجف، ولم يشرك من أسلم منهم حين ارتد المرتدون وأرجف المرجفون[٢٢].

وشاركوا في معارك الفتح، فحاربوا مع المثنى بن حارثة الشيباني في العراق سنة ١٤ هـ/ ٦٣٥م وكان منهم رافع بن عميرة الطائي دليل المسلمين في اجتيازهم البادية بقيادة خالد بن الوليد حين انتقل من العمل في جبهة العراق إلى جبهة الشام بأمر الخليفة أبى بكر الصديق (في وقت ضيق وحرج، كانوا في أشد الحاجة إليه في ذلك الوقت[٢٣].

كما ناصرت طيئ الخليفة على بن أبى طالب (في حوادث سنة ٣٦هـ/٦٥٦م، وحاربوا معه سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧ م في صفين[٢٤]، حيث تقدمت طيئ للعراق وعبأت جنودها، وجاءهم حمزة بن مالك الهمذاني فقال: «من انتم لله أبوكم؟»، فقال عبد الله بن خليفة الطائي يعرفه بقومه ويفخر بهم وبشجاعتهم: «نحن طيئ السهل طيئ الجبل، نحن حماة الجبلين ما بين العذيب إلى العين، طيئ الرماح، طيئ الصفاح، طيئ البطاح والنطاح وفرسان الصباح»، وسرعان ما اندفع القوم إلى بعضهم في قتال شديد وأخو طيئ يصيح فيهم: «يا طيئ فدى لكم طارفي وتلادى، قاتلوا على الدين والأحساب»[٢٥]، وأخذ يشجعهم ويقول:

يا طيئ الجبال والسهل معا   إنا إذا داع دعا نسمعا
نطير إلى السيف حفاظا نسرعا   فنقتل المستلئم والمقنعا[٢٦]

وظل عبد الله بن خليفة الطائي يقاتل على هذا النحو حتى فقئت إحدى عينيه[٢٧]، فقال يعزى نفسه:

ألا يا ليت عيني هذه مثل هـذه   ولم أمش بين الناس إلا بقائد
ويا ليت رجلي طنت بنصفها   ويا ليت كفى طاحت بساعدى[٢٨]

وبعد القضاء على الدولة الطولونية قامت القبائل العربية في الشام ببعض الحركات المناوئة إذ أخذت تثور وتغير على المدن والقرى للسلب والنهب، ومن هذه القبائل بنو طيئ وكلب[٢٩].

كما اشترك بنو طيئ في ثورة المترفع القرمطي[٣٠]، وكان يلقب بالهادي سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م حينما دعا لنفسه وتبعته قبائل طيئ وكلب وغيرهما، واتجه إلى حمص، وخرج أبو وائل تغلب بن داود بن حمدان لقتال بعض الأعراب،

فاصطدم بالقرمطي، وتمكن القرمطي من الانتصار عليه سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م(٣١) وورد خبر ذلك إلى حلب فسار سيف الدولة متوجها إلى معرة النعمان، ثم حماة، ثم حمص والتقى بالقرمطي بوادي العرب على ماء يقال له أمهين طيئ على نحو خمسين ميلا من حمص، فانهزم القرمطي وقتل مع عدد كبير من أصحابه(٣٢)، وبعد ذلك بدأ ظهور بني الجراح على مسرح الأحداث بصورة واضحة من خلال الأحداث السياسية مع القوى المعاصرة لهم ودورهم المؤثر في كثير من تلك الأحداث.

ظهور بني الجراح فى فلسطين:

بدأ ظهور بني الجراح على مسرح الأحداث منذ سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م، وكان للظروف التي مرت بها كلا من الدولة الفاطمية ، والدولة العباسية والأوضاع المضطربة في بلاد الشام دور كبير في ظهورهم في فلسطين، فقد اعتمدت الدولة العباسية على العناصر الأجنبية من فارسية وتركية ، ثم ما لبثت أن استبعدت العرب بعد أن أسقط العرب من الديوان ومنع عنهم العطاء في عهد الخليفة المعتصم ٢١٨هـ، وكان لقوة الخلافة العباسية خلال العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٣هـ)أثر في تماسك الدولة وقوتها، أما خلال العصر العباسي الثاني (٢٣٣-٦٥٦هـ)، فقد عجزت الدولة العباسية عن مواجهة الصعوبات التي قامت في وجههم، وبدأت الاضطرابات في تاريخ الخلافة العباسية منذ أوائل القرن الثالث الهجري، حيث كثرت الفوضى والاضطرابات مما أدى إلى ضعفها، وقيام الدول المستقلة من فارسية وتركية.

ورأى بنو الجراح أنهم لا يقلون عن غيرهم من القوى التي نجحت في تكوين كيان لها داخل الدولة العباسية، ومن ثم أخذوا يتهيئون للقيام بدور مماثل، غير أن طبيعتهم القبلية وشدة قبضة القوات الفاطمية على المناطق الجنوبية من بلاد الشام لم تسمح لهم بتشكيل إمارة منفصلة، بل اكتفوا بالاعتراف بهم زعماء للقبائل، واتخذوا من الرملة قصبة لهم، وشاركوا مشاركة فعالة في الأحداث السياسية مع القوى السياسية المجاورة لهم كما سيتضح ذلك من خلال الدراسة.

وبدخول الفاطميين مصر حدث تطور في هجرة طيئ إلى مصر، حيث إن بعض بطون القبيلة في الشام انضمت إلى جيوش القرامطة التي قدمت لمهاجمة الفاطميين في مصر(٣٣).

وعمل الخليفة المعز لدين الله فيما بعد على تشجيعهم على الإقامة في مصر لصرفهم كلية عن الانضمام للقرامطة، وانتشرت طيئ في المنطقة الممتدة

من حدود مصر مع الشام شرقا[٣٤]، واستفاد منهم الفاطميون فيما بعد بنقلهم إلى إقليم البحيرة لطرد بنى قرة الجذاميين منها[٣٥].

علاقة بنى الجراح بالخلافة الفاطمية

تباينت العلاقة بين بنى الجراح والخلافة الفاطمية، حيث كانت مضطربة لا تثبت على وتيرة واحدة، فتارة كان بنو الجراح يقفون إلى جانب الفاطميين ويساعدونهم للقضاء على الحركات المناوئة لخلافتهم، وتارة أخرى كانوا ينضمون لأعدائهم، وهذا الموقف المتباين كان سببه الرئيسي الحصول على المال بأية وسيله كانت، واتضح ذلك من خلال موقفهم من القرامطة، ويتضح أيضا خلال قيام أمراء آل الجراح بقطع طريق الحجاج دون مبرر إلا الحصول على المال.

ومن الأسباب أيضًا الفوضى التي سادت في بلاد الشام، وعدم استقرار الحكم الفاطمي فيها، واندلاع الثورات من قبل سكان البلاد، ولم تكن الدولة العباسية في حالة تسمح لها بمساعدة السكان والوقوف بجانبهم، فضلاً عن أن الفاطميين في أيامهم الأولى اعتمدوا في فتحهم للشام على عسكر من المغاربة الذين اعتبروا أعداء تقليديين لعرب الشام منذ الفتوحات الأموية[٣٦].

كما أن سياسة الفاطميين في ضرب القبائل العربية بعضها ببعض جعلت هذه القبائل تفيق من سباتها لتؤدى الدور الذي أسند إليها، وتكون إلي جانب الخلافة الفاطمية حينًا، أو في الجانب المناهض لها حينًا آخر[٣٧]، ويضاف إلى ذلك أن بني الجراح ضمن عرب الشام الذين لم يرحبوا بالفاطميين بسبب أن معظمهم كان على المذهب السني المعادى للمذهب الفاطمي.

فضلا عن الطبيعة العربية القبلية وعدم رضائها عن الخضوع للسلطة، حيث كانوا ينفرون من الإلزام والخضوع للقانون وللسلطة المركزية، أو لأي إنسان مهما علا شأنه.

وكان التنافس بين الخلافة العباسية والفاطمية للسيطرة على بلاد الشام، وقد نشطت كل خلافة في كسب ود القبائل لمساعدتها واستغل بنو الجراح هذا الوضع وبدأ اسمهم يظهر في العديد من الأحداث.

لهذه الأسباب تباينت العلاقة بين بني الجراح والفاطميين فقاموا بثورات في الرملة وطبرية وأفامية، وسيطروا على هذه المنطقة إلى أن اضطروا في القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي إلى الجلاء عن جنوبي فلسطين، فهبطوا مصر ونزلوا مديرية البحيرة مع بني قرة الجذاميين[٣٨].

ولم تكن العلاقة بين الطرفين على وتيرة واحدة، حيث اتبع بنو الجراح في ذلك ما تمليه عليهم مصالحهم الذاتية وخاصة المادية.

وكانت الدولة الحمدانية من أقوى الدويلات العربية في بلاد الشام، وما لبثت أن ضعفت بعد وفاة أميرها سيف الدولة سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م، وكانت القبائل العربية في بلاد الشام تحت سيطرتها يقاتلون إلى جانبها وينفرون معها في الحروب[٣٩].

وتحالف بنو الجراح مع سعد الدولة الحمداني الذي كان في عداء مع الفاطميين، وأوعز سعد الدولة إلى المفرج بن دغفل أن يثور ضد الفاطميين في فلسطين، كما أن سعد الدولة التقى في سنة ٣٦١هـ/٩٧١م بحسان بن الجراح الطائي، واتفقا على أن ينزعا الشام من حكم مصر[٤٠].

وقد ساعد بنو الجراج القرامطة ضد الفاطميين في سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م لقتال القائد الفاطمي جعفر بن فلاح، وانضم حسان بن الجراح إلى القرامطة ضمن الجيش الذي زحف على مصر ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م[٤١] أدرك المعز لدين الله أن نجاحه في القضاء على القرامطة لن يتحقق إلا باستخدام الأساليب الدبلوماسية للقضاء على التحالف بين القرامطة وبني الجراح، فراسل حسان بن الجراح أمير طيئ واستماله، ووعده بمائة ألف دينار إن عمل على ترك القرامطة، وتأكيدا لاتفاقه معه استحلفه، فحلف له بأنه سينهزم إذا حصل على المال المقرر[٤٢].

وتأكد للمعز نجاحه على الحسن القرمطى نتيجة لهذا الاتفاق، لذلك وجه سياسته نحو الاعتماد على بنى الجراح للقضاء على ما بقى للقرامطة من نفوذ في بلاد الشام واستردادها[٤٣]، وقد نجح المعز لدين الله في ذلك حيث استطاع بمساعدة بنى الجراح وبعض القبائل العربية الأخرى أن يستعيد سلطانه على بلاد الشام[٤٤].

أصبح بنو الجراح خلال هذه الفترة على علاقة حسنة مع الفاطميين، وساعدوا جوهر الصقلي عندما جاء لقتال أفتكين سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م[٤٥]، واستعان أفتكين بالقرامطة واستولى على دمشق، وعاد جوهر إلى الرملة، ورحل إلي عسقلان، وحوصر بها سبعة عشر شهرا، وأرغم على طلب الصلح، ونجا المعز بنفسه وعاد إلى القاهرة، وفي سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م دب القتال بين الفريقين مرة أخرى في الرملة، وأوقع العزيز الهزيمة بأفتكين ومضى هاربا[٤٦]، ووجده مفرج بن دغفل يموت عطشا وكانت تربطه به صلات ود وكان الخليفة قد وعد من يسلمه إياه بمائة ألف دينار، وخان ابن الجراح

الأفتكين وأخذه إلي الخليفة مقابل المكافأة المالية(٤٧)، وعفا عنه الخليفة فيما بعد وعامله معاملة حسنة وخصص له دارا لإقامته(٤٨).

ومن صور العلاقات الودية بين الفاطميين وبنى الجراح مساعدة بنى الجراح لهم في القضاء على مغامرة أبى تغلب الحمدانى الذي كان مسيطرا على الرملة، فقد قام مفرج بن دغفل بن الجراح بمساعدة القائد الفاطمي الفضل بن صالح في قتاله، وقد قوى مركز مفرج بن الجراح بمجيء القائد الفاطمي الفضل الذي كان غلاما للوزير المصري يعقوب بن كلس، والذي كان يحمل لأمير آل الجراح مفرج سجلا بولاية الرملة(٤٩).

دارت المعركة بين أبي تغلب الذي انضم إلى جانب بني عقيل، وبين بنى الجراح على باب الرملة، وما إن رأت عقيل كثرة الأعداء حتى انسحبت، وبقى أبو تغلب في عدد قليل من غلمانه وغلمان أبيه، فضعف أمره، وولى منهزما(٥٠) وانتهى أمره بأن قبض عليه مفرج بن دغفل بن الجراح وأخذه أسيرا(٥١)، وطلب الفضل قائد الجيش الفاطمي من ابن الجراح أن يسلمه أبا تغلب حتى يمكن أن يأخذه معه إلى مصر، إلا أن مفرجا رأي أن يتخلى عن أبى تغلب ويقتله خوفا من أن يتخذ العزيز أبا تغلب صنيعة عليه إذا بقى حيا كما فعل بافتكين، فقتل أسيره بيده سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م(٥٢)، ولذلك غضب الفضل من مفرج لقتله أبا تغلب ولامه على ذلك(٥٣).

لم يدم الاتفاق بين مفرج والقائد الفاطمي الفضل طويلا، حيث انقلب الفضل عليه، ولكن مفرجا كان من الحذر بحيث أقنع العزيز بالله بأن يصدر أوامره إلى قائده بان يتركه في سلام، ومن ثم سمح لمفرج بأن يصبح سيدَ فلسطينَ مرة أخرى(٥٤).

وعلى الرغم من ذلك لم يكن ابن الجراح مخلصا للدولة الفاطمية وللرعايا من سكان المنطقة، وقد خربت البلاد في أيامه حتى إن الإنسان كان يدخل الرملة في أيامه يطلب شيئا يأكله فلا يجده، ولحق الخراب والمجاعة بأكثر بلاد الشام(٥٥).

وقد حملت أعمال الابتزاز التي ارتكبها ابن الجراح الخليفة الفاطمي العزيز أن يقاتله ليتخلص منه ويعمل على استرجاع البلاد منه وإبعاده عنها، ولذلك أرسل إليه جيوشا متوالية، ففي سنة ٣٧١هـ/ ٩٨١م سير إليه الوزير يعقوب بن كلس جيشا بقيادة صهره رشيق العزيزى فهزمه وطرده من بلاد الشام(٥٦).

وفي سنة ٣٧٢هـ/٩٨٢م خرج بلتكين التركي بعسكر من مصر إلى بلاد الشام ليكون واليا علي دمشق بدلا من رشيق ونزل العسكر الرملة، وكان فيهم

أعاجم ومغاربة وعرب من المنطقة الذين كانوا كارهين وساخطين على أعمال مفرج بن الجراح في السلب والنهب[٥٧]، وكان مفرج قد جمع جموعه من العرب ولكن ذلك لم يغن عنه شيئا، فقد تمكن بلتكين أن يهاجمه من الخلف، وأن يشتت شمله، فانهزم وقتل كثير من أصحابه وصار إلى أنطاكية مستجيرا بصاحبها البيزنطي «ميخائيل البرجي»[٥٨].

وفي سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م كان على دمشق بكجور من قبل الفاطميين، وقد أساء السيرة في دمشق بعد أن انضم إليه مفرج بن الجراح الذي أصبح وكأنه من أتباعه، فرأى يعقوب بن كلس أن يعمل على التخلص منه ومن حليفه ابن الجراح، فأرسل إليه جيشا بقيادة منير الخادم الذي أعلن أنه إنما جاء لطرد مفرج بن الجراح، وذلك سنة ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م، فذهب ابن الجراح إلى سواد طبرية وجاهر بالعصيان[٥٩].

وجمع منير الخادم العرب من قيس وعقيل وفزارة، وجمع بكجور بني كلاب، وبعث منير الخادم سرية إلى ابن الجراح وهو في طرف عمل دمشق فأوقعوا بفرقة من عرب بني الجراح، وأتوا عليها كلها فازداد ضعف ابن الجراح وارتد إلى دمشق[٦٠].

ولما وجد مفرج نفسه وقد أصبح ملاحقا وطريدا في البادية قرر أن يكاتب الخليفة الفاطمي العزيز بالله، ويلتمس العفو منه كعادته في كل مرة مستغلا حلم العزيز وعفوه، فأجابه إلى ذلك[٦١].

إلا أن أفعال مفرج بن الجراح والتجاؤه إلي الروم أعداء الدولة الفاطمية كانت من الأمور التي أزعجت الخليفة العزيز بالله ووزيره يعقوب بن كلس، مما جعلهما يفكران في التخلص منه بأي وسيلة، وكانا ينتظران الفرصة لتحقيق ذلك، يتضح ذلك من الوصية التي أوصى بها يعقوب بن كلس عندما مرض، وهو على فراش الموت وزاره الخليفة وسأله عما يوصيه به فقال يعقوب له: «سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة، ولا تبق على المفرج بن دغفل بن الجراح إذا عرضت لك منه فرصة»، وتوفي يعقوب في ذي الحجة سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م[٦٢].

وكان مفرج بن الجراح قد تمادى في عدائه للدولة الفاطمية ولم يترك فرصة لمعاداتها إلا واستغلها، فما أن عاد إلى فلسطين واستولى على الرملة، عاث في البلاد فسادا، وانضم إلى منجوتكين[٦٣] الذي ثار على الدولة الفاطمية في محاولة منه للاستيلاء على السلطة من الحسن ابن عمار[٦٤]، ورحلا سويا إلى الرملة وأخذا أموالها ثم رحلا منها إلى عسقلان[٦٥].

ولذا أرسل برجوان الوصي على الخليفة الحاكم بأمر الله قائدة سليمان بن جعفر بن فلاح لقتال منجوتكين وابن الجراح ، وذلك سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م ، وكان الحاكم مهتما بهذه الحملة اهتماما كبيرا، حيث كانت أولى حملاته على الشام في عهده ، وأطلق كل ما التمست إليه الحملة من المال والعدد والرجال والسلاح والكراع وأسرف في ذلك إلى حد لم يقف عنده[٦٦].

وكان ابن الجراح على علم بما حوته هذه الحملة من مال ويذكر ابن ميسر أن الحاكم بأمر الله اهتم بهذه الحملة، وحمل إليها خزانة المال على ٦٨ بغلا فيها ٤٠٠ ألف دينار و٧٠٠ ألف درهم و٤٦ جملا عليها السلاح وعشر جمازات تحمل الدروع و٦ قباب بفرشها وأهلتها ومناطقيتها وجميع آلياتها[٦٧]، فرأى أن ينضم إلى سليمان بن جعفر بن فلاح وهجر منجوتكين، فرجحت بذلك كفة سليمان وقوى مركزه، وسار ابن الجراح وسليمان إلى الرملة بعد فرار منجوتكين وقتل كثير من أصحابه، وقد خصص سليمان لمن يقبض على منجوتكين عشرة آلاف دينار ومائة ثوب، وكان أحد أبناء مفرج، وهو عليا هو الذي طارد منجوتكين وقبض عليه، وحمله إلى سليمان بن فلاح[٦٨] وحمله بدوره إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله[٦٩].

غير أن المفرج عاد إلى العصيان في نهاية سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م ونزل إلى الرملة وحاول الاستيلاء عليها وخرب الناحية، محاولا تكوين دولة والاستقلال عن الخلافة الفاطمية، مستغلا عدم استقرار الأحوال في الدولة الفاطمية أوائل عهد الحاكم، ولكن برجوان بادر إلى إرسال حملة بقيادة جيش بن محمد بن الصمصامة، وأعطاه صلاحيات مالية واسعة، ليتمكن من القضاء على مفرج بن الجراح، ونزل جيش ابن الصمصامة إلى الرملة ومعه ألف رجل وقصد مفرجا، غير أن مفرجا هرب ولجأ إلى جبال بنى طيئ ولم يجد له ملجأ وعاد إلى طريقه في طلب الصلح، وأرسل إلى جيش طالبا منه العفو والأمان كما أرسل إليه عجائز نساء قبيلته ليطلبن الأمان والصفح، فصفح وكف عنه وأمنه[٧٠] وهذه ثاني مرة يخالف فيها نصيحة ابن كلس بضرورة القضاء على مفرج بن الجراح برغم ما بدا من انحراف عن الطاعة كلما سنحت له الفرصة

وفي سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م حج بالناس محمد بن محمد بن عمر بن العراق وكان في الحج الشريفان الراضي والمرتضى، فاعترض ركب الحجاج ابن الجراح الطائى فأعطاه تسعة آلاف دينار من أموالهما حتى أطلق الحجاج[٧١]، وفي سنة ٣٩٦هـ /١٠٠٥م استحضر الحاكم بأمر الله من بني تميم بالشام واستدعى مفرج بن دغفل الذي أرسل أولاده الثلاثة عليا وحسانا ومحمودا مع عدد كبير من البدو لمساعدة جيش الحاكم في القضاء على حركة أبي ركوة،

وسارت الجيوش بقيادة الفضل بن صالح[٧٢] إلى الفيوم، فالتقيا مع أبي ركوة في الفيوم في يوم الجمعة ٣ذي الحجة سنة ٣٩٦ هـ / ١٠٠٥م[٧٣].

من صور خروج ابن الجراح عن طاعة الخلافة الفاطمية وقوفه بجوار أبي القاسم المغربي الذي فر من الحاكم بعد قتل أبيه وأخويه سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، ونزوله عند ابن الجراح واستجار به، فأجاره في الرملة وزين له الخروج على طاعة الخليفة، وكان الحاكم قد عين مملوك أبيه يارختكين على الرملة، وأرسله إليها في جيش، فحسن الوزير أبو القاسم لحسان بن مفرج قتال يارختكين وحرضه على قتله، وانتهى الأمر بالثورة على يارختكين خشية من سطوته، وطمعا في القافلة التجارية التي رافقته، والتقى آل الجراح به في الجفار[٧٤] وجرت بين الفريقين حرب شديدة، كانت الغلبة فيها لبنى الجراح وأسر يارختكين وأفراد أسرته، واستولى المفرج على جميع ما معه، وانتهى الأمر بقتل يارختكين[٧٥].

وفي سنة ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م غير الحاكم أساليبه فقرر أن يعامل بنى الجراح بشدة، وذلك نتيجة لأعمال السلب والنهب والمصادرة التي قاموا بها خلال فترة سيطرتهم على فلسطين، ولذلك جهز حملة إليهم بقيادة على بن جعفر بن فلاح، واستسلم على ومحمود ابنا مفرج[٧٦]، ومات مفرج مسموما[٧٧]، وبهذا يكون الحاكم قد نفذ وصية الوزير يعقوب ابن كلس التي أوصاها للعزيز وهو على فراش الموت بضرورة التخلص من مفرج إذا سنحت له الفرصة لذلك.

وضعف بنو الجراح واضمحل أمر حسان بن مفرج بعد الهزيمة التي لحقت به على يد جعفر ابن فلاح وبعد موت مفرج مسموما، ولذلك رأى حسان أن يستعطف الخليفة الحاكم، فأرسل والدته إليه، تطلب منه الأمان، فعفا عنه وأعاده إلى الشام[٧٨].

بنو الجراح والفاطميون فى عهد الظاهر والمستنصر

تولى الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ/ ١٠٢٠-١٠٣٥)، ولم تلبث بلاد الشام أن خرجت عن سلطة الخليفة الظاهر، فبعد اختفاء الحاكم بأمر الله بسنتين تقريبا رأى حسان بن الجراح استغلال فترة الضعف التي مرت بها الدولة في بداية خلافة الظاهر بجانب سوء الحالة الاقتصادية في مصر بسبب حدوث مجاعة بها في سنتي ٤١٤-٤١٥هـ/ ١٠٢٣-١٠٢٤م[٧٩] لاستعادة نفوذه في فلسطين، ولتحقيق ذلك تحالف مع بقية القبائل العربية في الشام لإخراج الفاطميين من بلاد الشام وتقسيمها فيما بينهم[٨٠].

وتنفيذا لهذا الاتفاق استولى حسان بن الجراح على الرملة في رجب سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م، وأحرق أكثرها، ونهب وأفسد في البلاد، وسبى جماعة كبيرة

من النساء والصبيان[٨١]، ثم رأى حسان بن الجراح أن يوسع نطاق هذا التحالف ويضم إليه قبائل عربية من مصر نفسها، فأرسل كتبا إلى بنى قرة على يد على بن محمد الشاعر من الرملة في سنة ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م، ووصل رسوله إلى القاهرة متخفيا وهو يحمل هذه الكتب يدعوهم فيها لنصرته، ويعدهم ويمنيهم ويذكرهم بالعهود التي كانت بينهم والإمان، فقبلوا كتبه وكتبوا بأجوبتها بما يجب من الإجابة، وأعادوا الرسول بأجوبة الكتب من البحيرة، فلما وصل إلى الجيزة كشف أمره، ووشى به لدى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، فقبض عليه وحبسه في خزانة البنود، ثم أمر بقتله بها[٨٢]، وهكذا فشلت هذه المبادرة التي أراد حسان بن مفرج تنفيذها للتآمر على الفاطميين في عقر دارهم.

والسبب في تفكير حسان للتحالف مع بنى قرة هو كرههم للحاكم بأمر الله لأنه كان قد حاربهم سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م وحبس جماعة من أعيانهم[٨٣]، وقد أكثر الحاكم بأمر الله من الإيقاع ببني قرة وأكثر من قتلهم وتحريقهم بالنار، فخلعوا طاعته، وسبب ذلك أن بني قرة كان شيخهم مختار بن القاسم، فلما بعث الحاكم بأمر الله يحيى بن علي الأندلسي يخرج فلول بن سعيد بن خزرون بطرابلس على صنهاجة ساروا معه إلى طرابلس، وجرت الهزيمة عليه، ورجعوا إلى برقة فتنكر لهم الحاكم، فامتنعوا عليه، فبعث لهم بالأمان فقدم وفدهم إلى الإسكندرية، فقتلهم عن آخرهم سنة ٣٩٤هـ، وكان عندهم أبو ركوة فدعاهم إلى نفسه فبايعوه[٨٤] وليس هذا فحسب بل إن ابن الجراح أخذ يعتدي على حدود مصر، وكثيرا ما تعدى الحدود إلي داخل البلاد المصرية كما حدث سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م

وفي سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م قام إدريس الجعفري ومعه أحد بنى الجراح بالهجوم على أيلة[٨٥] ونهبها وأخذ منها نحو الثلاثة آلاف دينار، وغلالا، وسبى النساء والأطفال، وخرجت سرية من القاهرة لحربه[٨٦].

وفي نفس السنة أيضا أذيع بمصر أن حسان بن الجراح بعث خمسمائة فارس إلى العريش، ثم لم تعلم وجهتها، فخاف الناس أن يفاجئهم في القرافة بالقاهرة، فانتقل أهل القرافة إلى مصر، وتنقل جماعة من بلبيس إلى مصر، واضطربت العامة وتحرك السعر بمصر، وندب مائة فارس لحفظ الناس بالقرافة بعد أن اشتد بالناس الخوف حتى لم يطلع أحد إلى القرافة[٨٧].

ومنذ تكوين الحلف العربي، وحسان بن الجراح يحاول جاهدا إبعاد النفوذ الفاطمي عن فلسطين ليسترد سلطانه عليها، ولذا ساءه إرسال الفاطميين واليا على فلسطين في محرم سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م، وهو انوشتكين الدزبرى[٨٨]، وامتد نفوذ الدزبرى حتى شمل دمشق والرملة وعسقلان[٨٩]

وغيرها[٩٠]، وكانت انتصارات الدزبرى واتساع نفوذه من الأمور التي أقلقت ابن الجراح، وتمكن ابن الجراح من الانتصار على الدزبرى، وفر من الرملة في عشرة من الغلمان الأتراك، وسار إلى قيصرية، ودخل حسان الرملة ونهبها ودخل من باب المدينة، وجلس في دار الإمارة، ودحر حسان الدزبرى مرة أخرى بمعاونة صالح بن مرداس وواصل سلبه ونهبه في الشام، وظل صالح على مؤازرته لحسان[٩١]، وعلى الرغم من ذلك فإن الدزبرى سبب قلقا لحسان بن الجراح وخاف على نفسه ومركزه، ورأى أن يتخلص منه، فأخذ يدس له لدى الوزير أبي محمد الحسن بن صالح الروذبارى الذي أخذ ينسب إليه كل قبيح حتى استطاع أن يؤثر عليه، وأن يحصل منه على أذن بالقبض عليه بعسقلان في مؤامرة دبرت له في سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م، ولكنهم ما لبثوا أن أفرجوا عنه وعاد إلى القاهرة[٩٢].

وما أن ترك الدزبري فلسطين حتى انتهز العرب الفرصة فاستولوا على أعمال الشام وأفسدوا الأمر فيها، وسيطر حسان بن مفرج على أجزاء من فلسطين[٩٣] واتفق العرب فيما بينهم على تقسيم الشام؛ على أن تكون فلسطين لحسان وقومه من بنى طيئ من الرملة إلى حدود مصر ولأخيه محمود طبرية، ولصالح بن مرداس وقومه من بنى كلاب من حلب إلي عانة على الفرات، ولسنان بن عليان أمير الكلبيين دمشق وما حولها[٩٤].

ولما علم الخليفة الفاطمي الظاهر بهذا الاتفاق اقتضى الحال أن يرسل إلى الشام جيشا ليقضى على هذا الاتفاق، فلم يجد الجرجرائى[٩٥] الذي تولى الوزارة للظاهر بدا من الاستعانة مرة أخرى بالقائد الدزبرى نظرا لمعرفته ودرايته بأحوال فلسطين، وليثأر مما حل به من هزيمة على يد بنى الجراح وحلفائهم[٩٦].

تمكن الجرجرائى من إعداد الحملة وتزويدها بما يلزمها، وخرج الظاهر لتوديعها، وسار الدزبرى حتى وصل الرملة، ومنها سار إلى بيت المقدس، وذلك في ذي القعدة سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م، واستعد لخوض المعركة ضد الحلفاء العرب[٩٧].

وإزاء ذلك لم يجد حسان بن المفرج بن الجراح بدا من أن يستعين بحليفه صالح بن مرداس، فجمع صالح جيشه ولحق به على شاطيئ نهر الأردن قرب بحيرة طبرية، وتجمعت طيئ ومن معها من الأعراب[٩٨] وتكاثر العرب واصطفوا عند الأقحوانة جنوبي بحيرة طبرية في انتظار الدزبرى، والتقى الجمعان في معركة حامية الوطيس أسفرت عن هزيمة العرب هزيمة ساحقة، حيث طعن صالح فسقط عن فرسه، طعنه طريف الفزاري، فرآه رافع بن أبي الليل،

فعرفه، فأجهز عليه وقطع رأسه، فقتل صالح بن مرداس وولده الأصغر على، بينما فر ولده نصر إلى حلب، وأنفذت جثة صالح إلى صيدا لتصلب على بابها(٩٩)، أما حسان ابن الجراح فقد استطاع أن يفر إلى البوادي متخفيا، ثم نجح في الالتجاء إلى الإمبراطور البيزنطي(١٠٠) وبذلك استرد الفاطميون بعلبك وحمص وصيدا ورفينة، وحصن ابن عكار، وزادوا في التضييق على إمارة حلب(١٠١) وانفرط عقد التحالف العربي في بلاد الشام.

علاقة بني الجراح بالقرامطة

القرامطة فرقة من فرق الشيعة الغلاة مثلها مثل الدروز والنصيرية(١٠٢) والحشاشية، وكلهم من أصل واحد نشأت متتابعة تاريخيا وحضاريا عن فرقة الإسماعيلية إحدى فرق الشيعة(١٠٣).

ظهرت حركة القرامطة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري كفرقة دينية باطنية تستند في مبدئها الأساسي إلى أن لكل ظاهر باطنا، وكانوا يؤولون آيات القرآن الكريم حتى تتناسب مع منهجهم الباطني(١٠٤)

ونشأت هذه الحركة في العراق، وبصفة خاصة في سواد العراق، أي في قراه، واتجهت الدعوة إلى الفلاحين وانتشرت بين أصحاب الحرف، وذلك على يد حمدان بن الأشعث المعروف بقرمط(١٠٥)، وذلك سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م، وعرف اتباعه بالقرامطة نسبة إليه.

ولما خلفه في الدعوة أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى(١٠٦) تمكن من إنشاء دولة لأتباعه في البحرين وعاصمتهم الأحساء بالشمال الشرقي من بلاد العرب مما يلي البصرة، وذلك سنة ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م وفي سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م(١٠٧) أقبل أبو سعيد الجنابى بجموعه يريد البصرة، فقتلوا وسبوا وأفسدوا في بلاد هجر(١٠٨) بالقرب من البصرة فيما بينها وبين عمان، فجهز الخليفة العباسي المعتمد إليهم جيشا كثيفا وعليه العباس بن عمرو الغنوى، فاقتتلوا وتمكن أبو سعيد الجنابي من هزيمتهم(١٠٩)، وأسر العباس الغنوى، ثم سار الجنابى إلي هجر، فدخلها وأمن أهلها وبقى العباس عند الجنابى أياما.

وعادت ثورة القرامطة في سواد العراق ثانية سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م، فوجه إليهم الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠١م) شبلا غلام أحمد بن محمد الطائى وظفر بهم، وأخذ رئيسا لهم يعرف بأبي الفوارس وأمر به المعتضد فقتل(١١٠)، وفي سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م سير طغج بن جف نائب هارون بن خمارويه على الشام جيشا من دمشق إلي القرمطى، فهزمه القرمطى وقتل قائده وحاصر دمشق، وضيق على أهلها، وأمد المصريون أهل دمشق فقاتلوا القرمطي حتى

ظفروا به وقتلوه ومعه خلق كثير(١١١)، وجرت واقعة عظيمة بين القرامطة وجند الخليفة، وكان على رئاسة القرامطة الحسن بن زكرويه بن مهرويه، وتمكن جند الخليفة من أسر الحسن وأمر الخليفة بقتله، وقتل أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى كبير القرامطة سنة ٣٠١هـ/٩١٣م، وكان أبو سعيد قد عهد إلى ابنه الأكبر من بعده وهو سعيد فعجز عن الأمر، فغلبه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان، ولما قتل أبو سعيد كان قد استولى على هجر والاحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين(١١٢).

وفي سنة ٣١١هـ/٩٢٣م سار أبو طاهر بن سعيد بعدة غزوات إلى البصرة وخربها ، ومنها توجه إلى طريق الحج فأوقع بقافلة معظم أهلها من بغداد، وأخذ جمالهم وأمتعتهم ثم عاد إلى هجر، وسار منها إلى الكوفة وضربها، ثم قصد مدينة الأنبار(١١٣) واستولى عليها، وعاث في أرض الجزيرة فسادا نهبا وقتلا(١١٤).

أما أشد هذه الغزوات فهي التي قام بها أبو طاهر سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، حيث هاجم الحجاج في مكة وخرج عليهم يوم التروية، فنهب الأموال واستباح قتالهم، فقتل منهم خلقا في رحاب مكة وفي المسجد الحرام، وفي جوف الكعبة فلما قضى القرمطى وفعل ما فعل بالحجيج أمر أن تدفن القتلى في بئر زمزم ودفن كثيرا في أماكنهم من الحرم وفي المسجد الحرام، وهدم قبة زمزم، ونزع كسوة الكعبة، وأمر بقلع الحجر الأسود، وأخذوه معهم إلي بلادهم، فمكث عندهم في هجر اثنتين وثلاثين سنة حتى ردوه سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م بفضل مساعي الخلفاء الفاطميين المهدى ثم القائم ثم المنصور، ورد في خلافة المطيع العباسي(١١٥).

ويذكر أن المهدى الفاطمي كتب إلى أبي طاهر القرمطى يلومه ، حيث أراد القرامطة بهجومهم على مكة التقرب من الخليفة، وكتبوا إليه ليبارك عملهم غير أنه استنكر ذلك ورد عليهم بقوله: «العجب ممن كتب إلينا ممتنا علينا مما ارتكبه واجترمه باسمنا في حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم يزل الجاهليون يحترمون إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، وقلعت الحجر الأسود وحملته إلى أرضك ورجوت أن تشرك فلعنك الله ثم لعنك، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده وفعل في يومه ما فعله في حساب غيره»، وقال أيضا :«قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد لما فعلت»(١١٦).

وفي سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م توفي أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الحسن الجنابى الهجرى القرمطى رئيس القرامطة، فقام بالأمر من بعده إخوته الثلاثة، وهم أبو العباس الفضل، وأبو القاسم سعيد، وأبو يعقوب يوسف بنو

أبي سعيد الجنابى، وخلال عهدهم نجد أن الدعوة في البحرين لا تسير بنفس التضامن السابق مع الدعوة الفاطمية، وظهرت عوامل تدل على استقلالها عنها.

رأى جوهر بحكم ولايته على مصر ضرورة التدخل في أمور الشام السياسية وكان بعض جهاتها جزء من أملاك الدولة الإخشيدية، وكانت تدين لها بالتبعية الاسمية على الأقل، فبعث جوهر جيشا تحت قيادة أحد قواده هو جعفر بن فلاح، فشن الغارة على بلاد الشام وأوقع الهزيمة بالحسن الإخشيدي سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م، وانتهى الأمر بأسر الحسن وسجنه، ثم سار جعفر إلى طبرية ومنها إلى دمشق فملكها وخطب بها للمعز سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م(١١٧).

كان لاستيلاء الفاطميين على دمشق أثره في أن دب النزاع بينهم وبين القرامطة ، وذلك لأن دمشق كانت تدفع الجزية للقرامطة فترة من الزمن، ولم تدفع الجزية إليهم بعد استيلاء الفاطميين على هذه المدينة وقد سار جعفر ونزل بظاهر دمشق في المنطقة الواقعة على نهر يزيد لملاقاة الحسن القرمطى الملقب بالأعصم وكان قد زحف ومعه عرب الشام ومن بينهم بنو الجراح، حيث قام مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي بمساعدته لقتال القائد الفاطمي جعفر بن فلاح ، وشن الغارة عليها، ولما دارت رحى الحرب أسر جعفر وقتل ووقع الكثيرون من أتباعه صرعى(١١٨) في حومة القتال يوم الخميس ٦ ذو القعدة سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م(١١٩)، وملك القرامطة دمشق وأمنوا أهلها، ثم ساروا إلى الرملة فملكوها وترك عليها مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي، وترك الحسن القرمطي دمشق ثم صار إلى مصر ، وهاجم القلزم «السويس»، والفرما، وتحكم في برزخ السويس فاعترفت بسلطانه مدينة تنيس، ومن ثم تقدم داخل البلاد وعسكر رجاله في عين شمس وهدد القاهرة(١٢٠).

تأهب القائد الفاطمي جوهر الصقلي لصد زحف القرامطة، فأعد جيشا من المغاربة والمصريين وحصن القاهرة بخندق عظيم حولها(١٢١)، وصمد المصريون وغيرهم من جيش جوهر الصقلي في وجه القرامطة حتى تقهقر الحسن بن أحمد بجنده ورحل إلى الأحساء(١٢٢)، ثم أنفذ جوهر الصقلى جيشا إلى يافا تمكن من إعادتها إلى حوزة الفاطميين

وقام الحسن بن أحمد «الأعصم» القرمطى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م بمهاجمة مصر للمرة الثانية ، وذلك بعد قدوم المعز لدين الله إليها واستقراره بها، وفي هذه المرة سار الحسن بن أحمد القرمطى في جمع كثيف من أصحابه، والتف معه أمير العرب ببلاد الشام وهو حسان بن الجراح الطائى في عرب الشام بكمالهم(١٢٣) وكان بنو الجراح في بداية الحكم الفاطمي لبلاد الشام يعملون على الانضمام للحركات المناوئة للفاطميين، ولما وردت الأخبار

للمعز عن وصول جيش القرامطة وبرفقتهم جموع كثيرة من بني هلال وبني سليم، ومن طيئ، وغيرهم من العرب بقيادة حسان بن الجراح[١٢٤]، تخوف من قوتهم وشدة بأسهم وخاصة بعد أن تمكنت هذه القوات من احتلال مناطق في صعيد مصر وعاثت سرايا القرامطة فسادا في البلاد[١٢٥]، كما يشير ابن الأثير إلى كثرة هذه القوات التي ضمها جيش العرب وتوغلها في الأراضي المصرية في ذلك الوقت، بعد أن طلب زعيم القرامطة الإمدادات إليه من قبائل العرب، حيث يقول: «وآتاه من العرب خلق كثير»[١٢٦].

ومما يؤكد وصول القرامطة حتى أخميم من بلاد الصعيد وسيطرتهم على تلك النواحي، وجود إحدى القرى التي تحمل أسمهم، وهي قرية القرامطة، وتقع إلى الشمال قليلا من مدينة سوهاج[١٢٧]، كما يدل على ذلك ما أشار إليه بشأن غزو القرامطة لمصر، وما أسفر عنه من تخلف جماعات من بني هلال في صعيد مصر.

هذا وقد تخوف المعز لدين الله من مواجهة القرامطة والدخول معهم في حرب لم يكن مستعدا لها، فرأى أن يبعث إلى الحسن الأعصم القرمطي بكتاب قبل أن يشتبك معه في الحرب لعله ينجح في إثارة الساخطين عليه من القرامطة وحمله على العدول عن موقفه العدائي من الفاطميين[١٢٨].

وقد أشار المعز في هذا الكتاب إلى ما عرف عن القرامطة من حرص على التودد إلى الفاطميين، وبين للأعصم فيه أن أبا سعيد وأبا الطاهر كانا يدينان بالطاعة للأئمة، ودعاه إلى طاعته[١٢٩]، وفي نهاية الكتاب عرض عليه ثلاث خصال ليختار منها واحدة يعمل على تحقيقها، وهدده بسوء العقاب فقال: «ونحن معرضون ثلاث خصال والرابعة أردى لك وأشقى لبالك، وما أحسبك تحصل إلا عليها»[١٣٠].

لم يعدل الحسن الأعصم بعد أن وصله كتاب المعز عن سياسته التي تنطوي على مناهضة الفاطميين بل أظهر عدم اكتراثه بتهديد المعز له، وأساء في رده فكتب إليه: «وصل كتابك الذي قل تحصيله وكثر تفصيله، ونحن سائرون إليك على أثره، والسلام وحسبنا الله ونعم الوكيل»[١٣١]، ثم زحف الحسن بن أحمد الأعصم إلى مصر، وتوغلت جنوده في الأرض المصرية، كما تقدمت القوة الرئيسية من جيشه نحو القاهرة، ولما علم المعز بنبأ وصوله هاله كثرة قواته، وحار المعز فيما يصنع وضعف جيشه عن مقاومته، فأخذ يستشير أهل الرأي فأشاروا عليه بأن خير وسيلة لمواجهتهم استخدام الأسلوب السياسي، والسعي في تفريق كلمتهم، فقوة القرمطي وشدته مستمدة ممن انضم إليه من العرب وخاصة بنو الجراح، فمال إلى المكيدة والخديعة، واستخدم أساليب

الحرب التي تنطوي على المكر والدهاء للقضاء على التحالف بين القرامطة برئاسة الحسن الأعصم والقبائل العربية، فراسل حسان بن الجراح أمير عرب طيئ[١٣٢] واستماله، ووعده بمائة ألف دينار إن هو خذل القرمطى وتركه، فبعث إليه حسان يقول: «أن ابعث إلى بما التزمت، وتعال بمن معك، فإذا لقيتنا انهزمت بمن معي، فلا يبقى للقرمطى قوة، فتأخذه كيف شئت»[١٣٣]، وتأكيدا للاتفاقية مع حسان استحلفه المعز، فحلف له بأنه سينهزم إذا حصل على المال المقرر[١٣٤].

وتجمع المصادر العربية على أن المعز عندما فكر في المال استعظمه، فرأى أن يرسل إليه دنانير زغل «مغشوش»، أي يعمل دنانير من نحاس ويطليها بالذهب الكثير، ثم عمل على وضعها في أكياس ، وجعل هذه الدنانير في أسفل الأكياس، وجعل على رأس كل كيس دنانير يسيرة من الذهب الخالص تغطى ما تحتها وحملوها إلى ابن الجراح الذي ما إن وصل إليه المال، حتى عمل على الانهزام أمام عسكر المعز فنفذ عهده مع الخليفة، وولى أصحابه منهزمين[١٣٥]، فلما رآه القرمطى وقد انهزم تحير، فكان جهده أن قاتل بمن معه حتى تخلص، وكانوا قد أحاطوا به من كل جانب، فظفروا منهم بنحو ألف وخمسمائة رجل[١٣٦].

وسار الحسن بن أحمد القرمطى فنزل أذرعات[١٣٧] في أذل حال وأرذله، وبعث المعز في آثارهم القائد أبا محمود إبراهيم بن جعفر في عسكر بلغ عشرة آلاف فارس، فظفر في طريقه بجماعة من أصحاب القرمطى، فبعث بهم إلى مصر وطيف بهم على الإبل بالبرانس والقيود، والناس يسبونهم ويشتمونهم أما الحسن بن أحمد بعد أن وصل إلى دمشق فترك بها أبا المنجا القرمطى واليا عليها[١٣٨] من قبله ورحل مع بعض رجاله إلى الأحساء، أما بالنسبة لبني الجراح فنجد أن المعز لدين الله اعتمد عليهم لفترة في طرد القرامطة من بلاد الشام، حيث استعان بهم في استرداد البلاد، كما قرب إليه ظالم بن موهوب العقيلي بعد انصرافه عن تأييد الحسن بن أحمد القرمطي، وأسند إليه ولاية دمشق في رمضان سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م، وقبض على واليها أبي المنجا القرمطي، وعلى كثير من اتباعه القرامطة، وبذلك تم استعادة سلطان الفاطميين على بلاد الشام، ولكن آل الجراح ما لبثوا أن وقفوا موقفا عدائيا من الفاطميين استمر طوال فترة الحكم الفاطمي لبلاد الشام تقريبا، ماعدا بعض الفترات البسيطة التي سالموهم فيها[١٣٩].

والسبب الرئيسي في تغير العلاقة ما فعله المعز لدين الله معهم حين سلمهم النقود المزيفة، وذلك لأنهم لم يكتشفوا بسرعة زيف هذه النقود، ولما

اكتشفوها غيروا موقفهم هذا، وأصبحوا من أشد أعداء الدولة، وهذا ما دعا يعقوب بن كلس وزير الخليفة الفاطمي العزيز بالله أن ينصحه قبل وفاته بمسالمة الروم وقتل مفرج بن دغفل بن الجراح إذا سنحت له الفرصة لتحقيق ذلك[١٤٠]، ويتضح ذلك عندما مرض يعقوب بن كلس وأثناء زيارة الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م له، وسأله عما يوصيه به، فقال يعقوب له: «سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك، واقنع من الحمدانيين بالدعوة والسكه، ولا تبق على المفرج بن دغفل بن الجراح متى عرضت لك فيه فرصة[١٤١].

بنو الجراح وأمير مكة:

كان من صور تقلب العلاقة بين بني الجراح والفاطميين أنه في سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م اتفق بنو الجراح على استدعاء أمير مكة أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى[١٤٢] ليبايعوه بالخلافة، وكان هذا الأمير قد تولى إمارة مكة سنة ٣٨٤هـ / ٩٩٤م، الذي بدا عهده مخلصا في ولايته بإقامة الخطبة للفاطميين على منابر المسجد الحرام بمكة[١٤٣].

ما لبث أبو الفتوح أن خرج عن طاعة الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، وتم هذا بإغراء من الوزير أبي القاسم حسين بن على المغربي[١٤٤] الذي خرج عن طاعة الخلفاء الفاطميين بسبب أن عبدون الكاتب النصراني سعى بابن المغربي عند الخليفة الحاكم بأمر الله، فقتل والد الوزير وإخوته، وثلاثا من أهل بيته، ولجأ هذا الوزير إلى حسان بن المفرج بن الجراح، وحسن له أن يخرج عن طاعة الحاكم ففعل هو وقومه، وأرسل الحاكم بأمر الله حملة بقيادة يارختكين[١٤٥]، وعينه واليا على الرملة، ولعدة أسباب حارب حسان يارختكين: السبب الأول أنه لما بلغ الوزير أبو القاسم المغربي قدوم يارختكين زين لحسان بن المفرج قتاله، والسبب الثاني أنه كان من عادة الفاطميين إظهار هيبة القائد ليطيعه الجميع فأمر الخليفة الحاكم بأمر الله رجاله بتبجيل يارختكين والترجل له في موكبه، وكان من جملة من أمر بخدمته والترجل له على ومحمود ابنا المفرج، وإخوة حسان مما ساءهم وأهانهم، فحرضوا والدهم على التخلص من يارختكين ومن الأسباب أيضا طمع آل الجراح فيما حوته القافلة التجارية التي كانت مرافقة لحملة يارختكين[١٤٦].

ولهذه الأسباب سارع آل الجراح بلقاء يارختكين قبل وصوله الرملة وانضمام عساكرها إليه، وجرت بين الفريقين حرب شديدة كانت الغلبة فيها لبني الجراح وأسر فيها يارختكين وأفراد أسرته، وانتهى الأمر بقتله، وكان الحاكم قد بعث في إطلاق سراحه[١٤٧]، وانزعج والد حسان من ذلك خوفا من انتقام الحاكم بأمر الله منهم[١٤٨].

أيقن آل الجراح بعد قتلهم يارختكين بأن الخليفة الحاكم سوف يعمل جاهدا على الانتقام منهم، فأخذوا يفكرون في وسيلة للتخلص من هذا المأزق، وقد أشار عليهم أبو القاسم بن المغربي بمراسلة أبى الفتوح الحسن بن جعفر العلوي صاحب مكة(١٤٩) وأن يبايعوه بالخلافة ، موضحا لهم أنه لا مطعن في نسبه، فوافق حسان بن الجراح على دعوته إلى الرملة لمبايعته والوقوف بجانبه(١٥٠)، ولتحقيق ذلك أمر حسان بن الجراح أبا القاسم بن المغربي بالتوجه إلى أبي الفتوح بمكة، فلما وصل إليه أطمعه في الخلافة، وحثه على الخروج إلى الرملة استجابة لرجاء حسان بن الجراح، وأوضح له أنه سيكون خير عون له على تثبيت سلطته وضمن له الوفاء(١٥١)، فجمع أبو الفتوح أعيان بنى حسن وشاورهم في الأمر، فطمعوا في الخلافة واتفقوا على ذلك(١٥٢).

لكن أبا الفتوح اشتكى إلى أبى القاسم قلة ما بيده من المال فأشار عليه بأخذ ما في خزانة الكعبة من المال، وما عليها من أطواق الذهب والفضة وضربه دراهم ودنانير سماها الكعبية(١٥٣)، واستولى على أموال كثيرة كانت لديه من ودائع الناس، ثم توجه بعد ذلك إلى الرملة لمقابلة آل الجراح بعد أن استخلف على مكة نائبا عنه، فخرج من مكة راكبا فرسه ومعه سيف وقضيب، وحوله جماعة من العلويين، وفي خدمته ألف فارس من بنى حسن(١٥٤)، فلما اقترب من الرملة تلقاه مفرج بن دغفل بن الجراح وأبناؤه حسان ومحمود وعلى(١٥٥) وسائر وجوه العرب بالترحاب، وترجلوا له وقبلوا الأرض بين يديه وسلموا عليه بإمرة المؤمنين(١٥٦).

وبعد ذلك أخذت البيعة لأبى الفتوح من آل الجراح، وقبائل بنى سليم، وبنى هلال، وبنى عامر، واتحد معه آل الجراح، وأقيمت له الخطبة في منازلهم وفي مدن كثيرة من بلاد الشام، بعد أن صعد المنبر معلنا خلافته وتلقب بالراشد بالله، ونادى في الناس بالأمان والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وأصدر كتابا قرئ على الناس بألا يقبل أحد الأرض بين يديه، وأن وهذا شيء ينفرد به الله عز وجل(١٥٧).

وبخروج أبى الفتوح أمير مكة وانتحاله لقب الخلافة، ومساندة بني الجراح والوزير أبي القاسم بن المغربى له، جعلت الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله يستاء من ذلك، وعول على إعادة نفوذه في بلاد الحجاز وإضعاف شأن أبى الفتوح، فعمل على تقليم أظافره، فأصدر الحاكم أوامره بعزل أبى الفتوح عن ولاية مكة، وعين بدلا منه ابن عمه أبى الطيب داود، وشجعه على التخلي عن نصرة أبي الفتوح، وبالتالي انصرف عامة الأشراف في مكة عن نصرة أبى الفتوح(١٥٨).

وأرسل الحاكم حملة عسكرية إلى فلسطين بقيادة ياروخ التركي للقضاء على حركة أبي الفتوح، غير أن هذه الحملة فشلت وانهزم جيش الفاطميين قرب داروم[١٥٩]، وتمكن بنو الجراح من القبض على ياروخ قائد الحملة ونقله إلى الرملة، وخشي حسان أن يذعن والده لطلب الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بإطلاق سراح ياروخ، فعمل على قطع رأسه[١٦٠]، وبذلك ازداد نفوذ بنى الجراح في فلسطين وبسطوا نفوذهم على جنوب الشام من الفرما إلى طبرية وحاصروا الحصون[١٦١].

أدرك الحاكم بأمر الله بعد فشل الحملة العسكرية أنه لن يستطيع القضاء على هذه الحركة بقوة السلاح فرأى أن يلجأ إلى سياسة أبيه الخليفة العزيز بالله في استخدام الدبلوماسية، فعمد إلى الحيلة في استمالة بنى الجراح بالمال، فأرسل إلى حسان بن المفرج وإلى والده المفرج واعدا إياهما وعود كثيرة باذلا لهما الأموال إذا تخلوا عن مناصرة أبى الفتوح وعملوا على إضعاف مركزه[١٦٢]، كما أنه كتب إلى حسان يسهل عليه أمر يارختكين، لأنه أدرك أن قيام آل الجراح بمساعدة أبى الفتوح خوفا من انتقامه منهم بعد قتل يارختكين[١٦٣].

وقد أراد الحاكم بأمر الله إرضاء جميع رؤساء آل الجراح ليجعلهم ينفضون عن أبى الفتوح فحمل إلى على ومحمود ابني المفرج أموالا، وضمن لهما الإقطاعات الكثيرة وتمكن من كسب ودهم[١٦٤].

وكان لحسان بن مفرج بن الجراح مطالب خاصة مقابل التخلي عن الدعوة لأبى الفتوح، لذلك أرسل والدته إلى الحاكم بأمر الله تحمل رسالة تتضمن هذه المطالب، فأجابه الخليفة إلى جميع ما سأل من إقطاع وتقرير، وكتب له أمانا بخط يده، وأهدى له جارية، وجهزها بمبالغ قيمة، وعادت والدته إليه بكل ما تمنى[١٦٥].

ولما أحس أبو الفتوح بخذلان بني الجراح إياه وعدولهم عن رأيهم في العمل على تقوية نفوذه، أدرك أنهم نسوا عهدهم له، وأنهم تركوا دعوته، وقد عبر عن ذلك في قوله لأبي القاسم المغربى: «أغويتني وأخرجتني إلى هؤلاء القوم الغدارين وأخرجتني من بلدي ونعمتي وإمارتي، وجعلتني في أيدي هؤلاء ينفقون سوقهم بي عند الحاكم ويبيعونني بالدراهم، فيجب عليك أن تخلصني كما أوقعتني وتسهل سبيلي بالعودة إلى الحجاز، فإني راض من الغنيمة بالإياب، ومتى اضطررت إلى أن أركب فرسي، وأركب التغرير في طلب النجاة»، فشجعه أبو القاسم المغربي وثبته وأخذ يفكر في خلاصه[١٦٦].

ولما تلكأ أبو القاسم، ركب أبو الفتوح دابته وذهب إلى مفرج بن الجراح، وأوضح له أنه فارق نعمته وكاشف الحاكم بالعداء ركونا إلى ذمامهم، وسكونا إلى مقامهم، وقال له: «أريد أن تبعث معي من يوصلني إلى مكة ولا تحرجني»، فبعث معه جماعة من طيء حتى بلغ مكة، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٤٠٣هـ /١٠١٢م(١٦٧) فتلقاه اتباعه واجتمع بالناس، وأشهد بخلع نفسه، وأن الإمامة للحاكم متنصلا مما اقترفه طالبا العفو، فصفح عنه الحاكم وأعاده إلى إمارته بمكة(١٦٨)، ونقش اسم الحاكم على السكة بمكة(١٦٩)، وما لبث أن حضر إلى مصر راكبا حمارا، فأمر له الحاكم بالكساء وانعم عليه، أما الوزير المغربي فإنه هرب إلى العراق، وأرسل هو الآخر قصيدة يطلب فيها الصفح والعفو، فقبل الحاكم عذره وعفا عنه، ودعاه إلى مصر فإذا به قد مات قبل أن يحضر(١٧٠).

ظل بنو الجراح متغلبين على بعض نواحي جنوب بلاد الشام لمدة سنتين وخمسة أشهر حتى سنة ٤٠٤هـ/١٠١٢م، ولم يتوان الفاطميون خلال تلك الفترة عن قتالهم، واستطاع الحاكم أن يدس للمفرج من قتله بالسم، وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م(١٧١)، ولم يكن الحاكم راضيا عن أعمال بني الجراح في بلاد الشام خلال تلك الفترة، حيث كانوا يصادرون أموال الناس وينهبونهم، ولذلك فإنه جهز إليهم حملة بقيادة قطب الدولة أبي الحسن على بن جعفر بن فلاح(١٧٢)، وأمر الجنود التي كانت بدمشق والسواحل بمساعدته أيضا، وسارت الجيوش نحو بني الجراح قاصدة الرملة من الجهتين، والتقت هذه الجيوش بحسان بن المفرج بن الجراح، وانتصرت عليه وعلى عشيرته في أراضي فلسطين، واستولى ابن فلاح على أموالهم، وأخذ ما كان لهم من الحصون بجبل السراة(١٧٣)، وتوالت الهزائم على حسان وأصبح طريدا شريدا نحو سنتين(١٧٤).

وقد ضعف آل الجراح واضمحل أمر حسان بن المفرج بعد الهزيمة التي لحقت بهم على يد على بن جعفر بن فلاح، وبعد موت مفرج مسموما فرأى أن يستعطف الحاكم بأمر الله فأرسل أمه والجارية التي كان الحاكم قد أرسلها إليه لترجو ست الملك أخت الخليفة أن تشفع له، فكان أن صفح عنه الخليفة وأعطى والدته خاتمه وثياب صوف كانت على بدنه، وعمامة كانت على رأسه، والحمار الذي يركبه، فارتدى حسان هذه الثياب المرسلة إليه، وركب ذلك الحمار وسار إلى القاهرة، وأعاده الحاكم إلى الشام حيث استرد أراضى أبيه وكف بعدئذ عن إثارة المتاعب إلى أن اختفي الحاكم بأمر الله.

علاقة بنى الجراح بالحمدانيين

ينسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون لقبيلة تغلب وموطنها ديار ربيعة من الجزيرة بالغرب من سنجار ونصيبين، وكان لحمدان سبعة أولاد،

وقد ظهر نفوذ الحمدانيين في الموصل منذ أن تقلد ولايتها عبد الله بن حمدان من قبل الخليفة المكتفي بالله سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م(١٧٥)، ولما ولي المقتدر الخلافة أقره عليها، فظل يلي أمورها حتى سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، حيث اشترك في المؤامرة التي دبرت لخلع المقتدر، فكان مصيره القتل(١٧٦).

على أن الخليفة المقتدر رغم ذلك حرص على الاستعانة بالحمدانيين، وعلى الأخص في إقليم الجزيرة لاعتقاده أنهم يستطيعون إخماد حركات القبائل المتناحرة بهذا الإقليم، فأسند إلى الحسن بن عبد الله بن حمدان ولاية الموصل، وقد استطاع هذا الأمير أن يحتفظ بنفوذه في الموصل، وقد استطاع هذا الأمير أن يحتفظ بنفوذه في الموصل منذ سنة ٣١٧هـ /٩٢٩م، كما تمكن من بسط نفوذه على جميع أرجاء ديار بكر وديار ربيعة(١٧٧).

وتعصبت هذه الدولة للعروبة وساءها استبداد الأتراك بالخلافة العباسية، فجاء زعيمها الحسن بن عبد الله الحمداني إلى بغداد ومعه أخوه لمناصرة الخليفة العباسي المتقي بالله ٣٣٠هـ/٩٤١م، وكافأ الخليفة هذا الزعيم الحمداني وعينه في وظيفة أمير الأمراء، ومنحه لقب ناصر الدولة، ثم منح الخليفة المتقي أخا ناصر الدولة الحمداني كذلك لقب سيف الدولة، على إن الأتراك استطاعوا أن يطردوا الحمدانيين من بغداد وان يحملوهم على العودة إلى الموصل سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م(١٧٨).

تطلع سيف الدولة بعد خروج الحمدانيين من بغداد إلى إعلاء شأن دولته بالموصل، فسار سنة ٣٣٣هـ /٩٤٤م إلى شمال الشام واستولى على حلب، وأخرج منها حاكمها أبا الفتح عثمان بن سعيد العباس بن وليد الكلابي التابع للدولة الإخشيدية صاحبة السيادة آنذاك على مصر والشام، وأصبح سيف الدولة بذلك صاحب حلب(١٧٩)، وظلت الدولة الحمدانية وعاصمتها حلب قائمة في شمال الشام حتى سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م.

هذه نبذة مختصرة عن قيام الدولة الحمدانية، أما عن علاقة الحمدانيين وبني الجراح، ففي عهد سعد الدولة الحمداني، أوعز سعد الدولة لزعيم بنو الجراح مفرج بن دغفل أن يثور ضد الفاطميين في منطقة فلسطين(١٨٠).

ومن مظاهر العلاقة بين بني حمدان وبني الجراح، أن سعد الدولة ألتقي سنة ٣٦١هـ/٩٧١م بزعيم آخر لبني الجراح هو حسان بن الجراح الطائي واتفقا على أن ينزعا الشام من حكم مصر(١٨١).

والسبب في تحالف الحمدانيين مع بني الجراح هو أن الحمدانيين كانوا يخشون من ازدياد نفوذ الفاطميين السياسي، فلما دعاهم جعفر بن فلاح القائد

الفاطمي بعد استيلائه على دمشق إلى إقامة الخطبة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله على منابر بلادهم، وهددهم بالاستيلاء على حلب، أثار هذا التهديد سخطهم وعملوا على القضاء على نفوذ الفاطميين ببلاد الشام[١٨٢].

والسبب أيضا أن الحمدانيين لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون الوقوف في وجه الفاطميين، ففي عهد سعد الدولة (٣٥٦-٣٨١هـ/٩٦٦-٩٩١م) ابن سيف الدولة الحمداني بدأ الضعف يظهر في الدولة الحمدانية في حلب، فثار عليه قرعوية غلام أبيه، واستولى على حلب، وحال دون دخوله إليها، فقصد سعد الدولة إلى حمص، وآثر البقاء بها، وانحاز إلى جانبه الفاطميون، وأقام الخطبة للمعز لدين الله الفاطمي[١٨٣]، ثم وجه اهتمامه إلى استرداد حلب، واستعان بالعرب من بني كلاب، وبني الجراح وغيرهم[١٨٤].

ولم تكن علاقة سعد الدولة بالخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م) على شيء من الصفاء، فقد أساء سعد الدولة معاملة رسول هذا الخليفة حين قدم إليه حاملا رسالة منه يحذره بها من إلحاق الأذى بأبناء بكجور، ولم يمض على ذلك غير قليل حتى توفي سعد الدولة سنة ٣٨١هـ/٩٩١م.

بنو الجراح وبنو مرداس

ينسب بنو مرداس إلى بني كلاب، وبنو كلاب بطن من ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن خصفة بن قيس، وهم من العرب المضريين[١٨٥]، وكانت منازلهم في المنطقة المحيطة بمدينة الرياض في وسط الجزيرة العربية، ثم انتقلوا إلى الشام، ويذكر ذلك ابن خلدون بقوله «... ثم انتقل بنو كلاب إلى الشام، فكان لهم في الجزيرة الفراتية حديث أو ملكوا حلب وكثير من مدن الشام، وتولى ذلك منهم بنو صالح ابن مرداس، ثم ضعفوا، وكان ذلك خلال القرن الرابع الهجري»[١٨٦].

وبعد وفاة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م) تولى الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م)، ولم تلبث بلاد الشام أن خرجت عن سلطة الخليفة، ولم يكن قد انقضى على وفاة الحاكم بأمر الله سنتين[١٨٧].

ورأى حسان بن الجراح أن الفرصة سانحة لكي يستعيد نفوذه في فلسطين مستغلا فترة الضعف وسوء الحالة الاقتصادية بسبب المجاعات التي حدثت في مصر سنتي ٤١٤-٤١٥هـ/١٠٢٣-١٠٢٤م[١٨٨]، ووجد حسان أنه لن يتمكن من استعادة نفوذه إلا إذا تحالف مع بقية القبائل العربية في الشام، فعقد اتفاقا سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م مع صالح بن مرداس أمير بني كلاب، وسنان بن عليان

الكلبي ، يتضمن هذا التحالف فيما بينهم على إخراج الفاطميين من بلاد الشام، وتقسيمها فيما بينهم على أن يكون من حلب إلى عانة - على نهر الفرات لصالح بن مرداس ، ومن الرملة إلى حدود مصر مع حسان بن الجراح أمير طيئ ودمشق وما يحيط بها لسنان بن عليان الكلبي[١٨٩].

وتنفيذا لهذا الاتفاق استولى حسان بن الجراح على الرملة في رجب سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م وأحرق معظمها ونهبها ، وسبى جماعة كبيرة من النساء والصبيان[١٩٠].

ولما رأى الخليفة الفاطمي الظاهر الخطر الذي يهدد سلطان الفاطميين ببلاد الشام من جراء ذلك الاتفاق الذي عقده بعض زعماء العرب جهز جيشا لمحاربة هذه القوى المتحالفة، وأسند قيادته لمنتخب الدولة أنوشتكتين الدربزي، وعينه واليا على فلسطين ، وامتد نفوذ الدربزي حتى شمال دمشق إلى جانب الرملة وعسقلان وغيرهما[١٩١]، ولذا علا ذكره واشتهر أسمه وقويت شوكته بانتصاره على العرب، فقلق ابن الجراح من ذلك وخاف على مركزه، ورأى أن يتخلص منه فأخذ ينسب إليه كل قبيح ، حتى استطاع أن يؤثر على الدولة الفاطمية ، وأن يحصل منها على أذن بالقبض عليه[١٩٢].

وتنفيذا للاتفاق بين حسان وصالح وسنان، اجتمعوا وقاتلوا الدربزي حتى أجبروه على التراجع إلى عسقلان، ثم تحايلوا في القبض عليه سنة ٤١٧هـ/١٠٢٦م (١٩٣)، ولكنهم ما لبثوا أن أفرجوا عنه وعاد للقاهرة.

وبعد أن تحقق لابن الجراح التخلص من سيطرة أنوشتكتين الدربزي على فلسطين حشد جموعه ، وهاجم الرملة واسترد سلطانه بها ، ولكنه لم يلبث أن نهبها وصادر أملاك أهلها[١٩٤]، ولما علم الظاهر بذلك أرسل جيشا ليقضي على نفوذ العرب المتحالفين بقيادة الدربزي ، نظرا لمعرفته ودرايته بأحوال فلسطين، وليثأر مما حل به من هزيمة على يد بني الجراح وحلفائهم من بني مرداس وغيرهم[١٩٥].

وجهز الوزير الفاطمي علي بن أحمد الجرجرائي الحملة بما يلزمها ، وقد خرج الخليفة الظاهر لوداعها ، وسار الدربزي على رأس أعوانه حتى وصل الرملة . واحتفل فيها بعيد الأضحى ، ومنها سار إلى بيت المقدس[١٩٦]، ولما علم حسان بوصول الدربزي إلى فلسطين استصرخ صالح بن مرداس لمساعدته فسار إليه من حلب ، واجتمعا على الأردن ، ووقع القتال بين قواتهما وقوات الدربزي عند طبرية بالأقحوانة وفي هذه المعركة تمكن القائد الفاطمي من إلحاق الهزيمة بقوات حلف عرب الشام ، وقتل صالح بن مرداس وابنه الأصغر

علي، وفر ابنه نصر إلى حلب[١٩٧]. أما حسان بن الجراح فقد استطاع أن يفر إلى البوادي متخفيا، ثم نجح في الالتجاء إلى الإمبراطور البيزنطي ليحتمي في بلاطه[١٩٨]. وهكذا انفرط عقد التحالف العربي بعد هزيمة الأقحوانة وقتل صالح بن مرداس.

بنو الجراح والبيزنطيون

أظهر مفرج بن دغفل بن الجراح الطاعة للخليفة الفاطمي العزيز بالله، إلا أنه سرعان ما جاهر بخلع طاعته، وذلك أنه عندما أصبح مفرج سيدا لفلسطين قام بنهب الأراضي التي حول مدينة الرملة سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م، مما جعل الخليفة العزيز يسير عليه حملة، وأرسل إليه الوزير يعقوب بن كلس جيشا بقيادة صهره رشيق العزيزي سنة ٣٧١هـ/ ٩٨١م، فهزمه ثم سلك مفرج طريق الصحراء ولجأ إلى بكجور في حمص ومن هناك ذهب إلي أنطاكية ولجأ مدة إلى الإمبراطور البيزنطي - باسيل الثانى Basil II ‏٣٦٦-٤١٦هـ/ ٩٧٦-١٠٢٥م) طالبا حمايته ومعاونته[١٩٩]، بيد أنه لم يتلق سوى الهدايا والكلمات الحلوة، وظل بجواره حتى سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م حيث نجده في هذه السنة بصحبة الدمستق[٢٠٠] عندما ذهب لنجدة حلب حينما هاجمها بكجور وحذره من أن الجيش البيزنطي وشيك الوصول فلاذ بكجور بالفرار[٢٠١].

ثم عاد المفرج بن دغفل إلى الشام والتمس العفو والأمان من العزيز فعفا عنه، وفي سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م تلقى المفرج هدية من العزيز عبارة عن كسوة وجياد، ودعاه الخليفة للاشتراك في حملة على حلب[٢٠٢].

وفي الفترة من سنة (٤٠١-٤٠٣هـ/ ١٠١٠-١٠١٢م) وهى الفترة التي سيطر فيها بنو الجراح على فلسطين أحسن بنو الجراح معاملة المسيحيين في بيت المقدس[٢٠٣]، وتجلت هذه المعاملة في تعيين بطريرك لهم على بيت المقدس وموافقتهم على القيام بإعادة بناء كنيسة القيامة، التي كان الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله قد خربها واستولى على أوقافها[٢٠٤]، حيث كان الحاكم قد أمر بهدم الكنائس سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م[٢٠٥]، وكان ذلك نتيجة للمفاوضات التي جرت بين بني الجراح والبيزنطيين، وقد وجد ابن الجراح في اتصال البيزنطيين به ومفاوضتهم له مظهرا من مظاهر الاعتراف بسيادته على بيت المقدس.

لم ينس البيزنطيون لابن الجراح الاستجابة لمطالبهم التي رفعت مكانتهم في العالم المسيحي، ولهذا أيدوا آل الجراح في نجاح المفاوضات العسيرة التي جرت فيما بعد بين بنى الجراح والخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، التي انتهت بعقد الصلح معهم[٢٠٦].

وقد قام النصارى فى بيت المقدس بدور كبير في تحقيق هذا التقارب بين البيزنطيين وآل الجراح، وذلك لأن كثيرا من المسيحيين ببيت المقدس كانوا قد اضطروا بسبب سياسة الحاكم إزائهم للفرار إلى أنطاكية التي كانت تحت سيادة البيزنطيين، ولما عادوا إلى مدينتهم بعد أن سيطر عليها ابن الجراح ولمسوا حسن معاملته لهم عرفوا له هذا الفضل، وعملوا على التقارب بينه وبين الأباطرة[٢٠٧].

وفي سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م خرج أمير مكة أبو الفتوح عن طاعة الحاكم ولجأ إلى حسان بن الجراح وقومه، فبايعوه بالخلافة، ووقفوا بجانبه، وهزموا جيشا أرسله الحاكم بقيادة ياروخ، واستفحل نفوذ بنى الجراح في فلسطين وجنوب بلاد الشام[٢٠٨].

وأدرك الحاكم بعد فشله عسكريا أنه لن يستطيع القضاء على هذه الحركة عسكريا فلجأ إلى الدبلوماسية وعقد صلحا واتفاقا مع بنى الجراح لكي ينفضوا عن أبى الفتوح، وتدخلت الدولة البيزنطية في اتمام هذا الصلح وانجاح المفاوضات لصالح بني الجراح، حيث كانوا يعملون على رد الجميل لما قام به بنو الجراح تجاه المسيحيين بالقدس من قبل[٢٠٩].

وفي سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م سعت القبائل العربية في بلاد الشام إلى الاستقلال عن النفوذ الفاطمي وكونت حلفا ضم القيسيين والكلبيين، الذي أسفر عن تغيير أوضاع المنطقة، فقد اجتمع حسان بن الجراح زعيم طيئ، وسنان بن عليان زعيم بني قيس، وصالح بن مرداس زعيم بني كلاب، واتفق الثلاثة على إقتسام بلاد الشام فيما بينهم[٢١٠] وأعلم هؤلاء الزعماء الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني بقيام هذا الحلف، والتمسوا عونه ضد الخلافة الفاطمية، ولكنه لم يجب طلبهم[٢١١] ويذكر أن محسن بن بدوس كاتب حسان بن الجراح كان يحرضه على الفتنة، وكاتب ملك الروم باسيل الثاني يطمعه في الدولة[٢١٢].

ويرجع ذلك أنه كان لدى الإمبراطورية البيزنطية ما يشغلها عن أحداث الشام إذ أخذ الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني ابتداء من القرن الخامس الهجرى/ الحادي عشر الميلادي يتجه وجهة غربية في حروبه وفتوحاته حتى كرس جهوده لمحاربة البلغار والصقالبة وتعقبهم بالقتل والإفناء حتى سمي بسفاح البلغار[٢١٣]، وقام لذلك بعقد معاهدة صلح ومهادنة مع الخلافة الفاطمية مداها عشر سنوات ابتداء من (٣٩٢هـ/ ١٠٠١م)[٢١٤].

وقد خلف الإمبراطور باسيل الثاني الإمبراطور قسطنطين الثامن ContantineVIII ٤١٦-٤٣٠هـ/ ١٠٢٥-١٠٢٨م) ولم يكن له نشاط خارجي ملموس، بل

إنه عجّل بعقد معاهدة صلح ومهادنة مع الخليفة الفاطمي الظاهر لدين الله سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م(٢١٥).

وفي سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م أنفذ الخليفة الفاطمي سفارة إلى الإمبراطور قسطنطين الثامن لعقد الصلح، فتم الإتفاق بين الفريقين على إبرام معاهدة تضمنت شروطا التزم بتنفيذها كل منهما، وفيما يلي هذه الشروط(٢١٦):

١- أن يسمح لكافة المسيحيين بإعادة بناء الكنائس التي هدمها الحاكم بأمر الله عدا التي حولت إلى جوامع.
٢- ألا يقوم الفاطميون بأي عمل عدائي نحو حلب حتى تقوم بسداد الجزية السنوية التي كانت تدفعها للدولة البيزنطية منذ عام ٩٧٠م.
٣- أن يسمح للإمبراطور البيزنطي بإعادة بناء كنيسة القيامة في بيت المقدس.
٤- أن يعين الإمبراطور البيزنطي بطريركا في بيت المقدس.
٥- ألا تمد الدولة الفاطمية يد المساعدة لأي عدو من أعداء الدولة البيزنطية.

وفي مقابل هذه الشروط يتعهد الإمبراطور البيزنطي بما يلي:

١- ألا يقدم الإمبراطور أية مساعدة لحسان بن مفرج بن الجراح صاحب الرملة الذي خرج على الخليفة الظاهر الفاطمي.
٢- أن يسحب الإمبراطور طلبه الخاص بالاستعاضة عن شيزار بأفامية.
٣- أن يعيد بناء جامع القسطنطينية وأن يعمل له الحصر والقناديل وأن يقيم به مؤذن.
٤- أن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين هم في قبضة الروم
٥ - أن يعمل على ذكر اسم الخليفة الفاطمي في الخطبة في جامع القسطنطينية والمساجد الواقعة داخل حدود الدولة البيزنطية، وخاصة صقلية(٢١٧).

وما يهمنا من هذه البنود هو مطلب الخليفة الظاهر من الإمبراطور البيزنطي بعدم تقديم أي مساعدة لحسان بن الجراح صاحب الرملة، حيث يتضح لنا أنه كانت هناك علاقات بين الروم وحسان بن الجراح من خلالها يتلقى المساعدة منهم، وخطورة ذلك على الدولة الفاطمية، واعترافهم بسيطرته على الرملة.

وبعد معركة الأقحوانة(٢١٨) التي كانت بداية الانحسار للنفوذ السياسي للقبائل العربية في بلاد الشام بسبب هزيمتهم وانفراط عقد التحالف العربي في بلاد الشام، طرد آل الجراح من فلسطين، ولجأ زعيمهم حسان بن الجراح إلي أراضي الدولة البيزنطية، ونزل إلى جوار الإمبراطور البيزنطي(٢١٩).

وفي سنة ٤٢١هـ/ ١٠٢٩م كان الإمبراطور البيزنطي رومانوس الثالث Romanus III ٤١٩-٤٢٦هـ/١٠٢٨-١٠٣٤م) يعد العدة لحملة يسيرها على أبناء صالح بن مرداس، فعرض عليه حسان أن توازر قبيلته الإمبراطور، واستقبل الإمبراطور مبعوثيه في إنطاكية بود عظيم، وأعطاهم علما لسيدهم، وكان مزينًا بصليب، ووعد بأن يعيد تنصيب حسان بن الجراح في بلاده مرة أخرى، وانتهت حملة الإمبراطور رومانوس الثالث إلى كارثة، حيث انتصر نصر بن مرداس، وشعر بالأمان مما أدى إلى زيادة هيبته ونفوذه(٢٢٠).

وشرع حسان بمعاونة ثانية من كلبية رافع بن أبى الليل، فقدم طائفة الكلبية في حملة على جيش الفاطميين في منطقة حوران، ولكنه رد على أعقابه صوب الصحراء(٢٢١)، وهنالك لقي في تدمر مبعوثا من قبل الإمبراطور، أقنعه بالمجيء والاستقرار قرب الأراضي البيزنطية، ونتيجة لهذا تحركت جماعة تزيد على ٢٠,٠٠٠ نسمة بخيامهم صوب منطقة إنطاكيه، وتم ذلك سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م، وقد حمل حسان من الإمبراطور بالهدايا واستقبل ابنه علان في البلاط الإمبراطوري، ونصب بنو طيئ خيامهم في جوار الروج(٢٢٢) جنوبي شرق إنطاكيه، وقد هاجمهم القائد الفاطمي الدزبري مرتين(٢٢٣).

وفي سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م سارت الروم ومعهم حسان بن مفرج الطائي، وكان قد هرب إليهم بعد انهزامه أمام الدزبري، واستطاع هذا الجيش الوصول إلى قلعة أفاميه(٢٢٤)، فحبسوها وغنموا ما فيها، وملكوا قلعتها، وأسروا وسبوا، وكانت من أملاك الفاطميين(٢٢٥).

وقد أيد حسان البيزنطيين تأييدا فعالا لا بغزوته الناجحة على أفاميه فحسب، بل ساعد أيضا في الاستيلاء على حصن منيقة في جبل الرواديف، وكان وقتئذ في يد نصر بن مشرف، وفي هذه المناسبة كان ابنه علافا قد استقبل في البلاط البيزنطي وجعل شريفا، وقد استقبل حسان بن الجراح مرتين في القسطنطينية(٢٢٦).

وفي سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م جرت المفاوضات بين الخليفة الفاطمي الظاهر والإمبراطور رومانوس الثالث Romanus III بعد استيلاء البيزنطيين على حصن بيكسرائيل(٢٢٧) في صيف ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م وكان حسان بن الجراح حاضرا بشخصه في المناقشات التي جرت في القسطنطينية، وكان أحد الشروط التي وضعها الإمبراطور رومانوس الثالث لإقرار السلام هو أن الخليفة يجب أن يسمح لحسان بن الجراح بالعودة إلى بلاده، وأن يستأنف حيازته للأراضي التي كان يملكها في عهد الحاكم بأمر الله فيما عدا تلك التي امتلكها منذ مجيء الظاهر في مقابل وعد بالولاء للخليفة ولكن الخليفة رفض(٢٢٨).

وفى سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م هاجم منيع بن شبيب بن وثاب النميري صاحب حران[٢٢٩] ونصر الدولة المرواني[٢٣٠] مدينة الرها، وكانت من أملاك البيزنطيين منذ سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٣م، فهب حسان بن الجراح لنجدتها في خمسمائة فارس من اليونانيين والعرب[٢٣١].

وهكذا يتبين من خلال الدراسة أنه كانت هناك علاقات ودية بين بني الجراح والبيزنطيين، وتجلى ذلك من خلال التجاء بني الجراح إلى البيزنطيين وقت الشدة، وحينما تضيق عليهم سياسة الدولة الفاطمية، وكانوا في هذه العلاقة يفضلون مصلحتهم الخاصة عن المصلحة العامة، حيث كانوا يميلون إلى هذا الجانب أو ذاك حسب ما تقتضيه مصلحتهم، وبمقدار ما يؤثر تأييدها لأي منهما على كيانها ووجودها، وبقدر ما كانت تحصل عليه من أموال ومساعدات من الجانبين.

على أن الهدف الأساسي من تلك العلاقة كان من أجل الاعتراف السياسي ببني الجراح من قبل دولة قوية مثل الدولة البيزنطية، مما يعضد مكانتهم بين القوى الموجودة في بلاد الشام، وخاصة الدولة الفاطمية.

ضعف بنى الجراح

أصبح الدزبرى بعد انتصاره على العرب في الأقحوانة هو الحاكم القوى في الشام كله الذي خضع لسلطانه وخشيه الروم وملوك الأطراف، وحاز حب الرعية وكانت مدة حكمه في بلاد الشام تمثل قمة السيطرة الفاطمية عليها، وخضع الجميع لطاعة الخليفة الفاطمي في مصر[٢٣٢].

وما لبثت الاضطرابات والفوضى أن عادت إلى بلاد الشام عندما ضعف مركز الدزبرى في سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م، حيث ساءت العلاقة بينه وبين الوزير أبى القاسم الجرجرائى، التي انتهت بوصول سجل من مصر إلى دمشق قُرئ على المنابر يتهم الدزبرى بالخيانة ويسقط نعوته، فأرسل إلى الخليفة يستعطفه ولكن دون فائدة، حتى يئس من رضاء الخليفة، وظل بحلب حتى أكبَّ على الشراب ومرض من الحزن، ومات في جمادى الأولى سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م، وبموته ابتدأت الأمور تختل من جديد في بلاد الشام، وأخذ العرب يعيثون في أرجائها فسادا، واشتدت وطأة حسان بن المفرج الطائي بفلسطين[٢٣٣]، ولهذا عينت الدولة الفاطمية ناصر الدولة الحسين بن حمدان أميرا على دمشق (٤٣٣-٤٤٠هـ) ليعمل على استتباب الأمن في بلاد الشام[٢٣٤]، ولما رأى أن ابن الجراح قد سيطر على فلسطين وأفسد الأمور فيها توجه بعساكره إليها، وظل يشن الحرب على حسان بن الجراح[٢٣٥]، ولا تذكر المصادر شيئا عن نتيجة هذه

الحروب وماذا حدث لحسان بن الجراح، لأن المصادر لم تذكر اسمه، كما أننا لا نعلم شيئا عن نهاية حسان بن الجراح[٢٣٦].

ومما يذكر أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م) قبض على اثنين من أبناء أخوة حسان بن الجراح، وسجنهم في خزانة البنود وهما حازم بن على بن الجراح وحميد بن محمود بن الجراح.

ازداد نفوذ الترك بزعامة ناصر الدولة بن حمدان بعد انتصاره على العبيد سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م، على أن ناصر الدولة بن حمدان سرعان ما كشف عن هدفه الذي كان يسعى إليه، وهو الاستئثار بالسلطة، فاجتمع الأتراك لدى الوزير خطير الملك ليبحثوا عن وسيلة تخلصهم من ناصر الدولة، فنصحهم الوزير بالابتعاد عنه لأنه لن يحقق شيئا إلا بهم، واتجه الترك إلى المستنصر وأبلغوه بما حدث من ناصر الدولة في الوقت الذي كان المستنصر قد وصل إليه خبر تدبير مؤامرة للإطاحة به، فقد تآمر ناصر الدولة مع الشريف طاهر حيدرة بن مختص الدولة أبي الحسين الذي قدم إلى مصر بعد أن أبعده بدر الجمالي من دمشق، كما تآمر مع أثنين من أمراء عرب الشام، وهما حميد بن محمود بن الجراح، وحازم بن علي بن الجراح الطائيين، وكان المستنصر قد أمر بحبسهما منذ نيف وعشرين عاما، فأطلق ناصر الدولة سراحهما في يوم عيد الفطر من خزانة البنود[٢٣٧]، واتفق معهم على أنهم إذا تمكنوا من التخلص من بدر الجمالي الذي كان يخشى قدومه إلى مصر فإنه سيعمل على خلع المستنصر من الخلافة وتولية الشريف أبي طاهر حيدرة [٢٣٨].

ونجح بدر الجمالي مرة أخرى في أن يستخدم بنى الجراح في التخلص من أحد أعدائه وذلك سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م عندما دخل دمشق وهرب منها الشريف حيدر بن إبراهيم أبو طاهر بن أبى الشريف العلوي إلى عمان البلقاء، فغدر به بدر بن حازم بن الجراح وقبض عليه وبعث به إلى بدر الجمالي بعد أن أعطاه بدر الجمالي اثنى عشرة ألف دينار وخلعا كثيرة، فقتله بدر الجمالي أقبح قتلة ثم سلخ جلده، وقيل سلخه حيا[٢٣٩].

وبعد ذلك لم يعد هناك ذكرا ذو أهمية عن بنى الجراح مثال ذلك ما أشارت إليه المصادر عن أحد بنى الجراح، وهو على بن مفرج بن دغفل بن الجراح في سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م[٢٤٠].

قدم بدر الجمالي إلى مصر سنة ٤٦٦هـ [٢٤١]، وتولى الوزارة سنة ٤٦٨هـ[٢٤٢]، وفي سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م أثناء ولايته على دمشق حيث كان المستنصر بالله قد أسند إليه إمارة دمشق في ربيع الآخر سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٢م

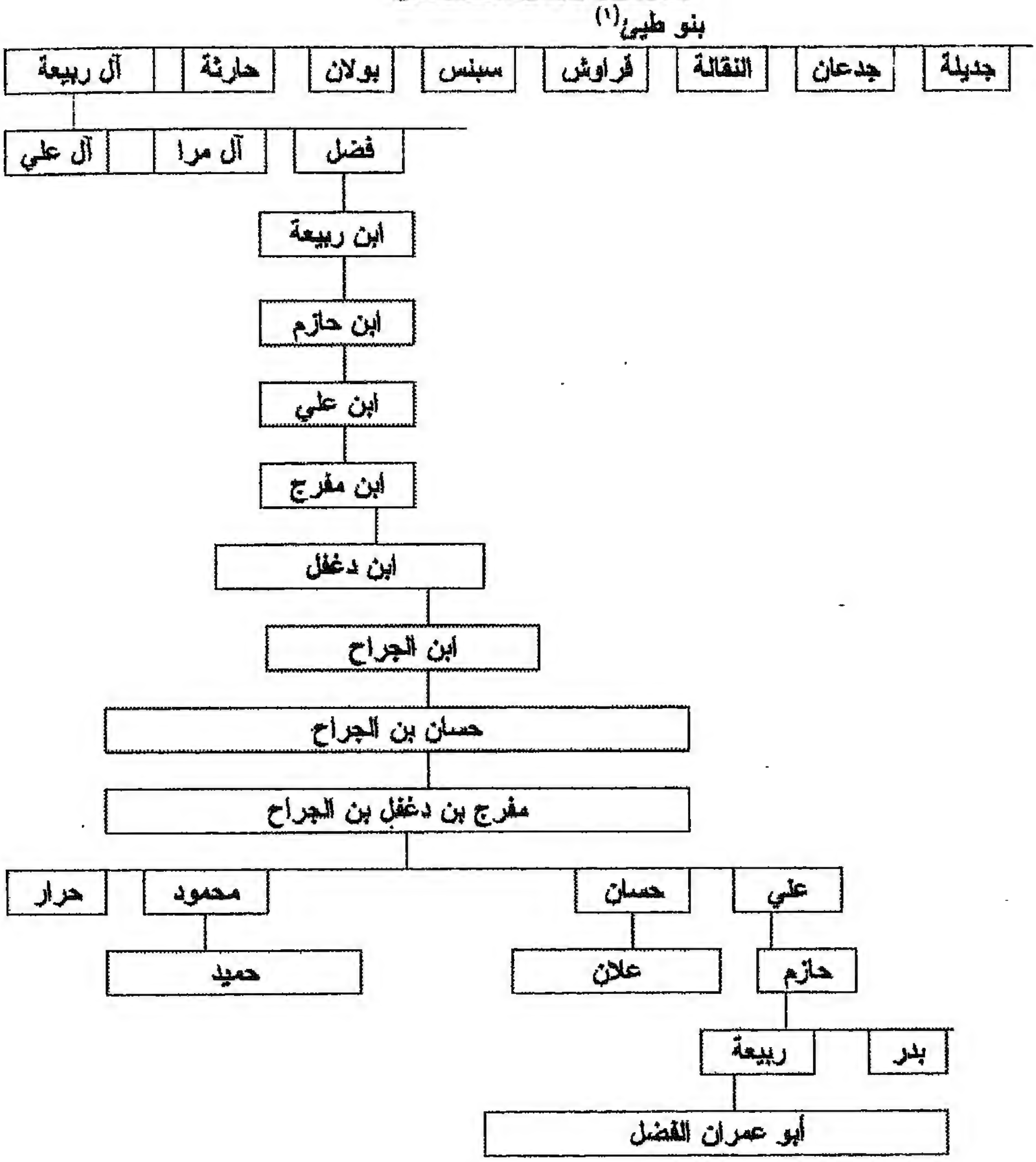
وظل يلي أمورها حتى غادرها في رجب سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م، بعد أن دارت بينه وبين أهلها حروب، ثم عاد إلى ولايتها بعد سنتين في شعبان سنة ٤٥٨هـ/١٠٦٥م، ولم يكد يمر عامان على ولايته الثانية حتى نشبت الحرب مرة أخرى بينه وبين الأهالي الذين ثاروا عليه لشدته وحزمه، مما اضطره إلى الرحيل عن دمشق سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م إلى مصر، ثم قلده المستنصر نيابة عكا سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م(٢٤٣).

ويذكر ابن خلدون أن أحد بنى الجراح زمن الاحتلال الصليبي لبلاد الشام، وهو أبو عمران الفضل بن ربيعه بن حازم بن الجراح كان له موقف غير واضح، فكان مترددا بين الصليبيين والفاطميين، حتى اضطر والى دمشق الأتابك طغتكين إلى طرده من الشام(٢٤٤).

وذهب أبو عمران إلى العراق، والتجأ إلى آل مزيد وإلى أميرهم صدقة بن منصور بن دبيس بن مزيد، والأمير أبو الحسن سيف الدولة صاحب الحلة، وذلك في سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م(٢٤٥)، وعرض أن يقاتل صدقة، وأن يسد عليه طريق الصحراء، ثم ذهب إلى الأنبار ولم نسمع عنه شيئا، وقتل صدقة بن مزيد سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م(٢٤٦).

وبذلك انتهى أمر أسرة بنى الجراح المشاغبة، الذين لم تخل سيرتهم من الغدر والشغب وأعمال السلب والنهب، وتفضيل المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، ولا يمكن لنا وصفهم بأفضل من أنهم كانوا أداة استخدمها المتنافسون على بلاد الشام مقابل تحقيق بعض المكاسب المادية والسياسية لهم، وذلك خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادى عشر الميلاديين.

شجرة نسب بنـــي الجراح



جدول يبين فترات حكم الخلفاء الفاطميين،وما يقابلهم من الأباطرة البيزنطيين(١)

الخليفة الفاطمى	فترة حكمه	الإمبراطور البيزنطي	فترة حكمه
المعز لدين الله الفاطمي	٣٤١-٣٦٥هـ/ ٩٥٢-٩٧٥م	١- رومانوس الثاني ٢- نقفور فوقاس ٣- حنا الأول تزمسكيس	٩٥٩-٩٦٣م/٣٤٨-٣٥٢هـ ٩٦٣-٩٦٩م/٣٥٢-٣٥٩هـ ٩٦٩-٩٧٦م/٣٥٩-٣٦٥هـ
العزيز بالله	٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م	الإمبراطور باسيل الثاني	٩٧٦-١٠٢٥م/٣٦٥-٤١٦هـ
الحاكم بأمر الله	٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢٠م	الإمبراطور باسيل الثاني	٩٧٦-١٠٢٥م/٣٦٥-٤١٦هـ
الظاهر بالله	٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م	١- باسيل الثاني ٢- قسطنطين الثامن ٣- رومانوس الثالث ٤- ميخائيل الرابع	٩٧٦-١٠٢٥م/ ٣٦٥-٤١٦هـ ١٠٢٥-١٠٢٨م/٤١٦-٤١٩هـ ١٠٢٨-١٠٣٤م/٤١٩-٤٢٦هـ ١٠٣٤-١٠٤١م/٤٢٦-٤٣٣هـ
المستنصر بالله	٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م	١- ميخائيل الرابع ٢- قسطنطين التاسع ٣- تيودورا بورفيرجينيوس ٤- ميخائيل السادس ٥- إسحاق الأول كومنين ٦- قسطنطين العاشر دوقاس ٧- ميخائيل السابع ٨- نقفور الثالث ٩- الكسيوس الأول كومنين	١٠٣٤-١٠٤١م/٤٢٦-٤٣٣هـ ١٠٤٢-١٠٥٤م/٤٣٣-٤٤٦هـ ١٠٥٤-١٠٥٦م/٤٤٦-٤٤٨هـ ١٠٥٦-١٠٥٧م/٤٤٨-٤٤٩هـ ١٠٥٧-١٠٥٩م/٤٤٩-٤٥١هـ ١٠٥٩-١٠٦٧م/٤٥١-٤٦٠هـ ١٠٦٧-١٠٧٨م/٤٦٠-٤٧١هـ ١٠٧٨-١٠٨١م/٤٧١-٤٧٤هـ ١٠٨١-١١١٨م/٤٧٤-٥١٢هـ

(1) Diehl, Morcais (G): Le Mond Oriental de 395 a 1081 Chist , Du Mogen Age , tome 3 , p467-468

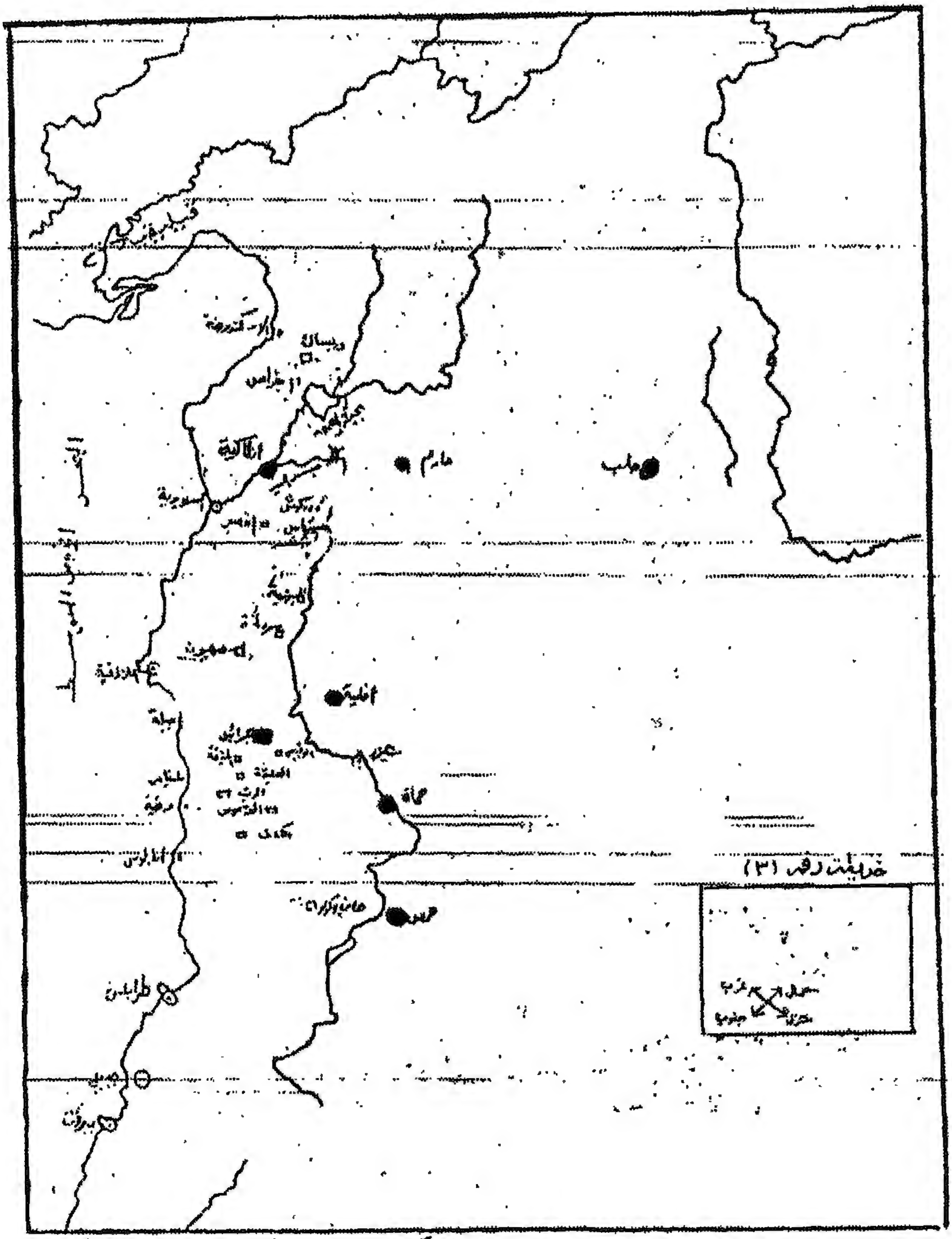
Roman Empire www.yuestia.com , Reasrch the Roman Empire at the world's largest on line Library.

السيد الباز العرينى: الدولة البيزنطية، بيروت ١٩٨٢م، ص ٨٩٤-٨٩٩.

بدر عبدالرحمن محمد: تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية منذ قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الخامس الهجرى، مكتبة الأنجلو القاهرة، ١٩٩٦م ، ص ٢١، ٢٢ ، ٣٢ ، ٣٨ .

عبدالرحمن محمد عبدالغنى: موقف البيزنطيين والفاطميين منذ ظهور الأتراك السلاجقة، ص ٤٠ ، ٤٣ .

Vasiliev (A.A): Histoire de L'Empire Byzantine , Tom I , (Paris 1932) , P351, 407 , 408 , 423.



خريطة يبين عليها بعض الأماكن التي وردت في البحث

الهوامش

(١) طيئ بفتح الطاء وتشديد الياء ، وهمزة في الأخر ، ما سمي طيئ طيئا ، واسمه جلهمة لأنه اول من طوي المناهل، وطوى بئرا عند شجرة، محمد عبد الجواد الأصمعي : العرب وأطوارهم، مطبعة الجمالية، مصر، جـ١، ص ١٤٧ .

(٢) ابن خلدون : تاريخه، جـ٦، ص١٠، عمرو رضا كحالة : معجم القبائل، جـ١، ص١٧٨.

(٣) ابن حزم : جمهرة انساب العرب، جـ١، ص٣٩٨، دار الكتب العلمية، بيروت، القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص٣٢٦.

(٤) ابن قتيبة : كتاب المعارف، حققه د. ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ص٣٥، السمعاني: الأنساب، جـ٢، ص٣٦٤.

(٥) ابن خلدون : تاريخه، جـ٦، ص١١، القلقشندي : صبح، جـ٤، ص٢٠٣.

(٦) الخالدي : المقصد الرفيع المنشأ، ص١٥٥، ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص٩٣٦.

(٧) ابن خلدون : تاريخه، جـ٦، ص١١، سلطان طريخم المذهن : جامع أنساب قبائل العرب، ص٩١

(٨) ابن خلدون : تاريخه، جـ٦، ص١٠.

(٩) ابن خلدون : تاريخه، جـ٦، ص١٠.

(١٠) دائرة المعارف الإسلامية، وضع مجموعة من العلماء، تعريب أحمد زكي خورشيد، دار الشعب، القاهرة، جـ٩، ص٢٦٩٨.

(١١) محمود محمد الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م، ص ١٨.

(١٢) القلقشندي : صبح الأعشى، جـ٤، ص٢٠٣.

(١٣) ابن خلدون : تاريخ، جـ٦، ص١٢، سلطان طريخم : جامع أنساب قبائل العرب، ص٩١.

(١٤) أحمد عبد الباسط حسن : تاريخ العرب القديم، ص ١٢١، ١٢٢.

(١٥) جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، مراجعة حسين مؤنس، دار الهلال، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٢٣٩، جمال الدين سرور : تاريخ الدولة العربية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ص٣٤

(١٦) الكلبي: كتاب الأصنام، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، ط ٢٠٠٤م، دار الكتب العربية، القاهرة ، ص٥٩، ابن خلدون: تاريخه، جـ٦، ص١١، سلطان طريخم: جامع أنساب العرب، ص٩١.

(١٧) زيد الخيل: هو زيد الخيل بن مهلهل بن زيد بن مهيب بن عبد رضي بن المختلس بن توب بن كنانة ابن غوث، له صحبة ونية في الإسلام.

(١٨) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم وآخرون، القاهرة ١٢٨٥هـ، جـ١، ص٥٧٢.

(١٩) ابن هشام: السيرة، جـ٤، ص١٢٤، ابن كثير : البداية، جـ٥، ص٨٠، الخضري : محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ص١٩٣.

(٢٠) ابن هشام : السيرة، جـ٤، ص١٢٥.

(٢١) محمد عزب دسوقي : القبائل العربية في بلاد الشام، ص١٢١.

(٢٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٨، سلطان طريخم : جامع انساب القبائل العربية، ص٩١.

(٢٣) الواقدي : فتوح الشام، جـ١، ص ٤٠-٤٢.

(٢٤) محمد عزب دسوقي : القبائل العربية في بلاد الشام، ص٢٥١.

(٢٥) الطبري : تاريخه، جـ٥، ص٣٠، ابن الأثير : الكامل، جـ٣، ص١٥٥.

(٢٦) الطبري : تاريخه، جـ٥، ص٣١.

(٢٧) محمد عزب دسوقي: القبائل العربية في الشام، ص٢٥، هامش ٤.
(٢٨) خورشيد: القبائل العربية، ص٢٢٤.
(٢٩) الباز العريني: الشرق الأوسط، طبعة ١٩٦٣، جـ١، ص١٤.
(٣٠) المترفع القرمطي: أحد القرامطة لقب بالهادي، ودعا لنفسه في حمص فتبعته قبائل من العرب من بينها طيئ، أمينة بيطار : مظاهر الحضارة، ص٢١٦، ٢١٧.
(٣١) أمينة بيطار : مظاهر الحضارة، ص٢٨٧.
(٣٢) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص١٣٨، ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٤٢.
(٣٣) المقريزي: الخطط، جـ٢، ص١٣٨، ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٤٢.
(٣٤) القلقشندي : نهاية الأرب، ص١٤١، ١٥٦، القلقشندي : قلائد الجمان، ص٨٦، بدر عبد الرحمن: شرق الدلتا، ص٢٠.
(٣٥) المقريزي : البيان والأعراب، ص٨،٩.
(٣٦) سهام أبو زيد : المغاربة، ص٧٤، ٧٥.
(٣٧) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٧-٢٩.
(٣٨) أحمد لطفي السيد : قبائل العرب في مصر، جـ١، ص٤٥ .
(٣٩) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٤٢.
(٤٠) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، جـ٣، ص٣٥٨، محمد كرد علي: خطط الشام، ص٢٢٥.
(٤١) أنظر علاقة بنو الجراح بالقرامطة.
(٤٢) الحويري: الأوضاع الحضارية، ص١٨.
(٤٣) ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٢١١.
(٤٤) ابن خلدون: تاريخه، جـ٤، ص٩٠، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٣٣.
(٤٥) هو أبو منصور التركي الشرابي : بدأ عهده في خدمة معز الدولة أحمد بن بويه، ومازال يترقى في المناصب حتى ولي قيادة جند الترك في بغداد خلال عهد عز الدولة بختيار أمير بني بويه في العراق (٣٥٦-٣٦٧هـ/٩٦٦-٩٧٧م)، المقريزي : الخطط، جـ١، ص٢٨٣، بدر عبد الرحمن : مظاهر الحضارة، إبراهيم رزق أيوب : التاريخ السياسي الفاطمي، ص٣٩.
(٤٦) سرور: سياسية الفاطميين الخارجية، ص١٣٨، المناوي : الوزارة، ص١٩٣.
(٤٧) الدواداري : الدرة المضيئة، ص١٨٧.
(٤٨) ابن الأثير: الكامل،جـ٧، ص٦٤،المقريزي:الخطط، جـ٣، ص٢٨٤، إبراهيم رزق: التاريخ السياسي، ص٣٠.
(٤٩) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٢٢، الدواداري : الدرة المضيئة، ص١٩٣.
(٥٠) ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص٢٤٩، المقريزي، اتعاظ، جـ١، ص٢٤٦.
(٥١) أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١٢٧.
(٥٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٩٨، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٠.
(٥٣) أمينة بيطار : موقف الأمراء العرب، ص٧٩، ٨٠.
(٥٤) المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص٢٥٤، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٠ .
(٥٥) المقريزي : اتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٥٤.
(٥٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، جـ٢، ص٤١١, ٤١٢، المناوي : الوزارة، ص١٩٤.

(٥٧) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، جـ٢، ص٤١١، المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص٢٥٦، سهام أبو زيد: المغاربة، ص٧٤.

(٥٨) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ١، ص٢٥٦، أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٨١.

(٥٩) المقريزي: اتعاظ، جـ١، ص٢٥٩، أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص١٥٣، ١٦٠, ١٦١ .

(٦٠) الدواداري : كنز الدرر، الدرة المضيئة، ص٢٢، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠١.

(٦١) الدواداري : الدرة المضيئة، ص٢٢٢.

(٦٢) المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص٢٦٨، أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص١٥٨.

(٦٣) هو قائد تركي تولى دمشق للفاطميين سنة ٣٨٠هـ، ثم أصبح أميرا للجيوش الفاطمية في حروبهم مع الحمدانيين التي امتدت من سنة ٣٨٢ هـ، وحتى سنة ٣٨٦هـ، وقد ورد ذكره باسم بنجوتكين في كتاب زبدة حلب لابن النديم، ص١٠٥.

(٦٤) ابن عمار: هو أبو محمد الحسن بن عمار زعيم المغاربة الكتاميون، تولى ازمة الأمور خلال عهد الحاكم بامر الله، وتلقب بأمين الدولة (٣٨٦-٣٨٧هـ)، حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر، ص ٢٠١، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٠، المناوي: الوزارة، ص١٩٧.

(٦٥) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٠، أمينة بيطار : موقف، ص٨٤.

(٦٦) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٤٦، إبراهيم رزق أيوب : التاريخ السياسي الفاطمي، ص٤٠.

(٦٧) ابن ميسر: أخبار مصر، طبعة المعهد العلمي الفرنسي، ١٩١٩م، جـ٢، ص٥٤، ٥٥.

(٦٨) المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ص١٠، ١١، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٤٦، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠١.

(٦٩) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١١، أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٨٥.

(٧٠) دائرة المعارف الإسلامية، جـ٢، ص٢٧٠١، المناوي : الوزارة، ص١٩٨.

(٧١) أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص٢٠٠، ٤٠١.

(٧٢) هو الفضل بن عبد الله بن صالح من الأمراء الذين كانوا يسيرون في ركاب العزيز بالله، ثم سار من كبار القواد في عهد الحاكم بأمر الله، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٦١.

(٧٣) أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص٢١٧.

(٧٤) الجفار : بالكسر، وهو جمع جفر، والجفر البئر القريبة القعر الواسعة، والجفرة سعة في الأرض، وهي اسم لخمس مدن : الفرما، البقارة، الوادة، العريش، أرض من مسيرة سبعة أيام بين فلسطين ومصر أولها رفح من جهة الشام وآخرها الخشي متصلة برمال تية بني إسرائيل وهي كلها رمال سائلة في غربها منعطف نحو الشمال بحر الشام، وفي شرقها منعطف نحو الجنوب بحر القلزم، وسميت الجفار لكسرة الجفار بأرضها، ياقوت : معجم البلدان، جـ٢، باب الجيم والفاء، المقريزي : الخطط، جـ٣، ص٣٥.

(٧٥) الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، جـ٤، ص٧٠، المقريزي: اتعاظ، جـ٢، ابن النديم: بغية الطلب، جـ٥، ص٢٢٤٠.

(٧٦) دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٣.

(٧٧) ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص١٨٠، ابن خلدون: تاريخه، جـ٦، ص١٠، المناوي: الوزارة، ص١٩٨.

(٧٨) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٩٨.

(٧٩) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٦٤، ابن إياس : بدائع الزهور، جـ١، ص٥٨.

(٨٠) المسبحي: أخبار مصر، ص٢٤٢، ابن الأثير : الكامل، جـ٧، ص٢٦١.

(٨١) ابن النديم : بغية الطلب، جـ٥ ، ص٢٢٤١.

(٨٢) المسبحي : أخبار مصر، ص١٨٨، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص ١٦٢، أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص٢٦٣.

(٨٣) ابن خلكان: وفيات، جـ٣، ص٦٢، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٠٢، عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله، ص١٥٣، رضوان الجناني : القبائل العربية، ص٢٧، ص٧٥.

(٨٤) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٦٠، ٦١.

(٨٥) آيلة : مدينة معروفة على قمة القلزم، أول حدود الحجاز، وهي إيلات حاليا، ياقوت : معجم البلدان، جـ١، ص٣٩١.

(٨٦) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٥٤.

(٨٧) المقريزي : إتعاظ، جـ٢، ص١٥٤.

(٨٨) الدزبري : هو أنوشتكين بن عبد الله أبو منصور الملقب بعضد الدولة، ولد في بلاد ما وراء النهر في بلد الترك المعروف بختل، سبي وبيع وتنقل من كاشغر إلى بخارى في الخدمة، حتى وصل دمشق سنة ٤٠٠هـ /١٠٠٩م، فاشتراه القائد دزبر بن أونيم الديلمي، ثم انتقل إلى ملكية الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣هـ، وصار يترقى حتى سيره مع سديد الدولة إلى الشام سنة ٤٠٦هـ، ثم تولى بعلبك وقيصرية، ثم تنقل في الوظائف حتى انتهى إلى ولاية دمشق، وظل عليها حتى فسد ما بينه وبين كبار الجيش، فهرب منها سنة ٤٣٣ هـ/١٠٤١م، وذهب إلى حلب فقضى بها ثلاثة أشهر ثم مات، أبو المحاسن: النجوم، جـ٤، ص٢٦٨، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص٧١، ص٧٢، المناوي : الوزارة، ص١٩٩.

(٨٩) عسقلان: بفتح أوله وسكون ثانيه ثم قاف وآخره نون، وعسقلان أسم أعجمي، وهو أعلى الرأس، فإن كانت عربية فمعناه أنها في أعلى الشام، وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويقال لها عروس الشام، ياقوت : معجم البلدان، باب العين والميم.

(٩٠) ابن الأثير : الكامل، جـ٧، ص٧٣، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٣٤.

(٩١) دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٣، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٣٢.

(٩٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، المناوي : الوزارة، ص١٩٩.

(٩٣) المناوي : الوزارة، ص١٩٩.

(٩٤) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٥٥، الحويري : الأوضاع الحضارية، ص١٨.

(٩٥) هو الوزير نجيب الدولة على بن أحمد الجرجرائي، كان من بيت حشمة ورئاسة، وكان الخليفة الحاكم بأمر الله قد قطع يديه من المرفقين سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م واستوزره الخليفة الظاهر بالله في سنة ٤١٨هـ/١٠٢٧م، أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص٢٤٨، المناوي : الوزارة، ص١٩٩.

(٩٦) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٥٦، ابن النديم : بغية الطلب، جـ٥، ص٢٢٤٠.

(٩٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٧٣.

(٩٨) ابن الأثير : الكامل، جـ٧، ص٢٦١، ابن العديم : زبدة حلب، جـ١، ص٢٣١، أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١٤١.

(٩٩) أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١٤٠، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٧٨، المقريزي : الخطط، جـ١، ص٣٥٥ ١٤٢، إبراهيم رزق أيوب: التاريخ السياسي، ص٤٩، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٧٣، ابن خلكان : وفيات، جـ٢، ص١٨٠.

(١٠٠) سرور : سياسة الفاطميين، ص١٤٢، ؛ Wiet : L'Egypte .. P216

(١٠١) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه، ص٢٥٣، المناوي : الوزارة، ص٢٠٠،

(١٠٢) النصيرية : كان مؤسس العقيدة النصيرية من بلاد فارس، فقد كان محمد بن نصر العبدي من فارس، وانتشروا في سوريا، ولواء الإسكندرية، وفي منطقة قيليقيا في تركيا بجوار منطقة وجودهم في سوريا، تقي شرف الدين : النصيرية «دراسة تحليلية»، بيروت، لبنان ١٩٨٣م.

(١٠٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١، ص٢٠٤، ابن الجوزي : من تاريخ الحركات الفكرية، نشر الأستاذ خليل سكاكيني، مطبعة بيت المقدس، القدس ١٩٢٨، جـ١، ص١٣٢

(١٠٤) عبد الرحمن بدوي : مذاهب الإسلامية، جـ٢، ص١٣٨، الدواداري : كنز الدرر، جـ٦، ص٩٣.

(١٠٥) يقال أن اسمه قرمط لقصر قامته ورجليه، النويري : نهاية الأرب، جـ٢٣، ص٥٦

(١٠٦) جنابة : بالفتح ثم التشديد وألف وباء موحدة، بلدة صغيرة من بلاد فارس على خليج فارس قبالة جزيرة خارك Karak في شمال بوشير، ينسب إليها طائفة من أهل العلم، منهم أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، أكبر زعماء فئة القرامطة بالقرن الثالث الهجري، قتل سنة ٣٠١هـ. أمين وصفي بك : معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، تحقيق أحمد زكي باشا، مكتبة الثقافة الدينية، ص٤٦، خارك: جزيرة في وسط الخليج العربي أو البحر الفارسي. ياقوت : معجم البلدان، جـ٢، ص١٩٢.

(١٠٧) ابن كثير : البداية، جـ١١، ص٨٨، محمد الخضري : الدولة العباسية، ص٣٠٠، عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله، ص٢٢.

(١٠٨) هجر: مدينة واقعة على جبال العارضي ببلاد العرب، وكانت قاعدة البحرين، والنسبة إليها هاجري، أمين وصفي : معجم الخريطة التاريخية، ص١١٨.

(١٠٩) ابن الأثير : الكامل، جـ٦، ص٤٠٠.

(١١٠) ابن الأثير : الكامل، جـ٦، ص٤٠٩، ٤١٠.

(١١١) ابن الأثير : الكامل، جـ٦، ص٤١٧.

(١١٢) ابن الأثير : الكامل، جـ٦، ص٤٨٢.

(١١٣) الأنبار: بفتح أوله، مدينة قرب بلخ، وهي قصبة ناحية جوزجان، وهي على جبل، وبينها وبين سبورقان مرحلة في ناحية الجنوب، ياقوت الحموي : معجم البلدان، جـ١، ص٢٥٧.

(١١٤) عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله، ص٢٢.

(١١٥) ابن كثير: البداية، جـ١١، ص١٧٢، ، المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص١٨٢، ابن خلدون : العبر، جـ٤، ص٦٨، أبو المحاسن: النجوم، جـ٣، ص٢٢٤، ص٣٠١، ، السباعي : تاريخ مكة، جـ١، ص١٢١، عبد الغني مالكي : بلاد الحجاز، ص١٠ .

(١١٦) المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص١٨٢.

(١١٧) الدواداري : كنز الدرر، جـ٦، ص١٢٢، ١٢٣، ص ١٣٥ .

(١١٨) المقريزي : اتعاظ الحنفا، جـ١، ص١٢٧.

(١١٩) ابن خلدون: تاريخه، جـ٤، ص٩٠، أبو المحاسن : النجوم، جـ٤، ص٦١، سهام ابو زيد: المغاربة، ص٧٣.

(١٢٠) ابن كثير: البداية، جـ١١، ص٢٨٧، حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر، ص١١٣، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٢٦.

(١٢١) المقريزي : اتعاظ الحنفا، جـ١، ص١٣٠.

(١٢٢) أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١١٧، ص١١٩٨.

.Stanley Lane Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p107

(١٢٣) ابن الأثير : الكامل، جـ٧، ص٥٤.
(١٢٤) القلقشندي : نهاية الأرب، ص٢٣٦، القلقشندي، قلائد الجمان، ص٤٤.
(١٢٥) الدواداري : كنز الدرر، جـ ٦، ص١٦٠، المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص٢٠٢.
(١٢٦) ابن الأثير : الكامل، جـ٧، حوادث سنة ٣٦٣هـ.
(١٢٧) ثابت بن سنان : تاريخ أخبار القرامطة، تحقيق سهيل زكار، دار الأمانة، بيروت ١٩٧١، ص١٠٦.
(١٢٨) ابن الأثير: الكامل، جـ٧، حوادث سنة ٣٦٣هـ، جمال سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٢١.
Wiet, G: L' Egypte Musulamane, Precis, de L' Histoire D'Egypte, Tome 2, Le Caire 1932 , 184
(١٢٩) المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص١٩٤، بدر عبد الرحمن : مظاهر الحضارة، ص٧٩.
(١٣٠) ابن كثير : البداية، جـ١١، ص٢٩٤، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٣٣.
(١٣١) الدواداري : كنز الدرر، جـ٦، ص١٥٦، المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص٢٠٢ .
(١٣٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٣، المقريزي : الخطط، جـ٢، ص١٣٨، ابن الأثير : الكامل، جـ٧، ص٤٢, ٥٤.
(١٣٣) ابن كثير : البداية، جـ١١، ص٢٩٤، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٦٩٩.
(١٣٤) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب ، ص ٧٥، ماجد : الحاكم بأمر الله، ص٢٣٠.
(١٣٥) ابن كثير : البداية، جـ١١، ص٢٩٤، ٢٩٥، ابن الأثير : الكامل، جـ٧، ص٤٣.
(١٣٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٣، المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص٢٠٦،
(١٣٧) أذرعات: بالفتح ثم السكون، الذال المعجمة وكسر الراء وعين مهملة وألف وتاء، كأنه جمع أذرعة، وجمع ذراع، وهو بلد في أطراف الشام يجاور أرض بينها وبين عمان أربعة وخمسون ميلا، وهي قاعدة ولاية البلقاء وعمان: ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص١٣، أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٢٥٢.
(١٣٨) المقريزي: اتعاظ، جـ١، ص٢٠٦، ابن كثير : البداية، جـ١١، ص٢٩٥.
(١٣٩) أمينة بيطار: موقف أمراء العرب، ص٧٥.
(١٤٠) أمينة بيطار: موقف أمراء العرب، ص٧٦.
(١٤١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٣٢، ابن الجوزي: المنتظم، جـ٧، ص١٥٥، المقريزي : الخطط، جـ٢، ص٥٠، ابن محب الصيرفي: الإشارة، ص٥٢.
(١٤٢) هو ابو الفتوح حسين بن جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، من بني هاشم وتولى إمارة مكة سنة ٣٨٤هـ، وتوفي سنة ٤٣٠هـ، السيوطي : تاريخ الخلفا، ص٣٥٦، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٨٧.
(١٤٣) ابن خلدون : تاريخه ، جـ٤، ص٥٧، السيوطي : تاريخ الخلفا، ص٣٥٦، أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١٦٢.
(١٤٤) أبو القاسم الكامل المغربي الوزير، هو الحسن بن علي بن الحسين، ولد بمصر سنة ٣٠٧هـ، وكان شاعرا كاتبا عالما، هرب من مصر لما قتل الحاكم بأمر الله أباه وعمه محمدا سنة ٤٠٠هـ، وشارك في الأحداث السياسية في عدة بلاد، توفي سنة ٤١٨هـ بميافارقين، ودفن بالكوفة، ابن سعيد: النجوم، ص٥٧، ابن خلكان : وفيات، جـ١، ص١٥٥، ابن كثير: البداية، جـ١٢، ص٢٥.
(١٤٥) يارختكين : كان مملوكا للخليفة العزيز بالله الفاطمي، وخلال عهد الحاكم بامر الله عينه واليا على الرملة بعد هروب الوزير أبي القاسم الحسن بن جعفر الحسين المغربي إليها، وكان يارختكين قد ذهب إلى الشام على رأس جيش، وكان برفقته زوجته، وهي ابنة الوزير يعقوب بن كلس، الفاسي : العقد الثمين، جـ٤، ص ٧٠، ابن خلكان : وفيات، جـ١، ص١٥٥، ابن خلدون:

تاريخه، جـ٣، ص١٢٨، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٨٧، ابن سعيد : النجوم، ص١٧، عبد الغني مالكي: بلاد الحجاز، ص٣٢.

(١٤٦) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه، جـ٢، ص٥٣.

(١٤٧) الفاسي : العقد الثمين، جـ٤، ص٧١، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٤١، أمينة بيطار: موقف أمراء العرب، ص٩٠.

(١٤٨) المقريزي : الخطط، جـ٢، ص٢٥٦.

(١٤٩) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص٥٤، ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص١٠٨.

(١٥٠) سليمان مالكي : بلاد الحجاز، ص٣٢, ٣٣، أمينة بيطار : امراء العرب، ص٩١.

(١٥١) الفاسي : العقد الثمين، جـ٤، ص٧١.

(١٥٢) سرور : النفوذ الفاطمي في الشام، ص١٧.

(١٥٣) ابن الجوزي : المنتظم، جـ٧، ص١٦٤.

(١٥٤) الفاسي : العقد الثمين، جـ٤، ص٧١.

(١٥٥) ابن ظافر : الدول المقطعة، ص٥٨، أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٩٢.

(١٥٦) ابن النديم : بغية الطلب في تاريخ حلب، جـ٥، ص٢٢٤.

(١٥٧) ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص١٠٨، سليمان مالكي : بلاد الحجاز، ص٣٣، محمد كرد علي : خطط الشام، جـ١، ص٢٤٦.

(١٥٨) عبد الغني مالكي : بلاد الحجاز، ص٣٤،أحمد ابن عمر الزيلعي: بنو سليمان حكام المخلاف السليماني، ص٢٥، ماجد : الحاكم بأمر الله، ص١٥٢، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص٢٦.

(١٥٩) الداروم : قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر، والواقف منها يرى البحر، وبينها وبين البحر مقدار فرسخ، ياقوت: معجم البلدان، ج٢، باب الألف والدال.

(١٦٠) عبد الغني مالكي : بلاد الحجاز، ص٣٤، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٤٠، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٢، السيد طه أبو سديرة : الهلالية في مصر، ص٤٨.

(١٦١) الذهبي: تاريخ الإسلام، المجلد ١١، ص٢٠، المقريزي: اتعاظ، جـ١، ص٨٧، الحويري: الأوضاع الحضارية، ص١٨.

(١٦٢) ابن النديم : بغية الطلب في تاريخ حلب، ص٢٢٤٠، ابن الجوزي : المنتظم، جـ٧، ص١٦٤.

(١٦٣) الفاسي : العقد الثمين، جـ٤، ص٧١.

(١٦٤) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٩٤.

(١٦٥) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٩٤، عبد الغني مالكي : بلاد الحجاز، ص٣٤.

(١٦٦) الفاسي : العقد الثمين، جـ٤، ص٧١, ٧٢، ابن النديم : بغية الطلب، جـ٥، ص٢٢٤٠.

(١٦٧) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٩٥، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٤٠.

(١٦٨) ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص٤٧٣، ماجد : الحاكم بأمر الله، ص١٥٢.

(١٦٩) المقريزي : الخطط، جـ٤، ص٢٢٨.

(١٧٠) ابن النديم : بغية الطلب، جـ٦، ص٥٤٢، ماجد : الحاكم، ص١٥٣.

(١٧١) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه، جـ٢، ص٥٢٠، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٩٨، حمدي المناوي : الوزارة، ص١٩٩، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٣.

(١٧٢) يحي بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، جـ٢، ص٥٢٠، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٩٢، سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٤١.

(١٧٣) ابن خلدون : تاريخه، جـ٢، ص٥٧.
(١٧٤) ابن الأثير : الكامل، جـ٧، ص١٨٠.
(١٧٥) ابن خلكان : وفيات، جـ١، ص١٧٥.
(١٧٦) أبو المحاسن : النجوم، جـ٢، ص١٢٣.
(١٧٧) ابن الأثير : الكامل، جـ٨، ص٦٧، ص٦٨.
(١٧٨) مسكوية : تجارب الأمم، جـ٢، ص٢٨.
(١٧٩) ابن العديم : زبدة الطلب في تاريخ حلب، ص٦٧، سيدة كاشف : عصر الإخشيديين، ص٣٤٩.
(١٨٠) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٧٦.
(١٨١) محمد كرد علي : خطط الشام، جـ١، ص٢٢٥، ٢٢٦.
(١٨٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي، جـ٣، ص٣٥٨.
(١٨٣) ابن العديم : زبدة الحلب، ص٩١، ٩٢، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٤٢ .
(١٨٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، جـ١، ص١٨.
(١٨٥) ابن خلدون : العبر، جـ٢، ص٣١١.
(١٨٦) ابن خلدون : العبر، جـ٢، ص٣١٢.
(١٨٧) ابن خلدون : العبر، جـ٤، ص٢٥٢.
(١٨٨) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية، ص٨٤.
(١٨٩) ابن العديم : زبدة الحلب، ص١٢٦، ص١٢٧.
(١٩٠) ابن العديم : زبدة الحلب، ص١٢٧، جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٤١.
(١٩١) ابن الأثير : الكامل، جـ ٧، ٢٦٠.
(١٩٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٧٢، ص٧٣.
(١٩٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٧٣.
(١٩٤) ابن العديم : زبدة الحلب، ص١٣٠، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٥٢.
(١٩٥) ابن الأثير : الكامل، جـ٩، ص١٢٨، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٤٢.
(١٩٦) ابن سعيد الأنطاكي : تاريخه، ص٢٥٣، ابن الأثير : الكامل، جـ٩، ص١٣٠.
(١٩٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٧٣، ابن خلكان : وفيات، جـ٢، ص١٨٠.
(١٩٨) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب بالشام، ص٨٩، ٩٠.
(١٩٩) المناوي : الوزارة، ص١٩٤.
(٢٠٠) الدمستق : لفظ لاتيني لقب به قائد جيش الروم، وهو أكبر البطارقة ورئيسهم، وهو خليفة الملك، ابن العبري : مختصر الدول، ص١٦٩، الخوارزمي : مفاتيح العلوم، ص١٢٩.
(٢٠١) المقريزي : اتعاظ، جـ١، ص٢٥٩، ٢٦٢.

G.Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, L,Egypte Arabe, P193.

(٢٠٢) دائرة المعارف الإسلامية، جـ٢، ص٢٧٠١.
(٢٠٣) أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١٥٨.
(٢٠٤) يحي بن سعيد الأنطاكي : تاريخه، جـ٢، ص٥٠٥.
(٢٠٥) يحي بن سعيد الأنطاكي : تاريخه، ص١٩٤، سرور : سياسة الفاطميين، ص٨٨ .
(٢٠٦) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص١٠٣.
(٢٠٧) أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٩٧.

(٢٠٨) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٨٧، الحويري : الأوضاع الحضارية، ص١٨.
(٢٠٩) عبد الغني مالكي : بلاد الحجاز، ص٣٤، أمينة بيطار : موقف أمراء العرب، ص٩٤.
(٢١٠) ابن الأثير: الكامل، جـ٧، ص٢٦١، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٥٥، ابن النديم : زبدة، جـ١٠، ص٢٢٣.
(٢١١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية، ص١٤١.
(٢١٢) المسيحي : أخبار مصر، ص٢٤٧.
(٢١٣) صابر دياب : المسلمون وجهادهم ضد الروم في أرمينية، مكتبة السلام العالمية، القاهرة سنة ١٩٨٤، ص٢٢٤.
(٢١٤) محمد الشيخ : الإمارات العربية في بلاد الشام، ص١٠٤.
Ostrogrosky: History of the Byzantine, State Oxford, 1956, P283.
(٢١٥) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٦، ط٤، جـ١، ص٤٢٥، عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص١١٨.
(٢١٦) يحي بن سعيد الأنطاكي: تاريخه، ص٢٧٠، ٢٧١، المقريزي : الخطط، جـ٢، ص٣٥٥، المناوي: الوزارة، ص٢٢٢.
(٢١٧) يحي بن سعيد النطاكي : تاريخه، ص٢٧٠، ٢٧١، بدر عبد الرحمن : تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية منذ قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الخامس الهجري، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٢٩، ٣٠. Ostrogrosky, Op.Cit, P.283.
(٢١٨) الأقحوانة : بالضم ثم السكون، وضم الحاء المهملة وواو وألف ونون وهاء، والأقحوانة موضع قرب مكة، وقال الأزهري موضع معروف في بلاد تميم وهي من أعمال دمشق وبلاد نهر الأردن، وتقع على شاطيء بحيرة طبرية، ياقوت : معجم البلدان، جـ١، ص٣٠٨.
(٢١٩) الكامل : تاريخه، جـ٧، ص٣٣٣، أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١٤١، ابن الجوزي : المنتظم، جـ١، ص٤٥، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص١٧٣.
(٢٢٠) محمد الشيخ : الإمارات العربية، ص١١٣، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٥.
(٢٢١) المقريزي : اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص١٧٦.
(٢٢٢) الروج : كورة من كور حلب المشهورة، تقع في غربها، بينها وبين المعرة، ياقوت الحموي : معجم البلدان، جـ٢، باب الراء والواو.
(٢٢٣) دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٥.
(٢٢٤) أفاميه: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص بناها سلوقس في السنة السادسة من موت الأسكندر، وهي ملاصقة لقلعة المضيق، التي تقع على الطرف الشرقي لسهل الغاب في سورية، ياقوت : معجم البلدان، جـ١، ص٢٢٧، ابن النديم : بغية الطلب في تاريخ حلب، ص٩٥
(٢٢٥) أبو الفدا : المختصر، جـ ٢، ص١٥٨، المناوي : الوزارة، ص٢٢١، ٢٢٢، بدر عبد الرحمن : تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية، مكتبة الأنجلو العربية، القاهرة، ١٩٩٦، ص٣١
(٢٢٦) دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٥
(٢٢٧) بكسرائيل : بكسر أوله وثانيه وسكون السين وراء وألف وهمزة وياء ولام، حصن من سواحل حمص مقابل جبلة في الجبل، ياقوت : معجم البلدان، جـ١، ص٤٧٥
(٢٢٨) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٨٨، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٥،
(٢٢٩) شبيب بن وثاب النميري : هو أخو زوجة نصر بن صالح بن مرداس، كان شجاعا ذا نجدة وكرم

ورآي، وهو أمير الرقة وسروج وحران، توفي في حران سنة ٤٣١هـ/١٠٤٠م، ابن الأثير : الكامل، الزركلي : الأعلام، جـ٣، ص٢٢٩، زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، بيروت ١٩٨٠، جـ٢، ص٢٠٦، ٢٠٤، ٢١٠.

(٢٣٠) المروانيون :من الأكراد ويرجع قيام دولتهم إلى باد ابن دوستك الحاربختي، أما نصر الدولة، فهو نصر أحمد بن مروان الكردي، وكانت قاعدة حكمه ميافارقين، زامباور : معجم الأنساب، جـ٢، ص٢٠٦.

(٢٣١) النميريون : مزيج من قبيلة كلاب استوطنوا منطقة حران والرها واتخذوا من حران مركز لهم، وحران على الطريق الموصل بين الموصل والشام والروم، بينها وبين الرها يوم، وبين الرقة يومان، وتقع قرب الحدود السورية التركية شمالا مقابل مدينة «تل أبيض» السورية ضمن الأراضي التركية، ياقوت : معجم البلدان، جـ٢ ص٢٣٥، ابن حوقل : صورة الأرض، ص١٢٥.

(٢٣٢) أبو الفدا : المختصر، جـ٢، ص١٤٨.

(٢٣٣) ابن الأثير : الكامل، جـ٨، ص٣٢، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص١٨٨.

(٢٣٤) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٢٠١، ٢٠٧، يمنى رضوان : الأسرة الجمالية، ص٣٠ .

(٢٣٥) المقريزي : أتعاظ، جـ٢، ص٢٠٢، أبو المحاسن : النجوم، جـ٥، ص٣٤، ٤٥، دائرة المعارف الإسلامية، جـ٩، ص٢٧٠٥ .

(٢٣٦) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، جـ١، ص١٦٠.

(٢٣٧) المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٢٧٤.

(٢٣٨) أبو المحاسن : النجوم، جـ ٥، ص١٣.

(٢٣٩) أبو المحاسن : النجوم، جـ٥، ص٥٨.

(٢٤٠) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، جـ١، ص١٦٠.

(٢٤١) ابن خلكان : وفيات، جـ٢، ص٤٤٠.

(٢٤٢) ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص٦٤.

(٢٤٣) ابن القلانسي : تاريخ دمشق، ص ٩١، ٩٣، المقريزي : اتعاظ، جـ٢، ص٣٢٩.

(٢٤٤) ابن خلدون : تاريخه، جـ٤، ص٢٨٤.

(٢٤٥) زامباور : معجم الأسرات، جـ١، ص١٦٠.

(٢٤٦) أبو المحاسن: النجوم، جـ٥، ص١٩٦، دائرة المعارف الإسلامية، جـ١، ص٢٧٠٦، أمينة بيطار: موقف أمراء العرب، ص١١١.

المصادر والمراجع

ابن الأثير: على بن احمد بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٨م)
- الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، القاهرة ١٣٥٢هـ.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ أجزاء، تحقيق محمد إبراهيم وآخرون، القاهرة ١٢٨٥هـ
ابن إياس: أبو البركات محمد بن احمد (ت ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م)
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، ١٣١١هـ
ابن أيبك الدوادارى : أبو بكر عبد الله (ت بعد ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)
- كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السادس وعنوانه : الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١م
ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الأجزاء من ٥-١٠ ط١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أياد، الدكن، ١٩٣٩م.
- من تاريخ الحركات الفكرية، نشر الأستاذ خليل سكاكينى، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٨م.
ابن حزم : أبو محمد على بن احمد بن سعيد (ت ٣٨٤- ٤٥٦هـ/ ٩٤٤-١٠٦٤م)
- جمهرة أنساب العرب، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ٧ أجزاء، مؤسسة الإعليمي للمطبوعات، بيروت، بدون تاريخ.
ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس احمد بن إبراهيم (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨١م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨.
ابن سعيد: على بن موسى المغربي (ت ٦٧٣هـ/ ١٢٧٥م).
- المغرب في حلى المغرب النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق زكى محمد حسن وسيده كاشف، وشوقي ضيف، القاهرة ١٩٣٥م
ابن الصيرفي : أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان (ت٥٤٢هـ)
- القانون في ديوان الرسائل والإشارة إلى من نال الوزراة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٠م.
ابن طباطبا:محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى(ت ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)
- الفخري في الآداب السلطانية، مكتبة المعارف، القاهرة ١٩٦٢م.

ابن الظافر: جمال الدين على بن ظافر
- الدول المنقطعة القسم الخاص بالفاطميين.
ابن العبري غريغوريوس الملطي
- تاريخ مختصر الدول، تحقيق الأب صالحاني اليسوعي، بيروت ١٨٩٠م
ابن العديم : كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م)
- زبدة الحلب من تاريخ حلب، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٦.
- بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل ذكار، دار الفكر، دمشق، ١٩٥١ م.
ابن قتيبه : أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٩هـ/ ٨٨٩م)
- كتاب المعارف، حققه ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة.
ابن القلانسي: أبي يعلي حمزة بن سعد الدين على بن محمد (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)
- ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨م.
ابن كثير:عمادالدين أبوالفدا إسماعيل بن عمربن كثيرالقرشي الدمشقي(ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م)
- البداية والنهاية، ٤ أجزاء، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٦م.
ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م)
- السيرة النبوية، ٤ أجزاء، المكتبة التوفيقية، القاهرة ١٣٥٦هـ
ابن ميسر: محمد بن على بن يوسف بن حلب (ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)
- أخبار مصر، جزءان نشر هنري ماسية، مطبعة المعهد الفرنسي، القاهرة ١٩١٩م
ابن الوردي: أبو حفص زين الدين عمربن المظفر محمد الوردي(ت ٧٤٩هـ)
- تاريخ ابن الوردي تتمة المختصر في أخبار البشر، جزءان، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٠م
أبو الفدا : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن علي، (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
- المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ أبى الفدا، جزءان، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.
- تقويم البلدان، ط باريس ١٨١٥م.
أبو المحاسن: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى(ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣م
البلاذرى: أبو الحسن احمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)
- فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٨م

ثابت بن سنان :
- تـاريـخ أخـبـار الـقرامـطة، تحقـيق سـهيل ذكـار، دار الأمـانـة، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
الخـالدي: بهاء الدين محمد بن لطف الله العمرى (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٣١م)
- المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٤٠٤٥م.
الخوارزمى: أبو بكر محمد بن العباس (ت ٣٧٣هـ/ ٩٩٣م)
- مفاتيح العلوم، الطبعة الثانية، ١٣١٢ القاهرة ١٩٦٨م.
الذهبى: شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)
- تاريخ الإسلام، دار الغد، القاهرة ١٩٩٨م.
الرازى: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م)
- مختار الصحاح، رتبه محمود فاخر، ط ٣، القاهرة ١٩١١.
الزركلي : خير الدين.
- الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان
السمعانى: أبى سعد عبد الكريم بن محمد (ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م)
- كتاب الأنساب، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودى، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، دار الجنان، ١٩٨٨.
السيوطى: عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٦م)
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جزءان القاهرة ١٢٩٩هـ.
- تاريخ الخلفا، القاهرة ١٣٥١هـ.
الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ/ ٩٢٢م)
- تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت
الفاسى: تقى الدين محمد بن احمد المكي
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد حامد الفقي، القاهرة ١٩٥٩م.
القلقشندى: أبو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م).
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٤م.
- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الابيارى، القاهرة ١٩٨٠م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٤ أجزاء، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٠م.
- الكلبي : أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي
- كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي باشا، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

المصرية سنة ١٩٢٤م الطبعة الرابعة ٢٠٠٠م.
الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م)
- الولاة والقضاة، بيروت ١٩٠٨م.
مجير الدين الحنبلي.
- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، طباعة مصر ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م.
المسبحي:الأمير مختار عز الملك محمد بن أبى القاسم.
- تاريخ مصر، الجزء الأربعون، القسم الأول، تحقيق أيمن السيد والمستشرق تبارى بيانكى، طبع المعهد الفرنسي، القاهرة ١٩٨٨م.
مسكوية : أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م).
- كتاب تجارب الأمم، جزءان، مطبعة شركة التمدن الصناعية، القاهرة ١٩١٤م
المقريزى: تقي الدين احمد بن على (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).
- اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد حلمى وجمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة أخبار التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٦٧.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق، ١٢٧٠هـ.
- البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق ودراسة عبد المجيد عابدين، القاهرة ١٩٦١م
النويرى: شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٢هـ)
- نهاية الأرب في فنون الأدب، الأجزاء من ٢٣-٢٩، دار الكتب، القاهرة.
هبة الله الشيرازي: المؤيد في الدين هبة الله
- سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، نشر الدكتور محمد كامل حسين، القاهرة ١٩٤٩م
ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)
- معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار حياة التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م

ثانياً: المراجــع:

- إبراهيم جلال: المعز لدين الله الفاطمي وتشييد مدينة القاهرة، سلسلة الألف كتاب، ٤٨٣، الآداب العامة للثقافة، دار الفكر العربي ١٩٦٣م.
- إبراهيم رزق أيوب: التاريخ الفاطمي السياسي، الطبعة الأولى، الشركة الصناعية للكتاب، لبنان ١٩٩٧م.
- أمينة محمد على بيطار: موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري، ط ١، دار دمشق، دمشق ١٩٨٠م.
- أحمد السباع: تاريخ مكة، ط٢، مكة المكرمة، دار قريش للطباعه ١٣٨٧هـ.

أحمد لطفى السيد : القبائل العربية في مصر، القاهرة ١٩٣٥م.
- السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية (٣٢٣- ١٠٨١م)، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٥م.
بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والشرق الإسلامي، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٩م.
- تقى شرف الدين: النصيرية «دراسة تحليلية»، بيروت، لبنان ١٩٨٣.
- حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، القاهرة، ١٩٣٢م.
تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريه وبلاد العرب، ط٤، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨١م.
تاريخ الإسلام السياسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٤٦م
دائرة المعارف الإسلامية : وضع مجموعة من العلماء، تعريب أحمد زكي خورشيد وآخرون، دار الكتب، القاهرة.
- زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه زكى محمد حسن وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٠م.
- سهام أبو زيد: المغاربة ودورهم في إدارة مصر في العصر الفاطمي، ط١، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٩٠م
- سليمان عبد الغنى مالكي : بلاد الحجاز منذ بداية عهد الإشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، ط،٢ ١٩٩٤م
سلطان طريخم المذهن السرحاني: جامع أنساب قبائل العرب، دار الثقافة، قطر، الدوحة
- صابر دياب : المسلمون وجهادهم ضد الروم في أرمينية، مكتبة السلام العالمية، القاهرة ١٩٨٤م
- عبد الله خورشيد البرى: القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عبد الله ماجد، القاهرة ١٩٩٢م.
- عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه، القاهرة
- عطية القوصي : تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦م.
- عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٧٧م.
- عمر رضا كحاله: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ٥ أجزاء، مؤسسة الرسالة، بيروت . ١٩٨٥
- محمد عبد الجواد الأصمعي: العرب وأطوارهم، الجزء الأول، مطبعة الجمالية،

مصر ١٣٣١هـ.
- محمد محمد الشيخ: الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين ١١، ١٢، الإسكندرية، الطبعة الأولي، الهيئة العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٨٠م.
- محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطمين الخارجية، دار الفكر العربي ١٩٧٦م.
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام، دار الفكر العربي.
- محمد أحمد عبد المولى: بنو مرداس الكلابيون في حلب وشمال الشام وسياستهم الخارجة مع دولة الفواطمة والروم، ط١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٥م.
- محمد الخضري بك: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، بيروت، دار القلم١٩٨٦م.
- محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة د.ت
- محمد عزب دسوقى : القبائل العربية في بلاد الشام منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٨م.
محمد كرد على: خطط الشام، ٦ جزء، دمشق، مكتبة النورى، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.
- محمد حمدي المناوى: الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة.
- محمود محمد الحويرى:لأوضاع الحضارية في بلاد الشام، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.
يوسف أبو الفرج العش : تاريخ عصر الخلافة العباسية، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م.

الرسائل الجامعية:

أمينة محمد على بيطار: الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام منذ قيام الخلافة العباسية وحتى الفتح الفاطمي، رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة ١٩٧٥م.
- رضوان الجنانى: القبائل العربية في مصر في القرنين الثالث والرابع الهجريين، رسالة ماجستير، مكتبة الآداب جامعة القاهرة.

الأبحاث العلمية والدوريات:

- أحمد بن عمر الزيلعي: بنو سليمان حكام المخلاف السليماني وعلاقاتهم بجيرانهم، مجلس النشر العلمي، الحولية الثانية عشر كلية الآداب، الكويت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

بدر عبد الرحمن محمد
- شرق الدلتا منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، العدد الرابع من مجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب، القاهرة ١٩٨٩م.
- تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية منذ قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الخامس الهجري، مكتبة الأنجلو العربية، القاهرة ١٩٩٦م
- سهام مصطفى أبو زيد: المغاربة ودورهم في إدارة مصر في العصر الفاطمي، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٩٠م.
- السيد طه أبو سديره: الهلالية في صعيد مصر خلال العصر الفاطمي الأول، القاهرة ١٩٩٤م.
- عبد الرحمن محمد العبد الغني: موقف البيزنطيين والفاطميين من ظهور الأتراك السلاجقة بمنطقة الشرق الأدنى الإسلامي، حوليات كلية الآداب، الحولية الخامسة عشر، الكويت ١٩٩٥م.

المراجع الأجنبية:

- Canard: Sayf Al Dawla, Recueil de textes relatifa al,emir Sayf Al dawla la Hamdonido, Al ager 1943.
- Gibb (H.A.R) : The Caliphate and the Arab States.
Ostrogrosky, G, : A History of the Byzantine State, Oxford1956.
Lane poole Stanly : A History of Egypt in the Middle Ages , London , 1925.
Wiet Gaston : L' Egypt Musulamane, Precis de L' Histoire D, Egypt, Tome 2, Le Caire 1932.
Vasiliev (A.A) : Histoire de L' Empire Byzantine , Tom 1 , Paris 1932.

أ.د. فايز نجيب إسكندر (*)

مملكة الفرنجة

بين المبارديين والبابوية

زمن ببين القصير

(٧٥١ - ٧٦٨م)

نجح كلوفيس Clovis (٤٨١ – ٥١١م) فى توحيد بلاد الغال La Gaule فى مملكة واحدة بعد أن كانت أربع، ووحد القبائل الفرنجية فى شعب واحد، وفى سنة ٤٩٦م - وبدوافع سياسة - إعتنق المسيحية على المذهب الكاثوليكى، ويعزى ذلك لتأثيرات زوجته كلوتيلد Clotilde الأميرة البرجندية، فتعمد وثلاثة آلاف من أتباعه فى كاتدرائية ريمز Reims، فأكتسب الشرعية، وحظى بمناصرة وتأييد البابوية ورجال الدين الكاثوليك، كما أصبح المدافع الأول عنهم وعن أملاكهم وثرواتهم.

وهكذا سطر كلوفيس الصفحة الأولى من العلاقات الودية بين الفرنجة والبابوية، تلك السياسة الناجحة التى ستظهر نتائجها الإيجابية على الطرفين فيما بعد[١].

ومما يذكر أن الأسرة الميروفنجية إنتقلت من دور القوة والتوسع الذى امتد بين سنتى ٥١١م وانتهى سنة ٦٣٩م بوفاة داجوبير الأول Dagobert I (٦٢٩– ٦٣٩م)، إلى دور الضعف والإنحلال (٦٤٠ – ٧٥١م)؛ حتى أن تلك الفترة عرفت بعهد الملوك الكسالى، وسيطرة حجاب القصر - أى رؤساء البلاط– ؛ وكان من أبرزهم ببين القصير Pépin Le Bref (٧٥١ – ٧٦٨م) الذى صار الحاكم الفعلى لمملكة الفرنجة، فتجاوزت أطماعه حجابة القصر، والقناعة بلقب «دوق وأمير الفرنجة»، إلى السعى للإطاحة بشيلد ريك الثالث Chideric III (٧٤٢– ٧٥١م) والإحلال مكانه على عرش مملكة الفرنجة. وقد أعد لذلك خلال عامين حسب قول المؤرخ المكمل لحولية فريديجير[٢] Frédegaire.

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية الآداب، جامعة بنها.

وبثاقب بصره وبصيرته، خطط ببين لاغتصاب السلطة الملكية من آخر الملوك الميروفنجيين الذى لا حول له ولا قوة، وحرص أيضاً على صبغ ذلك الاغتصاب بصبغة شرعية، مدركاً أن تحقيق تلك الغاية لا تتم إلا بموافقة ومباركة البابوية فى روما. فمهد لذلك بأن أرسل سنة ٧٤٦م إلى البابا زكريا Zacharie (٧٤١ - ٧٥٢م) يستفتيه فيما يتعلق بمهام واختصاصات رؤساء الأساقفة. كما أوفد إليه فى عام ٧٥٠م مبعوثَيْن: الأول بورشار Burchard أسقف ورزبرج Wurszburg، والثانى فلراد Fulrad رئيس ديرسان دينيه[٣] Saint Dennis. أوفدهما للمثول أمام البابا زكريا Zacharie (١٠ديسمبر٧٤١ - ٢٢مارس ٧٥٢م) فى روما[٤]، ليستفسرا منه بخصوص ملوك الفرنجة الذين لا يقوون على ممارسة مهامهم وسلطاتهم الملكية، هل يحق لهم حمل لقب ملك. فقد جاء فى رسالة ببين الذى تسلمها البابا من مبعوثَيْه: «من يجب أن يكون ملكاً على الفرنجة. الملك الذى لا يملك من السلطة إلا إسمها، أم الذى يمارس ويملك السلطة الفعلية؟».

على أية حال، توافق رد البابا زكريا مع أطماع ببين، إذ جاء فيه: «أنه من الأفضل أن يلقب بلقب ملك، الشخص الذى بيده السلطة الفعلية، المتحكم فى تسيير شئون المملكة، بدلاً من الشخص الذى لا حول له ولا قوة ولا يقوى على ممارسة مهام السلطة الملكية»[٥].

ولقد تأكد ببين من مناصرة البابا زكريا له، وأن رده سيكون إيجابياً، فالمصلحة هى المُسَيِّرَة للأحداث السياسية. ولما كانت البابوية معرضة آنذاك لاغتصاب أملاكها من قبل اللمبارديين الذين يسعون آنذاك لبسط سيادتهم على إيطاليا بكاملها، لذا كان البابا زكريا وخلفاؤه فى حاجة ماسة إلى مساعدة عسكرية من قبل ببين ومن بعده إبنه شارلمان، وذلك لكبح جماح أعدائهم اللمبارديين، كما رغب فى التخلص من السيادة البيزنطية.

ولقد أتاح رد البابا زكريا الإيجابى الفرصة لببين أن يُقْدِمْ فى نوفمبر سنة ٧٥١م على عزل آخر ملوك الأسرة الميروفنجية - شلدر يك الثالث - وإدخاله أحد الأديرة ليقضى فيه البقية الباقية من حياته، فى حين تبوأ ببين القصير عرش مملكة الفرنجة بعد أن توجه ملكاً المبشر الإنجليزى الأسقف بونيفاس Boniface، ثم مسحه بالزيت المقدس، وجرى رفعه على التروس تعبيراً عن تعيينه ملكاً جديداً على مملكة الفرنجة طبقاً للعادة الجرمانية القديمة[٦]. وبذلك تم تكريس العاهل الفرنجى الجديد وتنصيبه رسمياً فى احتفال كبير أقيم فى سواسون Soissons سنة ٧٥١م[٧]. وهكذا، أسدل ببين الستار على الأسرة الميروفيجية، ليقيم على أنقاضها الأسرة الكارولنجية والتى نسبت إلى إبنه

شارل العظيم Charlemagne. وقد أشار المؤرخ البلجيكى هنرى بيرين Henri Pirenne إلى هذا الحادث بالإنقلاب الكارولنجى(٨) Coup D'état

هكذا شهد منتصف القرن الثامن الميلادى ميلاد الأسرة الكارولنجية، بعد تتويج رئيس بلاط أوسترازيا Austrasie ببين القصير، ملكاً على مملكة الفرنجة. وفى عهده أصبحت تلك المملكة القوة السياسية العظمى فى الغرب الأوربى آنذاك، وازدادت قوة بفضل السياسة الخارجية الناجحة والحكيمة التى استنها الملك الكارولنجى والقائمة على التحالف مع البابوية سيراً على خطى سياسة كلوفيس مؤسس الأسرة الميروفينجية الزائلة؛ كما أن بابوات روما آنذاك حرصوا حرصاً شديداً على توثيق هذا التحالف، حماية لهم من اجتياح اللمبارديين لأراضيهم، ولوضع حد لأطماعهم الهادفة إلى بسط سيادتهم على إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها.

والجدير بالذكر أن البابوية كانت قد ورثت أملاك الإدارة البيزنطية فى وسط إيطاليا، واستغلت خير استغلال الظروف والأحداث التى ألّمت بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط، وبخاصة غزوات الجرمان التى مزقت الغرب الأوربى إلى ممالك فقضت على الإمبراطورية الرومانية الغربية، إضافة إلى المسيحية التى قضت على الوثنية وعبادة الأمبراطور؛ استغلت البابوية هذه الظروف لإقامة ملك دنيوى لها فى إيطاليا يشمل بصفة عامة المنطقة الواقعة بين البحرين المتوسط والأدرياتى. وكانت قد ازدادت قوة وأخذت مكانتها منذ عهد جريجورى العظيم (Grégoire Le Grand ٥٩٠ – ٦٠٤م) بعد أن منحها الشعب الأوربى تأييده عقب انهيار سلطة الإمبراطور فى الغرب الأوربى، وبالتالى أصبحت القاسم المشترك الأعظم للقوى السياسية فى إيطاليا.

إلا أن ازدياد نفوذ البابوية واتساع أملاكها فى إيطاليا، وكون عاصمة اللمبارديين بافيا Pavia على مقربة من روما عاصمة البابوية؛ إضافة إلى سعى ملوك اللمبارديين للإنفراد بالسيادة المطلقة على كل إيطاليا، كل هذا أشعر البابوية أن اللمبارديين – رغم كونهم كاثوليك بعد أن كانوا وثنيين - لا يمكن الثقة فيهم أو الاعتماد عليهم، خوفاً من أن تصبح البابوية مجرد أسقفية لمباردية، بدلاً من جعلها عاصمة الغرب الأوربى بأكمله والمهيمنه على مقدراته دينياً ودنيوياً.

ولقد رأت البابوية، بذكائها ومهارتها فى معالجة الشئون السياسية، أن من الحكمة عدم قطع صلتها تماما بالدولة البيزنطية، رغم إدراكها أنه ليس بوسعها الاعتماد عليها، مع تجاهل أن أباطرتها لأيقونيون هراطقة. فرغم الاختلافات الدينية والمذهبية بين البابوية والدولة البيزنطية، فقد حرصت على الارتباط بها، لعدم وجود قوة أخرى - آنذاك - ويمكن الاعتماد عليها فى

مواجهة الغزاة اللمبارديين. لذا، اضطر اتيين الثانى - فى أول الأمر - إلى طلب العون من قسطنطين الخامس[٩] Constantin V (٧٤١ – ٧٧٥م)

هذا عن البابوية، وإذا انتقلنا إلى الدولة البيزنطية، فقد شهد عهد قسطنطين الخامس سقوط أرخونية رافنا Ravenne ونشأة دولة البابوية. لكن الملاحظ أن العلاقات المتشابكة بين القوى الأربع: الدولة البيزنطية، مملكة اللمبارديين، بابوات روما ومملكة الفرنجة لم يرد ذكر تفصيلى لأحداثها فى المصادر البيزنطية إلا فى نصف صفحة فى مصنف ثيوفانس[١٠] Theophanes. هذا بينما المصادر الغربية عامرة بالتفصيل وبالتالى غطت - إلى حد ما - قصور المصادر البيزنطية، لكنها تعالج الموضوع من وجهة نظر أوربية غربية، وبالتالى ينبغى أن نستخلص منها سياسة قسطنطين الخامس الغربية وموقفه من تلك الأحداث الهامة.

لقد تقاتل البيزنطيون واللمبارديون خلال قرنين من الزمان من أجل السيطرة على إيطاليا، وانتهى المطاف بينهم بأن تمكنت البابوية من تقرير مصير شبه الجزيرة الإيطالية. فالبابا لم يكن فى أول الأمر إلا أسقف عادى لروما وتابع للإمبراطور البيزنطى، ولكنه تحول إلى زعيم أوربى حقيقى بسبب تطور الأحداث لصالحه وتدخله فى تسييرها؛ إذ نتج عن ذلك أن تلاشت تبعيته تدريجياً للإمبراطور البيزنطى، وازداد التلاشى عمقا بعد القطيعة الدينية بين روما وبيزنطة؛ كما ساهمت الحركة اللا أيقونية فى ازدياد القطيعة بين الشرق والغرب. فمن جراء العنف الذى سار عليه ليو الثالث الأيسورى Leo III (٧١٧ – ٧٤١م) وابنه قسطنطين الخامس (Constantin V) نفرت الكنيسة الكاثوليكية الغربية من الدولة البيزنطية وأباطرتها، وازدادت تقرباً من ملوك الغرب الأوربى وخاصة ملوك الفرنجة أكبر قوة أوربية آنذاك، لتستعين بهم لدفع شر الاضطهاد البيزنطى. لذا حين طالب قسطنطين الخامس بإعادة الأراضى البيزنطية المغتصبة فى إيطاليا، ردّ عليه ببين القصير أنه وهبها للسدة الرسولية حباً فى القديس بطرس كيما تغفر خطاياه. هكذا من هذا التباعد بين الإمبراطور البيزنطى والبابا، ومن هذا التقارب بين البابا وببين القصير، زرعت البذور الأولى التى أدت فيما بعد إلى انقسام الكنيسة شطرين شرقية وغربية[١١].

ومما جعل أباطرة بيزنطة لا يعيرون الشئون الإيطالية الاهتمام الواجب أن تحظى به، بل لم يهتموا بما آل إليه مصيرها، يرجع ذلك فى الأساس إلى مشاكلهم ومشاغلهم. فأمور الداخل آنذاك كانت أهم من أمور الخارج، خاصة إذا تعلق الأمر بكرسى العرش.

ولقد أرجع المؤرخ البيزنطى ثيوفانس Theophanes القطيعة الكاملة بين الدولة البيزنطية والغرب الأوربى إلى سنة ٧٢٦م، حين نشرت المراسيم الأولى للحركة اللاأيقونية فى عهد ليو الثالث الأيسورى(١٢) .

إزاء تلك الحركة الدينية، عارض بابوات روما بكافة السبل هرطقة الأباطرة البيزنطيين؛ إذ أصدروا قرار الحرمان ضد الأرخونية، كما حرضوا الشعوب الإيطالية على الثورة(١٣)، وشجعوهم للامتناع عن دفع الضرائب(١٤)، وأقاموا مجمعاً دينياً فى روما سنة ٧٣٠م أدانوا فيه الهراطقة اللاأيقونيين(١٥)، كما أدانوا بطريرك القسطنطينية لأنه من مؤيدى هذه الهرطقة(١٦). كل هذه الأمور العدائية أغضبت الإمبراطور البيزنطى حتى أنه أرسل إلى إيطاليا جيشاً وأسطولا لتهدئة الأمور فيها. إلا أن العواصف العاتية حالت دون وصولها إلى بحر الأدرياتيك(١٧):

ومع ذلك، فإن الأحداث أثبتت أن بابوات روما لم يتعجلوا على الإطلاق فى الانفصال عن الدولة البيزنطية، إذ اعتبروا أنفسهم على الدوام تابعين لها، ونواب عن الإمبراطور فى إيطاليا. وعندما شعروا أنهم سادة إيطاليا وأن سيادة الإمبراطور البيزنطى ليست إلا سيادة إسمية واهية، سعوا بأنفسهم إلى قمع الثورات، وحرصوا على الحفاظ على طاعة الشعب الإيطالى للأباطرة البيزنطيين(١٨) خوفاً من أن تؤول تلك السيادة لأعدائهم اللمبارديين.

أما اللمبارديون، فقد شكلوا خطراً على ممتلكات الأطراف الثلاثة بسبب سياستهم الرامية إلى وقوع إيطاليا كلها تحت سيادتهم وحوزتهم. فلقد أستولى اللمبارديون سنة ٥٦٨م بقيادة زعيمهم البوئين Alboin (٥٦١ - ٥٧٣م) على وسط إيطاليا وشمالها، بعد أن خاضوا عدة معارك مع الحاميات البيزنطية. أما مدينة روما Rome مع المناطق المجاورة لها، فقد بقيت خاضعة لسلطة البابا؛ بينما خضعت رافنا Ravenne تحت السيادة البيزنطية، وطوال ما يقرب من قرنين من الزمان، شهدت إيطاليا صراعاً بين اللمبارديين من جهة، والبيزنطيين من جهة ثانية، والبابوية من جهة ثالثة، كما تدخلت مملكة الفرنجة أيضاً فى هذا الصراع(١٩).

ولقد سار إيستولف Aistulf (٧٤٩ - ٧٥٦م) على سياسة لويتبراند Luitprand (٧١٢ - ٧٤٤م) الذى يعد أعظم الملوك اللمبارديين على الإطلاق، تلك السياسة القاضية إلى وقوع إيطاليا كلها تحت السيادة اللمباردية.

ونجح لويتبراند فى استغلال النزاع القائم بين الإمبراطور البيزنطى ليون الثالث الأيسورى والبابا جريجوار الثانى GrégoireII (٧١٥-٧٣١م) ليستولى على رافنا Ravenne وبولونيا Bologne وبنتابول Penta pole وكل الأراضى البيزنطية الواقعة شمال روما. إلا أنه بفضل تدخل البابوية ومساندة الجيش البندقى استعيدت رافنا من اللمبارديين(٢٠). لكن لويتبراند لم يركن إلى السكينة، ففى

سنة ٧٤١م تمكن من قطع كل اتصال قائم بين روما ورافنا بعد اجتياحه أربع قلاع - ألا وهى أمريا Ameria وبوليمرتيوم Polimartium وهورتا Horta وبليرا Blera – تتحكم فى الطريق المؤدى بينهما[٢١]. وبوفاته سنة ٧٤٤م، إعتلى عرش اللمبارديين ثلاثة ملوك أهمهم إيستولف Aistulf الذى سار على خطاه فبدأ ينفذ مشاريعه التوسعية بغرض السيطرة على إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها فانتهز فرصة إنشغال الإمبراطور قسطنطين الخامس بالمشاكل الداخلية والحركة اللاأيقونية والأخطار الخارجية المتمثلة فى حربه ضد البلغار والمسلمين، واستولى على كوماشيو Commacchio وفيرارا Ferara وفى يوليو سنة ٧٥١م، سقطت رافنا بفعل هجوم ضار شنه عليها، واتخذها عاصمة لمملكة اللمبارديين. وبذلك، فقدت الدولة البيزنطية نهائياً أملاكها فى شمال إيطاليا ووسطها[٢٢].

نتيجة لما تقدم، أصبح البابا فى موقف لا يحسد عليه ولا يقوى على مواجهة إيستولف، فهو على وشك إبتلاع كافة أراضيه حتى أن البابا أصبح على وشك الاختفاء من الساحة الإيطالية. فما كان منه أن هدد ملك اللمبارديين بتوقيع عقوبة الحرمان Excommunication، إلا أن إيستولف لم يحفل بتهديده. كما حول البابا استجداء تدخل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس، وطلب منه إرسال جيش بيزنطى لإستعادة روما والأراضى الإيطالية الأخرى من الغزاة اللمبارديين. لكن هذا التهديد لم يفلح هو أيضاً فى جعل إيستولف يتنازل عن ما حققه من توسع إقليمى؛ وبالتالى لم يكن أمامه سوى الاستعانة ببيين القصير ملك مملكة الفرنجة[٢٣].

وحدث آنذاك أن توفى البابا زكريا فى ١٥ مارس سنة ٧٥٢م. وفى نفس الشهر خلفه على السدة الرسولية إتيين الثانى Etienne II (٢٦ مارس ٧٥٢ - ٢٦إبريل ٧٥٧م)، فكان عليه مواجهة أطماع اللمبارديين المتزايدة. ألا أن الأمور إزدادت تفاقماً حين أقدم ملك اللمبارديين فى أوائل يونيو سنة ٧٥٢ على تهديد عاصمة البابوية روما[٢٤]، فما كان منه أن أنهى تهديده بإبرام اتفاقية سلام مع أتيين الثانى لمدة أربعين عاما. ورغم ذلك، وبعد مضى شهر على إبرامه تلك الاتفاقية، حاول ايستولف فرض جزية مقدارها صو Sou واحد من الذهب على جميع سكان دوقية روما. مما يؤكد نواياه فى أحكام سلطته على كافة اراضى البابوية[٢٥] Partes romanae

فى مواجهة تلك الأخطار، حاول إتيين الثانى التفاوض مع ملك اللمبارديين، عارضاً عليه الانسحاب من الأرضى التى احتلها. إلا أن مساعيه ذهبت سدى؛ فما كان من البابا أن لجأ إلى ببين القصير زعيم أوروبا القوى طالباً مساعدته ضد اللمبارديين. ففى رسالة حملها إليه أحد الحجاج؛ أخبره فيها عن رغبته فى

التشاور معه، وأبدى قلقه البالغ(٢٦). كما أوصاه أن يوفد إليه رجال ثقة لاصطحابه من روما إلى مملكة الفرنجة، لأن الطريق موبوءة باللمبارديين وغير آمنة. كما أنه يريد قبل الذهاب إلى ببين، أن يحصل على شئ يدل على مسئولية ببين تجاهه(٢٧).

فضلاً عن ذلك، فإن الإمبراطورية البيزنطية تأثرت تأثراً بالغاً بمجرى الأحداث المتعلقة بدوقية روما البيزنطية. فسقوط رافنا فى قبضة اللمبارديين كان له صداه البالغ فى بيزنطة، حتى أن قسطنطين الخامس كان يكتب خطاباً تلو الآخر إلى أتيين الثانى. فرافنا منذ عام ٥٦٨م عاصمة لأرخونية Exarchat بل وكل الأراضى الإيطالية التى آنذاك تحت السيادة البيزنطية، إضافة إلى أنها كانت حتى ذلك الوقت على اتصال وعلاقات وثيقة ودائمة مع العاصمة البيزنطية القسطنطينية. لذا، حاول الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس جاهداً، إستعادتها بطرقه الدبلوماسية. ففى سنة ٧٥٢م، أوفد حنا Jean، أحد كبار موظفى القصر الإمبراطورى، وبصحبته بولس Paul شقيق البابا، ليتفاوضا مع إيستولف في بافيا Pavie العاصمة اللمباردية. فقاما بتسليمه رسالة الإمبراطور. إلا أن مفاوضاتهما باءت بالفشل(٢٨). وفى غصون عام ٧٥٣م، عاد حنا من القسطنطينية، حاملاً إلى البابا أتيين أمرا موجهاً إلى إيستولف، يقضى برد الممتلكات التى أغتصبها من أملاك البابوية. وبالفعل، وهو فى الطريق إلى ببين، مر على ملك اللمبارديين، لينقل إليه ما كلفه به الإمبراطور ولانعدام القوة البيزنطية الرادعة، إستخف إيستولف بالاعتراضات الدبلوماسية التى أبدتها بيزنطة، بل ورد عليها بزيادة تهديداته لروما وسكانها، كما عامل مبعوثى الإمبراطور معاملة سيئة(٢٩).

وقد أورد كتاب البابوات Liber Pontificalis أن البابا أتيين الثانى كان يدرك تماماً أن الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس لا يقوى على مساندته وإجبار اللمبارديين على الانسحاب من الأراضى البيزنطية المغتصبة فى الغرب الأوربى. إلا أنه رأى من الناحية الشكلية، ضرورة إرسال سفارة إلى الإمبراطور البيزنطى طالباً نجدته(٣٠)، ويقال إنه كان يفضل التدخل البيزنطى على التدخل الفرنجي وفق ما جاء في سيرته الواردة فى كتاب البابوات(٣١)، ويبدو أن سبب ذلك أنه كان خاضعاً للسيادة البيزنطية الضعيفة، ويخشى من الفرنجة الأقوياء إذا حلّو مكانها.

وفى غصون عام ٧٥٣م أيضاً، وصل من مملكة الفرنجة السفيران المرتقبان، وكانا من كبار الشخصيات وثقة وفق طلب البابا الذى كان يخشى مكائد اللمبارديين: الأول، شرود جرج Chrodegarg أسقف متز Metz، والثانى الدوق أوجييه .Augier ومما لا شك فيه أنهما كلفا بطمأنة البابا، وإخباره أن العاهل

الفرنجي يكن له النوايا الحسنة. كما كان على المبعوثين اصطحاب البابا إتيين الثاني - حسب رغبته سالفة الذكر - إلى مملكة الفرنجة، حيث كان في انتظاره لقاء ثم ترتيبه مسبقاً للقاء الملك ببين(٣٢). وبالفعل، اتخذ البابا طريقه من روما إلى مملكة الفرنجة في ١٤ أكتوبر سنة ٧٥٣م بصحبة مبعوثي ببين القصير وبعض كبار رجال الإمبراطور البيزنطي، واتجه الجميع نحو شمال إيطاليا ومملكة الفرنجة(٣٣).

ولقد أدرك إتيين الثاني مدى أهمية المباحثات، لذا اصطحب معه بعض كبار شخصيات الإدارة البابوية، فعبروا جبال الألب في شهر ديسمبر سنة ٧٥٣ في طريقهم إلى مملكة الفرنجة، وكان الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس على علم بذلك(٣٤).

وفي الطريق، عاني الجميع من طول المسافة وشدة البرد. وأخيرا، في ٦ يناير سنة ٧٥٤م، تم استقبال البابا في القصر الملكي في بونثيون Ponthion من قبل الملك الفرنجي ببين، والذي سبق له أن كلف ابنه شارلمان Charlemagne- وكان عمره آنذاك عشر سنوات تقريباً - بترأس بعثة الشرف التي ضمت أيضاً بعض كبار ورجال المملكة والتي ستصاحب البابا إلى القصر الملكي في بونثيون(٣٥). أما ببين وزوجته برتراد Bertrade وابنه الثاني كارلومان Carloman وكبار رجال البلاط الفرنجي، فقد انتظروا البابا على بعد ثلاثة أميال من المدينة. وعندما علم ببين باقتراب البابا أتيين الثاني، أسرع للقائه بصحبة زوجته وإبنهما الثاني كارلومان. وحين مثل البابا أمامهم، ركع ببين ليعبر عن احترامه وتبجيله للجالس على الكرسي البابوي، ثم ترجل الملك الفرنجي من على صهوة جواده، وسار على قدميه بجوار جواد البابا ممسكاً بلجامه، وكان الجو شديد البرودة، والثلج يغطي الأرض. وأخيراً دخل الموكب في احتفال مهيب القصر الملكي الفرنجي في بنثيون(٣٦).

ولقد بدأت المفاوضات بين البابا وببين في اليوم التالي مباشرة – أي في السابع من يناير سنة ٧٥٤م - وحضر الاجتماع كبار رجال مملكة الفرنجة والأساقفة، وفيها شرح أتيين الثاني حالة البؤس التي تمر بها الكنيسة اللاتينية والدموع تنهمر من عينيه، وتوسل إلى زعيم أوروبا القوي أن يضع حداً لأعمال الابتزاز والتهديد التي يرتكبها إيستولف، وأن يضمن حماية كنيسة القديس بطرس ودولة الرومان - Res publica أي دولة البابوية في روما – هذا بينما أقسم الملك الفرنجي أن يحقق كل مطالبه وأن يعيده إلى سالف مكانته من تبجيل واحترام، كما تعهد بإعادة المدن التي استولى عليها اللمبارديون؛ ألا وهي أرخونية رافنا Exarchat de Ravenne وبقية الممتلكات البابوية في إيطاليا(٣٧). وتم إبرام أول اتفاقية بين إتيين الثاني وبين ببين القصير(٣٨).

وهكذا، سوف لا تعود الأراضى سالفة الذكر إلى صاحبتها الدولة البيزنطية وإمبراطورها اللاأيقونى هادم ومحطم الصور المقدسة قسطنطين الخامس، بل إلى بابا روما أتيين الثانى وكنيسة القديس بطرس.

هذا وقد أنعم البابا على ببين وأولاده بمرتبة «بطارقة الرومان»[٣٩] «Patricius Romanorum»، فى احتفال أقيم فى كنيسة سان دنيه يوم ٢٨ يوليو سنة ٧٥٤، أى أنهم أصبحوا من أشراف روما، والمدافعين عنها وعن إيطاليا الرومانية، كما مسحه هو والملكة برتراد وشارلمان وكارلومان بالزيت المقدس، وهدد الفرنجة بإنزال عقوبة الحرمان من جماعة المؤمنين Excommunication لكل من تسول له نفسه انتخاب ملك عليهم من غير أسرة ببين، أى الأسرة الكارولنجية[٤٠].

والجدير بالتسجيل هنا، أنه ليس من حق البابا ولا من صلاحياته منح لقب «بطريق الرومان»، بل يعد هذا من صلاحيات الإمبراطور البيزنطى، كما يعد أيضاً اغتصاباً لحق من حقوقه، لذا خشى ببين من حمل لقب بطريق[٤١].

وبذلك جعل أتيين الثانى من تلك الأسرة، أسرة أقيمت باختيار إلهى لتحكم الشعب الفرنجى وأصبح ببين القصير - مغتصب عرش الأسرة الميروفنجية - ملكاً شرعياً على أسرة جديدة، كما أصبح من حقه التدخل فى شئون إيطاليا والدفاع عن البابوية وحمايتها هذا بينما جامل البابا، ببين القصير بإكسابه الشرعية بعد تتويجه ملكاً على الفرنجة. فكان خير سند للأسرة الكارولنجية الوليدة، كما عزز هذا التتويج المقدس أواصر التحالف بين ببين القصير والبابا أتيين الثانى، إذ أحدث بينهما نوعاً من القرابة الروحية، ودل - كما هو يعتقد آنذاك - أن الله والقديس بطرس يؤيدان ببين فى مملكته، ويحميانه من كل محاولة يمكن أن تحدث عن طريق الملوك الشرعيين أو منْ أحد أبناء كارلومان شقيق ببين القصير.

ومن جهة أخرى، فإن التحالف الفرنجى البابوى سيكون له نتائج بعيدة المدى، إذ بعد أقل من نصف قرن سيقوم البابا ليون الثالث Leon III بتتويج شارلمان بن ببين إمبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة، وذلك ليلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ م[٤٢].

ومن الطريف أن رافنا لم تكن تابعة لبابا روما، بل كانت أراض خاضعة للسيادة البيزنطية، أى أن اللمبارديين حين استولوا عليها، فقد استولوا على أراض بيزنطية، كذلك كان حال دوقية روما، التى كانت فى الواقع تحكم من قبل البابا الخاضع للسيادة البيزنطية.

حينئذ، ليتخلص البابا أتيين الثانى من هذا المأزق قبل عودته إلى مملكة الفرنجة، كتب وثيقة مزيفة فى روما لتبرير مطالبه التوسعية عرفت باسم

«هبة قسطنطين» Constitutum Constantini Imperatoris وهى الهبة التى قيل إن الأمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦- ٣٣٧ م) Constantin Le Grand منحها فى القرن الرابع للبابا سلفستر الأول Sylvestre I (٣١٤- ٣٣٥م) وخلفائه، لكى يحكموا بموجبها إيطاليا والغرب الأوربى بأكمله. لقد شاعت فى إيطاليا منذ أواخر القرن الخامس قصة تروى أن البابا سلفستر كان قد عالج الإمبراطور قسطنطين من مرض الجذام. وأن قسطنطين تخلى للبابا عن حكم إيطاليا والغرب اعترافاً منه بهذا الجميل، ومنحه التاج الإمبراطورى تعبيراً عن هذه السلطة، وأن قسطنطين اكتفى بحكم القطاع الشرقى من الإمبراطورية الرومانية، وأن البابا أعاد التاج للإمبراطور. وقد اعتمدت وثيقة هبة قسطنطين على هذه القصة، وصدرت على أنها المرسوم الذى أصدره قسطنطين بهذه المناسبة؛ ولذلك، فإن الوثيقة تثبت بطريقة شرعية - حسب أدعاء الكنيسة الكاثوليكية- حق البابا فى تتويج الأباطرة والملوك، لأن إعادة سلفستر للتاج على رأس الإمبراطور قسطنطين يعتبر تتويجاً له، وحقاً يستطيع البابا أن يمارسه فى أى وقت؛ وتثبت بالتالى خضوع السلطة الزمنية للسلطة الدينية، وبعبارة أخرى تثبت حق البابا فى تتويج الساسة كيفما شاء.

كما جاء فى تلك الوثيقة أيضاً أن قسطنطين وهب البابا سلفستر الأول قصر اللاتيران Latran وكنيسة القديس بطرس، وحق حمل التاج وشارات الإمبراطورية: الرداء الأرجوانى، والبزة الحمراء، والصولجان، وعصى القيادة. والحق فى أن يكون له فرسان يرافقونه، وحق تعيين قناصل. وأن احترام قسطنطين للقديس بطرس يجعله يقوم بوظيفة السائس حيال البابا سلفستر الأول، وذلك بأن يترجل ويقود مطية البابا. وهذا ما فعله ببين القصير حين استقبل البابا فى بونثيون.

ويقال إن وثيقة «هبة قسطنطين» تم تزويرها فى روما، لأن أسلوبها يطابق الأسلوب الذى كانت تكتب به الوثائق البابوية فى القرن الثامن الميلادى؛ وأنها حررت فى عهد البابا أتيين الثانى (٧٥٢- ٧٥٧م) للتأثير على ببين القصير لكى يحارب اللمبارديين فى إيطاليا ويسترد منهم الأملاك البابوية التى استولوا عليها، والتى تعتبر بموجب هذه الوثيقة حقاً شرعياً للبابا. ويقال أيضاً إن الوثيقة زورت - تحديداً - فى سنة ٧٥٣م، وأن الموثق كريستوفر Christophors هو الذى قام بتحريرها، وأن البابا إتيين الثانى قدم الوثيقة بنفسه إلى ببين القصر عندما سافر إلى بونثيون سنة ٧٥٤م. ويؤيد هذا الرأى أن الوثيقة ظهرت لأول مرة فى دير سان دينيه الذى قضى فيه البابا أتيين شتاء هذا العام[٤٣].

على أية حال، طلب الملك الفرنجى من إيستولف أن يضع حداً لعدائه مع البابا، ويعيد إليه أملاكه التى اغتصبها. لكن محاولته هذه باءت بالفشل. فما

كان من ببين أن جمع كبار رجال مملكته وذلك فى الأول من مارس سنة ٧٥٤م فى برنى - ريفيير Berny - Riviere إحدى دوائر سواسون Soissons وأعرب فى هذا الاجتماع عن عزمه لشن حرب فى إيطاليا ضد إيستولف لصالح البابا. فقوبل طلبه بمعارضة شديدة من قبل الحضور، وحجتهم فى ذلك أن التحالف الفرنجى اللمبارديين يعتبر تقليداً سياسياً؛ فضلاً عن ذلك، فقد دب الفزع من تلك الحملة بسبب كونها بعيدة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، حاول ملك اللمبارديين مساندة المعارضين للحملة الموجهة ضده، إذ أقنع كارلومان Carloman شقيق ببين القصير على مغادرة دير مون - كاسان Mont- Cassin ليذهب خلال شهر مارس إلى مملكة الفرنجة، ويتوسل إلى شقيقه ألا يذهب فى حملة على إيطاليا، حى لا يكبدها أهوال الحرب والقتال. وكان طلبه هذا مثار دهشة وغضب جميع رجال الدين، كما أن ببين رفض الإنصياع لنصيحة شقيقه الذى أمره بمغادرة القصر، ثم ألقى القبض عليه وأجبره على دخول دير فيينا Vienne حيث ما لبث أن مات بعد قليل فى ١٧ أغسطس سنة ٧٥٤م، كما اضطر أولاده أن يعيشوا رهباناً هم أيضاً(٤٤).

رغم هذا الفشل، لم يركن ببين إلى السكينة، بل عقد مجلس الفرنجة الأعظم فى كيرسى - سيرواز Quiersy - sur - Oise وذلك فى ١٤ إبريل سنة ٧٥٤م يوم عيد القيامة. وفى هذه المرة نجح ببين فى إقناع الأدواق والكونتات بعزمه القاطع على قتال اللمبارديين حفاظاً على حقوق البابوية. فوافقه الجميع على مطلبه وأخذوا بفكرته. وأوضح تعهداته فى بونثيون حيث تعهد باتفاق باسمه وباسم ولديه إلى البابا أن يمنحه رافنا، ويؤمن له أملاك هذه الأرض مع دوقية روما(٤٥).

والملاحظ أن ببين حركته دوافع كثيرة ومختلفة لاتخاذ مثل هذا المسلك العدائى تجاه إيستولف. فملك اللمبارديين كان على استعداد لاستقبال ألد أعداء ببين ألا وهو شقيقه الثالث غير الشرعى جريفون Griffon وذلك سنة ٧٥٣م. وكان والده شارل مارتل قد ظلمه بأن أعطاه ميراثاً شريطاً ضيقاً من الأرض على حدود نستريا وأوسترازيا. وفى سنة ٧٤١م، أدخل أحد الأديرة ثم أطلق ببين سراحه. وبالفعل توجه جريفون فى طريقه إلى لمبارديا، إلا أنه لقى حتفه فى إحدى ممرات جبال الألب(٤٦).

عقب ذلك، ولإجلاء إيستولف عن الأراضى البابوية التى احتلها، أرسل ببين سفارتين للمثول أمامه؛ إضافة إلى رسالة من البابا إتيين الثانى. وقد استمرت تلك المفاوضات السلمية النشطة خلال صيف وخريف سنة ٧٥٤م، إلا أن تلك الجهود السلمية ذهبت سدى. فلم يبق أمام الملك الفرنجى إلا استخدام القوة المسلحة. وهكذا انطلقت الجيوش الفرنجية من أنحاء سواسون وذلك فى ربيع

سنة ٧٥٥م، فى اتجاه ليون وموريان Maurienne، حيث انضم إليهم ببين وبصحبته إتيين الثانى(٤٧). فازداد المقاتلون حماسة فى حربهم ضد اللمبارديين. وبعد إنذار أخير لا طائل منه، إجتاز الجيش الفرنجى جبال الألب عن طريق ممر جبل سينى Mont- Cenis، ثم أسرع فى التقدم إلى أن وصل إلى سوز(٤٨) Suse. فأحدث هرجاً ومرجاً فى مقدمة الجيش اللمباردى، فما كان من الجيش الفرنجى أن زحف فى أعقابه إلى أن وصل بافيا عاصمة مملكة اللمبارديين حيث حاصر إيستولف الذى أبدى صموداً ضعيفاً للغاية وبدا للجميع أنه قرر الصلح بسرعة حتى يتخلص من الغزاة الفرنجة.

هذا بينما يبدو أن ببين من جانبه كان سعيداً أكثر من اللازم بهذا الانتصار. ويرجع ذلك ربما إلى قصر النظر، أو ربما أيضاً بدافع من الحماسة الزائدة؛ إذا كان يعتقد أن الحرب إذا طالت ستؤثر على موقفه ومكانته فى مملكة الفرنجة، لذا، اكتفى بما تعهد به إيستولف بأن يعيد للبابا أرخونية رافنا، مع بقية أراضى المقاطعة التى كان قد غزاها، إضافة إلى نارنى Narni وسيكانو Ceccano الواقعتين على أطراف الدوقية، مع الاعتراف بالسيادة الفرنجية. بعد ذلك، إصطحب الملك الفرنجى البابا إتيين الثانى إلى روما، فدخلها مزهواً بالانتصار الذى أحرزه على عدوه إيستولف؛ ثم وواصل ببين القصير طريقه إلى مملكة الفرنجة وذلك فى أوائل صيف سنة ٧٥٥، فخوراً بإخضاع لمبارديا للسيادة الفرنجية(٤٩) لكن فرحته لم تكتمل حين علم وهو فى طريق عودته إلى مملكته بنبأ استشهاد صديق عمره ورفيق حياته القديس بونيفاس Boniface على أيدى بعض الفريزيين الوثنيين، فعزم على أن ينتقم له. ومما يذكر أن استشهاد بونيفاس يعد نصراً للمسيحية لوصولها آنذك إلى تلك الأصقاع النائية في أقصي شمال أوروبا، إذا نتج عن ذلك تنصير الفريزيين، واتخاذهم قبره مكاناً مقدساً.

أما الإمبراطورية البيزنطية، فلم تتنازل على الإطلاق عن الأراضى التى أصبح ببين يتصرف فيها على هواه بموجب حق الغزو. فالحكومة البيزنطية علمت بذلك مؤخراً، فما كان منها أن أرسلت فى ربيع سنة ٧٥٦م سفارة إلى ببين ضمت جورج والمبعوث القديم حنا، تطلب منه أن يتخلى عن رافنا والأرخونية. فرفض الملك الفرنجى المطلب البيزنطى رفضاً قاطعاً(٥٠). وهكذا فقدت بيزنطة تلك الأراضى إلى الأبد، بينما بدأت الحياة تدب فى دولة البابوية.

على أن ملك اللمبارديين المهزوم لم يكن ليحافظ على عهده إلا فى حالة وجود قوة ببين على مقربة منه. فقد استغل انسحاب الجيش الفرنجى من إيطاليا، وعودة ببين إلى عاصمته سواسون، ليتراجع عن الوفاء بما تعهد به، ويمتنع عن إرجاع أى مدينة إلى الكرسى البابوى ما عدا نارنى Narni الذى تجرأ واستردها ثانية من البابا. ولم يكتف بذلك، بل عهد إلى تشديد الحصار على

مدينة روما Rome ذاتها وذلك فى الأول من يناير سنة ٧٥٦م، واستمر الحصار لمدة ثلاثة أشهر، عانى منه أهلها الأمرين حتى أنهم اضطروا للاستسلام فى آخر الأمر وأدرك ببين آنذاك أن الأمر لا يحتمل الانتظار ولابد له من العودة ثانية إلى إيطاليا لإنقاذ روما، قرر ذلك فى مايو سنة ٧٥٦م. فاجتاز الجيش الفرنجي - كحال الحملة الأولى - ممر جبل سينى Mont- Cenis ثم ألحق الهزيمة بجيش اللمبارديين المتواجد فى مضيق سوز Pas De Suse وبذلك تمكن ببين من إحكام حصار إيستولف فى بافيا العاصمة اللمباردية. وقد شاركت الجيش الفرنجى فى عملياته العسكرية سالفة الذكر كتائب بافارية أتت من الشمال بقيادة ابن خالته المدعو تاسيلون Tassilon دوق بافاريا Baviere وأخيراً، اضطر ملك اللمبارديين للاستسلام وطلب الصلح(٥١).

وكان من الطبيعى أن يملى ببين شروطه على إيستولف، إذ أكرهه على تجديد خضوعه له، وأن يستولى على ثلث خزائن لمبارديا الملكية، وأن يدفع لمملكة الفرنجة جزية سنوية، ويسلمه عدداً جديداً من الرهائن، ويعيد فى الحـــال الأراضى التى استولى عليها من أرخونية رافنا ونارنى. وقد ورد فى كتاب البابوات Liber pontificalis أن ببين نظم كل ذلك، ومنحه إلى القديس بطرس ببراءة مكتوبة، وكلف فولراد Fulrad رئيس دير القديس دينيه بالذهاب بشخصه لتسلم كل المدن والمقاطعات التى تعهد ملك اللمبارديين بالتنازل عنها فى العام الماضى وتسليم مفاتحيها - حسب الأصول التقليدية - إلى روما وخليفة القديس بطرس أى إتيين الثانى(٥٢). وهكذا كان على فولراد الذهاب بشخصه لتسلم المواضع وهى فى رافنا وفى كوماشيو Comacchio فى الأرخونيةِ، وفى فورلمبوبولى Forlimpopoli سيسنا Cesena، ريمينى Rimini، بيزارو Pesaro، فانو Fano، سنيجاليا Senigallia، سان مارينو San Marino، منتيفلتر Montefeltro (فى أيامنا هذه سان ليو San Leo)، أوربينو Urbino، ييسى Iesis، وفى ثلاث أو أربع مواضع أخرى أو ضيع فى بنتابول Pentapole، وبذلك تسلم جوبيو Gubbio شمال أومبرى Ombrie، وعلى حدود دوقية روما وسابين Sabine، تسلم مدينة نارنى Narni الصغيرة التى سبق لإيستولف أن انتزعها فجأة من البابا(٥٣) كما سبق القول.

هكذا رضخ إيستولف للشروط المهينة المفروضة عليه، وسلم المدن والأراضى البابوية إلى فولراد Fulrad الذى بدوره ردها إلى البابا، ووضعت مفاتحيها والوثيقة الرسمية للهبة التى عرفت فيما بعد بهبة ببين Donation de Pepin على مذبح القديس بطرس، دلالة على انتصار الكنيسة الكاثوليكية على أعدائها. وكونت الأراضى سالفة الذكر مع دوقية روما الدولة البابوية. وكانت تحت حماية ببين القصر وبذلك أصبح البابا إتيين الثانى صاحب الأراضى

البيزنطية الواقعة فى وسط إيطاليا بعد أن أصبح سيداً لدوقية وأرخونية رافنا. ولا شك فى أنه كان يعترف نظرياً بسيادة الإمبراطورية البيزنطية. وفى واقع الأمر بقيت أراضى البابا مستقلة، ولكنها لم تجد شكلاً قانونياً محدداً. ولذا يمكن اعتبار «الجمهورية الرومانية» «Republica Romanorum» أى «دولة البابوية» دولة فى حالة التكوين، والسلطة الوحيدة التى تسيطر عليها هى سلطة ببين القصير، الذى يراقب إلى حد ما سياستها الداخلية(٥٤).

ومن الطبيعى أن يكون وقع هذه الهزيمة الساحقة محزناً فى نفس إيستولف، إذ لقى مصرعه خلال رحلة صيد وذلك فى ديسمبر سنة ٧٥٦م بعد أن سقط قتيلاً من على ظهر جواده(٥٥).

على أية حال، بمصرع إيستولف فى ديسمبر سنة ٧٥٦م، حدث نزاع على عرش اللمبارديين بين رتشيس Ratchis شقيق إيستولف الذى خرج من دير مون - كاسان Mont- Cassin، وديزيدريوس Desiderius دوق توسكانيا Toscanie والمرشح من قبل فولراد Fulrad رئيس دير سان دينيه(٥٦) فما كان من البابا إتيين وببين القصير أن ساندا ديزيدريوس سياسياً وعسكرياً مقابل الالتزام بالاتفاقية التى أبرمها سلفه سنة ٧٥٤م وجددت سنة ٧٥٦م(٥٧)، كما تعهد للبابا فى حضور ممثل ببين فى إيطاليا أن يعيد إليه ما اغتصبه لويتبراند Lataran (٧١٢ - ٧٤٤م) من أراض وعلى وجه الخصوص فى أرخونية فاينزا: Faenza الواقعة غرب الأرخوَنية، إضافة إلى أنكونا Ancône وأومانا Umana و أوسيمو Osimo الواقعة جنوب شرق بنتابول .Pentapole وكان مصير رتشيس Ratchis العودة ثانية إلى الدير بناء على أوامر البابا إتيين الثانى(٥٨).

لكن لم يكد ديزيدريوس يتربع على عرش المملكة اللمباردية فى مارس سنة ٧٥٧م حتى نكث بالعهد، وامتنع عن تسيلم المواضع التى تعهد بتسليمها للبابا، واكتفى فقط بتسليمه فاينزا Faenza وفيرارى Ferrare (٥٩).

وحدث آنذاك أن توفى البابا أتيين الثانى فى ٢٦ إبريل سنة ٧٥٧م فى قصر اللاتيران Latran، وخلفه على الكرسى البابوى بولس الأول Paul I (٧٥٧- ٧٦٧م)، الذى حاول - دون جدوى - استرداد بقية الأراضى التى وعد ديزيدريوس بتسليمها للبابوية ولم يكتف ديزيدريوس بالامتناع عن تسليم الأراضى للبابا بل سخر منه وهدده ثم فاوضه سنة ٧٥٨م وبرفقته مندوب الإمبراطور البيزنطى لاستعادة رافنا(٦٠). أما ببين فكان آنذاك يتمنى إقامة سلام فى إيطاليا، بسبب انشغاله فى إتمام قيام الحكم الفرنجى فى جنوب بلاد الغال، واسترداد جميع المدن التى كانت فى يد المسلمين فى سبتمانيا Septimanie، والتى زحف عليها ببين نفسه سنة ٧٥٩م(٦١). كما واجه مهمة بالغة الصعوبة حين قام بغزو

أقطانيا Aquitanie ، وبعدها تتابعت غزواته ، باستسلام تولوز Toulouse عاصمتها سنة ٧٦٧م(٦٢). كما حارب آنذاك السكسون(٦٣). إضافة إلى ما تقدم، قوبل التدخل الفرنجى فى الشئون الإيطالية بمعارضة شديدة من قبل كبار رجال المملكة من النبلاء.

كل تلك المتغيرات، جعلته يغير من سياسته الإيطالية ويجنح إلى السلم فى حرب لن يجنى ثمارها فى حالة النصر سوى بابا روما. لذا، سعى سنة ٧٦٣ م، على تهيئة جو لإبرام إتفاقية سلام بين الفرقاء، ونتج عن إقناع البابا بولس الأول بتوقيعها، إن تنازل عن مطالبه الإقليميه كما تنازل عن بسط سيادته على سبوليتو Spoléte وبنفنتو Bénévent

وهكذا أبرمت اتفاقية سنة ٧٦٣ م بين ملك اللمبارديين ديزيدريوس والبابا بولس الأول، تقضى بالاحترام المتبادل بين الطرفين، وإعادة الأمور إلى نصابها دون إحداث تعديلات مستجدة، مع احتفاظ كل طرف بقوانينه الخاصة دون تدخل الطرف الأخر(٦٤).

ثم كان أن توفى ببين القصير فى ٢٤ سبتمبر سنة ٧٦٨م وهو فى الرابعة والخمسين من عمره، بعد آخر حملة قام بها على اقطانيا، إذ شعر وهو فى مدينة سانت Saintes بمرض الم به واقتراب أجله، فقام بتوزيع مملكته كما فعل والده شارل مارتل، إذ قسمها بين ولديه كارلومان Carloman وكان نصيبه المناطق الشرقية ألا وهى: بروفانس وسبتمانيا وبرجنديا والالزاس وأليمانى Alémanie. أما شارل العظيم أى شارلمان فكان نصيبه استرازيا Austrasie ونستريا Neustrie. فى حين قسمت اقطانيا بينهما(٦٥).

ختام القول، كان ببين حكيماً فى سياسته إزاء إيطاليا المتصارع عليها من قبل القوى الثلاث: الدولة البيزنطية صاحبة السيادة، واللمبارديون الطامعون فى الاستحواذ عليها من أقصاها إلى أقصاها والبابوية الساعية للحفاظ على نفوذها فى وسطها ، بعيداً عن أطماع اللمبارديين من ناحية، والسيادة البيزنطية الواهية من ناحية أخرى. ولا مانع لدى بابوات روما من الهيمنة على إيطاليا بكاملها بل والغرب الأوربى والعالم أجمع كذلك لكثلكته.

وفى تتبعنا للكاسب والخاسر، نلاحظ أن الكاسب الأكبر فى أول الأمر كان البابا إتيين الثانى، الذى سخر جيش ببين القصير لصالحه فى معركتين سنتى ٧٥٤ و ٧٥٦م خرج منهما ظافراً، وكانت اتفاقية السلام الثانية، أنجح من الأولى، بالنسبة للبابوية على وجه الخصوص، بسبب اتساع الأراضى التى ستؤول إليها، إذ أصبح البابا صاحب الأملاك البيزنطية فى وسط إيطاليا، بعد تسلمه المدن البابوية وابتداع هبة قسطنطين المزيفة، التى جعلت منه زعيماً دينياً ودنيوياً لدولة البابوية. وهكذا أصبح مهيمناً على مقدرات الغرب

الأوربى، ومسيراً لكثير من أحداثه طوال العصور الوسطى.

لكن بوفاة ملك اللمبارديين إيستولف فى ديسمبر ٧٥٦م، تبدلت الأمور لصالح اللمبارديين، بعد امتناع خلفه ديزيدريوس، عن تنفيذ ما سبق أن تعهد به سلفه، إذ رفض تسليم البابا الأراضى المتفق عليها، بل اكتفى بتسليمه فاينزا وفيرارى. وبوفاة أتيين الثانى فى ٢٦ إبريل ٧٥٧م، أكره شقيقه وخلفه بولس الأول على التنازل عن مطالبه، بعد تدخل ببين ونجاحه فى إبرام اتفاقية بين المتخاصمين سنة ٧٦٣م، أضاعت الكثير من المكاسب هادفاً من ذلك أن يسود السلام ربوع إيطاليا غير المتفرغ لمشاكلها ولا تعنيه كثيراً آنذاك بسبب توسعاته الخارجية التى ستفضى إلى توسيع رقعة مملكة الفرنجة.

أما الكاسب الثانى، فكان ببين القصير، إذ حولته البابوية من «حاجب القصر» الملكى فى أوسترازيا إلى «ملك مملكة الفرنجة»، وبالتالى ساعدته على إسدال الستار على الأسرة الميروفنجية، وإقامة الأسرة الكارولنجية. وهكذا اغتصب العرش بمباركة البابوية، أى بطريقة شرعية خالصة، خاصة وأنها هددت معارضى ملوك تلك الأسرة الجديدة بالحرمان.

كما أن ببين كبح جماح مملكة اللمبارديين، فأصبحت لا تشكل لمملكته أى إزعاج، بل بعد إلحاق الهزيمة بها فى معركتين، فرض عليها مطالبه بموجب اتفاقية ٧٥٤م، إذ أضافها إلى مجموعة الأراضى الخاضعة للتاج الملكى، وفى الاتفاقية الثانية التى أبرمت سنة ٧٥٦م، نصت على أن يكون لببين ثلث خزائن مملكة لمبارديا، وأن يدفع ملك اللمبارديين إيستولف لببين جزية سنوية.

إضافة إلى ما تقدم، فإن البابوية تخلت عن السيادة البيزنطية التى لا تقوى على حمايتها، لتبدلها بسيادة مملكة الفرنجة، مما رفع من شأنها لتحتل المكانة الأولى فى الغرب الأوربى آنذاك؛ ونتج عن ذلك فيما بعد، قيام وحدة أوربية على مسرح التاريخ تحت مسمى «الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة».

وإذا انتقلنا إلى اللمبارديين، فكانوا من كبار الخاسرين زمن إيستولف عقب هزيمتيه المتلاحقتين، وإن كان ديزيدريوس أوقف وخفف من حجم الخسائر، إلا أن عملاق أوربا شارلمان الذى ورث مملكة أبيه القوية، مسح من صفحة التاريخ ديزيدريوس ومملكة اللمبارديين بعد ضمها إلى رقعة إمبراطوريته الواسعة سنة ٧٧٤م.

وأخيراً، خسر البيزنطيون الجزء الأكبر من إيطاليا البيزنطية، إذ اقتصرت السيادة البيزنطية على كالابريا Calabre وأوترنت Otrante ونابولى Naples وجايتى Gaëte وضاعت هيبة الإمبراطور البيزنطى، بينما بزغ نجم ملك الفرنجة ببين، ومن بعده ابنه شارلمان الذى سيصبح إمبراطوراً على القسم الغربى من الامبراطورية الرومانية بعد أقل من نصف قرن.

الهوامش

(١) للتفاصيل أنظر:

Monod, G., Etudes Critiques sur les sources de L' Histoire Mérovingiennes, Paris, 1872, PP. 1-63.

حيث أعد العالم جابرييل مونو Gabriel Monod دراسة نقدية تحليلية مقارنة لأهم مصدرين عن الأسرة الميروفنجية فى القرن السادس: الأول جريجوار التورى Grégoire de Tours والثانى: ماريوس دافنش Marius d' Avenches أنظر أيضاً:

علية عبد السميع الجنزورى: جريجوار التورى وقيام دولة الفرنجة، القاهرة ١٩٨٨م، ص ٧٧- ١٢١.

(٢) Continaution de Frédégaire, P. 182.

(٣) Ibid, P. 182; Annales Regni Francorum, éd. Kurze, 1895, PP. 8-10; Eginhard, Vita Karoli Magni, p.9; Liber Pontificalis, t.I, P. 433.

وللتفاصيل أنظر سيرة البابا زكريا فى كتاب البابوات Liber Pontificialis t.I, PP. 426- 439.

(٤) Liber Pontificialis, t.I, P. 444

(٥) Annales Regni Francorum, PP. 8-9; Continuation de Frédégaire, P. 182; Clausula De Unction Pippini, in M.G.H., SS. RER. Merov., I, P. 465-466.

(٦) Clausula De Unctione Pippini,in SS. Rer, Merov., I, P. 465; Annales Fuldenses, éd. Kurze, Hanover, 1891, P.6.

(٧) Annales Regni Francorum, PP. 8,10; Annales qui Dicunter Eginhard, PP. 9, 11; Cont. Fred; 33, P. 182

(٨) Pirenne, H; Mahomet Et Charlemagne, Paris, 1970, P.137; Mahomet And Charlemagne, London, 1958, P. 188.

(٩) La Monte, J.L., The World of The Middle Ages, NewYork, 1949, PP. 391-394; Baldwin, M.W., TheMediaeval Church, NewYork, 1935, PP, 46-58, 76-81.

(١٠) Theophanes, The Chronicle Of Theophanes Confessor, Ed. Cyril Mango and Robert Scott, Oxford, 1997, PP. 556-557; éd, Harry Turtledove, Pensylvania, 1982, PP. 94-95.

(١١) Vasiliev, A.A; Constantin I, Empereur Des Romains, Paris, 1902, PP. 60-61.

(١٢) Theophanes, éd Mango, P. 558; éd. Harry, P. 96.

(١٣) LE Liber Pontificalis, ed. L. Duchesne, Paris, 1955, t.I, 184- 185.

(١٤) Liber Pontificalis, t.I, 183.

(١٥) Liber Pontificalis, t.I, 192; Mansi, Amplissima Collection Conciliorum, 299.

(١٦) Theophanes, éd Mango, P. 563-564; éd. Harry, P.P 98-95.

(١٧) Longhis, T.G., Les Ambassades Byzantines en Occident, Athenes, 1980, P. 132.

(١٨) Liber Pontificalis, 184- 185, 187.

(١٩) Lot, F., The End of The Ancient World and The Beginning of The Middle Ages, London, 1931, P. 290; LA Fin du Monde Antique et le Commencement du Moyen Age, Paris, 1927, PP. 355-356; Halphen, L., Etude Sur L'Administration De Rome au Moyen Age 757-1282, Paris, 1907, pp. 11-15, 20,40.

(٢٠) Monumenta Germaniae Historica, Epistolae, t.III, P. 702

(٢١) Codex Carolinus, in M.G. EP. t. III, P. 447.

(٢٢) Liber Pontificalis, t.I, PP. CCXXIV-CCXXV,M.1P. 442. CF. Diehl, CH., Etudes sur L'Administration Byzantine dans L'exarchat de Ravenne, Paris, 1888, P. 220; Ostrogorsky, G. Histoire de L'état Byzantine, trad. J. Gouillard, Paris, 1977, P. 199; History of the Byzantin State, trad, j. Hussey, Oxford, 1968, P. 170; Deanesly, M,A History of Early Medieval Europ London, 1956; P. 292; Brehier, L' Vie et Mort de Byzance, Paris, 1969, P. 82; Halphen, L; Charlemagne et L'empire Carolingien, Paris, 1968, P. 31.

(٢٣) Liber Pontificalis, t.I, P. 442.

(٢٤) Liber Pontificalis, t.I, P. 230.

(٢٥) Codex Carolinus t. III, P. 479- 480.

(٢٦) Clausula de Unctione Pippini, in M.G.Hss. Rer, Merov., 465-466.

(٢٧) Codex Carolinus t. III, P481- 482;. Liber Pontificalis, t.I, P. 444.

(٢٨) Liber Pontificalis, t.I, P. 443. CF. Ganshof, Histoire du Moyen Age, Paris, 1940, t.I, P. 408.

(٢٩) Liber Pontificalis, t.I, P. 442.

(٣٠) Liber Pontificalis, t.I, P. 442. cf, Lombard, Constantin V, P,65.

(٣١) Liber Pontificalis, t.I, P. 443.

(٣٢) Liber Pontificalis, t.I, P. 445.

(٣٣) Liber Pontificalis, t.I, P. 445. cf. Halphen, p. 32. Lounghis, Les Ambassades, P. 134.

(٣٤) Hubert, J., Etude sur La Formation des Etats de L'eglise, Paris, 1952, P. 251; Kleinclausz, A., Charlemagne, Paris, 1934, P.2., Diehl, Op. Cit, P. 218, Lombard, p. 70.

(٣٥) Liber Pontificalis, t.I, P. 447-448; Continuateurs de Frédégaire, 36, P. 183; Clausula de Unctione Pippini, PP. 465-466.

(٣٦) Liber Pontificalis, t.I, P. 448.

(٣٧) Annales Mettenses Priores, éd. B. Von Simson, Hanover, 1905, in M.G.H. SS. Rer Germ., Année 753, V, P. XI; Liber Pontificalis t.I, P. 448; cf. ganshof, t.I, P. 409.

(٣٨) Liber Pontificalis, t.I, P. 448. cf. Lombard, P. 72.

(٣٩) لقب بطريق (Patrice) من ألقاب الشرف الرفيعة، لم يكن لحاملة وظيفة معينة، أنعم به أباطرة الإمبراطورية على زعماء البرابرة مثل أدواكر Odoacre وثيودوريك Théodoric. وفى القرن الخامس الميلادى حاول ثيودوسيوس الثانى وزينون قصر استخدام هذا اللقب، لكن جستنيان الكبير أرجعه إلى سابق عهده أنظر:

Bréhier, Les Institutions De L'empire Byzantin, Paris, 1949, PP. 102- 103; Bury, The Imperial Administrative System. London, 1911, PP. 20- 36, 121- 124.

(٤٠) Liber Pontificalis, t.I, P. 448; Annales Regni Francorum, Année 754, P. 12; Chronique de Moissac, P. 293; Codex Carolinus, Lettre 7, in Epistolae, t.III, P.493; Clausula de Unctione Pippine, PP. 456-466; Fredegarii Chronicorum Liber Quartus Cum Continuationibus, C.33, p. 102.

(٤١) Liber Pontificalis, t.I, P. 449; Annales Regni Francorum, e d. Kurze, P.12.

(٤٢) حسنين محمد ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ـ القاهرة ١٩٩٣م - ص ١٢١.

(٤٣) Ganshof, T.I, P. 409, Halphen, Pp. 35- Loughis, Pp. 136 - 138.

وقد أنكر رهبان دير سابين Sabine فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى صحة وصدق هبة قسطنطين. أنظر: جيبون: اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ـ القاهرة ١٩٦٩ ـ جـ٢، ص ٥٧٧ وعن

معارضيها انظر: ص ٥٧٧- ٥٧٨.

(٤٤) Liber Pontificalis, t.I, P. 449; Annales Regni Francorum, Année 755 éd. Kurze, P.12. Fredegaire, C. 37, P. 105.

(٤٥) Liber Pontificalis, t.I, P. 449; Annales Regni Francorum, P. 11.

(٤٦) Frédegaire, C. 35, P. 103.

(٤٧) Liber Pontificalis, t.I, P. 452- 453; Annales Regni Francorum, P.12; Fredegaire, C. 37, P. 105.

(٤٨) Fredegaire, C. 37, P. 105.

(٤٩) Fredegaire, C. 37, P. 105-106.

(٥٠) Fredegaire, C. 38, P.P 107; Liber Pontificalis, t.I, PP 452-453.

وقد أدرجت فى حولية بتافيانى تحت أحداث سنة ٧٥٤م. أنظر:

Annales Petaviani, éd. Pertz, Année 754, P. 11

أنظر أيضاً:

Annales Fuldensis, ED. Kurze, 1891, p. 6.

(٥١) Fredegaire, C. 38, P.P 107-108; Codex Carolinus t. III, P. 493.

(٥٢) Codex Carolinus t. III, P. 492-493.

(٥٣) Liber Pontificalis, t.I, P. 452-454; Annales Regni Francorum, éd. Kurze, P.12; Annales Marbacenses qui Dicuntur, éd. Hermanus Bloch, Hanover, 1907, P.6.

(٥٤) Vasiliev, t.I, P. 461; Kleinclausz, P.II; Amann, t.V1, P. 18; Ganshof, t.I, P. 412-413.

(٥٥) Fredegaire, C. 39, P.P 108-109; Liber Pontificalis, éd. Kurze. Hanover, 1895, Année 756, P. 14. Annales qui Dicuntur Einhardi, Année 756, P. 15; Reginonis Abbatis Prumiensis Chronicon Cum Continuatione Treverrensi, éd. Kurze, Hanover, 1890, PP. 45-46.

والملاحظ أن الحولية الأخيرة أدرجت وفاة إيستولف تحت أحداث سنة ٧٥٥م بدلاً من ٧٥٦م كما وردت فى الحوليات الأخرى.

(٥٦) Liber Pontificalis, t.I, P. 453-454.

(٥٧) Liber Pontificalis, t.I, P. 455.

(٥٨) Codex Carolinus t. III, Epistolae, P. 506.

وكانت «البنتابول» تمتد على طول ساحل الادرياتيك من الابنين. أنظر: جيبون: اضمحلال الامبراطورية الرومانية، جـ٢، ص ٥٧٤. أما «رتشيس» Ratchis، فكان دوقاً على فريول Frioul سنة ٧٣٧م، ثم ملكاً على اللمبارديين سنة ٧٤٤م. وفى سنة ٧٤٩، تنازل عن العرش لصالح شقيقه إيستولف ليدخل دير مون كاسان Mont Cassin. وبوفاة شقيقه سنة ٧٥٦، خرج من الدير ليعتلى عرش اللمبارديين ثانية، وليقاتل ببين ويستعيد أملاكه التى تقلصت. انظر:

Bouillet, M M., Dictionnaire Universel D'Histoire et de Géographie, Paris, 1871, P. 1585

(٥٩) Liber Pontificalis, t.I, P. 455.

(٦٠) Liber Pontificalis, t.I, Pp. 455-457.

(٦١) للتفاصيل عن حملاته على سبتمانيا أنظر:

Annales Moissiac, in R.H.G., F; T. V, P. 68-69.

(٦٢) للتفاصيل عن غزوتيه لاقطانيا أنظر:

Fredegaire, PP. 112-120. Annales Marbacenses, P. 7; Annales Fuldenses, P. 7; Eginhardi Annales: de Gestis Caroli Magni, in R.H.G.F., t V, PP. 199-200; Annales Regni Francorum éd. Kurze, P. 27.

(٦٣) للتفاصيل عن حرب السكسون أنظر:

Annales Regni Francorum éd. Kurze, P. 17; Reginonis, P. 44.

(٦٤) Liber Pontificalis, t.I, Pp. 455-457; Codex Carolinus t. III, Pp. 506, 512, 520.

(٦٥) للتفاصيل أنظر:

Annales Regni Francorum éd. Kurze, P. 29; Eginhard, P.15; Annales Fuldenses. P.8.

د.نورة بنت محمد بن عبدالعزيز التويجرى (*)

أسباب التردى والتحسن فى علاقات دولة بنى نصر بمملكتى قشتالة وأراغون

تعتبر العلاقات بين الدول مصدرا مهما يعين فى الكشف عن تاريخها، وسنحاول فى هذا البحث تتبع العوامل المؤثرة فى تذبذب العلاقات بين التردى أحيانا والتحسن أحيانا أخرى بين دولة بنى نصر فى الأندلس وجاراتها الدولتين النصرانيتين فى الشمال والغرب مملكة قشتالة (Castilla) ومملكة أراغون (Aragon). فلئن كانت الصفة الغالبة على تلك العلاقات هى العداء الممتد لفترات قد تطول وقد تقصر، إلا أن هناك فترات فى تاريخ هذه العلاقات سادها الهدوء والتفاهم وحسن الجوار، وسيتبين أن الظروف الداخلية والخارجية التى كان يمر بها كل طرف، والأهداف القريبة والبعيدة لكليهما كان لها دور فى حدوث حالات المد والجزر تلك فى العلاقات فيما بينهم.

ولعل من المفيد أن نمهد لحديثنا بسطور قليلة عن نشوء أطراف تلك العلاقات، فدولة بنى نصر وقاعدتها مدينة غرناطة (Granada) قامت على بقايا الدولة الإسلامية الكبرى فى إسبانيا، وكانت آخر معقل للمسلمين فى الأندلس وبقية مدة سلطانهم بها، وكان قيامها فى أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى)(1)، فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الايبيرية (Iberia)(2)، وامتدت فيما وراء نهر الوادى الكبير إلى الجنوب حتى

(*) أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك كلية التربية بالرياض

شاطئ البحر المتوسط وجبل طارق، وتحدها من الشمال ولاية جيان (Jaen) وقرطبة (Cordova) واشبيلية (Sevilla)، ومن الشرق ولاية مرسيه (Murcia) والبحر المتوسط، ومن الغرب ولاية قادش (Cadiz) وأرض الفرنتيره، وكانت تشمل ثلاث ولايات هى ولاية غرناطة وولاية المرية وولاية مالقة (Malaga)[٣]. وقد قامت دولة بنى نصر على يد مؤسسها السلطان أبو عبدالله محمد بن يوسف بن محمد بن نصر بن قيس الخزرجي الذى يرجع نسبه إلى أمير الأنصار الصحابى الجليل سعد بن عبادة رئيس قبيلة الخزرج[٤]. ولد محمد بن يوسف فى مدينة أرجونة (Arijona) من حصون قرطبة فى جهة الشرق سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م وكان جنديا وافر العزم والجرأة يتزعم قومه ويقودهم إلى مواطن النضال فلما تفاقمت الفتنة فى الأندلس على أثر سقوط دولة الموحدين، واضطربت الشؤون فى الثغور والنواحى، وكثرت غزوات النصارى لقواعد الأندلس[٥]، وظهر ابن هود[٦] عن طاعة الموحدين فى الثغور الشرقية[٧]، ظهر محمد بن يوسف بن نصر، واتجهت آماله وطموحاته إلى إنقاذ ما بقى من بلاد الأندلس، فالتف حوله أنصاره فى أرجونة موطن أسرته وعصبته[٨]، ثم فى الجهات المجاورة لها، ثم أخذ يوطد سلطانه فى الأنحاء الوسطى فدخلت فى طاعته مدينة جيان وبسطه (Baza) ووادى آش (Guadix) فبسط حكمه عليها ثم اتجه إلى القواعد والثغور الجانبية، ورأى أن يصبغ حكمه بالصبغة الشرعية وأن يستظل بدعوة أحد الأمراء المسلمين فدعا للأمير أبو زكريا الحفصى[٩] صاحب أفريقية (تونس) كما دعا للخليفة المستنصر بالله العباسى[١٠]. وبعد أن قوى ابن هود واستولى على غرناطة رأى محمد بن يوسف مصانعته والدخول فى طاعته، وبعد أن توفى ابن هود سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) كان قد ولى على مدينة غرناطة عتبة بن يحيى المغيلى وأصبح من أشد خصوم محمد بن يوسف وكان عتبة جائراً على أهل غرناطة، فلما اشتد ظلمه لهم قاموا بقتله، وأعلنوا طاعتهم لمحمد بن يوسف وبعثوا إليه يستدعونه[١١]، وتزامن ذلك مع تذمر أعداد كبيرة من مسلمى الأندلس من الاحتلال النصرانى ومساندتهم للسلطان محمد بن يوسف بن نصر، فدخل غرناطة عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م)، واتخذها عاصمة لمملكته. وهكذا نشأت مملكة غرناطة فى هذه الظروف المضطربة.

حكمت أسرة بنى نصر مملكة غرناطة حكما وراثيا مدة قرنين ونصف من الزمن (٦٣٥-٨٩٧هـ/ ١٢٣٨-١٤٩١م) رغم الصعوبات التى واجهتها من الداخل والخارج وتولى حكمها خلال هذه المدة اثنان وعشرون حاكما (سلطانا) تلقب كل منهم بلقب أمير المسلمين وعرف مؤسسها السلطان محمد بن يوسف بلقب (الغالب بالله) ولقب الشيخ، واتخذ عبارة (لاغالب إلا الله) شعارا لدولته[١٢].

سقطت دولة بنى نصر على يد القشتاليين بعد حصار لعاصمتهم غرناطة دام سبعة أشهر[١٣] صمد خلالها الغرناطيون رغم كل المحاولات المتكررة للنصارى لاقتحامها، وساعد على سقوطها انقطاع الإمدادات العسكرية والغذائية من بلاد المغرب بسبب احتلال النصارى لمضيق جبل طارق والجزيرة الخضراء مما حال دون وصول الإمدادات من عدوة المغرب للأندلس، وكذلك انقطاع المواد الغذائية الآتية إليها من منطقة البشرات أو البشرة (Alpuijarras)[١٤] بسبب تساقط الثلوج مع دخول فصل الشتاء مما أدى إلى انقطاع الطرق التى تربط بينها وبين مملكة غرناطة، فانتشر الجوع والمرض بين سكان غرناطة، فاجتمع أعيان مملكة غرناطة للتشاور مع السلطان أبو عبدالله الصغير واتفقوا على تسليمها لملك قشتالة فرناندو (Ferdinand) وتم التوقيع على معاهدة التسليم عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م فدخلتها الجيوش القشتالية. ولم يكن سقوط غرناطة فى يد النصارى بمحض الصدفة بل كان نتيجة طبيعية لما تقدمه من حوادث للمدن الأندلسية الأخرى وكانت خاتمة لسنوات من الصراع[١٥].

أما الممالك النصرانية فى القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى) فكانت خمس ممالك هى قشتالة وليون (Leon) وأراغون ونافار (Navarre) والبرتغال (lPortuga)[١٦]. وكانت الأراضى التى تحت سيطرة تلك الممالك حينئذ تبلغ مساحتها حوالى ثلثى شبة جزيرة ايبيريا بينما كانت دولة المسلمين فى الأندلس تسيطر على الثلث الباقى فى الجنوب، فى حين كانت دولة المسلمين فى منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) تسيطر على حوالى تسعين فى المائة من مساحة شبة الجزيرة[١٧].

وأدت التحولات السياسية والحروب والمصاهرات بين تلك الممالك الخمس إلى تغييرات عديدة فى مساحات سيطرة كل منها وفى ولاءاتها مما أدى فى نهاية المطاف إلى أن يصبح عدد تلك الدول خلال عهد مملكة بنى نصر فى غرناطة ثلاث دول فقط هى قشتالة وأراغون والبرتغال[١٨]، وقد تساقطت أمامها المدن الإسلامية فى الأندلس حتى لم يبق منها إلا مملكة بنى نصر فى أقصى جنوب جزيرة ايبيريا.

ولم تكن لمملكة البرتغال مطامع متنامية فى أراضى دولة بنى نصر مكتفية بما استولت عليه من أراضى تقع جنوب مملكتها إذ كان اهتمامها منصبا على المحافظة على أراضيها فى وجه الأطماع الخارجية. ولذلك فقد اقتصر حديثنا فى هذا البحث على العلاقات بين مملكتى قشتالة وأراغون من جانب ودولة بنى نصر من جانب آخر.

مملكة قشتالة:

تعد مملكة قشتالة أوسع الدولة النصرانية مساحة ومن أقواها، وكانت تمر من حين إلى آخر فى مد وجزر فى مساحتها نتيجة الحروب والتجزئة بين حكامها إلا أنها انتهت بتماسكها وازدياد قوتها[١٩].

وقد تعاقب على حكمها واحد وعشرون حاكما بين رجال ونساء، وكان أول الحكام من آل كاستيل (The House of Castile) هو فرناندو الأول (Ferdinand I) الذى تولى الحكم بين ٤٢٤-٤٥٧هـ (١٠٣٣-١٠٦٥م)، وكان آخر حكامها هى ايزابيلا (Isabella) التى حكمت بين ٨٧٨-٩٠٩هـ (١٤٧٤-١٥٠٤م) والتى تزوجت فرناندو الذى كان يحكم منفردا مملكة أراغون بين ٨٨٣-٩٩٢هـ (١٤٧٩-١٥١٦م)، ويحكم قشتالة مع ايزابيلا بين ٩١٠-٩٢٢هـ (١٥٠٥-١٥١٦م) وبذلك تم توحيد المملكتين[٢٠].

مملكة أراغون:

كانت مملكة أراغون تقع فى الركن الشمالى الشرقى من شبه جزيرة ايبيريا ويحدها من الجنوب دولة الإسلام فى الأندلس ومن الغرب مملكتى قشتالة ونافار، وكانت ثانى الدول النصرانية من حيث مساحتها وقوتها، وقد تعاقب على حكمها تسعة عشر حاكما، وكان أول حكامها هو راميرو الأول (Ramiro I) الذى حكم بين ٤٢٦-٤٥٥هـ (١٠٣٥-١٠٦٣م) وآخرهم فرناندو الذى تولى الحكم بين ٨٨٣هـ - ٩٢٢هـ (١٤٧٩-١٥٦م)[٢١].

علاقات الممالك الثلاث:

مرت العلاقات بين مملكة بنى نصر ومملكتى قشتالة وأراغون بفترات من التأزم كان الدافع لها أهداف قريبة المدى وأخرى بعيدة المدى لكل من الطرفين، فالدول النصرانية كانت تهدف على المدى القريب إلى إضعاف مملكة غرناطة وإرهاقها بالهجمات المكثفة عليها بغرض تقويض أركانها للوصول إلى هدفها على المدى البعيد وهو استعادة ما بقى فى أيدى المسلمين من أراضى الأندلس حيث أن حكامها كانوا يعتبرون ذلك واجبا مقدسا[٢٢] يجب الوفاء به، فوضعت نصب عينيها القضاء على مملكة غرناطة. أما مملكة غرناطة. فكان هدفها على المدى القريب هو استرجاع هيبة دولة المسلمين فى الأندلس ممثلة فى مملكة غرناطة والتى بدأت تضعف على إثر هزائمها المتكررة أمام الجيوش النصرانية على أمل أن يؤدى ذلك إلى هدفها على المدى البعيد وهو استعادة جميع ما سلب من أملاكها على يد الدول النصرانية وإعادة الحكم إلى دولة الإسلام ثانية على كافة بلاد الأندلس.

سنحاول فى بحثنا هذا تتبع تلك العلاقات من حيث أطوار ترديها وتحسنها والعوامل التى كانت وراء ذلك التردى وتلك التى كانت وراء نقيضه.

لقد كان من أسباب فترات التردى التى مرت بها العلاقات بين دولة بنى نصر ومملكتى قشتالة واراغون كما ظهرت لنا من خلال تتبع الأحداث التاريخية حينئذ واستقرائها ما يلى:

أولا: التقارب بين بنى نصر وسلاطين المغرب:

كانت تقوم بين بنى نصر وسلاطين بنى مرين[٢٣] فى المغرب الأقصى صلات تعاون وتبادل خبرات فى المجال العسكرى وكان ذلك التقارب كثيرا ما يقلق الدولة النصرانية ويثير مخاوفها خشية أن تتكون قوة إسلامية موحدة نتيجة لذلك التحالف تعيد للدولة الإسلامية فى الأندلس قوتها وهيبتها، وتقف حائلا دون تحقيق أطماع تلك الدول، فى الممتلكات الإسلامية فى الأندلس.

وقد أدرك السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) (٦٢٩هـ-٦٧٢هـ/ ١٢٣٢-١٢٧٣م) أهمية ذلك التحالف، فنراه عندما غزت القوات القشتالية أراضى مملكته واجتلت شريش (Jerez)[٢٤]، يستند إلى ذلك التحالف فيسارع إلى طلب المساعدة من السلطان المرينى أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق فوصلت إليه إمدادات عسكرية كبيرة تمكن بها من مهاجمة القوات القشتالية فى مدينة شريش بمساعدة من أبنائها، كما حاصروا القلعة التى لجأ إليها قائد القوات القشتالية وقاموا بأسره وقتل عدد من جنوده[٢٥]، وكرد فعل على ذلك التحالف قام الفونسو العاشر (Alfonso X) ملك قشتالة بعقد تحالف عسكرى مع ملك أراغون خايمى الأول (Jaime I)، اتفقا بموجبه على شن هجوم على مملكة غرناطة، فدخلتها جيوش أراغون من الشمال واستولت على مدينة مرسيه سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م بينما دخلت جيوش قشتالة مرج غرناطة وقامت بمحاصرة غرناطة، ولكنهم فشلوا فى اقتحامها فارتدوا إلى مدنية شريش واستولوا عليها[٢٦]، تواصلت أطماع مملكة قشتالة على مملكة بنى نصر فى غرناطة حيث سار ملك قشتالة الفونسو العاشر بجيشه إلى الجزيرة الخضراء فاقتحمها وعاث بها فسادا، فاستند السلطان محمد بن يوسف مرة أخرى على ذلك التحالف فطلب من السلطان أبو يوسف المرينى ملك المغرب الغوث والانجاد وأخبره بما بدأ من عدوان النصارى ونيتهم فى القضاء على دولة الإسلام فى الأندلس ولكن السلطان محمد بن يوسف توفى قبل أن تصله المساعدات[٢٧].

وتجدد ذلك التقارب بين بنى نصر وبين بنى مرين فى عهد السلطان أبو عبدالله محمد بن محمد بن يوسف والملقب بالمخلوع (٧٠١-٧٠٨هـ/ ١٣٠٢-١٣٠٩م) بعد أن تسلم زمام الحكم فى مملكة غرناطة بعد وفاة والده السلطان محمد الفقيه حيث أرسل وفدا إلى سلطان المغرب أبو يعقوب يوسف المرينى

يطلب فيه تجديد عهد التحالف والصداقة التى كانت تربطه بأبيه، فاستجاب السلطان أبو يعقوب لطلبه وتجدد ذلك العهد. وحين احتاج السلطان المرينى إلى الاستفادة من ذلك التحالف قام السلطان أبو عبدالله محمد بن محمد (المخلوع) حينئذ بإرسال قوة من جند الأندلس خبراء فى منازلة الحصون إعانة للسلطان أبو يعقوب يوسف المرينى الذى كان حينئذ يحاصر مدينة تلمسان[٢٨].

واستمر تقارب سلاطين بنى نصر مع سلاطين بنى مرين تاركا أثرا سلبيا على العلاقات بين بنى نصر والممالك النصرانية وتكرر حدوث أثره فى عهد السلطان نصر بن محمد (أبو الجيوش) (٧٠٨-٧١٣هـ/ ١٣٠٩-١٣١٤م) عندما سقط ثغر جبل طارق فى يد القوات النصرانية المتحالفة (قشتالة وأراغون) سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، إذ سارع السلطان أبو الجيوش يطلب المساعدة من سلطان فاس أبو الربيع المرينى فهب هذا لنجدته، وأرسل له قوة عسكرية كبيرة تمكن بها من فك الحصار عن جبل طارق والجزيرة الخضراء، كما تمكن بها من استعادة مدينة المرية (Almeria) من ملك أراغون خايمى الثانى (Jaime II)[٢٩].

ثانيا: أطماع كل منهم بما لدى الآخر من الأراضى:

كان يحرك هذه الأطماع من جانب النصارى استرجاع ما بقى من أيدى المسلمين من أراضى، بينما يحركها من جانب سلاطين بنى نصر استعادة ما استولى عليه النصارى من دولتهم، وكانت مملكة قشتالة أكثر الدول النصرانية تطلعا إلى الاستيلاء على أراضى المسلمين فى الأندلس[٣٠]، فعملت على شن المعارك وتحريك الجيوش كلما رأت أن الفرصة تسمح لها بذلك، وكانت المعارك الحربية على مدى قرنين ونصف من الزمان سجالا بين الطرفين، فمنذ فجر دولة بنى نصر قويت أطماع النصارى فيما بقى بأيدى مسلمى الأندلس، حيث سارت الجيوش القشتالية إلى منطقة جيان[٣١] وعاثت بها فساداً وتخريباً، فاستولت على حصن أرجونه (Arijona) سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٥٤م ثم واصلت زحفها إلى غرناطة ولكنها خذلت أمام بسالة أهلها وقوتها الدفاعية وهزمت، ولكن هذه الهزيمة لم تثن عزيمة ملك قشتالة فرانده الثالث، بل واصل زحفه على أملاك بنى نصر، فضرب الحصار حول مدينة جيان مدة سبعة أشهر دون أن يتمكن من اقتحامها[٣٢].

تواصلت أطماع النصارى فى ممتلكات المسلمين فى الأندلس بعد وفاة السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) مؤسس الدولة النصرية حيث شنت الجيوش القشتالية فى عهد الملك الفونسو العاشر هجمات متتالية على مملكة غرناطة فى عهد السلطان محمد بن محمد بن يوسف (الفقيه) (٦٧٢-٧٠١هـ/

١٢٧٣-١٣٠٢م) باءت كلها بالفشل، وفى مقابل ذلك قام السلطان محمد (الفقيه) بإرسال عدة حملات حربية لاستعادة جزيرة طريف (Tarifa) من قشتالة، ولكن لم يتحقق له ذلك إلا بعد وفاة الملك الفونسو العاشر، وتولى الحكم من بعده ابنه سانشو الرابع (El Valienle) Sancho IV فقام السلطان محمد (الفقيه) بشن هجوم على مملكة قشتالة عام ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م فغزا مدينة جيان واستولى على عدد من الحصون، ثم تكررت هجماته على أملاك مملكة قشتالة منتهزا حالة الضعف التى كانت تمر بها نتيجة انشغالها بصد غزو مملكة أراغون لها فقام بغزوها سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م كما واصل زحفه فى أملاكها حتى وصل حدود عاصمتها مدينة اشبيلية[٣٣] وتمكن من الاستيلاء على حصن القبذاق (Alcaudete)[٣٤].

وفى عهد السلطان محمد بن محمد الملقب (بالمخلوع) (٧٠١-٧٠٨هـ/ ١٣٠٢-١٣٠٩م) تواصل الزحف على معاقل قشتالة وقام هذا بغزو عدد من الحصون الدفاعية فى مدينة جيان وأعادها إلى أملاكه[٣٥].

استمرت هذه الحملات الحربية بين الطرفين ففى عهد السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج (٧١٣-٧٢٥هـ/ ١٣١٤-١٣٢٥م) فى ظل تواصل الأطماع النصرانية حيث قام دون خوان (Don Johan) - الذى كان أحد الأوصياء على عرش قشتالة وعلى الملك القاصر الفونسو الحادى عشر (Alfonso XI) - بشن حملة على وادى آش للاستيلاء عليه سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م فتقابلت جيوشه مع جيوش السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج فى معركة دامية كان النصر فيها للقشتاليين[٣٦]، ثم واصلت القوات القشتالية زحفها فى العام الذى تلاه فدخلت الجزيرة الخضراء وعاثت بها فساداً وتخريباً ثم تقدمت إلى مرج غرناطة بقيادة القائد القشتالى بطره ولكنها هزمت وقتل فيها بطره ودون خوان وتشتت جيوشهم[٣٧]. وتكرر ذلك الحدث فى عهد السلطان محمد بن يوسف الملقب (بالأيسر) (٨٢٠-٨٥٨ ١٤١٧-١٤٥٤م) حين شنت الجيوش القشتالية حملة على سهول وادى آش وكان ذلك عام ٨٣١هـ/ ١٤٢٨م فعملت على تدميره وإحراق مزروعاته[٣٨]. واستمرت الجيوش القشتالية فى عدوانها ففى عهد السلطان سعد بن إسماعيل بن نصر (٨٥٨-٨٦٨هـ/ ١٤٥٤-١٤٦٤م) قام هنرى الرابع (Henry IV) بإرسال حملات حربية تمكن بها من الاستيلاء على عدد من الحصون الحربية وإحراق المزروعات فى سهول مدينة مالقة سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٦٥م ثم تكرر غزوها لمدينة مالقة فى العام الذى تلاه، ثم توالت الحملات الحربية من قبل جيوش قشتالة على ممتلكات بنى نصر حتى تمكنت من إسقاط ثغر جبل طارق (Generalife) عام ٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م فى أيديهم، فألحق ذلك ضررا كبيرا بمملكة غرناطة حيث انقطعت طرق الإمدادات بينها وبين بلاد المغرب، مما جعلها تواجه الخطر النصرانى بمفردها[٣٩].

واصلت الجيوش القشتالية زحفها على ماتبقى من أملاك مملكة غرناطة حيث زحفت فى عهد السلطان أبو الحسن على بن سعد بن إسماعيل (٨٦٨-٨٨٧هـ/ ١٤٦٤-١٤٨٢م) على قلعة بلدة الحمة (الحامه) Alhama[٤٠] واقتحموها ثم دخلوا المدينة وأحرقوها[٤١]، وفى مقابل ذلك قام السلطان أبو الحسن على بن سعد بشن عدة غزوات على أملاك قشتالة فى الأندلس، فزحفت جيوشه على قلعة الصخرة واستولت عليها وقتل من كان فيها من جنود القشتاليين كما دخل مدينة مرسيه، وأحرق زرعها وهدم قلاعها[٤٢].

وكان لتوجس النصارى من أن يسترد المسلمون قوتهم، ورغبة منهم فى استئصال شأفتهم دور فى تلك الحملات المتواصلة من قبل الجيوش القشتالية على ماتبقى من أملاك المسلمين فى الأندلس، حيث واصلت القوات القشتالية حملاتها فى عهد السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج (٧١٣-٧٢٥هـ/ ١٣١٤-١٣٢٥م) متجهة إلى طليطلة بقيادة دون بطره فتقابلت مع الجيوش الغرناطية، التى تمكنت من صدها وإلحاق هزيمة نكراء بها، وهو مايشير إليه المقرى بقوله: (حشدوا جموعهم فذهب سلطانهم دون بطره إلى طليطله ودخل على مرجعهم الذى يقال له البابا وسجد له وطلب منه استئصال ما بقى من المسلمين فى الأندلس)[٤٣]. ثم تواصلت هذه الحملات من قبل القوات القشتالية فقامت بمهاجمة مدينتى بلش ولوشه (Loga-Velez Malag) وكان ذلك سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦مم فسقطت فى أيديهم، ثم حاصروا مدينة مالقة فاستسلم لهم سكانها، ودخلتها القوات القشتالية[٤٤]، ثم توالى سقوط عدد من الحصون فى أيديهم ولم يبق أمامهم سوى مدينة غرناطة، فضرب عليها الملك فرناندو حصاراً شديداً حتى تم استسلامها عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م[٤٥].

ثالثاً: الإخلال بالمعاهدات:

كان عدم ألتزام بعض من سلاطين بنى نصر أو ملوك قشتالة وأراغون بشروط المعاهدات والأحلاف التى كانت تعقد بينهم أحد أهم الأسباب فى تردى العلاقات فيما بينهم، ظهر ذلك فى عهد السلطان محمد بن محمد بن يوسف (الفقيه) حيث عقد حلف بينه وبين ملك قشتالة الفونسو العاشر لمحاصرة الجزيرة الخضراء التابعة لبنى مرين فى بلاد الأندلس وفتح مدينة مالقة، التى استقل بها عدد كبير من سكان المغرب من بنى مرين، وبقيت خارجة عن طاعة بنى نصر مدة ثلاث عشرة سنة[٤٦]، فحاصرت الجيوش القشتالية مع جيوش السلطان محمد (الفقيه) الجزيرة برا وبحرا واستطاعوا عزل مرينيى الأندلس عن مرينيى المغرب[٤٧]، واستطاع السلطان محمد (الفقيه) إقناع حاكم

مالقة عمر بن يحيى بن محلى بتسليم مدينة مالقة له لعدم جدوى المقاومة، فاستجاب حاكم مالقة لطلبه فدخلت جنوده المدينة وضمها إلى أملاكه سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م[٤٨] عندئذ رأى السلطان محمد (الفقيه) أن محاصرته للجزيرة الخضراء مع جيوش قشتالة لم يعد لها ضرورة حيث عرض عليه بنو مرين إرجاع الجزيرة الخضراء له إذا ما انسحبت جيوشه عن محاصرتها فوجد ذلك العرض هوى فى نفسه فأمر جيوشه بالانسحاب عنها، مما اضطر ملك قشتالة إلى سحب جيوشه من الجزيرة الخضراء لعدم استطاعته محاصرتها منفردا[٤٩] واعتبر تصرف السلطان محمد (الفقيه) إخلالا باتفاقهما على التحالف لحصار الجزيرة الخضراء فصمم على الانتقام من السلطان محمد (الفقيه) وسعى بدوره إلى عقد حلف مع بنى مرين ومع بنى اشقيلوله أعداء بنى نصر وقام هذا التحالف بشن هجوم كاسح على مملكة غرناطة[٥٠].

كما ظهر دور الإخلال بشروط الأحلاف والمعاهدات أيضا فى سوء العلاقات بين بنى نصر ومملكة قشتالة عندما عملت مملكة قشتالة على استغلال فرصة سوء العلاقات بين بنى نصر وبنى مرين لتوسيع نفوذها فى أملاك الدولة النصرية فى الأندلس فى عهد السلطان محمد (الفقيه) الذى قرر السيطرة على جزيرة طريف التى كانت تابعة لأملاك بنى مرين فى الأندلس، فلجأ السلطان محمد (الفقيه) إلى حليفه حينئذ الملك سانشو الرابع ملك قشتالة وجرى بينهما اتفاق سرى على أن يمد سانشو الرابع السلطان محمد (الفقيه) بالمساعدات العسكرية للاستيلاء على مدينة طريف، فزحفت القوات القشتالية تساندها قوات غرناطة وضربوا الحصار عليها وبعد أن تمكنوا من الاستيلاء عليها رفض الملك سانشو الرابع تسليمها للسلطان محمد (الفقيه) لأهميتها فى تنفيذ أطماعه باعتبارها البوابة التى عبر منها إلى أراضى مملكة غرناطة فأغار على عدد من الحصون القريبة منها معللا ذلك باعتراض الجند فى تسليمها[٥١]، ولكن أغلب الظن أن السبب لنقضه الاتفاق فيما بينهما وعدم تسليمه مدينة طريف كان ردا على إخلال السلطان محمد (الفقيه) بالاتفاق الذى أبرم بينه وبين الفونسو العاشر ملك قشتالة وذلك حينما كانت جيوشه المتحالفة مع جيوش قشتالة تحاصر الجزيرة الخضراء بغرض الاستيلاء عليها من بنى مرين كما بينا آنفا.

تكرر ذلك الحدث من نقض المعاهدات فى عهد السلطان أبو الحجاج يوسف بن محمد بن يوسف (٧٩٣-٧٩٥هـ/ ١٣٩٢-١٣٩٣م) وذلك عندما عمل على تحسين علاقته مع مملكة قشتالة وتوثيقها، فطلب من ملك قشتالة عقد هدنة سلم وصداقة بينهما، وقام بإطلاق عدد من الفرسان النصارى المأسورين فى المعارك السابقة فى عهد والده محمد بن يوسف (الغنى بالله) مكرمين،

وأرسلهم إلى مدنية اشبيلية عاصمة قشتالة(٥٢)، فاستحسن ملكها هذه المبادرة من سلطان غرناطة، ووافق على طلبه وتم عقد معاهدة صلح بينهما، لكن ما لبث السلطان أبو الحجاج يوسف بن محمد بن يوسف أن نقض هذه المعاهدة، وقام بالإغارة على بعض أملاك قشتالة وهى مدينة مرسيه ولورقه(٥٣) منتهزا فرصة انشغال ملوك قشتالة فى الحروب الأهلية فيما بينهم، فأدى ذلك إلى تأزم العلاقات بين الدولتين من جديد، فقامت الجيوش القشتالية بالمقابل بالرد على هذه الغارات، فهاجمت حصن مدينة غرناطة، المعروف باسم المرج(٥٤) فصدتها الجيوش الإسلامية ثم عقدت على أثر ذلك هدنة سلم بين الطرفين لمدة عامين(٥٥).

وعندما تولى السلطة فى غرناطة السلطان محمد بن يوسف بن محمد (٧٩٥-٨١٠هـ/ ١٣٩٣-١٤٠٨م) عمل على تجديد اتفاقية الهدنة التى عقدت بين والده أبو الحجاج يوسف بن محمد وبين ملك قشتالة، ولكن سرعان ما نقضت هذه الاتفاقية بسبب الأطماع النصرانية فى مملكة غرناطة وذلك بعد أن توفى الملك هنرى الثالث، وتولى من بعده الحكم ابنه القاصر خوان الثانى وكان تحت وصاية عمه فرناندو، فلم يحترم عمه معاهدة الهدنة وقام بنقضها والإغارة على الأراضى التابعة لغرناطة فاقتحم عددا من الحصون، واسترد الحصن الكبير (ايامونتى)(٥٦) وبالمقابل وجه السلطان محمد بن يوسف بن محمد جيوشه لغزو الأراضى الشرقية لمملكة قشتالة، فدخل أحواز مدينة جيان، وخرب حصونها وقلاعها(٥٧).

رابعا: تحالف النصارى مع الثوار على سلاطين بنى نصر:

تعرضت دولة بنى نصر فى فترات متفرقة من تاريخها لانقلابات وفتن داخلية أضعفت من قوتها، وكان حكام قشتالة يشجعون هذه الانقلابات ويؤازرون القائمين بها لأنهم كانوا يرون أنها إحدى الطرق التى تساعدهم فى الوصول لأهدافهم، لذا كان زعماء الثورات دائمى التطلع إلى مساندة مملكة قشتالة لإنجاح فتنهم ومؤازرة ثوراتهم، فمن ذلك ما حدث فى عهد السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) (٦٢٩-٦٧٢هـ/١٢٣٢-١٢٧٣م) مؤسس ملكة بنى نصر فى غرناطة عندما ثار عليه أصهاره من بنى اشقيلوله(٥٨) فى مدينة مالقه ووادى آش، وكان وراء هذه الثورة عدة أسباب لعل من أهمها إخلال السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) بوعده لعميد بنى اشقيلوله على أبو الحسن بأن يقاسمه الملك، ولكنه أخل بوعده عندما عقد ولاية العهد لولديه محمد ويوسف(٥٩) وكذلك إسناد منصب مشيخة الغزاة(٦٠) لأحد أقرباء بنى مرين سلاطين المغرب بعد أن كانت لبنى اشقيلوله، غامضا جهودهم فى الدفاع عن مملكته(٦١)، فقاموا

لذلك بالخروج عليه فى مدينة مالقه ووادى آش، ولجأوا إلى ملك قشتالة الفونسو العاشر وأظهروا له استعدادهم للدخول فى طاعته، فأمدهم بالأموال والجيوش فقاموا بتحصين مدينة مالقة، ولم يستطع السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) اقتحامها فانسحب منها بعد حصار لها دام ثلاثة أشهر(٦٢).

كما ظهرت تلك الجهود من قبل حكام قشتالة فى مؤازرتهم للثوار المسلمين الخارجين عن طاعة حكامهم من بنى نصر فى تشجيعهم لأهل الربض من البيازين(٦٣) من أراضى قرطبة عام ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م عندما أعلنوا ثورتهم ضد السلطان محمد بن سعد وقاموا بالدعوة للأمير محمد بن على بتشجيع ومساندة من ملك قشتالة(٦٤).

خامسا: التحالف بين الممالك النصرانية ضد دولة بنى نصر:

عملت مملكتا قشتالة وأراغون على التقارب والتحالف فيما بينها من حين لآخر لتعمل سويا على إضعاف مملكة غرناطة وتقويض أركانها، فنرى فى عهد السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) مؤسس الدولة النصرية قيام تحالف بين الفونسو العاشر ملك قشتالة وبين خايمى الأول (Jaime I) ملك أراغون للاستيلاء على مايمكن الاستيلاء عليه من الأراضى والمدن التابعة لمملكة غرناطة، فدخل خايمى الأول بجيوشه أراضى مرسيه وسيطر على القرى والحصون المجاورة، ثم حاصر مدينة مرسية نفسها فسقطت بيده بعد شهر من الحصار سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٣م، أما الفونسو العاشر فقد غزت جيوشه مرج غرناطة، ثم واصلت مسيرتها إلى العاصمة غرناطة عام ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م ولكن تعذر عليه اقتحامها لحصانتها، فارتدت جيوشه إلى مدينة شريش (Jerez) وقامت باحتلالها(٦٥).

كما تكرر ذلك الحدث فى عهد السلطان نصر بن محمد (أبو الجيوش) (٧٠٨-٧١٣هـ/ ١٣٠٩-١٣١٤م) حيث تم التحالف بين مملكتى قشتالة وأراغون ضد مملكة غرناطة فاجتاحت الجيوش القشتالية بقيادة الملك فرناندو الرابع (FerdinandVI) منطقة الجزيرة الخضراء، فى حين عبثت جيوش أراغون بقيادة خايمى الثانى بمدينة المرية(٦٦)، وفى عهد السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (٧٣٣-٧٥٥هـ/ ١٣٣٣-١٣٥٤م) استمر ذلك التحالف العسكرى بين قشتالة وأراغون ضد مملكة غرناطة، فتم عقد حلف عسكرى بين المملكتين النصرانيتين انضمت إليه الدولة النصرانية الثالثة البرتغال بعد أن دخلت العلاقات بين دولة بنى نصر ومملكة قشتالة مرحلة جديدة من الصراع، فقام ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر (Alfonso XI) بمساعدة حلفائه بغزو مروع لأراضى مملكة غرناطة(٦٧)، وحاول السلطان أبو الحجاج التصدى لذلك الغزو

ولكن أمكاناته العسكرية لم تساعده على ذلك مما دفعه للاستعانة بملك المغرب السلطان أبو الحسن على بن عثمان، فأسرع سلطان المغرب إلى مد يد المساعدة له وأرسل إليه إمدادات عسكرية اشتركت مع جيوش السلطان أبو الحجاج فى معركة عنيفة ضد القوات النصرانية المتحالفة، هزمت فيها القوات الإسلامية واستولى القشتاليون على جزيرة طريف والجزيرة الخضراء[٦٨].

وتكرر ذلك التحالف فى عهد السلطان أبو الحسن على بن سعد النصرى (٨٦٨-٨٨٧هـ/ ١٤٦٤-١٤٨٢م) حيث دعى ملك قشتالة الممالك النصرانية لعقد حلف بينهما وحشد جيوشهما لتخليص النصارى المحاصرين فى بلدة الحمة (الحامة) فتقدمت الجيوش المتحالفة النصرانية إليها وقامت باحتلالها، وحاول المسلمون تخليصها منهم، فقاموا بمحاصرتها ولكنهم لم يستطيعوا فتحها، فانصرفوا عنها[٦٩]، فخطت قشتالة بهذه الهزيمة للمسلمين أكبر خطوة فى سبيل تحقيق أهدافها وهو ما أشار إليه صاحب كتاب نبذة العصر بقوله: «فلما رأى العدو دمره الله أن المسلمين قد عجزوا عن أخذ الحمة ونصرة من فيها من الأسارى وقع له الطمع فى بلاد الأندلس فأخذ بالاستعداد بالخروج إليها»[٧٠].

سادسا: تحالف بعض سلاطين بنى نصر مع مملكة أراغون ضد مملكة قشتالة:

كانت حاجة بنى نصر للحفاظ على دولتهم تفرض عليهم التحالف مع أحد أعدائها ضد الطرف الآخر، فكانوا يلجأون إلى التحالف مع مملكة أراغون ضد مملكة قشتالة استجابة لضغوط المرحلة التى تمر بها دولتهم من حين لآخر، ولعل الذى كان يدفعهم إلى التحالف مع مملكة أراغون سببان: أحدهما هو تأزم العلاقات بين مملكة غرناطة ومملكة قشتالة تأزما يزيد فى عدد فتراته ومدة كل منها عن تلك التى عاشتها العلاقات المتردية بين دولة بنى نصر ومملكة أراغون. وثانيهما أن مملكة أراغون كانت أقل عداء من قرينتها مملكة قشتالة فى مناهضة المسلمين[٧١]، عقد بنو نصر مع أراغون معاهدات حلف وصداقة، فمن ذلك ما حدث فى عهد السلطان محمد بن محمد بن يوسف الملقب (بالمخلوع) (٧٠١-٧٠٨هـ/ ١٣٠٢-١٣٠٩م) حيث عقد هذا معاهدة صلح وصداقة مع ملك أراغون خايمى الثانى ضد مملكة قشتالة وذلك سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠١م كان أهم ما جاء فيها: «وتلتزموا لنا صحبة صادقة وصلحاً ثابتاً، وتصاحبوا كل صاحب لنا، وتعادوا كل عدو لنا من المسلمين أو من أهل قشتالة»[٧٢]. وبذلك التحالف استطاع السلطان محمد بن محمد (المخلوع) أن يجد قوة مساندة له ضد أطماع

قشتالة، وبخاصة بعد أن قلت مؤازرة بنى مرين فى المغرب الأقصى لسلاطين بنى نصر بسبب الظروف الداخلية السيئة التى كانت تمر بها دولة بنى مرين من المنازعات والثورات آن ذلك، وكانت هذه المعاهدة ومما جاء فيها أيضا أن يلتزم كل من الطرفين بعدم الإضرار بالطرف الآخر على يد أحد من رعاياه، وأن تكون مملكة أراغون معادية لأعداء غرناطة سواءاً من المسلمين أو القشتاليين، وأن تقوم مبادلات تجاربة بينهما مع الالتزام التام بتوفير الأمن للتجار ولأموالهم، وكذلك يتعهد ملك غرناطة بتقديم العون والمساعدة لملك أراغون ضد مملكة قشتالة، وألا يعقد معها صلحا إلا بموافقة حليفه، ويتعهد ملك أراغون لسلطان غرناطة بمثل ما تقدم، كما يتعهد السلطان بمعاونة حليفه بفرسان من عنده فى أرض مرسية(٧٣) إذا احتاج إلى هذه المعونة، ولا يعترض سلطان غرناطة على ما يأخذه ملك أراغون من أراضى قشتالة إلا المواضع التى كانت لغرناطة، (وأن يكون بيننا وبينكم صلح ثابت وصحبة صادقة يكون فيها أصحابكم أصحابنا وأعداؤكم أهل قشتالة أعداؤنا، ونرفع الضرر والفساد عن بلادكم وأرضكم من بلادنا وأرضنا، ولا نجعل سبيلا لأحد من ناسنا لا فى البر ولا فى البحر عليكم»(٧٤).

وفى عهد السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج (٧١٣-٧٢٥هـ/ ١٣١٤-١٣٢٥م) عمل هذا على تحسين علاقته مع مملكة أراغون فى عهد ملكها خايمى الثانى فى حين تأزمت العلاقات بينه وبين مملكة قشتالة، حيث قام الوصى على الملك الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة الذى حكم بين ٧٤٣-٧٥٠هـ/ ١٣١٢-١٣٤٩م ويدعى دون بيدرو (Don Pedro) بغزو مدينة وادى آش، فدارت بينه وبين جيوش غرناطة معركة عنيفة فى ضواحى وادى آش انتصرت فيها القوات القشتالية، وفى العام التالى عزم الوصى بيدرو على غزو مملكة غرناطة، فلجأ السلطان أبو الوليد إلى سلطان فاس أبوسعيد عثمان بن أبى العلاء يطلب مؤازرته له، ولكن لم يجد ذلك الطلب استجابة من السلطان المرينى، فدخلت جيوش السلطان أبو الوليد فى مواجهة عنيفة مع الجيوش القشتالية، انتصرت فيها القوات القشتالية(٧٥)، وفى العام التالى عاد بيدرو لغزو مملكة غرناطة للمرة الثانية فمنيت جيوشه بهزيمة فادحة أمام الجيوش الغرناطية، وقتل كل من دون بيدرو ودون خوان قائد القوات القشتالية فى ذلك الغزو(٧٦).

لقد زادت تلك الأحداث قناعة السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج بجدوى تحسين وتوثيق علاقته بمملكة أراغون فعقدت بين المملكتين معاهدة سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م، تقضى بأن يعقد بين الطرفين صلح ثابت مدته خمسة أعوام، تؤمن خلالها أرض المسلمين فى الأندلس وأرض مملكة أراغون تأميناً تاماً براً وبحراً، وتباح التجارة لكلا الطرفين فى أرض الآخر، ويتعهد كل منهما

بموجبها بمعاداة من يعادى الأخر، وأن لا يؤوى له عدواً أو يحميه، وأن تكون سفن كل فريق وشواطؤه ومراسيه آمنه، وأن يسرح كل فريق من يؤسر فى البحر من رعايا الفريق الآخر، كما تضمنت المعاهدة نصا خاصا بتعهد ملك أراغون بألا يمنع خروج المدجنين من أراضيه إلى أرض المسلمين بأهلهم وأولادهم وأموالهم[٧٧].

وعمل السلطان أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (٧٢٥-٧٣٣ ١٣٢٥-١٣٣٣م) والذى استلم الحكم فى غرناطة بعد وفاة والده أبو الوليد إسماعيل على استمرار العلاقات الحسنة مع مملكة أراغون حيث عمل على تجديد المعاهدة التى كانت بين والده وبين ملك أراغون خايمى الثانى وذلك بعد انتهاء الفترة الزمنية المحددة فى الاتفاقية السابقة وهى خمس سنوات، وكان ذلك سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م بعد أن ازدادت العلاقات سوءا بين مملكة غرناطة ومملكة قشتالة نتيجة لانتهاء الوصاية على الملك الفونسو الحادى عشر واعتلائه عرش قشتالة بصفة رسمية، وبعد أن طلب ملك أراغون تجديدها وتزامن هذا التحالف مع نشوء خلاف بين السلطان أبى عبدالله محمد بن إسماعيل وبين شيوخ الغزاة فى بلاد المغرب وقيامهم باحتلال بعض الثغور الجنوبية ومن أهمها مدينة المرية (Almeria)، وقد جاء فى مكاتبات التجديد (لما وصلنا من قبلكم أيها السلطان المعظم الملك المبرور دون جقمى ملك أراغون وبلنسية وسردانية رسولكم المكرم (جوان أنريق) الذى وجهتموه إلينا بكتابكم، وبالعقد الذى عقدتموه على أنفسكم وجعلتوا عليه طابعكم المعهود عنكم بأنكم قد حددتم معنا الصحبة التى كانت بين والدنا رحمه الله وبينكم وعقدتم معنا صلحاً مبنياً على الصفاء والوفاء لمدة خمسة أعوام، أولها نصف شهر مايو الموافق للتاريخ أدناه، إن جددنا معكم الصلح والصحبة على الفصول التى انعقدت بين والدنا وبينكم)[٧٨]. استمرت حالة التحسن على العلاقات بين مملكة بنى نصر ومملكة أراغون بعد وفاة السلطان أبو عبدالله محمد بن إسماعيل. وفى ولاية السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (٧٣٣-٧٥٥هـ/ ١٣٣٣-١٣٥٤م) عمل على استمرار التحالف والصداقة مع مملكة أراغون وذلك عندما عرض على سلطان مملكة أراغون الفونسو الرابع (Alfonso IV) استمرار الولاء والصحبة بين بلديهما فى عدة رسائل تهدف إلى الاستمرار فى تحسين العلاقات وإزالة ما يلحق بها من أحداث تعكر صفوها منها الرسالة التى جاء فى بعض ما ورد فيها (وقد وصلنا الذى وجهتم إلينا، والذى يتضمن تثبيت العهد، وتوكيد الود، وتصحيح العقد، وإخلاص الصفاء، وتجديد الوفاء، فقابلنا ذلك بشكر نجده لمملكتكم، وإخلاص صادق فى صحبتكم، ومما جاء فيها التزامه بعدم إلحاق الضرر ببلاده وذلك بقوله (كتبا إلى بلادنا الشرقية

كلها أن لا سبيل لأن يتطرق لجهة أرضكم أحد بضرر)[٧٩].

ومن المراسلات أيضا رسالة اعتذار بعث بها السلطان إلى الحجاج يوسف بن أبى الوليد إسماعيل جاء فيها (وفى شأن الأشخاص الذين باعهم الجنوبيون بالمرية، وعرفتهم أنهم من أرضكم، واعلموا أننا لو عرفنا أنهم من أهل أرضكم ما سمح في بيعهم، ولوجهناهم إليكم، على مايوجبه الوفاء بالعهد، فإننا ما عندنا إلا الوفاء بما عاهدناكم عليه، ولكن عند وصول كتابكم وجهنا التفسير باسمائهم إلى المرية، وأمرنا فى البحث عنهم واسترجعوا من أيدى من هم عنده، ونحن نعمل ذلك على ما يوجبه الوفاء)[٨٠].

وسعى السلطان محمد بن يوسف بن محمد بعد توليه زمام الأمر فى مملكة غرناطة (٧٩٥-٨١٠هـ/ ١٣٩٢-١٤٠٨م) إلى تقوية علاقة مملكته مع مملكة أراغون وهى المنافسة لمملكة قشتالة وذلك بعد أن عاودت مملكة قشتالة أطماعها على الأراضى التابعة لمملكة غرناطة، فبعد أن توفى الملك هنرى الثالث وتولى من بعده ابنه القاصر خوان الثانى (Johan II) والذى كان تحت وصاية عمه فرناندو قام هذا بالإغارة على الأراضى التابعة لمملكة غرناطة واستولى على حصن (ايامونتى) الكبير، ونشبت معارك حربية بينهم، فعقد السلطان محمد ابن يوسف بن محمد مع مملكة أراغون معاهدة حلف وصداقة سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م نصت على أن يعقد بين الطرفين صلح ثابت لمدة خمس سنوات من تاريخ عقدها وأنه يحق لرعايا كل من الفريقين أن يتردد على أراضى الفريق الآخر، آمنين على أنفسهم وأموالهم للتجارة والبيع والشراء، وأنه متى احتاج ملك أراغون أو ملك صقلية إلى معاونة على أعدائهما فإن سلطان غرناطة ينجدهما بأربعمائة أو خمسمائة فارس على أن يتكفلا هما بنفقتهم، وذلك بشرط أن لا يكون ذلك العدو صديقا لمملكة غرناطة، وأن يعامل الملكان سلطان غرناطة بالمثل فيقوم بإعانته بأربعة أو خمسة سفن مشحونة بالرجال والسلاح على أن يتكفل هو بنفقتهم، وعلى أن لا يكون هذا العدو صديقا لمملكة أراغون، وألا يساعد أحد من الفريقين الثوار الذين يخرجون على الفريق الآخر بأى نوع من أنواع المساعدة، وأن يسمح لسفن كل من الفريقين أن ترسو فى موانئ الفريق الآخر وأن تزاول البيع والشراء آمنة، وأن تتلقى سائر الإعانة المشروعة، وألا تتعرض سفينة تابعة لأحد الفريقين للسفن الراسية فى موانئ الآخر، وأن يسمح للسفن التى تصاب بعطب من جراء العواصف أو غيرها وتكون تابعة لأحد الفريقين أن تصلح فى موانئ الآخر وتعان على ذلك.

ونصت فيما يتعلق بتسريح الرعايا، على أنه إذا انتزع أحد الطرفين من عدوه مدينة أو موضعاً ما، وكان فيه أحد من رعايا الطرف الآخر فإنه يسرح بالحال مؤمناً فى نفسه وماله ويكون الحكم كذلك بالنسبة للسفن التى يستولى عليها

أحد الطرفين من عدوه، وأنه إذا كان لدى أحد الطرفين أسرى من رعايا الطرف الآخر، فإنه يفك أسرهم لقاء دفع مائة دينار، ذهباً عن الشخص الواحد، فإذا كان الأسير ملكا لأحد من رعايا أى الطرفين فإنه يسمح بافتكاك أسره نظير دفع الثمن الذى اشترى به، ويلتزم كل من الفريقين بألا يخفى أو يغيب أحد من الأسرى إلى غير ذلك من الشروط التى وردت فى تلك المعاهدة[٨١].

سابعا: ابتزاز ملوك قشتالة لسلاطين بن نصر:

لجأ ملوك النصارى إلى أسلوب الابتزاز وسيلة لإخضاع سلاطين بنى نصر لطاعتهم تحقيقاً لأطماعهم وإشباعاً لرغباتهم. وكان بعض سلاطين بنى نصر ينفر من ذلك النهج ويرفضه نظرا للشروط التعسفية التى كانت تصاحبه، فنراهم يسعون للتحلل منها عندما تتحسن الظروف التى أجبرتهم على القبول بتلك الشروط وعندما يجدون فى أنفسهم القدرة على مواجهة ما سيترتب عليه رفضهم من نتائج، فعندما اعتلى السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) عرش غرناطة أراد أن يوسع مساحة مملكته فوقع نظره على مدينة سبتة (Ceuta) التابعة لبنى مرين فى شمال المغرب ليجعل منها قاعدة عسكرية لجيوشه فى بلاد المغرب، فطلب المساعدة من ملك قشتالة الفونسو العاشر الملقب بالعالم (Elsabio)[٨٢]، فاشترط عليه الفونسو العاشر مقابل هذه المساعدة أن يتنازل له عن مدينة طريف والجزيرة الخضراء فرفض السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) طلبه لما فيه من إجحاف فى حقه مما كان سببا فى توتر العلاقات بينهما[٨٣]. وفى عهد السلطان يوسف بن محمد بن أبى الحجاج يوسف بن محمد (٨١٠-٨٢٠هـ/ ١٤٠٨-١٤١٧م) سعى على تجديد الهدنة التى كانت بين أخيه السلطان محمد بن يوسفف وبين مملكة قشتالة لمدة سنتين بعد انتهائها فطلب منه الملك فرناندو والوصى الخضوع لطاعتهم إذا ما أراد تجديدها واستمرار السلم بينهم، فرفض السلطان يوسف ذلك الطلب، فزحفت الجيوش القشتالية بقيادة الملك فرناندو الوصى، ونشبت بين الفريقين معركة بجوار انتقيره (AnteQuera) انتهت بهزيمة جيوش السلطان يوسف سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م[٨٤]. وفى عهد السلطان محمد بن إسماعيل الذى تمكن من التغلب على منافسه السلطان محمد بن نصر (الأحنف) بمؤازرة ومساندة من ملك قشتالة خوان الثالث، وبعد وفاة خوان الثالث وتولى ابنه هنرى الرابع مقاليد الحكم فى مملكة قشتالة، رفض السلطان ابن إسماعيل حماية قشتالة له، وخرج عن طاعته وقام بالإغارة على أملاك قشتالة فأثار خروجه غضب الملك هنرى الرابع وأصر على إخضاعه وإعادته لطاعته، فسير حملات حربية للإغارة على أملاك مملكة غرناطة وعاث بها فساداً، ومقابل ذلك قامت مملكة غرناطة بشن هجوم على منطقة جيان التابعة لمملكة قشتالة وأحدثت بها خسائر فادحة[٨٥].

وعندما تسلم السلطان محمد بن إسماعيل زمام الحكم فى مملكة غرناطة قام بقطع الأتاوة التى كان يؤديها السلطان محمد بن يوسف (الغنى بالله) إلى حليفه ملك قشتالة بطرس الأول (Peter I)، مما أدى إلى غضب بطرس الأول، فجهز جيشا لمحاربة السلطان محمد بن إسماعيل ولكنه هزم أمام الجيوش الغرناطية(٨٦)، واستمرت الشروط التعسفية من قبل ملوك قشتالة على سلاطين بنى نصر ما وقع فى عهد السلطان أبو عبدالله بن محمد بن يوسف (الأيسر) الذى قام بمراسلة ملك قشتالة خوان الثانى يعرض عليه تجديد عقد السلم فوافق ملك قشتالة وأرسل إليه سفيره كونتالت دى لونا لتجديدها على أن يتحمل السلطان أبو عبدالله محمد بن يوسف جميع النفقات التى أنفقتها مملكة قشتالة لاسترداد عرشه من الثائرين عليه، وأن يؤدى فوق ذلك أتاوة سنوية اعترافا منه بطاعة قشتالة وأن يفرج عن سائر الأسرى النصارى الموجودين ببلاده، فرفض الأيسر ذلك، فهدده ملك قشتالة بالحرب، وأرسل إليه جيشاً أغار على مدينة قرطبة وجيان فتمكن السلطان محمد (الأيسر) من ردها، فعاود ملك قشتالة الغزو مرة أخرى بنفسه فى قوات كبيرة استطاع بها هزيمة جيوش السلطان محمد (الأيسر)(٨٧).

كما تكرر ذلك الرفض بسبب الشروط التعسفية وعمليات الابتزاز فى عهد السلطان أبو الحسن على ابن سعد (٨٦٣-٨٨٧هـ/ ١٤٦٤-١٤٨٢م) وذلك عندما حاول السلطان أبو الحسن على بن سعد تجديد الهدنة التى كان قد عقدها أبوه مع مملكة قشتالة، ففرض ملك قشتالة على السلطان أبو الحسن شروطا قاسية منها الخضوع له والتنازل له عن بعض الحصون المهمة ودفع أتاوة له إذا أراد تجديدها، رفضها السلطان أبو الحسن وكان رفضه لها سببا فى تأزم العلاقات وشن الغارات العنيفة من قبل كل منهما على أملاك الآخر(٨٨).

أسباب تحسن العلاقات:

سادت بين مملكة بنى نصر فى غرناطة ومملكتى قشتالة وأراغون فى فترات متقطعة علاقات بنيت فى الظاهر على التفاهم والصداقة، وعقدت بينهم معاهدات سلم وتعاون.

ظهر ذلك التحسن فى العلاقات فيما بين تلك الدول على شكل أنماط متعددة، فهى إما على شكل معاهدات صلح وسلم أو فى شكل أحلاف عسكرية أو سفارات متبادلة، أما المعاهدات فيلاحظ أن تنفيذها لم يكن يحكمه التزام بوقت أو وفاء تام بشروط، إذ أنها كانت تتعرض من جانب كلا الطرفين إلى مراوغة عند الشعور بالضعف أمام الخصم ورفض عند الشعور بالتفوق عليه، مما كان

سببا يقود إلى صدمات عسكرية دموية متكررة امتدت على فترات متقطعة حتى سقوط مدنية غرناطة والذى يعتبر من أعنف ما عاشته البشرية من صراعات دموية.

كانت دولة بنى نصر بغرناطة بحكم ظروفها الداخلية وطاقاتها العسكرية على استعداد دائم لعقد مثل هذه الاتفاقيات مع الدول النصرانية وأحيانا تكون هى الملحة فى ذلك بالرغم مما سيترتب عليه أحيانا من ثمن باهظ فى شكل إتاوات أو تنازل عن بعض الحصون والمدن. وإلى جانب ذلك النمط ودوره فى تحسين وهدوء العلاقات كان هناك نمطان آخران هما الأحلاف العسكرية والسفارات المتبادلة، وكانت أهداف هذه السفارات تقوم على التفاوض بين الأطراف المعنية، وتتم عن طريق الرسائل المتبادلة بينهما والتى يحملها السفراء أو أعيان القوم أو وجهاؤهم أو زعماء الجند، ويحمل مضمونها الشروط المطلوبة لإبرام معاهدة ما أو عقد صلح وشكايات واحتجاجات على خرق بنود ونصوص اتفاقيات سابقة أو إغارة أحد الطرفين على الآخر زمن السلم، أو طلب فك أسرى أو لتبرير نقض معاهدة، ومن تلك الرسائل الرسالة التى بعث بها السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (٧٣٣-٧٥٥ ١٣٣٣-١٣٥٤م) ردا على رسالة بعث بها إليه ملك أراغون دون بيدرو يعتذر فيها عن الغارة التى قامت بها فلول جيشه على أراضى مملكة بنى نصر زمن السلم بينهما، وقد جاء فى رسالة يوسف (تذكرون أن ذلك الضرر لا علم عندكم به، وحاشا الله أن يعتقد فيكم إلا الوفاء الذى يليق بمملكتكم)[٨٩]. كما احتوت بعض تلك الرسائل على طلب تعويض عن خسارة أو فك أسرى كالرسالة التى بعث بها السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج (٧٢٥-٧٣٣ ١٣٢٥- ١٣٣٣م) إلى ملك أراغون دون بيدرو يطلب منه أن يبذل جهدا لفك عدد من الأسرى المسلمين أسرهم جيشه جاء فيها: (فقصدنا لكم أيها السلطان أن توجهوا إلينا المسلمين الذين أخذتهم أجفانكم[٩٠] فى سلوه ثم بيعوا فى ميورقة)[٩١]. وكذلك الرسالة التى بعث بها السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج إلى ملك أراغون دون بيدرو يطلب فيها تعويضا عما لحق بالتجار المسلمين على يد بعض رعاياه الخارجين عن طاعته جاء فيها: (ففى هذه الأيام أضر بالسواحل شينى[٩٢] وحمل من المسلمين حملة ببلنسية، فالقصد منكم أن تنظروا فى هذا الحال بما هو معلوم من وفائكم وغيرتكم على عهدكم حتى تجدوا ما أخذ من المسلمين وأموالهم)[٩٣]. وكذلك رسالة أخرى بعث بها السلطان يوسف نفسه إلى ملك أراغون دون بيدرو بعد عقد الصلح معه يشكره فيها على حسن معاملته المسلمين الذين تحت حكمه جاء فيها: (ولهذا فقد وصلنا كتابكم جواباً على كتابنا الذى وجهناه إليكم من أنكم أمرتم خدامكم وولاة بلادكم بالإنصاف من كل ما أخذ للمسلمين بعد عقد الصلح)[٩٤].

وتحمل بعض الرسائل تبريراً لنقض معاهدة كالرسالة التى بعث بها السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج إلى نائب ملك أراغون فى أريولة (Orihuela) يبرر له فيها سبب نقض عهده مع مملكة قشتالة جاء فيها: (فإننا لا نبدأ بنقض ما عاهدنا ولا بحل ما عقدنا، وكونوا من ذلك على يقين أننا لم نطلق الغارة على أرض ولد منول إلا عن نكايات كثيرة صدرت لنا منها، وبقينا نطلب منه الإنصاف من أزيد من عام ووجهنا له رسلاً من قشتالة فما أنصفنا أحد)[٩٥]. وعادة ما تكون هذه الرسالة موقعة بيد السلطان وتختم بختمه السلطانى ويقوم بحملها وتسليمها نيابة عن السلطان السفراء أو زعماء الجند أو أعيان القوم ووجهاؤهم - كما سبق ذكره[٩٦].

أما الدوافع التى كانت وراء تلك الفترات من الهدوء وحسن الجوار فقد كانت متعددة ومختلفة وهى:

أولا: تحالف بعض ملوك بنى نصر مع ملوك قشتالة للحد من أطماع غيرهم من النصارى فى مملكة غرناطة:

على أثر المواجهات الحربية التى حدثت بين جيوش بنى نصر وبين الجيوش القشتالية فى عهد ملكها فرناندو الثالث والتى على أثرها تم استيلاء القوات القشتالية على عدد من المدن والحصون المهمة التابعة لأملاك بنى نصر ومحاصرة عاصمتها غرناطة، رأى السلطان محمد يوسف بن نصر (الغالب بالله) عقد حلف ومعاهدة صلح مع فرناندو الثالث للحد من أطماعه على مملكته، حيث عقدت بينهما معاهدة صلح وتحالف عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٦م كان من نتيجتها أن قام السلطان محمد بمد يد المساعدة للملك فرناندو فى هجومه على مدينة اشبيلية وإخراج المسلمين منها عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٦م بعد حصار لها دام ثمانية أشهر[٩٧]، كما حرص السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل (الغنى بالله) على تحسين علاقته مع مملكة قشتالة حيث أعلن ولاءه للملك بطرس الأول، ووقف إلى جانبه فى حربه مع مملكة أراغون التى وقف ملكها إلى جانب هنرى ترانستمار أحد المطالبين بعرش قشتالة، فأرسل السلطان الغنى بالله ثلاث فرق عسكرية لمساعدته، كما وضع جميع القواعد البحرية الأندلسية تحت خدمة الأسطول القشتالى[٩٨]، ويعود تحسن علاقته مع مملكة قشتالة درءاً لأطماع مملكة أراغون فى مملكة غرناطة بعد أن قام ملك أراغون بيدرو الرابع (Pedro IV) بشن هجوم كاسح على جزيرة سردانيه وعاثت بها جيوشه فساداً، فخشى أن تمتد أطماعه إلى مملكته فى غرناطة[٩٩].

ثانياً: أطماع سلاطين بنى نصر فى ممتلكات بنى مرين فى المغرب والأندلس:

كانت غرناطة فى نظر الممالك النصرانية عدواً داخلياً له خطره، وكان أشد ما تخشاه منها أن تصبح قاعدة وجسراً لموجة جديدة مما تعتبره غزواً إسلامياً قادماً من بلاد المغرب وراء البحر، وذلك لما لمسته فى الغالب من مبادرة سريعة من دولة بنى مرين فى تقديم كل مساندة وعون لبنى نصر فى الأندلس، واستمرارها فى القيام بواجب المرابطة والجهاد، لذا عملت على بذر الفرقة والتباعد بين سلاطين بنى نصر ودولة بنى مرين، وذلك بتشجيع أى عمل تقوم به دولة بنى نصر ضد دولة بنى مرين ومساندته بل والتحريض عليه فنجدها تعمل على بث الشك فى نفوس بنى نصر من أطماع بنى مرين فى دولتهم(١٠٠)، فنراها فى عهد الفونسو العاشر ملك قشتالة تبادر إلى مساعدة السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) فى الاستيلاء على مدينة سبتة فى شمال المغرب(١٠١) التى كانت من أملاك بنى مرين، كما نراها تلبى طلب السلطان محمد بن محمد بن يوسف (الفقيه) (٦٧٢ - ٧٠١/١٢٧٣ - ١٣٠٢م) المساعدة من ملك قشتالة سانشو الرابع عام ٧٦٦هـ/ ١٢٧٩م ليتمكن من ضم مدينة طريف والجزيرة الخضراء، التى كانت حينئذٍ تحت حكم بنى مرين، وذلك نظراً لأهمية موقعها الاستراتيجى، وكان من نتيجة ذلك أن جرى بينهما اتفاق سرى على أن يمد سانشو الرابع السلطان محمد الفقيه بالمساعدات العسكرية للاستيلاء على مدينة طريف مقابل أن يتنازل له عن بعض الحصون الدفاعية الهامة فى الأندلس(١٠٢).

ثالثاً: رغبة سلاطين بنى نصر فى القضاء على خصومهم فى الداخل:

كانت رغبة سلاطين بن نصر في القضاء على منافسيهم والثائرين عليهم داخل مملكتهم عاملاً له أثره فى دفع العلاقات بينهم وبين الممالك النصرانية إلى التحسن، فقد عملت الثورات والفتن التى قامت بها بعض الأسر النبيلة ذات النفوذ فى الأندلس على لجوء بنى نصر إلى ملوك قشتالة والتقرب منهم وطلب العون والمساعدة للقضاء على أولئك الثوار وإفساد مخططاتهم، ففى عهد السلطان محمد بن محمد بن يوسف (الفقيه) وقف الملك سانشو الرابع ملك مملكة قشتالة إلى جانبه ضد منافسيه بنى أشقيلوله(١٠٣) الثائرين عليه فى وادى آش(١٠٤) ومدينة قمارش (Camares)(١٠٥) لإخماد ثورتهم والقضاء عليهم، فقام هجوم مشترك من الدولتين بمحاصرة مدينة قمارش، وتمكن السلطان محمد الفقيه من دخولها وضمها إلى مملكته(١٠٦).

وفى عهد السلطان يوسف بن أحمد بن إسماعيل اجتازت مملكة غرناطة مرحلة من الاضطرابات الداخلية كانت تحركها الأسر القوية مثل بنو سراج[١٠٧] وبنو أضحى[١٠٨] وبنو الثغرى[١٠٩]، إلا أن السلطان يوسف ابن إسماعيل تمكن من اجتياز هذه الأزمة بتحالفه مع ملك قشتالة الفونسو العاشر بعد أن أضناه النضال فقبل ما فرضه عليه ملك قشتالة بالاعتراف بسلطانه وتأدية الأتاوة له مقابل مساعدته على اجتياز محنته تلك[١١٠].

رابعاً: التنافس بين أفراد البيت النصرى على الحكم فى الدولة:

كان لذلك التنافس أثره فى دفع العلاقات فيما بين مملكة غرناطة وبين الممالك النصرانية إلى التحسن، حيث يضطر ذلك الحكام من بنى نصر إلى التقارب مع مملكة قشتالة، والتى تجد فى ذلك الصراع فرصة للتدخل فى شئون دولتهم الداخلية، فتقف إلى جانب أحد المتنازعين مما ترى أن فيه ما يحقق رغباتها ويضمن مصالحها فى الدولة.

من ذلك الدور الذى قام به ملك قشتالة خوان الثانى (يوحنا الثانى) فى عهد السلطان محمد بن يوسف (الملقب بالأيسر) وذلك عندما قامت ثورة عليه تنادى بولاية السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف والملقب بالزغير[١١١] وهو ابن عم السلطان محمد الأيسر وهو فى رواية ابن أخيه[١١٢]، فتمكن السلطان الزغير من الاستيلاء على الحكم فى غرناطة، وفر السلطان الأيسر إلى تونس ودخل تحت حماية سلطانها أبى فارس الحفصى[١١٣] واستلم أبو عبد الله الزغير الحكم فى غرناطة، ولكن السلطان محمد الأيسر تمكن بمساعدة زعيم بنى سراج (Abencerrajes) وهو يوسف بن سراج من استعادة ملكه، وذلك عندما فر يوسف بن سراج مع عدد من السادة والفرسان وقصد مدينة أشبيلية ودخل فى حماية ملك قشتالة خوان الثانى الذى رحب بهم، واتفق مع يوسف بن سراج على العمل سوياً على إعادة السلطان محمد الأيسر إلى الحكم فتم ذلك وعاد السلطان محمد الأيسر من تونس ونزل فى مدينة المرية حاملاً الهدايا القيمة لملك قشتالة خوان الثانى مكافأة له على مساعدته فى استرجاع ملكه مجدداً عهد الولاء والطاعة له[١١٤] ودخل السلطان محمد الأيسر مدينة غرناطة وقضى على الزغير بقتله وفى رواية بسجنه[١١٥] ثم ما لبثت الفتن أن عادت تعصف بمملكة غرناطة من جديد بسبب التنافس على الحكم فى الدولة، حيث قام أبو الحجاج يوسف بن مول[١١٦] والذى ينتمى إلى الأسرة النصرية عن طريق الأم حيث كانت أمه ابنة السلطان محمد بن يوسف (الغنى بالله) وأبوه ابن المول من وزراء الدولة النصرية[١١٧].

والتف حول الحجاج يوسف بن مول الثوار من بنى مول[١١٨] خصوم السلطان

محمد بن يوسف (الأيسر) الآخرين، فلجأ يوسف بن مول لتحقيق أطماعه فى الحكم إلى ملك قشتالة خوان الثانى، الذى كان يعسكر بالقرب من غرناطة يترقب الفرص للإغارة عليها، وطلب منه العون على إنجاز مهمة خلع السلطان محمد بن يوسف (الأيسر) وعقد معه معاهدة سنة (٨٣٥هـ/ ١٤٣١م) رضى فيها أن يكون من أتباع خوان الثانى إذا حصل على الملك وتعهد له بأن يحكم باسمه وتحت طاعته، فلبى الملك خوان الثانى دعوة ابن مول بعد أن وقع معه وثيقة الخضوع له وورد النص فيها على عدة شروط تعهد يوسف بن مول بموجبها لملك قشتالة خوان الثانى بأن يكون من أتباعه وخدمه، وأنه إذا حصل على الملك فإنه يتعهد بتحرير جميع الأسرى النصارى، وأن يدفع لملك قشتالة جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار من الذهب، وأن يعاونه بألف وخمسمائة فارس لمحاربة أعدائهم سواء كانوا من النصارى أو المسلمين وأن يحضر جلسات مجلس الكورتيس بنفسه إذا كان منعقداً فى جنوب طليطلة وبإنابة أحد من أبنائه أو ذوى قرابته إذا كان منعقداً داخل قشتالة(١١٩)، وتعهد ملك قشتالة من جانبه بأن يعقد الصلح مع يوسف بن مول طوال حكمه وحكم أبنائه، وأن يعاونه على محاربة أعدائه من المسلمين أو النصارى وأن لا يحمى من يلجأ إليه من أعدائه(١٢٠) وكانت هذه المساعدة والمؤازرة من جانب الملك خوان الثانى لأبى الحجاج يوسف بن مول سبباً فى تحسن العلاقات وهدوئها طيلة فترة حكم أبى الحجاج بن مول وانتهت هذه الأحداث باعتلاء يوسف بن مول عرش غرناطة بعد أن أرسل ملك قشتالة جيوشه فغزت مرج غرناطة، وتمكن من هزيمة الأيسر وفراره إلى مالقه(١٢١) التى بقيت تحت طاعته ولكن يوسف بن مول لم يدم حكمه طويلاً حيث أنه كان شيخاً كبيراً ومريضاً فتوفى بعد ستة أشهر من تعيينه حاكماً على غرناطة، وعلى إثر وفاته اتفق ذو النفوذ فيها على رد السلطان الأيسر حاكماً على مملكة غرناطة وسارع السلطان الأيسر بعقد هدنة مع مملكة قشتالة لمدة عامين(١٢٢).

واستمر ظهور تطورات جديدة فى الأحوال الداخلية لمملكة غرناطة بعد عودة السلطان محمد الأيسر للحكم مرة ثانية حيث ظهر له منافسون آخرون على السلطة من خصومه من السادة والفرسان ومنافس آخر على السلطة هو ابن عمه يوسف بن أحمد(١٢٣) والمعروف فى الروايات القشتالية باسم يوسف الخامس (ابن إسماعيل)(١٢٤) ويتزعم عدد من السادة والفرسان، كما ظهر له منافس آخر على السلطة فى مدينة المرية وهو محمد بن نصر بن محمد المعروف بالأحنف والذى ثار على السلطان محمد بن يوسف الأيسر ودخل غرناطة وقضى على السلطان محمد (الأيسر) وزج به فى السجن وتسلم زمام الحكم فى مملكة غرناطة سنة (٨٤٦هـ/ ١٤٤٣م)، إلا أن السلطان يوسف بن أحمد

والمؤيدين له من الشعب وزعماء غرناطة بزعامة الوزير عبد البر زعيم بنى سراج الذى كان يقيم فى حصن مونى مرتش (Castillo de Martes) [(١٢٥)] بقرب غرناطة كان معارضاً للسلطان محمد بن الأحنف فاستطاع يوسف بن أحمد من التغلب على الأحنف بمساعدة ملك قشتالة خوان الثانى الذى أمده بسرية من الفرسان النصارى استطاع بها التغلب على السلطان الأحنف وهزيمته ودخل غرناطة وتولى الحكم فيها سنة ٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م[(١٢٦)] وبتولية السلطان يوسف بن أحمد السلطة فى الدولة دخلت العلاقات بينه وبين ملك قشتالةعهداً جديداً من الاستقرار والصداقة الطيبة فى عهد الملك خوان الثانى[(١٢٧)] كما كان لمؤازرة ملك قشتالة ومساندته للسلطان نصر بن محمد الملقب (بأبى الجيوش) لاستعادة حكمه من السلطان الثائر عليه أبو سعيد بن إسماعيل ضو السلطان الغالب بالله دور إيجابى فى تحسن العلاقات فيما بينهم وذلك عندما دخل السلطان محمد بن نصر فى طاعة ملك قشتالة وأعلن الوفاء له[(١٢٨)].

وقد يكون ذلك التنافس على السلطة سبباً فى استمرار العلاقات الحسنة بين ملوك قشتالة وسلاطين بنى نصر، فنرى السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل (الغنى بالله) فى إمارته الأولى (٧٥٥ - ٧٦٠هـ/ ١٣٥٤ - ١٣٥٩م) اتجهت سياسته إلى محالفة مملكة قشتالة حيث وقف موقفاً قوياً إلى جانب ملكها بطرس الأول فى حربه مع مملكة أراغون فأمده بأسطول حربى من غرناطة مكون من عشرة شوانى حربية بجميع بحارتها وأسلحتها، كما سمح له باستخدام القواعد البحرية الغرناطية ليستعين بها فى تمويل أساطيله[(١٢٩)]، ولكن ذلك التحالف لم يستمر طويلاً بينهما بسبب الانقلاب الذى أطاح بالسلطان محمد بن يوسف (الغنى بالله) والذى قام به أخوه إسماعيل بن يوسف وصهره محمد بن إسماعيل ابن فرج، فانتهى بخلعه وتوليه أخيه أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بدلاً منه، فلجأ السلطان الغنى بالله إلى سلطان المغرب أبو سالم المرينى يطلب مساعدته وحمايته[(١٣٠)].

ولم يكد يمر عام على تولية السلطان إسماعيل بن يوسف مقاليد الحكم فى غرناطة حتى ثار عليه الرئيس محمد أبو سعيد المعروف فى المصادر الأسبانية بلقب (البرميخو)[(١٣١)] وأطاح بحكمه وتسلم زمام الأمر فى مملكة غرناطة وعمل على تحسين علاقته وتوثيقها مع مملكة أراغون، فانضم إليها فى حربها مع مملكة قشتالة، عند ذلك رأى ملك قشتالة أن يعقد صلحاً مع مملكة أراغون ليتيح لنفسه الفرصة للتدخل فى شئون مملكة غرناطة مستغلاً الصراع القائم بين سلاطينها حول العرش، فأعلن نفسه مدافعاً عن حقوق السلطان محمد بن يوسف (الغنى بالله) ضد الثائر أبى سعيد البرميخو، وطلب من السلطان أبى سالم المرينى أن يسلمه السلطان المخلوع محمد بن يوسف (الغنى بالله)

ليساعده على استعادة عرشه(١٣٢)، فاستجاب له سلطان المغرب وتم له ذلك، فوقف ملك قشتالة بطرس الأول إلى جانب السلطان الغنى بالله حتى تمكن من العودة للحكم مرة ثانية عام (٧٦٢ - ٧٩٤هـ / ١٣٦١ - ١٣٩٢م) وبقى حليفاً مخلصاً لملك قشتالة وعمل على إطلاق جميع الأسرى القشتاليين الذين كانوا فى مملكته(١٣٣) وقدم له الهدايا الثمينة رمزاً للاعتراف بجميله.

خامساً: توتر العلاقات بين مملكة غرناطة وبلاد المغرب:

كان الدافع لهذا التوتر هو تدخل سلاطين المغرب فى الشئون الداخلية للأندلس، ومحاولة الاحتفاظ بما تحت سيادتها من المدن والثغور الأندلسية التابعة لأملاك بنى نصر حكام غرناطة، إذ لم تكن تخلو سياسة بنى مرين إزاء مملكة غرناطة من بعض التوجس وبث الشكوك فى نفوس سلاطين بنى نصر، وذلك للوقوف إلى جانب الخارجين عليهم بنى أشقيلولة(١٣٤)، فنرى السلطان محمد بن محمد بن يوسف (الفقيه) - الذى لم يكن متحمساً لتلك العلاقة التى كانت تربط والده السلطان محمد بن يوسف بملك قشتالة الفونس العاشر - يقوم لذلك فى بداية حكمه بتجديد نداء والده لملك المغرب السلطان أبو يوسف يعقوب المرينى لنجدة الأندلس وينتج عن ذلك عبور الجيوش المرينية مضيق جبل طارق، واستقبال محمد بن محمد (الفقيه) سلطان غرناطة للسلطان المرينى كما استقبله محمد بن أشقيلولة صاحب مدينة مالقة(١٣٥)، ونظراً لحالة العداء التى قامت بين سلطان غرناطة محمد بن محمد (الفقيه) وبين أصهاره بنى أشقيلوله، دخل الشك فى أن يكون هناك إتفاق سرى مسبق بين سلطان المغرب وأصهاره بنى أشقيلوله، ومما زاد فى مخاوفه دخول بنى أشقيلولة فى حماية السلطان أبو يوسف يعقوب المرينى ومعهم بعض الخارجين على السلطان الفقيه، ثم تأكدت مخاوفه بعد وفاة محمد بن أشقيلولة وتولى ابنه محمد مدينة مالقة من بعده وقيام بنى أشقيلولة بضم مدينة مالقة إلى ملك بنى مرين(١٣٦)، وقيام سلطان المغرب أبو يوسف قبل عودته إلى المغرب بتعيين وال عليها من قبله هو عمر بن يحيى بن محلى(١٣٧)، واستعاض عنها بنو أشقيلولة بمدينتى المنكب (Almunecar)(١٣٨) وشلوبانيه (Salobrena)(١٣٩)، فدفع ذلك الأمر السلطان محمد الفقيه إلى تحسين علاقته مع ملك قشتالة الفونسو العاشر، حيث أرسل السلطان محمد الفقيه برأس الدون نونيو دى لارا (Nownio de lara)(١٤٠) الذى قتل فى معركة جرت بين جيوش بنى مرين وحلفائهم بنى أشقيلولة وبين جيوش قشتالة سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م هدية منه بغرض التقرب والتودد إليه، وكان سلطان المغرب قد بعثها قبل ذلك إلى السلطان محمد الفقيه ترغيباً وترهيباً له(١٤١)، ثم اتفق السلطان محمد بن محمد

(الفقيه) مع الفونسو العاشر على محاصرة الجزيرة الخضراء التابعة لبنى مرين فى الأندلس وتمكنوا بذلك الحصار من عزل بنى مرين فى الأندلس عن المغرب، مما دفع السلطان محمد الفقيه لاغتنام فرصة العزل هذه وإقناع حاكم مالقة عمر بنى يحيى بن المحلى بعدم مقاومة جنوده وفتح أبواب المدينة، وفعلاً تم ذلك وعادت مدينة مالقة إلى أملاك بنى نصر بعد أن بقيت ما يقارب من ثلاثة عشر عاماً خارجة عن حكمهم(١٤٢).

سادساً: الظروف السيئة التى كانت تمر بها مملكة بنى نصر:

كان للأحداث الداخلية التى عصفت بمملكة بنى نصر فى غرناطة أثر كبير فى تحسن العلاقات بينها وبين الممالك النصرانية، فمن هذه الأحداث الثورات والفتن الداخلية إضافة إلى انشغال سلاطين دولة بنى مرين عن مؤازرة ومساعدة بعض سلاطين بنى نصر فى حروبهم مع مملكة قشتالة بسبب الظروف المضطربة، التى كانت تمر بها دولة بنى مرين(١٤٣) وذلك إلى جانب الحدث الأهم وهو انقطاع وصول الإمدادات إلى مملكة بنى نصر من بلاد المغرب، المؤازر الأول لهم فى حروبهم مع النصارى، وذلك بعد احتلال قشتالة مضيق جبل طارق والجزيرة الخضراء وهما المنفذان الرئيسان لعبور القوات المرينية إلى مملكة غرناطة(١٤٤) وقد حرص سلاطين بنى نصر على التمسك بجبل طارق فلعله من الناحية النفسية كان يبعث فى أعماقهم شعور الاعتزاز بعظمة الإسلام وتفوقه ومن الناحية العملية يبعث فى نفوسهم الطمأنينة لأنه بإشرافه على المضيق بين العدوة الأندلسية والعدوة المغربية يمكن من وصول المساعدات العسكرية من أفريقيا فى أوقات الشدة، أما من الجانب النصرانى فقد كان مصدر قلق لهم حيث تتدفق منه الإعانات العسكرية من أفريقيا إلى الأندلس، والتى ساعدت على أن توقع بهم الخسائر الفادحة. لذلك حرص النصارى على تخليصه من يد المسلمين، فتم ذلك فى عهد الملك هنرى الرابع ملك قشتالة عام ٨٦٦/١٤٦٢م(١٤٥) مما شجع الممالك النصرانية على الإغارة على أراضيها، ولما رأى سلطان غرناطة السلطان نصر بن محمد (الفقيه) ما وصلت إليه الأحوال فى مملكته من سوء واشتداد بأس النصارى عليها، لم يجد وسيلة لدرء الخطر المهدد لها سوى التقرب لملك قشتالة فرناندو الرابع وعقد صلح معه والتعهد له بدفع الجزية(١٤٦).

سابعاً: مواجهة الخطر الخارجى على مملكة غرناطة:

تعرضت مملكة غرناطة منذ نشأتها إلى حالات من الغزو والاعتداء سواء من الممالك النصرانية أو من دولة بنى مرين، حيث كان الطامعون فيها

يستغلون ضعف قوتها العسكرية - نسبياً - فى بداية تأسيسها أو حالات الاضطرابات التى مرت بها، وكان ذلك دافعاً لسلاطين بنى نصر إلى تحسين علاقاتهم مع إحدى الممالك النصرانية لمواجهة ذلك الخطر المحدق بها، ففى عهد السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) المؤسس لمملكة بنى نصر فى غرناطة قامت جيوش أراغون فى عهد ملكها خايمى الأول بدخول أراضى مملكة بنى نصر من الشمال، فدخلت مدينة مرسيه سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، وكان ذلك الاعتداد سبباً لدفع السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) إلى تحسين علاقته مع مملكة قشتالة العدو التقليدى لمملكته أراغون وتجددت الهدنة التى كان عقدها معها مقابل تنازل السلطان محمد بن يوسف لملك قشتالة عن عدد من الحصون والقلاع والقرى٧ كما واجهت خطراً قادماً عليها من دولة بنى مرين فى عهد سلطانها أبى يوسف يعقوب المرينى حيث قام بضم مدينة مالقة إلى أملاكه(١٤٨)، فدفع ذلك الحدث السلطان محمد بن محمد (الفقيه) إلى التقرب لمملكة قشتالة وتحسين علاقته معها، فعقد بينه وبين الفونسو العاشر تحالف ضد سلطان المغرب السلطان أبو يوسف يعقوب المرينى(١٤٩).

كما تعرضت مملكة غرناطة فى عهد السلطان أبى الوليد إسماعيل بن فرج ٧١٣- ٧٢٥هـ/ ١٣١٤ - ١٣٢٥م إلى هجوم كاسح من قبل مملكة قشتالة(١٥٠)، فلجأ السلطان أبو الوليد إسماعيل إلى طلب المؤازرة والعون من ملك مملكة أراغون وعقد معها معاهدة حلف وصداقة عام ٧٢١هـ / ١٣٢١م جاء فيها (أن تعادوا من يعادينا من أهل بلاد المسلمين ولا يعينوا علينا عدواً كائناً من كان، وعلينا أن نعادى من يعاديكم من أهل أرضكم ولا نضمه ولا نقبله، ولا نعين عليكم عدواً لكم كائناً من كان)(١٥١).

ثامناً: عدم تكافؤ القوة بين الأطراف المتحاربة:

كان سلاطين بنى نصر يسعون من وقت إلى آخر إلى تحسين علاقاتهم مع الممالك النصرانية عندما ينتابهم شعور بالضعف أمامهم فى مواجهاتهم الحربية وذلك لعدم تكافؤ القوى بينهم.

ففى عهد السلطان محمد بن يوسف بن نصر (الغالب بالله) دخلت مملكته فى مواجهات حربية مع مملكة قشتالة تأرجحت نتائجها بين النصر والهزيمة حيث قامت الجيوش القشتالية بهجوم على المدن التابعة لغرناطة واحتلت مدينة مرتش (Martas)(١٥٢)، فحاول السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) أن يستردها منهم وقام بمحاصرتها سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م ولكنه لم يوفق فى ذلك فانسحب عنها بعد أن قدمت جحافل الجيوش النصرانية لنجدتها. ثم سار إليها

مرة ثانية فدارت بين المتحاربين معركة دامية تمكن فيها السلطان محمد بن يوسف من الانتصار على فرناندو الثالث[١٥٣]. وكرد فعل على هذه الهزيمة أرسل الملك فرناندو الثالث ابنه الفونسو العاشر على رأس جيش كبير دخل مدينة جيان وعاث بها فساداً وتمكن من الاستيلاء على عدد من الحصون والقلاع الدفاعية[١٥٤] ثم واصل زحفه نحو مدينة غرناطة وضرب الحصار حولها عام ٦٤٢هـ/١٣٤٤م فتصدت له جيوش السلطان محمد بن يوسف واستطاعت فك الحصار عنها، وتكبدت الجيوش القشتالية خسائر فادحة، ولكن تلك الهزيمة للجيوش القشتالية لم تفت فى عزم ملوك قشتالة أو تحدّ من أطماعهم حيث لم يمض عام واحد بعد ذلك حتى عادت الجيوش القشتالية تواصل زحفها نحو مملكة غرناطة وضربت الحصار مرة أخرى حول عاصمتها غرناطة[١٥٥]، فرأى السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) أن سياسة الأمر الواقع تفرض عليه عدم الدخول فى مواجهات عسكرية مع القوات القشتالية نظراً لعدم تكافؤ القوى بينه وبينها، فقد نتج عن عدم ذلك التكافؤ سقوط عدد من المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى فى يد النصارى، فآثر السلطان محمد بن يوسف (الغالب بالله) سياسة السلم والمهادنة على سياسة الحرب والمواجهة فقام بعقد صلح مع ملك قشتالة فرديناند الثالث (Fernando III)[١٥٦]، وتكرر ذلك السبب فى الأحداث التى جرت فى عهد السلطان أبى الحجاج يوسف بن محمد بن يوسف (٧٩٣- ٧٩٥هـ/ ١٣٩١ - ١٣٩٣م) بعد أن تولى الحكم فى غرناطة حيث حرص على عدم الدخول فى مواجهات حربية مع مملكة قشتالة لقناعته بعدم قدرته على مواجهتها، فبدأ حكمه بالعمل على استمرار العلاقات الحسنة بينه وبين مملكة قشتالة بل عمل على تقويتها، فطلب من ملك قشتالة عقد هدنة سلم وصداقة معه، كما قام بإطلاق سراح عدد من الفرسان النصارى المأسورين فى المعارك السابقة فى عهد والده محمد بن يوسف بن إسماعيل (الغنى بالله)[١٥٧].

وفى عهد السلطان يوسف بن يوسف بن محمد (٨١٠ - ٨٢٠هـ/ ١٤٠٨ - ١٤١٧م) كان أول عمل قام به بعد توليه الحكم فى مملكة غرناطة هو تجديد الهدنة بينه وبين مملكة قشتالة لمدة سنتين، وبعد انقضاء المدة حاول تجديد الهدنة واستمرارها[١٥٨]، ولكن ملوك قشتالة أدركوا ضعفه وحاولوا لذلك ابتزازه بشروط تعسفية فرضها عليه ملك قشتالة فرفضها ودخل مع الجيوش القشتالية فى معركة بجوار مدينة انتقيره هزمت فيها القوات الغرناطية سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م، وأدرك السلطان يوسف حينئذ أنه ليس فى استطاعته الدخول فى مواجهات أخرى مع مملكة قشتالة فرضخ لشروطها ونفذها[١٥٩]. وفى عهد السلطان أبو عبد الله محمد بن سعد الملقب بالزغل [١٦٠] (٨٩٠ - ٨٩٢هـ/ ١٤٨٥

– ١٤٨٧م) حاول هذا التصدى للأطماع النصرانية على مملكته، فقاد جيشه إلى مدينة مالقة للدفاع عنها ضد الجيوش القشتالية الغازية والمتجهة نحوها، كما قام بتسيير جيشه إلى مدينة بلش مالقة (Velez Malaga) التى كانت تحت حصار القوات القشتالية(١٦١)، فدخل معها فى معركة حربية طاحنة، لكنه هزم أمام القوات القشتالية(١٦٢) ثم حاول فك الحصار مرة ثانية عن مدينة مالقة ولكنه هزم للمرة الثانية أمام القوات القشتالية(١٦٣) التى واصلت زحفها نحو القرى التابعة لمدينة مالقة واستولت عليها ومن أهمها ميناء الأندلس الخالد المنكب(١٦٤) عام ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م ثم سقطت مدينة بسطة (Baza)(١٦٥) ومدينة وادى آش(١٦٦) آخر معاقل السلطان محمد الزغل نتيجة لعدم تكافؤ القوى بينهم مما اضطره إلى التسليم لملك قشتالة ومبايعته والدخول فى طاعته مقابل حصوله على بعض الامتيازات الشخصية(١٦٧). وفى الإمارة الثانية لآخر سلاطين بنى نصر فى مملكة غرناطة السلطان أبو عبد الله محمد بن على الصغير(١٦٨) الذى يعرف فى المصادر الأسبانية باسم (Boabdil) (٧٨٢ – ٨٩٧هـ / ١٤٨٧ – ١٤٩١م) تكرر ذلك الحدث عندما حاول السلطان المذكور استرجاع مدينة قرطبة من أيدى النصارى فى سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م ولكنه أسر فى ظاهرة قلعة اللسانة Lucena(١٦٩) يحاول حصارها وبقى أسيراً عند ملك قشتالة فرناندو الخامس إلى أن عقدت بينهما معاهدة سرية تنص بنودها على أن يعترف السلطان أبو عبد الله بطاعة الملك فرناندو ملك قشتالة وزوجته إيزابيلا، وأن يؤدى جزية سنوية مقدارها أثنتا عشرة ألف قطعة ذهبية، وأن يفرج فى الحال عن أربعمائة أسير من الأسرى القشتاليين الموجودين فى غرناطة يختارهم ملك قشتالة، ثم يطلق بعد ذلك كل عام سبعين أسيراً لمدة خمسة أعوام، وأن يقدم السلطان أبو عبد الله ولده الأكبر رهينة لدى ملك قشتالة مع عدد آخر من أبناء الأمراء الكبار ضماناً لحسن وفائه(١٧٠). فقبل السلطان أبو عبد الله بشروط هذه المعاهدة رغم تعسفها لإدراكه عدم استطاعته الدخول فى مواجهات حربية مع ملك قشتالة، ولكن ملك قشتالة فرناندو الخامس ما لبثت أطماعه أن دفعته إلى نقض هذه المعاهدة رغبة منه فى الاستيلاء على البقية الباقية من أملاك المسلمين فى الأندلس، حيث زحفت القوات القشتالية نحو أحواز مملكة غرناطة وضربت عليها حصاراً طويل الأمد، فرأى السلطان أبو عبد الله محمد أن الاستسلام لملك قشتالة أفضل من الدخول معه فى معركة معروفة نتائجها مسبقاً وذلك لعدم تكافؤ القوى بينه وبين مملكة قشتالة فآثر الاستسلام(١٧١)، ولكن رأيه قابله أهالى غرناطة بالرفض، وحاولوا التصدى للقوات الغازية، فشدد القشتاليون الحصار التام على مدينة غرناطة، وبدأوا بالهجوم عليها من كل ناحية، فقابل أهالى غرناطة ذلك الهجوم بالاستبسال المميت بالدفاع

عنها[١٧٢]، وانضم إليهم السلطان أبو عبد الله محمد بن على (الصغير)، بعد أن أخذته الغيرة على دينه وبلاده، وتيقن أن القشتاليين يقومون بإزالة الإسلام من كل مدينة يستولون عليها[١٧٣]، ولكن ونظراً لطول الحصار ونفاد ما لدى أهالى غرناطة من المؤن[١٧٤]، اجتمع أهل غرناطة من الخاصة والعامة والفقهاء وكبار الدولة وشرحوا للسلطان أبو عبد الله الظروف السيئة التى يمرون بها وطلبوا منه التسليم لملك قشتالة[١٧٥]، فأرسل السلطان أبو عبد الله محمد (الصغير) سفارة إلى الملكين الكاثوليكيين فرناندو الخامس (Fernando V) وإيزابيلا (Isabella) يعرض عليهما رغبته فى التسليم[١٧٦]، فبدأت بين الطرفين مفاوضات انتهت بعقد معاهدة التسليم، وقد شملت هذه المعاهدة سبعة وستون بنداً تضمن حقوق أهالى غرناطة فى الأرواح والممتلكات، والشعائر الدينية[١٧٧]، كما عقدت معاهدة سرية بين السلطان أبى عبد الله محمد (الصغير) وأسرته مع ملك قشتالة فرناندو والملكة إيزابيلا نصت على ضمانات وامتيازات خاصة بهم[١٧٨]، وبذلك تم تسليم غرناطة للقشتاليين سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م فغادر السلطان أبو عبد الله محمد بن على وبعض أنصاره إلى قرية أندرش (Andarax)[١٧٩] ومكث فيها أشهر قليلة، ثم تنازل عن جميع حقوقه مقابل ألف قطعة من الذهب، وغادر الأندلس إلى بلاد المغرب، واستقر فى مدينة فاس إلى أن توفى فيها[١٨٠].

وبهذه المعاهدة طويت آخر صفحة من تاريخ مملكة بنى نصر فى غرناطة وعلاقتها بالمملكتين النصرانيتين قشتالة وأراغون بعد أن وقف بلاط مملكة غرناطة حقبة زمنية من تاريخه موقفاً متناقضاً فى علاقته مع المملكتين قشتالة وأراغون يتردد بين سياسة التحالف والقطيعة تارة وبين الثقة والتوجس تارة أخرى.

الحواشى

١ – عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام فى الأندلس (نهاية الأندلس) مكتبة الخانجى الطبعة الرابعة، القاهرة (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م) ص٥٥.
٢ – الحجى، عبد الرحمن: التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، بيروت، (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) ص٥١٨.
٣ – الحجى، المرجع نفسه ص٥١٩.
٤ – ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة فى أخبار غرناطة تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) ج١ ص١٤٢؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية فى الدولة النصرية، تحقيق لجنة التراث العربى، دار الآفاق الجديدة، بيروت (١٤٠٠هـ)، ص٤٣؛ الحجى. المرجع السابق، ص٥١٧.
٥ – المقرى، أحمد محمد: نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف الشيخ البقاعى، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ج١ ص٤٢٨. ومدينة أرجونة (Arjona) بلدة صغيرة تقع شمال غرب مدينة جيان وإليها ينسب السلطان محمد بن يوسف بن الأحمر (الغالب بالله) الحميرى الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، لبنان (١٩٧٥) ص٢٦.
٦ – ابن هود: هو محمد بن يوسف بن هود الجذامى، تولى إمارة الأندلس بعد سقوط دولة الموحدين، وملك مرسية وقرطبة وأشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية، كان شجاعاً كريماً، تنبأ له شخص ممن ينتحل علوم الحدثان بأنه سيصبح سلطان الأندلس، وينسب بنى هود إلى سليمان بن محمد بن هود الجذامى الملقب بالمستعين والذى كان من كبار الجند فى الثغر الأعلى فى الأندلس، ثم تغلب على مدينة لاردة Lerida بعد أن قتل قائدها أبو مطرف التجيبى، ثم انضم إليه أهالى سرقسطة Saragossa فعظم أمره. ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفى بروفنسال، دار الكشوف، لبنان (١٩٥٦م) ج٢، ص١٧٠، ٢٧٦؛ السلاوى. أبو العباس أحمد بن خالد الناصر: (الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر وخالد الناصرى، دار الكتاب، الدار البيضاء (١٤١٨هـ / ١٩٩٧م).
٧ – ابن الخطيب: أعمال الأعلام ج٢، ص٢٧٧، ٢٧٨.
٨ – المقرى: نفح الطيب ج١، ص٤٢٩؛ ابن خلدون. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م) م٧، ص٢٢٤ – ٢٢٥.
٩ – أحد أمراء الدولة الحفصية، التى قامت فى أفريقيا (تونس) وينسب الحفصيون إلى الشيخ أبى حفص يحيى بن عمر الهنتانى من هنتانة، أعظم قبائل مصمودة البربرية، ويعتبر المؤسس الأول للدولة الحفصية والتى استمرت ثلاثة قرون ونصف القرن، استقل بولاية أفريقية بعد ثورته على الموحدين ثم بايعه أهل شرق الأندلس وأشبيلية والمرية، ابن خلدون، كتاب العبر، ج٧، ص١٠٦؛ سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (١٩٨٢م) ص٧٧٩.
١٠ – مؤلف مجهول: أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر، تحقيق حسين مؤنس، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة (١٤١٢هـ/١٩٩١م) ص٣٤؛ المقرى: المصدر السابق ج٦، ص١٦٦.
١١– ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٤٣؛ عنان: المرجع السابق ص٣٩.
١٢ – مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٣؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٤٢.
١٣ – مؤلف مجهول: نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر، تحقيق الفريد البستانى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م) ص٣٩.
١٤ – البشرة أو البشرات (Alpujarra Alpuxarra) تقع جنوب جبل الثلج (Sierra Nevada)والطريق

المؤدى لها يقع على جبل شلير Solarius Mons احتلها النصارى ودخلت تحت حكمهم فترة من الزمن، ثم استدعى أهلها الأمير محمد بن على بن نصر للدخول فى ذمته وتحت طاعته، فخرج إليهم الأمير مع الفرسان من أهل غرناطة واسترجع جميع الجهات المحيطة بمنطقة البشرات من غير حرب أو قتال. مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٣٠، ٣١.

١٥ - عن كيف تم تسليم قصر الحمراء مقر السلطان فى غرناطة انظر ما كتبته، Carmdle del Hoyo فى Revista Al- Andalus, XX 1955, P. 283.

١٦ - عنان: المرجع السابق ص٨٥.

١٧ - انظر الخريطة رقم ٥ فى The Shorter Cambridge Medieval History, Vol. I, UNIVERSITY Press, Cambridge, 1952، والخريطة رقم ١٦ فى الجزء الثانى Vol. II.

١٨ - عنان، المرجع السابق، ص٨٨.

١٩ - ينظر ص ٨٢١ وما بعدها فى The Shorter Cambridge Med. History.

٢٠ - انظر تسلسل حكام قشتالة رقم (a) ٢٢ ص ٨٢٤ ورقم (a) ٢٤ ص ٩٠٢ The Shorter Cambridge Med. History، والملك فرناندو هو الثانى من الملوك الذين حكموا أراغون بهذا الاسم (فرناندو) والخامس من ملوك مملكة قشتالة الذين حكموها بهذا الاسم وذلك بعد تزوجه من ملكة قشتالة إيزابيلا فانضمت مملكة أراغون إلى مملكة قشتالة، عنان: المرجع السابق، ص١٨٣ - ١٨٤.

٢١ - انظر تسلسل حكام أراغون رقم (٦) ٢٢ ص ٨٢٥ ورقم (٦) ٢٤ ص ٩٠٣ فى المرجع السابق.

٢٢ - المرجع السابق ص ٨٢١.

٢٣ - بنى مرين: بطن من بطون قبيلة زناته البربرية الشهيرة، وهم يرجعون نسبتهم إلى العرب المضربة وذلك بالانتساب إلى بر بن قيس بن عيلان بن مضر، وجدهم الأعلى جرماط بن مرين بن ورتاجى بن ماخوخ، وكانت القبائل المرينية فى بداية أمرها من القبائل البدوية المتنقلة تجوب صحارى المغرب الأوسط وهضابه وفى أيام الصيف تتجه إلى المغرب الأقصى وفى بداية القرن السابع الهجرى نشبت الحرب بينهم وبين عبد الواد فتوغلوا فى هضاب المغرب ونزلوا بوادى ملوية وأقاموا هناك حيناً، وعندما ضعفت دولة الموحدين نفذ بنو مرين إلى المغرب وتوغلوا فيه واشتبكوا مع الموحدين وهزموهم فوصلوا إلى أحواز فاس انظر تفاصيل دولتهم المرينية. الفاسى: الذخيرة السنية فى الدولة المرينية، الرباط (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م) ص٣٥.

٢٤ - مدينة شريش Teres من كور شذونه بالأندلس، تقع على مقربة من البحر، تشتهر بكثرة إنتاجها الزراعى. الحميرى: الروض المعطار، ص٣٤٠.

٢٥ - ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٥٥، ٥٧.

٢٦ - ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٢٢٨؛ الحجى: المرجع السابق ٥٣٥.

٢٧ - ابن خلدون: كتاب العبر ج٧ ص٢٢٨، مؤلف مجهول: أخبار العصر ص٣٤.

٢٨ - ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٦٤، ومدينة تلمسان ((Ceute إحدى المدن الساحلية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط وتتبع الآن لأسبانيا، وهى مدينة قديمة سكنها الأول تجرى فيها قناة مع ضفة البحر القبلى، يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا جهة الغرب، الحميرى: المصدر السابق، ص٢٠٣؛ابن الخطيب: معيار الاختيار ص١٤٤.

٢٩ - ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٧٥.

٣٠ - ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٣٣١، عنان: المرجع السابق، ص ٨٦، ٨٨.

٣١ - مدينة جيان (Jaen) مدينة فى الأندلس، خصبة الأرض تقع على سفح جبل عال وبها عيون متدفقة، وتتبع لها أقاليم عدة. الحميرى. الروض المعطار، ص ١٨٣.

٣٢ - المقرى: المرجع السابق، ج٤ ص٤٥٦؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٤٨؛ فرحات. يوسف: غرناطة فى ظل بنى الأحمر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) ص٢٦.

٣٣ – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٥٤.
٣٤ – حصن القبذاق. تقع مدينة القبذاق (Alcaudate)، جنوب غرب مدينة جيان من نواحى قرطبة، ذكرها ابن الخطيب بقوله: وهى من جلالة الوضع وشهرة المنعة وخصب الساحة وطيب الماء والوصول إلى أفلاذ فؤاد الكفر والاطلاع على عوراته، ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٥٤؛ الإدريسى. نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، عالم الكتب، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) ص٥٧١.
٣٥ – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٥٤، ٥٥.
٣٦ – الإحاطة، ج١، ص٣٨٩.
٣٧ – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص ٨٤ – ٩٦، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٢٩٨، التويجرى. نورة: نص مهمل عن بنى نصر من مخطوط شرح المقامة النخلية لأبى الحسن على بن عبد الله بن محمد النباهى. مجلة الجمعية التاريخية السعودية، العدد الحادى عشر، السنة السادسة ذو القعدة (١٤٢٥هـ/ يناير ٢٠٠٥م) ص١٤٣، وبطره يقصد به دون بيدرو Juan Pedro عم الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة وأحد الأوصياء عليه. ابن الخطيب: الإحاطة ج٢ ص٤٣٧، أما جوان فيقصد به دون خوان Don Juan أحد الأوصياء على عرش مملكة قشتالة عندما كان الفونسو الحادى عشر لا يزال قاصراً، وقد قاد دون خوان مع دون بيدرو الجيوش القشتالية لقتال المسلمين فى غرناطة فقاموا بمهاجمتها ووقعت بينهم وبين الجيوش الغرناطية معركة حاسمة عرفت فى التاريخ الأندلسى باسم معركة مرج غرناطة قتل فيها كل من دون خوان ودون بيدرو وكان ذلك عام ٧١٨هـ/ ١٣١٨م فى الهضبة الكبيرة الواقعة ظهر غرناطة المعروفة بالمرج فى عهد السلطان أبى الوليد إسماعيل بن فرج وبقيادة شيخ الغزاة أبو عثمان سعيد بن أبى العلاء.
نفح الطيب ج١ ص٤١٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٤ ص١٧٢؛ مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص ٥١.
٣٨ – ابن الخطيب: الإحاطة ج١ ص٣٠٦، عنان: المرجع السابق ص١٥٥، فرحات. المرجع السابق، ص٥٤.
٣٩ – مؤلف مجهول/ أخبار العصر، ص٥٢. عنان: المرجع السابق، ص١٧٦.
٤٠ – مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص ٦. وبلدة الحمة أو الحامه (Alhama) بلدة صغيرة تقع قرب مدينة بجاية من أعمال المرية، وقد أطلق عليها العرب هذا الاسم نسبة إلى العين الحارة التى بها، تشتهر ببساتين الفواكه، ابن الخطيب: معيار الاختبار فى ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانه، اللجنة المشتركة للتراث الإسلامى، دولة الإمارات العربية (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) ص١٢٤، أرسلان: شكيب: الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤١٧هـ/ ١٩٧٠) م١، ص٦٦، ب ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب: تحقيق أحمد مختار العبادى، الإسكندرية (١٩٨٣م). ص٨٤، ٩٢.
٤١ – مؤلف مجهول: نبذة العصر ص٨، مؤلف مجهول: أخبار العصر ص٧٨، ٧٩.
٤٢ – عنان: المرجع السابق ص١٩٥، ومدينة مرسيه (Maurcia) قاعدة مدينة تدمير بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم المروانى. تقع على نهر كبير يسقى جميعها، الحميرى: المصدر السابق ص٥٣٩.
٤٣ – المقرى: نفح الطيب، ج١ ص٤٣١.
٤٤ – مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص١٧، ١٨، ومدينة بلش (Welez) تحريف للكلمة اللاتينية Vallis بمعنى الوادى وتسمى الآن(Welez) وتقع غرب مالقة وقد وصفها ابن الخطيب بقوله (جادها المطر الصبيب فنعم البلد هى). ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب: ص٧٨، ٧٩. ومدينة لوشة (Loja)، فهى تقع غرب غرناطة، وهى إحدى المدن الإسلامية أيام حكم المسلمين للأندلس، استردها الأسبان من المسلمين سنة (٨٩١هـ/ ١٤٨٠م) ذكرها ابن الخطيب بقوله: (مرأى بهيج ومنظر يروق وبهيج ونهر سيال وجنات وعيون). ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص ١٢٥. ومدينة مالقة (Malaga) تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوب شرق الأندلس

ويرجع تأسيسها إلى الفينيقيين عام ١٢٠٠ق.م. ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص٥٧؛ معيار الاختيار، ص٨٧.

٤٥ - مؤلف مجهول: أخبار العصر ،ص١١٠ - ١١٣؛ مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص ٤٠، ٤١.

٤٦ - مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٨، ابن خلدون: العبر ج٧، ص٢٤٢.

٤٧ - ابن الخطيب:اللمحة البدرية، ص٥٨. عنان: المرجع السابق ص١٢٥.

٤٨ - ابن الخطيب: المصدر نفسه والصحفة نفسها. ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٢٣٤. أما بنو المحلى فهم من كبار القوم بطوية، وكانوا حلفاء بنى حمامة بن محمد بن مرين منذ دخولهم بلاد المغرب وكانت تربطهم ببنى مرين علاقة مصاهرة، ابن خلدون: العبر ج٧ ص ٢٣٧ - ٢٣٨؛ ج٤ ص٣٥٨.

٤٩ - ابن خلدون: العبر ج٧ ص٣١١.

٥٠ - مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٤٣.

٥١ - مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٥٣. عنان: المرجع السابق ص١٠٩، وجزيرة طريف (Tarif) تقع على البحر الشامى فى أول المجاز المسمى بالزقاق، ويتصل غربها ببحر الظلمة، وتبعد عن الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلاً. الحميرى: المصدر السابق ص٣٩٢.

٥٢ - عنان: المرجع السابق ص١٤٩.

٥٣ - مدينة لورقة (Lorca من بلاد تدمير، تقع على ظهر جبل، وبها أسواق وربض فى أسفل المدينة، وتفسير لورقة باللاتينى الدرع الحصين. الحميرى: المصدر السابق، ص٥١٢.

٥٤ - Revista. Al Andalus XIII (1948) P. 96.

٥٥ - Revista Al Andalus XIII (1948) P. 70- 96.

٥٦ - حصن آيا مونتى، لم أعثر له على ترجمة.

٥٧ - عنان: المرجع السابق ص١٥١ص

Revista AlAndalus XIII (1948) P. 46

٥٨ - بنو أشقيلولة: أسرة قوية من المولدين، عميد أسرتهم هو أبو الحسن بن أشقيلولة، إنحاز إلى السلطان محمد بن يوسف بن نصر فى صراعه مع ابن هود تربطهم مع بنى نصر رابطة النسب. وعندما استتب الأمر للسلطان محمد بن يوسف عن صهره أبو الحسن على وادى آش (Guadix) عين ابنه عبد الله على مدينة مالقة، ثم بدأت العلاقات تسوء بينهم عندما بدأ السلطان يستريب منهم ومن أطماعهم، فثاروا عليه فى وادى آش. انظر تفاصيل ذلك ابن خلدون: العبر، ج٧ ص ٢٢٧ - ٢٣٣؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام ج٢ ص٢٨٧ - ٢٩١؛
مؤلف مجهول: أخبار العصر ص٢٥. ووادى آش (Guadix).مدينة بالأندلس تقع قرب مدينة غرناطة، كثيرة المياه والأنهار، تقع على ضفة نهر يتدفق من جبل شلير وهو فى شرقها. الحميرى: المصدر السابق، ص٦٠٤.

٥٩ - المقرى: نفح الطيب ج١ ص٤٢٩؛ ابن خلدون: العبر ج٧ ص٤٤٧.

٦٠ - مشيخة الغزاة، منصب عسكرى معناه قيادة الجيش، وقد وجد ذلك المنصب فى الأندلس بعد أن انتصر المسلمون على النصارى فى موقعة الصخرة، حيث تم الاتفاق بين مملكة غرناطة ودولة بنى مرين على أن تقام فى أراضى غرناطة قوة عسكرية دائمة من المقاتلين المرينيين للجهاد فى سبيل الله، فتنازلت مملكة غرناطة لأولئك المجاهدين عن الجزيرة الخضراء ومدينة مالقة لتكون معبرا ومركزا لهم، وكان أول شيخ للغزاة هو أبو العلاء المرينى، وبعد وفاته خلفه على ذلك المنصب أبو سعيد عثمان بن أبى العلا. فقويت مشيخة الغزاة فى عهده وتدخل شيخ الغزاة فى الأمور الداخلية فى الأندلس، بقيت مشيخة الغزاة فى يد عبد الحق المرينى وتوارثه بنو مرين حتى تولى السلطان محمد بن يوسف (الغنى بالله) الحكم فى مملكة غرناطة، فتسلم ذلك المنصب ثم أسنده لابنه حيث لم يرغب فى ترك ذلك المنصب فى يد بنى

مرين بعد أن أحس أنهم خطراً يهدد مملكته، ابن الأحمر. إسماعيل بن الأحمر. النفحة النسرية واللمحة المرينية، تحقيق عنان محمد آل طعمة، مطبعة الشام دمشق (١٩٩٢م)؛ ابن خلدون: العبر ج٧، ص٤٣٧ ,٧٤٤؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص١١٦؛ المقرى: أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض. تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى، القاهرة (١٣٣٩هـ/ ١٩٤٩م) ج١ ص٤٧. المقرى: نفح الطيب، ج١ ص٤٣٤.

٦١ – ابن خلدون: العبر ج٧ ص٤٤٥؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٤٥١.

٦٢ – مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٥.

٦٣ – ربض البيازين (Albaicin) من ربض مدينة غرناطة قام سكانه بثورتهم سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م ضد السلطان أبو عبد الله محمد الزغل وذلك عندما مالوا إلى الصلح مع النصارى، فقاموا باستدعاء السلطان محمد بن على (الصغير) وطالبوا بخلع السلطان عليهم محمد بن سعيد الزغل فوقع بينهم وبين أهالى غرناطة قتال عنيف استخدم فيه أهالى غرناطة الأنفاط والحجارة حيث أن أهالى غرناطة والموالين للسلطان أبى عبد الله محمد الزغل يعارضون فكرة الصلح مع النصارى، بينما أهالى ربض البيازين والموالين للسلطان أبى عبد الله محمد الصغير يؤيدون فكرة الصلح مع النصارى، ينظر تفاصيل هذه الثورة فى المقرى: نفح الطيب ج٦ ص٣١٣ – ٣١٥، مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص١٦، ١٧.

٦٤ – مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص١٦.

٦٥ –ابن الخطيب: لإحاطة ج٢ ص٩٨، أعمال الأعلام، ج٢ ص٣٩٣.

٦٦ – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٧٤، ومدينة المرية (Almeria) من مدن الأندلس، أمر ببنائها الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة، وكانت أيام الملثمين مدينة الإسلام، تشتهر بصناعاتها المتعددة وكثرة خيراتها. الحميرى: المصدر السابق، ص٥٣٨.

٦٧ – ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٣٠٥؛ اللمحة البدرية ص١٠٨، ١٠٩.

٦٨ – ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٩.

٦٩ – مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٨.

٧٠ – مؤلف مجهول: المصدر نفسه ص٩.

٧١ – عنان: المرجع السابق ص٩١.

٧٢ – أرسلان: الحلل السندسية ج٢ ص٢٠٠. محمد ماهر: الوثائق السياسية والإدارية فى الأندلس وشمال أفريقية. مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت (١٤١٦هـ/ ١٩٨٦م) ص٤٥٠. يذكر عنان فى كتابه دولة الإسلام فى الأندلس (نهاية الأندلس) ص١١٠ أن هذه المعاهدة عقدت بين السلطان محمد بن يوسف (الفقيه) وبين ملك أراغون خايمى الثانى، بينما يذكر صاحب الحلل السندسية أنها كانت بين السلطان محمد بن محمد بن يوسف (المخلوع) وبين ملك أراغون خايمى الثانى، ويوافقه فى ذلك محمد ماهر حمادة فى كتابه الوثائق السياسية والإدارية فى الأندلس وشمال أفريقية ص٤٥٠. ولعل من المرجح أن ما أورده عنان هو الصحيح وذلك بسبب غمرة الأحداث التى مرت بها مملكة بنى نصر فى عهد السلطان محمد بن محمد (الفقيه) حيث عقد تحالف بين مملكة قشتالة وبنى أشقيلولة وبنى مرين وقاموا بشن هجمات على غرناطة، فلعل السلطان محمد (الفقيه) لجأ إلى مملكة أراغون لصد ذلك العدوان الثلاثى عليه. انظر ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٥٨.

٧٣– مرسيه «Maurcia» قاعدة تدمير، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، واتخذت مقرا للقواد والعمالة وتقع علي نهر كبير. الحميري: الروض المعطار، ص ٥٣٨ .

٧٤ – أرسلان: الحلل السندسية ص٢٠٠.

٧٥ – ابن الخطيب: أعمال الأعلام ،ج٢ ص٢٩٤؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٨١.

٧٦ – المقرى: نفح الطيب، ج١، ص٤٣٢.
٧٧ – أرسلان: المصدر السابق ص٢٠٧، والمدجنون هو اسم أطلق على المسلمين الأندلسيين الذين رضوا بالبقاء تحت حكم السلطة النصرانية بعد سقوط مدنهم فى يد النصارى وتدجنوا فى أحياء خصصت لهم فى أكثر من مائة مدينة، وعاشوا مواطنين من الدرجة الثالثة فى ظل الحكم النصرانى ولم يهاجروا إلى غرناطة أو الشمال الأفريقى. بشتاوى: الأندلسيون المواركة، دراسة فى تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة. ب. ط (ب.ت) ص ١٣، الحجى: التاريخ الأندلسى، ص٥٣١.
٧٨ – أرسلان: المصدر السابق، ج٢ ص٢١٧.
٧٩ – أرسلان: المصدر السابق ج٢ ص١٧٣.
٨٠ – أرسلان، المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٤ انظر الرسائل التى بعث بها السلطان أبو الحجاج يوسف ابن أبى الوليد إسماعيل بن فرج فى أرسلان: الحلل السندسية، ج ٢ ص ١٦٤ – ١٦٧.
٨١ – عنان: المرجع السابق، ص ١٥٢.
٨٢ – لقب بالعالم لكثرة انشغاله بالعلوم، مؤلف مجهول: أخبار العصر ص ٣٢.
دينة سبتة، مدينة قديمة سكنها الأول، يجرى فيها قناة مع ضفة البحر القبلى، يحيط بها البحر من جميع جهاتها إلا جهة الغرب، الحميرى المصدر السابق ص ٣٠٣.
٨٣ – ابن الخطيب: الإحاطة ج٢ ص ٩٩؛ نورة التويجرى، نص مهمل عن بنى نصر فى الأندلس ص ١٤٣.
٨٤ – عنان: المرجع السابق، ص ١٥١، وانتقيرة هى حاليا «Antequera» إحدى مدن الأندلس القديمة، تبعد عن مالقة بنحو ٦٠كم، وهى عبارة عن حصون بين مالقة وغرناطة، ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص١٢٧.
٨٥ – عنان المرجع السابق ص ١١٠.
٨٦ – ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٣٠٩، الإحاطة، ج٢ ص٥٢٣.
٨٧ – عنان: المرجع السابق، ص١٥٨.
٨٨ – مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٥٧.
٨٩ – أرسلان: المصدر السابق، ص ١٦٥, ١٦٦.
٩٠ – أجفانكم: سفنكم c.Schiaparelli Vocabulistsa in Arabico Tipografia Dei saecessori le Monnier,Firenze,1874,p.80,488. دوزى، تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمى، ج٣، ص٢٣١.
٩١ – أرسلان: المرجع السابق، ج٢ ص٢١٦.
٩٢ – الشوانى مفردها شينى وهى: المركب المعد للجهاد فى البحر، الفيروزابادى: القاموس المحيط، دار الجيل.بيروت «ب.ط» «ب.ت» ج٤ ص ٢٤٣.
٩٣ – أرسلان. المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٥.
٩٤ – أرسلان: المصدر السابق، ص١٦٦، حمادة، محمد ماهر: الوثائق السياسية والإدارية فى الأندلس وشمال أفريقية، ص٤٦٨.
٩٥ – حمادة: المرجع السابق، ص٤٦٢.
٩٦ – المقرى: نفح الطيب ج٦ ص١١٨، أرسلان: المصدر السابق ج٢ ص١٦٤، ١٦٥.
٩٧ – عنان: المرجع السابق، ص ٤٣, ٤٤.
٩٨ – ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢ ص٤٤، ابن الخطيب: الملحة البدرية ص ١١٩.
٩٩ – عنان: المرجع السابق، ص ١٤٨.
١٠٠ – ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢ ص٤٤.
١٠١ – ابن الخطيب: الملحة البدرية، ص٤٨.

١٠٢ – ابن الخطيب: الإحاطة ج٢ ص٩٩.
١٠٣ – مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٥٧، عنان: المرجع السابق، ص١٠٩.
١٠٤ – وادى آش «Guadix» ينظر هـ ٥٨.
١٠٥ – مدينة قمارش «Comares» إحدى الحصون المهمة أيام مملكة غرناطة، تقع قريبة منها، وصفها ابن الخطيب بقوله «هى مودع الوفر، ومحط السفر، حيث الماء المعين، والقوت المعين» ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص٩٢.
١٠٦ – مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٩، ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص٥٧ لمزيد من التفاصيل حول الصراع بين بنى أشقيلولة وبنى نصر انظر ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٢٨٧.
١٠٧ – بنو سراج، أسرة عربية دخلت الأندلس منذ الفتح الإسلامى له، وبنو سراج من أعيان قرطبة، ينسبون إلى مذحج وقضاعة اليمنية، عهد إليهم الأمويون حراسة أقليم بجانة «Pechina» التى تقع شرق الأندلس، ظهر دورهم فى التاريخ الأندلسى فى القرن الخامس عشر، وقد لعبت المنافسة بينهم وبين الثغريين دورا فى سياسة غرناطة. المقرى: نفح الطيب، ج ١ ص ٢٨١، العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية ١٩٨٢م، ص٢٣٢, ٤٦٥.
١٠٨ – بنو أضحى من سادة غرناطة، من قبيلة قحطان من بنى همذان، سكنوا البيرة وجيان. ابن القوطية القرطبى: تاريخ افتتاح الأندلس، دار الكتاب المصرى، القاهرة «١٤١٢هـ/١٩٨٢م» ص ٤٥، ابن الخطيب: الإحاطة، ج٤ ص٨٢.
١٠٩– بنو الثغرى من بيت عربى أندلسى قديم يعرفون فى الروايات النصرانية باسم Zegrin وهو تحريف لكلمة الثغريين والثغرى صفة تطلق على الأسر التى نزحت من الثغر الأعلى أراجون إلى مختلف أنحاء الأندلس خاصة فى القرن السادس الهجرى/الحادى عشر الميلادى، وذلك بعد سقوط مدينة سرقسطة فى يد النصارى، المقرى، نفح الطيب، جـ١ ص٢٧٦، العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص٤٦٥.
١١٠– عنان: المرجع السابق، ١٦٦.
١١١– الزغير معناها الصغير بالنطق العلمى الأندلسى R.Dozey:Supplement aux Dictionaries Arabes, Vol.I,P 535
دوزى: تكملة المعاجم العربية، بغداد «١٣٩٧هـ/١٩٧٦م» ج٥، ص٣٣٣. ويذكر عنان نقلا عن المستشرق لوندى أن معناها «السكير». عنان: المرجع السابق، ص١٥٦.
١١٢– عنان: المرجع السابق، ١٥٦.
١١٣– ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٢٩٠، عنان: المرجع السابق، ص١٥٨، والسلطان أبو فارس الحفصى من أمراء الدولة الحفصية التى قامت فى أفريقية وهى من الموحدين واسم جدهم هنتان وكان كبيرهم الإمام – الشيخ أبو حفص عمر. انظر عن قيام دولة الحفصيين وسقوطها ابن خلدون: العبر، ج٦ ص٣٢٦–٣٢٩، ابن خلدون: العبر، ج٧ ص١١٦.
١١٤– Revista Al- Andalus XXIV (1959),p.284.
١١٥– عنان: المرجع السابق ص ١٥٦
١١٦– عنان/ المرجع السابق ص ١٥٨.
١١٧– عنان المرجع السابق ص ١٥٨.
١١٨– ينسب بنو مول إلى القائد محمد بن أبى بكر بن يحيى بن مول، من وجوه الدولة، من أهل قرطبة تولى الوزارة منهم القائد أبو بكر عتيق بن محمد بن مول فى عهد السلطان نصر بن محمد «أبو الجيوش» ثم عزل عن الوزارة ونفى إلى المغرب. ابن الخطيب:اللمحة البدرية، ص٧٠، ٧١.
١١٩– عنان: المرجع السابق، ص١٥٨. لم ترد هذه الوثيقة فى كل من كتاب الحلل السندسية أو كتاب

الوثائق السياسية والإدارية فى الأندلس وشمال أفريقية، وهذه المعاهدة تتشابه فى بنودها مع المعاهدة التى عقدت بين السلطان محمد بن يوسف «الثالث» مع ملك قشتالة فرناندو الثالث. وتم الاتفاق بينهم بأن يدخل السلطان محمد بن يوسف «الغالب بالله» فى ولاء وطاعة الملك فردناندو الثالث ملك قشتالة، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٢٩، ومجلس الكورتيس Loscorts وفى بعض المراجع الكورتيز هو المجلس النيابى لمملكة قشتالة، رائف أحمد: وتذكروا من الأندلس الإبادة، الزهراء للأعلام العربى، «١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م» ص٧٥.

١٢٠- عنان: المرجع السابق، نفس الصفحة.

١٢١- مدينة مالقة Malaga ينظر هـ٤٤.

١٢٢- عنان: المرجع السابق، ص١٥٨.

١٢٣- عنان: المرجع السابق، ص١٥٩.

١٢٤ عنان: المرجع السابق، ص١٦٣.

١٢٥ - حصن مونى مرتش «Castillo de Maries» يقع غرب مدينة غرناطة، ويقع بالقرب من جبل القسط المشهور بنبات البربايس المر المذاق، الحجى: جغرافية الأندلس وأوروبا، ص١٢٦.

١٢٦- عنان: المرجع السابق، ص١٦٥.

١٢٧- عنان: المرجع السابق، ص١٦٣.

١٢٨- ابن الخطيب: الملحة البدرية، ص٧٥، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٢٩٤.

١٢٩- ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢ ص٢٦-٣٠، أعمال الأعلام، ج٢ ص٣١٠؛ نورة التويجرى: الصراع بين أبناء يوسف الأول وأثره فى إضعاف مملكة غرناطة، مجلة جامعة أم القرى للبحوث المحكمة، السنة العاشرة العدد الخامس عشر «١٤١٧هـ/١٩٩٧م» ص٢٥٣.

١٣٠- ابن الخطيب: نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، ص٢٩٩-٣٠٠؛ نورة التويجرى: الصراع بين أبناء يوسف الأول وأثره فى إضعاف مملكة غرناطة.

١٣١- البرميخو «Bermelo» معناها بالأسبانية اللون البرتقالى الضارب للحمرة وهو لون لحيته وشعره، المقرى: نفخ الطيب، ج١ ص٤٤١، ابن سماك المالقى الغرناطى: الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة، تحقيق محمود مكى، القاهرة «١٩٧٦م»، ص١٤٩.

١٣٢- ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص٢٩٩-٣٠٢.

١٣٣- ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص١٢٩، ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢ ص٤٢.

١٣٤- ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٢٢٨.

١٣٥- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج٢ ص٣١٠.

١٣٦- ابن خلدون: العبر، ج ٧ ص٤٣٦، ٤٣٧.

١٣٧- عمر بن يحيى المحلى. ينظر هـ ٤٨.

١٣٨- المنكب «Almunecar» يقع شرق الأندلس، يجرى به نهر يصب فى البحر وبه حصن كبير وأرباض وأسواق وجامع. الحميرى: المصدر السابق، ص٥٤٨.

١٣٩- شلوبانية Salobrena قرية تقع على ضفاف البحر، بينها وبين المنكب عشرة أميال، تشتهر بزراعة الموز وقصب السكر. الحميرى: المصدر السابق، ص٣٤٣.

١٤٠- الدون نونيو دى لارا Nuna De Lara صهر ملك قشتالة الفونسو العاشر كان قائد جيوش قشتالة فى معركة قرب مدينة استجه والتى التقت فيها جيوش النصارى بالجيوش المغربية والأندلسية المتحدة بقيادة أبى يوسف يعقوب المرينى، وأحرز فيها المسلمون نصرا باهرا، وكان ذلك سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م. مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٣ شيخة جمعة: الفتن والحروب فى الشعر الأندلسى من سقوط الخلافة فى القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر

الميلادى إلى سقوط غرناطة فى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى المطبعة المغاربية للطباعة والنشر، تونس ١٩٩٤، ج ٢ ص ٢٦٤، المقرى: أزهار الرياض، ص١٥٨.

١٤١- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٩، ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٤٣٦.

١٤٢- ابن الخطيب: الإحاطة، ج١ ص٥٦٥، ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٤٣٦.

١٤٣- ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٤٣٦و٤٣٧.

١٤٤- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٥٣.

١٤٥- المصدر نفسه الصفحة نفسها.

١٤٦- المصدر نفسه ص ٤٨.

١٤٧- المصدر نفسه ص ٣٣.

١٤٨- ابن خلدون: العبر، ج٧ ص٢٣٧، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٤.

١٤٩- ابن خلدون: المصدر نفسه، ص٢٣٧، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٣٠.

١٥٠- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج٢ ص٢٩٥.

١٥١- أرسلان: المصدر نفسه، ج٢ ص ٢٠٦؛

Diplomaticos del Archivo dela corna de Aragon, Madrid (1940) Escuela de Esfudion Arabes

١٥٢- مدينة مرتش Martes تقع غرب مدينة غرناطة وبها حصن مرتش ذكرها ابن الخطيب بقوله مرتش العظيمة الساحة الطيبة البقعة. ابن الخطيب: اللمحة البدرية فى الدولة النصرية، ص٨٦.

١٥٣- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٢٩.

١٥٤- مؤلف مجهول: أخبار العصر، والصفحة نفسها، المقرى: نفح الطيب، ج١ ص٤٢٩.

١٥٥- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٢٩.

١٥٦- المقرى: نفح الطيب، ص٤٢٩، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص٢٩, ٣٠.

١٥٧- عنان: المرجع السابق، ص١٤٩.

١٥٨- عنان: المرجع نفسه، ص١٥٠.

١٥٩- عنان: المرجع نفسه، ص٥١.

١٦٠- الزغل يعنى الشجاع أو الباسل R.Dozey . Supp . Aux Dict. Arabes V.II, p 594، دوزى: تكملة المعاجم العربية، ج٥، ص٣٣٣.

١٦١- المقرى: نفح الطيب، ج ٦ ص٣١٦.

١٦٢- مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٢٢, ٢٣

١٦٣- مؤلف مجهول: المصدر نفسه، ص٢٤.

١٦٤- مؤلف مجهول: المصدر نفسه، ص٢٥.

١٦٥- مؤلف مجهول: المصدر نفسه، ص٢٥، ومدينة بسطة تعرف الآن فى الأسبانية باسم «Baza» وتقع شمال شرق غرناطة، وصفها ابن الخطيب بخصوبة أرضها وطيب هوائها وكثرة مياهها. ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص ١٠٩.

١٦٦- وادى آش «Guadix» ينظر هامش ٥٨.

١٦٧- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص١٠٠، ويذكر صاحب كتاب نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر رواية تخالف هذه الرواية التى وردت فى كتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر حيث ذكر صاحب كتاب نبذة العصر أن السلطان محمد بن سعد «الزغل» صاحب مدينة مالقة خرج من مدينة وادى آش ولحق بملك قشتالة فرناندو الخامس بعد استيلائه على مدينة بسطة وبايعه ودخل فى ذمته على أن يعطى ملك قشتالة فرناندو الخامس وادى آش وكل مدينة أو حصن وقرية كانت تحت طاعته وحكمه فأجابه ملك قشتالة إلى ذلك، ودخل فى عهد ملك قشتالة

جميع فرسان السلطان محمد بن سعد الزغل وجميع قواده وأصبحوا معه عونا على المسلمين، كما ذكر أن الأمير محمد بن سعد «الزغل» وقواده باعوا لملك قشتالة القرى والبلاد التى تحت طاعتهم وقبضوا ثمنها. مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٢٧.

١٦٨- الصغير: لقب بالصغير تمييزا له عن عمه أبو عبد الله محمد الزغل، كما لقب بالزغيبى أى المسكين الصغير أو الرجل البائس من لا حظ له، دوزى: تكملة المراجع العربية، ج٥، ص٣٣٢.

١٦٩- اللسانة Lucena بلدة صغيرة تقع جنوب شرق قرطبة وكان يسكنها اليهود، ولها ربض يسكنه المسلمون وبعض اليهود ويحيط بها سور من جميع جهاتها. الأدريسى: نزهة المشتاق، ص٧٥١.

١٧٠- المقرى: نفح الطيب، ج٦ص٣١٢.

١٧١- مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص٤١.

١٧٢- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص١٠٢، المقرى: نفح الطيب، ج٦ ص٣٢٢.

١٧٣- المقرى: نفح الطيب، ج٦ ص٣٢٣، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص١١٢.

١٧٤- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص ١١٢، مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٤٠.

١٧٥- مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٤٠، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص١١٣.

١٧٦- مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص١١٤.

١٧٧- المقرى: نفح الطيب، ج٦ص٣٢٤، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص١١٤.

١٧٨- مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٤١، مؤلف مجهول: أخبار العصر، ص ١٤٤، المقرى: نفح الطيب، ج٦ ص٣٢٠. وقد ذكر المقرى هذه الامتيازات الخاصة وهى أن يمكنه من الحمراء ويكون تحت حمايته ويعطيه مالا جزيلا وأى بلاد شاء من الأندلس يسكن فيها تحت حكمه. المقرى ج ٦ص٣٢٠.

١٧٩- مدينة آندرش Andarax تقع فى جنوب الأندلس من أعمال مدينة المرية Almeria ابن الخطيب: مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، ص٨٨.

١٨٠- مؤلف مجهول أخبار العصر، ص١١٥، حسين مؤنس: نهاية الأندلس، ص٢٠٤ ويذكر الأخير أن تسليم مدينة غرناطة قد تم عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م ولعل الصحيح هو فى عام «٨٩٧هـ/١٤٩١م» وهو ما ورد فى معظم المصادر العربية والأجنبية، وحول كيفية تسليم غرناطة وكذلك نهاية السلطان أبو عبدالله محمد الصغير انظر مؤلف مجهول: نبذة العصر، ص٣٤،

Revista Al-Andalus, XXIV, 1959'pp283-295.

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر:

■ ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل:

- النفحة النسرية واللمحة المرينية، تحقيق عنان محمد آل طعمه، مطبعة الشام بدمشق، الطبعة الأولى دمشق «١٩٩٢م».

■ الأدريسى، أبو عبد الله محمد بن محمد عبدالله:

- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، عالم الكتب، المطبعة الأولى، بيروت «١٤٠٩هـ/١٩٨٩م».

أرسلان شكيب.

- الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت «١٤١٧هـ/١٩٧٠م».

■ الحميرى، عبد المنعم:

- الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، بيروت «١٩٧٥م».

■ ابن الخطيب، لسان الدين:

- الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق محمد عنان مكتبة الخانجى الجزء الأول الطبعةالثانية، القاهرة «١٣٩٣هـ/١٩٧٣م»، والجزء الثانى الطبعة الأولى القاهرة «١٣٩٤هـ/١٩٧٤م».

- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق ليفى بروفنسال، دار الكشوف، الطبعة الثانية، لبنان «١٩٥٦م».

- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عنان، مكتبة الخانجى، الطبعة الأولى القاهرة «١٤٠٠هـ/١٩٨٠م».

- اللمحة البدرية فى الدولة النصرية، تحقيق لجنة التراث الإسلامى، الطبعة الثالثة، بيروت «١٤٠٠هـ/١٩٨٠م».

- نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة د.ت.

- معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، اللجنة المشتركة للتراث الإسلامى، الطبعة الأولى، دولة الإمارات العربية «١٣٩٦هـ/١٩٧٦م».

- مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية «١٩٨٣م».

■ ابن خلدون عبد الرحمن:

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، والمسمى بتاريخ ابن خلدون، دار الكتب

العلمية، الطبعة الأولى، بيروت «١٤١٣هـ/١٩٩٢م».
■ السلاوى، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى:
- الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق ولدى المؤلف جعفر ومحمد الناصرى، دار الكتاب، الدار البيضاء «١٩٥٤م».
■ ابن سماك، أبو القاسم محمد بن أبى العلاء المالقى الغرناطى:
- الزهرات المنثورة فى كتب الأخبار المأثورة، تحقيق محمود مكى، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٩م.
■ الفاسى على بن أبى زرع:
١٤ الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية، تحقيق إحسان عباس الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس «١٣٩٨هـ/١٩٧٨م».
■ الفيروزبادى:
- القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، د.ت.
ابن القوطية القرطبى:
- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس طباع، دار النشر للجامعيين، الطبعة الأولى بيروت«١٩٥٧م».
■ المقرى أحمد محمد التلمسانى:
- نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، تحقيق يوسف الشيخ البقاعى، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت «١٤١٦هـ/١٩٨٦م».
- أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ شلبى، القاهرة «١٣٣٩هـ/١٩٤٩م».
■ مؤلف مجهول:
- نبذة العصر فى أخبار ملوك بن نصر، تحقيق الفريد البستانى، مكتبة الثقافة الدينية، ، الطبعة الأولى «١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م».
■ مؤلف مجهول:
- أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر، تحقيق حسين مؤنس، الزهراء للأعلام العربى، الطبعة الأولى القاهرة ١٤١٢هـ/١٩٩١م».

ثانيا: المراجع:

■ الحجي، عبدالرحمن:
- التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى إلى سقوط غرناطة دار القلم، الطبعة الأولى، بيروت «١٣٩٦هـ/١٩٧٦م».
- جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى، دار الإرشاد، الطبعة الأولى، بيروت «١٣٨٧هـ/١٩٦٨م».
■ حمادة محمد ماهر:
- الوثائق السياسية والإدارية فى الأندلس وشمال أفريقية، مؤسسة

الرسالة، الطبعة الأولى بيروت «١٤١٦هـ/١٩٨٦م»

■ دوزى، رينهارت:

– تكملة المراجع العربية الجزء الثالث والخامس، نقله إلى العربية وعلق عليه محمد سليم النعيمى، وزارة الثقافة والفنون، دار الحرية للطباعة بغداد «١٣٩٧هـ/١٩٧٦م».

■ سالم، السيد عبد العزيز:

– تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية «١٩٨٢م» شيخة، جمعة:

■ شيخة جمعة :

– الفتن والحروب فى الشعر الأندلسى من سقوط الخلافة فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى إلى سقوط غرناطة فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، الطبعة المغربية، تونس «١٩٩٤م».

■ العبادى، أحمد مختار:

دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ١٩٨٤م

■ عنان، محمد عبد الله.

– دولة الإسلام فى الأندلس «نهاية الأندلس» مكتبة الخانجى، الطبعة الرابعة، القاهرة، «١٤٠٨هـ/١٩٨٧م».

■ فرحات، يوسف شكرى:

غرناطة فى ظل بنى الأحمر، دراسة حضارية، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت «١٤٠٢هـ/١٩٨٢م».

ثالثا: الدوريات العربية:

■ التويجرى، نوره محمد:

– الصراع بين أبناء يوسف الأول وأثره فى إضعاف مملكة غرناطة، مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية المحكمة، السنة العاشرة العدد الخامس عشر «١٤١٧هـ/١٩٩٧م».

– نص مهمل عن بن نصر فى الأندلس، من مخطوط شرح المقامة النخلية لأبى الحسن على بن محمد النباهى، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، العدد الحادى عشر، السنة السادسة، ذو القعدة «١٤٢٥هـ/يناير ٢٠٠٥م».

رابعا المصادر والمراجع الأجنبية:

- Dozy,R:Histoire de Musolmans d'Espagne, 4volumes,Leyden (1861).
- Dozy.R:Supplement aux Dictionares Arabes,Vol.I
- Previt - Orton,c.w: The Shorter Cambridge Medieval History (2 Vols) Cambridge University press,1952.
- Revista Al-Andalus. vols,XIII (1948),XX(1955) XXIV (1959).
- R.O de Linares:Los Documentos Arabes Diplomaticos Del Archive de la Corona de Aragon (No.3).
- Schiaparelli,C: Vocabulista in Arabico, Tipografia Dei Saecessori le Mannier,Firenzi,1874.

أ.د/ليلى عبدالجواد إسماعيل (*)

مملكة القسطنطينية فى مسالك الأبصار وممالك الأمصار للعمرى

دراسة وتحقيق

المقدمة :

تعد موسوعة مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) من الموسوعات الهامة، وذلك لتنوعها فهى لا تقتصر على دراسة الممالك والأمصار جغرافيا فحسب، بل تشمل الكثير من الأدب والمعارف وتواريخ الأمم والشعوب، فضلا عن اهتمامها بالنواحى الحضارية بشكل خاص أكثر من استعراض الحوادث التاريخية سواء فى الممالك الإسلامية أو غير الإسلامية، فتتناول أحوال الحكام والملوك والسلاطين والأباطرة، وأرباب الوظائف فى دولتهم وما يتقاضونه من رواتب وأرزاق، وملابسهم فضلا عن ملابس شعوبهم، وطعامهم وشرابهم، والعملة التى يتم التعامل بها، والأوزان والمكاييل مع الاهتمام بجيش كل مملكة وعدده وعدته وتسليحه، علاوة على طبيعة أرضها، وما تنتجه من محاصيل، وما تخرجه من معادن، وعلوم أهلها ومعارفهم، ومثل هذه المعلومات قل أو ندر أن تذكرها المصادر التاريخية المعاصرة التى تركز فى المقام الأول على التاريخ السياسى دون التاريخ الاجتماعى والاقتصادى والثقافى. ومن هنا تأتى أهمية هذه الموسوعة لتاريخ الممالك بصفة عامة ومملكة القسطنطينية بصفة خاصة.

سطرت أقلام ثلة من المؤرخين معاصرين(١)، ومحدثين (٢)، ترجمة مفصلة ومستفيضة لحياة العمرى وموسوعته مسالك الأبصار، لذلك يصعب سرد سيرة مفصلة لحياة العمرى، لما يحمله ذلك من تكرر قد يبدو معيبا أو مملا، خاصة وأننا لسنا بصدد الترجمة للمؤرخ أو الإفاضة فى

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى .. كلية الآداب - جامعة القاهرة.

الحديث عن حياته العامة والخاصة، فقد ترجم له الكثيرون، ومع ذلك فلابد من التعريف بالرجل ومؤلفاته ولو فى عجالة سريعة موجزة، مع تسليط الضوء على ماكتبه عن «مملكة القسطنطينية» فى مسالك الأبصار، وما أورده من أخبار بشأنها.

العمرى هو شهاب الدين أحمد بن يحيي بن فضل الله العمرى، ينتهى نسبه إلى عمر بن الخطاب لذلك لقب بالعمرى، ولد فى دمشق فى الثالث من شوال سنة (٧٠٠هـ/ ١٢ يونيو ١٣٠١م)(٣)، ووفد إلى مصر حدثا، واتخذ القاهرة موطنا، ومن ثم فقد شب وتعلم بمصر، حيث تتلمذ على يد أساتذة مبرزين فى مختلف فروع العلوم العربية كالجغرافيا، والفقه، والأحكام، والعروض، والنظم، والبيان والمعانى، والفلك والتاريخ، وغيرها من العلوم(٤).

برع العمرى فى ميدان الكتابة الديوانية، وليس أدل على ذلك من شهادة بعض المعاصرين فيقول الصفدى عنه «لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره، ولا يطلق على سواه.. ولا أعتقد أن بينه وبين القاضى الفاضل(٥).. من جاء مثله.. رزقه الله أربعة أشياء لم أراها اجتمعت فى غيره هى: الحافظة.. والذاكرة.. والذكاء.. وحسن القريحة فى النظم والنثر» (٦) أهلته هذه الصفات للعمل فى ديوان الإنشاء بمصر.

شغل العمرى عدة وظائف منها وظيفة قاضى بمصر، ثم خلف أباه فى رئاسة ديوان الإنشاء، وولاه السلطان الناصر محمد بن قلاوون وظيفة المشرف على البريد (الدوادارية)، ثم اختلف مع السلطان الناصر محمد فعزله، وألزمه داره، وأمضى أعوامه الأخيرة بدمشق أشبه بالمغضوب عليه، ثم ما لبث أن توفى فى يوم عرفه سنة (٧٤٩هـ/ أول مارس ١٣٤٩م)(٧).

أما عن مصنفات العمرى، فقد ترك الرجل تراثا حافلا، ينم عن غزارة مادته، ورفيع مواهبه، فقد وضع العمرى فى حياته القصيرة (٧٠٠-٧٤٩هـ) عددا من الكتب تفاوتت فى الحجم والموضوع، يأتى فى مقدمتها موسوعته الضخمة كتاب «مسالك الأمصار فى ممالك الأمصار» فى أكثر من عشرين مجلدا، وصفه الصفدى «بأنه كتاب حافل»(٨)، وقال عنه ابن تغرى بردى «لو لم يكن له إلا هذه التسمية لكفاه»(٩)، ومن كتبه أيضا التعريف بالمصطلح الشريف، والنزهة الكافية فى معرفة الكتابة والقافية، دمعة الباكى ويقظة الشاكى، ذهبية العصر، صبابة المشتاق وهو ديوان كامل فى المدائح النبوية، الشتويات وهو عبارة عن رسائل كتبها فى فصل الشتاء، الدعوة المستجابة، فواضل السمر فى فضائل آل عمر فى أربع مجلدات، سفرة السفرة، الدرر الفرائد وهو مختصر «قلائد العقيان فى محاسن الأعيان» للفتح بن خاقان (ت ٥٣٥هـ)، وممالك عباد الصليب وهو من الكتب النادرة التى تهتم بغير المسلمين،

وغيرها من المصنفات، هذا فضلا عن عدد من القصائد والأراجيز، كما أنشأ العمرى كثير من التقاليد والمناشير والتواقيع ومكاتبات الملوك وغير ذلك(١٠).

يقع النص – الذى أود أن أعيد نشره – فى الباب الخامس من موسوعة العمرى «مسالك الأبصار» وهذا الباب يحمل عنوان «فى مملكة الأتراك بالروم» ويقع فى ستة عشر فصلا، ويحمل هذا النص عنوان «مملكة القسطنطينية» وهو جزء من الفصل السادس عشر، الذى عنونه العمرى بـ«فى مملكة أرمناك»، وقد نشر هذا الباب بفصوله الستة عشر(١١) بما فيها الجزء الذى أعيد نشره مرة أخرى والذى يحمل عنوان «مملكة القسطنطينية»، وهناك من الأسباب ما دعانى لإعادة نشر الجزء الخاص بمملكة القسطنطينية ومن هذه الأسباب:

١– اهتمامى الشديد بتاريخ تلك المدينة، مدينة القسطنطينية، عاصمة الامبراطورية البيزنطية، وشغفى بمعرفة ما أوردته المصادر العربية بشأنها، خاصة وأن تاريخ تلك المدينة هو ما تخصصت فيه، وأنجزت فيه عدة بحوث ودراسات.

٢– أن مانشر عن مملكة القسطنطينية خرج مبتورا، عامرا بالأخطاء، التى قد تكون مطبعية، وقد تكون خطأ فى قراءة النص، فضلا عن سقوط سطور منه فى بعض الأحيان، وسوف أقدم فيما يلى جدولا بتلك الأخطاء وصوابها:

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
٣٩٦	٤	ببرطانية	بيزنطانية (بيزنطة)
	٦	العمودية	المعمودية
	١٠	علبة	غلبة
	١٢	وتغيرهم	وتعيرهم
٣٩٧	٦	سلطنته	سلطنة
	١٢	الكبائس	الكنابيش
	١٨	الإسكندرية	الإسكندر
		نائبة	نائية
٣٩٨	٤	ميتشامون	يتشائمون
		بمردة.. (كلمة ساقطة)	بمردة الجن
	٥	أصلة	أخيلة
		نطاق	تطاق
	١٣	ذووى	ذوى

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
	١٤	عدل	عدد
		المخمر	الخمر
	١٥	حبهم	حنينهم
	١٧	طبقات	ملبقات
٣٩٩	١	اقتباسه	اقتباس
	٢	الشمع	السمع
	٣	يتخير	يتحير
		من	في
		مآقي	ملاقي
		الغيد	العين
	٨	معروفة	معرفة
	١٢	القسطنطين	القسطنطيني
٤٠٠	١٥	جهة	جهته
٤٠١	١	لأحد	أحد
	٥	وما	وأما
	١٢	هي	هو
	١٥	تعتقد في كرامتها	تعتقد كرامتها
		ينقل من	ينقل في
	١٦	قسطنيطين	قسطنطين
	٢٠	زعموا إنه قد صار	زعموا إنه كان صار
٤٠٢	١	ظفر به في	ظفر في
	٣	حضون	حضوره
	١٧	حكايات بجنسها (سطر ساقط)	حكايات وأسمار ما هذا موضوعها ولا مكان الإشتغال بها ، وإشغال الكاتب بجنسها
	١٨	هذا ما	هذا مما
	٢١	تكتنز	تكنز
٤٠٣	٣	بطارقتهم	بطاركتهم
		وسوء بهم	قسوسهم
	٤	والقوة	والقوه

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
	٦	القاس	القاسى
		ويندم	وينوم
	٩	الإسكندرية وذى القرنين	الإسكندر ذى القرنين
	١٢	الداء الدقيق	الداء الدفين
	١٣	ايلسوا	ابلسوا
		وسكنوا	وسكتوا
	١٤	تم	ثم
٤٠٤	٢	وقالوا	أو قالوا
	٨	أو طوابعه	وطوابعه
	١٧	والذين جربت	والذى جربت
	٢٠	بلبان الجلبى	بلبان الحلبى
٤٠٥	١	مسورها	سورها
	١٢	بتحريمه	لتحريمه
	١٥	يتنغيم	يتنعم
٤٠٦	١	بقطيا قوس	نقيطا قومس
	٢	بقطيا	نقيطا
	٣	مائة ألف ألف دينار (سطر ساقط)	مائة ألف من المرتزقة، وتبعهم مثلهم من المطوعة، وحملوا لهم من العين مائة ألف ألف دينار
	٦	عسطه امرأة النون	أغسطه امرأة اليون
	١٠	تخوفا	مخوفا
	١٤	الأولاد	الأدلاء
	١٦	قيل	قبل
	١٧	يتيسر	تيسر
	١٩	ثلاثة وأربعون رأس، وقتل (سطر ساقط)	ثلاثة وأربعون رأسا، وعشرون ألف دابة من الدواب الذلل، وذبح من البقر والغنم والمعز مائة ألف رأس، وقتل

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
	٢٠	وقتل فى الأسارى	وقتل من الأسارى
٤٠٧	١	البرذون	البزدون
	٣	أبى حفص	أبى حفصة
	٤	لطفت	أطفت
	٦	لم تنل	لم تبل
	٨	منيرها	مسيرها
	١٠	سرا ينوه	سر النبوة
	١١	لمسعاهما	لمسعاها
	١٢	أيمتد	أئمة
٤٠٨	٧	سيادة	سيارة
	٩	وعلاقاتهم	وعلافاتهم
		يتعلقون	يتعلفون
	١٤	وتفرقوا	وافترقوا
	١٩	ومسربل	ومنديل
٤٠٩	١	يتصل البستانى	ببقل البستان
	٤	عتق فرسى	عنق فرسى
		وذهب لى	وذهب بى
		أين يذهب لى	أين يذهب لى
		بطعام تهىء	بطعام فهىء
		نفرسى	بفرسى
٤١٠	٦	واتخذتها أم ابنى	واتخذتها فهى أم بنى
	١٠	(المخطوط ص١٩٦)	(المخطوط ص١٩٧)
	١١	ران	راث
	١٥	ارجع لهم	ارجع
	١٦	عدوا	عدو
	٢٠	بيت يدى	بين يدى
٤١١	١٨	يلتزمن به التزاما	يلتدمن به التداما
٤١٢	٢	اهتزاما	انهزاما

٣- ما أورده العمرى من معلومات عن مدينة القسطنطينية قل بل ندر أن تعتنى المصادر البيزنطية بذكرها، فنص العمرى عن مملكة القسطنطينية يتناول الحديث عن الامبراطور البيزنطى، قصره، ملابسه، موكبه إلى الكنيسة العظمى، مجلسه، وموظفيه وأرزاقهم، كما يتحدث عن البطريرك، رأس كنيسة القسطنطينية، مكانته وراتبه، ودخول الكنيسة، كنيسة القسطنطينية المعروفة بآيا صوفيا، وما تحتويه من كنوز الأقدمين. وذكر العمرى الجيش الامبراطورى أعداده وعدده، وصفات جنده وأرزاقهم، كما عرض للعملة البيزنطية، والأوزان والمكاييل المستخدمة فى القسطنطينية مع مقارنتها بالأوزان والمكاييل المستخدمة فى مصر، واهتم بذكر خصوبة أرض القسطنطينية وصلاحيتها للزراعة، وحرص العمرى كذلك على عرض صفات أهل القسطنطينية، وطبيعة حياتهم وعلومهم ومعارفهم وبراعتهم فى فن الموسيقى وغيرها من المعلومات التى لا تهتم المصادر البيزنطية بها وتضن بذكرها [١٢]، لذا كان من الضرورى أن ترى هذه المعلومات النور، ليستفيد منها أهل التخصص.

والحق يقال أن العمرى لم ينهج ذلك المنهج مع مملكة القسطنطينية وحدها بل مع كل الممالك التى تكلم عنها، فقد كان هدفه من وراء ذلك «إثبات نبذة دالة.. على حال كل مملكة، وما هى عليه وأهلها.. لأقرب إلى الأفهام البعيدة غالب ما هى عليه أم كل مملكة من المصطلح والمعاملات، وما يوجد فيها غالبا، ليبصر أهل كل قطر القطر الآخر... وكأنه قدام عيونهم بالمشاهدة والعيان». كما جاء على لسانه[١٣].

اعتمد العمرى فيما ذكره عن مملكة القسطنطينية على النقل ممن يعرف أحوالها وأخبارها، مما رآه بعينه أو سمعه من الثقات بأذنه، فهو لم يزر مدينة القسطنطينية، ولم يكتف بالنقل عن الثقات والسماع منهم، بل كان يسأل الرجل على البلاد التى زارها أو شاهدها، ثم يسأل آخر وآخر ليقف على الحق، فما اتفقت عليه أقوالهم وتقاربت فيه أثبته، وما اختلفت فيه أقوالهم واضطربت تركه، ثم كان يترك الرجل الذى سبق وسأله فترة من الوقت، ثم يعيد عليه السؤال ثانية، فإن ثبت على قوله الأول أثبته، وإن تزلزل لم يأخذ بأقواله، وذلك كله حتى يتوثق من صدق ما يسجله[١٤].

ومن أهم المصادر التى اعتمد عليها العمرى فيما أورده من معلومات وأخبار عن مملكة القسطنطينية:

أولا: بلبان الجنوى: هو سليل أسرة جنوية عريقة، تعرف باسم دوريا، حكم أفرادها جمهورية جنوة لسنوات طويلة، وكان يدعى دومينيك دوريا Dominic Doria، وحدث أن وقع فى الأسر وسيق إلى الشرق، حيث صار يعرف

باسم (بلبان الجنوى)، وكان من جملة مماليك الأمير بهادر المعزى (١٥) (ت ٧٣٩هـ-/١٣٣٩م)، ومن المعروف عن هذا الأمير أنه كان يشترى الملاح من المماليك، وينعم عليهم كثيرا[١٦]، ويبدو أن بلبان هذا كان واسع المعرفة بأمور الغرب، لأن العمرى أخذ منه فكرة جيدة ليس عن مملكة القسطنطينية وحدها بل وعن عدد من الشعوب الأوروبية[١٧].

ثانيا: آقسنقر الرومى: تحدث عنه العمرى فقال: «هو أحد أمراء العشرات بالأبواب السلطانية، وهو من بعض بيوت العشرة الأمرة القديمة بالقسطنطينية، وكان قد حضر من جملة الرسل إلى الأبواب العالية، وأسلم، وشمله التشريف والإنعام الشريف، والإقامة فى الخدمة السعيدة السلطانية بمثل هذه الأحوال»[١٨]. وترجم ابن حجر[١٩] لآقسنقر الرومى فذكر أنه كان من جملة الأمراء الآخورية[٢٠] عند الناصر محمد بن قلاوون، ثم جعله الناصر شاد العمائر[٢١] فى سنة ٧١٥هـ. . . ثم تغير عليه السلطان فى سنة ٧٢٨هـ، وأخرجه إلى الشام، ثم قبض عليه فى سنة ٧٣٥هـ، سجن بحلب ثم أمر طبلخاناه[٢٢] بدمشق سنة ٧٣٨هـ إلى أن مات سنة ٧٤٠هـ».

وبذلك فصل ابن حجر للوظائف التى تولاها آقسنقر فى بلاط السلطان الناصر محمد بن قلاوون، مما يدل على أنه كان يحتل مكانة مرموقة فى هذا البلاط، وقد أتاح تواجده فى بلاط الناصر الفرصة للعمرى للاتصال به والاستماع منه إلى أخبار امبراطور القسطنطينية وشعبها، فهم بنى جنسه، وقدم للعمرى معلومات غاية فى الأهمية عن امبراطور الروم ورعاياه وعاداتهم وأرزاقهم، وموظفى البلاط الامبراطورى، ونظام الإقطاع الحربى، فضلا عن البطريرك وكنيسة آياصوفيا.

ثالثا: اعتمد العمرى على آخرين غير بلبان الجنوى وآقسنقر الرومى دون أن يذكر أسماءهم، فيذكر «وقال لى غيره» أى غير بلبان الجنوى[٢٣]، ويذكر أحيانا اسم شخص نقل عنه إلى جانب اسم بلبان وآقسنقر فيقول: «قال آقسنقر الرومى وبلبان الجنوى وعلى بن بلبان الحلبى، قالوا كلهم، وقال غيرهم»[٢٤]. يتضح من هذه العبارة أن هناك شخص يدعى على بن بلبان الحلبى قد نقل عنه العمرى كذلك، ولكن دون أن يذكر أى شىء يميط اللثام عن هذه الشخصية، على عكس مافعل عند ذكر بلبان الجنوى وآقسنقر. كذلك يتضح من العبارة السابقة أن العمرى لم يقتصر فى أخباره عن مملكة القسطنطينية على هؤلاء الثلاثة بل وعلى غيرهم كذلك، فقد كان هدفه الأول هو تحرى الحقيقة وذلك بكثرة السؤال.

رابعا: نقل العمرى بعض الأخبار المتواترة والشائعة والذائعة على ألسنة الناس بل وعلى ألسنة المتجولين فى الأرض (ولعله يقصد الرحالة) خاصة عند حديثه عن كنوز كنيسة القسطنطينية، وما احتوت عليه من ذخائر وخبايا وكتب جليلة (٢٥).

خامسا: نقل العمرى أيضا عن الطبرى فى كتابه تاريخ الرسل والملوك(٢٦)، فيما يتعلق بعلاقة الامبراطورة البيزنطية ايرين (٧٨٠-٨٠٢م) بالخلافة العباسية فى عهد الخليفة المهدى وابنه هارون الرشيد، ويلاحظ أن العمرى لا ينقل رواية الطبرى حرفيا بل أحيانا يسقط منها عبارات وأحيانا أخرى يضيف إليها عبارات من عنده، وسوف نشير إلى ذلك فى موضعه بجعله بين قوسين ( ). كذلك نقل العمرى ترجمة أبى محمد البطال من ابن عساكر فى كتابه تاريخ دمشق (٢٧)، ولكن بتصريف أيضا مثلما فعل عند النقل من الطبرى.

ولعل العمرى كان يقصد بما نقله عن كل من الطبرى وابن عساكر أن يسطر صفحة مشرقة فى تاريخ العلاقات البيزنطية الإسلامية، يبرز من خلالها ماحققه المسلمون من انتصارات على الروم (البيزنطيين) فى ختام حديثه عن مملكة القسطنطينية.

سادسا: لم يتردد العمرى فى سؤال المتخصصين، فعندما تحدث عن الطين المختوم، وأهميته الطبية، قام بسؤال الأطباء المتخصصين ومن هؤلاء الرئيس أمين الدين سليمان بن داود(٢٨)، بل واستعمل هذا الطين وجرب أنواعه المختلفة وأكد أن أهمها هو ما يشبه المغرا (أى الأحمر منه)، كذلك فعل عند حديثه عن الأرغل، فسأل الضارب به أن يصفه له(٢٩).

وهكذا تعددت المصادر التى اعتمد عليها العمرى فيما أورده من أخبار عن القسطنطينية، فنقل عن العارفين بأمورها من أهلها، وممن قاموا بزيارتها وغيرهم من الثقات، هذا فيما يتعلق بتاريخها الحضارى، أما تاريخها السياسى فقد رجع فيه إلى المؤرخين السابقين أمثال الطبرى وابن عساكر.

أما عن النسخ التى اعتمد عليها التحقيق فهى على النحو التالى:

١- نسخة مكتبة أحمد الثالث، طوبقابو سراى موجودة باستانبول، وتحمل رقم ٢/٢٧٩٧، وهى مصورة، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، السفر الثالث، أصدره فؤاد سزكين بالتعاون مع علاء الدين جوخوشا، ايكهارد نويبارد فى إطار جامعة فرانكفورت - ألمانيا الاتحادية - سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، وتجدر الإشارة إلى أن دار الكتاب المصرية تمتلك نسخا من المخطوط المصور من مكتبة أحمد الثالث هذه، وهى محفوظة بالدار تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة، وهذه النسخة خزائنية، كتبت برسم خزانة السلطان

الملك المؤيد شيخ المحمودى فى أوائل القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، وخطها نسخى حسن، ويقع الجزء الخاص بمملكة القسطنطينية فيها فى ١٤ ورقة من ورقة ١٨٤-١٩٨ من السفر الثالث، ومسطرتها ٢٣ سطرا، وقد اتخذتها أصلا وأشرت إليها بحرف (أ)، وأثبت أرقام صفحاتها بين معقوفتين أو حاصرتين [].

٢- نسخة موجودة بدار الكتب المصرية، تحمل رقم ٨ معارف عامة، ميكروفيلم رقم ٢٠٧٤٣، وهى من القطع الكبير، ويقع الجزء الخاص بمملكة القسطنطينية فيها فى أربع ورقات، من ورقة ٦٣-٦٨، وترقيمها زوجى، ومسطرتها ٢٩ سطرا، وقد أشرت إليها بحرف (ب) وقابلتها بالنسخة الأصل، وأظهرت فى الهوامش الفروق بينهما إن وجدت، ورقمت كل صفحة أ، ب نظرا لأن ترقيمها زوجى.

٣- نسخة مطبوعة تتمثل فيما نقله العمرى عن كل من الطبرى وابن عساكر، واتخذت منها أصلا ثالثا، وقابلتها على النص الذى أورده العمرى، وأبرزت فى الهوامش الفروق بينهما.

٤- النسخة المطبوعة للسفر لثالث تحت عنوان «ممالك الشرق الإسلامى والترك ومصر والشام والحجاز» التى قام بتحقيقها ونشرها الدكتور أحمد عبدالقادر الشاذلى أستاذ الدراسات الشرقية، آداب المنوفية، ونشرها فى أبى ظبى عام ٢٠٠٣م، وأشرت إليها بالحرف (م).

ويعتمد التحقيق على التعريف بالشخصيات والأعلام، التى وردت فى النص والترجمة لها، مع شرح المصطلحات التاريخية، والألفاظ اللغوية، والتعريف بالأماكن والمدن، إلى جانب عقد مقارنة بين ماذكره العمرى عن القسطنطينية وغيره من الجغرافيين والمؤرخين المسلمين وغير المسلمين.

وبعد أرجو أن أكون قد وفقت فى إخراج نص سليم خال من التصحيف فيما يتلق بمملكة القسطنطينية، العاصمة البيزنطية، التى كانت تعيش فى عصر العمرى بداية النهاية، والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم المصير.

النص
مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار
الباب الخامس - الفصل السادس عشر
فى مملكة أرمناك

[١٨٤] قال بلبان الجنوى: أما مملكة القسطنطينية وهى الآن(١) تسمى اصطنبول (٢) وقديما بيزنطانية(٣)، فإنها كرسى مملكة الروم (٤)، ولملوكها التقدم على جميع ملوك عباد الصليب، وفى أهلها الملك القائم القديم، وكانت لهم اليد العليا على بنى المعمودية، وجميع الطوائف العيسوية(٥)، وهى مملكة قيصر(٦)، وبها تخت الإسكندر (٧)، وتداولتها دول الروم من أولاد قسطنطين(٨). وخرجت عليهم خوارج، ثم هبت للفرنج (٩)، بها ريح ملك، واشتغلت لهم بها دؤابة دولة (١٠)، واشتعلت لهم بها نار غلبة، ثم عادت إلى الروم، واستمرت إلى اليوم (١١).

قال: والفرنج تزرى بالروم لخروج ملك الشام عنهم، وتعيرهم بغلبة العرب عليهم، يعنى فى مبدأ الإسلام(١٢)، وتعيبهم بهذا وتوسعهم الملام.

قال: ومع هذا فلا يسع ملوك الفرنج إلا إجلال هذا الملك الرومى(١٣)، وتوفيه حقه من التعظيم.

وعساكره مائتا ألف فارس مديونه(١٤)، ما فيهم إلا صاحب إقطاع(١٥) أو نقد، وأرزاقهم لكل واحد منهم فى السنة مائتا دينار إلى ألف وخمسمائة دينار، وفيهم من يبلغ ألفى دينار، والدينار اثنا عشر درهما(١٦)، وهو درهم ينقص عن البندقى(١٧) بقليل، والدينار ما هو دينار مسمى بل حقيقة دينار مسكوك من ذهب مغشوش، فلهذا نقص ثمنه(١٨)، قال: واسم هذا الدينار بربر(١٩).

وقال: وأما الأمرة(٢٠) عند الروم، فإنها محفوظة فى بيوت قديمة، يتقدم فى أمرة كل (بيت)(٢١) واحد منهم، يتوارثها كابر عن كابر [١٨٥] ويورثها أول لآخر.

قال: ولملك القسطنطينية قدرة ليست لأحد من الملوك النصرانية سواه.
قال: لأنه يركب فى كل يوم إلى الكنيسة العظمى بها(٢٢)، ومعه البطريرك(٢٣)، ويقف على كل باب من أبواب الكنيسة على كثرة أبوابها(٢٤) فرس للملك، وبغلة للبطريرك، وشعار سلطنه كامل بجميع ما يحتاج إليه الملك بما لابد للموكب الملوكى منه، فمن أى باب خرج من أبواب الكنيسة هو والبطريرك ركبا، وسار الملك فى أبهة الملك التمام، وشعار السلطنة(٢٥) الكامل بما كان معدا له على الباب الذى خرج منه دون ما كان معدا على بقية الأبواب، وعلى كل باب منها نظير ما كان على الباب الذى خرج منه الملك، وسار بشعار الملك الكامل.

قال: وللملك ميزة يتميز بها، وهو إنه لا يلبس أحد فى مملكته جميعا خفا أحمر غيره(٢٦).

وزى الروم فى لباسهم من نوع زى الأتراك والمغل من الأقبية التترية(٢٧) والمحضرة، خلا أن الكنابيش(٢٨) على رؤسهم متسع ومرحرح كأنه الطبق، ويشدون فى أوساطهم المناطق(٢٩) والسيوف، ومناطقهم ثقال، وسيوفهم كالسيوف المغربية، أخف من العربيات(٣٠) وعلى أشكالها(٣١). ولباسهم الجوخ، والصوف، والحرير الأطلس والديباج وسائر أنواع الحرير(٣٢).

قال: وللملك داران معروفتان بدار المملكة(٣٣)، الواحدة قديمة من بناء الإسكندر(٣٤)، خارجة فى كبد البحر ذات حارات طوال ودهاليز بعيدة نائية، وفى جانبيها تماثيل نحاس على صورة الإنسان وسائر أنواع الحيوان، وفيها صورة فرس على خيل، وحيوانات، وأشكال أخرى، وكلها أكبر من الحيوانات المعروفة بما يزيد زيادة ظاهرة على الأشكال الطبيعية، وهى فى غاية الصنعة والإحكام بالنقوش العجيبة والتخاطيط الغريبة ولا يعرف هل عملت لظاهر الزينة أو لباطن من الحكمة(٣٥).

وهي دار عظيمة هائلة البناء، بعقود منظمة، وأبنية رفيعة واسعة، رحبة، مفروشة بالرخام الأبيض والمجزع والملون، وضروب من المسن الأخضر [١٨٦]

قال: والملوك لم يسكنوها، منذ عصر، يتشائمون بها. ويقولون إنها مسكونة بمردة الجن، وفساق الشياطين، وأن فيهم من يتراءى على مثال أخيلة لا تطاق.

والدار الأخرى(٣٦) هى التى يسكنها الآن الملوك، وتسكن إليها، وهى على جلالة مكانها، وفخامة قدرها، لا تقارب دار الإسكندر، ولا تدانيها فى الإمكان والتشييد، ورونق التأنيق والتنميق.

قال: ولقد كانت ملوك القسطنطينية تراقب ملوك القبجاق(٣٧)، وتؤدى إليهم القطيعة حتى تزوج هذا السلطان أزبك(٣٨) خان منهم، فأمنهم، ووضع عنهم أثقال تلك القطيعة، وأصر تلك الإتاوة(٣٩)، وناموا الآن فى مهاد الأمن، ورفعت عنهم غمم التكليف.

وقال لى غيره(٤٠)، وقد سألته عن عدد جيوش الروم، فقال: هم عدد بلا نفع، وقلت: وهذا هو المشهور عندهم، فى كل زمان ومكان، والمأثور عنهم أنهم وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشىء شىء، وإن كانوا ما نهان(٤١)، أقوى اعتدادهم للخمر والخمير، وأوفى حنينهم الديباج والحرير، ما فيهم ضارب إلا بجنك(٤٢) أو عود(٤٣)، ولا طاعن إلا بين أعكان ونهود، ولا يشربون دما إلا من فم ابريق جريح، ولا يرون قتيلا إلا [من](٤٤) شخص زق طريح، ولا لهم وقائع

إلا فى ملبقات(٤٥) الصحاف، ولا مواقع إلا بين فراش ولحاف، ولا يعرفون البيض إلا [كل](٤٦) بيض الدمى(٤٧)، ولا السمر إلا كل سمراء الدمى، ولا العجاج(٤٨) إلا من دخان عنبر، ولا أثر السيوف إلا فى ثغر شنيب(٤٩)، كأنه عقد جوهر، ولا مقام إلا فى مجلس راج، ولا اهتمام إلا بمجلس أفراح، ولا التماس إلا لغبوق أو اصطباح (٥٠)، ولا اقتباس إلا مما تتوقد ناره فى كأس أو يقتدح من أقداح، مامنهم راكب جواد إلا للذة، ولا صاحب جهاد إلا فى فرصة مستلذة، ولا عوال تلعلع اسنتها غير السمع ولا عويل إلا مما يتحير فى ملاقى العين من الدمع.

قال بلبان: وطوائف الروم لا معرفة لهم بامتطاء البحر، ولا عادة بركوب السفن(٥١)، وأبعد سيارتهم فيه إلى مواضع النزهة، وإنما هم أصحاب خيل، ولاتعد خيالهم من جياد الخيل، وإنما يجلب إليهم كرائمها [١٨٧] من بلاد الأتراك من قاطع الخليج، وإنما [هم](٥٢) بغال تباع بغال، ولهم تجمل دبر فى الملابس والمراكب (٥٣) والفروش. وفى أهلها الجمال البديع، والكمال التام، وفى المثل وجوه الترك، وأجسام الروم، وظرف العرب.

قال: أما منابت القسطنطينية فكلها أرض جيدة صالحة للزروع والثمار، ولها نهر متوسط المقدار(٥٤)، عليه مساقى زرع وأشجار، والأرزاق بها كثيرة الوجود(٥٥).

والرطل القسطنطينى(٥٦) نظير الرطل المصرى(٥٧)، وكيل الطعام بها المسمى مدنى(٥٨) هو: حمل جمل يكون اردبين ونصف بالمصرى، وبه تباع الغلال الكثيرة، فأما القليل منها فيباع بالرطل.

قال: وهذا الملك لا يفارق مجلسه الطرب، ويضرب له بالآلة المعروفة الأرغل(٥٩)، وهى ذات وضع عجيب، وألحان غريبة، مطربة، تأخذ بمجامع القلب.

قلت: وقد رأيت هذا الأرغل بدمشق ثم بالقاهرة، فقلت هذا للضارب به، فقال لى: هذا أرغل صغير يفكك ويحمل، وما معه أصوات تسير له الضرب، والذى يضرب به لملوك الروم، والبحر كبير مستقر فى مكان لا يزايله، وله عدة من أصحاب الأنغام المطربة تسير له، وله بذلك رونق لا يكون فى مثل هذا، وصورة الأرغل خشب مركب وله بكر نحاس، وأوتار شريط نحاس، ونحر بمثل كور الصائغ، ونغمة شبيه بالآلة التى تسمى القانون(٦٠)، ثم نعود إلى تتمة الحديث.

قال بلبان: والملك لا يمد الطعام إلا بين سماطين من المغانى وأصحاب الملاهى.

وحدثنى آقسنقر الرومى(٦١) أحد أمراء العشرات بالأبواب السلطانية وهو من بعض بيوت العشرة الإمرة القديمة بالقسطنطينية، وكان قد حضر من جملة الرسل إلى الأبواب العالية، وأسلم وشمله التشريف والإنعام الشريف والإقامة فى الخدمة السعيدة السلطانية، بمثل هذه الأحوال، وسمعته يبالغ فى تعظيم شأن ملوكهم، ويصفهم بحسن الموافاة، والمراعاة لمصالح [١٨٨] أولياء دولتهم ورعاياهم.

قال: إن عادتهم جارية بأنه إذا من مات من أمراء الروم، جرى على أكبر أولاده ما كان يجرى على أبيه، فإذا لم يكن له ولد كان على أكبر أهله، فإن انقرض تصرف الملك فيه برأيه، فإن ترك الميت أولادا لا يقوم بهم ما كان لأبيهم، ولا يكفيهم إذا توزع عليهم ،جرى على الأماثل ما كان لأبيهم، ونظر فى حال البقية.

قال: وعادة هؤلاء الملوك أن لا يعطى ولد أمير رزقا من جهتهم، ما دام أبوه حيا يرزق، بل ارتزاقه مما لأبيه، وأن أراد الملك أن يعطيه شيئا أعطى لأبيه مقدار ما يريد أن يجعله لابنه، ثم أمره أن يجريه هو على ولده، من جهته لا من جهة الملك.

قال: وهم أهل عدل، فلا يظلم أحد منهم، ولا يستحسن الظلم، ولا يفسح فيه، ولا يتطلع إلى شىء مما فى أيدى الناس من أرباب دولته ورعايا مملكته، ولا يعرف هذا عندهم.

قال: وجميع من هو فى خدمة ملوك الروم لا حجر عليهم، ولا تضييق فى الإكرام بحضور خدمة مرتبة، ولا أخذ دستور فى أمر من الأمور، فخلى بين نفسه وما يريد فى الركوب والنزول، والسفر إلى الصيد والتنزه، وإلى جهات أملاكهم وإقطاعاتهم، بل هو فى ذلك كله مع رأيه، يُسافر متى أراد، إلى [أى](٦٢) جهة أراد، ويغيب ما يقدر له أنْ يغيب بغير إذن الملك، ولا أحد ممن ينوب عنه، وفيهم من يغيب السنة فما فوقها، ولا يقال له لم سافرت، ولا كيف أبطأت، ولا لأى شىء انقطعت عن الخدمة، ولا يعتب، ولا ينكر عليه، ولا للملك تشديد عليهم فى أمر، إلا فى الالزام بالتوجيه إلى حرب أو المؤاخذة بحق.

قال: وأما أهل مملكة الملك فهم منه فى أرغد عيش، ولا يقوض له بناء ولا يكف له إناء.

قالوا كلهم: والبطريرك هو الحاكم على الملك، لأنه لا معول إلا على رأيه، ولا يفصل حكم إلا بقضائه، وله رزق عظيم يعدل معدله دخل إقليم، وإليه أمر الكنيسة العظمى، وسائر الكنائس والديارات [١٨٩] ويحصل لها فى كل سنة أموالا جمة طائلة، من الوقوف والنذور والقربانات والتحف، ومهاداة الملوك والكنود(٦٣) والتجار.

وفيما يزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعها وقف على الكنيسة العظمى، التى لهم، المسماة بالأوصفية(٦٤) وبلاد مقدونية هى الإسكندرية، وما هو مضاف إليها(٦٥)، وكان ذلك فى قديم الزمان، مصر كلها بأسرها إلا الصعيد الأعلى، وعلى هذا جاء الفتوح فى صدر الإسلام.

قلت: والروم تبالغ فى تعظيم هذه الكنيسة، وتعتقد كرامتها، وينقل فى التواريخ أن بها كان اجتماع قسطنطين على التدين بدين النصرانية، وأن عقد الاتفاق كان على المذبح بها(٦٦)، وفيها [على](٦٧) مايقول صليب الصلبوت(٦٨) وعصا موسى، وزنار مريم، ومسح المسيح، ومما يقال إنه صار إليهم من طليطلة(٦٩).

وفى زمن الملك الناصر صلاح الدين، قدس الله روحه، جاءت إليه رسل الفرنج(٧٠) تسأله فى إرسال صليب الصلبوت إليها، وزعموا إنه كان صار إلى خزائن العبيديين(٧١)، واتصل إليه، ثم إن صلاح الدين ظفر فى بعض حروبه بالرجل الذى كان حضر فى طلب الصليب، فأمر به فصلب.

وكتب القاضى الفاضل رحمه الله كتابا ذكر هذا فيه. فقال: وحصل الظفر بمن كان تقدم حضوره فى طلب صليب الصلبوت، وأطلقه فى ذلك الوقت، وعلم أنه لا يفوت، فلما ظفر به الآن، أمر به أن يصلب، وجعله مثلة، وسمره على الصليب الخشب، وجعله مثله مثله، هذا ما ذكره فى هذا المعنى.

وأما الشائع الذائع على ألسنة الناس، وكلام المتجولين فى الأرض، وطلبة الكنوز والخبايا، فهو أن علم الكنوز فى كنيسة القسطنطينية [قالوا: إن هذه الأعلام كانت بطليطلة](٧٢) ثم صارت إلى القسطنطينية، ومنهم من يقول: أن الروم لما خلت عن الشام وبلاد القبط(٧٣)، اكتنزت كثيرا من أموالها فى مواضع كانت تعدها لذلك، وكتبت بها كتبا بإعلام مواضعها، وطرق الوصول إليها، وأودعت تلك الكتب مكانا فى كنيسة القسطنطينية، وإن منها تستفاد معرفتها، ومنهم من زعم [١٩٠] أن سكان الشام من الروم لم يكنزوا وإنما ظفروا بكتب بمعالم كنوز من (٧٤) كان قبلهم من اليونان والصابئة والكلدانيين(٧٥)، ومن تقدمهم من الأمم الأول، فلما غلبوا على الشام استصحبوا تلك المعالم، فأودعوها الكنيسة.

[ويقال](٧٦) إنه لا يصل إليها إلا من خدم الكنيسة مدة معلومة عندهم، فإذا انقضت، أعطى ورقة واحدة بخطه ونصيبه فيما يدل عليه.

ولهم فى هذا ومثله حكايات وأسمار، ماهذا موضعها، ولا مكان الاشتغال بها، وإشغال الكتاب بجنسها، وأنا لا أصدقها، ولا أكذبها، وإنما ذكرت منها هذا هنا على سبيل الحكاية والتندير، إذ كان هذا مما يدور ذكره فى حديث الناس، إذا ذكروا هذه الكنيسة، وهو مما لا يستبعد إما كله، وإما شىء منه لدخوله فى حيز الإمكان، ولأنه ما يخلو من فواضل أهل كل زمان.

وهؤلاء العرب تكنز أموالها في قدور بسلاسل طوال تدفنها في مواضع متغلغلة في البر، وتعلمها بأعلام لا تتغير من الجبال والربى، وما أشبه ذلك.

فأما ما لا شك فيه، فهو أن في القسطنطينية كتبا جليلة من كتب حذاق الحكماء والفلاسفة القدماء ما لا خرج عن دار قومه، ولا وصل إلى فلاسفة الإسلام منه شيء لضنانة بطاركتهم وقسوسهم(٧٧) به، ومحافظة خزانه على خزنه وحفظه.

ويقال أن فيها دقائق الموسيقى، مما لو عمل به أهل هذا الشأن والقوه على أصحاب الأصوات المطاوعة لاستغنوا به في معالجتهم به عن العقاقير، حتى يقال أن فيها ما يلين القاسي، ويقاد الصعب، ويضحك، ويبكي، وينوم، ويدعى أصحاب علم الكيمياء أن فيها كتبا جليلة فيها العلم الصحيح بأسهل الطرق، وأقربها إلى الوصول، وتدعى أنه مما تلقى عن موسى صلوات الله عليه.

(قال)(٧٨) ويقال أن فيها أثرا من علوم الخضر(٧٩)، والإسكندر ذي القرنين(٨٠)، تفتح به المغالق، وتسلم المعاقل، وتملك النواصي، وتهزم الأعداء، فإذا حوجج أحد ممن يقول هذا القول، وحوقق، وقيل له [١٩١] أنتم تلوون ضلوعكم على الداء [الدافين](٨١) غيظا على أخذ الشام منكم، فهلا أخذتم بتلك الآثار، وبلغتم المراد، وكفيتم آلمهم، ابلسوا وسكتوا، ولم تكن لهم حجة إلا أن يقولوا مابقى من يعرفها، أو ذهب زمانها أو نريد طوالع، أو باد من كان يعلمها، أو ما ثمة من هو مشتغل بها.

وأما الذي هو الآن عندهم ظاهر من بقايا ذخائر العلماء والحكماء، فهو الطين المختوم(٨٢)، ورأيت أطباء الزمان، ومنهم بالديار المصرية رؤساء أفاضل، وعلماء لا تقصر عن درجات الأوائل، مافيهم من يثبته على التحقيق، لكنها تستحسنه وتقول: هو طين مليح، يحصل به القصد، ويتوقف، ولا يجزم بأنه هو الطين المختوم، ويقول: الطين المختوم طين عمل، وطبع وختم على عهد جالينوس(٨٣).

ويقال(٨٤): كانت امرأة في جزيرة في البحر، تجلس على هيكل على قرارة أو بركة يأتيها السيل، فتذبح هناك التيوس على سبيل القربان، في وقت معلوم من السنة، ويؤخذ من التراب مما جف عنه السيل، وجمد عليه الدم، أو قالوا: إنه [يجبل](٨٥) بالدم في طالع مخصوص، ويقرص أقراصا، ويطبع بطابع متخذ لها، ومنهم من يقول: أن فعله إنما هو لخاصية تلك البقعة، ومنهم من يقول: للطالع المخصوص، ومنهم من يقول: بل لشيء أفيض عليه في الهيئة الاجتماعية.

وهذا الطين المختوم المجلوب الآن هو على نوعين: [نوع](٨٦) أبيض، ونوع أحمر، فأما الأبيض فمنه أغبر، ومنهم شديد البياض، وأما الأحمر فمنه وردى، ومنه يشوبه سواد كأنه لون المغرا(٨٧) وطوابعه مختلفة، وهذا الاختلاف مما أوقف الأطباء عن الجزم به، إنه هو هو، ولأنهم (٨٨) لم يجدوا فيه كل ما ذكرت القدماء فى أوصافه.

وقال لى الرئيس أمين الدين سليمان بن داود(٨٩) المتطبب رحمه الله وقد رأيته منه: هذا ما هو الطين المختوم، والطين المختوم عمل على عهد جالينوس، وكان مقدارا ليس بالكثير، ثم لم يعمل بعده، وغطى البحر على تلك الجزيرة، والناس منذ عمل تستعمل منه، ولهذا زمان طويل، ولو كان [١٩٢] بقدر ما عمل أضعافاً مضاعفة، لكان قد فرغ، وإنما هو شئ يشبهه(٩٠)، وليس به، وأكثر ما يحمل الأطباء من هذا الطين المشتبه بلون المغرا، ثم الوردى، فأما الأبيض فما رأيت أحداً منهم يقدمه إذا رآه فى وصف، ولا يعبأ به.

فأما جلابته من القسطنطينيه فتذكره، وتصف صفاته الروم، والذى جربت منه، فحمدت من أنواعه(٩١) هو المشبه بالمغرا، وقد ذكرت بهذا المحل الفائدة(٩٢)، ثم نعود إلى الكلام عن القسطنطينية.

قال آقسنقر الرومي وبلبان الجنوي وعلي بن بلبان الحلبي، قالوا كلهم، وقال غيرهم: إن القسطنطينية علي جزء من البحر، يدخل منه ماء إلي الميناء في جانب القسطنطينية ويدخل سورها (٩٣) والتجار والسفارة من سائر الأقطار من المسلمين والنصارى وغيرهم يأتى إليها وينزل بها، ويبيع ويشترى، فيها، ولا حرج عليهم، ولا تضييق(٩٤).

والمسلمون فيها على جانب إعزاز وإكرام، فيها سكان من المسلمين، يسكنونها إلى اليوم، لا يمسهم، ولله الحمد، ذل ولا هوان، ولهم مساجد(٩٥)، وأئمة تصلى بهم الجماعة، فتظاهر فيها بشعائر الإسلام. وللملك اهتمام بكف الأذية عنهم، وإذا شكى المسلم إليه على أحد من النصارى، ولو إنه من عظماء البطارقة(٩٦) اشكاه، وانصفه منه، ولا اضطهاد، ولا ضيم فى جميع مملكة هذا الملك عليهم، ولو تغيرت الملوك، واختلفت الاحوال، لا يقدر الملك على تغير حاله فى هذا، ولا مخالفة لمن تقدمه فيه، لأنها عادة تدين بها ملوكهم، وسارت بها فى ملوك النصرانية سيرهم، فلو عدل ملك عنها، لمنعه البطريرك، ووآخذه به، وآخذه بالرجوع إلى عادة أسلافه، واشتد فى منعه، فإن رجع، وإلا كان السبب لتحريمه، فإن رجع [وإلا](٩٧) كان السبب لخلعه.

والروم أسخى من جميع الطوائف النصرانية، واسمك فى الكرماء نفوساً، وأمسك ناموساً، ومع هذا فما فيهم من يدانى العرب فى كرم، ولا يقاربهم فى جود، والشح غريزة فى طباع النصارى، لا ينفق إلا فيما [١٩٣] يتنعم به،

فينفقه فى اللهو والطرب، والنخوة فيهم قليلة. وهذه جملة ما ذكروه من أخبارهم، وفهم من كلامهم.

ومما أقوله أن أول دليل على عظم القسطنطينية، وما لها من الحدود غزوة هارون الرشيد إياها سنة خمس وستين ومائة، كان أبوه المهدى قد وجهه إليها، وهو إذ ذاك ولى عهد أبيه المهدى، فخرج يوم السبت لأحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة غازياً إلى بلاد الروم، وضم إليه المهدى الربيع مولاه، فتوغل هارون الرشيد فى بلاد الروم، فأفتتح ماجدة(٩٨) ولقيته خيول [نقيطاً](٩٩) قومس القوامسة، فبارزه يزيد بن مزيد، فأرجل يزيد، ثم سقط نقيطاً، فضربه يزيد حتى اثخنه، وانهزمت الروم، وغلب يزيد على [عسكرهم](١٠٠).

وسار هارون بمن معه فى مائة ألف من المرتزقة، وتبعهم مثلهم من المطوعة، وحملوا لهم من العين مائة ألف ألف دينار، وثلاثة وسبعين ألف ألف، وأربعمائة وخمسين دينارا، ومن الورق(١٠١) مائة ألف ألف واحدى وعشرين ألف ألف، وأربعة عشر ألف وثمانمائة درهم.

وسار هارون الرشيد حتى قطع خليج القسطنطينية(١٠٢) وصاحب الروم يومئذ [أغسطه امرأة اليون](١٠٣) وذلك أن ابنها كان صغيرا، وقد هلك أبوه(١٠٤) وهو فى حجرها، فجرت بينها وبين الرشيد السفراء فى طلب الصلح والموادعة، وإعطاء الفدية، فقبل ذلك منها هارون الرشيد، وشرط عليها الوفاء بما أعطت، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق فى طريقه(١٠٥) وذلك أنه دخل مدخلا ضيقا مخوفا على المسلمين.

قال أبو جعفر الطبرى: سار هارون فى خمسة وتسعين ألفا وسبعمائة وثلاثة وسبعين رجلا من المرتزقة سوى المطوعة، ثم ذكر مثل هذا، وقال: إنه جرت بينها وبين هارون الرسل والسفراء فى طلب الصلح، فشرط عليها الوفاء، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق فى طريقه، فأجابته [إلى ماسأل](١٠٦)، والذى وقع عليه الصلح بينه وبينها [تسعون أو](١٠٧) سبعون ألف دينار، تؤديها فى نيسان الأول(١٠٨) [١٩٤] فى كل سنة، [ومثله](١٠٩) فى حزيزان(١١٠)، وقبل ذلك منها، وأقامت [له](١١١) الأسواق فى منصرفه، ووجهت معه [رسلا](١١٢) إلى المهدى بما [بعثت له وبما](١١٣) بذلت، على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعرض، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين [وسلمت الأسارى](١١٤).

وكان الذى أفاء الله على هارون إلى أن اذعنت له الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعون رأسا، وعشرون ألف دابة من الدواب الذلل، وذبح من [البقر](١١٥) والغنم و[المعز](١١٦) مائة ألف رأس، وقتل من

الروم فى الوقائع أربعة وخمسون ألفا، وقتل من الأسارى جبرا ألفان وتسعون أسيرا، وبيع البزدون بدرهم، والبغل بأقل من عشرة دراهم، والدرع بأقل من درهم، وعشرون سيفا بدرهم.

فقال مروان بن أبى حفصة(١١٧) يمدح الرشيد:

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا
إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى اتتك ملوكها
بجزيتها والحرب تغلى قدورها(١١٨)
وجزت إليهم مالح البحر لم تبل به
ووفود الموج دان سيرها
وأخرجت منها خزائن قيصر ألوف
قناطير عظيم يسيرها
فبورك هارون الندى ابن محمد
ودام على الأعداء منه مسيرها
لقد جرد المهدى منه مهندا
يعض به يوم اللقاء صدروها
على سمته سر النبوة لائح ومن
وجهه الوضاح أشرق نورها
لقد أصلح الرحمن أمة أحمد
لمسعاها حتى استقامت أمورها
أئمة عدل حيث حلت بلادها
وكل سرير للملوك سريرها

وقد ذكر الطبرى هذه الواقعة[١١٩] فى أحداث هذه السنة(١٢٠) بهذه المقاصد.

وقد الحقت هذا الفصل بشيء مما ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخه[١٢١] فى ترجمة أبى محمد البطال[١٢٢].

قال عبدالله بن يحيى الانطاكى كان ينزل انطاكية.

قال: وكان ممن خرج مع مسلمة بن عبدالملك بن مروان إلى بلاد الروم، قال: لما أراد عبدالملك [بن مروان بن الحكم][١٢٣] أن يوجه مسلمة [ابنه][١٢٤] إلى بلاد الروم قال: قد أمرت [١٩٥] عليكم مسلمة بن عبدالملك، قال: وولى على رؤساء أهل الجزيرة والشام البطال، [وأقبل على مسلمة فقال: سير على طلائعك البطال][١٢٥]، وأمره فليعس بالليل العسكر، فإنه ثقة، أمين، شجاع، مقدام، فخرج مسلمة، وخرج عبدالملك [يشيعه][١٢٦] [حتى بلغ][١٢٧] إلى باب دمشق.

وذكر الحافظ بسنده عن الوليد بن مسلمة قال: حدثنى بعض شيوخنا أن مسلمة بن عبدالملك عقد للبطال على عشرة آلاف من المسلمين، فجعلهم سيارة ما بين عسكر المسلمين وما يليهم من حصون الروم، ومن يتخوفون اعتراضه فى سير المسلمين وعلافاتهم، ويخرج المسلمون يتعلفون فيما بينهم وبين العسكر، فيصبون ويخطئون، فيأمن بهم العساكر، [تلك العلافات](١٢٨).

وقال الوليد بن مسلم: حدثنى أبو مروان الأنطاكى عن البطال أنه قال: سألنى بعض ولاة بنى أمية عن أعجب ما كان من أمرى فيهم، فقلت: خرجت فى سرية ليلا [وخرجنا](١٢٩) إلى قرية، وقلت لأصحابى: أرخوا لجم خيولكم، ولا تحركوا أحد بقتل، ولا سبى حتى [تشحنوا القرية](١٣٠)، فإنهم فى نومة. قال: ففعلوا، وافترقوا فى أزقتها، ودفعت فى ناس من أصحابى إلى بيت يزهر سراجه، وامرأة تسكت ابنها من بكائه وهى تقول: لتسكتن، أو لادفعنك إلى البطال [يذهب بك](١٣١)، ثم انتشلته من سريره وقالت: أمسك يابطال، فأخذته.

وقال الوليد حدثنى أبو مروان(١٣٢) إنه سمعه يحدث، قال: خرجت ذات يوم متوحدا على فرسى، لاصيب غفلة متسمطا(١٣٣) مخلاة، فيها عليق فرسى، ومنديل فيه خبز، وشواء، فبينما أنا أسير، إذ مررت ببستان فيه بقل طيب، فنزلت، فعلقت على فرسى، وأصبت من ذلك الشواء ببقل البستان، إذ اسهلنى بطنى، فاختلفت [مرارا](١٣٤) متواريا، فاشفقت من دوامه، [وضعفى عن الركوب](١٣٥)، فبادرت وركبت، ولزمت طريقا، واستفرغنى على سرجى كراهية أن أنزل، فأضعف عن الركوب حتى لزمت عنق فرسى، خوفا أن أسقط عنه(١٣٦)، وذهب بى ولا أدرى أين يذهب بى، إذ سمعت وقع حوافره على بلاط، ففتحت [١٩٦] عينى فإذا دير، فوقف بى فى وسط الدير، وإذا نسوة يتطلعن من أبواب الدير، فلما رأين حالى، وضعفى عن النزول فأتتنى جارية صاحية منهن، حتى وقفت على ونظرت فى جهى، ورطنت لهن، فنزعن ثيابى، وغسلن ما بى، ودعت بثياب فالبستنيها، وترياق أو دواء، فشربته، ثم أمرت بى، فجعلت على سرير لها ودثار، وأمرت بطعام فهىء لى، فأتت به.

وأقمت يومى وتلك الليلة [مسبوتا](١٣٧) لا أدرى ما أنا فيه، ومكثت يومين وليلتين حتى ذهب عنى السبات، وأنا ضعيف عن الركوب فلما كان اليوم الثالث جاءها من يخبرها أن فلانا البطريق قد أقبل فى موكبه، فأمرت بفرسى، فغيب، وأغلق علىَّ باب بيتى الذى أنا فيه، ثم أنزلت البطريق [منزلا، واحتفت به وبأصحابه] (١٣٨)، وكان قد جاء خطابا لها، فبينما هو على ذلك [الحالة](١٣٩) إذ جاءه من يخبره عن موضع فرسى، وإغلاقهم على، فهم أن يهجم على، فأقسمت إن هو تعرضنى لا نال حاجته، فأمسك وأقام قائلة ذلك

اليوم، ثم تروح، وخرجت فدعوت بفرسى، فخرجت إلى فقالت: إنى لا آمن أن يكمن لك، دعه يذهب، فأبيت عليها، وركبت فقفوت آثره حتى لحقته وشددت عليه فانفرج عنه أصحابه فقتلته، وطلبت أصحابه، فهربوا عني، وأخذت فرسه، وسمطت رأسه، ورجعت إلي الدير، فالقيت الرأس، ودعوتها ومن معها من نسائها، وخدمها، فوقفت بين يدى، وأمرتها بالرحلة ومن معها على دواب الدير، وسرت بهن إلى العسكر، حتى دفعت بهن إلى الوالى، فجعل نفلى منهن، فتنفلت المرأة بعينها، وسلمت سائر الغنيمة فى المقسم، واتخذتها فهى [أم بنى](١٤٠).

قال أبو مروان، وكان أبوها بطريقا من بطارقة الروم، له شرف، يهاديه ويكارمه ويكاتبه.

وقال الوليد: سمعت عبدالله بن راشد الخزاعى يخبر عمن سمعه من البطال، يخبر أن هشاما أو غيره من خلفاء بنى أمية كان قد [١٩٧] استعمله على ثغر المصيصة (١٤١) وما يليها، وإنه راث(١٤٢) عليه خبر الروم، فوجه سرية لتأتيه بالخبر [عن غير أذن من الوالى، قال البطال:](١٤٣) فتوجهوا، وأجلتهم أجلا، فاستوعبوا الأجل(١٤٤).

قال: فاشفقت من مصيبتهم، ولائمة الخليفة [وضعف أميرهم](١٤٥) فخرجت متوحدا حتى أوغلت فى الناحية، التى أمرتهم بها، فلم أجد لهم خبرا، فعرفت أنهم أخبروا بغفلة أهل الناحية الأخرى، فتوجهوا إليها، وكرهت أن أرجع، ولم استنقذهم مما هم فيه، وإن كان عدو يكاثرهم، وأعرف من خبرهم ما أسكن إليه، لم أجد أحدا يخبرنى بشىء، فمضيت حتى أقف على باب عمورية(١٤٦) فضربت بابها وقلت للبواب: أفتح لفلان - سياف الملك(١٤٧) ورسوله - وكنت أشبه به، فاعلم ذلك، صاحب عمورية، فأمره بفتح الباب، ففعل، وأدخلنى، فلما صرت إلى بلاطها وقفت وأمرت من يشتد بين يدى إلى باب بطريقها ففعل، ووافيت باب البطريق قد فتح وجلس لى، ونزلت عن فرسى، وأنا متلثم بعمامتى، فأذن لى، ومضيت حتى [جلست إلى جانبه](١٤٨)، فرحب بى، فقلت له: أخرج من هنا لكلام حملت إليك، فأخرجهم، وغلق الباب(١٤٩)، وعاد إلى مجلسه فاخترطت سيفى، وضربت [به](١٥٠) على رأسه، ثم قلت له: قد وقعت بهذا الموضع، فاعطنى عهدا حتى أكلمك بما أريد، ثم ارجع من حيث جئت، ولا يتبعنى منك خلاف، ففعل.

فقلت: أنا البطال، فأصدقنى عما أسألك عنه، وانصحنى وإلا [اتيت](١٥١) عليك، فقال: سل عما بدا لك، فقلت: السرية! فقال: نعم وافت البلاد غارة لا تدفع أهلها يد لامس، فوغلوا فى البلاد، وملأوا أيديهم غنائم، وهذا آخر خبر جاءنى، إنهم بوادى كذا [كذا وقد صدقتك، وليس عندى من خبرهم غير

هذا][١٥٢]، فغمدت سيفى، وقلت: ادع لى بطعام، فدعا، فأصبت منه، ثم قمت، فقال لمن حوله: كونوا معه حتى يخرج، ففعلوا، ثم قصدت السرية حتى أتيتها[١٥٣]، وخرجت بها وبما غنمت، فهذا من أعجب ما كان منى.

ثم قتل رحمه الله شهيدا فى غزاة غزاها، وقتل معه خلق كثير من المسلمين[١٥٤]، وفيها يقول الشاعر[١٩٨]:

ألم يبلغك من أنباء جيش
بأقرن غودروا جثثا رماما
تقودهم حتوف لم يطيقوا
لها دفعا هناك ولا خصاما
معارك لم تقم فيها بشجو
نوائح يلتدمن به التداما[١٥٥]
ولم تهمل على البطال عين
هناك بعبرة تشفى الهياما[١٥٦]
عشية باشر الأهوال صبرا
بخيل تخرق الجيش اللهاما[١٥٧]
إذا ما خيله حملت عليهم
تداعوا من مخافته انهزاما
فلا تبعد هنالك من شهيد
فإنك [كنت][١٥٨] للهيجا حساما[١٥٩]

الهوامش

أولا هوامش المقدمة

(١) الصفدى، الوافى بالوفيات، ج٨، باعتناء محمد يوسف نجم، فيسبادن ١٩٨٢م، ص٢٥٢– ٢٧٨؛ ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات، المجلد الأول، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٣م، ص١٥٧–١٦٠؛ ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، ١٩٦٦م، ج١، ص٣٥٢–٣٥٤؛ ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ج٢، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٢٦١–٢٦٦؛ الحنبلى، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، بيروت، بدون تاريخ، ج٦، ص١٦٠.

(٢) كراتشوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، ق١، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٤١٠–٤١٥؛ محمد عبدالله عنان، مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى، القاهرة ١٩٦٩م، ص٦٨–٧٥؛ ابن فضل الله العمرى، «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» القسم الخاص بمملكة اليمن، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٧٢م، ص١٥–٢٩، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨٥م، ص٣٠–٣٦؛ العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين بيروت، ١٩٨٨م، ص٣–٩؛ العمرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، السفر الثالث (ممالك الشرق الإسلامى والترك ومصر والشام والحجاز)، تحقيق محمد عبدالقادر الشاذلى، أبو ظبى، ٢٠٠٣م، مقدمة التحقيق، ص٥–١٣؛ حسن محمد عبدالله النابوده، «شهاب الدين ابن فضل الله العمرى (٧٤٩هـ – ١٣٤٩م) دراسة تحليلية للجزء الرابع والعشرين فى مسالك الأبصار «بحث منشور فى مجلة وقائع تاريخية، يصدرها مركز البحوث والدراسات التاريخية، آداب القاهرة، عدد يوليو ٢٠٠٤م، ص٥–١٥؛ عبدالرحمن أمين صادق، القاضى شهاب الدين العمرى، طنطا ١٩٩٤م.

(٣) ذكر الحافظ الذهبى أن مولده سنة سبع وتسعين وستمائة، وقد أورد ذلك ابن تغرى بردى فى ترجمته له فى المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ج٢، تحقيق محمد محمد أمين، ص٢٦٢، إلا أنه يميل إلى التاريخ المثبت فى المتن. انظر أيضا: عبدالرحمن أمين صادق، القاضى شهاب الدين العمرى، ص١٥–١٦.

(٤) الصفدى، الوافى، ج٨، ص٢٥٤–٢٥٥؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٥٢؛ ابن تغرى بردى، المنهل، ج٢، ص٢٦٢–٢٦٤؛ كراتشوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى، ق١، ص٤١٠؛ عبدالرحمن أمين، القاضى شهاب الدين العمرى، ص٤٣–٤٧.

(٥) هو عبدالرحيم البيسانى رئيس ديوان الإنشاء للناصر صلاح الدين الأيوبى ووزيره كذلك. ولمزيد من التفاصيل انظر: سوسن محمد نصر، القاضى الفاضل وصلاح الدين والوحدة الإسلامية، القاهرة ١٩٩٠م.

(٦) الوافى بالوفيات، ج٨، ص٢٥٣.

(٧) الصفدى، الوافى، ج٨، ص٢٥٤؛ ابن حجر، الدرر، ج١، ص٣٥٣–٣٥٤؛ ابن تغرى بردى، المنهل، ج٢، ص٢٦٤–٢٦٥؛ كراتشوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى، ق١، ص٤١٠؛ عبدالرحمن أمين، القاضى شهاب الدين العمرى، ص٧١–٧٦.

(٨) الوافى، ج٨، ص٢٥٥؛ وانظر أيضا الكتبى، فوات الوفيات، ج١، ص١٦٠.

(٩) المنهل الصافى، ج٢، ص٢٦٥.
(١٠) عن مصنفات العمرى، انظر: الصفدى، الوافى، ج٨، ص٢٥٥؛ الكتبى، فوات الوفيات، ج١، ص١٦٠؛ ابن حجر العسقلانى، الدرر، ج١، ص٣٥٤؛ ابن تغرى بردى، المنهل، ج٢، ص٢٦٥؛ النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٣٤-٢٣٥؛ العمرى، مسالك الأبصار، ممالك مصر والشام والحجاز، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ص٣٣-٣٦؛ العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ص٧-٨؛ العمرى، مسالك الأبصار، ممالك الشرق، تحقيق أحمد عبدالقادر الشاذلى، ص٧-٨؛ عبدالرحمن أمين صادق، القاضى شهاب الدين العمرى، ص٦٢.
(١١) نشره أحمد عبدالقادر الشاذلى تحت عنوان «ممالك الشرق الإسلامى والترك ومصر والشام والحجاز»، جامعة الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبى، ٢٠٠٣م.
(١٢) انظر النص فيما يلى:
(١٣) العمرى، مسالك الأبصار، ممالك مصر والشام والحجاز، تحقيق أيمن فؤاد سيد، ص١٢.
(١٤) كراتشوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى، ق١، ص٤١٣؛ العمرى، مسالك، تحقيق أمين فؤاد، ص١٢؛ العمرى، مسالك الأبصار، ممالك الشرق الإسلامى، تحقيق أحمد عبدالقادر الشاذلى، المقدمة، ص١٠-١١.
(١٥) انظر ترجمته فى ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج٣، تحقيق نبيل عبدالعزيز، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٤٣٠-٤٣١، ترجمة ٧٠٥.
(١٦) ابن تغرى بردى، المنهل، ج٣، ص٤٣١.
(١٧) كراتشوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى، ق١، ص٤١٤؛ محمد عبدالله عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، مكتبة الأسرة، ١٩٩٨م، ص١٦٥.
(١٨) أنظر مايلى فى التحقيق ص
(١٩) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ج١، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٤٢١، ترجمة رقم ١٠١٣.
(٢٠) وظيفة أمير آخور من الوظائف العسكرية، ومهمته خطيرة فى السلم والحرب، فعليه أن يكون متأهبا دائما لسفر السلطان أو انتقاله فى ليل أو نهار، وأن يعد موكبه حسب ما جرت العادة، وعليه توفير الخيول والجمال للبلاط السلطانى مع تجهيزها وأعلافها، ويقوم بتسمينها، كما أن عليه أن يعنى بقماش الاصطبلات السلطانية كذلك، لمزيد من التفاصيل، انظر: خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٤؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨؛ العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٣٧-١٣٩؛ محمد محمد أمين، «آخور» مقال منشور بموسوعة تاريخ وآثار مصر الإسلامية، ج٣، لندن، بدون تاريخ، ص٦٦٤.
(٢١) شاد العمائر، يقوم صاحب هذه الوظيفة بالإشراف على العمائر السلطانية مما يختار السلطان إنشاءه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار، وصاحبها أمير عشرة. انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٢؛ محمد قنديل البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ١٩٨٤م، ص١٩٥؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار، ج٢، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٦١٦-٦١٨.
(٢٢) هى مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف، ويطلق على صاحبها أيضا أمير أربعين، وسمى أمير طبلخاناه لأحقيته فى دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين، لمزيد من التفاصيل، انظر: محمد قنديل البقلى، التعريف، ص٤٣؛ سعيد عبدالفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، ص٤١٤.

(٢٣) انظر التحقيق فيما يلى ص
(٢٤) انظر التحقيق فيما يلى ص
(٢٥) انظر مايلى ص
(٢٦) ج٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، بدون تاريخ، صفحات ١٥٢-١٥٣.
(٢٧) ج٣٣، دراسة وتحقيق محب الدين أبى سعيد عمر، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م، ص٤٠١-٤٠٨.
(٢٨) هو رئيس الأطباء بدمشق، وكان حاذقا، ماهرا، عارفا، مشهورا، عاش نحو سبعين سنة، ومات فى سنة ٧٣٢هـ. انظر ترجمته فى ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٤٦؛ ابن حبيب، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، ج٢، تحقيق محمد محمد أمين، ص٢٢٨؛ وانظر أيضا: أحمد عيسى، معجم الأطباء، مصر، ١٩٤٢م، ص٢٠٧-٢١١.
(٢٩) انظر مايلى فى التحقيق ص ،ص

ثانيا: هوامش التحقيق

(١) يقصد عصر المؤلف أى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى.
(٢) جاءت اصطنبول من تسمية البيزنطيين للمدينة «استن بول» أى مدينة الملك أو دار الملك، وقد أكد هذه التسمية عدد من الجغرافيين والرحالة المسلمين أمثال ياقوت الحموى وأبو الفداء، وأبو طالب الدمشقى وغيرهم، فقد أطلق هؤلاء على مدينة القسطنطينية اسم استنبول أو اصطنبول، فذكر ياقوت «أن القسطنطينية واسمها اصطنبول هى دار ملك الروم»، وذكر أبو الفدا « أن القسطنطينية هى اصطنبول»، أما الدمشقى فذكر «أن الروم تسميها اصطنبول». انظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان، م٤، ص٣٤٧؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص٣٢؛ أبو طالب الدمشقى، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ص٢٥٩؛ وانظر أيضا: ليلى عبدالجواد، «القسطنطينية فى ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين»، بحث منشور فى مجلة المؤرخ المصرى، العدد ٣، يناير ١٩٨٩م، ص١٦٠-١٦١.
(٣) ببرطانية هكذا جاءت فى الأصل (أ)، المثبت فى المتن هو الأقرب إلى الصواب، وهو ما جاء فى نسخة (ب) ورقة ٦٣ أ. ويقصد بها هنا بيزنطة، تلك المستوطنة اليونانية القديمة، التى تنسب إلى القائد بيزاس Byzas، واختارها قسطنطين العظيم ليشيد عليها عاصمته الجديدة التى سميت باسمه فعرفت بالقسطنطينية وقد شرع فى بنائها عام ٣٢٤م، وافتتحها فى عام ٣٣٠م، لمزيد من التفاصيل انظر: حسنين ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٣١-٣٢؛ بريس، «القسطنطينية فى عصر جستنيان» مقال منشور فى موسوعة تاريخ العالم، م٤، ص٣١٣؛
Janin, "Constantinople", dans Dict. d'Histoire et Geographie Ecclesiastiques, T. 13, pp. 626-627.
(٤) يقصد عاصمة الإمبراطورية البيزنطية.
(٥) إشارة إلى سيطرة الامبراطورية البيزنطية على العالم المسيحى كله شرقه وغربه وذلك قبل عصر المؤلف، وقبل قيام الامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب.
(٦) لقب قيصر يعنى نائب الامبراطور وولى عهده، ومن المعروف أن الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥)م هو الذى أوجد هذا اللقب، حينما قسم الامبراطورية إلى قسمين أحدهما شرقى والآخر غربى وجعل على كل قسم امبراطور وقيصر، والقيصر يحل محل الامبراطور فى حالة غيابه أو استعفائه أو عزله أو وفاته، وكان القيصر يتوج، ولكن لم يكن على تاجه صليب. لمزيد من التفاصيل عن لقب القيصر الذى صار علامة على أباطرة الدولة البيزنطية انظر: رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٦١م، ص٩٠-٩١.
(٧) من المعروف أن الإسكندر الأكبر تقلد عرش مقدونيا خليفة لأبيه الملك فيليب، ونجح الإسكندر فى إقامة امبراطورية عظيمة، وتوفى فى يونيو عام ٣٢٣ق.م، ونظرا لأن قاعدة الإسكندر كانت

مقدونيا بآسيا الصغرى، وكانت الأخيرة ضمن أراضى الدولة البيزنطية، فقد دفع ذلك بلبان الجنوى إلى أن يذكر أن بها تخت الإسكندر أى عاصمته مقدونيا.

(٨) الإشارة هنا إلى طبيعة الحكم فى الدولة البيزنطية فقد كان فى شكل أسرات تداولت العرش بداية من أسرة الامبراطور قسطنطين العظيم (٣٠٦-٣٣٧م) أول أسرة حكمت الامبراطورية البيزنطية وخطت ميلادها.

(٩) يقصد بالفرنج هنا الصليبيين الذين هاجموا القسطنطينية فى عام ١٢٠٤م واسقطوها من خلال أحداث الحملة الصليبية الرابعة. لمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة، انظر: روبرت كلارى، فتح القسطنطينية، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٤م، ص٣٣ - ١٥٤؛ من مذكرات فلها دوران، فتح القسطنطينية، ترجمة حسن حبشى، جدة، ١٩٨٢م، ص٤٣، وما يليها.

(١٠) بعد أن نجح الصليبيون فى إسقاط العاصمة البيزنطية والاستيلاء عليها فى عام ١٢٠٤م، أقاموا بها امبراطورية لاتينية ظلت تحكمها حتى عام ١٢٦١م، لمزيد من التفاصيل، انظر: ليلى عبدالجواد «السياسة الخارجية للمملكة اللاتينية فى القسطنطينية ١٢٠٤-١٢٦١م» رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة، ١٩٨٠م.

(١١) نجح البيزنطيون وعلى رأسهم ميخائيل الثامن باليولوجوس فى استرداد عاصمتهم القسطنطينية والقضاء على الوجود الصليبى بها فى عام ١٢٦١م، وظلت فى أيديهم حتى عصر المؤلف وإلى أن نجح العثمانيون فى دخولها عام ١٤٥٣م.

(١٢) نجح المسلمون فى عصر هرقل (٦١٠-٦٤١م) فى فتح بلاد الشام مدينة بعد أخرى، وخرج منها هرقل مودعا إياها بقولته الشهيرة «سلام عليك ياسوريا، سلام مودع لن يعود إليك أبدا». لمزيد من التفاصيل، انظر: ليلى عبدالجواد، الدولة البيزنطية فى عصر الامبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٣٤٥-٣٨٩.

(١٣) لعله يقصد الامبراطور الجالس على عرش القسطنطينية فى عهده وهو اندرونيق الثانى باليولوجوس (١٢٨٢-١٣٢٨م) ثم حفيده اندرونيق الثالث (١٣٢٨-١٣٤١م).

(١٤) هكذا فى الأصل! ولعلها مدونة.

(١٥) عرفت بيزنطة نظام الإقطاع الحربى، وقد أطلق عليه فى القرن الحادى عشر اسم (البرونويا Pronoia) ومعناه الهبة الملكية، وكان صاحبها يحصل على مساحة من الأراض أو إقليم، فى مقابل أن يتعهد للدولة بتقديم عدد معين من الجند للجيش، مقابل الحصول على حق جباية الموارد المالية فى إقليمه، ولم تكن البرونويا وراثية، ولا يستطيع من يحصل عليها أن يتصرف فيها بالبيع وغيره، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى منح وراثية بعد أن حصل أصحابها على إعفاء من الخدمة العسكرية ومن الالتزامات المفروضة عليهم. لمزيد من التفاصيل انظر: عائشة أبو الجدايل، الانصهار والاندماج فى الاقطاع الحربى، دراسة مقارنة للاقطاع الحربى فى كل من الامبراطورية الرومانية، والدولة البيزنطية، والغرب الأوروبى، حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية، آداب القاهرة، يوليو ٢٠٠٤م، ص٣٠-٣٢؛ حسنين محمد ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، ص٢٩٦؛

Vasiliev, "On The Question of Byzantine Feudalism", In Byzantion, t.8 Bruxelles (1933) pp. 584-604.

(١٦) الدرهم يرجع أصله إلى الدراخمة اليونانية. انظر: فالتر هينس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلى، عمان، ١٩٧٠م، ص٩؛ عبدالرحمن فهمى، النقود العربية ماضيها وحاضرها، القاهرة، ١٩٦٤م، ص١٠.

(١٧) يقصد بالبندقى هنا الدوكة والجمع دوكات وهى العملة المتداولة فى البندقية بأمر من الدوج هنرى داندولو بداية من عام ١٢٨٣م، وقد اختلفت قيمتها من عصر إلى عصر، وكانت تزن أصلا ٣,٥

جرام من الذهب الخالص، وكانت تتمتع فى كثير من الأحيان بالثبات والاستقرار لمزيد من التفاصيل، انظر: انستاس الكرملى، النقود العربية، ص١١١؛ عزيز سوريا ل عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٩٠، ص١٧٦-١٧٧؛ قدرية توكل السيد، «الدوكات الذهبية البندقية وعلاقتها بالنقود المعاصرة لها في مصر والشام في العصر المملوكي الجركسي»، رسالة دكتوراة غير منشورة، آثار القاهرة ٢٠٠٢، الفصل الأول؛ ص ٣٦-٥٤ .

(١٨) ترسم عبارات بلبان الجنوى صورة صادقة للحالة الاقتصادية السيئة التى أمست عليها الامبراطورية البيزنطية فى ذلك الحين فقد واجه الامبراطور اندرونيق الثانى اقتصادا منهارا، أدى إلى انخفاض قيمة العملة البيزنطية انخفاضا واضحا، إذ وصلت إلى نصف قيمتها، مما ترتب عليه ارتفاع الأسعار، ونقص فى الطعام وقد حاول الامبراطور اتخاذ كافة الوسائل من أجل حل هذه الأزمة المالية، لمزيد من التفاصيل انظر:

Charanis, "Economic Factors in the Decline of the Byzantine Empire" In Journal of Economic History, Vol. 13, 1953, pp.419-422.

ناهد عمر صالح، «السياسة الخارجية للدولة البيزنطية فى عهد الامبراطور اندرونيق الثانى باليولوجوس (١٢٨٢-١٣٢٨م)»، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٩٩م، ص٤٢-٤٣.

(١٩) بربر يقصد بها العملة البيزنطية المعروفة باسم الهيبربرة Hyperpere، وكانت فى عصر العمرى أى فى القرن الرابع عشر الميلادى تساوى ٢٤قيراطا، منها ١١ قيراط من الذهب الخالص، و٦من الفضة، و٧ من النحاس، ومن ثم فقد صارت مغشوشة، لمزيد من التفاصيل انظر:

Bratianu,"l'Hyperpere Byzantin et La Monnaie d'or des Republiques Italiennes au XIII Siécle", Dans Mélanges Charles Diehl, Vol. I, Paris, 1930, pp. 37-48.

(٢٠) يقصد بالأمرة الأمراء قادة الجيش، ويمثلون فى الدولة البيزنطية الطبقة العسكرية الاستقراطية، وتتمثل فى العائلات النبيلة الارستقراطية الكبيرة، وقد استطاع أبناء هذه الطبقة تكوين ثروات ضخمة فى منطقة الثغور التى تولوا حمايتها وقيادتها، ومنهم من تولى مناصب فى الحكومة المركزية بالعاصمة، وقد اعطى هذا الوضع مكانة اجتماعية متميزة لعائلات هذه الطبقة، التى أخذت تنمو بدورها يوما بعد يوم، ومن أمثلة هذه العائلات: عائلة فوقاس، ودوقاس، وتزميسكيس وغيرهم، لمزيد من التفاصيل، انظر: رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص١٨٤-١٩٣؛ وسام عبدالعزيز فرج، «أضواء على مجتمع القسطنطينية - دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين حتى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى»، بحث منشور فى كتاب دراسات فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى العصور الوسطى، إسكندرية، ١٩٨٥م، ص١٤-١٦.

(٢١) لا توجد فى الأصل (أ)، وتوجد فى النسخة (ب) انظر ورقة ٦٤ب.

(٢٢) يقصد بها كنيسة آيا صوفيا، ويقصد بها فى اللغة اليونانية الثالوث المقدس، وهى مستديرة البناء، وبها قباب دائرة حولها محمولة على أعمدة ضخمة رائعة جدا، والقبة الرئيسية بها محمولة على أربعة أكتاف ضخمة ترتفع عن مستوى سطح الأرض بحوالى ستين مترا، لمزيد من التفاصيل حول وصف هذه الكنيسة، انظر:روبرت كلارى فتح القسطنطينية، ص١٢٧-١٢٨؛ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص١٢٨-١٢٩، ابن بطوطة، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبنانى، بدون تاريخ، ص٢٣٤، ٣٥١-٣٥٣؛

Van Millingen, A Byzantine Churches in Constantinople, London, 1912,pp. 24-26.

(٢٣) تعنى كلمة بطريرك رئيس الأباء، وهو صاحب كرسى بطريركية القسطنطينية، لمزيد من التفاصيل، انظر: ليلى عبدالجواد، القسطنطينية، ص١١٤-١١٥، ١٣٣-١٣٤.

(٢٤) عدّد ابن بطوطة أبواب كنيسة آيا صوفيا بثلاثة عشر بابا، انظر تحفة النظار، ص٢٣٤.

(٢٥) لم يكن حاكم القسطنطينية ملكا ولا سلطانا كما جاء على لسان بلبان بل كان امبراطورا كما هو معروف.

(٢٦) يتمثل الزى الرسمى للامبراطور البيزنطى فى العباءة الأرجوانية الموشاة بالذهب، التى تغطى ملبسه فى معظم المناسبات، ويضع عليها الوشاح الذى يحمل شعار الامبراطورية، وعلى رأسه التاج الامبراطورى، ويرتدى خفا أحمر، أما ولى عهده فمن حقه أن يرتدى فردتى حذاء أحدهما حمراء والأخرى سوداء، انظر ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص١٢٠، ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص١٠٩.

(٢٧) الأقبية التترية لباس خارجي للرجال، مفتوح حول الرقبة فتحة مستديرة، يطوى تحت الإبط بصورة منحرفة، وكان للقباء التترى كمران يلفان الصدر من اليسار إلى اليمين. انظر دوزى، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد ١٩٧١م، ص٢٨٤-٢٩١؛ ماير الملابس المملوكية ترجمة صالح الشيتى القاهرة ١٩٧٢م، ص٤٠-٤٢.

(٢٨) الكنابيش مفردها كنبوش، وهى غطاء للرأس كما هو واضح فى المتن، والكنبوش بفتح الكاف هو أيضا اللثام الذى يغطى الوجه والذقن حتى الخيشوم اتقاء للبرودة، انظر: محمد قنديل البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٢٨٩؛ دوزى، المعجم، ص٣١٤-٣١٥.

(٢٩) المناطق مفردها منطقة وهى حزام يشد على الوسط، ويعبر عنها «بالحياصة» ويستخدمه العسكريون، وصفها العمرى بأنها ثقال لأنها كانت تصنع من الذهب أو من الفضة أو من الحديد أو أى معدن وليس من القماش. أنظر: ماير، الملابس، ص٤٧-٤٩؛ دوزى، المعجم، ص٣٤٠؛ محمد قنديل، التعريف، ص٣٣٣.

(٣٠) المغربيات فى نسخة (ب)، ورقة ٦٤ب.

(٣١) تعددت أشكال السيوف مابين السيف المستقيم المصنوع من الحديد وله حد من الصلب وبين السيف المقوس الطرف أو الحد وغيرها. أنظر: ماير، الملابس، ص٧٨-٧٩.

(٣٢) حدد العمرى بذلك خامات الملابس الشتوية التى استخدمها البيزنطيون فى صناعة ملابسهم ممثلة فى الجوخ والصوف، وخامات الملابس الصيفية ممثلة فى الحرير بكل أنواعه ومن المعروف أن الروم ولعوا بلبس الحرير، ولعبت تجارته دورا مؤثر فى حياتهم.

(٣٣) لعله يقصد بأن للملك دارين هما القصر الامبراطورى البلاشيران والهبدروم «الملعب» أو ميدان السباق وقد اتضح ذلك من العبارات التي أوردها العمري فالوصف ينطبق بما لا يدع مجالا للشك على ميدان السباق أو الملعب ولا عجب فى ذلك فقد كان القصر الامبراطورى متصل بميدان السباق وكثيرا ما كان الامبراطور يخرج إليه، ولم يكن الملعب مجرد مكان للاستعراضات بل كان محور الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة القسطنطينية، عقدت به الاجتماعات لمناقشة كافة الأمور الاجتماعية والدينية والسياسية. عن ميدان السباق انظر:

Vogt, "l'Hippodrome de Constantinople", dans Byzantion (1935). p472; Elersolt, Constantinople, pp. 19-20; Van Millingen, Byzantine Constantinople, p. 13.

ليلى عبدالجواد، القسطنطينية، العدد الرابع من المؤرخ المصرى؛ ص١٢٠-١٢٤.

وتجدر الإشارة إلي أن القسطنطينية كان بها قصران هما قصر البوكليون (فم الأسد) ويقع علي شاطئ البحر مواجها الشرق وهو عبارة عن مجموعة من الأبنية شيدت بأيدي أباطرة مختلفين، وظل مقرا للأمبراطور حتي عصر آل كومنين الذين هجروه، وفضلوا الإقامة في القصر الثاني وهو قصر البلاشيران، وعن الأخير أنظر هامش ٣٦.

(٣٤) لم تكن هذه الدار، إذا ما سلمنا أن المقصود بها ميدان السباق من بناء الإسكندر بل وضع أساسه الامبراطور سبتميوس سفيروس (١٩٣-٢١١م) وعندما شيد قسطنطين عاصمته القسطنطينية، أمر ببناء ميدان السباق فى وسطها. انظر ليلى عبدالجواد، القسطنطينية، ص١٢٠.

(٣٥) مما يؤكد أن هذا الوصف ينطبق على ميدان السباق ما ذكره كل من الإدريسى وروبرت كلارى، فذكر الإدريسى «ويمشى منه بين سطرين من صور مفرغة من النحاس البديع الصناعات منها على صورة الآدميين وصور الخيل والسباع التى سوى ذلك مما يقر له الصانعون بالعجز. وهى أشكال أكبر من الأشكال المخلوقة. أما روبرت كلارى فيذكر «وعلى طول الساحة المكشوفة حائط.. عليه تهاويل رجال ونساء وجياد وثيران وجمال ودببة وأسود وشتى أنواع الحيوانات الأخرى، وكلها مصنوعة من النحاس الأحمر، وقد أبدعتها يد مبدع صانع فلا يفرقها الناظر عن نظائرها الحية..».

لمزيد من التفاصيل انظر: الإدريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، روما، ١٩٧٧م، ص٨٠٢؛ روبرت كلارى، فتح القسطنطينية، ص١٣٠، ليلى عبدالجواد، القسطنطينية، ص ١٢١-١٢٢.

(٣٦) يقصد بها القصر الكبير المعروف باسم (البلاشيران) الواقع على بحر مرمرة عند الركن الجنوبى الشرقى للمدينة، ويضم قاعات ضخمة وغرف فسيحة وأفنية، وكنيسة كبيرة وأجنحة للرجال والنساء، وخزائن وثكنات للجند وغيرها من الملحقات، بالإضافة إلى المقصورة الضخمة التى تمكن الامبراطور من مشاهدة كل مايجرى فى ميدان السباق من مسابقات وعروض وغيرها. لمزيد من التفاصيل عن القصر الامبراطورى انظر:

Ebersolt. J, Le Garnd Palais d Contantinople et des Ceremoies, Paris, 110, pp. 1-13, 19-20, Janin, Contantinople, p,120-121, 124.

روبرت كلارى، فتح القسطنطينية، ص١٢٤-١٢٦؛ وليم الصورى، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشى، ج٤، ص١٤١-١٤٤؛ رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص٢٢٦-٢٢٧؛ ليلى عبدالجواد، القسطنطينية ص١٣١-١٣٣، وعن الوصف الداخلى للقصر، انظر: ليلى عبدالجواد، القسطنطينية، العدد الرابع من المؤرخ المصرى، ص١١٥-١١٩.

(٣٧) القبجاق بفتح القاف وسكون الباء الموحد وفتح الجيم والألف بعدها قاف، هم جنس من الترك وهم أهل حل وترحال على عادة البدو، يتصفون بالوفاء والشجاعة مع تمام القامة، وحسن الصورة، وطرافة الشمائل، استقروا فى حوض نهر الفولجا الأدنى، وفى الصحراء المعروفة باسم (الدشت) التى تمتد غربا حتى نهر الفولجا والبحر الأسود وشمالا إلى جنوب روسيا ولذلك سميت باسم (صحراء القفجاق أو دشت القبجاق). لمزيد من التفاصيل انظر: القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٥٦-٤٥٨؛ بهيرة محمد غلاب، «مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القبجاق. من ٦٣٥-٧٣٦هـ؛ ١٢٤٦-١٣٣٥م»، رسالة دكتوراة غير منشورة، طنطا ٢٠٠٠م، ص٣٢ ومايليها؛ ليلى عبدالجواد، الإسلام والمسلمون فى حوض الفولجا، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٩١ ومايليها.

(٣٨) تولى ازبك عرش دولة مغول القبجاق أو مغول القبيلة الذهبية خلال الفترة (٧١٢-٧٤٢هـ/ ١٣١٣-١٣٤٢م) انظر ترجمته فى ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٧٦-٣٧٧؛ وانظر أيضا ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٣٣١-٣٣٣.

(٣٩) بعد أن نجح ازبك فى التغلب على أباطرة الدولة البيزنطية وفرض عليهم أتاوة إذ به يسعى لمصالحتهم خاصة بعد أن ظهر على السطح خطر هدد بيزنطة ومغول القبجاق ألا وهو خطر الأتراك العثمانيين، الذين نجحوا فى إقامة دولة لهم فى بداية القرن ٨هـ/ ١٤م فى آسيا الصغرى، وتزوج أزبك منهم وأمنهم، وقد صور العمرى هذا فى كتابه التعريف فذكر تحت عنوان «ملك الروم صاحب

القسطنطينية» «كان الملك ازبك قد كاد يبتز تاجه ويعقم نتاجه.. فاحتاج إلى مداراته وبذل له نفائس المال، وصحب أيامه على مضض الاحتمال وكانت له عليه قطيعة مقررة وجملة مال مقدرة»، ص٧٦. وكذلك ذكر القلقشندى أن القان ازبك.. تحرر عليه إتاوة تحمل إليه فى كل سنة ليكف عنه» صبح الأعشى، ج٥ ص٤٠٢؛ أما ابن بطوطة فذكر «أن ازبك قاهر أعداء الله أهل القسطنطينية العظمى، مجتهد فى جهادهم». تحفة النظار، ص٢٢٠.

(٤٠) أى غير بلبان الجنوى.

(٤١) هكذا فى الأصل (أ)، وفى النسخة (ب) وأن هان.

(٤٢) الجنك: آله موسيقية وهى من ذوات الأوتار أقرب إلى الرباب وعنه انظر: أبو طالب النحوى اللغوى، كتاب الملاهى وأسمائها من قبل الموسيقى، تحقيق غطاس عبدالملك خشبة، القاهرة ١٩٨٥م، ص٣٨، هامش١؛ نبيل عبدالعزيز، الطرب وآلاته فى عصر الأيوبيين والمماليك، ص ١٢٦-١٢٨.

(٤٣) عن العود، انظر: أبو طالب النحوى، كتاب الملاهى، ص٤٩؛ نبيل عبدالعزيز، الطرب وآلاته، ص١١، ١٤، ١٢١-١٢٦.

(٤٤) إضافة من نسخة (ب) ورقة ٦٤أ.

(٤٥) ملبقات مادتها لبق ومنها تلبيق الثريد بالسمن إذ كثر ادمه، والثريد الملبق هو الشديد التثريد الملتن بالدسم. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة لبق، ص٣٩٨٨.

(٤٦) إضافة من نسخة (ب) ورقة ٦٤أ.

(٤٧) الدمى هى السهام التى تكرر الرمى بها، والمدمى السهم الذى تعاوره الرماة بينهم، والأبيض هو السيف والجمع بيض. انظر ابن منظور، لسان العرب مادة دمى، ص١٤٣٠، ومادة بيض، ٤٠٠.

(٤٨) العجاج: الدخان، وعجج البيت دخانا أى ملاءه، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة عجج، ص٢٨١٣.

(٤٩) شنيب: من شنب وهى ماء ورقة تجرى على الثغر. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة شنب، ص٢٣٣٦.

(٥٠) العبوق: خمر المساء والاصطباح خمر الصباح ويسمى الصبوح.

(٥١) إشارة إلى فقدان الروم سيادتهم البحرية وذلك فى عصر المؤلف وإهمال الأسطول بعد أن كانوا سادة البحر المتوسط الذى عرف باسم (بحر الروم) نسبة إليهم.

(٥٢) لهم فى نسخة (ب) ورقة ٦٤أ.

(٥٣) لعله يقصد بها الأحذية، وليس السفن.

(٥٤) عن وصف هذا النهر، انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص٣٧٧؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢٣٣.

(٥٥) تحدث الشيخ حيدر العريان الرومى عن الأسعار فى القسطنطينية وأكد ما ذكره بلبان الجنوى فيقول: «وأما أسعارها فهى رخيصة للغاية لقلة المكوس، وكثرة المراعى، واتساع التجارة واكتناف البحر لها من كل جانب، بحيث يحمل إليها على ظهره كل شىء مما لا يوجد فيها». انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج٥، ص٣٥٧.

(٥٦) كان مايسمى بالرطل الرومى فى العصور الوسطى يساوى ٧٢ مثقالا = ستة أسباع و١٠٢درهما أى يزن مايقرب من ٤٢٨، ٣٢١ جراما. أما الرطل القسطنطينى فكان يساوى فى القرن ١٨م، ٨٧٦ درهما أى كان يزن ٨, ٢ك.جرام باعتبار الدرهم = ٣,٢٠٧ جرام. انظر: فالتر هينس المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلى، ص٣٥.

(٥٧) الرطل المصرى كان يزن ١٤٠ درهما=٤٣٧,٥ جراما خلال القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، ثم ظهر الرطل زنة ١٤٤ درهما = ٤٥٠ جراما فى مصر. لمزيد من التفاصيل، انظر: فالتر هينس، المكاييل، ص٣١-٣٢، وذكر بلبان الجنوى أن الرطل القسطنطينى كان نظير الرطل المصرى أى أنه كان فى عصره متساويا للمصرى أى أنه كان يزن مايقرب من ٤٥٠جراما.
(٥٨) لمدنى هو كيل الطعام، وكان فى الأناضول فى العصور الوسطى عدد وفير من مكاييل المد، وذكر بلبان مقداره وهو مايساوى اردبين ونصف بالمصرى، والأردب المصرى كان يبلغ ٦٩,٥ك. جرام قمح. لمزيد من التفاصيل انظر: فالتر هينس، المكاييل، ص ٧٦.
(٥٩) الأرغل أو الأرغن من صنع اليونانيين، وعليه ستة عشر وتراً، وله صوت بعيد المذهب. انظر أبو طالب النحوى، كتاب الملاهى، ص ٣٩؛ نبيل عبد العزيز، الطرب وآلاته، ص ١٠؛ وقد أورد العمرى وصفاً تفصيلاً له على لسان أحد المتخصصين فى الضرب به كما جاء فى المتن.
(٦٠) تجدر الإشارة إلى أن القانون آلة من آلات الطرب، ذات أوتار تحرك بالكستبان، وهى من اختراع الفارابى «القرن ٦ هـ/ ١٢م»، وكان بارعاً فى العزف عليها.
(٦١) ذكر المقريزى فى حوادث عام ٧٤٧هـ، أنه قدم فى الأيام الناصرية محمد ابن قلاوون، تاجر فرنجى بهدية إلى ملكتمر الحجازى، فأعجبته مصر، وأسلم، وعرف بآقسنقر الرومى، وأنعم عليه السلطان الناصر محمد بأمرة عشرة، ومازال بمصر إلى أيام شعبان الكامل، فتقرب إليه آقسنقر الرومى بعمل الفلك والشعبذة، واختص به، انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ق٣، طبعة القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٧١٦، وما ذكره المقريزى يتفق مع ما أورده العمرى فى المتن، وعن ملكتمر الحجازى، انظر ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج١١، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٢٦٩-٢٧١ .
(٦٢) إضافة ليستقيم السياق.
(٦٣) الكنود مفردها كند أو قومص «comes» وهو الكونت وهو الأمير، معناه الأصلى فى اللاتينية «الرفيق» لأنه كان فى بادىء الأمر، يرافق الملك فى حروبه وتنقلاته، ثم سمى بالأمير. انظر ابن شداد، النوادر السلطانية، تحقيق جمال الدين الشيال، ص٧٧، حاشية ١ .
(٦٤) يقصد بها كنيسة آيا صوفيا.
(٦٥) كان يطلق على مصر قديماً فيما عدا الصعيد الأعلى اسم مقدونية، وقد أكد ذلك ابن خردانبة إذ يذكر «كانت مصر دار الفراعنة واسمها مقدونية». انظر: المسالك والممالك، ص١٥.
(٦٦) قضية اعتناق قسطنطين المسيحية لا تزال مسار جدل، فالبعض يرى أن قسطنطين مات على وثنيته، والبعض يذكر أنه عمد على فراش الموت، وليس هناك رأى قاطع حول هذه القضية، أما مذبح كنيسة آيا صوفيا فهو مذبح ثمين لا يقدر بمال، لأن مائدته كانت من الذهب والأحجار الكريمة، وبلغ طول هذه المائدة أربعة عشر قدماً، انظر: روبرت كلارى، فتح القسطنطينية، ص ١٢٧.
(٦٧) إضافة من نسخة (ب)، ورقة٦٤ب.
(٦٨) هو الصليب الذى يزعمون أن السيد المسيح صلب عليه، وكانوا قد غلفوه بالذهب، وكللوه بالدر والجوهر، ويقال أن القديسة هيلانة والدة الأمبراطور قسطنطين العظيم اكتشفته أثناء زيارتها لمدينة بيت المقدس، ولكن لم يذكر أحد من المؤرخين المعاصرين شيئاً عن هذا، ويرجح البعض أنها توفيت قبل اكتشافه. لمزيد من التفاصيل انظر: اسحاق عبيد، «قصة عثور القديسة هيلانة على خشبة الصليب أسطورة أم واقع»، بحث منشور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ١٧ لسنة ١٩٧٠م، ص٥-٢١ .

(٦٩) طليطلة إحدى مدن إسبانيا. وعنها انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج٤، بيروت، ١٩٨٤م، ص٣٩-٤٠.

(٧٠) يقصد بهم الصليبيين، وهم صليبو الحملة الصليبية الثالثة.

(٧١) قصد بالعبيديين الفاطميين، وتجدر الإشارة هنا إلى أن المسلمين نجحوا أثناء معركة حطين «٥٨٣هـ/ ١١٨٧م» فى أخذ صليب الصلبوت من الصليبيين، وكان ذلك من أعظم المصائب عندهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك. انظر: ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج١١، ص٥٣٥- ٥٣٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص١٩٠-١٩١؛ وانظر ايضاً فايد حماد عاشور، الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى العصر الأيوبى، القاهرة، ١٤٠٣هـ، ص١٢٧ .

(٧٢) هذه العبارة إضافة من نسخة «ب»، ورقة ٦٥أ.

(٧٣) يقصد بها مصر.

(٧٤) ممن فى نسخة «ب»، ورقة ٦٥أ.

(٧٥) الصابئة هم عبدة النجوم، أما الكلدانيون فهم ينسبون إلى قبيلة كلدانى، وعنهم انظر: سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج١١، ص٤٦٩.

(٧٦) إضافة من نسخة «ب»، انظر ورقة ٦٥أ.

(٧٧) بطاركتهم مفردها بطريرك وهو رأس الكنيسة، وقسوسهم مفردها قس وهو يلى الأسقف فى السلم الكنسى.

(٧٨) لا توجد فى نسخة «ب» ورقة ٦٥أ.

(٧٩) الخضر هو العبد الصالح الذى التقى به سيدنا موسى وصاحبه، ليتعلم منه كما ورد فى سورة الكهف، الآيات من ٦٠-٦٥ وسمى بالخضر لأنه جلس على حشيش يابس، فإذا به يخضر من تحته.

(٨٠) الإسكندر ذو القرنين عربي اسمه الصعب بن ذي مرائه بن الحارث.. بن وائل ين حمير بن سبأ.. ابن قحطان وهو من ملوك حمير: ولفظة ذو عربية، وذو القرنين من القاب العرب ملوك اليمن، لذلك يخطأ من يظن أن المقصود به هو الأسكندر الأكبر بن فيليب المقدوني.

(٨١) الدوين فى الأصل «أ» والتصحيح من نسخة «ب» ورقة ٦٥أ.

(٨٢) هو الطين المجلوب أيام جالينوس من جزيرة لميون، ويسميه البعض خواتيم لمنية بسبب الطابع الذى تطبعه فى ذلك الموضع المرأة الموكلة بالهيكل المنسوب إلى أرطاميس، والموجود هناك، وكانت هذه المرأة تأخذ تراباً من أرض هذه الجزيرة، بعد أن تنحر عليه القرابين، ثم تأتى به إلى المدينة، وتبله بالماء وتجعله طيناً، ولا تزال تضربه ضرباً شديداً، ثم تتركه حتى يسكن ويرسب، ثم تأخذ ما هو سمين لزج، ثم تجففه حتى يسير كالشمع اللين، ثم تأخذ منه قطعاً صغيرة فتختمها بالخاتم المنقوش عليه صورة أرطاميس، وتجفف تلك الخواتيم في الظل حتي يذهب عنها الندي، ثم تصبح هذه الخواتيم دواء يعرفه جميع الأطباء ويسمونه بالخواتيم اللمنية، وهى خواتيم بحيرة لميون. انظر ابن البيطار، الجامع لمفردات الأودية والأغذية، ج٣، القاهرة، بدون تاريخ، ص١٠٦.

(٨٣) عن جالينوس قال ابن أبى أصيبعه: «هو خاتم الأطباء الكبار المعلمين، لا يدانيه أحد فى صناعة الطب.. صنف فيه كتباً، كشف فيها عن مكنون هذه الصناعة، وأفصح عن حقائقها، ونصر القول الحق فيها..». لمزيد من التفاصيل انظر: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٠٨, ١٠٩, ١٣٢.

(٨٤) يقول فى نسخة «ب»، انظر ورقة ٦٥ب.

(٨٥) يجلب فى نسخة «ب»، انظر ورقة ٦٥ب.

(٨٦) إضافة من نسخة «ب»، انظر ورقة ٦٥ب.
(٨٧) المغرا طين أحمر يصبغ به. انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة مغر، ص ٤٢٤٠.
(٨٨) لأنه فى الأصل «أ»، والمثبت بالمتن عن نسخة «ب»، ورقة ٦٥ب.
(٨٩) هو رئيس الأطباء بدمشق، وكان حاذقاً، ماهراً، عارفاً، مشهوراً، عاش نحو سبعين سنة، ومات فى عام ٧٣٢هـ. انظر ترجمته فى ابن حجر، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ج٢، ص٢٤٦؛ ابن حبيب، تذكره النبيه فى أيام المنصور وبنيه، ج٢، تحقيق محمد محمد أمين، ص٢٢٨، وانظر أيضاً: أحمد عيسى، معجم الأطباء، مصر، ١٩٤٢م، ص٢٠٧-٢١١.
(٩٠) شبيهه فى نسخة «ب»، ورقة ٦٦ ب.
(٩١) قسم ابن البيطار الطين المختوم فى جزيرة لميون إلى ثلاثة أنواع، أحداها الصنف الذى لمتولى أمر هيكل أرطاميس لا يقربه أحد سوى تلك المرأة، والصنف الثانى مغرة وهى التى يستعملها النجارون خاصة فى ضرب الخيوط على الخشب، والصنف الثالث تراب أرض ذلك التل الذى فى لميون، وهو تل أحمر اللون كله، وليس فيه شجر ولا نبات ولا حجارة، وهو تراب يجلو، ويستعمله كثير ممن يغسل الكتان والثياب. انظر: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، ص١٠٦ .
(٩٢) عن فوائد الطين المختوم ومنافعه واستعمالاته، انظر: ابن البيطار، الجامع لمفردات الأودية، ج٣، ص١٠٧-١٠٨.
(٩٣) تحتل القسطنطينية موقعاً جغرافياً ممتازاً فهى تطل على البحر من ثلاث جهات هى الشمال والشرق والجنوب، ولا يمكن الوصول إليها براً إلا من جهة واحدة وهى جهة الغرب، فتطل من الشرق والشمال على مضيق البوسفور، الذى يحيط بها فيكون فى الشمال أشبه بالمنجل أو قرن غزال لذلك يعرف بأسم القرن الذهبى، وبه ميناء محصن بسلسلة موضوعة فى مدخله لحماية المدينة من هجوم أى أسطول معاد. لمزيد من التفاصيل، انظر: ليلى عبد الجواد، القسطنطينية. ص ١٦٢-١٦٦.
(٩٤) عن حركة التجارة فى أسواق القسطنطينية انظر: ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، العدد الرابع من المؤرخ المصرى، ص١٠٩-١١٣.
(٩٥) لجأت الدولتان البيزنطية والإسلامية إلى اتباع سياسة دينية، تستهدف تحقيق أهدافهما السياسية، وأوضح دليل على ذلك سماح الإمبراطورية البيزنطية بإنشاء مسجد للمسلمين فى عاصمتها القسطنطينية وذلك منذ أن قام مسلمة بن عبد الملك بحصارها فى عام ٧١٧- ٧١٨م، وظلت شعائر الإسلام تؤدى فى هذا المسجد حتى عصر المؤلف وبعده، وظل المسلمون يعيشون معززين مكرمين فى القسطنطينية، يمارسون شعائرهم الدينية فى حرية تامة، وهذا ما أكده النص. لمزيد من التفاصيل عن جامع القسطنطينية انظر: محمد نجيب الوسيمى «جامع القسطنطينية الأول ودوره السياسى»، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب، م٦٠، إبريل ٢٠٠٠م، ص٣٩-٧٣.
(٩٦) البطارقة مفردها بطريق وهى رتبة شرفية تمنح لذوى المكانة الاجتماعية المتميزة، أنشأها قسطنطين العظيم، وجعلها ذات نطاق محدود، ولم يلبث عدد البطارقة أن تزايد، وأعطى عدد منهم الأسبقية انظر: رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز، توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٦١م، ص٩٢، وانظر أيضاً:

Oxford Dectionary Byzantium, Vol.3,P.1600

(٩٧) وأن فى الأصل «أ» والمثبت فى المتن من نسخة «ب» ورقة٦٥ب.
(٩٨) عن ماجدة يذكر المسعودى إنه مما يلى الثغور الشامية مطمورة تعرف بماجدة، تقع على نحو عشرين ميلاً من قلعة لؤلؤة. انظر: التنبيه والإشراف، ليدن، ١٩٦٧م، ص١٧٨.

(٩٩) يقطيا فى نسخة الأصل «أ» و «ب» والتصحيح من الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ج٨، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ١٥٢، والقومس هو الأمير.
(١٠٠) عسكره فى الأصل «أ»، ونسخة «ب»، انظر ورقة ٦٦ أ، والمثبت فى المتن من رواية الطبرى، ج٨، ص ١٥٢.
(١٠١) يقصد بالورق هنا الصكوك التى يكتبها المدين للدائن. انظر: المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ص٦٤٠، حاشية ٦. وقارن هذه الرواية مع ما جاء فى ابن كثير، البداية والنهاية، م٥، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، ص ٦٥٠.
(١٠٢) يقصد به «مضيق البوسفور» الذى تطل عليه القسطنطينية من ناحيتى الشرق والشمال، وقد أفاض الجغرافيون المسلمون فى الحديث عنه وعن حدوده وطوله وعرضه، لمزيد من التفاصيل، انظر: ليلى عبد الجواد، القسطنطينية، العدد الثالث من مجلة المؤرخ المصرى، ص ١٦٣-١٦٥.
(١٠٣) عسطة امرأت النون هكذا فى الأصل «أ»، ونسخة «ب»، والتصحيح من الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص١٥٢، ويقصد بها الأمبراطورة إيرين «إيرينى» زوجة ليو الرابع، وكانت قد تولت الوصاية على ابنها قسطنطين السادس «٧٨٠- ٧٩٧م» الذى تولى العرش خليفة لأبيه وهو فى العاشرة من عمره. لمزيد من التفاصيل عنها، انظر: عليه عبد السميع الجنزورى، الإمبراطورة إيرين، القاهرة ١٩٨١م؛ وانظر أيضاً: حسنين محمد ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٢٢ .
(١٠٤) يقصد به ليو الرابع الخزرى «٧٧٥- ٧٨٠م».
(١٠٥) كان من شروط الصلح فتح الأسواق أمام التجار المسلمين فى بيزنطة، وأن تمد إيرين جيش هارون الرشيد بالأدلاء أثناء عودته.
(١٠٦) إضافة من الطبرى، انظر تاريخ الرسل، ج٨، ص١٥٢.
(١٠٧) إضافة من رواية الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص ١٥٢.
(١٠٨) نيسان الأول هو الشهر السابع من شهور السنة السريانية، ويقابله شهر إبريل وهو الشهر الرابع من الشهور الميلادية، انظر المعجم الوجيز، ص ٦٤١.
(١٠٩) لا توجد فى راوية الطبرى.
(١١٠) حزيران هو الشهر التاسع من الشهور السريانية، ويقابله شهر يونيه من الشهور الميلادية، المعجم الوجيز، ص ١٤٨ .
(١١١) إضافة من الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص١٥٢.
(١١٢) رسولا فى رواية الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص١٥٢.
(١١٣) لا توجد هذه العبارة فى رواية الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص١٥٣.
(١١٤) هذه العبارة إضافة من رواية الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص ١٥٣.
(١١٥) إضافة من الطبرى، تاريخ الرسل، ج٨، ص ١٥٣.
(١١٦) لا توجد فى رواية الطبرى.
(١١٧) ولد مروان ابن أبى حفصة عام ١٠٥ هـ، ونشأ فى اليمامة حيث استقرت أسرته، وكان جواداً مقداماً، وبطلاً مغواراً، ولاه المنصور اليمن ثم سجستان، ولما ولى المهدى بعد أبيه المنصور مدحه هو وولده الرشيد، وتوفى فى عام ١٨٢ هـ. لمزيد من التفاصيل، انظر: شوقى ضيف، تاريخ الأدب العربى، العصر العباسى الأول، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٢٩٨ - ٣٠١ .
(١١٨) لم تحتو رواية الطبرى سوى على البيتين الأول والثانى فقط دون باقى الأبيات.
(١١٩) انظر الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص١٥٢ - ١٥٣ .

(١٢٠) وهى سنة ١٦٥هـ/ ٧٨١م.
(١٢١) هو أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعى المعروف بأبن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ)، وتاريخه يعرف بتاريخ مدينة دمشق، وتم الاعتماد على الطبعة التى قام بدراستها وتحقيقها محب الدين أبى سعيد غرامة العمروى، بيروت، ١٩٩٦م، ج٣٣، ص٤٠١-٤٠٨.
(١٢٢) نال البطال شهرة واسعة فى قتال الروم، وكان مضرباً للشجاعة والإقدام، ونموذجاً شعبياً يحتذى به فى قتال الروم، ولقب بالبطال لأنه كان لفرط شجاعته يبطل حركة خصمه. لمزيد من التفاصيل عنه انظر: أحمد عبد اللطيف حنفى، «عبد الله البطال، صفحة مشرقة للجهاد الإسلامى الأموى ضد البيزنطيين (٨٦-١٢٢هـ/ ٧٠٥ - ٧٤٠م)» بحث منشور فى مجلة كلية الآداب، حلوان، العدد ٩، ١٠ لسنة ٢٠٠١م، ص ٣٣٢ - ٣٣٨؛ طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجى، ج١، البيزنطيون والمسلمون، ص ١١٧.
(١٢٣) إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص ٤٠١.
(١٢٤) إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص ٤٠١.
(١٢٥) العبارة بين القوسين ساقطة من نسخة الأصل (أ) وموجودة فى نسخة (ب)، انظر ورقة ٦٦ب؛ وابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٥، ص ٣٣٤.
(١٢٦) يشيعنا فى ابن عساكر، ج٣٣، ص ٤٠١، ويشيعهم فى ابن كثير، البداية، م٥، ص٤٣٤.
(١٢٧) العبارة بين المعقوفتين إضافة من نسخة (ب) ورقة ٦٧ب، وابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠١.
(١٢٨) إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٢، ولا توجد فى نسخة (أ) ولا (ب).
(١٢٩) ودفعنا فى ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص ٤٠٢.
(١٣٠) [تستمكنوا من القرية] عند ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٥، ص٤٣٤.
(١٣١) إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٢؛ وانظر أيضاً ابن كثير، البداية، م٥، ص ٤٣٤.
(١٣٢) انظر تفاصيل هذه الرواية فى ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٢ - ٤٠٣؛ ابن كثير، البداية، م٥، ص ٤٣٤ - ٤٣٥.
(١٣٣) متسمطاً من سمط أى علق.
(١٣٤) إضافة من ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٣.
(١٣٥) جاءت هذه العبارة فى ابن عساكر على النحو التالى: «وضعفى عن ما يجىء على من الركوب»، انظر تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٣.
(١٣٦) راجع ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٣. إذ نقل العمرى عنه هنا بتصريف.
(١٣٧) إضافة من ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٣ وتعنى مغشياً عليه.
(١٣٨) العبارة بين الحاصرين إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٣.
(١٣٩) إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٣.
(١٤٠) فهى إمرأتى، انظر ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٣، ويلاحظ أن هذه الزيجة، وطدت أواصر الصداقة بين البطال وبين حميه، فصار يكاتبه ويهاديه كما اتضح من المتن، ويبدو أن البطال لم يتزوج بغير هذه الفتاة، حيث أنجب منها كل أولاده وهم: محمد ويحيى والحسين وغيرهم، لمزيد من التفاصيل انظر أحمد عبد اللطيف حنفى، عبد الله البطال، ص٣٥٩.

(١٤١) المصيصة من أهم الثغور الشامية، التى تقع فى الجنوب الغربى قريباً من ساحل الاسكندرونة، وكانت هذه الثغور خط دفاعى أقامه هارون الرشيد على الحدود مع البيزنطيين.

(١٤٢) راث أى أبطأ.

(١٤٣) العبارة بين الحاصرتين إضافة من ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٤.

(١٤٤) انظر ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، م٥، ص ٤٣٥ – ٤٣٦.

(١٤٥) إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٤.

(١٤٦) مدينة عمورية أشهر مدن ثغر الأناتوليك «الأناضول» أو ثغر الشرق فى وسط آسيا الصغرى، كما أنها أهم مدينة فى إقليم فريجيا، أنظر حسنين ربيع، دراسات، ص١٤٣ – ١٤٤، وعن محاولة البطال اقتحامها عام ٨٩ هـ/ ٧٠٨م انظر أحمد عبد اللطيف، عبد الله البطال، ص ٣٤٠ – ٣٤٢.

(١٤٧) يقصد بالملك هنا الإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى «٧٠٥ – ٧١١م»، وقد اقنع البطال حراس البوابة الرئيسية، بأنه مبعوث من قبله، جاء للقاء حاكم المدينة فى أمر شخصى. انظر أحمد عبد اللطيف، عبد الله البطال، ص ٣٦٠ – ٣٦١.

(١٤٨) العبارة بين الحاصرتين جاءت على النحو التالى فى ابن عساكر: جلست على مثال «أى فراش» إلى جانب مثاله، انظر: ج٣٣، ص ٤٠٤.

(١٤٩) راجع ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٤.

(١٥٠) إضافة من ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٤.

(١٥١) أجزت عند ابن عساكر، ج٣٣، ص٤٠٤.

(١٥٢) العبارة بين الحاصرتين إضافة من ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٤.

(١٥٣) راجع ابن عساكر، تاريخ دمشق ج٣٣، ص ٤٠٤ – ٤٠٥.

(١٥٤) استشهد البطال فى معركة ربض أقرن «١٢٢ هـ/ ٧٤٠ م» وتعرف كذلك باسم «أكروينون» وقرة حصار، بالقرب من عمورية، وفى هذه المعركة استطاع الإمبراطور البيزنطى ليو الثالث الأيسورى «٧١٧ – ٧٤٠م» وابنه قسطنطين الخامس أن ينزلا بالمسلمين هزيمة شنعاء، أجبرتهم على إخلاء الجزء الغربى من آسيا الصغرى تماماً، والتقهقر شرقاً. لمزيد من التفاصيل، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، م٥، ص ٤٣٦ – ٤٣٧؛ وسام عبد العزيز فرج، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى، اسكندرية ١٩٨١م، ص٢٢٦ – ٢٢٧. وديع فتحى عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى، اسكندرية ١٩٩٠م، ص١١٤ – ١١٨، حسنين ربيع، دراسات، ص١٠٦ – ١٠٧؛ أحمد عبد اللطيف، عبدالله البطال، ص ٣٦٤-٣٦٩.

(١٥٥) التدام النساء، ضربهن صدورهن ووجوهن فى النياحة.

(١٥٦) الهيام: أشد العطش.

(١٥٧) اللهام: الجيش الكثير كأنه يلتهم كل شيء.

(١٥٨) سقطت من الأصل (أ)، وردت فى نسخة (ب) ورقة ٧٦ ب، وفى ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤٠٧.

(١٥٩) يلاحظ أن العمرى انتقى بعض الأبيات دون البعض الآخر، وقد أورد ابن عساكر الأبيات كلها، انظر: ج٣٣، ص٤٠٦ – ٤٠٧.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية والمعربة:

■ ابن أبى أصبيعة:
- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، بيروت، ١٩٨٧م.
■ ابن بطوطة (محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتى ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):
- تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، بدون تاريخ.
■ ابن البيطار (ضياء الدين أبى محمد بن عبدالله الأندلسى المالقى العشاب):
- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج٣، القاهرة، بدون تاريخ.
■ ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م):
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، الأجزاء من ٦-١٠ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة بدون تاريخ.
- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ج٢، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٤م، ج٣، تحقيق نبيل عبدالعزيز، القاهرة، ١٩٨٦م.
■ ابن حبيب (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م):
- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، ج١-٣، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٧٦-١٩٨٦م.
■ ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على بن محمد ت ٨٢٥هـ/ ١٤٤٨م):
- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، القاهرة، ١٩٦٦م.
■ ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله ت حوالى ٣٠٠هـ/ ٩١٢م):
- المسالك والممالك ويليه نبذ من كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، ليدن، بريل، ١٨٨٩م.
■ ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر ت٣٣٧هـ/ ٩٤٨م)
- الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٩٦٧م.
■ ابن شاكر الكتبى (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٣م.
■ ابن شداد (بهاء الدين بن شداد ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٩م):
- سيرة صلاح الدين أو النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤م.
■ ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م):
- تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق محب الدين أبى سعيد غرامة، ج٣٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

■ ابن العماد الحنبلي (أبو الفرج عبدالحي ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م):
- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج٥، بيروت، بدون تاريخ.
■ ابن كثير (الحافظ الدمشقى ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م):
- البداية والنهاية، م٥، تحقيق عبدالعزيز النجار، القاهرة، ١٩٩٢م.
■ أبو طالب الدمشقى (شمس الدين بن أبى عبدالله ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م):
- نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، ليبزج ١٩٢٣م.
■ أبو الفدا (عماد الدين بن إسماعيل بن محمد ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م):
- تقويم البلدان، صححه رينود وماك كوكين ديسلاف، باريس، ١٨٤٠م.
■ خليل بن شاهين (غرس الدين خليل ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨م):
- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تصحيح بولس راويس، باريس، ١٨٩٤م.
■ الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م):
- الوافي بالوفيات، ج٨، اعتناء محمد يوسف نجم، فيسبادن ١٩٢٨م.
■ الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ / ٩٩٢م):
- تاريخ الطبرى أو تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، بيروت، بدون تاريخ.
■ العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩م):
- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ٨ معارف عامة، رقم الميكروفيلم ٢٠٧٤٣ .
- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار إصدار فؤاد سزكين، السفر الثالث، معهد العلوم العربية الإسلامية، ألمانيا الاتحادية، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.
- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، الجزء الخاص بمملكة اليمن، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٨٥م.
- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، السفر الثالث، ممالك الشرق الإسلامى والترك ومصر والشام والحجاز، تحقيق محمد عبدالقادر الشاذلى، أبو ظبى، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٣م.
- التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، ١٩٨٨م.
■ القلقشندى (أحمد بن على بن أحمد ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨م):
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج ٤، ٥، القاهرة، ١٩١٥م.
■ كلارى «روبرت»:
- فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة حسن حبشى، القاهرة، ١٩٦٤م.

■ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢م):
- السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٦ - ١٩٥٨م.
■ النحوى (أبو طالب المفضل بن سلمة ت ٣٩٠ هـ / ٩٩٩م):
- كتاب الملاهى وأسمائها من قبل الموسيقى، تحقيق غطاس عبد الملك خشبة، القاهرة، ١٩٨٥م.
■ وليم فلهاردوان:
- فتح القسطنطينية، ترجمة حسن حبشي، جدة، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢م.
■ ياقوت الحموى (ابن عبد الله الحموى الرومى البغدادى ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م):
- معجم البلدان، م ٤، ٥، بيروت، ١٩٨٤م.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة:

- أحمد عبد اللطيف حنفى، «عبد الله البطال، صفحة مشرقة للجهاد الإسلامى الأموى ضد البيزنطيين (٨٦ - ١٢٢ هـ / ٧٠٥ - ٧٤٠م)» بحث منشور فى مجلة كلية الآداب - جامعة حلوان، العدد ٩، ١٠ سنة ٢٠٠١م.
- أحمد عيسى، معجم الأطباء، مصر، ١٩٤٢م.
- حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار، ج٢، القاهرة، ١٩٦٦م.
- حسن محمد عبد الله النابودة، «شهاب الدين ابن فضل الله العمرى (٧٤٩ هـ / ١٣٤٩م) دراسة تحليلية للجزء الرابع والعشرين من مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار»، بحث منشور فى مجلة وقائع تاريخية، عدد يوليو ٢٠٠٤م، ص٥ -٢١.
- حسنين محمد ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٩٥م.
- دوزى، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، بغداد، ١٩٧١م.
- رنسيمان «استفن»، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٦١م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة، ١٩٦٥م.
- شوقى ضيف، تاريخ الأدب العربى، العصر العباسى الأول، القاهرة، ١٩٦٦م.
- طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجى، ج١، البيزنطيون والمسلمون، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- عائشة أبو الجدائل، الأنصهار والاندماج فى الإقطاع الحربى، دراسة مقارنة،

حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الحولية، الثالثة، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤م.
- عبد الرحمن أمين صادق أبو راس، القاضى شهاب الدين العمرى، رائد كتاب المصطلح الشريف، طنطا، ١٩٩٤م.
- عبد الرحمن فهمى، النقود العربية، ماضيها وحاضرها، القاهرة، ١٩٦٤م.
- فالتر هينس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها فى النظام المترى، ترجمة كامل العسلى، عمان، ١٩٧٠م.
- كراتشوفسكى، تاريخ الأدب الجغرافى العربى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، جزءان، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ليلى عبد الجواد إسماعيل،
الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، ١٩٨٥م.
«القسطنطينية فى ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين»، بحث منشور فى مجلة المؤرخ المصرى، العددان ٣ ، ٤ سنة ١٩٨٩م.
« السياسة الخارجية للإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية» رسالة ماجستير غير منشورة»، آداب القاهرة، ١٩٨٠م.
تاريخ الإسلام والمسلمون في حوض الفولجا، القاهرة ٢٠٠٦م.
- ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتى، القاهرة، ١٩٧٢م.
- محمد عبد الله عنان،
مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى، القاهرة، ١٩٦٩م.
مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.
- محمد قنديل البقلى، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، القاهرة، ١٩٨٤م.
- محمد محمد أمين على، «آخور - آخورية»، مقال منشور بموسوعة تاريخ وآثار مصر الإسلامية، ج٣، لندن، بدون تاريخ.
- ناهد عمر صالح، «السياسة الخارجية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد أندرونيقوس الثانى باليولوجوس»، رسالة دكتوراه غير منشورة آداب القاهرة، ١٩٩٩م.
- نبيل محمد عبد العزيز، الطرب وآلاته فى عصر الأيوبيين والمماليك، القاهرة، ١٩٨٠م.
- وديع فتحى عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى، الإسكندرية، ١٩٩٠م.
- وسام عبد العزيز فرج،
العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن

الثامن الميلادى، اسكندرية، ١٩٨١م.
« أضواء على مجتمع القسطنطينية، دراسة فى التاريخ الاجتماعى لمدينة قسطنطين»، بحث منشور فى كتاب دراسات في التاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى العصور الوسطى، إسكندرية، ١٩٨٥م.

ثالثا: المراجع الأجنبية

- Bratianu, L'Hyperpere Byzantin et la Monnaie d'or des Républiques Italiennes au XIII Siècle , Dans Melanges Charles Diehl, Vol. I, Paris 1930, PP. 37 _ 48.
- Charanis, "Economic Factors in the Decline of The Byzantine Empire" in Journal of Economic History, Vol. 13, 1953.
- Ebersolt. J., Le Grand Palais de Contantinople et Des Céremoies, Paris, 1910.
- Janin, "Constantinople" Dans Dict. d'Histoire et Geographie Ecclesiastiques, T.13, pp. 626 _ 627.
- Vasiliev, "On The Question of Byzantion Fendalism", in By Zantion,, t.8, Bruxells (1933).
- Van Millingen, A Byzantine Churches in Constantinople, London, 1912.
- Voget, "L'Hippodrme de Constantinople" Dans Byzantion (1935).

د. منى سعد محمد الشاعر (*)

إمارة بنو سكمان في خلاط

تأسيس الإمارة:

أسس سكمان القطبي إمارة بنى سكمان في خلاط(١) متخذا من مدينة خلاط قاعدة لحكمه؛ وقد كان سكمان أحد المماليك الأتراك لدى قطب الدين إسماعيل الوالي السلجوقي على أذربيجان، لذا نسب إليه وعرف بسكمان القطبي. وتشير بعض المراجع إلى أن سكمان القطبي تولى إمارة خلاط في عام ٤٩٣/ ١٠٩٩م بعد أن استولى عليها من المروانيين الأكراد(٢) أصحاب ديار بكر(٣)؛ ويبدو أن تلك المراجع استندت على ما ورد في ابن الوردي الذي أشار إلى أن أهل خلاط استدعوا سكمان القطبي في عام ٤٩٣هـ / ١٠٩٩م، وسلموا إليه البلد بدلا من المروانيين؛ ويتفق ابن خلدون مع ابن الوردي في استدعاء أهل خلاط لسكمان القطبي للتخلص من حكم المروانيين، لكنه اختلف معه في تحديد الوقت الذي سار فيه سكمان إلى خلاط حيث أشار ابن خلدون إلى أن سكمان سار إلى خلاط في عام ٥٠٢ هـ / ١١٠٨م(٤).

ويتضح من الروايتين وجود تضارب كبير في تاريخ دخول سكمان القطبي خلاط، وقد يرجع هذا التضارب إلى أن كلا من ابن الوردي وابن خلدون لم يعاصرا تلك الأحداث، فضلا عن أنهما أوردا أحداث إمارة بني سكمان في خلاط مجتمعة وملخصة بشكل موجز في أقل من صفحة، إلا أنهما يؤكدان دخول سكمان إلى خلاط وانتهاء حكم المروانيين فيها.

وبعد استقراء المصادر المعاصرة لم يتوفر من خلالها أية إشارات عن كيفية تولي سكمان القطبي الإمارة بخلاط، ومتى تولاها؛ كما لم توضح تلك المصادر أيضا أنه هو الذي استولى عليها من المروانيين. ولكن ما تؤكده المصادر المعاصرة لتلك الأحداث أن السلطان السلجوقي ألب أرسلان قد انتزع خلاط من المروانيين بعد موقعة ملاذكرد(٥) في عام ٤٦٣هـ

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد، قسم التاريخ، كلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر، فرع البنات بالقاهرة

/١٠٧١م وولى عليها واليا من قبله لم يذكر اسمه؛ يضاف إلى ذلك أن حكم المروانيين في ديار بكر- والتي كانت فيها قاعدة ملكهم- تقلص على يد السلاجقة حتى انتهى في عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، على يد القائد السلجوقي جهير(٦)؛ ويؤكد ذلك ابن الأثير في حوادث عام ٤٧٨ هـ /١٠٨٥م فيقول:«وانقرضت دولة بني مروان»(٧)؛ لذا يعتبر ما ذكرته المراجع حول قضاء سكمان القطبي على المروانيين غير دقيق ولم يكن فيه حسن تتبع للأحداث؛ فمن الواضح أن سكمان القطبي تولى حكم خلاط من قبل السلاجقة وليس استيلاءا عليها من بني مروان، كما يتضح من خلال تتبع أخبار خلاط من المصادر المعاصرة أن تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان استولى على حلب والجزيرة وديار بكر وخلاط وأذربيجان في عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م، وذلك بعد مقتل قسيم الدولة آقسنقر(٨)، مما يدل على أن خلاط كانت تحت حكمه في تلك الآونة، حيث سار إليها تُتُش وملكها وأعمالها(٩).

ولم يستمر تُتُش طويلا على حكم تلك البلاد، ذلك أن السلطان بركياروق بن السلطان ملكشاه(١٠) لم يرض عما فعله عمه تُتُش وأدرك أنه يطمع في السلطنة، لذلك توجه بركياروق لمحاربته بالري، وتمكن من إنزال الهزيمة به في عام ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م؛ وبذلك أصبحت خلاط في طاعة السلطان بركياروق السلجوقي يقطعها لمن يشاء(١١)؛ وعلى الرغم من عدم توفر معلومات وافية عن خلاط خلال فترة حكم السلطان بركياروق إلا أن سكمان القطبي يبدو أنه قد تولاها في عهده من قبل مودود بن إسماعيل بن ياقوتي والي أذربيجان وابن خال السلطان بركياروق(١٢).

ويؤكد ذلك أنه عندما حدث صراع بين السلطان بركياروق وأخيه السلطان محمد انضم مودود بن إسماعيل الياقوتي إلى السلطان محمد وبذلك دخلت أذربيجان وخلاط في طاعة السلطان محمد؛ ويشير ابن الأثير في حوادث عام ٤٩٦هـ /١١٠٢م إلى البلدان التي كانت في طاعة السلطان محمد فيقول: «كنجة وبلاد أران(١٣)، وكانت آخر ما تقام فيه الخطبة لمحمد زنجان(١٤) مما يلي أذربيجان» (١٥)

ولما احتدم الصراع مرة أخرى بين بركياروق وأخيه محمد تحالف محمد مع مودود بن إسماعيل صاحب أذربيجان- وكان السلطان محمد زوجا لأخته- واتفقا معا على التصدي للسلطان بركياروق؛ وسار مودود وقواته إلى خدمة السلطان محمد، وكان ضمن قواته سكمان القطبي، مما يؤكد أنه تولى خلاط من قبل والي أذربيجان مودود بن إسماعيل على عهدي السلطان بركياروق وأخيه السلطان محمد السلجوقيين. ويؤكد ابن الأثير وجود قوات سكمان القطبي ضمن

قوات والي أذربيجان مودود بن إسماعيل فيقول:«ولما بلغ بركياروق اجتماع السلطان محمد والملك مودود سار غير متوقف فوصل بعد مودود وكان عسكر مودود قد اجتمعوا على طاعة السلطان محمد وحلفوا له ومنهم سكمان القطبي»[١٦].

وعندما وصل السلطان بركياروق إلى باب خُوَّي[١٧] من أذربيجان اشتعلت الحرب بينه وبين أخيه السلطان محمد وحلفائه فدارت الدائرة على قوات السلطان بركياروق وانتهت بهزيمتها، فرّ على أثرها السلطان بركياروق إلى جبل كثير العشب والماء بين مراغة[١٨] وتبريز[١٩] فأقام فيه أياما ثم سار منه إلى زنجان. أما السلطان محمد فقد سار في عام ٤٩٧ هـ/ ١١٠٣م وبصحبته سكمان القطبي إلى أرجيش من أعمال خلاط «وهي من جملة إقطاع الأمير سكمان القطبي» [٢٠]، ثم سار منها إلى خلاط، وهناك راسله الأمير علي صاحب أرزن الروم[٢١] ليعلن له الولاء والطاعة، فتوجه إليه السلطان وانضم إليه الأمير علي وسار الجميع إلى آني ومنها إلى تبريز ثم إلى أذربيجان، وبذلك أصبحت جميع تلك البلدان في طاعة السلطان محمد(٤٩٨-٥١١هـ/١١٠٤-١١١٧م) يخطب فيها باسمه[٢٢]؛ مما يوضح أن خلاط وأعمالها أصبحت في إقطاع الأمير سكمان القطبي، ويخطب فيها للسلطان محمد السلجوقي.

توسع إمارة خلاط على عهد سكمان القطبي:

بعد أن استقرت إمارة سكمان القطبي في خلاط أخذ يتطلع إلى توسيع إمارته ومدها على حساب الجزيرة الفراتية، وذلك لتشمل مملكته الجزيرة وأرمينية، لذا بدأ ينفذ مشروعه؛ ففي عام ٥٠٢ هـ /١١٠٨م خرج سكمان القطبي على رأس حملة من خلاط قاصدا ميافارقين، وعندما وصلها شدد الحصار عليها، وضيق على أهلها، واستمر محاصرا لها سبعة أشهر حتى تمكن من دخولها بعد طول الحصار، وأقام بها فترة ينظم أحوالها بعد ما لاقته المدينة من الشدة، فأسقط الكثير من الضرائب عن كاهل أهلها، كما أنه خفف الخراج عن أراضيها، وسار في الناس سيرة حسنة، وأقام العدل بينهم[٢٣]. وبعد أن تمت سيطرته على ميافارقين بدأ أمراء ديار بكر يراسلونه مقدمين إليه فروض الولاء والطاعة[٢٤]، ولما استقرت أحواله في ميافارقين ولى عليها واليا من قبله وعاد إلى قاعدته في خلاط[٢٥].

ولاشك أن ذلك يوضح السياسة الخارجية التي انتهجها سكمان القطبي، حيث حرص على أن يوسع رقعة إمارته لتشمل ديار بكر وأرمينية، فضلا عن أنها توضح أيضا أنه سار في سياسته الداخلية تجاه الرعية سيرة حسنة، حيث

حرص على إقامة العدل، وتحسين الأحوال الاقتصادية في البلاد التي خضعت لسيطرته فأسقط الضرائب، وخفف الخراج ونظم البلاد.

جهاد سكمان القطبي ضد الصليبيين:

أسهم سكمان القطبي بدور بارز في الجهاد ضد الصليبيين، ففي عام ٥٠٣هـ / ١١٠٩م أسند إليه السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي قيادة الحملة ضد الصليبيين؛ ويشير إلى ذلك ابن القلانسي في حوادث ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م فيقول:«كاتب السلطان الأمير سكمان القطبي صاحب أرمينية ومودود صاحب الموصل يأمرهما بالمسيرإلى جهاد الفرنج»[٢٦]؛ واستجاب سكمان القطبي وصاحب الموصل لنداء السلطان، وأعدا قواتهما وسارا إلى جزيرة نمير حيث انضم إليهما الأمير إلغازي الأرتقي بجمع كبير من التركمان، فضلا عن انضمام عدد كبير من المتطوعة إليهم، واجتمعت تلك القوات تحت قيادة سكمان القطبي وشرف الدين مودود صاحب الموصل، واتفقت أراؤهم على بدء العمليات العسكرية بمهاجمة الرها واستردادها من الصليبيين، فتوجهت تلك القوات إلى الرها في شوال من عام ٥٠٣ هـ/١١٠٩م وشددت الحصار عليها[٢٧].

ويشيرمتى الرهاوي إلى ضخامة ذلك الجيش فيقول:«وصل مودود بجيش انتشرحول المدينة وغطى بجنوده الجبل والتلال كل الشرق كان مصطفا تحت أعلامه»[٢٨]؛ وعندما رأى بلدوين دي بور أمير الرها الصليبي[٢٩] احتشاد المسلمين وتشديد الحصار على المدينة أرسل يستنجد ببلدوين دي بوايون ملك مملكة بيت المقدس الصليبية[٣٠]، الذي لم يتوجه لنجدته في الحال لانشغاله باحتلال بيروت آنذاك[٣١]، لكنه بعد أن فرغ من احتلالها استطاع الملك بلدوين أن يوحد الصليبيين في جبهة واحدة تحت قيادته حيث انضم إليه كثير من العناصر المسيحية[٣٢]، كما أرسل إلى تانكرد حاكم أنطاكية الصليبي يستدعيه للمشاركة في المعركة ضد المسلمين لرفع الحصار الإسلامي عن الرها، فاستجاب تانكرد إليه، وتوجه على رأس قوة قوامها ألف وخمسمائة فارس للاجتماع برفاقه، ومن ثم توجه الجميع إلى الرها[٣٣].

وعندما وصلت أخبار تجمع حشود القوات الصليبية وعزمها التوجه إلى الرها إلى طغتكين حاكم دمشق أسرع هو الآخر على رأس قوة كبيرة، عبر بها الفرات لنجدة المسلمين على الرها، في حين لم يتمكن الصليبيون من عبور الفرات بسبب انتشار طلائع القوات الإسلامية في كافة المنافذ المؤدية إليه؛ ولإتمام ملاقاة القوتين قررالمسلمون فتح الطريق أمام الصليبيين ليتمكنوا من لقائهم في السهول الممتدة شرقي الفرات، لذلك غادر المسلمون الرها في ذي

الحجة ٥٠٣هـ/١١١٠م، وتقدموا إلى حران[٣٤] التابعة آنذاك للأمير الإرتقي إيلغازي فعسكروا فيها خدعة للصليبيين[٣٥].

أدرك الصليبيون الهدف من وراء تحرك المسلمين إلى حران، كما وصلهم أثناء ذلك أنباء تشير إلى تحرك رضوان بن تُتش صاحب حلب[٣٦] لمهاجمة المواقع التابعة لإنطاكية، وتحرك الفاطميون في مصر لمهاجمة فلسطين، مما وضعهم في مأزق حرج، فرأوا عدم جدوى مواجهة المسلمين، وقرروا الانسحاب من الجهات الواقعة شرقي الفرات وإخلائها من المسيحيين الشرقيين (الأرمن واليعاقبة) ونقلهم إلى الجهات الغربية التابعة للصليبيين، وتحصين مدينة الرها وتقوية الإمكانيات الدفاعية عنها؛ وبدأ الصليبيون بالفعل ينفذون خطة الانسحاب وتم نقل المسيحيين المدنيين إلى الجهات المذكورة[٣٧]، وفي أثناء ذلك أدركتهم طلائع القوات الإسلامية فانقضت عليهم وأنزلت بهم الهزيمة فغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة وقتلوا وأسروا وأغرقوا منهم الكثير، ثم اتجهت القوات الإسلامية مرة ثانية لحصار الرها إلا أن حصانة المدينة واهتمام الصليبيين بتموينها وزيادة تحصينها أعجزت المسلمين عن فتحها لذلك تركوا عليها قوة إسلامية لمراقبتها وعاد كل إلى بلده[٣٨].

مما تجدر الإشارة إليه أن ثمة خلاف وتشاحن قد حدث بين سكمان القطبي وإيلغازي الأرتقي أثناء الحملة التي أسهم فيها كل منهما في جهاد الصليبيين؛ وأخذ هذا التشاحن في الازدياد مما اضطر إيلغازي أن يفر هاربا إلى ماردين خشية من سكمان القطبي، لذلك قبض سكمان القطبي على بلك ابن أخي إيلغازي وحمله معه مقيدا إلى خلاط [٣٩]. ويبدو أن هذا الخلاف هو الذي عجل بإنهاء العمليات العسكرية ضد الصليبيين على الرها وترك الحصار عليها لبعض القوات، وعودة القادة إلى بلادهم.

وعندما رحل المسلمون عن الرها انتهز الصليبيون الفرصة فعبروا الفرات إليها وأمدوها بكل ما يلزم من المؤن والميرة والذخائر وكل ما يحتاجون إليه أثناء الحصار، ثم تركها الصليبيون بعد التحصين والأمداد وتوجهوا إلى حلب للرد على ما قام به الملك رضوان صاحب حلب أثناء انشغالهم في تحصين الرها من استرداد بعض البلدان التي استولى عليها الصليبيون من قبل، لذلك هاجموا أعمال حلب وأعملوا فيها النهب والسلب، وقتلوا الكثير من المسلمين، كما وقع في أسرهم الكثير[٤٠].

واستصرخ الملك رضوان العساكر الإسلامية بسب غزو الصليبيين لأراضيه، فاستجاب السلطان محمد السلجوقي لندائه [٤١]، وأسند إلى الأمير سكمان القطبي صاحب خلاط قيادة الحملة على الصليبيين في عام ٥٠٥هـ/

١١١١م، كما انضم إليه الأمير مودود صاحب الموصل والأميران إيلبكي وزنكي ابنا برسق صاحب همذان والأمير أحمديل الكردي صاحب مراغة، وأبو الهيجاء صاحب إربل وغيرهم؛ واجتمعت القوات الإسلامية تحت قيادة سكمان القطبي لجهاد الصليبيين(٤٢)، ثم توجهت إلى سنجار شرقي الفرات ففتحت عدة حصون للصليبيين بها بعد أن قتلوا عددا كبيرا منهم، ثم واصلت القوات الإسلامية سيرها إلى الرها، فحاصرتها فترة دون جدوى بسبب إحكام الصليبيين تحصيناتها العسكرية وشحنها بالقوات والمؤن(٤٣).

ولما لم يستطع المسلمون فتح الرها رفعوا الحصار عنها وعبروا الفرات إلى تل باشر في١٩من المحرم ٥٠٥هـ / ١١١١م فحاصروها خمسة وأربعين يوما دون جدوى(٤٤)؛ وفي أثناء الحصار لحق المرض بقائد القوات الإسلامية الأمير سكمان القطبي فأسند القيادة إلى الأمير أحمديل الكردي، فانتهز جوسلين صاحب تل باشر الصليبي الفرصة وتمكن من رشوة القائد أحمديل الذي أمر بانسحاب القوات وفك الحصار عن الحصن رغم معارضة بقية الأمراء ذلك(٤٥)، كما ساعده على ذلك أيضا اشتداد المرض على الأمير سكمان القطبي الأمر الذي جعله لا يستطيع أن يتخذ موقفا ضد القائد أحمديل؛ وتوجهت القوات الإسلامية بعد الانسحاب من تل باشر إلى حلب، فرفض الملك رضوان أن يجتمع بهم؛ وفي أثناء ذلك ازداد المرض على الأمير سكمان القطبي فاضطروا إلى العودة به إلى بالس(٤٦)، فمات بها، ثم حُمل إلى خلاط ودفن بها (٤٧).

ويتشفى متى الرهاوي من سكمان القطبي بعد وفاته على طريقته الخاصة فيعتبر ذلك «عقابا أنزله به السيد المسيح بسبب تخريبه لإقليم الرها والمذابح التي قام بها فيه»(٤٨)، وإن دلت هذه الرواية على شئ فإنما تدل على مدى حنق متى الرهاوي وغيظه بسبب الدور الذي قام به الأمير سكمان القطبي في قيادة الحملة على الصليبيين وجهادهم الأمر الذي أطاح بالكثير من قواتهم.

خلاط على عهد الأمير إبراهيم بن سكمان القطبي(٥٠٥-٥٢١هـ/١١١١-١١٢٧م)

تولى الأمير إبراهيم بن سكمان القطبي إمارة خلاط بعد وفاة أبيه في عام ٥٠٥هـ /١١١١م؛ ولما استقرت أحوال الولاية، سار الأمير إبراهيم إلى ديار بكر بالجزيرة الفراتية لاستطلاع أحوال إقطاعياته فيها، فتوجه أولاً إلى ميافارقين فوصلها في عام ٥٠٦هـ /١١١٢م؛ وعندما دخلها عزل الوالي غُزّعلي الذي ولاه والده الأمير سكمان من قبل عليها، وولى مكانه أبا منصور المعين واليا على ميافارقين، كما ولى في وزارتها السديد أبو سعد الجويلي- أخا أبا منصور المعين؛ أما بقية إقطاعياته في بلاد الجزيرة فولى عليها القاضي فخر الدين بن

عمر؛ ثم عاد الأمير إبراهيم إلى قاعدته في خلاط بعد أن أطمأن على إقطاعاته في دياربكر بالجزيرة الفراتية، ونظم أحوالها وأقر الأمور فيها لحكمه [٤٩].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخاتون زوجة الأمير سكمان صاحبت أبنها الأمير إبراهيم خلال مسيرته إلى دياربكر لمباشرة إقطاعاته هناك، بل كان لها دور فعّال في إقرار أمور إقطاعاته بتلك المناطق؛ ويؤكد ذلك الفارقي فيقول: «وفي سنة ست وخمسمائة وصلت الخاتون زوجة الأمير سكمان وولده الأمير إبراهيم إلى ميافارقين» [٥٠]؛ ومما يؤكد قيامها أيضا بأعباء الحكم مع ابنها أن القاضي علم الدين أبو الحسن علي بن نباته سار إلى خلاط في عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م «واجتمع بالأمير إبراهيم والخاتون»، وتقرر في هذا الاجتماع تولية القاضي علم الدين قضاء ميافارقين، فعاد بعده إلى ميافارقين وباشر القضاء فيها[٥١].

خروج ميافارقين عن حكم إبراهيم بن سكمان:

على الرغم من محاولات الأمير إبراهيم وأمه الخاتون إقرار الأمور في ميافارقين ومحاولة الاحتفاظ بها تابعة لإمارته إلا أن نائبه بها أبا منصور المعين أظهر الثورة والتمرد والعصيان عليه في عام ٥٠٧ هـ / ١١١٣م؛ ولما علم الأمير إبراهيم بذلك استدعى الوزير السديد أبو سعد الحويلي وقتله في ملاذكرد مما أدى إلى زيادة اشتعال الثورة والتمرد عليه في ميافارقين. وقد حمّل الأمير إبراهيم القاضي ابن نباته مغبة تلك الأحداث، لذلك أمر بعزله عن قضاء ميافارقين وولى مكانه أبا المرجا يحيى بن الضرير[٥٢] في أواخر عام ٥٠٧هـ/ ١١١٣م، ولكن لم يوافق الوالي أبو منصور المعين على تولي أبي المرجا قضاء ميافارقين فقبض عليه في رجب عام ٥٠٨ هـ/ ١١١٤م، ثم قتله في ليلة النصف من شعبان من نفس العام، كما قتل حاجبا عنده يدعى نثار كان تابعا للأمير إبراهيم بن سكمان؛ وولى أبو منصور المعين في القضاء أبا الحسن أحمد بن عمار بن مظفر من أهل بدليس[٥٣]، وأصبح أبو منصور بذلك خارجا عن طاعة الأمير إبراهيم ومتحكما في ميافارقين[٥٤] ، مما يدل على أن تلك الثورة كانت محاولة استقلالية لميافارقين عن حكم بني سكمان أمراء خلاط.

غير أن الثورة في ميافارقين لم تستمر طويلا إذ ما لبث أن أرسل السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي مملوكه قراجا الساقي إلى ميافارقين في نهاية عام ٥٠٨هـ/ ١١١٤م، ولما وصل إليها قراجا أعرض عن دخولها متظاهرا أنه عابر فقط، وأنه ينتظر من يلحق به من أصحابه، ولذلك لم يراسل الوالي أبا منصور المعين ولم يكلمه في شيء؛ ولما رأى المعين ذلك كفل له الإقامة والضيافة إلى أن أصبحت الأمور ميسرة أمام قراجا والفرصة مواتية لشن هجوم على ميافارقين،

فانقض عليها بقواته التي كمن بها، وتمكن من البلد وسيطر عليها؛ وبعد ثلاثة أيام من دخول قراجا ميافارقين ضبّط أحوالها وقضى على ثورتها وعزل القاضي أبا الحسن بن عمار بن مظفر عن القضاء وولى مكانه القاضي ابن نباته، غير أن مما يسترعي الانتباه تعيينه الوالي أبا منصور المعين-الذي قاد الثورة ضد حكم بني سكمان- على الوزارة في ميافارقين، بل الأكثر من ذلك سلم إليه كل الأمور في البلد مرة أخرى(٥٥). ولاشك أن ذلك يؤكد أنه كان هناك اتفاق مسبق بين قراجا وأبي منصور المعين من أجل تقليص إمارة بني سكمان في ديار بكر.

بقي قراجا في ميافارقين حتى استدعاه السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي وعينه على ولاية فارس وشيزر، فسارإليها وبصحبته وزيره أبو منصور المعين الذي وزره أيضا في ولاية فارس وشيزر؛ أما ميافارقين فقد ولى عليها السلطان محمد ملكشاه أحد المماليك ويدعى الرزبيكي الذي سار إليها وتولى مقاليد الحكم فيها عام ٥٠٩هـ/ ١١١٥م(٥٦)؛ مما يوضح أن ميافارقين قد خرجت عن حكم إبراهيم بن سكمان القطبي وأصبحت تابعة مباشرة لحكم السلطان السلجوقي.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المصادر يندر بها المعلومات الوافية عن فترة حكم إبراهيم بن سكمان لخلاط، ولكن من خلال استقرائها اتضح أن أحوال خلاط وأعمالها كانت مستقرة على عهده خاصة وأنه سار في الرعية سيرة حسنة من إقامة العدل وضبط الأقاليم، وهي نفس السياسة التي أتبعها أبوه من قبل؛ واستمر الأمير إبراهيم على نهج تلك السياسة حتى وفاته في عام ٥٢١هـ/١١٢٧م، أي بعد حوالي ستة عشر عاما من قيامه على حكم خلاط؛ وبعد وفاته تولى أخوه أحمد بن سكمان القطبي إمارة خلاط، ولكن لم تطل فترة حكمه لخلاط، حيث وافته المنية في نفس العام(٥٢١هـ/ ١١٢٧م)، أي بعد عشرة أشهر من توليه الحكم، ثم تولى بعده ابن أخيه سكمان بن إبراهيم بن سكمان(٥٧).

سكمان بن إبراهيم بن سكمان القطبي(شاه أرمن) (٥٢٢-٥٨١هـ/١١٢٨-١١٨٥م)

تولى سكمان بن إبراهيم بن سكمان القطبي إمارة خلاط في عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م بعد وفاة عمه أحمد بن سكمان؛ وكان سكمان صبيا دارجا لذا استبدت عليه جدته الخاتون أم الأمير إبراهيم والتي شاركت ابنها من قبل في حكم خلاط؛ ويقال أنها دبرت مؤامرة لقتله والإنفراد بحكم خلاط، لكنها وقعت في شرك تلك المؤامرة وقتلت في عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م، مما أفسح الطريق لانفرد سكمان بن إبراهيم بن سكمان القطبي في حكم خلاط، بل تمكن أن يمد نفوذه على معظم أرمينية طيلة فترة حكمه حتى وفاته في عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م(٥٨).

وقد ذكرت بعض المراجع أن لقب شاه أرمن(٥٩) اقترن باسم سكمان القطبي أول أمراء خلاط من بني سكمان، لذلك أطلقت تلك المراجع على إمارة بني سكمان في خلاط إمارة شاهات أرمن(٦٠)؛ ولكن بعد استقراء المصادر المختلفة وُجد أن سكمان بن إبراهيم بن سكمان القطبي-الذي يعد آخر أمراء بني سكمان في خلاط- هو أول من أطلق عليه لقب شاه أرمن من بني سكمان، حيث ذكرت المصادر اسمه مقترنا بلقب شاه أرمن دون من سبقوه من بني سكمان في حكم خلاط(٦١)؛ ومماتجدرالإشارة إليه أن لقب شاه أرمن لم يختص به سكمان بن إبراهيم القطبي فقط بل لقب به أيضا الملك الأشرف موسى الأيوبي الذي عرف أيضا بشاه أرمن بعد أن نجح في أن يمد نفوذه على خلاط ومعظم أرمينية، بالإضافة إلى ما بيده من بلاد الجزيرة الفراتية(٦٢) وهي نفس منطقة نفوذ إمارة الأمير سكمان بن إبراهيم بن سكمان القطبي، لذلك يبدو أنه من الأفضل أن يطلق على خلاط إمارة بني سكمان بدلا من إمارة شاهات أرمن.

جهاد شاه أرمن سكمان بن إبراهيم ضد الكرج:

ظهر الكرج في تلك الآونة كإحدى القوى المسيحية التي أخذت تناوئ الدولة الإسلامية وتوسعاتها، مستغلين في ذلك انشغال الجبهة الإسلامية في الجهاد ضد الصليبيين(٦٣)؛ ويبدو أن الكرج أرادوا الضغط على الجبهة الإسلامية للتقليل من حدة الجهاد ضد الصليبيين، فضلا عن أنهم أرادوا توسيع رقعة بلادهم خاصة وأن ملكهم جورج الثالث (٥٥١- ٥٨٠ هـ / ١١٥٦- ١١٨٤م) أخذ على عاتقه النهوض ببلاده وتوسيع رقعتها على حساب القوى الإسلامية المجاورة، حيث وصلت بلاد الكرج على عهده إلى الاستقلال الحقيقي(٦٤).

وتتابعت هجمات الكرج على البلدان الإسلامية المجاورة، ففي عام ٥٥٦هـ /١١٦٠م هاجم الكرج في عهد جورج الثالث مدينة آني التابعة للأمير فضلون بن منجوهرمن آل شداد وفضلون(٦٥)، واستولوا عليها كما استولوا على ما حولها من بلدان؛ ويذكر المؤرخ فلادمير مينورسكي أن الدافع وراء الهجمات التي شنها الملك الكرجي جورج الثالث على البلدان الإسلامية المجاورة كان بإيعاز من أحد فراد الأسرة الأوربيلية ويدعى إيفان Evan حيث أغرى الملك جورج الثالث على استعادة آني وغيرها من البلاد(٦٦).

- يبدو أن ملك الكرج قد استمال إليه المسيحيين في مدينة آني مما جعلهم يثورون في وجه صاحبها الأمير فضلون ويقودهم في ذلك القساوسة؛ ويشير الفارقي في حوادث عام ٥٥٦ هـ/ ١١٦١ م «وفي سنة ٥٥٦ هـ وثب القسوس بمدينة آنة على صاحبها الأمير فضلون بن منوجهر وانهزم ومضى إلى قلعة تسمى بكران

مجاور سرماري[٦٧] وسلموا القسوس آنه إلى ملك الأبخاز كركور[٦٨] وحضر عساكره وملكها ونهب منها مالا عظيما وسبى جميع أهل شداد وفضلون» [٦٩].

وكان شاه أرمن صاحب خلاط يتولى في تلك الآونة معظم أرمينية لذلك كانت أسرة منجوهر تحكم في آني من قبله؛ يؤكد ذلك أنه لما علم شاه أرمن بتلك الهجمات خرج على رأس قواته لمواجهة الكرج في عام ٥٥٦هـ/١١٦١م، وانضم إليه أمراء الأقاليم الأخرى التي كانت تابعة لخلاط بقواتهم ومنهم عز الدين صلتق صاحب أرزن الروم[٧٠]، وفخرالدين دولت شاه صاحب أرزن[٧١]، وصاحبي قرس وسرماري بقوتيهما وغيرهم من أمراء أعمال خلاط؛ كما انضمت إلى قوات شاه أرمن أعداد كثيرة من المتطوعة، وساروا جميعا إلى نهر الرس[٧٢] وعبروا إلى آني، وحاصروها، فتقدمت إليهم القوات الكرجية بقيادة الملك جورج الثالث؛ والتقت القوات الإسلامية بقوات ملك الكرج وانتهت المعركة بهزيمة شاه أرمن وقواته هزيمة بالغة مما اضطره للعودة إلى خلاط[٧٣].

ويوضح الفارقي مدى الهزيمة التي لحقت بشاه أرمن وقواته فيقول: «فانهزم شاه أرمن من باب آنة وصاحب أرزن بفرسه وأسر من المسلمين ما لا يحصى ونهب برك شاه أرمن وقتل أكثر أصحابه والمسعود من سلم من الواقعة وأسر من المسلمين مقدار تسعة ألف فارس وراجل من أكابر بيت سكمان وغيرها فأسر بدر الدين أخو الخاتون صاحبة خلاط لأمها وخلق لا يحصى»[٧٤].

ويعلل الفارقي سبب تلك الهزيمة بانسحاب الأمير صلتق وقواته عندما رأى ملك الكرج، فيقول في هذا الصدد: «لما وصلت العساكر والملك (يعني ملك الكرج بقواته) انهزم الأمير سلتق فانفصل عن المسلمين لأن كان ملك الأبخاز ديميطري لما أسره كما ذكرنا وأطلقه استحلفه أنه لا يضرب في وجهه سيفا ولا في وجه أولاده ولا يلقي له عسكرا ولا لأولاده ما عاش وطلب سلتق الفرس فانفصل عن المسلمين فلما انفصل الأمير سلتق انهزم العساكر من المسلمين»[٧٥]؛ وبعد هزيمة قوات شاه أرمن على آني وانسحابهم واستيلاء الكرج عليها ولى ملك الكرج على المدينة واليا من قبله، وعاد إلى تفليس[٧٦] عاصمة ملكه [٧٧].

لما علم الصاحب نجم الدين ألبي بن تمرتاش[٧٨] وهو في طريقه إلى ملاذكرد بخبر تلك الهزيمة، وكان قد التقى بالقوات قبل المعركة ولكنه لم يشترك فيها، عاد مسرعا إلى ميافارقين وأرسل وزيرالموصل إلى الملك جورج الثالث ليشفع في إطلاق سراح الأسرى المسلمين لديه ومنهم الأمير هلدري القرقطفي صاحب أسباكرد، وهو من رجال شاه أرمن وغيره الكثير، فاستجاب ملك الكرج لطلب الصاحب نجم الدين ألبي وتم إطلاق سراح أسرى المسلمين

مقابل مبلغ كبير من المال بلغ ما يقرب من ألف دينار دفعها نجم الدين ألبي إلى ملك الكرج من أجل افتداء الأسرى[٧٩].

وفى العام التالي كرر الكرج هجماتهم الهدامة على البلاد الإسلامية، ففي شعبان من عام ٥٥٧ هـ/١١٦٢م هاجم الكرج مدينة دوين[٨٠] من أذربيجان التابعة لشمس الدين ايلدكز صاحب أذربيجان والجبل وأصفهان[٨١] وكانت قواتهم تزيد عن ثلاثين ألف مقاتل، ودخلوا المدينة وانتهبوها وقتلوا أهلها حتى بلغ جملة القتلى ما يزيد عن عشرة ألا ف قتيل «وأخذوا النساء سبايا وأسروا كثيرا وأعروا النساء وقادوهن حفاة عراة، وأحرقوا الجامع والمساجد فلما وصلوا إلى بلادهم أنكر نساء الكرج ما فعلوه بنساء المسلمين»[٨٢]؛ ولقد أشار ابن الأثير إلى أن نساء الكرج اعترضن على انتهاك حرمة نساء المسلمين على ذلك الوجه السئ، وأن هذا مدعاة لأن يحدث لهن ذلك على يد المسلمين فيما بعد [٨٣]؛ وبعد تلك الهجمة الشرسة التي قام بها الكرج على دوين عادوا إلي «تفليس والأسارى على العجل وغنموا غنائم لاتحصى» [٨٤].

وعندما علم شمس الدين ايلدكز بما حدث على دوين من الكرج قرر العودة إلى أذربيجان- حيث كان بصحبة السلطان السلجوقي أرسلان شاه بن طغرل[٨٥]- فلما وصلها أرسل إليه ملك الكرج يقول: «إنه لنا على كنجة وبيلقان خراج يصل إلى خزانة الملك في كل سنة وقد انقطع عنا منذ سنين ما وصل إلى الخزانة ونريد منك أن تدفع ذلك لنا» [٨٦]. وأمام تلك الرسالة التهديدية الاستفزازية التي أرسلها ملك الكرج، أرسل إليه ايلدكز ردا على نفس المستوى من التهديد يقول: «إنني ما تركت العراق وجئت إلى هذه البلاد إلا حتى أجمع العساكر وأقصد تفليس وأحاصرها ولا أزال دون أن آخذها فما كان عندكم من قوة فأظهروها فأنا قاصد بلادكم قد أتيتكم بعساكرلا ينجيكم منها إلا الضرب بالسيوف والطعن بالأسنة» [٨٧].

وعلى الفور أرسل ايلدكز إلى السلطان السلجوقي أرسلان شاه طغرل، وكان آنذاك بهمذان يخبره بما حدث من الكرج والمراسلات التي تمت بينهما، وأوضح للسلطان مدى خطر الكرج على البلاد وأدرك السلطان خطر ما أخبره به ايلدكز، لذلك أعد جيشا كبيرا منظما من خيرة جند العراق المدربيين المحنكيين، وسار به حتى وصل إلى نخجوان[٨٨]، فقابله فيها ايلدكز، ثم واصلوا سيرهم حتى كنجة، فوصل إليه وهو على كنجة شاه أرمن صاحب خلاط بقواته «ليفوز بخدمته ويحظى بتقبيل بساطه بعساكر كثيرة وعدد وافرة وحظي عند وصوله إلى خدمة السلطان بالإعزاز والإكرام والتبجيل والإعظام وكان يخاطبه السلطان إيجي» [٨٩].

عندما علم جورج الثالث ملك الكرج بوصول السلطان بذلك الجمع الكبير من القوات أرسل إلى ايلدكز متضرعا يطلب العفو وأنه لن يعود إلى ذلك مرة أخرى؛ ويشير الحسيني إلى ذلك على لسان ملك الكرج فيقول:«ولست أعود إلى ما يسوءك وأنا نازل عندما تريده ومسعفك بما تطلبه»(٩٠). وعرض ايلدكز الرسالة على السلطان، فجمع الأمراء لمشاورتهم في أمر محاربة الكرج أو العفو عنهم، فرأى جند العراق ضرورة محاربتهم، ووافقهم في ذلك الرأي شاه أرمن صاحب خلاط وقال للسلطان في ذلك الإجتماع «إن عدو الإسلام شديد قلبه ثقيلة على المسلمين وطأته وبالأمس ما قد فعله من الغارة على دوين ونهبها وأسر جماعة من أهلها وقد رآنا أننا اجتمعنا للقائه وتهيأنا لدفع مضرته وبلائه ويرى أننا تفرقنا من غير مكافحته ومصاولته وعدنا دون مصادمته ومساورته وقد أنفقنا من الأموال ما أنفقنا وأذهبنا من العساكر لجمع العساكر ما أذهبنا فحينئذ يزداد طمعه ونخشى أنه إذا عاد السلطان خلد الله ملكه إلى العراق أن يخرج إلى بلاد الإسلام بجموعه ويطرقها بعساكره وهي خالية ممن يقاومه صفر ممن يقابله ويصادمه فتظهر معرته بأهل الإسلام وتفشو مضرته بالخاص منهم والعام»(٩١).

وعندما سمع ايلدكز تلك المقولة التي قالها شاه أرمن في ذلك الاجتماع في حضرة السلطان والجمع الكبير من الأمراء والقوات استبشر بها وعلم بإصرار الجميع على الجهاد ورد اعتداءات أعداء الإسلام، وبدأ يعد للأمر عدته؛ وبالفعل تقدمت القوات التي اجتمعت حول السلطان لخوض غمار المعركة مع الكرج «حتى اجتمع على السلطان من التراكمة ما ليس لهم عدد ولا يحصرهم لكثرتهم أحد»(٩٢)؛ ويقدر ابن الأثير عدد القوات الإسلامية بما يزيد عن خمسين ألف مقاتل كان من بينها قوات شاه أرمن صاحب خلاط، وقوات آقسنقر صاحب مراغة، فضلا عن القوات العراقية، وغيرها الكثيرمن القوات(٩٣) التي سارت لقصد بلاد الكرج؛ ولما علم ملك الكرج بتوجه تلك القوات الإسلامية لقصد بلاده تأهب للقائها، وقاد جيشا كان قد أعده تحسبا لذلك أحسن إعداد سواء من ناحية الرجال أو الخيل، وآلات الحرب؛ والتقت القوتان في صفر من عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م، وتمكنت القوات الإسلامية من إنزال هزيمة ساحقة بالقوات الكرجية، وفر ملك الكرج جورج الثالث هاربا من ساحة القتال، وغنم المسلمون غنائم لا تحصى، كما واصل المسلمون زحفهم على معظم بلاد الكرج وهاجموها، وأعملوا فيها السلب والنهب والأسر جزاء ما اقترفوه من قبلُ في حق الإسلام والمسلمين من هدم المساجد، وانتهاك أعراض النساء(٩٤).

وبعد تحقيق ذلك النصر الكبير على الكرج عاد السلطان وبصحبته أتابك ايلدكز إلى كنجة، وعاد شاه أرمن إلى خلاط محملا بالكثير من الغنائم(٩٥)؛

ويدلل الفارقي على ذلك - وهو معاصر لتلك الأحداث وشاهد عيان عليها- فيقول:«وأخذ شاه أرمن ثلاثة حمال كان أحدها فيه آنية ذهب وفضة والثاني كان عليه بيعة الملك فيه صلبان ذهب وفضة مرصعة بأنواع الجواهر وفيه أناجيل مصورة بالذهب مرصعة بالجواهر لا يعرف قيمتها ولا يوجد مثلها، والثالث عليه خزانة الملك من ذهب وفضة وجوهر ما لا يقوّم بعضه كثرة بحيث أنه قيل أن كتّاب أخلاط بديوانها قوّموا ما وصل إلى شاه أرمن فكان مثل ما أُخذ منه على باب آنه عندما كُسر ثلثين ضعفا، ولقد سمعت هذا من جماعة كثيرة من أهل خلاط ممن كان بالوقعة وكنت إذ ذاك ببدليس، ويوم وصل المبشر إلى أخلاط كنت بأخلاط وجماعة من الفارقية وكان يوما عظيما بحيث أنه ذ بح من البقر بعد يومين مقدار ثلاثمائة رأس وفُرّق لحمها على المساكين والضعفاء، وبعد أيام وصل شاه أرمن إلى أخلاط وأظهروا فيها كل شيء لا يُرى مثله من الأموال والتجمل، ووصل صاحب بدليس إليها، وزين البلد لقدومه في أول شهر رمضان وكنت ببدليس»(٩٦).

ويُرجِع ابن الأثير سبب انتصار المسلمين على الكرج وإلحاق الهزيمة بهم إلى أن أحد رجال ملك الكرج حضر إلى الأمير ايلدكز وأسلم على يديه، وقد قدم معونته للمسلمين ودلهم على طريق الكرج، فلما احتدمت المعركة وصل ذلك الكرجي الذي أسلم من قبل ومعه بعض القوات، فباغتوا الكرج وكبروا وحملوا عليهم من خلفهم « فانهزموا وكثر القتل فيهم والأسر وغنم المسلمون من أموالهم ما لا يدخل تحت الإحصاء لكثرته» (٩٧).

وعلى الرغم من تلك الهزيمة الساحقة التي مُنى بها الكرج إلا أن إغارتهم لم تنقطع عن البلاد الإسلامية، ففي جمادى الأولى من عام ٥٥٩ هـ / ١١٦٣م استغل الكرج غياب ايلدكز عن إقليم أنربيجان فهاجموا مدينة آني ودخلوها وخربّوا ما فيها؛ ولما علم إيلدكز بذلك عاد إلى آني على وجه السرعة وتمكن من استردادها، فأعاد إليها أهلها الذين فروا منها، كما أعاد عمارتها وتحصيناتها ثم أخذ يعد العدة لملاقاة الكرج، فسار إلى باب مدينة جنزي(٩٨) وعزم على لقائهم(٩٩).

ولم تذكر المصادر مهاجمة إيلدكز لبلاد الكرج في ذلك العام (٥٩٩هـ/١١٦٣م) ولكن ما تذكره هو مهاجمة الأمير إبراهيم صاحب سرماري لبلاد الكرج في نفس العام بعد الهجمة التي قاموا بها على آني ونجاحه في تحقيق الانتصار عليهم، حيث أوقع بهم «وقعة عظيمة وقتل منهم خلقا كثيرا وأسر جماعة من كبرائهم» (١٠٠). ولعل تلك الحملة التي قام بها الأمير إبراهيم صاحب سرماري على بلاد الكرج كانت بدعم من الأتابك ايلدكز للرد على الكرج؛ ويبدو أن الأمير ايلدكز لم يستطع أن يترك آني في تلك الآونة حيث لم يكن عليها

واليا أو قوة سياسية تدفع عنها، لذلك أسند إلى الأمير إبراهيم مهمة محاربة الكرج، وعاد هو إلى آني مرة أخرى لزيادة استحكاماتها؛ يؤكد ذلك ما ذكره الفارقي «في آخر السنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م سلم شمس الدين ايلدكز آنة إلى الأمير شاهنشاه أخي الأمير شداد وفضلون اللذين كانا أصحابها من أولاد منجوهر»(١٠١). ولعل هذه الرواية توضح أن ايلدكز لم يقابل الكرج في تلك السنة، وأنه عاد إلى آني بعد أن كان خرج إلى جنزي للقائهم وأقام بها إلى آخر عا م ٥٥٩ هـ / ١١٦٣م، إلى أن استدعى أحد أبناء أسرة منوجهر الذين كانواعلى ولايتها من قبل لتولي الأمر فيها.

ورغم التحصينات التي أقامها إيلدكز في آني إلا أن الكرج كرروا هجماتهم الشرسة عليها مرة أخرى؛ ففي ربيع الأول عام ٥٧٠ هـ /١١٧٤ م قصد الكرج مدينة آني وحاصروها عدة أيام إلى أن تمكنوا من الاستيلاء عليها من الأمير شاهنشاه أخي شداد، ونهبوا ما كان فيها، ثم ولوا عليها واليا من قبلهم، وأصبحت آني ولاية من ولايات الكرج(١٠٢)؛ وعندما علم ايلدكز بذلك أسرع إلى مهاجمة بلاد الكرج فوصل إليهم وقاتلهم ولكنه هزم أمام الكرج، وقتل وأسر من رجاله الكثير؛ وجدد ايلدكز محاولته مرة أخرى في نفس العام(٥٧٠ هـ/١١٧٤م)(١٠٣) واستعد لملاقاة الكرج وخرج حتى وصل إلى صحراء أوين، ووصلت قوات الكرج إلى نفس المكان، ولكن لم يحدث قتال بين الطرفين، وعاد كل منهما إلى بلاده دون قتال(١٠٤).

ويبدو أن ايلدكز خرج في المرتين دون الإعداد الكافي لملاقاة الكرج، لذلك عندما عاد من صحراء أوين إلى نخجوان أخذ يستنفر الملوك والأمراء لجهاد الكرج، فأرسل إلى صاحب خلاط ومعظم الأمراء ليحضروا إليه ويكونوا على أهبة الاستعداد للقاء الكرج؛ كما أرسل إلى السلطان السلجوقي أرسلان شاه يستنجده على الكرج؛ فاستجاب السلطان لندائه وسار بنفسه على رأس جيشه، كما وصل إليه شاه أرمن على رأس قوات خلاط وديار بكر، ووصل إليه أيضا ابنه البهلوان بقوات أذربيجان وهمذان؛ وفي المحرم من عام ٥٧١ هـ / ١١٧٥م سارت تلك القوات جميعها إلى بلاد الكرج وعبروا صحراء لوري ودومانيس، ومنها إلى آقشهر- وهي ما بين آخل كاعاك وصحراء ثرياليت-«فأغار المسلمون على تلك الولايات الكرجية وأخربوا الضياع وسبوا من كان فيها»؛ ويبدو أن الملك جورج الثالث خشي من تلك القوات لذلك «لم يقدر أن يخرج إليهم فبقوا أياما وعادوا أجمع»(١٠٥).

هكذا اكتفى المسلمون بتلك الغارات على بلاد الكرج التي غنموا منها مغانم كثيرة وعادوا دون الصدام مع ملك الكرج الذي خشي أن يخرج للقائهم؛

وعاد المسلمون إلى بلادهم يحتفلون بذلك النصر «وعاد شاه أرمن وعساكره إلى ديار بكر وإلى خلاط فوصلوا في العشر الأَوَل من ربيع الأول ودخلوا إلى أخلاط وزينوا البلد وكان يوما مشهودًا، وأظهر أهل أخلاط من الأموال والزينة ما لم ير مثله ببلد آخر وبقيت الزينة ثلثة أيام بأخلاط»(١٠٦). ولا شك أن هذه الرواية تؤكد أن إمارة شاه أرمن قد اتسعت لتشمل أرمينية وديار بكر كما كانت على عهد جده سكمان القطبي.

مما تجدر الإشارة إليه ظهور حالة من الهدوء النسبي بين المسلمين والكرج بعد عودة القوات الإسلامية بقيادة شاه أرمن إلى قواعدهم، ويرجع ذلك إلى اضطراب الأحوال الداخلية في بلاد الكرج بسبب تمرد إيفان الأوربيلي على الملك جورج الثالث(١٠٧) هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى انشغال شاه أرمن خلال تلك الفترة بالتصدي لطموح السلطان صلاح الدين الأيوبي في توحيد الجبهة الإسلامية وضم بلاد الجزيرة وحلب.

تحالف شاه أرمن سكمان بن إبراهيم مع ملوك الجزيرة ضد صلاح الدين:

واجه المشروع الطموح الذي تزعمه السلطان صلاح الدين الأيوبي والذي تمثل في توحيد الجبهة الإسلامية وتقويتها في مصر والشام والجزيرة ضد الخطر الصليبي معارضة كبيرة من بعض ملوك الأراتقة والأتابكة في بلاد الجزيرة والموصل وحلب، الأمر الذي أدى إلى تكوين حلف مضاد تزعمه قطب الدين إيلغازي بن ألبي تمرتاش الأرتقي صاحب ماردين وابن أخته الملك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي الأتابكي صاحب الموصل وحلب، وانضم إليهما فيما بعد شاه أرمن سكمان بن إبراهيم صاحب خلاط وخال قطب الدين إيلغازي صاحب ماردين(١٠٨)؛ وقد وقفوا ثلاثتهم معا في تحدٍ سافر ضد تلك الخطوة التي بدأ ينفذها صلاح الدين، بل بدأوا يغيرون على بعض البلدان التي دخلت في طاعةالسلطان صلاح الدين الأيوبي(١٠٩).

وعندما دخل شهاب الدين الأرتقي صاحب البيرة(١١٠) في طاعة السلطان صلاح الدين إدراكا منه بضرورة إتمام الوحدة الإسلامية للتفرغ لجهاد الصليبيين توجه ابن عمه قطب الدين إيلغازي إلى البيرة لحصارها، وكان السلطان صلاح الدين آنذاك مشغولا بحرب الصليبيين في عام ٥٧٨ هـ/١١٨٢م، حيث كان محاصرا لبيروت، فأدرك السلطان صلاح الدين أن يوحد الجبهة الإسلامية أولا، وأكد ذلك لديه وصول رسل مظفر الدين كوكبوري(١١١) صاحب حران إليه وهو على حصار بيروت يعلن له الولاء والطاعة، ويحثه على ضرورة توحيد الجبهة الإسلامية وضم بلاد الجزيرة إليه، لذلك سار السلطان

صلاح الدين من بيروت متظاهرا بالتوجه إلى حلب في حين كانت وجهته بلاد الجزيرة، الأمر الذي جعل عز الدين مسعود يتوجه إلى حلب للدفاع عنها، ولكنه فوجئ بصلاح الدين في بلاد الجزيرة وقد فتح الرها والرقة والخابور وقرقسيا وسنجار وقالين ونصيبين، ثم توجه إلى الموصل وشدد عليها الحصار، إلا أنه لم يستطع فتحها لشدة حصانتها، فرفع السلطان الحصار عنها وتبادلت الرسل بينه وبين عز الدين مسعود، فعرض عليه السلطان صلاح الدين أنه على استعداد أن يتنازل عن البلاد التي فتحها مقابل أن يتنازل عز الدين عن حلب، فرفض عز الدين العرض، لذلك واصل صلاح الدين جهوده في بلاد الجزيرة (١١٢).

عندما علم شاه أرمن صاحب خلاط باجتياح السلطان صلاح الدين لبلاد الجزيرة أرسل إليه رسله في عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢م للتوسط في الصلح وإعادة البلاد التي استولى عليها إلى عز الدين مسعود، فرفض صلاح الدين وساطته؛ وتكررت رسل شاه أرمن إلى السلطان صلاح الدين للشفاعة والكف عن الموصل وغيرها من بلاد الجزيرة، لكنها كانت تقابل بالرفض من قبل السلطان صلاح الدين، لذلك أرسل إليه شاه أرمن مملوكه سيف الدين بكتمر وهو على حصار سنجار يتهدده وطلب الرحيل عنها وإلا قصده وحاربه(١١٣). فلم يعبأ السلطان بذلك التهديد؛ وبعد أن أبلغ سيف الدين بكتمر رسالة التهديد إلى السلطان صلاح الدين عاد إلى خلاط يملأه الغيظ وقد أبلغ شاه أرمن بضرورة التصدي للسلطان صلاح الدين، فاضطر شاه أرمن إلى التحالف مع عز الدين مسعود صاحب الموصل وقطب الدين إيلغازي صاحب ماردين ضد صلاح الدين، واتفق الجميع على محاربته(١١٤).

هكذا أدى رفض السلطان صلاح الدين لوساطة وشفاعة شاه أرمن وعدم اكتراسه برسالة التهديد التي أرسلها إليه أن قرر الأخير الاستعداد لمحاربة السلطان صلاح الدين؛ فخرج شاه أرمن من خلاط في ذي الحجة من عام ٥٧٨ هـ /١١٨٣م على رأس حملة وبصحبته دولت شاه صاحب أرزن الذي كان تابعا له، وتوجها معا إلى ماردين التي توجه إليها أيضا وفي نفس الوقت عز الدين مسعود بقواته؛ واجتمع الحلفاء ونزلوا على ضيعة حرزم(١١٥) من أعمال ماردين. أما السلطان صلاح الدين فقد تفرقت عنه قواته في تلك الآونة بعد أن استولى على سنجار، ثم سار عنها إلى حران، ولما سمع باجتماع شاه أرمن وحلفائه على ماردين أرسل يستدعي ابن أخيه تقي الدين عمر- الذي كان قد عاد إلى حماة- للقدوم إليه على وجه السرعة، فاستجاب تقي الدين وخرج من حماة حتى وصل إلى حران في خمسة ليال؛ وعندما اجتمع تقي الدين بالسلطان سارا بالقوات إلى رأس عين، فلما علم شاه أرمن وحلفاؤه بعسكرة السلطان

صلاح الدين في رأس عين تفرقوا، فعاد شاه أرمن إلى خلاط[١١٦] «واعتذر بأنني أجمع العساكر وأعود»[١١٧]، كما عاد عز الدين مسعود إلى بلاده، في حين تحصن صاحب ماردين ببلده بعد أن تخلى عنه حلفاؤه؛ أما السلطان صلاح الدين فقد واصل سيره حتى وصل إلى حرزم وحاصرها عدة أيام، ثم توجه منها إلى آمد في ١٧ ذي الحجة ٥٧٨ هـ/ إبريل ١١٨٣ م وحاصرها حتى طلب صاحبها الأمان، وسلمها إلى السلطان في المحرم عام ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣ م [١١٨].

وعلى الرغم من تلك الصعوبات التي واجهت السلطان صلاح الدين إلا أنه قد واصل تنفيذ مخططه في توحيد الجبهة الإسلامية، فحاصر الموصل، وبينما هو على حصارها وصله خبر وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في ربيع الأول ٥٨١ هـ/ يوليو ١١٨٥م [١١٩].

أحوال إمارة خلاط بعد وفاة شاه أرمن

عندما مات شاه أرمن سكمان بن إبراهيم بن سكمان صاحب خلاط لم يكن له ولد يخلفه في الحكم، كما لم يكن بخلاط أحد من أقاربه ليقوم بأعباء الحكم بعد وفاته، لذلك استولى مملوكه سيف الدين بكتمر على إمارة خلاط[١٢٠] بعده؛ وقد تمكن سيف الدين بكتمر من إحكام السيطرة على خلاط، كما نجح في إدارة شئون الحكم فيها، واتصف بحسن سياسته ومعاملته الطيبة للرعية، فتقرب إلى الناس وأجزل لهم الأموال فأخلصوا له وأطاعوه؛ ويشير إلى ذلك أبو شامة فيقول:«كان متصوفا في طريقته فأطاعه الناس ومالوا إليه»[١٢١]؛ كما يؤكد ذلك أيضا ابن الأثير فيقول: «كان جوادا شجاعا عادلا في رعيته حسن السيرة فيهم»[١٢٢].

موقف سيف الدين بكتمر من أطماع الأيوبيين في إمارة خلاط:

بينما كان السلطان صلاح الدين الأيوبي على حصار الموصل وصلت إليه كتب من أهل خلاط وبدليس يطلبون منه ضرورة القدوم إليهم وتولي أمرهم بعد وفاة شاه أرمن متذرعين بأنهم «... خائفون من العجم أن يتولوها» [١٢٣]؛ فاستشار السلطان صلاح الدين من حوله في أمر ترك حصار الموصل والتوجه إلى خلاط، فأشار البعض بالاستمرار على الحصار بينما رأى البعض الآخر رفع الحصار والسير إلى خلاط [١٢٤]، في حين رأى فريق ثالث أن يجمع السلطان بين الاثنين فيترك بعض القوات على الموصل ويتوجه البعض الآخر إلى خلاط[١٢٥]، فأخذ السلطان صلاح الدين بالرأي الثالث، لذا استجاب لدعوة أهل خلاط فأرسل إليهم ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ببعض القوات لاستلامها، وبقي السلطان ببعض قواته على الموصل؛ وعندما وصل ناصر الدين محمد بن شيركوه إلى خلاط وجد أن سيف الدين بكتمر قد سيطر عليها

وحصنها، فحاول ناصر الدين دخولها دون جدوى، لذلك نزل ناصر الدين محمد بن شيركوه بطوانة بالقرب من خلاط(١٢٦).

وكاتب وزير خلاط مجد الدين موفق بن رشيق ناصر الدين محمد بن شيركوه يطلب منه الاستمرار بقواته بطوانة، كما كان يكاتب صلاح الدين من قبل للقدوم إلى خلاط، وفي نفس الوقت كان ابن رشيق يكاتب شمس الدين بن البهلوان صاحب أذربيجان بأن يأتي هو الاخر ليسلمه خلاط؛ وكانت تلك خديعة من الوزير ابن رشيق(١٢٧) حيث أراد أن تصطدم قوات صلاح الدين بقوات ابن البهلوان الذي كان له هو الآخر مطامع في خلاط، خاصة أنه قد زوج ابنته من شاه أرمن صاحب خلاط – بالرغم من كبر سنه– من أجل أن يصل إلى حكمها؛ ويؤكد ذلك ابن الأثير فيقول:«كاتبوا صلاح الدين يستدعونه إليهم ليسلموا البلد إليه ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه بالبهلوان ويبقى البلد بأيدهم» (١٢٨). وبالفعل استمر ناصر الدين محمد بن شيركوه معسكرا بقواته بطوانة إلى أن وصل ابن البهلوان بقواته إلى أبواب خلاط فأخذ سيف الدين بكتمر يراسله ويحذره من أطماع السلطان صلاح الدين في مد نفوذه إلى خلاط وجميع بلاد العجم قائلا: «أنه متى أخذ خلاط واستولى على ممالكها قصد جميع بلاد العجم» (١٢٩)، كما أرسل إليه مع ابنته زوج شاه أرمن التي كانت ما تزال مقيمة في خلاط مالا جزيلا، ثم خطب للبهلوان في خلاط(١٣٠)، لذلك استأذن ناصر الدين محمد بن شيركوه السلطان صلاح الدين بالعودة عنها ومساندته في حصار ميافارقين فأذن له السلطان ورفع الحصار عن خلاط(١٣١).

ومما تجدر الإشارة إليه أن السلطان صلاح الدين قد أرسل إلى مجد الدين بن رشيق وتحدث معه في أمر خلاط «فأحال الحال على البهلوان قائلا له لو أنكم استعجلتم قبل وصوله إلى البلاد لنلتم المراد»(١٣٢)؛ وبذلك استمرت خلاط تحت حكم سيف الدين بكتمر، وكان يخطب فيها لشمس الدين بن البهلوان صاحب أذربيجان.

وقد ظلت إمارة خلاط تمثل مطمعا يتطلع إليه ملوك الأيوبيين بعد انقضاء حكم بني سكمان لذلك حاول الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماة الأيوبي الاستيلاء عليها، خاصة وأنه كان له بعض الإقطاعات في الجزيرة (حران والرها وميافارقين) فاتخذها ذريعة من أجل أن يسيطر على خلاط، لذا استولى على حاني من ديار بكر، ولم تتوقف مطامعه عندها بل امتدت إلى إمارة خلاط أيضا(١٣٣). وأدرك سيف الدين بكتمر مطامع الملك المظفر تقي الدين فخرج ليتصدى له قبل أن يتقدم إلى خلاط، على رأس أربعة آلاف فارس في الوقت الذي تقدم فيه الملك المظفر على رأس سبعة آلاف فارس إلى خلاط في صفر من

عام ٥٨٧ هـ/١١٩١ م؛ والتقت القوتان واشتبك الطرفان وكانت الغلبة لقوات الملك المظفر التي تمكنت من إنزال الهزيمة بقوات سيف الدين بكتمر، الذي أرسل على أثر هزيمته إلى مستحفظ القلعة يأمره بقتل الوزير مجد الدين بن رشيق الذي كان محبوسا بها؛ غير أن الملك المظفر قد سار من فوره بعد الانتصار إلى قلعة خلاط وتمكن من الاستيلاء عليها وأطلق سراح ابن رشيق، ثم تقدم إلى مدينة خلاط نفسها فحاصرها، ولم تكن قواته كافية لحصارها لذلك توجه إلى ملاذكرد فحاصرها، فاضطر أهلها بسبب طول الحصار إلى طلب مهلة ليسلموا البلد إليه فأجابهم إلى ذلك ولكن وافته المنية قبل انقضاء المهلة بيومين فرفعت القوات الحموية الحصار عنها وعادت إلى حماة؛ أما بكتمر فقد عاد مرة أخرى إلى خلاط وسيطر عليها وثبت ملكه بها مرة ثانية(١٣٤).

ومع كل ذلك ظلت خلاط تتعرض لمطامع الأيوبيين، فقد وعد السلطان صلاح الدين أخاه العادل بملك خلاط وتسليمها إليه؛ فعندما فرغ صلاح الدين من أمر الصليبيين وعقد معهم صلح الرملة عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م(١٣٥) اجتمع مع ابنه الأفضل وأخيه الملك العادل واستشارهما في الخطة التي سوف يسيرون عليها وقت الهدنة مع الصليبيين، فأشار عليه العادل بقصد خلاط «لأنه كان قد وعده إذا أخذها أن يسلمها إليه»(١٣٦)؛ أما ابنه الأفضل فأشار عليه بقصد بلاد سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، فرأى صلاح الدين أن يتوجه هو إلى آسيا الصغرى في حين يتوجه الملك العادل إلى خلاط قائلا لأخيه «تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العسكر وتقصد خلاط فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت إليكم ونُدخل فيها أذربيجان وتتصل بلاد العجم فما فيها من يمنع عنها»(١٣٧).

وتوضح هذه الرواية التصور الجغرافي الذي أراده السلطان صلاح الدين في قيادته للدولة الإسلامية بحيث تشمل مصر والشام والجزيرة الفراتية وبلاد فارس وأرمينية الكبرى وآسيا الصغرى.

وبدأ الملك العادل في تنفيذ المشروع الذي اتفق عليه مع أخيه السلطان صلاح الدين، فتوجه إلى ولايته في الكرك ليعد لهذا الأمر عدته حيث أخبره السلطان وقال له: «تجهز واحضر لتسير» (١٣٨)، أي ليسير العادل إلى خلاط، ولكن قبل أن يخرج هذا المشروع إلى حيز التنفيذ لحق المرض بالسلطان صلاح الدين، ومات في صفر من عام ٥٨٩ هـ /١١٩٣ م ودفن في دمشق (١٣٩).

عندما توفي السلطان صلاح الدين أظهر سيف الدين بكتمر الفرح بموته بل «أسرف في إظهار الشماتة بموت صلاح الدين» (١٤٠)، فعندما بلغه خبر وفاته أقام احتفالا وعمل تختا وجلس عليه ولقب نفسه السلطان المعظم صلاح الدين(١٤١)؛ وبعد ذلك أخذ سيف الدين بكتمر يراسل ملوك الجزيرة ليتفق معهم

على محاربة الملك العادل الأيوبي والاستيلاء على ما بيده من بلاد الجزيرة [١٤٢]. هذا فضلا عن أنه خطب في بلاده لسلطان سلاجقة الروم كيخسرو الأول (٥٨٨- ٥٩٧ هـ / ١١٩٢- ١٢٠٠م) ليعاضده في اجتياح بلاد الجزيرة[١٤٣]؛ وحشد بكتمر قواته للزحف على ميافارقين، فوثب عليه صهره بدر الدين أقسنقر هزار ديناري- أحد مماليك شاه أرمن[١٤٤]- وقتله وقام مكانه في حكم خلاط [١٤٥]؛ وقيل قتل بيد أحد الإسماعيلية في سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣م [١٤٦].

تولى بدر الدين أقسنقر هزار ديناري حكم خلاط في عام ٥٨٩ هـ/١١٩٣ م، واستمر على حكمها خمس سنوات حيث توفي في عام ٥٩٤ هـ /١١٩٧م، ولما مات استولى على خلاط بعده خشداشه قتلغ- وهو مملوك أرمني الأصل- ولم يرض عن حكمه أهل خلاط، لذلك وثبوا عليه بعد سبعة أيام من ولايته خلاط فقتلوه[١٤٧].

قيام محمد بن سيف الدين بكتمرعلى حكم خلاط:

بعد مقتل قتلغ اجتمع كبراء الدولة واتفقوا على تولية محمد بن سيف الدين بكتمر الذي كان معتقلا مع أمه بقلعة ارزاس بمدينة موش فأطلقوا سراحه وولوّه المملكة ولقبوه الملك المنصور، وقام بتدبير المملكة شجاع الدين قتلغ الدوادار(القفجاقي الأصل)، والذي كان يعمل دوادارا لشاه أرمن[١٤٨].

اضطراب الأوضاع فى خلاط ومهاجمة الكرج لها:

استقر محمد بن بكتمر في حكم خلاط، ولكن اضطربت الأحوال بها على عهده اضطرابا شديدا بسبب صغر سنه وسوء تصرفه[١٤٩] مما أتاح الفرصة أمام الكرج إلى معاودة الهجوم على إقليم أذربيجان وأرمينية خاصة في عهد الملكة ثمارا الكرجية(٥٨١- ٦٠٩هـ / ١١٨٥- ١٢١٢م)[١٥٠] التي خلفت والدها الملك جورج الثالث في حكم المملكة؛ و بدأ الكرج يوجهون حملاتهم على إقليم أذربيجان التابع لأزبك بن البهلوان[١٥١] وخلاط التابعة في تلك الآونة لمحمد بن بكتمر، مستغلين في ذلك اضطراب الأحوال الداخلية في البلدين؛ ففي عام ٥٩٩هـ/١٢٠٢م هاجم الكرج دوين من أعمال أذربيجان ولم يتحرك أزبك بن البهلوان لنجدتها لانشغاله في الشراب والملاذ ليلا ونهارا[١٥٢]، كما أغاروا على خلاط في عام ٦٠١ هـ /١٢٠٤م، وامتدت غاراتهم إلى ملاذكرد[١٥٣] ولم يستطع محمد بن بكتمر الرد على اعتداءات الكرج بسبب صغر سنه مما أطمع الكرج في تكرار هجماتهم على إمارة خلاط في نفس العام (٦٠١ هـ /١٢٠٤م) فاستولوا على أرجيش، وأعملوا فيها السلب والنهب، كما واصلوا سيرهم إلى حصن التين من عمل خلاط أيضا، وهاجموه، فاستنجد محمد بن بكتمر بصاحب أرزن الروم، الذي استجاب لندائه، وأرسل إليه بعض القوات التي تمكنت مع قوات خلاط من إنزال الهزيمة

بالكرج وقتل مقدمهم، فاضطروا للعودة إلى بلادهم [١٥٤].

وعلى الرغم من الهزيمة التي مُني بها الكرج على أيدي المسلمين إلا أنهم لم يستسلموا لأن سياسة الملكة ثمارا الكرجية وزوجها داود سوسلان كانت تتجه إلى ضم جميع ممالك السلاجقة والأيوبيين المجاورين لها إلى ممتلكاتهم[١٥٥]، لذلك كرروا مهاجمة خلاط، فوجهوا إليها حملة في العام التالي(٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م)، دخلتها القوات الكرجية دون أية مقاومة تذكر «لأن صاحبها صبي والمدبر لدولته ليست له الطاعة على الجند»[١٥٦]، فأعملوا فيها السلب والنهب، مما دفع أهل المدينة للدفاع عن أنفسهم فخرجوا للجهاد ضد الكرج، وانضم إليهم الكثير من المتطوعة من أهل البلدان المجاورة التابعة لخلاط؛ وكان الكرج قد تحصنوا في أعلى الوادي، وهو طريق ضيق، فحاصرهم المسلمون من أعلاهم وأسفلهم« فلما رأى ذلك الكرج أيقنوا بالهلاك»[١٥٧]، وتمكن أهل المدينة والمتطوعة من إنزال الهزيمة بالكرج، وقتلوا منهم الكثير «ولم يفلت من الكرج إلا القليل» [١٥٨].

وزاد من اضطراب الأوضاع في إمارة خلاط سوءا ما أقدم عليه محمد بن بكتمر من القبض على أتابكه قتلغ وقتله في عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م، وكان قتلغ «حسن السيرة مع الجند والرعية»[١٥٩]، فخرج مملوك لشاه أرمن يدعى بلبان على محمد بن بكتمر فقبض عليه وقتله في نفس العام وتولى مكانه إمارة خلاط[١٦٠].

وأمام تلك الأوضاع المتأججة أصبحت خلاط مطمعا لكثير من القوى المجاورة، فاستغل الكرج تلك الفرصة وكرروا الغارة عليها[١٦١]؛ ففي العام التالي من تولي بلبان حكم خلاط (٦٠٣هـ /١٢٠٦م) هاجم الكرج حصن قرص التابع لخلاط وشددوا الحصار عليه، ولم تتمكن قوات المدينة من التصدي لهم، لذلك استنجد أهل قرص بالقوات الإسلامية خارج المدينة دون جدوى، فاضطروا إلى مصالحة الكرج على تسليم القلعة إليهم مقابل مال وإقطاع يأخذونه، وسلمت قرص إلى الكرج[١٦٢] «وصارت دار شرك بعد أن كانت دار توحيد» [١٦٣].

ولا شك أن تكرار هجمات الكرج على إمارة خلاط كان باعثا على تدخل القوى الإسلامية المجاورة، فطمع فيها مغيث الدين طغرل السلجوقي حاكم أرزن الروم[١٦٤]، فضلا عن طموح ملوك الأيوبيين في ضم إقليم أرمينية وقاعدته خلاط تحت راياتهم استكمالا لوحدة العالم الإسلامي، مما هيأ الفرصة أمامهم في عهد السلطان العادل الأيوبي حيث تمكن ابنه الملك الأوحد نجم الدين من الاستيلاء على خلاط وتأسيس ولاية خلاط الأيوبية في عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م[١٦٥].

الهوامش

١- خلاط: تعد خلاط من أكبر مدن أرمينية في العصور الوسطى، فقد عدها ياقوت الحموي قصبة أرمينية الوسطى، في حين ذكر كل من القزويني وابن الوردي أنها قاعدة إقليم أرمينية، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت ١٩٨٨ م، ج ٢ ص ٣٨١؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت د. ت. ص ٥٢٤؛ ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة، د. ت. ص ٤٣، وراجع عن ذلك بالتفصيل: منى الشاعر: الفتوحات الإسلامية لخلاط وأعمالها وتوطيد النفوذ الإسلامي في أرمينية، بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإنسانية العدد ٢٤، لعام ٢٠٠٦ م، ص ٧٦٥ - ٨٦٧.

٢- المروانيون الأكراد: أسس بنو مروان ولاياتهم في ديار بكر في عام ٣٨٠ هـ/٩٩٠م وذلك بعد وفاة خالهم باد بن دوستك الحار بختي الذي كان مسيطرا على ديار بكر واستعان بأولاد أخته في حكم البلاد؛ وبعد وفاته تولى ابن أخته الأمير أبو علي الحسن بن مروان بن لكك الكردي الذي تنسب إليه الدولة المروانية؛ انظر: الفارقي: تاريخ الفارقي، تحقيق: بدوي عبد اللطيف عوض، بيروت ١٩٧٤م، ص ٦٠.

٣- دائرة المعارف الإسلامية: أصدرها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية كبار المستشرقين في العالم تحت إشراف الإتحاد الدولي للمجامع العلمية، ترجمها إلى العربية: زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، عبد الحميد يونس، القاهرة ١٩٣٣م، مادة خلاط، المجلد الثاني، ص٤٣٤، ومادة أرمينية، المجلد الثالث، ص٤٧؛ زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة: سيدة إسماعيل كاشف، حافظ أحمد حمدي، أحمد محمود حمدي، القاهرة١٩٥١، ص ٣٤٨؛ أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، القاهرة ١٩٦٩م، ج٢ ص٣٥٦؛ستانلي لين بول: الدول الإسلامية، تصحيح: بارتولد وخليل أدهم، ترجمه من التركية: محمد صبحي فرزات، دمشق١٩٧٣م، القسم الأول ص ٣٥٨.

٤- ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، النجف ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م، ج ٢ ص ١٧؛
ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ج ٥ ص ١٧٨.

٥- ملاذكرد: بلدة صغيرة من من أعمال خلاط بناؤها من الحجر الأسود معظم أهلها من الأرمن والروم بها أعين وليس بها أشجار، وأرضها خصبة كثيرة الخير، انظر :ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت، د.ت، ص ٢٩٥؛ أبو الفداء: تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م، ص ٤٩٤، ٤٩٥، وراجع:منى الشاعر: الفتوحات الإسلامية لخلاط وأعمالها، ص ٧٧١.

٦- الفارقي: تاريخ الفارقي، ص ١٧٨، ١٩٠، ١٩١؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦م، ج ١٠ ص ١٢٩، ١٤٣- ١٣٦، ١٤٣- ١٤٤.

٧- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ١٢٩، ١٣٣- ١٣٦، ١٤٣- ١٤٤.

٨- قسيم الدولة آقسنقر: آق سنقر بن عبد الله المعروف بقسيم الدولة مملوك السلطان أبو الفتح ملكشاه، وقد حظى عند السلطان ملكشاه حتى أقره على ولاية حلب في عام٤٨٠ هـ /١٠٨٧م فأحسن فيها السياسة والسيرة، انظر: سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، بيروت ١٩٧٢م، ص ٢٦٨.

٩- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٢٣٢، ٢٣٣؛ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٩٤م، ج١ ص ٢٩٥.

١٠- السلطان بركياروق: الملقب ركن الدين بن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن سلجوق، ولد سنة ٤٧٤هـ /١٠٨١م وتوفي سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م بعد أن أقام في السلطنة اثني عشر سنة وأشهرا،

انظر:ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١ ص ٢٦٨.

١١- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٢٤٤، ٢٤٥.

١٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٣٦٠.

١٣- بلاد آران: اسم أعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة منها جنزة ويسميها العامة كنجة، وبرزغة وشمكور، وبيلقان، وبين أذربيجان وأران نهر الرس وكل ما جاور النهر من ناحية الغرب والشمال يعد من آران أما ما يجاوره من ناحية الشرق فهو من أذربيجان، انظر : ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ١ ص ١٣٦.

١٤- زنجان: بلد مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان والجبال، قريبة من أبهر وقزوين، انظر:ياقوت: المصدر السابق، ج ٣ ص ١٥٢.

١٥- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٣٥٩.

١٦- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٣٦٠.

١٧- خُوَّي: بلد مشهور من أعمال اذربيجان كثيرة الخيرات، انظر: ياقوت: المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٠٨.

١٨- مراغة: بلدة كبيرة مشهورة من إقليم أذربيجان ، انظر:ياقوت الحموي: المصدر السابق، بيروت ١٩٩٧م، مجلد٤، ج ٧ ص ٢٣٨.

١٩- تبريز: من أشهر مدن أذربيجان ، وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة في وسطها عدة أنهار، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، مجلد ١، ج ٢ ص ٤٣٠.

٢٠- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٣٦١.

٢١- أرزن الروم: ولاية واسعة في أرمينية كثيرة الخيرات أهلها أرمن ولها سلطان مستقل، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ١ ص ١٥٠.

٢٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٣٧٠.

٢٣- الفارقي: المصدر السابق ، ص ٢٧٤- ٢٧٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٣٧١.

٢٤- الفارقي: المصدر السابق ، ص ٢٧٤- ٢٧٥ ؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٣٧١.

٢٥- الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ص ٣٧١.

٢٦- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، القاهرة، د.ت، ص ١٦٩، وراجع: ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق: خليل المنصور، بيروت ١٩٩٦م، ص ٢٥١.

٢٧- ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٩؛ ابن العديم: زبدة الحلب، ص ٢٥٢، ٢٥٣؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٣٦م، ج ٥ ص ١٩٩.

٢٨- Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse, In: R. H. C. D. Arm., Paris 1869. P 91.

٢٩- تولى بلدوين دي بور إمارة الرها الصليبية في عام٤٩٤ هـ/١١٠٠م بعد بلدوين دي بوايون الذي انتقل إلى تولى بيت المقدس؛ وقد تقرب بلدوين دي بور إلى رعاياه في تلك الإمارة ومعظمهم من الأرمن، بل تزوج من الأميرة الأرمينية مورفيا ابنة جبريل حاكم ملطية، وظل يحكم بلدوين في تلك الإمارة حتى وفاته في عام٥١٢ هـ/١١١٨م، انظر:

-Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse, P 199؛ علية عبد السميع الجنزوري: إمارة الرها الصليبية، القاهرة ١٩٧٥م، ص ٨٧، ٨٨.

٣٠- يعتبر بلدوين دي بوايون أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية، ذلك أن جودفري دي بواين لم يتوج ملكا ولم يحمل لقب ملك إنما كان حاكما أعلى لإمارة بيت المقدس، ولما مات توج بلدوين دي بوايون في ٢٥ ديسمبر١١٠٠ م في كنيسة العذراء ببيت لحم ليكون أول ملوك مملكة بيت المقدس،

انظر:

– وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية، (تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ١٩٩٠م، ج ١ ص ٤٤٤– ٤٥٦؛ ارنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت ١٩٦٧م، ص ٣٩ –٤٠؛

- Brehier, L.: L' Eglise et L' Orient au Moyen Age, 1928, p.86. Croisades, Paris 1928.

٣١– فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، بيروت ١٩٩٠م، ص ١٤٥.

٣٢– Albert, d'Aix: Historia Hierosolymitana. In: R.H.C.-H.Occ., Vol. IV, P. 675.

-Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse, p. 89 -90;

Grousset, R.: Histoire des Croisades et du Royaume France, de Jerusalem., Paris 1934 -1936, Vol. I, P. 453;

Stevenson, W.B.: The Crusaders in the East, Cambridge 1907,P.88.

٣٣– فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص ١٤٦؛

- Albert, d'Aix: Historia Hierosolymitana. Vol. IV, P. 675;

- Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse,Pp.89-90; , Stevenson, W. B.: The Crusaders in the East. P.88.

٣٤– حران: قصبة ديار مضر، وهى مدينة عظيمة مشهورة بينها وبين الرها مسيرة يوم، انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج ٢ ص٢٣٥.

٣٥– ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٦٩–١٧٠؛ ابن العديم: المصدر السابق، ص ٢٥١، ٢٥٢.

٣٦– رضوان بن تتش: رضوان بن تتش بن ألب أرسلان ولد سنة ٤٧٥ هـ/ ١٠٨٢م ونشأ في دمشق وبعد وفاة أبيه تولى أخوه دقاق دمشق في حين تولى هو حلب في عام ٤٨٨ هـ/١٠٩٥م، انظر: سهيل زكار: المرجع السابق، ص ٣٤٧.

٣٧– Grousset, R.: Histoire des Croisades,Vol. I, P. 453;

Stevenson, W. B.: The Crusaders in the East.P. 88;

– عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، بيروت ١٩٨٠ م، ص ٢٢٢.

٣٨– ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٧٠، ١٧١.

٣٩– ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٧٠.

٤٠– ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٤٨٦؛ ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٧٠.

٤١– ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٤٨٦؛ ابن العديم: المصدر السابق، ص ٢٥٣.

٤٢– ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٤٨٥؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد، بيروت، د.ت.، ج ٢ ص ٣٨٦؛ اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، بيروت١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ج٣ ص ١٧٧.

٤٣– ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٤٨٥.

٤٤– ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٧٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٤٨٦.

٤٥– ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٧٥؛ ابن العديم: المصدر السابق، ص ٢٥٤؛

-Grousset, R.: Histoire des Croisades. Vol. I, P. 465.

٤٦ – بالس: مدينة قديمة على شاطيء الفرات، وهي من أعمال حلب، انظر: ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق: عبد الله الدرويش، دمشق١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ١٥٨.

٤٧– الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٧؛ ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ١٧٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٠ ص ٤٨٦؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ص ٣٨٦؛ اليافعي. مرآة الجنان، ج

٣ ص ١٧٧.

٤٨- Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse, P.96.

٤٩- الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٩.

٥٠- الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٩.

٥١- الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٩.

٥٢- الفقيه أبو المرجا: هو يحيي بن الضرير، كان فقيها جيدا من أصحاب القاضي أبي بكر بن صدقة، انظر: الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٩، ٢٨٠.

٥٣- بدليس: مدينة من أعمال خلاط على مسيرة ثلاثة أيام منها تقع في واد عميق، وهي شديدة البرودة ثلوجها كثيرة، ولكنها عامرة وكثيرة الخصوبة، انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٠٢؛ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م، ص ٢٨٩، وراجع: منى الشاعر: الفتوحات الإسلامية لخلاط وأعمالها، ص ٧٦٩.

٥٤- الفارقي: المصدر السابق، ص ٢٧٩، ٢٨٠.

٥٥- الفارقي: المصدر السابق، ص٢٨١، ٢٨٢.

٥٦- الفارقي: المصدر السابق، ص٢٨٢.

٥٧- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٥ ص ١٧٨؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ص ٣٠؛ زامباور: المرجع السابق، ص ٣٤٨.

٥٨- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٥ ص ١٧٨؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ص ٣٠؛ زامباور: المرجع السابق، ص ٣٤٨.

٥٩- شاه: لفظ فارسي بمعنى ملك أو سيد، وكان يطلق على ملوك الفرس أو من تشبه بهم، وقد يضاف إليه ألفاظ أخرى فيقال شاه أرمن أي ملك الأرمن أو شاه جيهان أي ملك العالم، والمقصود بأرمن هنا خلاط وأعمالها فكان كل من يتولاها يسمى شاه أرمن، انظر: حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٨٩م، ص ٣٥٢.

٦٠- دائرة المعارف الإسلامية، مادة خلاط، المجلد الثاني ص٤٣٤، ومادة أرمينية، المجلد الثالث، ص ٤٧؛ زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص ٣٤٨؛ أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، ج ٢ ص٣٥٦؛ ستانلي لين بول: الدول الإسلامية، القسم الأول، ص ٣٥٨.

٦١- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث عام ٥٥٦ هـ، بهامش كتاب ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦١-٣٦٥؛ الحسيني: كتاب أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح: محمد إقبال، بيروت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، ص ١٥٧؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١ ص٢٨٦؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٢، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣م، ص ١٧، ١٨؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٨٠.

٦٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١، ج١٢، صفحات متفرقة؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٣، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣م، ص ٢٠٨؛ ابن دقماق: نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، تحقيق: سمير طبارة، بيروت ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م، ص ٩١؛ الخزنداري: تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، تحقيق: عمر تدمري، بيروت١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م، ص٥١.

٦٣- كان يتزعم الجبهة الإسلامية في الجهاد ضد الصليبيين في تلك الآونة نور الدين محمود بن زنكي الذي بدأ يوجه جهوده إلى توحيد العالم الإسلامي لضرب القوى الصليبية في بلاد الشام، انظر: ابن

القلانسي: المصدر السابق، صفحات متفرقة؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م، صفحات متفرقة؛ عفاف سيد صبره: دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص ٤٥٦.

٦٤- يوسف عزت: تاريخ القوقاز، ترجمة: عبد الحميد غالب، القاهرة ١٩٣٣، ١٩٤٠م، ص ٣٧، ٣٨.

٦٥- فضلون بن منجهر: هو من آل شداد وفضلون الذين تولوا بعض المناطق في آران وأرمينية، وقد اشتري آل شداد مدينة آني من السلطان ألب أرسلان في عام ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢م ومنذ ذلك الوقت انشطرت الشدادية إلى فرعين فرع يحكم في كنجة، وفرع يحكم في مدينة آني، وظلوا يحكمون في آني حتى أجبروا على تركها في عام ٥٥٨ هـ/ ١١٦٣م للسلطان السلجوقي أرسلان شاه، ثم استولى عليها الكرج في عام ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م، انظر: ستانلي لين بول: الدول الإسلامية، ق ١ ص ٣٦٠.

٦٦- Minorsky, V.: The Turks, Iran and Caucacus in the Middle Ages, London 1978, P.875;

-Brosset, A.: Histoire de la Georgie, Paris 1910, P. 256;

عفاف سيد صبرة: المرجع السابق، ص ٤٥٧.

٦٧- سرماري : ولاية واسعة من أعمال خلاط ، تقع بين تفليس وخلاط ، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٣ ص ٢١٥؛ ابن عبد الحق البغدادي: مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م، ج ١ ص ٧٠٩، وراجع: منى الشاعر: الفتوحات الإسلامية لخلاط، ص ٧٧٢.

٦٨- كركور: يقصد به ملك الكرج جورج الثالث الذي كان يحكم في تلك الفترة، انظر: الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث ٥٥٦ هـ موجودة بهامش كتاب ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦١.

٦٩- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث عام ٥٥٦ هـ، موجودة بهامش كتاب ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦١.

٧٠- تولى عز الدين صلتق أرزن الروم عام ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥م، واستمر في حكمها حتى عام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤م، وقد حكمت أسرة بنو صلتق في أرزن الروم منذ عهد أن عاد إليها السلطان السلجوقي ألب أرسلان بعد معركة ملاذكر في عام ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م، إلى أن انقرض حكمهم في تلك المناطق في عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠١م، انظر: ستانلي لين بول: المرجع السابق، ق ١ ص٣٣٦.

٧١- أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط، لها قلعة حصينة، كانت من أعمر نواحي أرمينية، فتحها عياض بن غنم صلحا بعد فتح الجزيرة الفراتية، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١ ص١٥٠؛ أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٣٩٥.

٧٢- نهر الرس: نهر يخرج من قاليقلا ويمر بأران ثم يمر ببورنان ثم بالمجمع فيجتمع مع نهر الكّر وبينهما مدينة البيلقان، ويمر الكر والرس معا فيصبان في بحر جرجان، انظر: ياقوت: معجم البلدان، ج٣ ص ٤٤؛ محمود شيت خطاب: قادة الفتح الإسلامي لأرمينية، بيروت ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، ص ٢٥، ٢٦.

٧٣- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث عام ٥٥٦ هـ، ص ٣٦١؛ الحسيني: المصدر السابق، ص ١٥٧؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ١١ ص٢٨٦؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٨٠.

٧٤- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث عام ٥٥٦ هـ، ص ٣٦١.

٧٥- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث عام ٥٥٦ هـ، ص ٣٦١.

٧٦- تفليس: بلد بأرمينية الأولى وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة فتحها المسلمون في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وظلت في أيديهم حتى استولى عليها الكرج في عام

٥١٥ هـ/ ١١٢١م، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٥، ٣٦.

٧٧- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث عام ٥٥٦ هـ، ص ٣٦١؛ الحسيني: المصدر السابق، ص ١٥٧؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص٢٨٦.

٧٨- نجم الدين ألبي بن إيلغازي بن حسام الدين تمرتاش الأرتقي صاحب ماردين وميافارقي، تولى نجم الدين ولاية ماردين وميافارقين بعد وفاة والده حسام الدين في عام٥٤٧ هـ/١١٥٢م، انظر: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، بيروت، د.ت، ج ٣ ص ٢٦.

٧٩- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث ٥٥٦ هـ موجودة بهامش كتاب ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦١.

٨٠- دوين: بلدة في نواحي آران في آخر حدود أذربيجان وقرب تفليس، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٢ ص ٤٩١.

٨١- شمس الدين ايلدكز: مؤسس دولة أتابكة أذربيجان، وكان ايلدكز مملوكا للسميري وزير السلطان مسعود السلجوقي، ثم أصبح ضابطا فعهد إليه السلطان بتربية الطفل أرسلان بن طغرل الثاني فأصبح ايلدكز أتابكا له، ثم تزوج ايلدكز أرملة السلطان طغرل الثاني، فعينه السلطان مسعود واليا على أذربيجان في عام ٥٣١ هـ / ١١٣٦م فاسس أتابكية أذربيجان، وأصبح الحكم متوارثا بين أبنائه، انظر: عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة، القاهرة ١٩٧٥م، ص ١٢١.

٨٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١، ص٢٨٦، وراجع ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥ ص ٨٠.

٨٣- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١، ص٢٨٦.

٨٤- الفارقي: تاريخ ميافارقين، حوادث٥٥٧ هـ بهامش كتاب ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦١.

٨٥- تولى السلطنة في الدولة السلجوقية السلطان أرسلان شاه بن طغرل الثاني في عام ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ م بعد مقتل السلطان سليمان شاه الذي أساء السيرة حتى دبر الأمراء مقتله، ثم أرسلوا إلى ايلدكز ليرسل إليهم ابن زوجته أرسلان شاه بن طغرل الثاني فأرسله إليهم في همذان واعتلى عرش السلطنة السلجوقية، انظر: عبد النعيم حسنين: المرجع السابق، ص ١٢١.

٨٦- الحسيني: المصدر السابق، ص ١٥٧.

٨٧- الحسيني: المصدر السابق، ص ١٥٧.

٨٨- نخجوان: مدينة بأذربيجان، ويقال من آران تلاصق أرمينية، وهي المعروفة عند العامة بنقجوان، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٦، ٢٨٧.

٨٩- الحسيني: المصدر السابق، ص ١٥٧، ١٥٨، وتعني كلمة إيجي باللغة التركية الأخ الكبير، انظر: الحسيني: المصدر السابق، ص ١٥٨، حاشية ٧.

٩٠- الحسيني: المصدر السابق، ص، ١٥٨.

٩١- الحسيني: المصدر السابق، ص، ١٥٨، ١٥٩.

٩٢- الحسيني: المصدر السابق، ص، ١٥٩.

٩٣ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ص ٢٨٧.

٩٤- ابن الأثير: المصدر السابق، ج١١ ص ٢٨٧، ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٨٠.

٩٥- الحسيني: المصدر السابق، ص ١٦٠، ١٦٢، الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٢؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٢٨٧.

٩٦- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٢،

٩٧- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٢٨٧؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥ ص ٨٠.

٩٨- جنزي: مدينة بآران بين شروان وأذربيجان ويسميها العامة كنجة، انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٢ ص ١٧١.

٩٩- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٤.

١٠٠- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٤.

١٠١- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٤.

١٠٢- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٤.

١٠٣- ذكر الفارقي- وهو شاهد عيان على أحداث تلك الفترة- أن ايلدكز هوالذي قاد تلك الحملات في عامي ٥٧٠، ٥٧١ هـ، في حين ذكر ابن الأثير وفاة ايلدكز في عام ٥٦٨ هـ، انظر: الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٣٨٨، ٣٨٩.

١٠٤ - الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٥.

١٠٥- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٥.

١٠٦- الفارقي: المصدر السابق، هامش ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٦٥.

١٠٧- راجع عن ذلك بالتفصيل: عفاف صبرة: المرجع السابق، ص ٤٦٤، ٤٦٥.

١٠٨- أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت، د. ت.، ج ٢ ص ٣٨.

١٠٩- أبو شامة: الروضتين،ج ٢ ص ٣٨.

١١٠- البيرة: بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الأول ج ٢ ص ٤١٣.

١١١- مظفر الدين كوكبوري: هو مظفر الدين بن زين الدين علي صاحب إربل، كان ملكاً شجاعاً جواداً غازياً وله دور كبير فى جهاد الصليبيين، وكوكبورى اسم تركى معناه الذئب الأزرق، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص ١٢١.

١١٢- ابن شاهنشاه: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م، ص ١٠٢-١٠٦؛ ابن الأثير: المصدر السابق: ج ١١، ص ٤٨٢ - ٤٨٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار ملوك بني أيوب، ج ٢ ص ١١٧، ١١٨.

١١٣- ابن الأثير: المصدر السابق: ج ١١، ص ٤٨٩.

١١٤- ابن الأثير: المصدر السابق: ج ١١، ص ٤٨٨، ٤٨٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢ ص ٣٨.

١١٥- حرزم بليدة في واد ذات نهر جار وبساتين تقع بين ماردين ودنيسر من أعمال ماردين، انظر: ياقوت: المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٤٠.

١١٦- ابن الأثير: المصدر السابق: ج ١١، ص ٤٨٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج ٢ ص، ٣٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٣٤.

١١٧- ابن الأثير: المصدر السابق: ج ١١، ص ٤٨٩، وراجع: ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٣٤.

١١٨- ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ١٣٦ - ١٣٩؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٤٩٣؛ ابن العديم: المصدر السابق، ص ٣٨٩، ٣٩٠.

١١٩- ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢١٧؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٣؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦٨؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٨، تحقيق: محمد أمين ومحمد حلمي أحمد، القاهرة ١٩٩٢م، ص ٣٨٦.

١٢٠- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٣، ٥١٤؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦٨.

١٢١- أبو شامة: الروضتين ، ج٢ ص ٦٣.

١٢٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢، بيروت ١٩٨٢م، ص ٣، ٦.
١٢٣- أبو شامة : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٣ ، وراجع: ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦٨.
١٢٤- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٤؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢ ص ٦٣؛ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦٨؛ النويري: نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٣٨٦، ٣٨٧.
١٢٥- ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢١٧.
١٢٦- ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢١٧، ٢١٨؛ ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ١٦٨، ١٦٩.
١٢٧- ابن شاهنشاه: المصدرالسابق، ص ٢١٨؛ أبو شامة: المصدرالسابق، ج٢ ص ٦٣؛ ابن واصل: المصدرالسابق، ج ٢ ص ١٦٩.
١٢٨- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٤.
١٢٩- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٤.
١٣٠- ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢١٨، ٢٢١؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٤؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج ٢ ص ٦٣.
١٣١- ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢١٨، ٢١٩؛ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١١ ص ٥١٥-٥١٦؛ - ابن واصل: المصدر السابق، ج٢ ص ١٦٩.
١٣٢- ابن شاهنشاه: المصدر السابق، ص ٢٢١، وراجع: - أبو شامة: الروضتين، ج٢ ص ٦٣.
١٣٣- ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ٦٢، ٦٣.
١٣٤- ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ٦٢، ٦٣.
١٣٥- عن أحداث الحملة الصليبية الثالثة وصلح الرملة، انظر: - سعيد عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة ١٩٧١، ١٩٨٦م. ج ٢ ص ٢٢٥، ٢٢٦؛

-Painter, S.: The Third Crusade Richard Lion Hearted and Philip Augustus. In: Setton, K. M., A History of the Crusades.Vol.11, Pennsylvania, 1962, Pp. 45 -85.

١٣٦ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ٩٥.
١٣٧- ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ٩٥، ٩٦.
١٣٨- ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ٩٦.
١٣٩- ابن شداد: سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٢م، ص ٢٤٦، ٢٤٧؛ - ابن واصل: المصدر السابق، ج ٢ ص ٤١٦ - ٤٢٠.
١٤٠- ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ١٠٢- ١٠٣.
١٤١- ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ١٠٣.
١٤٢- ابن واصل: المصدر السابق، ج٣ ص ٢١؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ترجمة: إسحاق أرملة، بيروت ١٩٨٦م، ص ٢٢٦؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٢م، ص ١٢٥.
١٤٣- ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج ٣ ق١، تحقيق يحيى عبارة، دمشق ١٩٧٨م، ص ٨٠.
١٤٤- هزار ديناري: اسمه اقسنقر ولقبه بدر الدين، جلبه تاجر جرجاني إلى خلاط فاشتراه منه شاه أرمن إبراهيم بن سكمان، وأعجب به وجعله ساقيا له ولقبه هزار ديناري وأصبح خشداشا لسيف الدين بكتمر أي زميلا له، وزوجه سيف الدين بكتمر من ابنته، ولما تولى سيف الدين بكتمر بعد وفاة شاه أرمن إبراهيم بن سكمان أصبح هزار ديناري من أكابر الأمراء، ثم طمع في ملك خلاط مكانه، فدبر قتل سيف الدين بكتمر وقام باعتقال ابنه محمد الذي كان في السابعة من عمره مع أمه، وتولى بدر الدين أقسنقر

هزار ديناري مملكة خلاط في عام ٥٨٩ هـ، انظر: - أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ٨٨، ٨٩.

١٤٥- ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢ ص ١٠٣؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٢٢٦.

١٤٦- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ١٣٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت ١٩٧٩م، ج ٤، ص ٢٧٧.

١٤٧- أبو الفدا: المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٨، ٨٩، ٩٤.

١٤٨- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ١٠٣؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٢٢٦؛ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٦ ص ١٣٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب في خبر من ذهب، ج٤ ص ٢٧٧.

١٤٩- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٥٣.

١٥٠- الملكة ثمارا الكرجية: هي الابنة الوحيدة للملك جورج الثالث، عرف عصرها بالعصر الذهبي للمملكة لأنها اهتمت بالجيش وحققت انتصارات كبيرة، ويعتبر عهدها إيذانا بالاستقلال التام عن الدولة البيزنطية، كما يعتبر زوجها داود سوسلان محركا لها ولجيوشها ضد البلدان الإسلامية المجاورة، انظر: عفاف سيد صبرة: المرجع السابق، ص ٤٦٦، ٤٦٧.

١٥١- أزبك بن البهلوان: هو أحد اتابكة أذربيجان التي أسسها ايلدكز، وهوالابن الرابع لمحمد بن البهلوان بن ايلدكز، انظر: الحسيني: المصدر السابق، صفحات متفرقة؛ - ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٢، صفحات متفرقة.

١٥٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ١٨٣، ١٨٤؛ ابن الساعي: الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، ج ٩، تحقيق: مصطفى جواد، بغداد ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م، ص ١٠١، ١٠٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت ١٩٧٧م، ج ١٣، ص ٣٤.

١٥٣- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢، ص ٢٠٤؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٨٠م، ص ١٩٨؛ ابن الساعي: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٥١.

١٥٤- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٠٤، ٢٠٥؛ - ابن الساعي: المصدر السابق، ج ٩ ص ١٥٢.

١٥٥- عفاف صبره: المرجع السابق : ٤٧٢ .

١٥٦- ابن الأثير: المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٤٠.

١٥٧- ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٤٠، ٢٤١؛ - ابن الساعي: المصدر السابق، ج ٩ ص ١٧٧.

١٥٨- ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٢ ص٢٤١.

١٥٩- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٥٣.

١٦٠- أبو الفدا: المصدر السابق، ج ٣ ص ٩٤؛ - ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥ ص ١٨٠.

١٦١- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٠٤، ٢٠٥. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ١٩٨؛ ابن الساعي: المصدر السابق، ج ٩ ص ١٥١.

١٦٢- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٥٥؛ ابن الساعي: المصدر السابق، ج ٩ ص ٢٠٦؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ٢٤٦.

١٦٣- ابن الأثير: المصدر السابق، ج ١٢ ص ٢٥٥، ٢٥٦.

١٦٤- أبو الفدا: المصدر السابق، ج ٣، ص ٩٤؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٥ ص ١٨٠.

١٦٥- عن تأسيس ولاية خلاط الأيوبية انظر: منى الشاعر: التوسع الأيوبي في أرمينية الكبرى وتأسيس ولاية خلاط الأيوبية، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، العدد ٢٤ لسنة ٢٠٠٦، ص: ٦١٣- ٦٥٤.

المصادر والمراجع

أ- المصادر العربية والمعربة:

- ابن الأثير (عز الدين على بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بالجزري)، ت: ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م: «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية»، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م؛ «الكامل في التاريخ»، ١٢ جزءا، بيروت ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٧٩، ١٩٨٣م.
- ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله بن أيبك)، ت: ٧٣٢هـ/١٣٣١م: «الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب»، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٢م.
- ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي)، ت:٣٦٧هـ / ٩٨٧م: «صورة الأرض»، بيروت د .ت.
- ابن خلدون (عبد الرحمن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي)، ت: ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م: « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر» المعروف بـ«تاريخ ابن خلدون»، بيروت ١٩٧١م.
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر)، ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م: «وفيات الأعيان»، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨-١٩٧١، ١٩٩٤م.
- ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي)، ت: ٨٠٩ هـ /١٤٠٧م: «نزهة الأنام في تاريخ الإسلام»، تحقيق: سمير طبارة، بيروت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م
- ابن الساعى (أبو طالب على بن أنجب تاج الدين)، ت: ٦٧٤هـ/١٢٧٥م: «الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير»، ج ٩، تحقيق: مصطفى جواد، بغداد ١٣٥٣هـ /١٩٣٤ م.
- ابن شاهنشاه (محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه صاحب حماة الأيوبي)، ت: ٦١٧هـ / ١٢٢٠م: «مضمار الحقائق وسر الخلائق»، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م.
- ابن الشحنة (أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبي الحنفي)، ت: ٨٩٠ هـ/١٤٨٥م: «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب»، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دمشق ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م.
- ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم)، ت: ٦٣٢هـ/١٢٣٨م: «سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٢م.
- ابن شداد (عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم)، ت: ٦٨٤هـ/١٢٨٥م: «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»، الجزء الأول بقسميه، تحقيق: يحيى عبارة، دمشق ١٩٩١م، الجزء الثاني بقسميه، تحقيق: سامى الدهان، دمشق١٩٦٢م، الجزء الثالث، وهو ثلاثة أقسام، تحقيق: يحيى عبارة، دمشق ١٩٧٨م.

- ابن عبد الحق البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن)، ت: ٧٣٩هـ /١٣٣٨م: مراصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاعس، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.
- ابن العبري (العلامة غريغوريوس أبو الفرج جمال الدين الملطى)، ت: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م: «تاريخ مختصر الدول»، بيروت ١٩٨٠ م؛ تاريخ الزمان، ترجمة: إسحاق أرملة، بيروت ١٩٨٦م.
- ابن العديم (الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن هبة الله بن العديم)، ت: ٦٦٠هـ / ١٢٦١م: «زبدة الحلب في تاريخ حلب» تحقيق: خليل المنصور، بيروت ١٩٩٦م.
- ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي)، ت: ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م. «شذرات الذهب في خبر من ذهب»، بيروت ١٩٧٩م.
- ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي)، ت: ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م: «ذيل تاريخ دمشق»، القاهرة ، د.ت.
- ابن كثير(عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر)، ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م: البداية والنهاية ، بيروت ١٩٧٧م.
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل)، ت: ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الأجزاء ١-٣ تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣، ١٩٥٧، ١٩٦٠م، والأجزاء ٤، ٥ تحقيق: حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٢، ١٩٧٧م.
- ابن الوردي (سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي)، ت: ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م: تاريخ ابن الوردي، النجف ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م؛ خريدة العجائب وفريدة الغرائب، القاهرة د . ت.
- أبو شامة (شهاب الدين محمد عبد الرحمن بن إسماعيل)، ت: ٦٦٥هـ/١٢٦٦م: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت، د. ت.
- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل)، ت: ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م: ز المختصر في أخبار البشر، بيروت، د.ت.؛
تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠م.
- أبو المحاسن (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى)، ت: ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠م: «النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر» والقاهرة، القاهرة ١٩٣٦م.
- الحسيني (صدر الدين بن علي)، ت: ٥٧٥هـ/١١٨٠م: كتاب أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح: محمد إقبال، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- الخزنداري(قرطاي العزي)، ت: بعد ٧٠٨هـ /١٣٠٨م: تاريخ مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

- الذهبي (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد)، ت: ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م: العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد والسعيد بسيوني زغلول، بيروت د. ت.
- الفارقي (أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي)، ت: ٥٩٠ هـ/ ١٠٩٤م: تاريخ الفارقي، تحقيق: بدوي عبد اللطيف عوض، بيروت ١٩٧٤م؛ تاريخ ميافارقين حوادث عام ٥٦٥ هـ، موجودة بهامش كتاب ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق.
- فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة: زياد العسلي، بيروت ١٩٩٠م.
- القزويني (زكريا بن أحمد بن محمود)، ت: ٦٨٢هـ/١٢٨٣م: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت د. ت.
- المقدسي(أبو عبد الله محمد بن أحمد بن البناء البشاري المقدسي)، ت: ٣٨٨ هـ/ ٩٩٧م: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م.
- النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، ت: ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م: نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢٨، تحقيق: محمد محمد أمين ومحمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ١٩٩٢م.
- وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية- تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت١٩٩٠م.
- اليافعي (أبو محمد عبد الله بن اسعد بن سليمان)، ت: ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦م: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، بيروت١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
- ياقوت الحموي(شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي)، ت: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م: معجم البلدان، بيروت ١٩٨٨، ١٩٩٧م.

ب- المراجع العربية والمعربة:

- أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، القاهرة ١٩٦٩م.
- أرنست باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت ١٩٦٧م.
- حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٨٩م.
- دائرة المعارف الإسلامية: أصدرها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية كبار المستشرقين في العالم تحت إشراف الإتحاد الدولي للمجامع العلمية، ترجمها إلى العربية: زكي خورشيد ،أحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس، القاهرة ١٩٣٣م.
- زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه:

زكي محمد حسن، وحسن محمود، ترجمه: سيدة إسماعيل كاشف، حافظ حمدي، أحمد ممدوح حمدي، القاهرة ١٩٥١م.

– ستانلي لين بول: الدول الإسلامية، تصحيح: بارتولد وخليل أدهم، ترجمه من التركية: محمد صبحي فرزات، دمشق١٩٧٣م.

– سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، القاهرة ١٩٧١، ١٩٨٦م.

– سهيل زكار: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، بيروت ١٩٧٢م.

– عبد النعيم حسنين: دولة السلاجقة، القاهرة ١٩٧٥م.

– عفاف سيد صبره: «دراسات في تاريخ الحروب الصليبية»، القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

– علية عبد السميع الجنزوري: «إمارة الرها الصليبية»، القاهرة ١٩٧٥م.

– عماد الدين خليل: «الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ٤٦٥–٨١٢ هـ/١٠٧٢–١٤٠٩م»، بيروت ١٩٨٠م.

– محمود شيت خطاب: «قادة الفتح الإسلامي لأرمينية»، بيروت ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨م.

– منى سعد محمد الشاعر: «الفتوحات الإسلامية لخلاط وأعمالها وتوطيد النفوذ الإسلامي في أرمينية»، بحث منشور بمجلة كلية الدراسات الإنسانية العدد ٢٤، لعام ٢٠٠٦ م؛

–«التوسع الأيوبي في أرمينية الكبرى وتأسيس ولاية خلاط الأيوبية»، بحث منشور في مجلة كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، العدد ٢٤ لسنة ٢٠٠٦.

– يوسف عزت: تاريخ القوقاز، ترجمة عبد الحميد غالب، القاهرة ١٩٣٣، ١٩٤٠م.

ج- المصادر والمراجع الأجنبية:

- Albert, d'Aix: Historia Hierosolymitana. In: R.H.C.-H.Occ., Vol. IV.

- Bréhier, L.: L'Eglise et L'Orient au Moyen Age, Croisades, Paris 1928.

- Brosset, A.: Histoire de la Georgie, Paris 1910.- Grousset, R.: Histoire des Croisades et du Royaume France, de Jérusalem, Paris 1934 -1936, Vol. I.

- Matthieu d'Edesse: Extraits de la chronique de Matthieu d' Edesse, In: R. H. C. D. Arm., Paris 1869.

- Minorsky, V.: The Turks, Iran and Caucasus in the Middle Ages. London 1978.

- Augustus. In: Setton, K. M., A History of the Crusades.Vol.11,Pennsylvania 1962.

-Setton, K.M.: A History of the Crusades, Pennsylvania, Vol. I, 1969 & Vol. 11, 1962.

- Stevenson, W. B.: The Crusaders in the East; Cambridge 1907

د. أشرف سمير توفيق محمد (*)

السياسة الخارجية
لدولة الشاة البيضاء فى آسيا الصغرى

فى الأطراف الشمالية للسلطنة المملوكية، ترتب على زوال دولة الإيلخانيين (مغول إيران) إعلان جماعة من الرؤساء البارزين وولاة الأقاليم استقلالهم فقامت عدة دول من شعوب متنوعة مثل الأرمن والكرج والأكراد والتركمان، واستطاع أمراء هذه الدول أن يندفعوا غرب الأناضول إلى الحدود البيزنطية، وتمكنوا من إقامة دولهم(١)، وامتدت هذه الدول على طول الحدود الشمالية الشرقية لدولة المماليك، التى كانت تشمل فى ذلك الوقت البلاد الواقعة من الشلال الأول جنوبا، وأعلى الفرات شمالاً بما فى ذلك بلاد الشام، وأجزاء من آسيا الصغرى حتى طرسوس وملطية(٢).

وأغلب تلك الدول قد ربطهم بسلطنة المماليك علاقات متقلبة بين الخضوع والتبعية حينا، والثورة والعدوان أحيانا أخرى وفق ما تمليه الظروف الخاصة والعامة التى أحاطت بمنطقة الشرق الأدنى وشعوبها(٣)، وقد أقام التركمان لأنفسهم فى تلك المناطق دولاً أو دويلات على أطراف آسيا الصغرى وبلاد النهرين، وكان من المفروض أن تكون تابعة للسلطنة المملوكية فى مصر والشام، ولكن لم تظل هذه الدول على ولائها للمماليك، وإنما دأبت على استغلال الظروف للخروج عليها ومهاجمة أراضيها مما جعل الأطراف الشمالية للسلطنة المملوكية فى شمال حلب وأعالى الفرات وشرق آسيا الصغرى مثار نزاع دائم بسبب تمرد هؤلاء التركمان، فنجد أن كثيرا ما قنعت الحكومة المملوكية بالسيادة الاسمية على رؤساء دول التركمان(٤)، وأعطتها مساحة من التصرف فى شئونها الداخلية مع المحافظة على الولاء والطاعة للسلطنة المملوكية.

ومن هذه الدول التركمانية ذات الأهمية بمكان فى التاريخ السياسى لتلك المنطقة دولة الشاة البيضاء أو أصحاب الخراف البيضاء أو الآق

(*) مدرس كلية دار العلوم – جامعة المنيا

قيونلية أو البايندرية(٥) .

الجذور التاريخية لنشأة دولة الشاة البيضاء :

تعتبر دولة الشاة البيضاء عشيرة تركمانية هاجرت من تركستان إلى أذربيجان ثم إلى نواحى ديار بكر (آمد) (٦) ثم أسكنت فى النهاية الأرض الواقعة بين آمد والموصل، ويرجع نسبها إلى (بايندر) وهو الابن الأكبر (لكوك خان بن أغوز خان) واستطاعوا أن يكونوا دولتهم فى تلك المنطقة فى أواخر القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، ويذكر أن أول من ظهر من زعماء هذه الدولة (طور على) أو (در على) التركى الأصلى الملقب بعلاء الدين التركمانى، ثم ولى بعده ولده (قتلغ - قتلى بك) الملقب بفخر الدين، إلا أن المؤسس الحقيقى لهذه الدولة هو (بهاء الدين قراعثمان بن قتلغ) (٧) الملقب بـ(قرايولك) (٨) وقد نشأ عثمان قرايلوك فى كنف الأراتقة بماردين(٩) حيث كان أبوه من جملة أمراء تلك الدولة، وعند قدوم تيمورلنك إلى منطقة آسيا الصغرى، انحاز إليه عثمان قرايلوك، وصار من أعوانه هو وصحبته وعشيرته، وساعده فى معاركه ببلاد الشام، حيث كان عثمان جاليش أى (مقدم الجيش) لتيمورلنك، فكافأه تيمورلنك على حسن خدمته، بأن منحه أرضا فى أرمينية، ومنطقة الفرات العليا عام ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م مقابل خدماته له، وكانت هذه المكافأة هى النواة الأولى لنشأة دولة الشاه البيضاء (آق قيونلية) فى ديار بكر (آمد) (١٠)

واستطاع عثمان قرايلك بشجاعته وقوته، ونفاذ بصيرته أن يثبت قواعد دولته، ويعمل على توسيع رقعتها إما بالمصايرة أو الغدر أو الحيلة «حيث كان مغامراً عالى الهمة»، فصارت دولته فيما بعد صاحبة السلطة الشاملة فى بلاد فارس، وبالتالى كانت لدولته علاقات متعددة ومتشابكة مع القوى المجاورة له مع السلطنة المملوكية فى مصر والشام، أو العثمانيين فى بلاد الأناضول، أو مع الدول التركمانية الأخرى فى آسيا الصغرى، وسوف نتناول هذه العلاقات فيما يلى .

دولة الشاه البيضاء والسلطنة المملوكية :

كان لموقع دولة الشاه البيضاء أثر فى علاقاتها مع القوى الإسلامية المتاخمة لحدودها، وقد تمثلت هذه العلاقات فى التعاون العسكرى لصد الأخطار المشتركة حينا، أو الحرب حينا أخرى، وربما العصيان والانشقاق أحيانا.

وقد ارتبطت هذه الدولة بسلطنة المماليك بعلاقات متقلبة بين الخضوع والتبعية، والثورة والعدوان وفق ما تمليه المصالح الخاصة للسياسة

التوسعية لأمراء تلك الدولة، حيث كانت الحدود بين الاقطاع الأصلى لدولة الشاه البيضاء (ديار بكر) وبين دولة سلاطين المماليك على طول ثنية نهر الفرات مما أدى إلى وجود احتكاك مباشر بين السلطنة المملوكية التى من المفروض أن تتبعها دولة الشاه البيضاء سياسياً.

وقد ظهر هذا الاحتكاك فى عام ٨٠٩هـ /١٤٠٦م حيث كان لعثمان قرايلك دور واضح فى القضاء على الأمير (جكم) الخارج عن السلطنة، والذى بويع له بحلب سلطانا، ولقب بالملك العادل، حيث قام هذا الأمير بحمله على دولة التركمان ليضمن ولائهم له، فخرج من حلب فى نفس العام ثم عبر الفرات من البيرة، وعندما علم قرايلك بذلك أراد أن يدفع خطر هذا الأمير عنه وعن دولته، فعرض عليه الصلح وان يحمل إليه هدايا من الجمال والأغنام وغيرها، ولكنه رفض فسار حتى ماردين والتقى هناك عسكر جكم وقرايلك، وانهزم التركمان فى بادئ الأمر وقتل إبراهيم بن عثمان قرابيلك، فتراجع التركمان إلى آمد واعتصموا بها فاقتحم جكم المدينة حتى توسط بساتين آمد، وكان قرايلك قد امر بارسال المياه فى أرض المدينة حتى وحلت الأرض، وأخذ جند قرايلك يلقون جكم وجنوده بالحجارة، والسهام، فلم يتمكن جكم من الفرار لضيق المكان ووحولة الأرض، حتى اصيب بحجر فى رأسه فسقط عن فرسه، فقطعوا راسه، وانكسرت عساكره، وتفرقوا وغنمت التركمان منهم مغانم كثيرة، ما بين أموالاً جزيلة وخيولا كثيرة وبغالا وجمالا(١١) وبعث قرايلك برأس جكم إلى السلطان فرج فى مصر ولاقى ذلك استرضاء السلطان (١٢) فولاه الناصر فرج نيابة الرها (١٣) جزاء قضائه على جكم «فقوى عثمان قرايلك بذلك وضخم ولا زال فى نمو»(١٤) واستولى بعد ذلك على ماردين وقتل صاحبها وكان ذلك فى عام ٨١١هـ /١٤٠٨م (١٥)

وفى عهد السلطان المؤيد شيخ كانت العلاقة بين عثمان قرابيلك والسلطنة المملوكية هادئة وتتسم بالود وتبادل الهدايا، فأرسل عثمان قرايلك فى عام ٨١٦هـ /١٤١٣ م قاصدا من عنده إلى السلطان ومعه رسالة تتضمن طاعة عثمان قرابيلك للسلطان المؤيد شيخ (١٦) ولكن سرعان ما تبدل ذلك الهدوء ففى عام ٨٢٠هـ / ١٤١٧م أغار عثمان قرايلك على حديثه بن سيف بن فضل أمير العرب الموالى للسلطنة المملوكية فأرسل السلطان إلى قرا يوسف زعيم دولة الشاة السوداء بتبريز(١٧) بالإغارة على قرايلك لتأديبه، فبادر قرايلك بإرسال ابنه حمزة وصحبته نائبه شمس الدين أميرزه بهدية من خيل وشعير للسلطان المؤيد وطلب حمايته من قرا يوسف(١٨) فأرسل السلطان إلى قرا يوسف يأمره بالرجوع عن عثمان وشفع فيه فرجع عنه(١٩).

واستمر الحال هادئا بعد تلك الواقعة بين الدولة وبين سلطنة المماليك حتى سلطنة (الأشرف برسباى) تغير ما بينهما، حيث انتهز عثمان قرايلك فرصة النزاع القائم بين السلطان المملوكي برسباى وبين شاه رخ بن تيمورلنك حول مسألة النقود وكسوة الكعبة(٢٠) فقام عثمان قرايلك بمهاجمة خرتبرت (خربوط) (٢١) بعد وفاة متوليها واستولى عليها وسلمها لولده كما أوغل داخل حدود دولة المماليك، ويبدو أن ذلك كان بتحريض من شاه رخ، الأمر الذى جعل برسباى يبادر بإرسال حملة من مصر انضم إليها عساكر دمشق وعلى رأسهم الأمير سودون نائب الشام واتجهوا نحو مدينة الرها، فقام أميرها (هابيل بن عثمان قرايلك) بتحصينها بعد أن جمع فيها خلائق من أهل الضياع بمواشيهم وعيالهم وأموالهم كدروع بشرية، وقام هابيل برمى العساكر الكشافة المحاصرين للمدينة بالنشاب من فوق أسوارها، واستطاع أن يقتل عددا كبيرا منهم وعلق رؤوسهم على أسوار المدينة، فأرسل العسكر السلطانى إلى أهل الرها بالأمان على أنهم يسلموا المدينة، ولكنهم رفضوا وأصروا على المقاومة، فجد العسكر الشامى والمصرى فى حصارها ونصبوا على القلعة المدافع، وأخذوا فى ضربها، فضعف أمر القلعة وطلب أهلها الأمان فكفوا عن قتالهم وطلبوا تسليم القلعة فنزل أميرها هابيل ومعه تسعة من أعيان الأمراء فى يوم الأحد ٢٢ شوال ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م، فقبض عليه، ورحل هو ومن معه إلى القاهرة حيث سجن فى قلعتها، ثم ركب الأمراء والنواب إلى قلعة الرها ونهبوها، وأسروا من بها من النساء والأطفال، وقتلوا من بالمدينة من الرجال(٢٢) .

وحاول عثمان قرايلك حمل برسباى على إطلاق سراح ولده هابيل، ولكن محاولاته باءت بالفشل، مما دفع عثمان أن يقوم بالإغارة على حلب ونهبها فى عام ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م(٢٣) ثم توجه إلى ماردين وملاطية وعينتاب ونهبها أيضا، فتهيأ برسباى بإعداد جيش لتأديب عثمان قرايلك ولكن ما لبث أن عاد الجيش بعد وصوله إلى الريدانية بعدما علم أن قرايلك عاد إلى بلاده فى نفس العام(٢٤).

ولم يكتف عثمان بذلك بل بالغ فى الاستهانة بسلطان دولة المماليك ومما يدل على ذلك إرساله له فى عام ٨٣٦هـ/١٤٣٣م هدية إلى السلطان برسباى، وكانت الهدية مكونة من مرآة مكفته بالذهب، وخروف ذى إليتين، خلعة من مخمل أحمر مرموقة بالذهب، وعدة اثواب مخمل وصقور صيد، ففطن برسباى لمغزى هذه الهدية والإهانة المقصودة بها، فالمرآة ترمز إلى أن السلطان وأمراءه مثل النساء، والخروف يرمز إلى أنهم مثل النعاج، والخلعة على

اعتبار أن برسباى نائبا لقرايلك، فقام برسباى فى الحال بالباس الخلعة لأحد الأشخاص المضحكين، فرقص بها فى حضرته، ثم أحرقها على مشهد من قصاد قرايلك وذبح الخروف، «ثم سأل القصاد استاذكم أن أراد أن يبهدل أحدا أيش يعمل فيه فيه ؟ فقالوا : يرميه فى الماء». فأمر برسباى بإلقاء القصاد فى الماء وأخرجهم وقص أذناب خيولهم وأعادهم ومعهم إنذار نهائى من السلطان، فقال لهم : «قولوا لأستاذكم يلاقينى على الفرات»(٢٥).

فخرج برسباى بجيشه فى مارس بعد عيد الفطر عام ٨٣٦هـ/١٤٣٣م وصبحته الخليفة المعتضد، والمؤرخ ابن تغرى بردى، والقضاة، وعدا الفرات وقصد آمد، وقد هال أهل آمد ما رأوه من كثرة العساكر وتلك الهيئة التى قل أن تجتمع فى عساكر الإسلام مثلها حتى ضاق عليهم اتساع البرارى، وقبل وصول برسباى إلى آمد ترك قرايلك آمد لأبنه بعد أن حصنها وخرج إلى قلعة أرقنين(٢٦) على يسار المتوجه إلى آمد، وقبل أن يخرج من آمد أمر أن يطلق الماء على أراضى آمد من خارج البلد من نهر دجلة، حتى يعوق ذلك تقدم العسكر، ولكن استطاع العسكر السلطانى أن يصل إلى خندق آمد بعد قتال شديد، ووصلوا إلى أبراجها ونصبوا عليها المجانيق، فكانت مكاحل النفط ترمى كل يوم بالمدافع الكثير، ولكن حامية آمد استماتت فى الدفاع عنها، رغم أن العسكر السلطانى كانت تنهب قرى آمد المحيطة بها وتحصد زرعها، فطالت إقامة السلطان وحصاره لآمد أكثر من خمسة وثلاثين يوما، وفى أثناء ذلك قتل أعوان قوايلك الملك الأشرف صاحب حصن كيفا أثناء توجهه إلى السلطان، فأمر السلطان بتتبع قتلة الملك الأشرف، فوافوا جماعة كبيرة من أمراء قرايلك قاتلوهم وأسروا منهم زيادة عن عشرين نفسا، ثم وافوا جماعة أخرى، وأسروا منهم ثلاثين من جملتهم (قرا محمد) أحد أعيان أمراء قرايلك فوسط السلطان منهم عشرين رجلا، ثم ندب جماعة من الأمراء النواب للتوجه إلى قلعة أرقنين لإجبار قرايلك على النزول منها، فكسر العسكر السلطانى وقتل منهم جماعة كبيرة من أمرائه، ثم جاء مدد إلى العسكر السلطانى استطاعوا بعدها أن يهزموا القرايلكية، فتعلق قرايلك بقلعة أرقنين وتحصن بها، «ونُهبت عساكره ومزقوا كل ممزق» (٢٧)

ومع طول بقاء الجيش المملوكى ساءت أحواله بسبب الغلاء فخشى برسباى من وقوع فتنة بين عساكره فترددت الرسل بين السلطان وعثمان قرايلك فى الصلح، فوافق السلطان على الصلح وتعهد زعيم الشاة البيضاء أن يكون تابعا مخلصا للسلطان، فأرسل السلطان إلى عثمان قرايلك خلعة وفرس بسرج ذهب وكنبوش مزركش وقماش مذهب ونحو ثلاثين قطعة من القماش

السكندرى(٢٨) وفى المقابل أرسل عثمان أربعة أكاديش(٢٩) يساوى ثمنها أربعة آلاف درهم، واستقر الصلح بينهما وعاد برسباى إلى مصر فى أواخر عام ٨٣٦هـ/ ١٤٣٣م(٣٠).

ولكن قرايلك استمر فى تمرده والنكوث بوعده، الأمر الذى سبب لبرسباى متاعب كثيرة، ففى عام ٨٣٧هـ/١٤٣٤م أراد قرايلك إعادة الرها التى استولى عليها السلطان من قبل، فحدث قتال هائل بين أعوان قرايلك والأمير إينال العلائى نائب الرها من قبل السلطان المملوكى(٣١).

كما كان يساعد الخارجين عن طاعة السلطان، فيذكر ان جانبك الصوفى الخارج على السلطان قصد الأمير محمد بن عثمان قرايلك صاحب قلعة (جمر كشك) فأكرمه محمد هذا وقواه، فشن من عنده الغارات على مدينة دوركى ونهبوا نواحيها (٣٢) فضلا عن الإمعان فى السخرية بالسلطان المملوكى، فعندما أرسل رموز ولائه وخضوعه له أرسلها بطريقة وقحة، ففى المحرم عام ٨٣٨هـ/١٤٣٤م قدم قاصد قرايلك ومعه كتاب منه وتسعة أكاديش هدية للسلطان وبعض النقود النحاسية وعليها اسم السلطان، وهذه النقود سببت إثارة السلطان عليه وعزمه على الانتقام منه، ولكن أجل ذلك إلى حين (٣٣) ومما زاد من حنق برسباى على عثمان قرايلك أنه علم أن شاه رخ بن تيمورلنك أرسل إلى قرايلك وأولاده خلع على أن يكون نائبه فى ممالكه وقبل قرايلك ولبس تلك الخلع(٣٤)

ولم يلبث برسباى ان انتهز فرصة استحكام الخلاف بين دولتى الشاه البيضاء والشاة السوداء وأعلن تأييده للأخيرة، حيث سار اسكندر بن قرا يوسف زعيم الشاة السوداء من عاصمته تبريز إلى قتال قرايلك حتى نزل بالقرب من (أرزن الروم) فبلغ قرايلك ذلك فجهز على بك بن عثمان فى فرقة من العسكر والتقى الفريقان فاستظهر عسكر قرايلك وكسر عسكر اسكندر ولكن ما لبث أن ثبت وحمل حملة رجل واحد على عسكر قرايلك فكسروه خارج أرزن الروم فأسرع قرايلك وعسكره قاصدين أرزن الروم ليتحصنوا بها فحيل بينهم فرمى قرايلك بنفسه إلى خندق القلعة حتى لا يقع فى أيدى زعيم الشاه السوداء فوقع على حجر فشدخ دماغه، ثم حمل إلى القلعة بحبال، ودام بها أياماً ثم مات فى العشر الأول من صفر عام ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م (٣٥) ودفن فاجتهد اسكندر بعد دخوله المدينة وعرف قبره، وأخرجه وقطع راسه ورأس ولديه وثلاثة رؤوس من أمرائه وأرسلها إلى مصر حيث علقت على باب زويله (٣٦)

وتولى أمر دولة الشاة، البيضاء بعد قرا عثمان ابنه على بك (٣٧) الذى أمضى سنى حكمه (٨٣٩-٨٤٢هـ /١٤٣٤-١٣٤٨م) فى محاربة أخية حمزه مستعينا

عليه بمراد الثانى سلطان آل عثمان وجقمق سلطان مصر ، حتى استطاع حمزة متملك ماردين أن يخرج أخيه عليً من آمد ويتملكها منه(٣٨)

وكانت الأمور هادئة بين حمزة والسلطة المملوكية، ففى عام ٨٤١هـ/ ١٤٣٧ أرسل حمزة هدية للسلطان المملوكى وكتاب يتضمن دخوله فى طاعة السلطان وأنه اقام الخطبة وضرب السكة بأسم السلطان المملوكى، وكان من جملة الهدايا دراهم ودنانير بسكة السلطان (٣٩) فأكرم السلطان قصاد الأمير حمزة، وأرسل معهم رسالة يشكره فيها وتشريف له بنيانه السلطانة بممالكه، وفرس وقماش مذهب وهدية هائلة ما بين قماش سكندرى وسلاح وغيره ونسخة يمين (٤٠)واستمرت العلاقات ودية بين سلطان المماليك وبين حمزة أمير دولة الشاة البيضاء حتى وفاة حمزة عام ٨٤٨هـ /١٤٤٤م(٤١)

وتولى بعده الأمير جهان كير بن على بك بن قرا عثمان على آمد(٤٢) وانشغل جهان كير بنزاعات داخلية مع اخوته وبنزاعات خارجية مع جهان شاه بن قرا يوسف زعيم الشاه السوداء، وقد تدخل السلطان جقمق فى فض النزاع الذى نشب بين جهان كيروبين قاسم بن قرا عثمان عام ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩م وقام جقمق بنصرة الأمير قاسم بن قرا عثمان الذى لجأ إليه، وآمده بالمال والسلاح وذلك ليحد من نفوذ جهان كير، وأمر قاسم على إمارة الرها(٤٣) فاتخذ جهان كير موقفا معاديا من السلطان جقمق فأراد الهجوم على حلب فأرسل السلطان المملوكى إلى القوات الحلبية وتركمان دلغادر للتأهب لصد جهان كير(٤٤) فلما ضاق الأمر على جهان كير أرسل أمه إلى البلاد الحلبية لتستأذن نواب الشام للقدوم إلى مصر لاسترضاء السلطان على ولدها والدخول تحت طاعة السلطان فمنعوها فرجعت إلى آمد(٤٥). وفى غضون ذلك استطاع أخوة الأمير أوزون حسن (حسن الطويل) ان ينتزع آمد من أخيه ويتملكها عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٢ م وأرسل إلى السلطان جقمق مفاتيح آمد وبعض الهدايا فشكره السلطان وأعاد إليه المفاتيح أقره عليها (٤٦) ثم دخل أوزون حسن (حسن الطويل) فى صراع طويل مع أخيه حتى استطاع أن ينتزع منه جميع المدن التى تحت يده ن وبعدها بدأ نجم حسن الطويل يعلو ونفوذه يقوى حتى شمل حكم الأقاليم التابعة لدولة الشاه البيضاء(٤٧) فى عام ٨٥٨هـ/١٤٥٤م ثم أصبح حسن الطويل هذا أميرا لدولة الشاه البيضاء(٤٨)

وفى عهد حسن الطويل اتخذت العلاقات بينه وبين سلاطين المماليك منحنى آخر يغلب عليها النفاق والحيلة، فالصراع الذى كان بين حسن الطويل والعثمانيين حدا به أن يكون لبقاً مع سلطان مصر والشام، ولكنه كان مضطراً من جهة أخرى إلى البحث عن منفذ بحرى يمكنه الاتصال بالبنادقة كما سيأتى،

ولذلك فإن البلاد التى على الضفة اليمنى لنهر الفرات والتى فى حوزة سلطان المماليك كانت عقبة فى طريق حسن الطويل، فحاول اكثر من مرة الاستيلاء عليها، فيذكر أنه حاول أن يلعب دور الوسيط بين السلطان (خشقدم) للعفو عن الأمير (جانم المملوكى) نائب الشام والخارج عن طاعة السلطان، ولكن رفض السلطان وساطته، فلم يتردد حسن فى الانضمام إلى هذا الثائر والإغارة على (تل باشر) وبعض الأطراف السورية لتحقيق هدفه السابق، فأمر السلطان بخروج تجريدة لتأديبهم عام ٨٦٧هـ /١٤٦٢ م -٣٦٤١ ولكن جاء النبأ بمقتل جانم فى الرها فأبطل السلطان تلك التجريدة (٤٩)

وفى العام التالى استولى الكرد على قلعة كركر على الضفة اليمنى لنهر الفرات جنوب شرق ملطية، وأرسلوا مفاتيحها إلى حسن الطويل فأعادها عام ٨٦٩هـ /١٤٦٤م إلى والى حلب، ولكنه استعاض عنها بالاستيلاء على حصن زيادة، واقتحام مدينة ابلستين التابعة لأملاك دولة دلغادر (٥٠)

اتخذ حسن الطويل بعد ذلك سياسة المداهنة والخداع مع السلطنة المملوكية فنجده يتملق السلطان قايتباى فأرسل له فى عام ٨٧٣هـ /١٤٦٨م بهدية ورسالة ومعها مفاتيح الحصون والقلاع التى ملكها، «وأوضح فى الرسالة أن جميع ما يملكه إنما هو زيادة فى ممالك السلطان وأنه لا يعدو وأن يكون نائبه فيها» فأكرم قايتباى قاصده وأرسل إليه بهدية سينة (٥١). ثم أرسل حسن الطويل بعد ذلك برسالة تزف إلى السلطان ما يفعله من قتل السلطان ابو سعيد أحمد بن سعدان شاه بن تيمور لنك ملك سمرقند وبخارى، وأرسل رأسه مع القاصد، فاخلع السلطان على قاصده، وجهز معه هدية(٥٢).

وكانت كل هذه الأمور نوع من التحذير للسلطنة المملوكية ليأمنوا جانبه ويغفلوا عما يخطط له فعندما شعر حسن الطويل بأن الجيش المملوكى والسلطنة عانت بنكبات عديدة أمام (شاه سوار) أمير دلغادر الخارج عن طاعة السلطنة. قام عام ٨٧٧ هـ /١٤٧١م بالإغارة على البلاد الحلبية وظل خطره يزداد حتى وصلت جيوشه إلى الرها، فأرتعد الناس فى القاهرة، وأخذوا يقولون على حسن الطويل «هذا ما هو مثل شاه سوار وإن هذا لا يطاق» (٥٣) فأعد قايتباى جيشا كمقدمة لحملة كبرى تخرج بعدها، فى تلك الأثناء استولى حسن الطويل على بعض القلاع التابعة للمماليك مثل كختا و كركر، بل حاول إثارة (بوداق) أمير دلغادر الموالى لمصر فأرسل له كتابا مكتوبا بماء الذهب وطلب منه تسليم القلاع التى تحت يده وأن يكون له تابعا، وحذره بأن إن خالفه يحصل له كيت وكيت فبعث بوداق بهذه الرسالة إلى السلطان المملوكى، عندئذ خرجت حملة كبرى من مصر عام ٨٧٧هـ/١٤٧١م بقيادة الأمير يشبك الدوادار،

وخرج معه من الجند فوق الألفين مملوك[٥٤]، وكاتب حسن الطويل نائب الشام يهدده فيها ويطلب منه الخضوع إليه، وكان نائبها قد أمر بشنق مجموعة من الجواسيس من أهل نيابته كاتبوا حسن الطويل بأخبار السلطنة، وعندما شعر حسن بخطورة الموقف أرسل رسولا إلى حلب يعرض الصلح وتبادل الأسرى، ولكن يشبك لم يلتفت إلى طلبه[٥٥] .

فى نفس الوقت أرسل (محمد الثانى) العثمانى يعرض على الأمير يشبك المساعدة الحربية ضد الشاة البيضاء لأنها أصبحت تمثل خطراً مشتركاً عليهما، وبهذا أصبح حسن الطويل يحارب فى جبهتين إحداهما فى آسيا الصغرى ضد العثمانيين، والأخرى فى أعالى الشام ضد المماليك[٥٦] والتقى الجيشان المملوكى وجيش الشاة البيضاء، واستطاع الأمير يشبك أن يحرز نصرا على عسكر حسن الطويل عند البيرة[٥٧] وأجلاهم عنها وجُرح فى هذه المعركة ولد حسن الطويل جراحات بالغة، وأصيب ولد له أخر فى عينه[٥٨] وهرب حسن الطويل راجعا إلى ديار بكر[٥٩] .

وعلى الرغم من هذه الانتصارات الجزئية التى حققها المماليك على حسن الطويل إلا أنه لم يخضع بسهولة وبلغ من عناده أنه أرسل محمل الحاج العراقى إلى الحجاز عام ٨٧٨هـ/١٤٧٣م، وأمر عليه أحد رجاله يقال له (رستم)، والقاضى (أحمد بن وجيه)، وأعطاه كسوة للكعبة، فلما وصل المحمل إلى المدينة، وأرغم قضاتها على أن يخطبوا باسم حسن الطويل الملك العادل خادم الحرمين الشريفين وبينما كان المحمل فى طريقه إلى مكة كانت رسالة المدينة وصلت إلى محمد بن بركات شريف مكة، فأسرع الشريف والتقى بالمحمل خارجها، وقبض على رستم ومن معه وقيدهم بالسلاسل، وبعث بهم إلى قايتباى ومعهم الكسوة فسجنهم[٦٠] .

وارتاح السلطان لهذه النتيجة، وزاد من ارتياحه وصول أنباء عن انتصار العثمانيين على جيوش حسن الطويل[٦١] وعلى الرغم من ذلك يبدو أن السلطان المملوكى كان يخشى من سطوة حسن الطويل فقام بإطلاق سراح (رستم) أمير الحاج العراقى والقاضى، وأخلع عليهما وبعثهما إلى بلاد حسن الطويل ترضيا لخاطره[٦٢].

وفى عام ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م أرسل حسن الطويل رسولا للسلطان المملوكى يعتذر له عما كان منه، وإن ذلك لم يكن باختياره ويلتمس العفو منه، فأكرم قايتباى رسوله[٦٣] ولم يكره أن يظهر العفو عنه رغم أنه لم يطمئن إلى ولائه بدليل أنه لم يمانع من إنجاد ولده (محمد أغرلو) الخارج عن طاعة أبيه، واستنجد محمد أغرلوا بنائب حلب على أبيه، فجهز نائب حلب جماعة من

عساكره وتقاتل مع عسكر حسن الطويل، فأنكسر عسكر حلب، وجرح محمد أغرلو جرحا بالغا، فغضب السلطان قايتباى وجهز حملة كبرى للرد على حسن الطويل حشد فيها كبار قواده، ولكنه علم بعودة حسن الطويل وانتشار الطاعون فى جيشه، فلم ير ضرورة لإرسال الحملة ولاسيما قد بدا ضعف زعيم الشاة البيضاء(٦٤).

كما وصلت فى تلك الأثناء إلى مصر والده محمد أغرلو، وطلبت تدخل السلطان ليعفو زوجها عن ابنها فأكرمها السلطان وأنزلها بدور الحريم(٦٥) ولكن فر محمد أغرلو ولجأ إلى محمد الفاتح العثمانى وتزوج من ابنته كوهرخان، وأعدم فى بداية عام ٨٨٢هـ/١٤٧٨م(٦٦)، وفى نفس العام توفى الملك حسن الطويل ملك العراقين، وكان ملكا جليلا عاقلا سيوسا كثير الحيل والخداع(٦٧)، وتولى بعده ابنه خليل.

وكان خليل بن حسن الطويل شديد البأس عنيدا كأبيه، فتحدى المماليك والعثمانيين(٦٨) ومكث فى الملك عام واحد، قضى أغلبه فى محاربة أخيه يعقوب، وتوفى عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م حيث ثار عليه بعض أمرائه وقتلوه بإيعاز من أخيه، وخلفه أخوه يعقوب وكان من خيار بنى حسن الطويل(٦٩).

وانشغل يعقوب فى منافسات عائلية دموية، فانتهز الأمير يشبك الداودار هذه الاضطرابات والفتن القائمة فى دولة الشاة البيضاء، واقترح على السلطان قايتباى أن يغتنم هذه الفرصة للقضاء على تلك الدولة المناوئة لهم، فوافق السلطان على اقتراح يشبك، فخرج من مصر عام ٨٨٥هـ/١٤٨١م وعبر الفرات وحاصر الرها، وكان يحكمها من قبل يعقوب أمير يسمى (بايندر) ولما اشتد الحصار على المدينة لجأ بايندر إلى الحيلة، فوعد يشبك بدفع مبلغا من المال على أن يرحل عنها، ولكن يشبك كان واثقا من النصر بسبب كثافة عسكره واستعداده، فرفض العرض، وحمل حملة عنيفة على جيش بايندر الذى استمات فى الدفاع عن الرها، فهزم يشبك واسر هو ونائب الشام وحماه، وقتل عدد كبير من أفراد الجيش المملوكى وغنم منهم خيولا ومالا وسلاحا وقماشا وأشياء كثيرة لا تحصى، وظل يشبك فى الأسر ثلاثة أيام، ثم أرسل بايندر عبدا أسودا فقطع رأس يشبك وأرسلها إلى الأمير يعقوب، وأمر يعقوب بتشهير الرأس وكبار الأسرى فى ماردين(٧٠).

وعندما علم السلطان قايتباى بذلك ثار ثورة عنيفة، وأرسل الأمير (أزبك) على رأس جيش، وفوض إليه أمور الشام، فوصل أزبك إلى حلب عام ٨٨٦هـ / ١٤٨٢م، وعلم أزبك أن يعقوب لام نائبه على تسرعه فى قتل يشبك، فانتهز أزبك هذه الفرصة ولجأ إلى السياسة، وأرسل السياسى المملوكى الماهر (جانى بك

حبيب) إلى يعقوب للتفاوض معه وانتهت المفاوضات بالعفو عن كبار الأسرى من الأمراء والنواب والعودة بهم إلى حلب[٧١] وذلك بعد أن أخلع عليهم يعقوب الخلع، وتلا ذلك وصول قاصد من قبل يعقوب إلى مصر للاعتذار للسلطان عما وقع من نائب الرها، وأن ذلك حدث بدون علمه، فأكرم السلطان القاصد وعاتبه عما فعل بايندر، وخلع عليه وأذن له بالعودة وبذلك تم الوفاق بينهما[٧٢].

وتوطدت عرى الصداقة والود والمجاملة بين السلطنة المملوكية ودولة الشاة البيضاء بدليل أن السلطان المملوكى أظهر حزنه وأسفة عند هزيمة يعقوب أمام صاحب هراه عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م[٧٣] وظلت العلاقات هادئة بينهما، ربما سبب ذلك بداية الوهن فى دولة الشاة البيضاء، وانشغال أمرائها فى نزاعاتهم الداخلية .

ويذكر أنه فى عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م قدمت إلى مصر (زليخا خاتون) ابنه خليل بن حسن الطويل تريد الحج فأكرمها السلطان الغورى، وجهزها بكل ما تريد للحج[٧٤] .

وفى عام ٩١٤هـ / ١٥٠٨م قدم رسول من مراد خان بن يعقوب يطلب المعونة من سلطان مصر بسبب زحف الشاه إسماعيل الصفوى على بلاده، وسلب بغداد منه، فأكرمه السلطان غير أنه لم يجب طلبه[٧٥] .

ثم انقطعت العلاقات بين السلطنة المملوكية ودولة الشاة البيضاء بسبب استيلاء الصفويين عليها عام ٩١٤هـ /١٥٠٨م بعد أن مثلت هذه الدولة جزء من التاريخ السياسى لدولة المماليك كان له الأثر فى الحياة السياسية للدولة المملوكية فى مصر والشام، حيث كان سلطان مصر يعمل لهذه الدولة وأميرها حساب وذلك لعظم هذه الدولة وقوة بأس أمرائها بسبب تمركزهم ومد سلطانهم على عدة مدن فى آسيا الصغرى .

العلاقات بين دولة الشاة البيضاء والدولة العثمانية :

لم تختلف سياسة دولة الشاة البيضاء مع دولة العثمانيين عن سياستها مع المماليك وهى السياسة التوسعية، وانتهاز الفرص لتوسيع رقعة دولتهم، وتحقيق مصالحهم الخاصة وفق ما ترتضيه الظروف .

وتظهر العلاقات واضحة فى عهد حسن الطويل، حيث أدى انتصار حسن الطويل فى بلاد الفرات، وتغلبه على عدة دول تركمانية، وعلى أبناء تيمورلنك إلى جعله الرجل الوحيد فى آسيا الصغرى الذى يستطيع أن يقف حجر عثرة فى سبيل تقدم آل عثمان، ولذلك أخذ أعداء العثمانيين أمثال أمراء قرمان،

والنصارى، والبنادقة بنوع خاص يحاولون استغلال هذه القوة الجديدة للحد من نفوذ العثمانيين .

وتعتبر مدينة أطرا بزندة[٧٦] التى كانت مطمع كلا من حسن الطويل، ومحمد الثانى العثمانى هى أول صدام مسلح بين الدولتين، حيث استطاع حسن الطويل أن يكون مع الإمبراطور (كالو يوحنا) أمير طرابزندة حلفاً مع أوزون حسن، وزوجة ابنة أخيه المسماة (كاترين) وهى المعروفة فى أوربا بلقبها (سيينا) عام ٨٦٣هـ / ١٤٥٨م ليحول دون تقدم العثمانيين والاستيلاء عليها[٧٧] ثم قام حسن الطويل فباغت قلعة (قيونلو حصار أقو) سمالى نيكسار (قيسارية الجديدة) على نهر كلكيت صو ، ونهب أطراف توقات وأماسية[٧٨]، وعندئذ وجه محمد الثانى وجهه شطر مدينة طرابزنده مبتدئا (بقيونلو حصار) الذى استولى عليها حسن، فجمع حسن كل قواته قرب(كماخ) ولكن الفرقة التى أرسلت إلى جبال منزور هزمها (أحمد باشا) من قبل العثمانيين، فأوفد حسن الطويل أمه لمفاوضة السلطان، فنزل عن رغبتها وتراجع عن قتال حسن الطويل[٧٩] .

وبالرغم من توسلات (سارة خاتون) أم حسن الطويل والتى زعمت أن أطرابزندة تخص كنتها، ولكن استولى العثمانيون عليها عام ٨٦٥هـ/١٤٦١م، وجرد عاملها من أملاكه وطرده من البلاد، وأعطى سارة خاتون جزءا من النفائس التى سلبت من المدينة[٨٠] ولكن هذا الهدوء الذى تم بين الدولتين لم يدم طويلا إذ تقدم حسن الطويل واستعاد قيونلو حصار، ثم سار إلى أطراف سيواس إلا أن العثمانيين هزموهم فأوفد بعد ذلك حسن الطويل (خورشيد بك) إلى القسطنطينية ليفتدى الأسرى من تركمانة، وليفاوض السلطان فى التنازل عن مطالبة فى أطرابزندة، ويقال أن الظروف أدت إلى إجابة طلبة، ثم عاد حسن الطويل إلى ديار بكر[٨١] .

ومع زيادة قوة نفوذ حسن الطويل كان السلطان محمد الثانى مهتما بمتابعة أخباره[٨٢] وكان حسن الطويل يقوم باستفزاز السلطان العثمانى، وذلك من خلال رسائله التى كان يشتد فى لهجته معه وكان يلقب فيها السلطان العثمانى بلقب لا يتناسب مع مكانته وهو (إمارت مآب)، وبالتالى رد محمد الثانى على حسن الطويل بلقب (سردار عجم)، وفى تلك الأثناء عقد حسن الطويل مفاوضات مع البندقية، حيث تحالف البنادقه مع حسن الطويل خاصة بعد احتلال العثمانيين لأيوبيا وهى البلد الذى ظل فى حوزة البنادقه مائتان وأربعة وستين عاما، فأرسل مجلس الشيوخ فى البندقية النبيل (كاترينوزينو) إلى بلاد حسن الطويل للتحالف معه لمواجهة العثمانيين، وفى مقابل ذلك وعدته البندقية بإرسال جيوش وذخيرة، وخبراء لتعليم رجاله طرق

استخدامها، فأرسلوا إليه ستة مدافع كبيرة وستمائة بندقية(٨٣) وكثيرا من الأسلحة والذخائر وكتيبة من حملة البنادق وعددها مائتا جندى معها ضباطها(٨٤) فوعدهم حسن الطويل بمهاجمة أملاك العثمانيين فى الأناضول والزحف عليهم، وفى الوقت نفسه يتحرك البنادقة ضد محمد الفاتح فى أوربا ويزحفون إلى الشرق، وبذلك يقع العثمانيون بين فكى الكماشة(٨٥) .

وأخذ حسن الطويل بعد هذه المعاهدات مع البندقية استعداده لقتال العثمانيين، فجمع حوله كل الأمراء التركمان الذين أغار العثمانيون على بلادهم وخلعوهم من على عروش دولهم، ووعدهم حسن الطويل بأن يرد إمارتهم فى مقابل مساعدتهم له فى القضاء على العثمانيين(٨٦) .

ثم أرسل حسن الطويل رسالة إلى حلفائه دوق البندقية، وإمبراطور ألمانيا، وملك المجر (ماتياس) يقول فيها «إن إبادة الجيش العثمانى أمر مؤكد خلال عدة أيام وأنه لا يستطيع التكهن ما إذا كان سيتمكن من أسر السلطان أم، لا كما تضمنت رسالته ان الدولة العثمانية ذات تسعة أرواح، وأهاب بالإسراع فى احتلال أراضى العثمانيين فور قيامه بإبادة الجيش العثمانى، وإذا لم يمكنه من القضاء عليها بشكل تام فإن الدولة العثمانية ستصبح على الأقل بعد ذلك دولة من الدرجة الثانية وتسقط فى درك إمارة عادية عديمة الشان (٨٧) وتضمنت الرسالة أن يمشى حلفاءه على العثمانيين من جهة البحر، ويمشى هو عليهم من جهة البر(٨٨) فأرسلت البندقية توضح أنها سوف ترابط أساطيلها عند سواحل قرمانيا كيلكيا (٨٩)

وفى خريف عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢م عبر السلطان محمد من القسطنطينية إلى شاطئ آسيا الصغرى غير أنه اضطر للتوقف بسبب فصل الشتاء، وفى ١٤ ربيع الأول من نفس العام تمكن الأمير (مصطفى جلبى) ابن السلطان، و(داود باشا يكلربك انطالية) من تشتيت شمل التركمان فى أقليم (قيرايلى) غرب قونية وكان تحت أمرته ستون ألف مقاتل ووقع فى الأسر ابن عم حسن الطويل الأمير (يوسفجة ميرزا) (٩٠) وبعد هزيمة حسن الطويل توجه إلى إقليم ارزنجان فى نهاية يوليو ٨٧٨هـ /١٤٧٣ م وعسكر فى التلال القائمة على الضفة اليسرى لنهر الفرات وهناك استطاع حسن الطويل أن يشتت الجيش العثمانى ويأسر قائده (خاص مراد بك) وأعدمه(٩١) وبلغت خسائر العثمانيين اثنا عشر ألف مقاتل(٩٢) .

وعندما علم السلطان محمد الثانى بذلك خرج بنفسه على رأس جيش ضخم بلغ مائة ألف مقاتل ونهب كماخ وأسر الأرمن القاطنين فى هذا الإقليم، وبينما كان الجيش العثمانى فى إقليم (أوج أغرلى) شمالى الجبال التى تفصل أرزنجان

عن نهر كليكت صو ، ظهرت جنود حسن الطويل على مرتفعات (أوتلوق بيلى) التى تفضل وادى الفرات عن منابع جوروخ، أى على ميمنة الجيش العثمانى، فلجأ العثمانيون إلى القتال، وفى ١٦ ربيع الأول ٨٧٨هـ /١١ أغسطس ١٤٧٣م اكتسح جيش القطيع الأبيض وهزموا وقتل كافر اسحاق سردار حسن الطويل وزيتل بن حسن الطويل، ففر حسن الطويل من ميدان المعركة إلى بلاده وانتصر العثمانيون وأخذوا الأسرى من الصناع والحرفيين إلى القسطنطينية، أما بقية التركمان الأسرى فقد أمر السلطان العثمانى بقتلهم وعدل السلطان عن تعقب حسن الطويل لكى يحافظ على الأراضى التى تحت يده[٩٣]

فى تلك الأثناء انشغل حسن الطويل بالتوجه إلى شيراز لاخماد الفتنة التى اشعلها ابنه (محمد أغرلو) فاضطر لتوقيع معاهدة سلام مع العثمانيين فى ٢٤ أغسطس من نفس العام [٩٤] وقد نصت هذه المعاهدة على أن يتخلى حسن الطويل عن قلعة (قره حصار) وأن يتعهد بعدم التعرض للأراضى العثمانية [٩٥] وبذلك توطد الحكم العثمانى فى الأناضول وقضى على التحالف الذى بين حسن الطويل والقوى الأوروبية، التى سرعان ما تبين لهم خطأ اعتمادهم على حسن الطويل، وما إن علموا بوفاة أمير الشاة البيضاء حتى أمضوا صلحا مع العثمانيين[٩٦]

ويذكر أنه بعد ذلك سارت العلاقات ودية بين الدولتين فى عهد يعقوب بن حسن الطويل[٩٧] وكانت بينهما علاقة نسب ومصاهرة، حيث تزوج محمد أغرلو بن حسن الطويل الذى فر إلى العثمانيين من ابنه محمد الفاتح (كوهرخان) ويذكر ان محمد الفاتح الحق محمد أغرلو هذا بصف الوزراء، وعينه واليا على الأناضول، وانجب منها أحمد كوده [٩٨]

علاقة دولة الشاه البيضاء بالدول التركمانية الأخرى

١- علاقة الشاه البيضاء بدولة الشاه السوداء[٩٩]

كانت العلاقات بين تلك الدولتين علاقات عدائية، ربما لأن دولة الشاه السوداء كانت ترى أن غريمتها الشاه البيضاء هى المنافسة القوية لها فى المنطقة، وان لها اطماع توسعية على حساب الدول المجاورة وهذا ما أكدته الأحداث الواقعة بين الدولتين، ففى أوائل شعبان ٨٢١ هـ /١٤١٩م هاجم قراعثمان قرايلك قلعة ماردين (قلعة بالجزيرة الفراتية) من أملاك دولة الشاه السوداء فأوقع بأهلها وأسرف فى قتلهم، وسبى أولادهم ونسائهم وأحرق المدينة، فأراد قرايوسف زعيم الشاه السوداء الانتقام من عثمان قرايلك فتتبعه حتى البلاد الحلبية ولكنه لم يتمكن منه للجوئه للمماليك[١٠٠]

وفى يوم ٢٧ رجب عام ٨٢٣هـ /١٤٢١م هاجم قر عثمان قرايلك (بير عمر) حاكم أذربيجان من قبل الشاه السوداء وقبض على بير عمر وعلى أربعة وعشرين نفسا من أهله وأولاده وقتل من عسكره ستين رجلا وغنم منهم شيئا كثيرا [١٠١]

وفى عام ٨٢٦هـ /١٤٢٤م سار اسكندر قرايوسف إلى ماردين لاستعادتها من قرايلك فحاصرها حتى تسلمها، وانهزم قرايلك ثم نازل آمد، ففر قرايلك إلى شاه رخ بين تيمورلنك، وكان قد سار من بلاده إلى تبريز فحاصرها حتى ملكها، فتوجه اسكندر واخوته إلى تبريز للدفاع عنها فانهزم قرا يوسف وأولاده وأخرب شاه رخ تبريز ونقل أموالها ثم رجع لبلاده، وانهزم اسكندر ثم رجع قرايلك إلى آمد، واسكندر إلى تبريز بعد خروج شاه رخ منها[١٠٢] .

وفى عام ٨٣٢هـ /١٤٣٠م حدث صدام مسلح بين الفريقين مرة أخرى عندما هاجم اسكندر بن قرا يوسف المدينة السلطانية [١٠٣] وقتل متملكها من جهة شاه رخ ونهبها وأفسدها، فانتدب شاه رخ لمحاربته الأمير عثمان قرايلك وآمده بعسكر كثيف وحدث القتال خارج تبريز فى يوم الجمعة ١٦ذى الحجة من نفس العام قتل فيه الكثير من الفريقين إلى أن كانت الكسرة على اسكندر وجماعته فانهزم فتتبعه جند عثمان قرايلك لمدة ثلاثة أيام فقاتلهم اسكندر فنهبت بلاد أذربيجان وقتلوا واسروا وفعلوا أفاعيل أصحابهم من أعوان تيمور حتى لم يدعو بها ما تراه العين[١٠٤] .

وفى رمضان عام ٨٣٨هـ /١٤٣٦م قام أصبهان بن قرا يوسف حاكم بغداد بالتوجه لأخذ الموصل فبعث زينال حاكمها إلى عثمان قرايلك بمفاتيح الموصل وحثه على المسير إليها لنجدته فبعث نائبه محمود بن عثمان قرايلك ومعه بشلمن احد أمرائه فى مائتى فارس ثم اتبعه بأخيه محمد بك على راس ألف فارس فنزل على الموصل ثم سار قرايلك بنفسه ونزل على نصيبين، ثم بلغه توجه اسكندر بن مراد قرا يوسف إليه ففر عثمان فتبعه اسكندر حتى ارزن الروم وكسر عسكر قرايلك فأراد أن يتحصن قرايلك بأرزن الروم،فألقى بنفسه فى خندق المدينة حتى لا يقع فى الأسر ولكنه لقى حتفه[١٠٥] .

وفى عام ٨٤٠هـ /١٤٣٨م وقع بين حمزة بن عثمان قرايلك صاحب ماردين وبين أصبهان ابن قرا يوسف حرب انهزم فيها اصبهان ومن معه [١٠٦] وفى عام ٨٥٤هـ/ ١٤٥٢توجه جهان شاه بن قرا يوسف للإغارة على معز الدين جهان كير بن على بن عثمان، فلجأ جهان كير إلى أمير حلب مستنجدا بالسلطان المملوكى[١٠٧] ولكن سرعان ما استطاعت دولة الشاة البيضاء أن تقوى على منافستهما مرة أخرى فى عهد الأمير حسن الطويل، ففى عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م

حدثت وقعة هائلة بين الفريقين انكسر فيها جهان شاة بن قرا يوسف، وانتصر حسن الطويل وقتل من عسكر أعدائه عددا كبيرا من أعيان دولة الشاة السوداء، وقتل جهان شاة وشتت أولاده وأرسل برأسه إلى السلطان المملوكى عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م(١٠٨) وفى العام نفسه استطاع محمد أغرلو بن حسن الطويل هزيمة حسن بن على بن جهان شاة واستولى على أملاك دولته فى تبريز والعراقيين، وقتله فى عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م(١٠٩) وبذلك انقرضت دولة الشاة السوداء وضمت أملاكهم إلى حوزة دولة الشاة البيضاء، وتحقق لها ما كانت تهدف إليه من خلال حروبها المستمرة مع الشاة السوداء، لتحقيق أطماعها التوسعية فى تلك المنطقة .

٢- علاقة دولة الشاة البيضاء باولاد تيمورلنك :

أكدت جميع الأحداث أن العلاقات بين دولة الشاة البيضاء وبين أولاد تيمورلنك كانت علاقات تعاونية مشتركة، حيث استعان شاة رخ بن تيمورلنك بأمراء دولة الشاة البيضاء فى صد ومواجهة خطر بعض الدول التركمانية المعادية لهم، وكذلك الإغارة على أملاك سلطنة المماليك، وهذا ما وضحناه آنفا.

وفى عهد أبى سعيد التيمورى تغير الوضع، فيذكر أنه عندما استعان حسن بن على بن جهان شاه أمير الشاه السوداء بأبى سعيد التيمورى ضد حسن الطويل، فخرج من خراسان فى شعبان ٨٧٢هـ/ مارس ١٤٦٨م، ولكن تفرق شمل جيشه، فانتهز حسن الطويل الفرصة، وتقدم حتى وصل إلى (قرة باغ) وفى الوقت نفسه وصل أبو سعيد إلى ميانه غير مبال باحتجاج حسن الطويل بحقوق الصداقة أو بتذكره بولاء القطيع الأبيض لبنى تيمور، وبعد الشتاء اكتسح حسن الطويل جيش أبى سعيد وهو فى طريقة إلى السرس، وحاولت أم أبى سعيد المفاوضات بين ابنها وبين حسن الطويل، ولكن لم تجد بشئ وأسره فى ١٦رجب ٨٧٣هـ / ١١فبراير ١٤٦٩م، ثم سلمه إلى منافسه الأمير بإدكار محمد بن بايسنقر فقتله وأمر بادكار على أمراء بنى سعيد(١١٠) .

وبعد مقتل أبى سعيد ظلت أسرة بنى تيمور الخراسانية فى موطنها، بينما احتلت بعوث حسن الطويل بقية بلاد فارس بما فيها كرمان وفارس ولورستان وخوزستان وكردستان(١١١) .

٣- علاقة دولة الشاة البيضاء بالأكراد الأيوبيين(١١٢) :

أما بالنسبة لسلالة الأكراد من بنى أيوب فى حصن كيفا المطل على نهر دجلة، يذكر أنه حدث تصادم بين عثمان قرايلك، والملك الأشرف أحمد بن الملك العادل صاحب حصن كيفا فى عام ٨٣٦هـ/١٤٣٤م وذلك عند خروج صاحب

الحصن إلى السلطان برسباى وهو محاصر لآمد فاعترضه جماعة من أعوان قرايلك وقتلوه، وعظم ذلك على السلطان[١١٣] .

وفى عام ٨٦٦هـ/١٤٦٢م قام حسن الطويل بحصار كيفا سبعة أشهر ثم استطاع النيل من القلعة منتهزا فرصة حدوث خلافات داخلية بين الأكراد، وبذلك انقطع من الحصن ملوك الأكراد الأيوبيين بعدما ملكوها أكثر من مائتى عام، وذلك بعد قتل الملك العادل خلف، وسلمها لابنه خليل، فقوى أمر حسن الطويل بأخذها واستولى بعد ذلك على عدة قلاع ومدن من تعلقات الحصن [١١٤] مثل سعرت وبختان[١١٥] .

٤- علاقة دولة الشاة البيضاء بسلطان سيواس :

استطاعت دولة الشاة البيضاء القضاء على دولة القاضى برهان الدين أحمد سلطان سيواس ففى عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م خاض القاضى برهان الدين معركة فى قرابل بمنطقة (ديوريكى) ضد عثمان قرايلك، فسقط القاضى برهان الدين قتيلا فى تلك المعركة، وانقرضت بوفاته دولته التى دامت ثمانية عشر عاما، ففكر الأمراء بعد وفاته جعل ولده علاء الدين على الذى يسمى عند العثمانيين (زين العابدين) على العرش ولكنهم أدركوا أنهم لا يستطيعون الثبات أمام قرايلك الذى كان فى طريقه للاستيلاء على سيواس، فأثروا الدخول فى طاعة بايزيد الصاعقة العثمانى[١١٦] وبالتالى انقرضت تلك الدولة على يد عثمان زعيم الشاة البيضاء .

٥ - علاقة دولة الشاة البيضاء بدولة قره مان[١١٧]:

قام العثمانيون بزعامة محمد الثانى بإخضاع بعض إقطاعيات فى أسيا الصغرى، وهددوا أمراء قرمان، مما دفع هؤلاء إلى التحالف مع جارهم من ناحية الشرق الأمير حسن الطويل أمير الشاة البيضاء[١١٨] وكان أهل قرمان إلى جانب البنادقة يدفعون حسن الطويل إلى العمل للقضاء على العثمانيين، فجهز حسن الطويل جيشا بلغ عدته مائة ألف أمر عليه الوزير (عمر بك بن بكتاش) وابن عمه (يوسفجة ميرزا) وتقدم الجند من ديار بكر إلى توقات ونهبوها ثم قصدوا قيسارية .

وربما كانت محاولتهم أخذ البيرة من مصر، وبعد مدة من الزمن رجع عمر بك إلى ديار بكر بينما اكتسح يوسفجة ميرزا قرمان وحميد[١١٩] .

ويذكر أنه فى عام ٨٣٥هـ / ١٤٣٣م قام ناصر الدين أمير ماردين بأسر حمزة بن عثمان قرايلك لأنه أباه كثير الإغارة على بلاده، فسار إليه قرايلك وحاصرها حتى ملكها وهرب ناصر الدين أميرها وخلص ابنه من الأسر، واستمرت ماردين فى يد الشاه البيضاء[١٢٠] .

وبهذا يتضح أن أغلب الدول التركمانية المجاورة للشاة البيضاء قد زالت دولهم على يد زعماء الشاة البيضاء وضمت أملاكهم إلى دولة الشاة البيضاء فقوى بذلك نفوذها وأصبح لها الزعامة على كثير من الدول التركمانية المجاورة، مما شكل لها وضعا سياسيا من نوع خاص فى تلك المنطقة، وجعل علاقتها متشابكة مع كثير من جاراتها .

نهاية دولة الشاة البيضاء :

ساهم فى نهاية دولة الشاة البيضاء أمور عدة، كان على رأسها الصراع الداخلى، والنزاع الأسرى بين أمراء تلك الدولة، وقد حدث هذا بعد وفاة عثمان قرايلك، حيث تشتت شمل أبنائه ودارت بينهم فتن وحروب(١٢١) .

ففى عام ٨٤١ هـ / ١٤٣٩م حدث نزاع بين الأمير على بك وأخيه حمزة، واستطاع حمزة أن يخرج أخيه (على) من آمد ويمتلكها (١٢٢) .

وفى إمرة جهان كير بن على حدث نزاع بينه وبين أخيه حسن الطويل واستطاع حسن الطويل أن يستولى على حصن ديار بكر فى عام ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م، واحتل بعدها الرها ثم حاصر ماردين التى تحصن بها جهان كير بن حسن الطويل(١٢٣)، وقد تدخلت أم حسن الطويل فى الأمر مما اضطر حسن أن يرجع إلى ديار بكر، وفى أثناء عودته سقط عن جواده وأصيب بجرح بالغ، فانتهز جهان كير الفرصة ونهب أطراف آمد، فلما عاد عليه حسن الطويل احتمى جهان كير بأعداء دولته جهان شاة أمير الشاة السوداء، ثم تدخلت أم حسن الطويل مرة أخرى فأقامت ابنها على ديار بكر، وأخيه جهان كير على ماردين ولكن اتسعت رقعة الخلاف بين الأخوين فاكتسح حسن الطويل أعمال أخيه وبلاده، وعندما حاول أمير الشاة السوداء مساعدة حليفه لاسترداد بلاده، انتصر حسن الطويل عليهم فى عام ٨٦١هـ/١٤٥٧م(١٢٤) وبعدها بدأ نجم حسن الطويل يعلو ونفوذه يقوى بعد صراع طويل مع أخيه ليكون هو الرجل الأول فى دولته(١٢٥) .

ويذكر أيضا أنه بعد وفاة يعقوب بن حسن الطويل تولى ولده (ميرزا على) وعمره أربعة وعشرين عاما، وعند توليته فر الشيخ أخو يعقوب لأبيه، وابن أخيه ميرزا محمود بن محمد بن حسن الطويل ناحية أصبهان إلى أخواله، ولكن لم يلبث أن، قتل ميرزا على، ثم تولى العرش بعده بايسنقر ابن يعقوب وحكم لمدة عام واحد (٨٩٦هـ - ٨٩٧هـ / ١٤٩٠م - ١٩٤١م) واعتلى بعده العرش ابن عمه رستم(١٢٦) واستمرفى الحكم حتى ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م ولكن بسبب فساده التمس الأمراء من بايزيد الثانى أن يرسل إليهم حفيد محمد الفاتح (أحمد كودة بن أحمد أغرلوا) على رأس جيش ليستولى على عرش آبائه، ولما وصل أحمد

كوده خرج على رستم، ووقعت بينهما معركتان انتهت بهزيمة رستم وقتله بسبب خيانة بعض أمرائه، وخاصة زوج أخت كودة أحمد لأبيه (حسن بك عليخانى) وجلس كودة على عرش دولة أبيه عام ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م، ولكن حكمه لم يطل فما لبث أن خرج عليه الأمراء، وقتلوه فى معركة بالقرب من أصفهان(١٢٧) .

وبوفاة كوده بدأ العد التنازلى لتلك الدولة حيث عظم بها الهرج والمرج، فأنقسم الأمراء إلى فرق، كل فرقة كانت تنتخب عليها حاكما من الأسرة، وترتب على ذلك أن جلس من أحفاد حسن الطويل السلطان (مراد بن يعقوب بك) فى شيروان، وجلس (الوند بن يوسف) فى أذربيجان، وأخوه (محمد ميرزا) فى يزد(١٢٨) وحدث بين هؤلاء الأمراء الثلاثة صراع شديد ليكون لأحدهم الزعامة على دولته .

فيذكر أن محمد ميرزا قد خسر المعارك التى خاضتها ضد ألوند وسقط قتيلا بالقرب من أصفهان عام ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م، وأما مراد بن يعقوب فقد استولى على العراق وفارس بعد مقتل محمد ميرزا، وعقدفى عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م معاهدة مع ألوند، بحيث يأخذ ألوند بمقتضاها أذربيجان وديار بكر، ويأخذ مراد فارس وبلاد العراق(١٢٩) .

انتهز الصفويون(١٣٠) ما حدث من تصدع فى بناء دولة الشاة البيضاء، حيث كانوا يترقبون عن قرب الصراع بين أبناء الأسرة الواحدة، وقام الصفويون بمهاجمة ألوند عام ٩٠٧ هـ /١٥٠٢م فى منطقة (شرور) على نهر آرمش بالقرب من بخحوان، خسر فيها الوند وفر بعدها إلى بغداد ثم إلى قزوين، فهاجمه إسماعيل الصفوى مرة أخرى، وقعت بينهما معركة بالقرب من همدان عام ٩٠٨هـ/١٥٠٣م انتصر فيها الصفويون بسبب شق جنود مراد عصا الطاعة عليه، وانضمامهم إلى الشاة إسماعيل(١٣١) ففر مراد لاجئا للسلطنة المملوكية، وأرسل إلى السلطان الغورى يستنجد به على عدوه ولكن الغورى أثر الانتظار والتريث على أن يدخل فى نزاع سافر مع الصفويين(١٣٢) ففر مراد بعدها إلى بغداد، وبعد أن قضى فيها خمسة أعوام زحف إسماعيل الصفوى عليها، فاضطر مراد إلى الفرار إلى بلاد دلغادر التركمانى عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٩م وأقام فى كنف علاء الدولة بن دلغادر وتزوج إحدى بناته، وأنجب منها ولدين، إلى أن خرج سليم الأول العثمانى عام ٩٢٠هـ / ١٥١٤م فى حملته على إيران، واستولى على أملاك دلغادر، وأرسله سليم الأول على رأس فرقة عسكرية عثمانية للاستيلاء على ديار بكر واستعادتها من الصفويين ولكنه قُتل فى نهاية رمضان عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م، وبوفاة مراد هذا تلاشت دولة الشاة البيضاء وزال أمرها(١٣٣).

الملاحــق

ملحق رقم ١

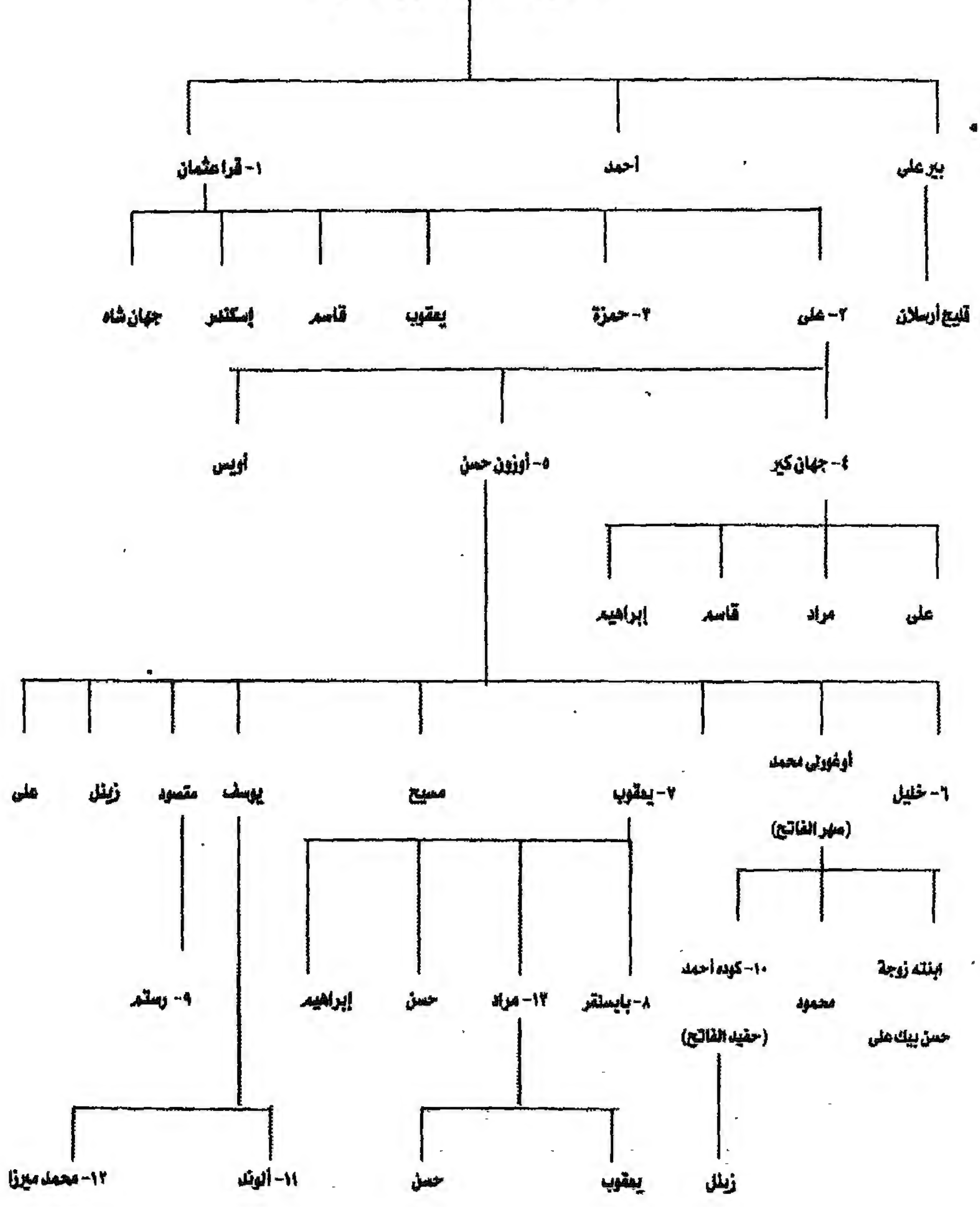
أمــراء الآق قيونليــة

١- بهاء الدين قرا عثمان قرايولك (٨٠٦-٨٣٨هـ /١٤٠٣-١٣٣٤م)
٢- جلال الدين على (٨٣٨-٨٤٢هـ/١٤٣٤-١٤٣٨م)
٣- نور الدين حمزة (٨٣٨-٨٤٨هـ/١٤٣٤-١٤٤٤م)
٤- معز الدين جها نكير (٨٤٨-٨٥٧هـ / ١٤٤٤-١٤٥٣م)
٥- أوزون حسن (٨٧١-٨٨٢هـ/ ١٤٥٣-١٤٧٨م)
٦- خليل (٨٨٢-٨٨٣هـ / ١٤٧٨-١٤٧٨م)
٧- يعقوب (٨٨٣-٨٩٦هـ / ١٤٧٨-١٤٩٠م)
٨- بايسنقر ميرزا (٨٩٦-٨٩٧هـ/ ١٤٩٠-١٤٩١م)
٩- رستم (٨٩٧-٩٠٢هـ / ١٤٩١-١٤٩٦م)
١٠- أحمد (فى كو) (٩٠٢-٩٠٣هـ/ ١٤٩٦-١٤٩٧م)
١١- ألوند (فى أذربيجان) (٩٠٣-٩١٠هـ/١٤٩٧-١٥٠٤م)
١٢- محمد ميرزا (فى يزد) (٩٠٣-٩٠٥هـ / ١٤٩٧-١٤٩٩م)
١٣- مراد (فى شيروان) (٩٠٣-٩١٤هـ /١٤٩٧-١٥٠٨م)
(ثم ولى الصفويون)

ملحق رقم ٢

الآق قيونلية

قتلغ بك بن طور على



الهوامش

(١) عصام شبارو: السلاطين فى المشرق العربى، دار النهضة ١٩٩٤م، ص ١٠٦.
(٢) أنور زقلمة : المماليك فى مصر، القاهرة، ط ١ ١٩٩٥م، ص ٨٧ .
(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام، مكتبة الأنجلو المصرية ط ٢، ١٩٩٤م، ٢٦٣.
(٤) إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠، ص ١١٦، عبد العزيز محمود : مصر فى عصر المماليك والعثمانيين، مكتبة نهضة الشرق ١٩٩٦م، ص ١٥١
- Wiet, G., L, Egypte Arabe (Hist. De la Nation Egyptienne) T. IV, P560
(٥) سميت هذه الدولة بالشاة البيضاء لأنها كانت توضع صورة الشاة على أعلامها . انظر زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ترجمة زكى محمد، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١، جـ٢ ص ٢٣٥؛ أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف، مصر، جـ ٢ ص ٥٣٨ .
(٦) ديار بكر: مدينة حصينة يحيط بها نهر دجلة من جوانبها إلا من جهة واحدة وعاصمتها (آمد) (انظر الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مطبعة الثقافة الدينية، ١٩٩٤م م٢، ص ٢٦) .
(٧) ابن حجر العسقلانى : أنباء القمر بأبناء العمر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥، ج١ ص ١٠٤؛ السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع دار مكتبة الحياة، م٣ ج٥ ص ١٣٥ ؛ أحمد الشتناوى: دائرة المعارف الإسلامية، دار الفكر، م٢ ص ٤٨١ ؛ شبولر : العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة خالد عيسى وسهيل زكار، دمشق ١٩٨٢، ص ١٣٦ ؛ زامباور :معجم الأنساب ؛ جـ ٢ ص ٢٨٤.
(٨) لقب عثمان ذكر فى المصادر التاريخية بعده صور منها قرايلوك، أيلوك، أيلك، انظر أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية، جـ ٢ ص ٣٨، ويذكر ابن إياس أن لقبه (قراملك)، انظر: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٢-، ١٩٨٤ ، جـ ٢ ص ٢١٩ .
(٩) الأراتقة: يرجع سلفهم إلى قطب الدين نعمان بن أرتق بك بن اكسب التركمانى الذى أقطعه تاج الدولة تتش أخو ملكشاه فلسطين، ونعمان يعتبر أول ملوكهم، وبعد استيلاء الفاطميين على القدس هرب نعمان وأخوه أيلغازى إلى السلاجقة، فأقطعوه ماردين وأخلاط، وميا فارقين. انظر:ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣١-١٣٢.
(١٠) ابن حجر: إبناء الغمر، ج٨، ص ٤٠١؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، فى ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب، ج١٥ ص ٢٠١؛ السخاوى : الضوء اللامع، م٣ ج٥ ص ١٣٥؛ ابن عرب شاه: عجائب المقدور فى اخبار تيمور، مصر ١٣٠٥هـ /١٨٨٨ م، ص ٨٢-٨٤؛ أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٢، ص ٤٨١-٤٨٢.
(١١) السخاوى: الذيل التام على دول الإسلام، تحقيق حسن مروه، تقديم محمود الأرناؤوط، مكتبة دار العروبة للنشر، الكويت ط٢، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ج١ ص ٤٤٨؛ المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك إعداد محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١ ١٤١٨هـ ١٩٩٧، ج٦ ص ١٨٤؛ ابن حجر إنباء الغمر، ج٨ ص ٤٠١؛ العينى : السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ، تحقيق فهيم محمد علوى شلتوت، مطبعة دار الكتاب ١٩٩٨، ص ٢٤٥ هامش (٢)؛ ابن الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشى مطبعة دار الكتاب، ج٢ ص ٢٢٩-٢٣٠، كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس، مطبعة الرابطة، بغداد ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤ م، ص١٤٠-١٤١.
(١٢) بيشوف الجرمانى : تحف الابناء فى تاريخ حلب الشهباء، المطبعة الأميرية بيروت ١٨٨٠م، ص ١٥٦.

(١٣) الرها: مدينة من ديار مضر فى البر الشرقى الشمالى من الفرات وهى مدينة رومية عظيمة ومن أحسن متنزهات الجزيرة. أنظر القلقشندى: أصبح الأعشى فى صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، ج ٤ ص ١٣٩

(١٤) السخاوى: الضوء اللامع، م ٣ ج٥ ص ١٣٥

(١٥) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٨ ص ٤٠١ ؛ استانلى بول : طبقات سلاطين المماليك، الدار العالمية للطباعة والنشر، ط١ ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م ص ١٥٥-١٥٦

(١٦) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ ١٤، صـ ٧

(١٧) دولة الشاة السوداء سوف يأتى الحديث عنها فى موضعها .

(١٨) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ ١٤، ص ٥٤، ابن الصيرفى : نزهة النفوس، جـ ٢ ص ٣٢٩ .

(١٩) ابن حجر: أنباء الغمر، جـ ٨ ص ٤٠٢ .

(٢٠) إبراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٢١.

(٢١) خربوط: مدينة من ولاية ديار بكر بينها وبين ملطية يومين وبينهما الفرات وهو اسم أرمنى أطلق على حصن زياد ببلاد الروم و(انظر ابن حجر: أنباء الغمر، جـ ٢ ص ٤٢٢؛ الإدريسى: نزهة المشتاق، م٣ ص ٨١٤).

(٢٢) السخاوى: الذيل التام على دول الإسلام، جـ ١ ص ٥٥٩، وقال المقريزى عن هذه الواقعة أنها من مصائب الدهر. انظر السلوك، جـ ٧ ص ١٩٧، ابن حجر : أنباء الغمر، جـ ٨ ص ١٧٣، ص ١٧٤، ويذكر ابن تغرى بردى عن هذه الواقعة «أن العسكر المصرى والشامى قد فعلوا فى مدينة الرها فعل التمرلنكيين وزيادة من القتل والأسر والإحراق والفجور بالنساء». النجوم، جـ ١٤، ص ٣٣١ – ٣٣٢ – ٣٣٣، عاشور: العصر المملوكى، ص ٢٦٤.

(٢٣) إبراهيم علي طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٢١.

(٢٤) ابن حجر: أنباء الغمر، جـ ٨ ص ١٩٥ -٣٣٢ ؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ ١٤، ٣٤٩ .

(٢٥) ابن إياس: بدائع الزهور، جـ ٢ ص ١٩ – ٢٠،؛ محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، مكتبة الآداب، ط٢ ١٤٨١هـ/١٩٦٢م م١ جـ ٢ ص ٢٢٠ ؛ عاشور: العصر المماليكى، ص ٢٦٤ .

(٢٦) قلعة ارقنين بلدة بأطراف آسيا الصغرى، ويذكر البعض أن هذه البلدة بالفاء . انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان، بيروت ١٩٨٤، جـ ١ ص ١٩٤.

(٢٧) السخاوى: الذيل التام، م١ ص ٥٧٩؛ ابن حجر: أنباء الغمر، جـ ٨ ص ٢٨٠ -٢٨١؛ ابن تغرى بردى: النجوم، جـ ١٥ ص ١٤ – ١٦ ؛ بيشوف الجرمانى: تحف الأنباء ص ١٥٩ .

(٢٨) ابن تغرى بردى: النجوم، جـ ١٥ ص ٢٦؛ السخاوى: الضوء اللامع، م٣ جـ ٥ ص ١٣٦؛ عاشور : العصر المماليكى، ص ٢٦٤ .

(٢٩) الأكديش : الحيوان المهجن الذى ليس أبواه من جنس واحد، وهو الحصان غير الأصيل ويستخدم للركوب والحمل، والجمع كدش . انظر: ابن الصيرفى : نزهة النفوس، جـ ٤ ص ٣٦ هامش ٢، محيط المحيط، مكتبة لبنان بيروت، ١٩٩٣، ص ٧٧٣ .

(٣٠) wiet, l' Egypt Arabe, P. 562.

(٣١) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ ١٥ ص ٤٣، الجرمانى، تحف الأنباء، ص ١٥٩-،١٦٠.

(٣٢) المقريزى : السلوك، ج ٧، ص ٢٨٣؛ ابن تغرى بردى : النجوم، ص ١٥، ص ٦٧.

(٣٣) المقريزى: السلوك، ج٧ ص ٢٧٥؛ ابن تغرى بردى: النجوم، ج ١٥ ص ٤٧؛ إبراهيم طرخان: مصر

فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٢٣.

(٣٤) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ ١٥ ص ٥٥

(٣٥) يذكر صاحبا السلوك والنجوم أنه قرا عثمان أقام فى الحكم نيفا وخمسين سنة ومات وقد قارب المائة من عمره. أنظر: المقريزى، السلوك، ج ٧ ص ٣١٦، ابن تغرى بردى النجوم ج ١٥ ص ٧٠، ويذكر ابن حجر والسخاوى أنه مات وقد بلغ التسعين (انظر : ابن حجر : أنباء الغمر، ج ٨ ص ٤٠١؛ السخاوى الضوء اللامع، م٣ ج ٥ ص ١٣٦. وورد فى الجزء الحادى عشر من احسن التواريخ أن قرا عثمان حكم اثنين وثلاثين سنة وأنه توفى فى الثمانين من عمره .أنظر: أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ج٢ ص ٥٣٨ هامش١.

(٣٦) ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٥ ص ٧٠-٧١ ؛السخاوى التبر المسبوك، ص ٣٠٩؛ الجرمانى، تحف الانباء، ص ١٦٠؛ عاشور: العصر المملوكى، ص ٢٦٤.

(٣٧) لا يشك منجم باشى فى جامع الدول أن جلال الدين على ولى الحكم ولكنه لا يدرج حمزة بين اسماء حكام الآق قيونلية، على حين يشك بعض المؤرخين فى أن يكون على ولى الحكم ويؤيدون ذلك بأنه ليست له سكة على العكس من حمزة الذى توجد له مسكوكات مضروبة فى آمد وارزنجان. انظر: أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ج ٢ ص ٥٤٢ هامش ١.

(٣٨) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ ١٥ ص ٨٩

(٣٩) ابن تغرى بردى : النجوم، ج١٥ ص ٢٢٧

(٤٠)ابن تغرى بردى: السابق، ج١٥ ص ٢٣١، عاشور: العصر المماليكى، ص ٢٦٥.

(٤١) يذكر أن الأمير حمزه كان قبيح السيرة. أنظر ابن حجر : أنباء الغمر، ج ٩ص ٢٢٩ ؛ السخاوى: الضوء اللامع، م٢ ج ٣ ص ١٦٥.

(٤٢) السخاوى: المصدر السابق م ٢ج ٣ ص ١٦٥

(٤٣) ويذكر السخاوى أن جهان كير قدم مع والده إلى مصر، وأنعم عليه السلطان بإمرة حلب، فتوجه إليها واقام مدة إلى أن ولاه الظاهر جقمق الرها، فعظم وكثرت جنوده ثم ملك آمد بعد موت عمه حمزه ثم ارزتجان ثم ماردين وغيرها إلى أن صار حاكم ديار بكر وأميرها. أنظر: الضوء اللامع م٢ ج٣ ص ٨٠-٨١.

(٤٤) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة ١٤١١هـ/١٩٩٠، ج١ ص ٧٩-٨٠؛ السخاوى: التبر المسبوك، ص ٣٠٩؛ عاشور العصر المماليكى ص ٢٦٥، Wiet , Op.Cit,p.565

(٤٥) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور، ج١ ص ٩٦.

(٤٦) السخاوى: الضوء اللامع م٢ ج٣ ص ٨١ ؛ التبر المسبوك ص ٣٨٤

(٤٧) أحمد الشنتناوى: دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٠

(٤٨) اختلف المؤرخون فى تاريخ جلوس حسن الطويل على العرش، فهو يتراوح ما بين ٨٥٧هـ /٨٧١م، ويرجع هذا الخلاف إلى أن بعض المؤرخين يعتبرون تاريخ جلوسه هو تاريخ توليه رياسة العشيرة الآق قيونلية فى ديار بكر بعد خلع أخيه جهان كير فى آمد سنة ٨٥٧هـ، على حين يرى بعض المؤرخين أن بداية سلطنته كانت ٨٧١هـ حين استولى على أذربيجان، واتخذ تبريز عاصمة لدولته أنظر: أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدولة الإسلامية، ج٢ ص ٥٣٩ .

(٤٩) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ ١٦ ص ٢٦٨-٢٧٠؛ ابن إياس:بدائع الزهور ج٢ ص ٧٢-٧٥ ؛ موير: تاريخ دولة المماليك فى مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن مصر ١٣٤٢هـ/ص ١٥٢.

(٥٠) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ ١٦ ص ٢٨٨؛أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف، م٣ ص ١٤٦

(٥١) ابن الصيرفى : أنباء الهصر بأبناء العصر ، تحقيق حسن حبشى، دار الفكر العربى ص ٥١-٥٢، ويذكر ابن إياس عن ذلك : أن كان هذا من حسن الطويل عين الخداع. انظر: بدائع الزهور ج٣ ص٢٧: محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك، م١ ج٢ص ٢٢١-٢٢٢.

(٥٢) ابن الصيرفى : انباء ص ٧٤ ابن إياسر بدائع الزهور ج٣ ص ٣٢-٥٢-٥٣ محمود رزق سليم : عصر سلاطين لمماليك م١ ج٢ ص٢٢٢.

(٥٣) ابن الصرفى : أنباء الهصر، ص ٢٤٨، ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٨٠، عاشور : العصر المماليكى، ص ٢٦٧.

(٥٤) السيوطى : تاريخ الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى، ورقة ٦، ٧، ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٨٠- ٨١ طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٣٥، عاشور : العصر المماليكى، ص٢٦٧.

(٥٥) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٨٢- ٨٤.

(٥٦) السخاوى: الذيل التام، جـ ٢ ص ٢٧٠، طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص١٣٦.

(٥٧) البيرة: ثغر مملوكى أعلى الفرات. انظر إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك ص ١٣٧.

(٥٨) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٨٦ .

(٥٩) ومما قيل عن هذه الواقعة ما قاله الشيخ شمس الدين القادرى شعرا :

أيا حسن الطويل بعثت جيشاً ... كأغنام وهن لنا غنايم

فنار الحرب قد سبكت سوار ... وأنت لسبكها لاشك خاتم

وقال الشهاب المنصورى فيه :

أيها العسكر الذى سار ... قاصدا لقتال الطويل لا تنظروه

لا تطيلوا مع العدو كلاما ... فى وغى الحرب والطويل قصروه

انظر السخاوى : الذيل التام، جـ ٢ ص ٢٦٢ .

(٦٠) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٨٨ ؛ أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف، م٣ ص ١٤٧ .

(٦١) طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٣٧ .

(٦٢) يذكر ابن إياس أن الأشرف قايتباى كان يخشى مد سطوته. انظر : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ١٤٨.

(٦٣) محمود رزق/سليم : عصر سلاطين المماليك، م١ جـ ٢ ص ٢٢٣

(٦٤) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ٣ ص ١٠٨ .

(٦٥) ابن إياس : نفس المصدر جـ ٣ ص ١١٠ .

(٦٦) يذكر أن محمد أغرلوا ذهب إلى أرزنجان، وأن أميرا من الشاة البيضاء يدعى بايندر رماه بسهم فقتله، وجز رأسه وأرسله إلى أبيه حسن الطويل، وكان ذلك بإيعاز من زوجة أبيه (سلجوق شاة خاتون) التى كانت تحقد عليه، وأن هذا العمل عجل بموت حسن الطويل الذى كان مريضا . انظر السخاوى: الضوء اللامع، م٣ جـ ٣ ص ١١٣، أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدولة الإسلامية، جـ٢ ص ٥٤٠ هامش(١).

(٦٧) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ١٤٨، وكانت مدة حكم حسن الطويل أربعة وعشرون عاما ومدة سلطنته عشرة أعوام. انظر أحمد السعيد سليمان : السابق، جـ ٢ ص ٥٣٩) ويذكر أنه كان عادلا تقيا كثير الأنفاق فى وجوه الخير. انظر : أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف م٣ ص ١٤٧.

(٦٨) طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك، ص ١٣٨ .
(٦٩) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ١٦١، السخاوى : الضوء اللامع، م٥ جـ ١٠ ص ٢٨٣ .
(٧٠) السخاوى : الذيل التام، جـ ٢ ص ٣٢٧ – ٣٢٨ . ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ١٧٠ –١٧١، بيشوف الجرمانى : تحف الأنباء، ص ١٦٥، عاشور : العصر المماليكى ص ٢٦٧ .
(٧١) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ١٨٠ – ١٨١
(٧٢) محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك م١ جـ ٢ ص ٢٢٣– ٢٢٤ .
(٧٣) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٢٥١ .
(٧٤) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٣ ص ٤٧٥ .
(٧٥) محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك، م١ جـ ٢ ص ٢٢٦ .
(٧٦) اطرابزندة : مدينة اسمها بالتركية طرابزون وهى فى الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأسود على ساحل تكثر فيه التلال ويفصله عن باقى آسيا الصغرى وأرمينية سلسلة من الجبال المرتفعة وهى مدينة ذات مركز تجارى هام. انظر : أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٢ ص ٣٠٣
(٧٧) أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف، م٣، ص ١٤٠ .
(٧٨) منجم باشى : صحائف الأخبار، موجز للأصل العربى، جـ ٣ ص ٣٧٦.
(٧٩) أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٣، ص ١٤٢ .
(٨٠) عاشق باشا زادة : تاريخ استنبول، ١٣٣٢هـ، ص ١٥٩ – ١٦٠ ؛ منجم باش : صحائف الأخبار : دائرة المعارف، جـ٣ ص ٣٧٦ .
(٨١) أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٣، ص ١٤١ .
(٨٢) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٢، ص ١٥ .
(٨٣) محمود محمد الحويرى : تاريخ الدولة العثمانية فى العصور الوسطى، المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات، ط١ ٢٠٠٢م، ص ١٧٧ .
(٨٤) أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٣، ص ١٤٣ .
(٨٥) Shaw,: Hist of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol. 1 (Cambridge 1977) P.65
(٨٦) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، القاهرة ١٩٦٥م، جـ ٢ ص ١٨٤.
(٨٧) يلماز أزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان مراجعة محمود الانصارى استانبول ١٩٨٨، ج١ ص ١٦٢ ؛ محمود رزق: عصر سلاطين المماليك م ١ ج٢ ص ٢٢٢–٢٢٣ . ويذكر ابن اياس أن العثمانيين التقوا بالسفير الحامل لرسالة حسن الطويل فى عرض البحر فقبض عليه وأرسل هذه الرسالة إلى السلطان المملوكى قايتباى. أنظر بدائع الزهور، ج٣ ص ٨٧.
(٨٨) ابن إياس : نفس المصدر ج ٣ ص ٨٧
(٨٩) Sykes, History of Perisa, London 1915, p. 191
(٩٠) أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدولة الإسلامية، ج ٢ ص ٥٣٩؛ الحويرى تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٧٧–١٧٨
(٩١)أحمد السعيد سليمان نفس المصدر، ج٢ ص ٥٣٩
(٩٢)أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٤–١٤٥
(٩٣)أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م ٣ ص ١٤٥
Halil Inalcik , the Ottoman Empire , the Classical Age (1300-1600) London 1973 , P.P 28-29
(٩٥) خليل إينالجك: العثمانيون النشأة والازدهار، كتاب تاريخ الدولة العثمانية، إشراف

روبيرمانتران، ترجمة بشير السباعى، القاهرة، ١٩٩٣، ج١ ص ٦٦

(٩٦) أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٦ .

(٩٧) Shaw , Op. Cit, P.66.

(٩٨) احمد السعيد سيلمان : من تاريخ الدول الإسلامية ج٢ ص ٥٤٠

(٩٩) دولة الشاه السوداء (القراقيونلية) ظهرت فى الربع الأخير من القرن الثامن الهجرى وكانت تعيش عشائرهم فى أذربيجان، وكان جدهم (بيرام خواجه) يعمل فى خدمة السلطان أويس الجلائرى وبعد وفاة أويس استولى جدهم عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م على الأماكن الواقعة جنوبى بحرة وان: الموصل وسنجار وأوجيش وخلفه ابنه قرا محمد الذى يعتبر مؤسس دولة القراقيونلية فالتحق بخدمة السلطان أحمد بن أويس وتزوج ابنته، ثم جاء ابنه قرا يوسف وأعلن استقلاله فى أرمينيه وأذربيجان، وفى عام ٨١٠ هـ / ١٤٠٨م استطاع قرا يوسف أن يهزم ابا بكر ميراناشاه حفيد تيمور واستولى على كل أذربيجان. انظر: أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدولة الإسلامية ج٢ ص ٥٣٥ .

(١٠٠) ابن تغرى بردى : النجوم، ج ١٤، ص٦٩، ابن الصيرفى نزهة النفوس، ج٢ ص ٣٢٩

(١٠١) ابن تغرى بردى: النجوم، ج١٤ ص ٩٩؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس، ج٢ ص ٤٧٦ السخاوى: الضوء اللامع، م٣ ج٥ ص ١٣٦.

(١٠٢) ابن حجر : انباء الغمر ج٨ ص ١٦.

(١٠٣) مدينة قديمة من بلاد فارس فى عراق العجم بالقرب من البصرة. أنظر:ياقوت الحموى:معجم البلدان، ج٢ ص ٢٣٤.

(١٠٤) ابن تغرى بردى : النجوم، ج١٤ ص ٣٣٥-٣٤٨.

(١٠٥) المقريزى: السلوك ج٧ ص ٢٨٨؛ ابن تغرى بردى: النجوم ج١٥ ص ٧٠.

(١٠٦) ابن حجر : أنباء الغمر، ج٨ ص ٤٢٩.

(١٠٧) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ ١٥ ص ٤٢٠ .

(١٠٨) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ ١٥ ص ١٠٨ - ١٤٨، محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك، م١ جـ ٢ ص ٢٢١ .

(١٠٩) ابن الصيرفى : أنباء الهصر، ص ٢٨ -٢٩؛ أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، جـ ٢ ص ٥٣٦، دونالدولر: إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة عبد المنعم محمد حسين، دار الكتاب المصرى واللبنانى، ط٢ ١٩٨٥، ص ٧٩، ويذكر أن جيش دولة الشاة البيضاء حاصر بغداد أربعين يوما وأن حسن بن على بن جهان شاه قد حشد جيشا جرارا فى أذربيجان بلغ عدته ثمانية عشر ألف مقاتل؛ واستعان فيها بأبى سعيد التيمورى انظر: خواندمير: حبيب السير، طهران ١٢٧١هـ، جـ ٣ ص ٢٣٤، تاريخ أسرة قطب شاة، المخطوطات الفارسية بالمكتبة الأهلية رقم ١٧٤، ورقة ١٦ ب.

(١١٠) أحمد الشنتناوى: دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٢ .

(١١١) خواندمير: حبيب السير، جـ ٣، ص ٣٣٠ .

(١١٢) أيوبيه حصن كيفا فى الجزيرة على نهر الشط تقع بين ديار بكر وجزيرة ابن عمر، حيث استطاع الملك الكامل وهو من أيوبيه مصر القضاء على دولة بنى أرتق بحصن كيفا ووضع فى حكمها ولده الصالح نجم الدين أيوب، ومن هنا بدأت سلالة بنى أيوب الأكراد بها. انظر : أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية، جـ ١، ص ١٥٠ .

(١١٣) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ ١٥ ص ٢٢ .

(١١٤) ويذكر أن استيلاء الشاة البيضاء لهذا الحصن دام عشرين سنة، ولكن الأيوبيين استفادوا من

القلاقل التى أعقبت وفاة حسن الطويل وعادوا إلى ملكهم، ولكن فى عهد دولة الشاة البيضاء وعمر حصن كيفا من جديد وأقيم فيه مبان ضخمة انظر : أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية، جـ ١ ص ١٥٠ – ١٥١، السخاوى : الضوء اللامع، م٢ جـ ٣ ص ١١٢ –١١٣ .

(١١٥) أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٠ .

(١١٦) زامباور : معجم الأسرات الحاكمة، جـ ٢ ص ٢٣٢ – ٢٣٣، أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية، جـ ٢ ص ٥١٧ .

(١١٧) عاش بنو قرمان فى أواسط القرن السابع الهجرى فى أرميناك ولارنداو قونية بسيواس، ويرجع نسبهم إلى نورصوف (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٠ م) وكانت من أكبر الدول التى ورثت السلاجقة وأقواها . انظر : زبيدة عطا : الترك فى العصور الوسطى، ص ١٤٨ .

(١١٨) أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٠ .

(١١٩) أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ١٤٤ .

(١٢٠) ابن حجر : أبناء الغمر، جـ ٨ ص ٢٥٣ .

(١٢١) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ ١٥ ص ٢٠١ .

(١٢٢) ابن تغرى بردى: السابق، جـ ١٥ ص ٨٩، أحمد الشنتناوى: دائرة المعارف الإسلامية، م٢ ص ٤٨١ .

(١٢٣) منجم باشى: صحائف الأخبار، جـ ٣ ص ١٥٧، عاشق باشا زاده : تاريخ استنبول، ص ٢٤٧ ص٢٤٩ .

(١٢٤) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ ٧ ص ٤٨٥ .

(١٢٥) منجم باش : صحائف الأخبار، جـ ٣ ص ٣٧٦ .

(١٢٦) أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٣ ص ٣٣٢ .

(١٢٧) أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية، جـ ٢، ص ٥٤٠ .

(١٢٨) يذكر أن حكم مراد فى أذربيجان، ومحمد فى أصبهان، والوند فى العراق العجمى. انظر : أحمد الشنتناوى : دائرة المعارف الإسلامية، م٢ ص ٤٨١ .

(١٢٩) أحمد السعيد سليمان، السابق، جـ ٢ ص ٥٤١ .

(١٣٠) الصفويون : ترجع هذه الأسرة إلى جدها الأكبر موسى الكاظم، وقد أسسها فى أردبيل من أعمال أذربيجان الشيخ صفى الدين أسحق (١٢٥٢ - ١٣٣٤م) ولما طرد جهان شاه الجنيد وهو أبو حيدر حفيد صفى الدين من بلاده لجأ الجنيد إلى حسن الطويل وارتبط به بأواصر المصاهرة، حيث زوجة أخته خديجة، ثم قتل جنيد فى معركة ضد حاكم شيروان، وظل ابنه حيدر الذى كان واليا ومحاربا محتفظا بصداقته لحسن الطويل واستطاع بمساعدته أن يحافظ على مركزه فى أردبيل، ولم يبدأ العداء بين حيدر والشاة البيضاء إلا فى أيام يعقوب، فقد استطاع حاكم شيروان بمساعدة يعقوب أن يهزم حيدر فى أحد المعارك وأن يقتله، ولما استولت جيوش يعقوب على أردبيل نقل أولاد حيدر إلى فارس وساعدهم بعد ذلك رستم الآق قيونلى على العودة إلى أردبيل، ولكن الشاة إسماعيل الصفوى هو الابن الثالث لحيدر وأول حاكم صفوى مستقل استطاع أن يعيد أمجاد أسرته، انظر : محمد أنيس : الدولة العثمانية، ص ١٠٥ محمد بن أبى السرور البكرى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية، تحقيق ليلى الصباغ، دار البشائر، ط١ ١٤١٥هـ/١٩٩٥، ص ٥٧ .

(١٣١) Show, OP. Cit, P, 77

(١٣٢) محمود رزق سليم : الأشراف قانصوه الغورى، سلسلة أعلام العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص١٢٤؛ دونالدولير: إيران ماضيها وحاضرها ص ٨٦ .

(١٣٣) ابن إياس : بدائع الزهور، جـ ٤ ص ٤٠٣ .

المصادر والمراجع

أ- المخطوطات

مجهول : تاريخ اسرة قطب شاه، المخطوطات الفارسية بالمكتبة الأهلية تحت رقم (١٧٤)

ب- المصادر:

ابن إياس: (محمد بن أحمد بن إياس ت. ٩٣٠هـ /١٥٢٤م).

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٢م – ١٩٨٤م.

ابن تغرى بردى : (جمال الدين أبو المحاسن ت. ٨٧٤هـ /١٤٧٠م)

-جوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة ١٤١١هـ ١٩٩٠م

-النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، تحقيق / جمال محمد محرز - فهيم محمد شلتوت، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م

ابن حجر العسقلانى: (أحمد بن على بن محمد بن على بن أحمدت٨٥٢هـ/١٤٤٩م):

- أنباء الغمر بأبناء العمر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١ ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م

- الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية ١٩٩٤م

السخاوى : (محمد بن عبد الرحمن بن ابى بكر بن عثمان ت:٩٠٢هـ/١٤٩٦م)

- التبر المسبوك على ذيل السلوك، بولاق ١٩٨٦

- الذيل التام على دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مروه ، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت ط٢ ١٤١٣هـ /١٩٩٢م

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت (د. ط)

ابن الصيرفى : (على بن داود الجوهرى ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤-١٤٧٥م)

- أنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٠م

- نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشى، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٠م،-١٩٧٣م .

العينى: (بدر الدين أبو محمد بن موسى بن أحمد بن الحسين بن يوسف ت:٨٥٥هـ /١٤٥١م)

السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى تحقيق فهيم محمد علوى شلتوت، دار الكتب القاهرة، ١٩٩٨م.

القلقشندى: (الشيخ أبو العباس احمد ت ٨٢١ هـ /١٤١٨م)

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، المطبعة الأميرية(د. ت)
- المقريزى: (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ /١٤٤٢م)
السلوك لمعرفة دول الملوك، إعداد محمد عبد القادر عطا، دار الكتاب العلمية بيروت ط١ ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م
- ياقوت الحموى : (شهاب الدين ابو عبد الله ت ٦٢٦هـ /١٢٢٩م)
معجم البلدان، بيروت ١٩٨٤م

جـ- المراجع العربية والمعربة :

- أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف مصر (د.ط)
- أحمد الشنتناوى وآخرون : دائرة المعارف الإسلامية، دار الفكر (د.ت)
- إبراهيم على طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠م
- ابن عرب شاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور، مصر ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م
- استانلى بول : طبقات سلاطين المماليك، الدار العالمية للطباعة والنشر ط١ ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م
- أنور زقلمة : المماليك فى مصر، القاهرة، ط١ ١٩٩٥م .
- بيشوف الجرمانى : تحف الأنباء فى تاريخ حلب الشهباء، المطبعة الأميرية، بيروت ١٨٨٠م .
- خواندمير : حبيب السير، طهران ١٢٧١هـ .
- دونالد ولبر : إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة عبد النعيم محمد حسنين، دار الكتاب المصرى واللبنانى، ط٢ ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م .
- زامباور : معجم الإنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى
ترجمة زكى محمد حسن، حسن حمد محمود، المطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥١م
- سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام، مكتبة الإنجلو المصرية، ط٢ ١٩٩٤ .
- شبولر : العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة خالد عيسى، سهيل زكار، دمشق ١٩٨٢م .
- عاشق باشا زاده، تاريخ استنبول، ١٣٣٢هـ .
- عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، القاهرة ١٩٦٥م
- عبد العزيز محمود : مصر فى عصرى المماليك والعثمانيين، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٩٦م
- عصام شبارو : السلاطين فى المشرق العربى، دار النهضة ١٩٩٤ م
- فريدون بك : منشآت سلاطين، استانبول، ١٢٧٤هـ

- كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٣٧٣هـ /١٩٥٤م

- محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى : المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية، تحقيق ليلى الصباغ، دار البشائر، ط١ ١٤١٥هـ /١٩٩٥م .

- محمود رزق سليم :

- الأشرف قانصورة الغورى، سلسلة أعلام العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى، مكتبة الآداب، ط٢ ١٣٨١هـ /١٩٦٢ م .

- محمود محمد الحويرى : تاريخ الدولة العثمانية فى العصور الوسطى، المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات، ط١ ٢٠٠٢م .

- محيط المحيط : مكتبة لبنان بيروت ١٩٩٣م.

- موير : (سير وليام) : تاريخ دولة المماليك فى مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مصر ١٣٤٢هـ /١٩٢٤م.

- منجم باشى : صحائف الأخبار، وهو موجز للأصل العربى (د. ط)

- يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، مراجعة محمود الأنصارى استانبول، ١٩٨٨م.

د: المراجع الأوروبية

- Halil Inalcik, The Ottoman Empire , the Classical Age (130-1600) London , New York, 1973).

- Shaw , Hist of the Ottoman Empire and Modern Tarkey, Vol.1, Cambridge 1977.

- Sykes , History of Persia (London, 1915).

- Wiet,G., L' Egypt Arabe (Hist de la Nation Egyptinenne , Paris, 1920 - 1937).

د/يسرى أحمد زيدان (*)

رعاية الأيتام في العصر المملوكي
(٦٤٨ - ٩٢٣م / ١٢٥٠-١٥١٧م)

تقررت رعاية الأيتام بآي القرآن الكريم ، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية وعلى هذا الأساس سارت معاملة المسلمين في شتى عصورهم التاريخية لليتامى تكريما واهتماماً رعاية وعناية ، إنفاقاً وإحساناً.

وتبدو رعاية النبي صلى الله عليه وسلم لليتامى في عصره جلية من خلال العديد من المواقف الكريمة، والتصرفات النبيلة، منها شراؤه صلى الله عليه وسلم لمحمد بن عبد الله بن جحش رضي الله عنهما أرضاً بخيبر من تركه والده الشهيد عبد الله بن جحش الذي استشهد في غزوة احد في السنة الثالثة من الهجرة فاشترى له النبي صلى الله عليه وسلم أرضاً وأقطعه داراً بالمدينة المباركة(١).

ومعنى هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أرسى مبدأ مهماً هو ضرورة تنمية أموال اليتامى وتشغيلها للحفاظ عليها، وهو الأمر الذي انتهجه صحابته الكرام من بعده، فلقد كان الصحابي الجليل أبو طلحة الأنصاري يتجر في أموال بعض اليتامى(٢) كما شاهد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم امرأة صحابية بأسواق المدينة الشريفة وهي تتاجر في أموال يتيمتين للإنفاق عليهما(٣).

وسار المسلمون في العصر الأول من تاريخهم المبارك على هذه السياسة(٤)، حتى أسندت هذه المهمة في أواخر القرن الهجري الأول إلى القضاة، وكان القاضي عبد الرحمن بن معاوية بن حديج أول من تولى مهمة النظر في أموال اليتامى ورعايتها والقيام بشأنها(٥) واستمر إشراف

* أستاذ التاريخ المساعد - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

القضاة على أموال اليتامى في العصر العباسي الأول حيث أدخل القاضي خير بن نعيم قاضي الخليفة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ / ٧٥٤-٧٧٥م) أموال اليتامى بيت المال، وسجل كل ما يتصل بها في سجلات خاصة بهذه الأموال[٦].

واستمر الأمر على ذلك[٧] حتى العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م) الذي شهد اهتماماً باليتامى من جانب السلاطين والأمراء ومن القضاة والفقهاء، وغيرهم، ومن عامة المسلمين وإن كانت الدولة المملوكية ممثلة في بعض سلاطينها وبعض موظفيها قد أخلت بهذا الاهتمام في بعض الأحيان.

وقد أولت الدولة المملوكية عناية فائقة بالأيتام، اشتملت حفظ أموالهم وتنميتها، والمحافظة عليها من الضياع، وتضمنت الحرص على إنشاء المكاتب اللازمة لتعليم الأيتام القرآن الكريم والقراءة والكتابة والحساب، وتابعت هذه المكاتب، واختارت لها العلماء الأكفاء الثقات، ووفرت أدوات الكتابة والقراءة للأيتام، وحمت هؤلاء الأيتام من أي اعتداء عليهم أو ضرب لهم من معلميهم، إلى غير ذلك من أمور حافظت على اليتامى وأموالهم لئلا يضيعوا في المجتمع.

حفظ أموال الأيتام وتنميتها:

عرفت إحدى المناصب الجليلة في الدولة المملوكية باسم: (نظر الأيتام) أو باسم (نظر ديوان الأيتام). وهي وظيفة من الوظائف المهمة في الدولة المملوكية، ومن ثم وصفت بأنها من (المناصب الجليلة في الدولة)[٨] وهي: الحسبة ونظر الزكاة، ونظر الأيتام. وتولى هذه الوظيفة قضاة عدول، توافرت لهم صفات معينة من الكفاءة والأمانة والزهد، وكان أغلبهم من مشاهير الفقهاء، وأماثل القضاة، كما كان أغلبهم أثرياء لئلا يتطلعوا إلى ما تحت أيديهم من مال. ومن أبرز من تولى هذه الوظيفة في دمشق: الفقيه تاج الدين أبو الفضل يحي بن محمد المعروف بابن الجنوبي، والمنعوت بالتاج، وتوفي سنة (٦٧١هـ / ١٢٧٢م). وكان من أعيان دمشق، وكان محدثاً، ليس هذا فحسب، وإنما كان (من بيت حديث)[٩] ومنهم: العدل الرئيسي نفيس الدين أبو الفدا، إسماعيل بن محمد الدمشقي، وتوفي سنة (٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) وكان محدثاً ذا ثروة (وله دار مليحة وقفها دار حديث)[١٠].

ومنهم: أبو المحاسن يوسف القونوي ، قاضي القضاة، شيخ الشيوخ، بقية السلف (ت ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م) وتولى منصب نظر الأيتام بدمشق، وكان عفيفاً عن أموال اليتامى، معطاء لم يسبقه أحد من القضاة في مثل عطائه (وأقام في الأيتام أتم قيام، وأما الصدقات فلم يفرق أحد قبله مثله ولا يلحقه أحد بعده)[١١].

ومنهم: عالم الحجاز ورئيسه إبراهيم بن علي بن محمد، ابن ظهيرة (ت ٨٩١هـ/١٤٨٦م) الذي وصف بأبي الفقراء والضعفاء والأيتام[١٢]، والذي تولى قضاء مكة والخطابة بها والنظر في مصالح المسجد الحرام فاجتهد اجتهاداً تاما في مصالح المسجد الحرام، وأظهر مبالغة عظيمة (في حفظ أموال اليتامى)[١٣].

وبعد فما تقدم نماذج - فقط - ممن تولى رئاسة ديوان الأيتام[١٤]، وممن وثقت بهم الدولة المملوكية فأسندت إليهم هذه المهمة الخطيرة، ثقة في كفاءتهم ودينهم وورعهم فكانوا على مستوى المسئولية وأدوا واجبهم بإخلاص وأمانة. وقد عاون متولي النظر في ديوان الأيتام قضاة آخرون لا يقلون كفاءة ولا أمانة عن رؤساء هذه الوظيفة من القضاة أو من قضاة القضاة، ومن الوظائف المعاونة: وظيفة المشرف بديوان الأيتام، وواضح أن من مهام هذه الوظيفة الإشراف على أداء هذا الديوان لمسئوليته واختصاصاته ويتبين من المصادر أن وظيفة المشرف تلت وظيفة ناظر ديوان الأيتام، وممن باشر المشرف بديوان الأيتام: نجم الدين بن أبي الطيب وتولى هذا المنصب سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م بدمشق[١٥]. ومن الوظائف المساعدة لمتولى ديوان الأيتام أيضاً: الكاتب أي المحرر[١٦] الذي يكتب أسماء اليتامى، ونصيب كل منهم في الديوان، وقيمة الأموال الصادرة من الديوان لأي سبب من الأسباب - التي سيأتي ذكرها - وعدد الأموال الواردة إلى هذا الديوان، وغير ذلك من كتابات هدفها ضبط مالية الديوان وحساباته.

ومن هذه الوظائف المعاونة أيضاً لرئيس. ديوان اليتامى: وظيفة الشهود بالديوان، الذين يشهدون على كافة أعمال الديوان المالية.

وأبرز الشهود في ديوان الأيتام عصر المماليك: الشيخ الأمين العدل مخلص الدين أبو المكارم الدمشقي (خدم في ديوان الأيتام شاهداً)[١٧] وتوفى سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م والشيخ الصدر الكبير نجيب الدين أبو محمد بن عبد الله بن نجيب المتوفى بالقاهرة سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م والذي كان شاهداً بديوان الأيتام[١٨].

هذا وقد عرف ديوان الأيتام في بعض الأحيان بـ (مخزن الأيتام)[١٩] أو بـ (مودع الأيتام)[٢٠] وأحياناً بـ (مودع الحكم)[٢١]. وقد تحدث المقريزي عن (خان مسرور)[٢٢] بالقاهرة الذي أقيم به فندق مسرور الكبير، وأدركه المقريزي وهو في غاية العمارة، تنزله أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم ثم قال: (وكان فيه أيضاً مودع الحكم الذي فيه أموال اليتامى والغياب، وكان من أجل الخانات وأعظمها)[٢٣].

كما أطلق على المشرف بديوان الأيتام أحيانا (أمين الحكم)[٢٤] أو (الأمين على أموال اليتامى)[٢٥].

ومن خلال استقراء المصادر المملوكية يبدو أن مصطلح (مودع الأيتام) و(أمين الحكم) كانا خاصين بمصر[٢٦] في عصر سلاطين المماليك، وهو ما ورد النص عليه في المصادر المملوكية عند الحديث عن (ديوان الأيتام) بمصر.

وعلى أية حال فلا يوجد خلاف حول أداء هذا الديوان لوظيفته فمهامه واحدة في مصر والشام وبلاد الحجاز وغيرها، كما كانت وظيفة المشرف به هي وظيفة أمين الحكم نفسها كما ظهر من المصادر المملوكية.

وقد وقع عبء حماية أموال اليتامى في (مودع الأيتام) أي (في ديوان الأيتام) على قضاة القضاة المتولين له، ثم على الموظفين التابعين لهم. فقد قام قضاة القضاة أو القضاة المسئولون عن هذا المنصب بالكشف على هذه الأموال الصادرة من الديوان أو الواردة إليها، واستيعاب كل معاملات هذا الديوان المالية وفهمها، فقام قاضى القضاة علاء الدين بالكشف عن أموال اليتامى بالديوان بدمشق وذلك فى سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م وأحيط علماً بكل معاملات ديوان الأيتام في هذه السنة من خلال سجلات هذا الديوان[٢٧]. وكذلك تابع بمكة المكرمة سنة ٩٠٣ / ١٤٩٧م القاضي الزكوى لأموال اليتامى[٢٨]. وإضافة إلى هذه المتابعة الدقيقة لأموال اليتامى هناك مظاهر أخرى لحماية أموال اليتامى، قام بها القضاة، وتحملوا في سبيلها الأذى والعنت منها:

التصدي لمحاولات الاقتراض من أموال اليتامى أو التعدي عليها :

كان جل السلاطين والأمراء حريصين على أموال الأيتام، وكانت لهم صدقاتهم وأوقاتهم المرصودة للأيتام، ولعل موقف الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠/١٢٧٧م) من أحد الأوصياء على أحد اليتامى ينهض دليلاً على ذلك فلقد منع بيبرس سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م الأوصياء من التصرف وحدهم في مال اليتامى أو ضم أموال اليتامى إلى أموالهم، فلربما مات يتيم وأخذ الوصي ماله أو ربما مات الوصي فضاع مال اليتيم وأوجب الظاهر بيبرس - كما كان متبعاً - على (أمناء الحكم)- متابعة أموال اليتامى المصروفة، لأن من واجبات هؤلاء الأمناء حفظ مال اليتامى والتحقق من الأوجه المشروعة في إنفاقها. وجاء هذا المنع عندما أراد أحد الجنود التصرف في مال أحد اليتامى بحجة أنه وصيه[٢٩].

ومما يؤكد حرص الدولة المملوكية على أموال اليتامى أيضاً أنه في سنة ٩١٣هـ / ١٥٠٧م فى عهد قانصوه الغورى وقع والد قاضي مكة الشافعي ومتولي أموال اليتامى بها في ضائقة مالية فأخذ بعض المال من أموال اليتامى، فأمر ببيع بيوت القاضي، وبيع كتبه وقدمت أثمانها لليتامى[٣٠].

وهكذا مضت هذه السياسة الرشيدة التي انتهجها بيبرس والغورى وغيرهما من سلاطين المماليك وكذلك من أمرائهم، وكانت كفيلة بحفظ مال اليتامى.

لكن بعض السلاطين وبعض الأمراء تطلعوا لأموال اليتامى للاقتراض منها في بعض الأوقات وبسبب بعض الظروف السياسية الداخلية أو الخارجية، فوقف القضاة لهذه المحاولات، ولتلك التصرفات وموقفاً مشرفاً.

على أنه تجب الإشارة هنا إلى أن بعض القضاة سمحوا لأنفسهم أحياناً بإقراض بعض الموثوق بهم من الموسرين بعض المال من ديوان اليتامى في بعض الأوقات التي احتاج فيها هؤلاء المال من ديوان اليتامى في بعض الأوقات التي احتاج فيها هؤلاء هذا المال، ومثال ذلك أن قاضي دمنهور بمصر وغيرها من الوجه البحري، القاضي محمد بن أحمد من هبة الله (ت ٧٨١هـ / ١٣٧٩م) لما توجه من القاهرة لقصد الحج والمجاورة استدان من مال الأيتام بالقاهرة عشرة آلاف درهم إلى سنة (برهن وثيق وقصد بذلك خفاء أمره في الغناء وإظهار احتياجه وذلك مما يقصده العقلاء)[٣١].

ولكن هؤلاء القضاة رفضوا إقراض بعض السلاطين والأمراء من مال الأيتام حتى لا يضيع هذا المال، لعدم وجود أسباب قوية تجيز تقديم القرض وتضمن رده. إلا أن هؤلاء السلاطين أو الأمراء استمروا على موقفهم متذرعين بحجج واهية، وعلل ساقطة لتبرير سلوكهم المرفوض إسلامياً وإنسانياً. ومن بين السلاطين الذين كانوا يتطلعون للاقتراض من أموال اليتامى: الظاهر برقوق[٣٢] وابنه الناصر فرج[٣٣]. وما وقع فيه هؤلاء من مخالفة شرعية يحملون تبعيتها هم وحدهم - دون سواهم - ولا ينسحب خطرهم على باقي سلاطين الدولة المملوكية الذين بلغ عددهم اثنين وخمسين سلطاناً، كما لا يشوه تاريخ الأمراء من المماليك وأمرائهم اللذين كانوا بالألوف ومعظمهم وقف عند حدود الله ولم يتجاوزوها. إن وزر تعدى بعض سلاطين المماليك وأمرائهم على أموال اليتامى - في بعض المرات القليلة قياساً إلى تاريخ الدولة ومواقفها من الأيتام - يحمله أصحابه فقط، ولا يمكن أن ينال من الدولة أو يقدح في العصر المملوكي كله وإنما ينال فقط من أصحابه.

وكان المماليك بمصر قد طلبوا في سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م من الأمراء ما وعدوهم به من النفقة، وهي مبلغ خمسمائة دينار لكل واحد، فأعطوهم مائة دينار لكل مملوك، فأبوا فقام الأمراء بالتوجه إلى (أمين الحكم) للاقتراض من مال الأيتام، فلم يسمح لهم بذلك، فنهبوا (المودع) (وكان فيه حينئذ أموال عظيمة جداً) وأخذوا ما شاءوا من مال، ذهب على الأيتام[٣٤]. وحدث مثل هذا

أيضا في سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م حيث قام الوزير موفق الدين أبو الفرج والأمين ناصر الدين محمد بن الحسام بالتوجه إلى مودع الأيتام بخان مسرور بالقاهرة وأخذوا منه ثلاثمائة ألف درهم، والزم أمين الحكم بالقاهرة أن يحمل تتمة خمسمائة ألف درهم، وألزم أمين الحكم بالحسينية أن يحمل مائة ألف درهم قرضاً[٣٥]. وكان هذا بالقاهرة في أيام سلطنة الظاهر برقوق (٧٨٤ -٨٠١هـ / ١٣٨٢-١٣٩٨م)، وفي الفترة نفسها امتحن بدمشق القاضي أحمد بن ناصر بن خليفة الباعوني[٣٦] لكونه امتنع من إقراض السلطان برقوق سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م من مال الأيتام، فامتحن بالعزل والسجن (ثم أطلق ولزم داره)[٣٧].

وكان قاضي القضاة صدر الدين المناوي الشافعي هو الآخر قد امتنع ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م من إقراض الأمير منطاش نائب ملطية من مال الأيتام ليستعين به على التآمر ضد السلطان الظاهر برقوق وقام الواعظ بوعظ الأمير منطاش، فلم يؤثر فيه الوعظ، فحدث ما تم ذكره من نهب هذا الأمير والوزير لمودع مال الأيتام[٣٨]. وامتنع هذا القاضي مرة أخرى عن إقراض السلطان برقوق من مال الأيتام سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٣م ورضي بالعزل عن إقراض السلطان الذي اقترض من التجار[٣٩]. ويبدو أن هذا الاقتراض في هذه السنة كان للاستعداد لملاقاة تيمور لنك الذي استولى على العراق سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م وأراد أن يتوجه نحو الشام فيها[٤٠].

وبسبب خطر تيمورلنك على الشام ومصر بعد الاستيلاء على العراق ظلم الأمير تنم[٤١] والأمير علاء الدين بن الطبلاوى[٤٢] التجار وذوي الأموال من الفقهاء وغيرهم سنة ٨٠٢هـ /١٣٩٩م وأخذ من أموال الأيتام بالشام[٤٣] وهو ما حدث سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م بمصر حيث قام الأمير يلبغا السالمي[٤٤] في سلطنة الناصر فرج (٨٠١-٨٠٨هـ /١٣٩٨م-١٤٠٥م) بتحصيل الأموال من التجار، وغيرهم برضي وبغير رضي، وامتدت يده إلى أموال الأيتام والأوقاف.وكان الغزو التيموري للشام قد ألحق أضرارا جسيمة بأحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية، ذلك أنه لم يكن تأثير ذلك الغزو مقصورا على السلطة الحاكمة فى مصر، بل امتد إلى السكان وحياتهم العامة. وكان طبيعيا أن تفرض ضرائب استثنائية على الفئات المميزة فى مصر خصوصا التجار[٤٥].

وفي سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م احتاج السلطان الناصر فرج فاقترض من مال أيتام بعض الأمراء، ولكن في مقابل رهن جوهره وبعض أراضيه[٤٦].

وهناك محاولات أخرى سعي من خلالها بعض الأمراء لأخذ بعض المال من مال الأيتام عن طريق بعض الحيل والألاعيب منها: ما حدث من أحد الأمراء المعروفين - في تلك الفترة - بالظلم والجبروت وهو مستوفي الدولة[٤٧]: شرف

الدين عبد الوهاب النشو الذي أراد في سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م في سلطنة السلطان محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م)(٤٨) الاستيلاء على بعض مال اليتامى فتصدى له قاضي القضاة تقي الدين محمد الإخناني المالكي وقال له:

(السلطان ما يحل له أخذ مال الأيتام) فرد عليه بأن السلطان يطلب المال الذي سرقه أخوك من خزانة الخاص حيث كان ناظرها. وعن طريق هذه الحيلة تمكن النشو من أخذ بعض مال اليتامى(٤٩).

وفي سنة ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م سعى هذا الظالم النشو بقاضي الإسكندرية عماد الدين محمد بن إسحاق البليسي من أجل أنه عارضه في أخذ أموال الأيتام، واتهم النشو القاضي بأنه أخذ مالا للأيتام، فحقق في القاهرة مع القاضي المظلوم فثبتت براءته، وأفرج عنه(٥٠).

وفي سنة ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م قام القاضي أمين الحكم بالقاهرة: بدر الدين بشراء ملك لبعض الأيتام، فحضر إليه شاد القراريط(٥١) يطلب حق الدولة من مال هذا اليتيم، فرفض القاضي، وحدث نزاع بينهما أخطأ فيه (شاد القراريط) ويدعي: (العلم) فعزره(٥٢) قاضي القضاة ابن جماعة، فسعى النشو بأمين الحكم القاضي بدر الدين إلى السلطان محمد بن قلاوون الذي أصدر أمراً بالإتيان بأمين الحكم، فأظهر سخطه على أمر السلطان متعجباً من محاولة الاعتداء على أموال اليتامى ظلماً، لكن السلطان أحضر متولي الحكم وأمر بضربه بقلعة الجبل مقر السلطة المملوكية بحجة منع الحقوق السلطانية، وألزم بتقديم عشرين ألف درهم للدولة، أدى منها خمسة عشر ألف درهم(٥٣).

هذه هي - فقط - المرات التي اعتدت فيها الدولة المملوكية أو حاولت فيها الاعتداء على أموال اليتامى، وهي مرات قليلة بالنسبة لفترة حكم المماليك، ولكنها غير مبررة، وغير مقبولة، وقد حاول القضاة منع الاعتداء على أموال اليتامى في هذه المرات فنجحوا أحياناً، ولم يوفقوا أحياناً، ولكن حسبهم ما فعلوه من أفعال، ومواقف مشرفة، تحملوا - في النهاية - تبعتها.

إن القضاة المتولين للنظر في أموال اليتامى قد أدوا ما عليهم تجاهها، وكانوا أكفأ أمناء ورعين عن الحرام. فقد توفى أحد أمناء الحكم وهو شهاب الدين أحمد بن على الزركشي فجأة، سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م لأنه وجد نقصاً في مال الأيتام بلغ خمسمائة ألف درهم، فتوفى هما وغما بسبب هذا النقص(٥٤) كما أن القاضي إبراهيم بن علي بن إسماعيل (ت٨٣٤هـ/١٤٣٠م) بالقاهرة سرق من بيته مبلغ كبير، فارتجت القاهرة، وقيل إن أموال الأيتام والودائع ذهبت،

فطلب بعض القضاة والشهود، وأشهد عليهم أنه لم يذهب من ذلك شيء ثم ذهب واستقرض مبلغاً كبيراً (ورهن أملاكه على ذلك كله حتى أداه رحمه الله)(٥٥).

وتبدو الإشارة إلى أن بعض متولي أمر اليتامى ممن تصرفوا تصرفاً غير مسئول، ففرطوا - أحياناً في مال الأيتام ومن هؤلاء القاضي محمد بن محمد بن عبد الرحمن (ت ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م) الذي حزن الناس لموته حزناً عظيماً لكرمه وبره ولعدم رده سائلا، لكن هذا القاضي كان في بعض الأحيان لا يجد مالاً يقدمه للسائلين، فيعطيهم من أموال الأيتام والأوقاف(٥٦). كما أن إهمال بعض القضاة أدى إلى ضياع بعض أوقاف الأيتام وحدث هذا في مصر سنة ٨٣٧هـ / ١٣٣٧م، وعوقب القاضي على تقصيره الذي استفاد منه ابنه في بيع بعض أوقاف الأيتام(٥٧). والغريب هنا أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان له موقف حاسم من القاضي الحنبلي وابنه في قضية بيع بعض أوقاف الأيتام وانتهابها، مع أن السلطان الناصر نفسه أطلق يد النشو - كما مر - في الاستيلاء على أموال الأيتام.

إنماء أموال الأيتام :

أشارت المصادر المملوكية إشارات صريحة إلى دور متولي أموال اليتامى فى إنمائها عن طريق شراء أملاك لهؤلاء اليتامى ينتفعون بها أو يبيعونها فيربحون من وراء هذا البيع، وما من شك في أن وظيفة النظر في أموال اليتامى كان معناها: حفظ هذه الأموال وإنماؤها. فلم ينفق شيخ الإسلام وقاضي القضاة، خطيب الخطباء، ناظر المسجد الحرام القاضي إبراهيم بن علي بن محمد بن ظهيرة (ت ٨٩١هـ / ١٤٨٦م) درهماً واحداً على كسوة يتيم أو نفقته من أصل ما له وإنما كانت النفقة علي اليتامى مما كان يربحه مالهم من ربح ينفق منه على مأكل ومشرب وملبس هؤلاء اليتامى، ومن ثم لم ينقص درهم واحد من أصل أموال اليتامى الذين تولى مالهم بمكة المكرمة في أيام حكم الإشراف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٧-١٤٩٥م) ولقد أخبر هذا القاضي المؤرخ عمر بن فهد أنه نسي مرة أن يستثمر مال أحد اليتامى، وكان قد أنفق عليه نفقة، فلما وقف على ذلك قال: كيف أترك هذا اليتيم وحده من غير تسبب له في ماله؟؟ فعزم من ماله الخاص مالاً كبيراً تعويضاً لهذا اليتيم(٥٨). وكان هذا القاضي قد تصدى لمحاولة شمس الدين بن الزمن الشامي(٥٩) أحد خواص الملك الأشرف قايتباي الذي بني رباطاً بالمسعى وأراد أن يبني سبيلاً بالمشعر وحفر أساسه، فتصدى لهذا العمل الأخير القاضي ابن ظهيرة ومنع الفعلة من ذلك، فغضب ابن الزمن وكاتب الأشرف قايتباي وسأله أن يعزله، فأحضر القاضي ما عنده من أموال اليتامى والغياب كما هي دون أن ينقص منها درهم واحد لأنه لم يكن ينفق

على اليتامى إلا من ربح مالهم[٦٠]. وذكر عن قاضى القضاة إبراهيم بن على بن محمد بن ظهيرة (ت٨٩١هـ/١٤٨٦م) أنه كان ينمى أموال اليتامى بالتجارة بها دون أن ينفق درهما واحدا من المال الأصلي لليتامى، بل يكون جميع ما ينفقة على اليتامى من ربح مالهم[٦١].

ووردت إشارة أخرى خاصة بأمين الحكم بالقاهرة الذي اشترى ملكاً لبعض أيتامه[٦٢]. وفي ذلك مصلحة هؤلاء اليتامى. ومما سبق يتبين بعض أدوار من عهد إليهم بالنظر في أموال اليتامى في عهد سلاطين المماليك بإنمائها واستثمارها .

الحرص على تعليم اليتامى وتأديبهم :

حرصت الدولة المملوكية على تعليم اليتامى وتأديبهم حرصاً كبيرا، فأقامت لهم المكاتب للوفاء بهذا الغرض، وتخيرت أساتذة أكفاء من العلماء - وأحياناً من أعلام وأعاظم العلماء - لأداء هذا الدور المهم وأنفقت على اليتامى بهذه المكاتب، وتابعت حركة التعليم والتأديب بها. وكانت هذه المكاتب ملحقة بالجوامع والمساجد والمدارس، وأحياناً كانت منفردة عنها. وقد حاكى سلاطين المماليك الأيوبيين فى بناء المدارس لتدريس العلوم الدينية واللغوية وغيرها، وقصد السلاطين بتأسيسها التقرب إلى الله وكسب الثواب. وكانت المدارس فى ذلك العصر أشبه بجامعات، فهي معاهد للتعليم العالي. وبالإضافة إلى المدارس التي كانت تمثل نوعا من التعليم العالي الجامعي، وجدت كتاتيب ومكاتب ملحقة بالمدارس والمساجد أو منفصلة عنها لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن[٦٣] .وقد ذكر المقريزي[٦٤] أن الظاهر بيبرس عندما بنى المدرسة الظاهرية بين القصرين بالقاهرة جعل بها خزانة كتب (مكتبة) تشمل أمهات الكتب في سائر العلوم، وأنشأ إلى جانبها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، وأجرى لهم الجرايات والكسوة، وأوقف على المدرسة والمكتب أوقافاً.

وبالمثل فعل المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ / ١٢٧٩-١٢٩٣م) عندما أنشا المدرسة المنصورية (بين القصرين) أيضاً سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م حيث جعل بها مكتباً لتعليم الأيتام، وأوقف على مدرسته التي ضمت أيضا المكتب والبيمارستان الذي أنشأه في السنة السابقة نفسها ضياعا وحوانيت وفنادق، وغير ذلك، (ورتب من هذا الوقف للبيمارستان ولمكتب السبيل ما يكفيه)[٦٥].

كذلك أنشأ السلطان قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥١٦م) مكتباً للأيتام عند مدرسته التي أنشأها بالقاهرة، وقد نزل هذه المدرسة سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م، وزار المكتب وعرض الأيتام به، وأمر لهم بكسوة[٦٦].

هذه هي أبرز المكاتب التي أنشأها سلاطين المماليك. أما أمراؤهم فلم يقلوا اهتماما عنهم بإنشاء مكاتب لليتامى بل نافسوا السلاطين في هذا المجال.

ومن أبرز المكاتب التي أنشأها بمصر هؤلاء الأمراء من أجل تعليم اليتامى، ما أنشأه الأمير أرغون العلائي سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م من سبيل ماء (ومكتب سبيل لقراءة أيتام المسلمين القرآن الكريم) ووقف عليه وقفاً بناحية من الضواحي(٦٧) وكذلك ما أقامه زين الدين فيروز (ت٨١٤هـ/١٤١١م) من مدرسة ومكتب أيتام بحي المغربلين بجانب باب زويلة بالقاهرة، ووقف على مدرسته ومكتبه عدة أوقاف، وتوفي قبل إتمام المدرسة (فأقر السلطان - الناصر فرج بن برقوق - ما قرره - من المصارف على الفقهاء والأيتام وغيرهم)(٦٨).

كما أنشأ الأمير الزيني عبد الرحمن بن الجيعان(٦٩) مدرسة بالقاهرة بجوار منزله بحي السبع قاعات، وأقام إلى جانبها سبيلا ومكتبا للأيتام، وأذن السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) بإقامة الجمعة(٧٠) بالمدرسة.

ومنها: المكتب الذي أقامه ناصر الدين الطواشى للأيتام بدمشق(٧١) والمكتب الذي أنشأه الأمير صرغتمش(٧٢) لليتامى بمصر(٧٣) ومكتب الأيتام الذي أنشأه الأمير جنبك الظاهري(٧٤) المتوفى سنة ٨٦٧هـ / ١٤٦٢م. ومكتب الأيتام الذي بناه الأمير جانم السيفي (ت ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م) إلى جانب منزله بالقاهرة(٧٥). ومكتب بشير الجمدار بالمسجد الحرام(٧٦)، إلى غير ذلك من مكاتب أنشأها أمراء الدولة المملوكية خاصة لليتامى لتلقي بها القرآن الكريم، وعلوم الدين، وقواعد اللغة، ومبادئ الحساب.

حياة اليتيم داخل المكتب :

كان اليتيم يلتحق بالمكتب وله من العمر خمس سنين، ويؤكد ذلك ماورد في (معجم الشيوخ) لابن فهد، وفيه أن العلامة ابن حجر - الذي كان يتيما - التحق بمكتب الأيتام بعد أن أكمل خمس سنوات(٧٧). وكذلك التحق محمد بن أحمد بن على المالكي بالمكتب وهو فى الخامسة من عمره بالمرية بالأندلس(٧٨). ويبدو أن هذه السن كانت مناسبة للالتحاق بالمكتب، كما يبدو أن جميع الأطفال اليتامى كانوا يلتحقون بالمكتب في مثل هذا السن أو قريب منه كما يبدو أن الأطفال اليتامى - وغيرهم - كانوا يحفظون شيئا من القرآن الكريم في بيوتهم قبل هذه السن، وقبل الالتحاق بالمكتب. ولدينا إشارة عن أحد اليتامى وهو إبراهيم بن محمد الطرابلسي (ت ٨٤١هـ / ١٤٣٧م) الذي توفي

أبوه وهو صغير جدا، فكفلته أمه وقامت على أمره، وحفظ بعض القرآن الكريم، ثم أدخلته أمه مكتب الأيتام بحلب لناصر الدين الطوشي فأكمل حفظ القرآن الكريم كله[٧٩].

وتبدأ حياة اليتامى في المكتب مع صحوة النهار[٨٠] حيث يقوم الشيخ المؤدب بتأديبهم وإقرائهم وفي ذلك يقول ابن طولون: (يؤدبهم ويقرئهم ويكتبهم على العادة، ثم يقرأ بهم قبيل العصر مجتمعين ما تيسر من القرآن[٨١].

واختير مؤدب الأيتام بكل عناية ودقة، فهو من الفقهاء الأثبات، وأحياناً من مشاهير الفقهاء والقراء المحدثين، ونهضت المكاتب بالتعليم الابتدائي فى عصر سلاطين المماليك، ولما كانت مهمة تعليم الصغار وتربيتهم مهمة شاقة عسيرة، لذلك اشترطت فى المؤدب والعريف شروط دقيقة خاصة، منها الدين والعقل وحسن الخلق والبعد عن القسوة والعنف[٨٢]. وأبرز الفقهاء المعلمين المقرئين لليتامى: الفقيه المقرىء أحمد بن أبي بكر بن يوسف القلقيلي[٨٣] السكندري الذي وصف بأنه: (كان حامل لواء الإقراء) وكان عارفاً بطرق القراءات، وقرا عليه العلامة السخاوي. لقد كان هذا العلم المتوفى سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م يؤدب الأيتام ويقرؤهم القرآن بمكتب الجانبكية بالقاهرة[٨٤] المنسوب إلى أحد الأمراء.

وكان اليتيم يحصل على بعض المال من المكتب، ولدينا خبر عن قاضى القضاة شمس الدين أبي عبد الله الصالحي (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م) وكان يتيماً في صغره (فنزل في المكتب، وكان يحصل له في السنة ستون درهماً)[٨٥]. كما كان يصرف للأيتام كسوة في السنة، وذكرت المصادر خبرا عن كسوة بعض اليتامى، وبلغت خمسمائة درهم[٨٦]. كما كانت الأكسية تصرف لليتامى في الأعياد[٨٧]. وكان المكتب يتحمل ثمن الأحبار والأقلام والدوى. فقد خصص مبلغ خمسين درهماً[٨٨] فى ثمن حبر وأقلام ودوى في احد مكاتب اليتامى.

وكان يساعد فقهاء المكاتب الذين كانوا أتقياء دينيين - غير متهمين[٨٩] بتهم تخل ودينهم وخلقهم - عرفاء[٩٠] لهم صفات المؤدبين. وقد يحدث أن يصبح اليتيم عريفا بالمكتب بعد ظهور كفاءة تؤهله لهذا المنصب، وكان القاضي عبد الرحمن بن علي التفهني يتيماً في صغره فرباه أخوه شمس الدين محمد، فلما ترعرع نزل القاهرة وترك قريته (تفهنه) التابعة للغربية، والتحق بكتاب اليتامى في المدرسة الصرغتمشية ثم أصبح عريفاً بها[٩١]، واشترط في العريف الشروط الواجب توافرها في المؤدب، لأنه يقوم بعمله أثناء غيابه، وأحيانا في حضوره من إقراء الأيتام وتعليمهم[٩٢] يبدو أن وظيفة العريف لم تكن ضرورية في المكاتب الصغيرة حيث يقل عدد الأطفال النازلين بالمكتب

فيكتفي بالمؤدب، مثال ذلك ما نصت عليه وثيقة وقف السلطان المؤيد شيخ الذي رتب خمسة وستين يتيما، منهم خمسون يتيما بجامعة، ورتب لهم مؤدبا وعريفا، الباقي وهم خمسة عشر يتيما في القلعة، فلم يرتب لهم إلا مؤدبا فقط[٩٣].

وقد أظهر عدد ضخم من اليتامى نبوغاً كبيرا، وسيأتي ذكر ذلك بدليل المكانة العلمية السامقة التي وصل إليها عدد كبير منهم، والمناصب الدينية الرفيعة التي تبوأها أكثرهم. وتشير المصادر إلى أن العلامة ابن حجر حفظ سورة (مريم) بالمكتب في يوم واحد[٩٤]. وكان هؤلاء اليتامى يكتبون القرآن الكريم في الألواح، فإذا أرادوا مسحها غسلوا ألواحهم[٩٥].

ويبدو من خلال المصادر أن هناك مراقبة دقيقة لفقهاء المكاتب تبعد غير الأكفاء منهم عن التعليم في المكتب، وكان المحتسب[٩٦] يقوم بهذه المراقبة وأحياناً يعهد إلى أحد الفقهاء المؤدبين بها القيام بذلك، وورد أن الفقيه المؤدب أحمد بن حسن الشهاب القاهري (ت ٨٣١هـ / ١٤٢٧م) نظر في فقهاء المكاتب لإقراء الكفء الدين، ومنع غير الكفء منهم[٩٧].

ولم يحدث لليتامى بالمكاتب أي ضرر بالغ أو أية مشكلة كبيرة بسبب السياسة الرشيدة بهذه المكاتب، باستثناء واقعتين اثنتين[٩٨] وقعتا لبعض هؤلاء اليتامى:

الأولى: ووقعت سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م بالقاهرة وفيها سقطت إحدى منارتي مدرسة السلطان حسن (٧٥٥-٧٦٢هـ / ١٣٥٤-١٣٦٠م)، فمات بسببها ثلاثمائة يتيم كانوا بمكتب اليتامى الملحق بالمدرسة، إضافة إلى بعض من كان يمر بالمدرسة من المارة[٩٩]. وواضح من هذا الخبر المفجع عدد اليتامى الكبير في هذا المكتب وحده من مكاتب القاهرة الكثيرة، فضلاً عن مكاتب مصر كلها، وغيرها من أنحاء العالم الإسلامي. ويذكر هنا أن الذي كان يتحكم في عدد الطلاب في المدارس والمكاتب، أو قلتهم شهرة المعلم نفسه في الوسط التعليمي[١٠٠].

والواقعة الثانية والأخيرة حدثت سنة ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م وفيها قام مؤدب الأيتام بمدرسة السلطان قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٧-١٤٩٥م) الفقيه ابن موسى الظاهرة بضرب أحد أيتام المكتب ضرباً مؤلما، فاشتكي اليتيم للمحتسب ما وقع له من ضرب -لم تبين المصادر سببه- فقام المحتسب باستدعاء الفقيه، وضربه تحت رجليه، ثم أمر بحبسه، فهرب من محبسه واشتكى المحتسب إلى القاضي كاتب السر[١٠١]، وكان مع الفقيه المؤدب أيتام المكتب، فقدم القاضي بعض المبالغ للأيتام وللفقيه المؤدب واسترضاه، فعاد إلى مباشرة عمله بالمكتب[١٠٢].

ويستفاد من الواقعة السابقة بعض الأمور: منها دور المحتسب في مراقبة مكاتب اليتامى، ومنها سماع المحتسب لشكوى اليتامى، ومنها وقوف اليتامى إلى جانب مؤدبهم الفقيه ابن موسى، مما يبين منزلته عندهم ومحبتهم له، ومنها دور القاضي كاتب السر في معالجة الأمور بلطف واسترضاء الفقيه واليتامى معاً. ويلاحظ أنه عندما كان يتولي منصب الحسبة شخصية تتصف بالنزاهة والعدل تفرح العامة فرحا كبيرا، ويبالغون في إشعال الحوانيت بالقناديل والشموع احتفالا بمرور المحتسب الذي يحظي بشعبية بالغة بينهم(١٠٣).

وفيما عدا هاتين الواقعتين لم أعثر في المصادر المملوكية(١٠٤) – وما أكثرها – التي اطلعت عليها على أية متاعب أو صعوبات وقعت لليتامى في دار العلم التي يتعلمون فيها من صحوة النهار حتى العصر(١٠٥)، ويقضون فيها معظم أوقاتها، في التأدب والتعلم.

وهكذا تبين لنا مما سبق الوجه المشرف لسلاطين المماليك وأمرائهم في إقامة المكاتب والوقف عليها، والإنفاق علي اليتامى بها. والحقيقة أن معظم السلاطين والأمراء كانوا حريصين على إنشاء المكاتب في أنحاء العالم الإسلامي كله، وعلى تجديد ما تهدم منها أوكاد ينهدم، وكان السلطان منصور لاجين (٦٩٦–٦٩٨هـ / ١٢٩٦–١٢٩٨م) قد أمر في سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م بتجديد عمائر جامع أحمد بن طولون، ووقف عليه أماكن من الجيزة، ورتب فيه الدروس في الفقه على المذاهب الأربعة وكذا الدروس الطبية، وجدد مكتب الأيتام بمسجد أحمد ابن طولون(١٠٦). كما أنشأ السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤–٨٠١هـ/ ١٣٨٢–١٣٩٨م) بقلعة الجبل عدة منشآت خيرية، منها سبيل، وصهريج، ومكاتب لليتامى، وأرصد عدة أوقاف عليه(١٠٧). كذلك كان للسلطان قايتباي مدرسته التي أنشأها والتي أقام بها مكتبا للأيتام(١٠٨). ويذكر هنا أن الأمير جانبك الجداوي(١٠٩) أنشأ بالقاهرة مدرسة سنة ١٤٥٩/٨٦٤م خارج باب القرافة، بها مكتب للأيتام وسبيل وحوض للبهائم، وغير ذلك (مما يزيد مصروفه الشهري على ثلاثين ألف درهم)(١١٠). ومن المبلغ السابق يظهر لنا مقدار ما كان ينفقه هذا الأمير على هذه المشروعات الخيرية وبخاصة على مكاتب الأيتام.

لقد كان تأديب الأطفال يتم على قدم وساق في المسجد الحرام(١١١) وبمكاتب الأطفال به(١١٢) وبالمسجد النبوي(١١٣) وفي بلاد الشام(١١٤) واليمن(١١٥) فضلا عن مصر التي سبق الحديث عن مكاتب الأيتام بها(١١٦).

توزيع الأموال على اليتامى :

يأتي توزيع الأموال وتفريقها على اليتامى في الدرجة الأخيرة من دور الدولة التي عليها أن تهتم أولاً بحفظ ما لدى اليتامى من مال، وبإنمائه واستثماره، وبتعليم اليتامى والإنفاق على تعليمهم ثم الإنفاق العام على هؤلاء اليتامى. واشتهر سلاطين المماليك وأمراؤهم بهذا الجانب الإنساني المتمثل في بذل الأموال وإغداقها على هؤلاء اليتامى. وعلى سبيل المثال كان الظاهر بيبرس ينفق على يتامى الأجناد ما يكفيهم ويسد حاجاتهم بالرغم من كثرة عددهم(١١٧). وكانت له صدقاته السنوية التي يفرقها على الفقراء والمساكين وغيرهم(١١٨).

وقد لاحظ ابن بطوطة الرحالة الشهير (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٥م) سخاء سلاطين المماليك وأمرائهم على الأيتام وذكر أن الأمير (طشط)(١١٩) كان من خيار أمراء الناصر محمد بن قلاوون - الذي زار ابن بطوطة مصر في أيام حكمه وأثنى عليه - وأن له الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن)(١٢٠).

كما وردت إشارة عن صدقات السلطان الظاهر برقوق على العجزة والأرامل واليتامى(١٢١).

أقول: إن اليتامى في عصر المماليك لم يضيعوا في المجتمع ولم يشعروا بالدونية عن غيرهم، بل كان لديهم ما يكفيهم وكانوا يشعرون بدورهم في المجتمع ويشاركون في أحداثه وشئونه واستشهد - دليلا على ما أقول - بواقعه بدمشق حدثت سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م إبان ترميم الحائط القبلي بجامع دمشق، حيث وجد أحد الصبية الأيتام العمال وهم يبنون حائط المسجد الأمور وكان لديه سبعة دراهم، فذهب إلي جده وأخذ منه من ماله ثلاثة دراهم أخرى واشترى بالعشرة دراهم طعاماً قدمه إلى الصناع والبنائين وأطعمهم إياه. فلما سمع الناس بما فعله الصبي اليتيم تنافسوا وقام كل واحد منهم بإحضار الأطعمة للصناع، تقليد لهذا اليتيم(١٢٢).

إن هذه الحادثة البسيطة لها دلالاتها المهمة، وأبعادها الكبيرة، ومغزاها القوى، وتثبت أن اليتيم كان مكرماً في عصر سلاطين المماليك، الأمر الذي جعل هذا اليتيم يجود بما في يديه، ثقة في الله أولا، وفي دولته ومجتمعه ثانياً.

وقد ساهم أفراد المجتمع المسلم في رعاية الأيتام عصر سلاطين المماليك بكفالة اليتامى، وبإنشاء المكاتب، وبالوقف عليها، أو بالوقف العام على

شؤون اليتامى، واستوى في هذا الأمر الرجال والنساء على السواء ومن هذه الأخبار المتصلة بدور الأفراد ما ذكره الصفدي من قيام الفقيه العدل تاج الدين أبي العباس (ت ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م) من كفالة الأيتام بمصر[١٢٣]. وما ذكره ابن حجر[١٢٤] من قيام التاجر المصري المشهور أبي بكر بن علي بن أحمد (ت ٧٨٧ هـ/١٣٨٥ م) رئيس التجار في عصره من كفالة العلامة ابن حجر اليتيم في صباه الذي يقول: (فنشأت عنده مدة إلى أن مات وأنا مراهق). ومنها أيضاً قيام بعض أفراد المجتمع بإنشاء المكاتب والتعليم بها. ولدينا خبر عن قيام الفقيه المؤدب شهاب الدين أبي العباس الصالحي (ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م) بإنشاء مكتب له بدمشق والتعليم به[١٢٥]. كذلك قامت السيدة العالمة الفقيهة أم الحسين (ت ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م) بنت قاضي مكة شهاب الدين أحمد بإنشاء مكتب للأيتام بمكة ووقفت على ذلك وقفاً كافياً بمكة أيضا، فضلاً عن مآثرها الأخرى بالبلد الحرام[١٢٦]. وقام بعض الأفراد بتقديم الدوى والمحابر والاقلام والصدقات والإحسان إلى اليتامى بمكاتبهم طلبا للآجر والمثوبة. وقد اشتهر محمد بن أحمد بن علي (ت ٨٨٤هـ/١٤٧٩م) بهذا الأمر[١٢٧]. كما أوقف أفراد المجتمع الإسلامي في عصر المماليك أوقافاً على اليتامى للإنفاق منها عليهم، من ذلك وقف بلقيس (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) بنت نائب الشام حاتم بن عبد الله التي أوقفت وقفاً على سبعة أيتام بمكة[١٢٨] ضمن ما أوقفته من أوقاف خيرية. ومن هذا الوقف أيضاً وقف بيت الشريفة بمكة المكرمة الذي أصبح مدرسة ورباطاً وسبيلاً ومكتباً للأيتام[١٢٩].

وشارك الأمراء أفراد المجتمع الإسلامي في الوقف على الأيتام بصفة خاصة، فلقد أوقف الأمير شيخ سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م جميع أملاكه على ذريته، وعلى جهات البر التي منها وقفه على عشرة أيتام في كل من الحرمين الشريفين وعلى مؤدب يؤدبهم ويقرؤهم القرآن الكريم[١٣٠]. وكان لأوقاف الأيتام خاصة قاض يشرف عليها ويحفظها ويدير شئونها[١٣١].

وهكذا كان لأفراد المجتمع الإسلامي دور في كفالة الأيتام[١٣٢]، وفي إقامة مؤسسة التعليم لهم ممثلة في المكاتب، وفي الإنفاق على اليتامى وفي وقف الأوقاف ورصدها عليهم. وما تقدم أمثله – فقط – تبين هذا الدور. وبذلك يكون اليتامى الأثرياء قد وجدوا العناية اللازمة من الدولة لحفظ مالهم ويكون اليتامى الفقراء قد وجدوا أوقافاً ينفق منها عليهم، ويكون الفريقان معا قد وجدوا المكاتب التي تقوم بتأديبهم وتعليمهم وتثقيفهم.

أبرز اليتامى الأعلام من العلماء :

نبغ عدد كبير من اليتامى في عصر سلاطين المماليك، فأصبحوا قمما في علومهم أئمة في معارفهم، طبقت شهرتهم الآفاق بما ألفوا وصنفوا من كتب

وبما نشروا من علم، وبما تبوأوا من مناصب مرموقة، وبما أسدوا للمسلمين من خدمات مختلفة، ويأتي على رأس هؤلاء الأعلام النابغين.

أ- شيخ الحفاظ ابن حجر:

شيخ الإسلام وإمام الحفاظ في زمانه، وحافظ الديار المصرية، بل حافظ الدنيا مطلقاً[١٣٣]، قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني الشهير بابن حجر (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) نشأ يتيماً حيث توفي والده سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م وكان ابن حجر في الرابعة من عمره، فرعاه التاجر المشهور أبو بكر على الخروبي بوصية من والد ابن حجر، فنشأ عنده إلى أن مات التاجر الذي كان حافظاً لكتاب الله، ولبعض علوم الدين[١٣٤]. وقد دخل ابن حجر مكتب اليتامى وهو في الخامسة من عمره، ورزقه الله سرعة الحفظ، بحيث حفظ سورة مريم في يوم واحد[١٣٥]. وقد برع ابن حجر في الحديث النبوي، والتاريخ، والأدب والشعر، وله مؤلفات قيمة، وآثار حسنة منها: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» و«الإصابة في تمييز الصحابة» و«إنباء الغمر بأبناء العمر» و«الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» و«رفع الإصر عن قضاة مصر».

ومن وظائفه التي شغلها إضافة إلى التدريس والإفتاء والخطبة وظيفة القضاء التي تولاها بمصر في سلطنة الأشرف برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ /١٤٢٢-١٤٣٧م) سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م.

وابن حجر - رحمه الله نموذج مشرف لليتامى الأعلام.

ب- حافظ بلاد الشام إبراهيم الطرابلسي:

الإمام العلامة الحافظ حافظ بلاد الشام إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي الأصلي الحلبي المولد، أشهر من أن يوصف، توفي والده وهو صغير، فكفلته أمه، وانتقلت به إلى دمشق، ثم رجعت به لحلب وأدخلته أحد مكاتبها بالنشابين وكان لناصر الدين الطوشي، فحفظ به القرآن الكريم، ثم انكب على الحديث النبوي، وخصه باهتمامه حتى أصبح حجة بلاد الشام في الحديث[١٣٦].

وهو نموذج آخر فريد لليتامى الأعلام، وقد توفي حافظ بلاد الشام سنة٨٤١هـ/ ١٤٣٧م.

جـ- الفقيه عبد الرحمن التفهني:

الفقيه القاضي عبد الرحمن بن علي التفهني (ت ٨٣٥هـ / ١٤٣١م) توفي أبوه وهو صغير فانتقل من (تفهنة) إحدى قرى إقليم الغربية بمصر إلى القاهرة

وهو شاب فالتحق بمكتب الأيتام بمدرسة صرغتمش، ثم ترقي إلى أن أصبح عريفاً في الطلبة، ولازم الاشتغال بالعلم حتى ولي تدريس المدرسة الصرغتمشية بالقاهرة، وأصبح مفتياً مجيدا، وانتهت إليه - في وقته - رئاسة أهل مذهبه الحنفي، وقد فوض إليه قضاء الحنفية بمصر سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م فباشرها مباشرة حسنة(١٣٧). وهو نموذج آخر جميل لليتامى الأعلام.

د- القاضي شمس الدين الصالحي :

قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مسلم الصالحي (ت ٧٢٧هـ) كان أبوه رجلاً صالحاً من أهل القرآن، وتوفي سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م تاركاً ثلاثة أولاد وأمهم دون أن يترك لهم شيئا فنزل اليتيم محمد في أحد مكاتب دمشق لتلقي القرآن الكريم ومبادئ العلوم الإسلامية والحساب، وكان يحصل في السنة من المكتب على ستين درهما، كانت قوت الأربعة ولما كبر نشأ نشأة مباركة فاشتغل بالعلم وسماع الحديث بمكة والمدينة والشام، حتى برع في الفقه والحديث، فطار ذكره، وانتشرت شهرته، ثم تولى القضاء بالصالحية سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م فباشره أتم مباشرة، وعمر الأوقاف (وحصل بولايته خير كثير)(١٣٨). وهذا نموذج آخر طيب لليتامى الأعلام.

هـ - الشيخ بن على الأندلسى :

من النماذج التي برزت في عهد سلاطين المماليك وكانوا يتامى في صباهم الشيخ عمر بن علي بن علي بن أحمد الأندلسي (ولد سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م) وكان أبوه مقرئاً للقرآن الكريم بالأندلس ثم قدم القاهرة وتوفى والشيخ عمر يبلغ سنة واحدة من العمر، فكفله الشيخ عيسى المغربي أحد الصالحين الحافظين لكتاب الله فلقنه القرآن والعلم، حتى بز في الفقه(١٣٩).

و- الشيخ محمد الدلجى :

من هذه النماذج المشرفة أيضاً : الشيخ الفقيه محمد بن محمد الدلجي (ولد ٨٦٠هـ / ١٤٥٥م) بإحدى قرى مصر وتدعى (دلجة) فنشأ بها يتيماً وحفظ بها القرآن الكريم، ثم تحول مع عمه إلى القاهرة فقطن الأزهر، وأقبل على العلم إلى أن أصبح عالماً في الفقه وباقي علوم الدين(١٤٠).

ز- الفقيه احمد الحريرى :

ومنها كذلك الفقيه أحمد بن أحمد الحريري الدمشقي (ت ٨١٣هـ/١٤١٠م) كان أبوه يعمل بالتجارة في الحرير، وتوفي وابنه أحمد صغير فتربي يتيماً فاشتغل بالعلم وتفقه وسمع الحديث وقرأه على العديد من المشايخ حتى أصبح

حجة في الفقه والحديث، وولي قضاء بعلبك سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م ثم ولي قضاء المدينة بعد سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م ثم ولي قضاء صفد وغزة والقدس، ويقول عنه ابن حجر : (اجتمعت به وكان بيننا مودة)(١٤١).

ح - الفقيه احمد بن إبراهيم بن نصر :

يعد هذا الفقيه اللغوي من فضلاء الأعلام اليتامى، فقد ولد سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م بالقاهرة ونشأ بها فى كفالة أمه لموت والده فى مدة رضاعة الفقيه احمد، فحفظ القرآن وجوده وتعلم الفقه والتفسير والعربية والتاريخ والميقات، وأصبح علما فى الفقه واللغة بصفة خاصة، وقد أقبلت عليه الدنيا فاستغل ذلك فى عمل الخير وأنشأ مسجدا ومدرسة وسبيلا وغير ذلك من قربات. وتوفى سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م. ويذكر الحلبي(١٤٢) أن ترجمته تحتمل مجلدا كاملا.

ط- الفقيه على بن عمر المدني:

نشأ هذا الفقيه يتيما، فقد ولد بالمدينة المنورة سنة٨٦٥هـ/١٤٦٠م وتوفى والده ولم يكمل نصف سنة، فنشأ يتيما وأخذ العلم فى صباه وشبابه، وممن أخذ عنهم المحدث والمؤرخ السخاوى، وتوفى الفقيه على شابا فى الرابعة والعشرين عن خاتمة حميدة(١٤٣).

وبعد ... فما تقدم ترجمة لبعض اليتامى الأعلام الذين كان لهم ذكر في دولة سلاطين المماليك، والذين أحسن تنشئتهم وتعليمهم، وآتت هذه التنشئة السليمة، والتعليم الصحيح الثمار المرجوة والآمال المنعقدة من وراء التنشئة الواعية، والتعليم القويم.

وجملة القول أن الدولة المملوكية اهتمت باليتيم اهتماماً كبيرا، فأنشأت ديواناً خاصاً باليتامى الأغنياء لحفظ ما لهم وتنميته، وأسند هذا الديوان لثقات الفقهاء وأمنائهم ومشاهيرهم، وبعض هؤلاء الفقهاء جمع بين هذا المنصب المهم في الدولة وبين الحسبة ووكالة المال(١٤٤)، وبعضهم جمع بينه وبين ديوان الصدقات والمساجد(١٤٥)، وبعضهم جمع بينه وبين النظر في أوقاف أموال اليتامى والغائبين(١٤٦)، وبعضهم جمع بينه وبين الإشراف على الربط، وبعضهم جمع بينه وبين النظر في الجوامع والمساجد ومنها المسجد الحرام(١٤٧)، ثقة في هؤلاء الفقهاء القضاء المتولين لشئون الأيتام، وقد اجتهد هؤلاء الفقهاء القضاة في حفظ أموال اليتامى واستثمارها، وكانوا جميعاً- إلا نفراً قليلاً جداً - قد قاموا بالأيتام أتم قيام وبالغوا في حفظ أموالهم(١٤٨).

وتحمل بعضهم التنكيل والعزل من الوظيفة بسبب عدم إقراض بعض أصحاب السلطة المملوكية في بعض الأحيان من مال اليتامى أو بسبب معارضتهم لأخذ بعض المال منه[١٤٩] بسبب بعض الظروف السياسية التي مرت بها الدولة المملوكية.

وأنشأت الدولة المملوكية بسلاطينها وأمرائها، كما أنشأ أفراد المجتمع الإسلامي برجاله ونسائه المكاتب الخاصة بتعليم اليتامى في جميع أنحاء الدولة، ووفرت لها ما يلزمها من محابر وأقلام، وأنفقت على اليتامى الأغنياء والفقراء بها، وقدمت لهم الملابس، واختارت لهم كبار العلماء لتأديبهم وتعليمهم، وكان اليتامى يقضون وقتاً طويلاً في هذه المكاتب، وأوقفت الدولة والأفراد على هذه المكاتب الأوقاف التي تضمن حسن أداء المكاتب لوظيفتها التعليمية والتربوية. وقد نبغ العديد من اليتامى في كافة علوم الدين واللغة العربية.

وبالجملة فإن اليتامى لم يضيعوا في المجتمع المملوكي، ودور الدولة في الأعم الأغلب كان ممتازا[١٥٠] موفقاً فيما عدا مرات قليلة جداً لم يكن موقف الدولة فيها مقبولاً أو مستساغا مع اليتامى.

الهوامش

١- انظر ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٣ قسم١ ص ٦٤ ؛ ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب جـ ٣ ص ١٥ وص ٤٣٠ ؛ ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ ٣ ص ١٩٥؛ ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة جـ ٣ ص ٣٧٨ ؛ الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين جـ ٢ ص ٥١ ، وراجع حتى ص ٥٢.

٢- أبو عبيدة : الأموال ص ١٣٥.

٣- أبو داود : سنن أبي داود جـ ٣ ص ١٢١ ، وابن كثير : مسند الفاروق جـ ١ ص ٣٤١ و ص ٣٤٢.

٤- راجع أبا عبيد : الأموال ص ٥٤٦ - ٩٤٥ ، ص ٥٥٥ ، راجع الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ٤٥٤ ، ص ٤٥٧

٥- راجع الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٢٥ وراجع من ص ٣٢٤ : والقاضي عبد الرحمن ابن معاوية بن خديج تولى قضاء مصر للخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥هـ - ٨٦هـ).

٦- راجع الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٥٥.

٧- مما يدل أيضاً على الاهتمام باليتامى قبل العصر المملوكي ما ذكره المالكي في (رياض النفوس جـ ٢ ص ١٤٥) بالمغرب من حسن معاملة الفقيه أبي عمرو هاشم بن مسرور (ت٣٠٧هـ) لليتامي حيث كان أول ما تدخل الفاكهة يقف بالمكتب الخاص بالأيتام ويقول للمعلم : أخرج إلى من عندك من الأيتام فيشتري لهم الفاكهة ويطعمهم ويدهن رؤوسهم ويقبل بين أعينهم.

٨- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ١ ص ١٣٦.

٩- راجع ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٤؛ والعيني : عقد الجمان جـ ٢ ص١٠٧.

١٠- راجع الصفدي : الوافي بالوفيات جـ ٩ ص ٢١٢ - ٢١٣؛ أعيان العصر جـ ١ ص ٥١٥ ؛ العيني : عقد الجمان جـ ٣ ص ٣٧٣.

١١- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ٣٦٩ وراجع من ص ٣٦٧ - ٣٧٠ .

١٢ عبد العزيز بن النجم بن فهد : بلوغ القرى جـ ١ ص ٤٥٠ ؛ راجع أيضا مثالا آخر لدى الصفدى: أعيان العصر جـ ١ ص٢٩٨.

١٣- زين الدين الحلبي : القبس الحاوي جـ ١ ص ٧٣ وراجع حتى ص ٧٤ .

١٤- راجع للوقوف على رؤساء ديوان الأيتام من القضاة أيضاً : ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ١ ص ١٣٦ ، جـ ٢ ص ٣٤٩ و ص ٤٨٩ ؛ الصفدي أعيان العصر جـ ٣ ص ٢٤٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٤٥ ؛ عمر بن فهد : الدرر المكين جـ ١ ص ٣٢٩ ؛ ص ٣٣٨ ؛ السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ ، ص ٦٤.

١٥- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ٢٦٠.

١٦- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ١٩٦.

١٧- راجع ابن الجزري : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢١٢ .

١٨- ابن الجزري : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٤٣ .

١٩- راجع الصفدي : أعيان العصر جـ ٣ ص ٢٤٥ .

٢٠- راجع المقريزي : السلوك جـ ٣ قسم ١ ص ٣٥٩ ؛ جـ ٣ قسم ٢ ص ٧٦٩ ،جـ ٣ قسم ٣ ص ١١٥٦؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣٠٣ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر جـ ١ ص ١٢ وجـ ٣ ص ١٩٥.

٢١- راجع المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٩٢ طبعة بيروت.

٢٢- ينسب هذا الخان إلى مسرور أحد خدام القصر الأيوبي زمن صلاح الدين الأيوبي ، وكان مسرور صاحب بر وإحسان ، واختص بصلاح الدين وبني فندقاً في الخان المنسوب إليه . ويوجد بالقاهرة مكانان بهذا الاسم «خان مسرور»: الأول وهو كبير يوجد على يسار من سلك من سوق باب الزهومة إلى الحريريين والثاني والأخير وهو صغير فيوجد على يمين من سلك من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر : راجع المقريزي :

الخطط جـ ٢ ص٩٢.

٢٣- المقريزي : السابق والصفحة نفسها.

٢٤- راجع المقريزي : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٥١٢ ؛ جـ ٢ قسم ٢ ص ٤٥٨ ؛ ص ٤٥٩ ؛ جـ ٣ قسم ٢ ص ٥٥٦.

٢٥- راجع الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ٣٧٠ ؛ السخاوي: التحفة اللطيفة جـ٣ص٤٩٧.

٢٦- استخدمت المصادر المملوكية مصطلح (مودع الأيتام) للتعبير عن المكان الذي تحفظ فيه أموال اليتامى بمصر، وعرف هذا المكان ببلاد الشام بـ (مودع الأيتام) أيضا، وبمخزن الأيتام كذلك .ولا خلاف فى عمل هذا (المودع) أو (المخزن) وإنما هما مصطلحان -فقط- للتعبير عن المكان الذي تحفظ فيه أموال اليتامى بكل من مصر والشام فى عصر المماليك.

٢٧- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ١٩٦.

٢٨- راجع عبد العزيز بن النجم : بلوغ القرى جـ ٢ ص ١٠٥٧.

٢٩- راجع المقريزي : السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٥١٢.

٣٠- راجع عبد العزيز بن النجم : بلوغ القرى جـ ٣ ص ١٥٦٦.

٣١- الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ٣٩٠ وراجع من ص ٣٨٨.

٣٢- المقريزي: المقفى جـ٥ ص ٨٠ ؛ راجع السخاوى : التحفة اللطيفة جـ١ ص ٢١٢ .

٣٣- راجع المقريزي: السلوك جـ٣ قسم ٣ ص ١١٥٦.

٣٤- راجع المقريزي : السلوك جـ ٣ قسم ١ ص ٢٩١ ؛ راجع من ص ٢٩٠ .وتجدر الإشارة هنا إلى أن الاقتراض كان لأجل المجاورة بالحرم المكي الشريف، والا فالحج ليس فرضا على غير القادرين.

٣٥- راجع المقريزي : السابق جـ ٣ قسم ٢ ص ٦٧٩-٦٨٠ وراجع ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٢٩٦ و ص ٣٠٣، وابن حجر :إنباء الغمر جـ ٢ ص ٣٤٤.

٣٦- باعون: لم يذكرها ياقوت فى معجمه، وهى قرية قريبة من صفد بالشام. راجع الحلبى : القبس الحاوي جـ١ ص٢٢٤.

٣٧- راجع زين الدين الحلبي : القيس الحاوي جـ ١ ص ٢٢٤.

٣٨- راجع في ذلك ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٩٦ ومن ص ٢٧٧ إلى ص ٣١٧، وراجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ص ٣٤٤ وراجع المقريزي : السلوك جـ ٣ قسم ٢ ص ٦٧٨ .

٣٩- راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٣ ص ١٩٥ .

٤٠- للوقوف على عدوان تيمورلنك في هذه الفترة راجع ابن الشحنة : روضة المناظر ص ٢٩٦ و ٢٩٧ - ٣٠٣ وص ٣٠٣ و ٣٠٤ وهذا المؤرخ ابن الشحنة معاصر لهذه الأحداث، وقد قابل ابن الشحنة بحلب تيمورلنك الذي سأله عدة أسئلة عن سيدنا على ومعاوية وعن يزيد بن معاوية راجع ابن الشحنة : السابق ص ٢٩٩-٣٠٢ .وعن قتال المماليك لتيمورلنك راجع:

The Free Encylopedia. Edit period of Burji Mamelukes.

٤١ الأمير تنم: هو سيف الدين الظاهرى برقوق، تنقل فى خدمة أستاذه إلى أن ولاه نيابة دمشق. راجع السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص٤٤ -٤٥.

٤٢- الأمير علاء الدين بن الطبلاوى، هو أحد مماليك الظاهر برقوق، وينسب إلى قرية طبلاوة بالوجه البحري. السخاوى: السابق جـ١١ ص٢١٢.

٤٣- راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٤ ص ٢١٠ ؛ الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان جـ٢ ص ٩٨.

٤٤- الأمير يلبغا السلمي هو أبو المعالي الظاهرى برقوق أحد مماليكه، ووصل إلى منصب الوزارة فى أثناء حكم برقوق. السخاوى : السابق حـ١٠ ص٢٨٩-٢٩٠.

٤٥- راجع محمد أحمد: فى تاريخ الأيوبيين والمماليك ص٢٥٨ .

٤٦- راجع المقريزي : السلوك جـ٣ قسم ٣ ص ١١٥٦.

٤٧- مستوفي الدولة هو الذي يضبط مالية الدولة، وينظر في مصالح الدولة المالية راجع القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٦٦

٤٨- هذه الفترة هي فترة سلطنة السلطان محمد بن قلاوون الثالثة والأخيرة، وقد تسلطن مرتين قبلها الأولى في سنة ٦٩٣ هـ وحتى سنة ٦٩٤ هـ، والثانية في سنة ٦٩٨هـ وحتى سنة ٧٠٨هـ.

٤٩- راجع المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٣٩٣ .

٥٠- راجع المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٤٣٢ .

٥١- شاد القراريط: أي صاحب وظيفة جباية بعض المال ممن اشترى أو باع ملكا، وكان هذا المكس قد ألغي سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م في عهد الأشرف شعبان بن الناصر قلاوون، راجع السخاوي : وجيز الكلام جـ ١ ص ٢٢٤ .

٥٢- التعزير شرعا تأديب لا يبلغ الحد الشرعي. المعجم الوسيط ص٥٩٨.

٥٣- راجع المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٤٥٨.

٥٤- راجع المقريزي : السلوك جـ ٣ قسم ٢ ص ٥٥٦ .

٥٥- السخاوى : الضوء اللامع جـ ١ ص ٨٢-٨٣ .

٥٦ راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٥ ص ١٩١ .

٥٧- راجع المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٤٤٢ .

٥٨- راجع عمر بن فهد : الدرر الكمين جـ١ ص ٦١٤ وراجع من ص ٦٠٦-٦١٦.

٥٩- ابن الزمن، محمد بن عمر :ولد بدمشق سنة ٨٢٤هـ ونشأ بها وعمل بالتجارة ثم نزل مصر، واختص بالأشرف قايتباى، فعينه مشرفا للعمائر بمكة والمدينة. راجع السخاوى السابق: ج٨ ص٢٦٠-٢٦٢.

٦٠- عمر بن فهد : المصدر السابق نفسه.

٦١- السخاوى: الضوء اللامع جـ١ ص٩٤ وراجع من ص ص٩٣ -٩٨ للوقوف على ترجمة هذا القاضي ورأفته باليتامى والأرامل.

٦٢- راجع المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٢ ص ٤٥٨ .

٦٣- راجع أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص١١٣-١٢١ ؛ سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك ص١٥٢-١٥٨؛ احمد بدوى: الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ص ٣٠-٩٢.

٦٤- المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٣٧٧ -٣٧٩ طبعة بولاق وراجع : ابن عبد الظاهر : تاريخ الملك الظاهر ص ٣٤٤ .

٦٥- راجع بن الفرات : تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٩-١٠ .

٦٦- راجع ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

٦٧ المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٣ ص ٧٠٠ .

٦٨- المقريزي : السلوك جـ ٤ قسم ١ ص ٢٠٢ .

٦٩- عبد الرحمن بن الجيعان: كان ناظر الخزانة وكاتبها زمن الظاهر جقمق وتوفى ابن الجيعان سنة ٨٥٥ هـ /١٤٥١م. السخاوى: الضوء جـ٤ ص٨٥.

٧٠- السخاوي : وجيز الكلام جـ ٢ ص ٦١٤ .

٧١- السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ ص ١٣٨ وراجع حتى ص ١٤٥ وعمر بن فهد : معجم الشيوخ ص ٤٧ وراجع حتى ص ٥٠ .

٧٢- صرغتمش: هو سيف الدين صرغتمش من ماليك الظاهر برقوق ورقاه حتى جعله نائبا على الإسكندرية. السخاوى: الضوء حـ٣ ص٣٢٢.

٧٣- راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٨ ص ٢٦٧ .
٧٤- راجع السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ ص ٢٦٤ ؛ راجع زين الدين الحلبي : القبس الحاوي جـ ٢ ص ٦٧ .
٧٥- السخاوي : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٦٤ .وراجع ترجمة الأمير جانم السيفى من ص٦٤-٦٥.
٧٦- راجع الفاسي : العقد الثمين جـ ٢ ص ٣١٤ .
٧٧- راجع ابن فهد : معجم الشيوخ ص ٧١ وراجع من ص ٧٠ - ٧٨ وهذا ما ذكره السخاوى (التحفة جـ٣ صـ٤٨٣ ط طرابزرنى) فى إشارة أخرى ليتيم آخر الحق بالمكتب فى سن الخامسة من عمره.
٧٨- السخاوى : السابق نفسه جـ٣ ص٤٨٣. ويذكر هنا أن بعض الصبية دخلوا المكتب فى سن السابعة. أحمد شلبي: تاريخ التربية ص٣٠٣.
٧٩- راجع السخاوي : الضوء جـ ١ ص ١٣٨ ، وراجع ابن فهد : السابق ص ٤٧ وراجع حتى ص ٥٠ .
٨٠- ابن طولون : مفاكهة الخلان ص ١٢٣ .وهذا هو ما أكدته إحدى الوثائق الموجودة بوزارة الأوقاف ، وهى وثيقة رقم (١١٤٣ق) وفيها تحديد وقت تلقى العلم من قبل الواقف من صحوة النهار إلى زوال الشمس يوميا.
٨١- ابن طولون : السابق نفسه والصفحة نفسها ؛ محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ٢٧١؛ عصام جمال: دور الوقف في التعليم بمصر ، ص ٧٦، ١٢٢ .
٨٢- سعيد عاشور: مصدر سابق ص ٣٦٧.
٨٣- القلقيلى نسبة الى قليقليا بين نابلس والرملة وذكرها السخاوى: الضوء جـ١ ص٢٦٣، ولم يذكرها ياقوت فى معجمه.
٨٤- راجع السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ ص ٢٦٤ .
٨٥- ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ١٦٢-١٦٣ .
٨٦- ابن طولون : مفاكهة الخلان ص ١٢٣ . وقد أكدت وثيقة وقف السلطان حسن علي ما كان يتقاضاه اليتامي من نفقة بالمكتب وكسوة بلغت الآلاف راجع ص ٤٠٩ بكتاب «تذكرة النبيه» جـ٣ لابن حبيب. وراجع محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ٢٦٨؛ عصام جمال: دور الوقف في التعليم بمصر ص٧٥.
٨٧- راجع ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٨٥-٢٨٦ .
٨٨- ابن طولون : مفاكهة الخلان ص ١٢٣ . وذكرت وثيقة وقف السلطان حسن ما كان ينفق علي المكاتب في ثمن الألواح والمداد والأقلام والدوي والحصر. راجع الوثيقة السابقة في الكتاب السابق جـ ٣ ص٤٠٩ -٤١٠.
٨٩- راجع ابن طولون : المصدر السابق والصفحة نفسها.
٩٠- راجع السخاوي : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٩٨ .
٩١- راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٨ ص ٢٥٢ و ٢٦٧ .
٩٢- محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، ص ٢٦٦؛ وعصام جمال: دور الوقف في التعليم بمصر ص ٧٥، ١٢١.
٩٣- محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص ٢٦٦-٢٦٧.
٩٤- ابن فهد : معجم الشيوخ ، ص ٧١.
٩٥- العيني : عقد الجمان جـ ٤ ص ٤٧٦.
٩٦- خصص ابن الأخوة الباب السادس والأربعين للحسبة على مؤدبي الصبيان .وذكر أن المحتسب عليه أن يلزم المؤدب بعدم استخدام أحد من الصبية فى حوائجه والا يضرب الصبية بعصا غليظة ولا فى المواضع التى يخشى منها حدوث مرض أو كسر ، بل يضرب الأفخاذ وأسافل الرجلين. معالم القربة ص٢٦١-٢٦٢.
٩٧- راجع السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ ص ٢٨٠ .
٩٨- لم تنص المصادر التي اطلعت عليها- وما أكثرها- على حدوث مشكلة كبرى لليتامى بخلاف ما ذكرته ، وبطبيعة الحال فإنه يمكن حدوث ضرب لبعض اليتامى فى المكتب ولكن بغير ظروف حادثة الضرب

سنة٩٠٣هـ/١٤٩٧م.

٩٩- راجع المقريزي: السلوك (حوادث سنة ٧٦٢ص٦٠) وابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ قسم١ ص٥٧٥؛ راجع السخاوي: وجيز الكلام جـ١ ص ١١٣؛ راجع حادثة أخرى يسيرة مشابهة لهذه الحادثة، وقعت سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م لدى المقريزي: السلوك جـ ٤ قسم ٢ ص ٨٠٣. ولم تذكر الموسوعة الحرة المفتوحة مقتل الأطفال الأيتام بسبب وقوع هذه المئذنة H Sultan Hassan Mosque htt/ en. Wiki pedia, org, wiki/ Sultan Hassan Mosque Page 1 of 2.
كذلك لم يشر عبد الرحمن زكى فى كتابه (القاهرة ص١٢٧) إلى وفاة هؤلاء الأيتام عند سقوط ئذنة مسجد ومدرسة السلطان حسن.

١٠٠- راجع عبد الغنى محمود عبد العاطي: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك. رسالة ماجستير بآداب القاهرة ص ١٦٩.

١٠١- كاتب السر وظيفة ديوانية يقوم صاحبها بقراءة الكتب الواردة على السلطان أو نائبه وأجوبتها . محمد دهمان : ولاة دمشق ص٢٩.

١٠٢- عبد العزيز بن النجم : بلوغ القرى جـ ٢ ص ١٠٥٠ .

١٠٣- راجع حياة حجي: أنماط من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ص ٦٠.

١٠٤- راجع هامش (٩٦).

١٠٥- راجع ابن طولون : مفاكهة الخلان ص ١٢٣ .

١٠٦- العيني : عقد الجمان جـ ٣ ص ٣٦٠ .

١٠٧- راجع ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ قسم ١ ص ٥٣٤ .

١٠٨ - راجع عبد العزيز بن النجم : بلوغ القرى جـ ٢ ص ١٠٥٠ ؛ راجع السخاوى : التحفة جـ٣ ص٤١٠.

١٠٩- الأمير جانبك الجداوى : أحد مماليك الظاهر جقمق وولاه نائب جدة، وأثرى فأنشأ مدرسة وكتابا للايتام. السخاوى: الضوء جـ٣ ص ٥٧-٥٩.

١١٠- السخاوي : وجيز الكلام جـ ٢ ص ٧٢٩ .وراجع فقهاء مؤدبين آخرين الفاسى:العقد الثمين جـ١ ص٤١٣و ٤٣٥ وجـ٢ ص٢٧٩، ٣١٤؛ جـ٤ ص٨٥ وجـ٨ ص١٧ ؛ السخاوى: الضوء جـ١ ص١٠ و٢٢ و١٧٠و ١٨١و٢٢٦و ٢٦٣و ٢٧٩؛ جـ٢ ص٢و٨و٣٦و١٠٩؛ جـ٣ ص ١٩و ٩٨و١١١؛ جـ٤ ص ٩٨-١٠٠.

١١١ - عن ذلك راجع الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ٢٨٦ وص ٤١٣ وص ٤٣٥ وجـ ٢ ص ٣١٤ وجـ ٤ ص ٨٥ و جـ ٨ ص ١٧ وراجع السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ ص١٧٠ وجـ ٢ ص ١٠٩ وجـ ٣ ص ١٠٢ وجـ ٥ ص ٨٩ وجـ ٩ ص ١٣٤ و ١٦٦و١٨٣وراجع ابن فهد : معجم الشيوخ ص ٢٢٣.

١١٢- راجع الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ٣١٤ .

١١٣- راجع السخاوي : الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٢٣-٢٤ والتحفة اللطيفة جـ ١ ص ٩٤ و ص ٤٥٣، وجـ ٢ ص ١٣٥و ص ٣٥٩ و ص ٥٠٥ .

١١٤- راجع السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ ص ١٠ ؛ وابن فهد : معجم الشيوخ ص ٢٣٠ و ٣٧١ ؛ابن الحمصي : حوادث الزمان جـ ١ ص ٣١٧؛ ابن طولون : مفاكهة الخلان ص ١٥٩ .

١١٥- راجع الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ٤٣٣ .

١١٦- راجع أيضاً السخاوي : الضوء اللامع جـ ١ ص ٢٢٩ و ٢٧٩ ؛ جـ ٣ ص ١١١

١١٧- ابن شداد : تاريخ الملك الظاهر ص ٣٠١ .

١١٨- ابن شداد : السابق والصفحة نفسها .

١١٩- الأمير طشط: هو احد أمراء الناصر محمد بن قلاوون، واسندت اليه نيابة دمشق سنة ٧٧٨ هـ، وت سنة ٧٨٤هـ. محمد دهمان: ولاة دمشق ص٢٣٥.

١٢٠- ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ص ٦٢ .

١٢١- راجع ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ قسم ١ ص ٥٢٥ .
١٢٢- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ٢٦٠ وراجع من ص ٢٥٨
١٢٣- الصفدي : أعيان العصر جـ ١ ص ٢٩٨ .
١٢٤ - ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ص ١٩٧.
١٢٥- ابن الجزري : حوادث الزمان جـ ٣ ص ٩٧٩.
١٢٦- راجع الفاسي : العقد الثمين جـ ٨ ص ٣٣١.
١٢٧- راجع زين الدين الحلبي : القبس الحاوي جـ ٢ ص ١١٠.
١٢٨- راجع عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى جـ ٢ ص ٩٨٤.
١٢٩- ابن فهد : اتحاف الورى جـ ٤ ص ٦١٩ -٦٢٠. وعن اهتمام النساء المسلمات باليتامى فى عصر المماليك راجع السخاوى: الضوء جـ١٢ ص٤٥و٤٦و٤٩و٧٠و٨٦و٩٨و١٤٧.
١٣٠- راجع المقريزي : السلوك جـ ٣ قسم ٣ ص ١١٥٩.
١٣١- راجع المقريزي : السلوك جـ٢ قسم ٢ ص ٤٤٢.
١٣٢- راجع أخبارا أخرى عند ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٨ ص ٢٥٢ ؛ وزين الدين الحلبي : القبس الحاوي جـ ٢ ص ١٢-١٣.
١٣٣- السيوطي : طبقات الحفاظ ص ٥٥٢-٥٥٣.
١٣٤- راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٢ ص ١٩٧. وراجع السخاوى : الضوء جـ٢ ص٣٦-٤٠.
١٣٥- ابن فهد : معجم الشيوخ ص ٧١ وراجع من ص ٧٠-٧٨.
١٣٦- راجع ابن فهد : السابق ص ٤٧-٥٠ . والسخاوى: الضوء جـ١ ص١٣٨.
١٣٧- راجع ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٨ ص ٢٥٢ و ص ٢٦٧.
١٣٨- ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ٢ ص ١٦٢-١٦٣ وراجع ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٢٦.
١٣٩- راجع زين الدين الحلبي : القبس الحاوي جـ ٢ ص ١٢-١٣.
١٤٠- راجع زين الدين الحلبي : السابق جـ ٢ ص ٣٤٤-٣٤٥.
١٤١- ابن حجر : إنباء الغمر جـ ٦ ص ٢٤٤.
١٤٢- الحلبى: القبس الحاوى جـ١ ص١٢٢وراجع من ص١٢٠.
١٤٣- السخاوى: التحفة اللطيفة جـ٣ ص٢٤٢-٢٤٣.
١٤٤- راجع العيني : عقد الجمان جـ ٢ ص ١٠٧.
١٤٥- راجع المقريزي : السلوك جـ ١ قسم ٣ ص ٧٤١.
١٤٦- راجع السخاوي : الضوء اللامع جـ ٢ ص ١٩١.
١٤٧- راجع عبد العزيز بن النجم : بلوغ القري جـ ١ ص ٤٥٠ ؛ الصفدي : أعيان العصر جـ ٣ ص ١٤٧، وراجع الفاسي : العقد الثمين جـ ١ ص ٣٧٠، عمر بن فهد : الدر الكمين جـ ١ ص ٣٣٨، ؛ السخاوي: الضوء اللامع جـ ١ ص ٦٤، وراجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ٤٨٩.
١٤٨- راجع ابن الجزري : تاريخ حوادث الزمان جـ ٢ ص ٣٦٩، عمر بن فهد : الدر المكين جـ ١ ص ٣٢٩، وراجع زين الدين الحلبي : القبس الحاوي جـ ١ ص ٧٣.
١٤٩- مر تناول هذا الموضوع باستفاضة وراجع عنه أيضاً المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٣ ص ٦٧٢؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ١٦ ص ٥٩ ؛ حوادث الدهور جـ ٢ ص ٤٢٨و٤٢٩و٤٩٦-٤٩٧.
١٥٠- مر نقد مخالفات الدولة المملوكية لوظيفتها مع اليتامى في بعض المرات وراجع أيضاً المقريزي : السلوك جـ ٢ قسم ٣ ص ٦٩٦.

المصادر والمراجع

اولا: الوثائق:

– وثيقة وقف الأمير السيفى الظاهرى على طلبة العلم بالحرم المكي سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م، أرشيف وزارة الأوقاف بمصر رقم (١١٤٣ق) أوقاف قديمة.

– وثيقة وقف شاهين بن عبدالله على اليتامى. دار الوثائق القومية بالقلعة رقم(٦٢).

– وثيقة وقف السلطان حسن علي مصالح القبة والمسجد الجامع والمدارس ومكتب السبيل بالقاهرة. نشرها محمد محمد أمين ضمن بحث «مصارف أوقاف السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون» ملحقا بالجزء الثالث من كتاب «تذكرة النبيه في أيام وبنيه» لابن حبيب. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦.

ثانيا: المصادر:

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٠م).

– أسد الغابة في معرفة الصحابة. طبعة دار الشعب – مصر

ابن الأخوة (محمد بن محمد ت٧٢٩هـ/١٣٢٩):

– معالم القربة فى أحكام الحسبة، تحقيق محمد شعبان وصديق المطيعى، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٦.

ابن إياس (محمد بن أحمد ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) :

– بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابن بطوطة (محمد بن محمد ت ٧٧٠هـ /١٣٦٨م):

– رحلة ابن بطوطة . دار الكتب العلمية – بيروت .

ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م):

– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية بيروت.

– حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين . عالم الكتب، د.ت.

ابن الجزري (محمد بن إبراهيم ت ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧م) :

– تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت .

ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨م) :

– الإصابة في تمييز الصحابة. مكتبة المثنى ببغداد – مطبعة السعادة بمصر جـ٣.

– إنباء الغمر بأبناء العمر، دار الكتب العلمية – بيروت جـ٢–٨.

ابن الحمصى (أحمد بن محمد ت ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م):

- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية–صيدا–بيروت.
زين الدين الحلبي (عمر بن أحمد ت ٩٣٦هـ / ١٥٢٩م):
- القبس الحاوي لغرر ضوء السخاوي، تحقيق حسن إسماعيل وخلدون حسن . دار صادر .بيروت.
السخاوي (محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ / ١٣٩٦م):
- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة. دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٤ه ؛ طبعة طرابزرنى جـ٣.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . دار مكتبة الحياة – بيروت.
- وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق بشار عواد وعصام الحرستاني وأحمد الخطيمي، مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م:
ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م):
- الطبقات الكبرى، دار التحرير – القاهرة.
السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م):
- طبقات الحفاظ . دار الكتب العلمية – بيروت.
ابن الشحنة (محمد بن محمد ت ٨١٥هـ / ١٤١٢م):
- روض المناظر في علم الأوائل والأواخر، تحقيق سيد مهني، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
ابن شداد (عز الدين محمد بن علي ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م):
- تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط نشر فرانز شتاير ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
الصفدي (صلاح الدين خليل ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) :
- الوافي بالوفيات، فيسبادان. جـ ٩، اعتناء فان إس.
- أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق د علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر – دمشق ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م:
ابن الصيرفي (علي بن داود ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م :
- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب المصرية ١٩٧٠م.
ابن طولون (محمد بن علي ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م).
- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان : وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) :
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب : دار الكتب العلمية بيروت.
ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) :

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر - الرياض.
أبو عبيدة (أبو عبيدة بن سلام ت ٢٢٤هـ / ٨٣٨م) :
- الأموال. دار الفكر - بيروت.
العيني (بدر الدين محمود ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م):
عقد الجمان في تاريخ الزمان، تحقيق محمد محمد أمين - الهيئة المصرية العامة للكتاب. جـ٢و٣و٤.
الفاسي (محمد بن أحمد ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م):
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مطبعة السنة المحمدية، تحقيق فؤاد سيد ومحمد حامد الفقي ود محمود الطناحي.
- ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م):
تاريخ ابن الفرات . ج،٨ نشر قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين.
ابن فهد (عمر بن فهد، النجم ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) :
- اتحاف الورى بأخبار أم القرى. جـ ٤ تحقيق عبد الكريم باز، جامعة أم القرى مركز إحياء التراث الإسلامي مكة المكرمة، وجـ ٣ تحقيق فهيم محمد شلتوت.
- معجم الشيوخ، تحقيق محمد الزاهي، دار اليمامة السعودية.
- الدر الكمين بذيل العقد الثمين، تحقيق عبد الملك دهيش، مكتبة الأسدي بمكة ١٤٢٥هـ/١٤١٨م.
القلقشندي: (أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/١٤١٨م):
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٥م.
ابن كثير (إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) :
- البداية والنهاية. مكتبة المعارف - بيروت.
- مسند الفاروق. دار الوفاء - المنصورة - مصر.
الكندي (محمد بن يوسف ت في ق ٤ هـ):
- الولاة والقضاة .هذبه كست مؤسسة قرطبة.
المالكي (عبد الله بن محمد ت بعد ٤٧٤هـ / ١٠٨١م):
- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي بيروت.
المقريزي : (أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م):
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد زيادة ود سعيد عاشور دار الكتب المصرية.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، نسخة طبعة بولاق وأخرى طبقة دار صادر - بيروت.
- المقفى الكبير، تحقيق مجمد اليعلاوى، حـ٥، دار الغرب الإسلامى، بيروت.

ابن النجم : (عبد العزيز بن النجم بن فهد ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م):
- بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق صلاح الدين خليل إبراهيم وعبد الرحمن حسين وعليان المحليدي، دارالقاهرة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م مصر.
النويري (أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م):
- نهاية الأرب في فنون الأدب، الهيئة المصرية للكتاب.
ياقوت (ياقوت بن عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م):
- معجم البلدان . دار إحياء التراث - بيروت.

ثالثا: المراجع العربية :

- أحمد أحمد بدوى: الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر.
- أحمد شلبى: تاريخ التربية الإسلامية، النهضة المصرية ١٩٧٦م.
- حياة ناصر الحجى : أنماط من الحياة السياسية الاقتصادية والاجتماعية فى سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، الكويت ١٩٩٥ م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيين والمماليك فى مصر والشام. دار النهضة العربية- بيروت ١٩٧٠م.
- عبد الرحمن زكى : القاهرة : تاريخها وآثارها. الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.
مجموعة من الباحثين: المعجم الوسيط ط دار الدعوة- استانبول .
- محمد أحمد دهمان: ولاة دمشق فى عهد المماليك. دار الفكر. دمشق ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- محمد أحمد محمد : فى تاريخ الأيوبيين والمماليك. مكتبة الرشد . الرياض ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨-٩٢٣/١٢٥٠-١٥١٧م) دراسة تاريخية وثائقية. دار النهضة العربية.

رابعا: الرسائل الجامعية:

- عبد العاطي محمود عبد الغنى : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك. رسالة ماجستير بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٥.
- عصام جمال سليم غانم: دور الوقف في التعليم بمصر «١٢٥٠-١٧٩٨م» رسالة ماجستير بمعهد الدراسات التربوية - جامعة القاهرة ٢٠٠٤م.

خامسا: المراجع الأجنبية:

Wikipedia,The Free encyclopedia.

http://en.Wikipedia.org/wiki/sultan Hassan Mosque.

د. حصة عبدالرحمن الجبر (*)

النقود والموازين والمكاييل ومقاييس الطول والمساحة في بعض بلاد المشرق الإسلامي إقليم الجبال وخراسان وسجستان أنموذجاً

المقدمة :

موضوع البحث هو النقود والمكاييل والموازين والمقاييس في بعض بلاد المشرق الإسلامي خلال العصر العباسي الثاني اقليم الجبال، اقليم خراسان وإقليم سجستان أنموذجاً وهذا الموضوع لم يطرق من قبل سوى ما ورد من معلومات متناثرة في كتب وكتالوجات النقود الإسلامية، وكتب المكاييل والموازين.

وأريد التنبيه إلى أن تسمية بلاد المشرق في بعض المراجع هي بلاد فارس أو النسبة إلى فارس (فارسي)، منطقة الحضارة الفارسية نظراً للاشتراك في اللغة الفارسية، أما إيران فهي التسمية الحالية لبلاد المشرق. ويؤيد ذلك ما ذكره [فالترهنتس] عند الحديث عن الذرع والذراع أن أهم ذرعين هما الذرع الشرعي والذرع الأصفهاني[1] أما ما يختص بإقليم فارس يكون واضحاً بذكر كلمة إقليم قبله أو تحديد المدن الواقعة في إقليم فارس. أما فترة البحث وهي العصر العباسي الثاني فالمعني بها الفترة من سنة ٢٣٢ – ٤٠٠ هـ .

وسوف أبدأ بالتعريف بأقاليم البحث جغرافيًا من حيث الموقع وأهم المدن، ثم الحديث بالتفصيل عن النقود ، والموازين والمكاييل ومقاييس الطول والمساحة.

---

* أستاذ التاريخ المساعد – جامعة الملك سعود – الرياض

١ - إقليم الجبال، أو قوهستان التي تعني إقليم الجبل بالفارسية:

اسم علم للبلاد المعروفة باصطلاح العجم بالعراق (أو عراق العجم) تمييزاً له عن العراق[٢] ويشمل البلاد الجبلية الممتدة من سهول العراق والجزيرة في الغرب إلى مفازة فارس الكبرى في الشرق، وأشهر المدن همذان وكانت قاعدة الإقليم في عهد السلاجقة، والريِ وكانت في عهد بني بويه في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، مقراً لدواوين الدولة ،وقد عرفت الرىّ بـ (المحمدية) لأن محمداً المهدي، الخليفة العباسي أقام بها (١٥٨هـ – ١٦٩هـ) زمن والده الخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦هـ – ١٥٨هـ) وبنى أكثر مدينة الري خلال وجوده بها ومدينة أصفهان، وكانت أوسع بلاد الجبل وكانت قصبتها جي، ثم صارت اليهودية، مدينة الدينور (ماه الكوفه) وسميت بذلك لأن مالها كان يُحمل في أعطيات أهل الكوفة، شهرزور، زنجان، قُم، قاشان، وقزوين، وقرميسين (كرمان شاه)، نهاوند، كرج[٣].

٢ - خراسان:

بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق، جوين وبيهق وآخر حدودها مما يلي الهند و طخارستان وغزنه وسجستان وكرمان، وأشهر المدن فيها نيسابور (إيرانشهر)، طوس، وهراة، بلخ وهي القاعدة، ومرو وكانت قاعدة أيضاً، وبوشنج، والطالقان، ونسا وأبيورد وسرخس، وباذغيس وغرجستان[٤].

وخير ما قيل عن أشهر المدن في خراسان: «مرو التي قامت بها الدنيا، وبلخ وإليها المنتهى ونيسابور فلا تُنسى»[٥] .

٣ - سجستان أو سيستان:

واسمها الفارسي سكَستان[٦] وهي البلاد الشمالية حول بحيرة زره الكبيرة وفي شرقها[٧] .

وأشهر مدنها: زرنج، وهي القاعدة، كش، نه، الطاق، القرنين، خواش، غزنين، فره، زالق (الزالقان)، كركويه، بست وهي قصبة كبيرة، وروذان، هيسوم، وبغنين، وبنجهير[٨] وانفرد المقدسي بجعل سجستان من خراسان[٩] وهو غير صحيح.

أولاً: النقود:

كانت النقود المستخدمة في بلاد المشرق هي الدرهم والدينار وفي أقاليم هذا البحث وهي خراسان، الجبال، سجستان. ورد كثيراً في ثنايا المصادر الجغرافية والتاريخية ذكر النقود المستعملة وهي الدرهم الفضي والدينار الذهبي[١٠] إلا أن الدينار في بلاد الجبل يأتي في المرتبة الأولى ويتضح هذا من قول بن حوقل: «ونقود أهل هذه النواحي الذهب والفضة ويغلب الذهب على الفضة»[١١].

١- الدرهم:

درهم :فارسي، معرب دِرَم [١٢] ودِرَم: معرب الكلمة اليونانية: دراخما، وهي عملة فضية متفاوتة الوزن حسب العصور. وزنة تعادل ستة دوانق وكل دانق قيراطان[١٣]. وورد في المصادر عن أوزان بلاد المشرق أن العشرة من الدراهم تعادل سبعة مثاقيل [١٤] وهي مساوية لدراهم الإسلام المعدلة كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل [١٥] والمثقال في الأصل مقدار من وزن أي شيء كان قليل أو كثير، والناس يطلقونه في العرف على الدينار خاصة [١٦]. ووزن الدرهم الذي هو وزن سبعة - وهو الدرهم الشرعي يساوي ٢,٩٧٥ جرام، ووزن المثقال الشرعي يساوي ٤,٢٥ جراماً[١٧]. والدرهم ستين حبة من حب الخردل [١٨] وزنة الدرهم الواحد خمسون حبة وخمسا حبة من الشعير، ويسمى المثقال من الفضة درهماً ومن الذهب ديناراً[١٩].

قال هنتس: «إن تحديد وزني المثقال والدرهم بالنسبة لإيران (ويقصد بلاد المشرق) ينطوي على صعوبات بالغة . ويبدو أن وزن المثقال بقي حتى أوج العصور الوسطى يستند إلى وزن درهم الكيل الساساني القديم زنة ٤,٣ غم[٢٠] وقد ناقش «هنتس» وزن الدرهم الفارسي (ويقصد به درهم بلاد المشرق خلال فترة البحث) الذي يتناسب مع هذا الوزن في العصور الوسطى وخلص، إلى أن وزن الدرهم على النسبة ١٠ : ٧ = ٣,٢٢ غرام واقترح «هنتس» معدلاً لوزن الدرهم الفارسي (المشرقي) قدره ٣,٢ غم[٢١].

كانت الدراهم التي ضُربت في الأقاليم المشرقية المعنية بالبحث في العصر العباسي عبارة عن قطع مستديرة من الفضة [٢٢] رُتبت الكتابة عليها في دوائر متوازية يكتب في أحد الوجهين أسماء الله تهليلاً وتحميداً مع الصلاة على النبي وعلى آله (صلى الله عليه وسلم) وعلى الوجه الثاني يُذكر التاريخ واسم الخليفة[٢٣]، وذلك على غرار الدرهم المضروب في العصر الأموي وفقاً للطراز الذي اتخذه الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان واستقر الوزن على وزن الدرهم الشرعي[٢٤] وكانت الدراهم الفضية التي ضُربت زمن الدويلات المستقلة في الشرق المرتبطة بالخلافة العباسية لا تخلو من ذكر اسم الخليفة المعاصر إلى جانب أسماء الحكام بصرف النظر عن الظروف والأحوال والمكان ومهما كانت العلاقات الشخصية بين الطرفين[٢٥] أما الكتابة على العملة فتكاد تتطابق مع الكتابة على العملة المضروبة بعاصمة الخلافة. وأغلب المسكوكات الإسلامية حينذاك كُتبت بالخط الكوفي[٢٦].

أما بالنسبة لدور الضرب فقد أشارت مصادرنا إلى وجود عدد منها في بعض مدن أقاليم المشرق المعنية بالبحث خلال فترة الدراسة (العصر العباسي) مثل: أصبهان (أصفهان) وبالفارسي (أسباهان)، والري والمحمدية، الدينور

(ماه الكوفه) والتيمره، وشق التيمره، وجيّ، وقم في إقليم الجبال، وبلخ، ومرو، هراة، نيسابور، سرخس في إقليم خراسان، زرنج، سجستان في إقليم سجستان[٢٧] وغيرها مما هو متوفر في نماذج العملات الموجودة في المصادر نقلاً عن المتاحف .

٢-الدينار :

قال صاحب المعجم الاقتصادي: «أصله دِنَّار بتشديد النون، بدليل قولهم في الجمع: دنانير، وفي التصغير: دنينير، فقلبت إحدى النونين ياءً لئلا يلتبس بالمصادر التي تجيءُ على فِعال[٢٨] وقيل أصله بالفارسية: دينْ آرْ، أي الشريعة جاءت به والدينار معرب الكلمة اليونانيه(ديناريوس) وهي عملة ذهبيه قديمة الأستعمال والدينارستون حبة وقيل ستًا وستين حبة والحبة تساوي حبة الشعير، أو حبة الخردل البري، وهو يساوي ٤,٢٥ جرام.

ويسمى المثقال من الذهب ديناراً ويختلف سعر الدينار باختلاف جوهره، وقيل الدينار هو وزن إحدى وسبعين شعيرة ونصف شعيرة تقريبا، على أساس أن الدانق ثماني حبات، فيكون الدينار ثمان وستون وأربعة أسباع حبة[٢٩].

وقد حافظ العباسيون على الشكل العام للدينار الأموي من حيث الشكل العام والوزن والقطر إلا أنهم وضعوا (محمد - رسول - الله) كل كلمة في سطر في ثلاثة أسطر متتالية في المأثورة الوسطى من الظهر عوضاً عن سورة الإخلاص[٣٠]. وكلمة (لله) في أعلى المأثورة الوسطى وهي تعني أن هذه النقود من أموال الزكاة ، وقد بدأ ظهور أسماء الخلفاء وألقابهم على الدنانير منذ عهد الخليفة هارون الرشيد(١٧٠-١٩٣ هـ/٧٨٦-٨٠٩ م)، ثم ظهرت أسماء أولياء العهد، والولاة، والوزراء، ثم ظهرت أسماء المدن على الدنانير منذ سنة ١٩٨ هـ بشكل متقطع، وبدأ ذكر اسم المدينة على الدنانير العباسية باستمرار منذ عهد الخليفة المعتصم(٢١٨-٢٢٧ هـ/٨٣٣-٨٤٥ م)[٣١].

ومن حيث الشكل العام للدنانير توجد دائرة بكل من الوجه والظهر تحصر بداخلها نصوص كتابات الدينار[٣٢].

أما الفلوس النحاسية فلم تشر مصادرنا إلى فلوس سكت في أقاليم المشرق المعنية في البحث خلال فترة البحث. سوى ما أشار إليه المناوي[٣٣] بضرب عملة النحاس في العراقين و هي بلاد العراق و العراق العجمي وهو إقليم الجبل كما ذكرنا في التوطئة الجغرافية .

وفيما يلي عرض لنماذج من النقود (الدنانير والدراهم) التي ضُربت في هذه الدور وصورها مرتبة حسب الأقدمية دون التقيد بالنوع:

١-الدينار المضروب في مدينة مرو سنة ٢٣٤ هـ .

القياس ١, ٢١ مم ، ١٨, ٤ غ

الوجه



المعتز بالله

المدار الداخلي :

بسم الله ضرب هذا الدينر بمرو سنة ٢٣٤ هـ

المدار الخارجي :

لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ

يفرح المؤمنون بنصر الله (الروم آية ٤، ٥)

الظهر



لله

المتوكل على الله

محمد رسول الله أرسله بالهدى

ودين الحق ليظهره على الدين كله

المعتز بالله ولي العهد

(٣٤) .

٢-الدرهم النادر المضروب في مدينة أصبهان من إقليم الجبل سنة ٢٤٣ هـ في عهد الخليفة أبي الفضل جعفر المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ).

القياس : ٢٧ مم ، ٣،١٣ غ .

الوجه



لا إله إلا الله وحده لا شريك له

المعتز بالله

لله الأمر ... إلخ

الظهر



لله

محمد رسول الله

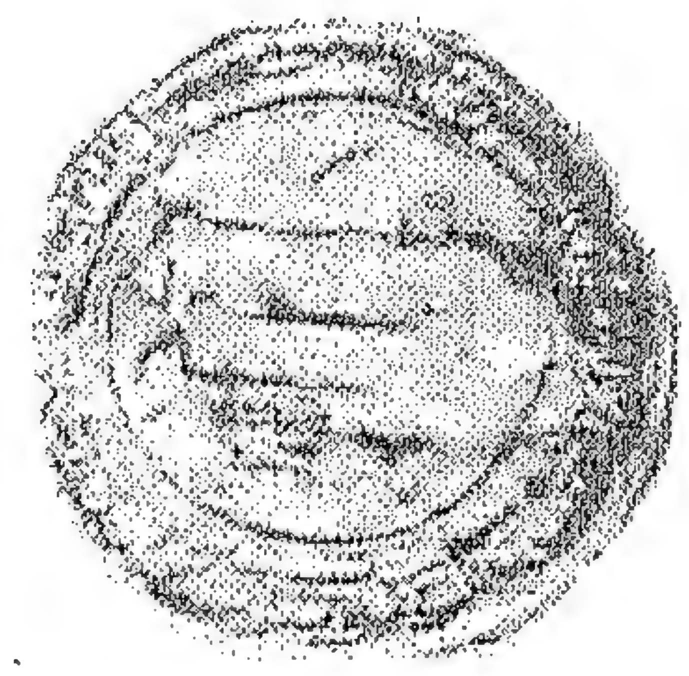
المتوكل على الله

(٣٥) .

٣-الدرهم النادر المضروب بمدينة الدينور (ماه الكوفه) في إقليم الجبال سنة ٢٤٣ هـ في عهد الخليفة أبي الفضل جعفر المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) .

القياس : ١, ٢٧ مم ، ٣,٠٣ غ .

الوجه



المعتز بالله

لله الأمر ... إلخ

(٣٦) .

الظهر



لله

المتوكل على الله

٤- الدينار الذي ضُرب في مدينة المحمدية من إقليم الجبال سنة ٢٤٥ هـ في عهد الخليفة أبي الفضل جعفر المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) .

القياس ٢٠,٥ مم ، ٤,١٠ غ

الوجه



المعتز بالله

المدار الداخلي :

بسم الله ضرب هذا الدينر بالمحمدية سنة ٢٤٥ هـ

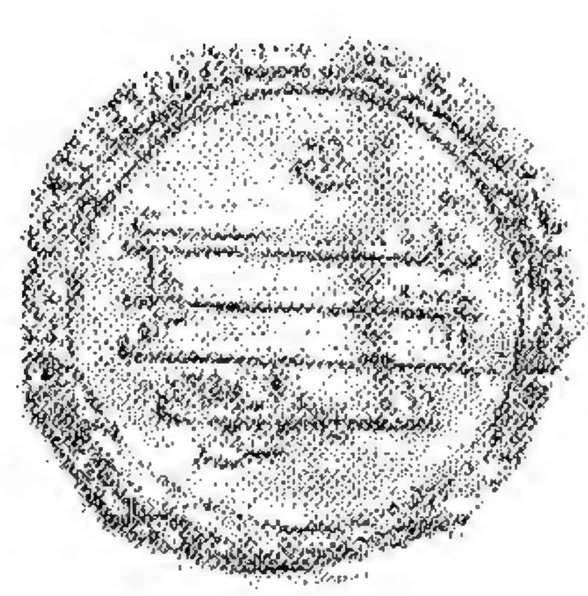
المدار الخارجي :

لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ

يفرح المؤمنون بنصر الله

(٣٧).

الظهر



لله

المتوكل على الله

محمد رسول الله أرسله بالهدى

ودين الحق ليظهره على الدين كله

المعتز بالله ولي العهد

٥- الدرهم المضروب في مدينة قم مــن إقلــيم الجبال سنة ٢٤٧ هــ في عهــد الخليفــة أبــي الفضل جعفر المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧ هــ).

القياس : ٨, ٢٠ مم ، ٢٨, ٣ غ .

الوجه



بسم الله ضرب هذا الدرهم في قُم

سنة ٢٤٧ هــ

لله الأمر ... إلخ

الظهر



لله

المتوكل على الله

محمد رسول الله أرسله بالهدى

ودين الحق ليظهره على الدين كله.

والدرهم خالياً من لقب ولي العهد ، ومثقوب (٣٨) .

٦- ورد اسم ولي العهد على الدنانير والدراهم العباسية في فترة البحث ومثال ذلــك الــدرهم المضروب في أصبهان سنة ٢٤٩ هــ في عهد الخليفة المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥١ هــ / ٨٦٢ - ٨٦٥ م) ونصوص هذا الدرهم كالتالي:

الوجه



مركز لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

العباس بن

أمير المؤمنين

الظهر



مركز لله

محمد

رسول

الله

المستعين بالله

هامش : محمد رســول الله ... ولــو كــره المـــــــــــــشركون

هامش داخلي : بسم الله ضرب هذا الدرهم بأصبهان سنة ٢٤٩ هــ

هامش خارجي : لله الأمر ... إلخ

(٣٩) .

٧- الدرهم المضروب في مدينة مرو في إقليم خراسان سنة ٢٥٠ هـ في عهد الخليفة المستعين بالله (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ).

القياس : ٥, ٢١ مم ، ١٣, ٤ غ .

الوجه



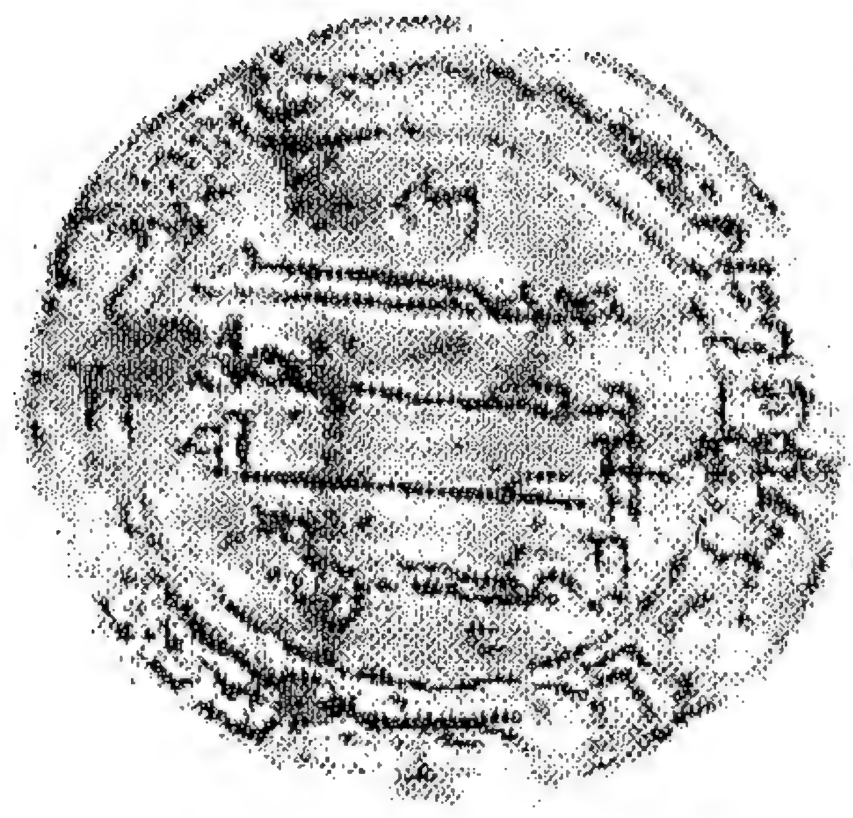
العباس بن

أمير المؤمنين

هامش داخلي : بسم الله ضرب هذا الدرهم بمرو سنة ٢٥٠ هـ

هامش خارجي : لله الأمر ... إلخ

الظهر



لله

المستعين بالله

هامش : محمد رسول الله ... ولو كره المشركون

والدينار نادر حسب قول العش (٤٠) .

٨- الدرهم المضروب في مدينة أصبهان من إقليم الجبال سنة ٢٧٢ في عهد الخليفة أبو العبـاس أحمد المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ - ٨٩٢ م) .

الوزن : ٣,١٢٠ غم ، القطر : ٢٤ مم .

الوجه



لا إله إلا

الله وحده

لا شريك له

الناصر لدين الله

الموفق بالله

أحمد بن عبد العزيز

هامش خارجي :

لله الأمر من قبل ومن

بعد ويومئذ يفرح

المؤمنون بنصر الله

هامش داخلي :

بسم الله ضرب هذا

الدرهم بأصبهان سنة

اثنتين وسبعين ومايتين

الظهر



لله

محمد

رسول

الله

المعتمد على الله

ذو الوزارتين

هامش :

محمد رسول الله أرسله

بالهدى ودين الحق

ليظهره على الدين كله

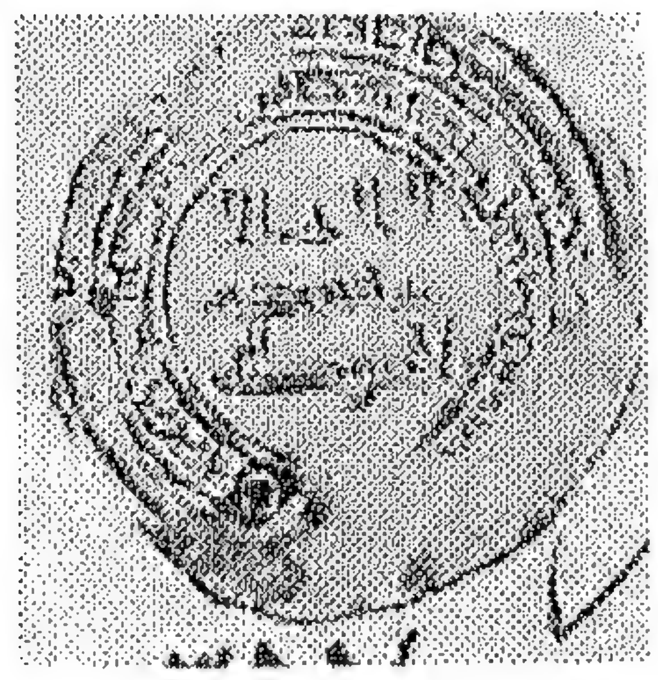
ولـــو كـــره المـــشركون

(٤١) .

٩-الدرهم المضروب في مدينة الدينور (ماه الكوفه) من إقليم الجبال سنة ٢٨٨ هـ في عهد الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) .

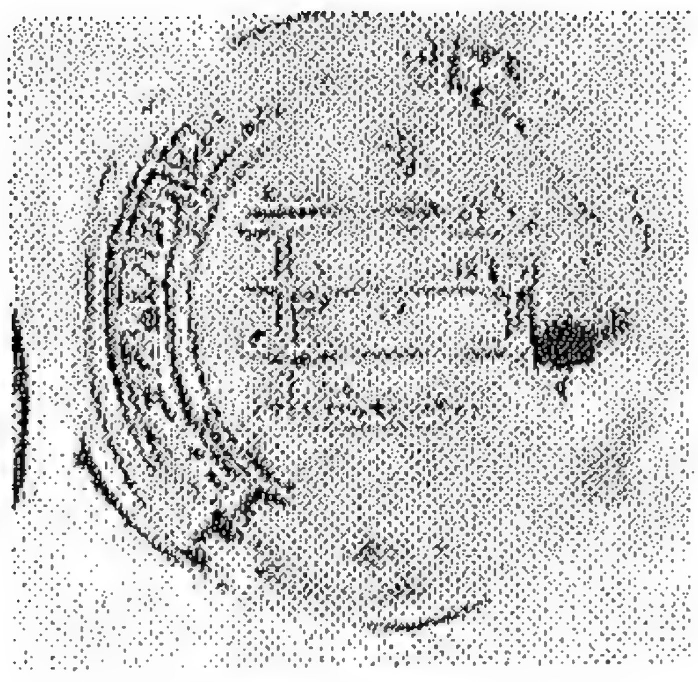
الوزن : ٢,٧٧٠ غم ، القطر : ٢١ مم . مثقوب في الحافة .

الوجه



لا إله إلا
الله وحده
لا شريك له

الظهر



لله
محمد
رسول
الله
المعتضد بالله

النطاق :
بماه الكوفة سنة ثمان وثمانين وماتين (هكذا)

الطوق :
لله الأمر ... إلخ

الطوق :
محمد رسول الله ... إلخ

(٤٢) .

١٠-الدينار المضروب في مدينة قم من إقليم الجبال سنة ٢٩٢ في عهد الخليفة أبو محمد علي المكتفي بالله (٢٨٩ – ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ – ٩٠٨ م) ونصوصه كالتالي :

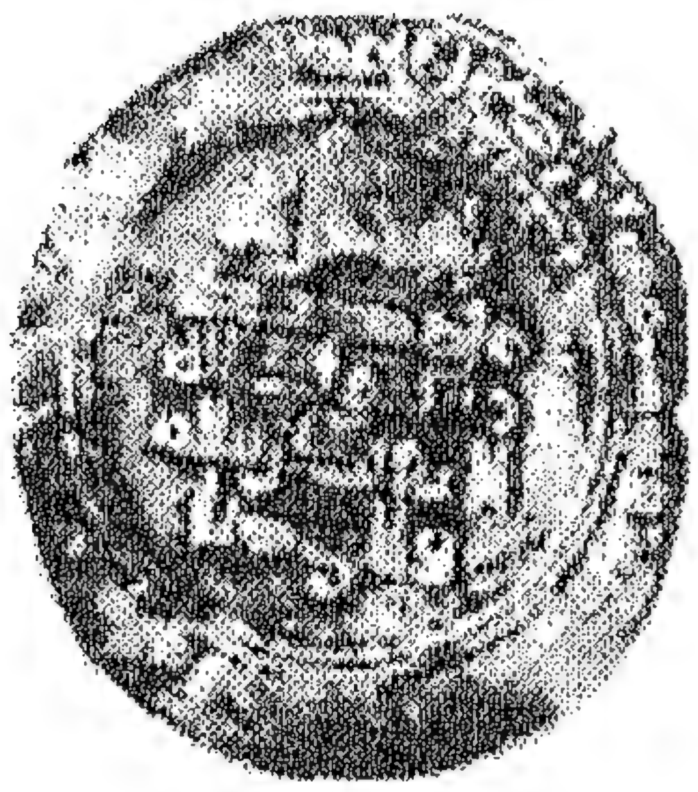
الوجه	الظهر
مركز :	مركز :
لا إله إلا	لله
الله وحده	محمد
لا شريك له	رسول
	الله
	المكتفي بالله
هامش داخلي : بسم الله ضرب هذا الدينر بقم سنة اثنتين وتسعين ومائتين	هامش : محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (سورة الفتح آية ٢٩ وسورة الصف آية ٩).
هامش خارجي : لله الأمر ... إلخ	

ولم تتوفر لنا صورة لهذا الدينار (٤٣) .

كما يوجد درهم بنفس البيانات أعلاه ولكن مدينة الضرب أصبهان وبزيادة عبارة (ولي الدولة) في مركز الوجه بعد (لا شريك له). (٤٤)

١١-الدرهم النادر المضروب في سجستان سنة ٣٠٦ هـ في عهد الخليفة جعفر المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) .

القياس : ٢٧,٥ مم ، ٢,٢٠ غ .

الوجه	الظهر
	
والوفا	بالشكر لله
لا إله إلا	محمد رسول الله
الله وحده	المقتدر بالله
لا شريك له	والرضا
كثير بن أحمد	
والعـ[ـد]ل	
١ - هامش داخلي : بسم الله ضـرب هـذا الدرهم بسجستان سنة ست وثلاثمائة	محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحـق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون
٢ - لله الأمر ... إلخ	

وهذا الدرهم يختلف بمأثوراته عن الدراهم العادية إذ ورد فيه اسم كثير بن أحمد بن شهفور الـذي تغلب على إقليم سجستان في عهد الخليفة المقتدر بالله وقوطع على خمسمائة ألف درهم وأُقرّ على الإقليم (٤٥) .

١٢-الدينار المضروب في عام ٣٧٢ هـ في عهد الأمير الساماني نوح الثاني ابن منصور (٣٦٥هـ -٣٨٦ هـ) وهو دينار تقليدي من الفترة الأخيرة للعصر الساماني فيه اسم الأمير نوح بن منصور، و مدينة السك نيسابور عاصمة إقليم خراسان بالإضافة إلى اسم حاكم خراسان في ذلك الوقت و هو حسام الدولة.



(٤٦).

ثانياً:الموازين:

تتفق أوزان أقاليم بلاد المشرق المعنية في هذا البحث - وهي إقليم الجبال، وإقليم سجستان - وأقليم خراسان في الغالب مع بقية الأوزان المستخدمة في كثير من البلدان الإسلامية، إلا أن هناك اختلافاً في الأوزان أحياناً بين إقليم وآخر بل وبين مدينة وأخرى في الإقليم نفسه(٤٧). والمعروف عن أهل المشرق الإسلامي أنهم كانوا يؤثرون الوزن على الكيل(٤٨) وكان عندهم من وحدات الوزن الآتي:

الأوقية ، المنّ ، تشارك ، الرّطل ، الدانق ، طسُوج ، الخرْوَار .

وفيما يلي تفصيل الحديث عن هذه الوحدات واختلاف معاييرها بين إقليم وآخر ومدينة وأخرى:

١- الأوقية:

زنة سبعة مثاقيل، وقيل زنة أربعين درهماً. ويختلف مقدارها في البلدان كاختلاف الأرطال(٤٩) وفي بلاد المشرق الأوقية تساوي عشرة دراهم وثلثان(٥٠). أما] هنتس [فقد ذكر أن الأوقية تساوي ١/ ١٢ من الرطل مع بعض الاستثناءات القليلة(٥١).

٢- المَنُّ :

لغة في المنا الذي يوزن به وجمع المنا أمناء، والمَنُّ كيل أو ميزان والجمع أمنان وهو يساوي شرعاً رطلين[٥٢] كل رطل ١٣٠ درهما[٥٣] ويساوي مائتان وستون درهماً، كما يساوي ست وعشرون أوقية، فتكون أوقيته عشرة دراهم[٥٤].

قال «ابن منظور»: وأما الأرطال والأمناء فللناس فيها عادات مختلفة في البلدان وهم معاملون بها ومُجرَون عليها»[٥٥] ويؤكد ذلك ما ذكره المقدسي عن اختلاف المنّ في مدن إقليم الجبال أن منّ سائر الإقليم أربعمائة درهم، ومنّ الريّ ستمائة درهم ويساوي ١٩٢٠ غم ورطلهم ثلاثمائة درهم[٥٦]. ومنّ الري اعتبره [هنتس] المنّ الفارسي الثالث الذي ظهر في أوائل العصور الوسطى كان اللحم يوزن بالريّ بالرطل، وآلات الصيادلة توزن بمنّ خراسان ، وهذا دليل على تبادل استعمال الموازين في بعض الأقاليم(٥٧)، ومَنّ أصفهان ثلاثمائة درهم، ومَنّ اليهودية همذاني[٥٨] مما يؤكد ما ذكرناه أعلاه من تبادل استعمال الموازين في أقاليم المشرق، كما يؤكد ما ذكرناه في بداية الموازين عن اختلاف الأوزان في الأقاليم والمدن. وفي سنة ٤٤٤ هـ كان المنّ والنصف من خبز القمح في أصفهان يساوي درهماً عدلاً، وكذلك كانت الثلاثة أمنان من الشعير تساوي درهماً بشهادة [ناصر خسرو] الذي كان شاهد عيان في أصفهان حينها[٥٩]. وليس المعاين كالمُخبر.

وكان المنّ في بلاد المشرق أهم وزن من أوزان البضاعة[٦٠]. ويحل محل الرطل في جميع الأحوال فحين يتحدث الجغرافيون عن الرطل فإن ما يقصدونه غالباً هو المَنّ[٦١].

٣-تشارك : Carak

وزن فارسي يساوي ربع المن[٦٢].

٤- الرّطل:

يكسر الراء وفتحها، والكسر أفصح والجمع أرطال [٦٣] الذي يوزن به ويكال؛ وهو اثنتا عشرة أوقية بأواقي العرب والأوقية أربعون درهما، وقيل الرطل مقدار منّ [٦٤]. وذكر "الخوارزمي" أن الرطل يساوي نصف منّ والمنّ مائتان وسبعة و خمسون درهماً و سبع درهم، وبالمثاقيل مائة وثمانون مثقالاً، وبالأواقي أربعة و عشرون أوقية، وَ تابعه في ذلك صاحب المعجم الاقتصادي[٦٥] و يبدو أنه هو الأصح.

وسبق أن ذكرنا عند الحديث عن المنّ في الفقرة السابقة أنه يحل محل الرطل في بلاد المشرق إلا أن "المقدسي" ذكر منّ الري وأنه يساوي ستمائة درهم وأن رطلهم يساوي ثلاثمائة درهم(٦٦).

٥-الدّانق :

الدانق من الأوزان المعروفة و هو معرب الكلمة الفارسية (دانك، دانَكَ) ومعناها حبّة أي نوع من الحبوب و الجمع دوانق و دوانيق (٦٧) وهو زنة تعادل ثمان حبات قمح أو حبتين من بذر الخرنوب أو ثمان حبات و خُمساحبة من حبات الشعير المتوسطة التي لم تقشر و يساوي سدس الدرهم كما يساوي قيراطين(٦٨).

٦- تاسو Tasu

وحدة وزن فارسية، معربة طَسُوج وتساوي ربع دانق (١/٤) أو ١/٢٤ مثقال(٦٩).

وذكر] ابن سِيدة [أنه حبتان من الدانق، وتابعه في ذلك صاحب (الميزان في الأقيسة والأوزان)(٧٠).

٧-الخروار : خَرْوار :

حمولة الحمار؛ وزن يعادل ٣٠٠ كغم تقريباً (٧١). و كان الخروار يستخدم في وزن البضائع ولا أدل على ذلك من قول ناصر خسرو: [س والقافلة التي صحبناها في الطريق كانت تحمل ثلاثمائة و ألف خروار من البضائع»(٧٢).

ثالثاً : المكاييل :

المكاييل الشائعة في أقاليم المشرق المعنية بالبحث هي القفيز والجريب والمكوك(٧٣) والكيلجه(٧٤) .

(أ) القفيز:

مكيال تكال به الأشياء والجمع أقفزة وقُفزان(٧٥)، وهو معرب (كَفيز) Kafiz على وزن مويز(٧٦) وقد أصبح القفيز مكيالاً في بلاد المشرق بتأثير العرب، وذلك لأن الفرس يؤثرون الوزن على الكيل(٧٧) والقفيز الأصلي يساوي ٣٣ لتراً حسب تقدير «الريس»، وهو الفارسي أي الخاص ببلاد المشرق الذي يساوي ٦٤ رطلاً أو ١٢ صاعاً أو ٤٨ مداً(٧٨) أو ٨ مكاكيك(٧٩) ويتعاملون بأجزاء القفيز كيلاً نصف قفيز وثلث وربع؛ كل واحد منها كيل قائم بذاته ولهم - أيضاً - كيل صغير وهو جزء من أربعة وعشرين جزءاً من القفيز(٨٠) وهو يعادل لتراً ونصف اللتر تقريباً.

(ب) الجريب:

وله معنيان فهو مقياس للمساحة، وهو أيضاً من المكاييل وهو في الحالتين عشرة أقفزة، والجمع أجربه وجربان، وهو ليس عربياً [٨١] أصله كَرى Gari وهو في الأصل مكيال مطلق أو مقياس[٨٢] وفي بلاد المشرق كان الجريب دائماً يساوي عشرة أقفزة[٨٣] ولكن الجريب في إقليم الجبال يساوي عشرة أقفزة وستة أكف[٨٤] ومع هذا كانت مكاييل الجريب تختلف من مدينة لأخرى من مدن أقاليم المشرق ويتضح ذلك في مكاييل بعض مدن إقليم الجبال فمدينة أردستان مثلاً الجريب فيها يساوي سبعة عشر منًا، وجريب مدينة اليهودية يساوي ثلاثة عشر بالأردستاني[٨٥].

(جـ) المكوك:

المكوك طاس يشرب به ويكال كالصُوَاع وفسر (ابن عباس) رضي الله عنه قوله تعالى: «صواع الملك» بقوله : كهيئة المَكُوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية يشرب به[٨٦]، وهو مكيال معروف والجمع مكاكيك ومكاكيٌ، ويختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه في البلاد [٨٧] أما في بلاد المشرق فالمكوك يساوي نصف القفيز [٨٨]، وبما أن القفيز الأصلي يساوي ٣٣ لتراً - كما مر معنا [٨٩] إذن فالمكوك = ١٦,٥ لتراً.

(د) الكَيْلجَة :

الكيلجة مكيال و الجمع كيالج و كيالجة[٩٠] وهو مكيال فارسي الأصل (مشرقي)[٩١] والكيلجة: منًا وسبعة أثمان منًا[٩٢]. وذكر أحد الدارسين أن الكيلجة تساوي ١/٣ (ثلث) مكوك تساوي ١/٨ ١ (واحد و ثمن) منّ وتساوي٤/١٠ ١٥٢٣ (ألف وخمسمائة وثلاث وعشرين وأربعة أعشار) غرام من القمح أي لترين. . . . ، ثم يضيف: و كانت تدعى آن ذاك كيلا ، و أغلب الظن أن هذا المكيال هي الكيلة بعينها التي تساوي ثمانية أقداح و تساوي ١/٢ ٧ (سبعة و نصف) لتر، وحينما لحقت بالكيلة لاحقة (جي) اعتمدها الأتراك على السعة الفارسية وأصبحت تساوي ثمانية أقداح و تساوي ١/٢ ١٦ لترا[٩٣].
وفي رأيي الشخصي أن إلحاق (جي) بالكيلة لتصبح كيلجي أو كيلجة بعد التحريف يؤكد أنها مكيال مشرقي؛ إذ أنه دليل على نسبتها إلى مدينة (جيّ) إحدى مدن إقليم الجبل الذي هو أحد أقاليم المشرق المعنية بالدراسة في هذا البحث -كما مر معنا.

وقد كانت كيلجة القمح في إيران (بلاد المشرق) في أوج العصور الوسطى وأواخرها تبلغ على الدوام ١/٦ (سُدس) قفيز، وكيلجة الشعير ١/٥ (خُمس) قفيز وكان القفيز يساوي ١/١٠ (عُشر) جريب[٩٤].

ونفهم من هذه الأوزان والمكاييل أن هناك اختلافاً بين الوحدات المستعملة في الوزن والكيل بين مدينة وأخرى، وكذلك بين إقليم وغيره من الأقاليم، وربما أدى ذلك إلى بعض البلبلة بالنسبة للمعاملات التجارية.

رابعاً: مقاييس الطول والمساحة

كانت مقاييس الطول والمساحة المستعملة في أقاليم المشرق المعنية في البحث و هي إقليم الجبال وإقليم خراسان وإقليم سجستان هي الجريب و القفيز والذراع والفرسخ والميل و البريد و السكة و المرحلة[٩٥].

١ - الجريب: [٩٦]

بنوعيه الصغير والكبير الذي يساوي ثلاثة أجربة وثلثين من الأجربة الصغيرة[٩٧] وكان الجريب هو وحدة المساحة الرسمية المعتمدة لقياس الأ راضي الزراعية وتحديد الأملاك والقطائع ووظائف الخراج[٩٨]، والجريب من الأرض مقدار معلوم الذراع والمساحة و هو قدر ما يزرع فيه ذلك[٩٩]. وهو معرب كري (Gari) وهو مطلق مكيال أو مقياس[١٠٠].

أما الجريب الصغير في بلاد المشرق فهو يساوي ستين ذراعاً بذراع المَلِك أي ثلاثة آلاف وستمائة ذراع شرعية، وذراع المَلِك هي ذراع المساحة[١٠١] وطوله ٦٦,٥ سم. ولكن «الريّس» قدَّره ٦١,٦ سم[١٠٢] وقياس ذراع المَلِك عند الجغرافيين تسع قبضات[١٠٣]. والقبضة تساوي أربعة أصابع وتتأرجح تبعاً لطول الذراع[١٠٤].

وكان الجريب كمقياس شرعي للمساحة يساوي شرعاً في أوائل العصور الوسطى وفي أوجها ١٠٠ قصبة مربعة، التي تعادل ١٥٩٢ متراً مربعاً، والقصبة تساوي ٣٩٩ سم = ٣,٩٩ متر حسب تقدير هنتس[١٠٥] [وقد قدّرها] الريّس ٣٦٩.٦ سم[١٠٦]، وعليه فمساحة الجريب الصغير في بلاد المشرق تساوي ١٣٦٦,٠٤١٦ متراً مربعاً[١٠٧]. وبما أن الجريب الكبير يساوي ٣ وثلثين بالجريب الصغير- كما أسلفنا - فهو يبلغ ٥٨٣٧ وثلث متر مربع وفي أواخر العصور الوسطى صار الجريب مساحة مربعة طول ضلعها ٣٢ وثلثين جيز(أي ذراع فارسي كما سنذكر لاحقاً) والجيز يبلغ طوله ٩٤,٧٤٥ سم ويساوي ١٠٦٦ جيز مربع [١٠٨].

٢-القفيز:

كمقياس للأرض = ١/١٠ (عُشر) جريب أو ٣٦٠ ذراعاً مربعا. ومساحته = ١٥٩,٢ متراً مربعاً [١٠٩] وقدَّره] الرّيس ١٣٦.٦ متراً مربعاً [١١٠].

٣-الذرع والجيز والآرش:

وهي مسميات للذراع في بلاد المشرق و فيما يلي التعريف بها:

(أ) ذرع:

هو الاسم المفضل للذراع في بلاد المشرق (ويدعى أيضاً جيز وذراع) وأهم ذرعين هما الذرع الشرعي والذرع الأصفهاني[١١١]، والذرع الشرعي يتطابق مع الذراع الشرعية العربية التي تساوي ٤٩,٨٧٥ سم . وكان الفرسخ الواحد = اثنا عشر ألف ذراع شرعي[١١٢] وذكر (الماوردي) أن طول الفرسخ = اثنا عشر ألف ذراع مرسلة وتسعة آلاف ذراع هاشمية[١١٣].

(ب) جيز (كَز) Gaz:

اسم فارسي للذراع التي كثيراً ما يطلق عليها ذرع وذراع في بلاد المشرق وكان يساوي في المعدل حوالي ٩٥ سم في القرن ٥ هـ / ١١ م ؛ وطول كل ذراع (كَز) أربعة وعشرون إصبعاً من أصابع اليد توضع بالعرض جنباً إلى جنب وهي ست قبضات[١١٤].

(جـ) آرش :

آرش مقياس طوله ذراع[١١٥]. وهو اسم الذراع باللغة الفارسية وكان نادراً نسبيًا (١١٦) وقد أشار] ناصر خسرو [إلى أن جيز الملك أو ذراع الملك أقل بقليل من واحد ونصف(٢/١ ١) آرش [١١٧] ويقدر] هنتس [الآرش الواحد بحوالي ٦٤ سم[١١٨].

٤ - الفرسخ :

هو فارسي معرب «فرْسَنْك»[١١٩]، وهو المسافة المعلومة من الأرض ويساوي ثلاثة أميال وكل ميل أربعة آلاف ذراع هاشمية أو اثنا عشر ألف ذراع أو عشرة آلاف ذراع [١٢٠]. والميل الواحد يساوي حوالي ٢ كم [١٢١] وعليه فإن الفرسخ يساوي ٦ كم.

٥- الميل:

بكسر الميم، والميل من الأرض قدر منتهى مدّ البصر، والجمع أميال وميول وأميُل وكل ثلاثة أميال تساوي فرسخ أي الميل ٣/١ (ثلث) فرسخ[١٢٢]. وسبب تسميته بالميل لأنهم كانوا ينصبون على الطرق أميالاً لمعرفة الخطى التي مشوها، فيجعلون على رأس كل ثلاثة آلاف ذراع بناء كهيئة الميل يكتبون فيه العدد الذي مشوه. والميل يساوي ستة وتسعون ألف إصبع ويساوي ثلاثة آلاف ذراع باعتبار الذراع اثنان وثلاثون إصبعاً عند أهل الهيئة القدماء،

ويساوي أربعة آلاف ذراع باعتبار الذراع أربعة وعشرون أصبعا عند المحدثين[١٢٣]. وهي الذراع المرسلة كما ذكر ابن منظور[١٢٤] وكل ميل يساوي ألف باع وكل باع يساوي أربعة أذرع شرعية، كما أن الميل الواحد يساوي حوالي ٢ كم[١٢٥]. وفي الوقت الحاضر الميل يساوي ١,٦ كم.

٦- البريد و السكة و المرحلة :

- البريد و السكة :

البريد: كلمة فارسية يُراد بها في الأصل البَرْد وأصلها (بريده د م) أي محذوف الذنب، لأن بغال البريد كانت محذوفة الأذناب كالعلامة لها فعربت وخففت . ثم سمي الرسول الذي يركب دابة البريد بريداً . أما السكة فتطلق على الموضع الذي كان يسكنه العمال والرسل، أو سعاة البريد، وكان يرتب في كل سكة بغال . وكانت المسافة بين كل منزلين من منازل السفر تساوي بريداً كما أن المسافة بين السكتين تسمى بريداً أيضا، وكل سكة من سكك البريد تبلغ اثنا عشر ميلاً و كان ما بين السكتين يساوي فرسخين وقيل أربعة فراسخ ؛ كما أن البريد يساوي فرسخين[١٢٦] وعلى هذا الأساس يتطابق البريد مع السكة لاسيما وأن هنتس يرى أن البريد قد يصل إلى أربعة فراسخ أيضاً [١٢٧].

- المرحلة :

مفردة المراحل، والمرحلة المنزلة يُرتحل منها ، وما بين المنزلين مرحلة[١٢٨] وهي على هذا الأساس تساوي البريد لأن المسافة بين كل منزلين من منازل السفر تساوي بريداً – كما ذكرنا أعلاه –. أما قياسها بالفراسخ فهي لا تزيد عن ستة فراسخ كما وردت عند المقدسي(١٢٩) قياساً بالمصادر الأخرى ذلك لأن المرحلة تساوي ستة فراسخ والفرسخ يساوي ستة كيلو مترات أي المرحلة تساوي ٣٦ كيلو متراً .

الخاتمة :

من خلال البحث توصلنا للنتائج التالية:

١- أن تسمية بلاد المشرق في بعض المراجع هي: بلاد فارس أو النسبة إلى فارس (فارسي)، أو منطقة الحضارة الفارسية نظراً للاشتراك في اللغة الفارسية، أما إيران فهي التسمية الحالية لبلاد المشرق.

٢- كانت النقود المستخدمة في أقاليم هذا البحث وهي: إقليم الجبال و إقليم خراسان و إقليم سجستان هي الدرهم الفضي و الدينار الذهبي، إلا أن الدينار في بلاد الجبل يأتي في المرتبة الأولى .

٣- أن الفلوس النحاسية لم تسك في أقاليم المشرق المعنية في البحث فيماعدا إقليم الجبال.

٤- أن أوزان أقاليم بلاد المشرق المعنية في هذا البحث تتفق في الغالب مع بقية الأوزان المستخدمة في كثير من البلدان الإسلامية ، إلا أن هناك اختلافاً في الأوزان أحياناً بين إقليم و آخر بل و بين مدينة و أخرى في الإقليم نفسه .

٥- أن أهل المشرق كانوا يؤثرون الوزن على الكيل و كان عندهم من وحدات الوزن الآتي: الأوقية ، المن ، تشارك ، الرطل ، الدانق ، طسّوج ، الخروار.

٦- المكاييل الشائعة في أقاليم المشرق المعنية في البحث هي: القفيز و الجريب و المكّوك و الكيلجة.

٧- مقاييس الطول و المساحة المستعملة في المشرق المعنية في البحث هي: الجريب بنوعية الصغير و الكبير ، والقفيز ، والذرع - و هو الاسم المفضل للذراع في بلاد المشرق و يدعى أيضاً جيز (كَز-GAZ) كما يسمى آرَش باللغة الفارسية - ثم الفرسخ ، والميل ، وأخيراً البريد والسكة والمرحلة.

الهوامش :

١ - هنتس: فالتر : المكاييل والأوزان الإسلامية ، ترجمة كامل العسلي ، الجامعة الأردنية ، عمان ١٩٧٠ م ، صـ ٩٣ .

٢ - ابن حوقل: أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩ م، صـ٣٠٤-٣١٦، المقدسي: محمد بن أحمد : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة خياط، بيروت، بدون تاريخ، صـ٣٨٤-٣٩٤، ياقوت: ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان، جـ٢ صـ ٩٩، ١٠٣، لسترنج: كي: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرانسيس و كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٠٥ هـ، صـ ٢٢١ - ٢٢٢.

٣ - المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ ٢٩٤ ، ياقوت:معجم البلدان ، جـ٣ ، صـ١٣٨؛ لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ، صـ٢٢٠-٢٢٢ ، ٢٢٤-٢٢٥ .

٤ - ابن حوقل: صورة الأرض ، صـ٣٧١-٣٧٣ ، ٣٧٨؛ المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ٢٩٤-٢٩٥ ، ٢٩٩، ٣٠٦ ، ٣١٤ .

٥ - المقدسي: أحسن التقاسيم، صـ٢٩٤.

٦ - التونجي: محمد: المعجم الذهبي، فارسي-عربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠ م، صـ٣٤٩.

٧ - لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، صـ٣٧٢-٣٧٣.

٨ - ابن حوقل: صورة الأرض صـ٣٧٥، المقدسي:أحسن التقاسيم، صـ٢٩٧ ، ٣٠٤-٣٠٦، ياقوت: معجم البلدان، جـ٣ ، صـ١٣٨ ، ١٩٠-١٩١ .

٩ - أحسن التقاسيم صـ٢٩٧؛ ابن منظور: محمد بن مكرم: لسان العرب ، دار لسان العرب، بيروت، بدون تاريخ، جـ ١، صـ ١٣٠ . المناوي: محمد عبد الرؤوف : النقود والمكاييل والموازين، تحقيق رجاء السامرائي ، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ، ١٩٨١ م، صـ ٣٦ - ٣٧.

١٠ - ابن حوقل: صورة الأرض ، صـ ٣١٠، ٣١٣، ٣١٧، ٣٥٠-٣٥١، ٣٥٧، ٣٨٩، المقدسي: أحسن التقاسيم صـ٣١٧، ٣٤٠، ٣٩٠، ٤٠٠، خواندمير: محمد بن خاوند شاه: روضة الصفا، ترجمة أحمد الشاذلي ، الدار المصرية للكتاب، بدون مكان و بدون تاريخ ، صـ٩٦ ، ١٠٥-١٠٦، ١١٣، مجهول المؤلف: كتاب سجستان النص الفارسي، ترجم جزء منه أحمد الخولي ، دار حراء، القاهرة، بدون تاريخ، صـ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٥٧، باريزي: ابراهيم باستاني: يعقوب بن الليث الصفار، ترجمة محمد فتحي يوسف الريس، دار الرائد العربي، بدون تاريخ، صـ ٤٢، ٥٦، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩٢، ١١٢، ١٤٥.

١١ - صورة الأرض ، صـ٣١٧ .

١٢ - ابن سيده: علي بن اسماعيل: المخصص، دار الفكر، بدون مكان و بدون تاريخ، المجلد الثالث صـ٢٧، ابن كمال باشا: أحمد بن سليمان: رسالة في تحقيق الكلمة الأعجمية ، تحقيق أحمد الحسيسي، عبد الكريم الزبيدي، ١٩٨٥ م، بدون مكان، صـ ٢٧، نور الدين آل علي: التعريب، صـ ١٩٣.

١٣ – التونجي: المعجم الذهبي ، فارسي-عربي ، صـ٢٦٣-٢٦٤ .

١٤ - الاصطخري: إبراهيم بن محمد: مسالك الممالك، دي غويه، مطبعة بريل، ليدن ١٩٢٧م، صـ١٥٦. ابن حوقل: صورة الأرض، صـ ٢٦٢ .

١٥ - البلاذري: أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، صـ ٤٥١ ، ٤٥٣؛ ابن منظور : المصدر السابق، جـ ٣ ، صـ ٣٢٣. المقريزي: تقي الدين أحمد بن عبد القادر: النقود الإسلامية ، مطبعة الجوائب، قسطنطينة، ١٢٩٨ هـ، صـ ٣ - ٥ - ٧ - ٨. الكرملي: الأب انستانس ماري: النقود العربية وعلم النميات، المطبعة العصرية، القاهرة، ١٩٣٩ م، صـ٣٧ – ٨٣، صـ ١٠٥ – ١٠٧. نقلاً عن ابن خلدون، جـ ١ ، صـ ٤٦٥ .

١٦ - ابن سيده: المخصص، المجلد الثالث، صـ٢٦٣، المناوي: محمد عبد الرؤوف: النقود والمكاييل والموازين تحقيق رجاء السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ١٩٨١ م، صـ ٣٩، الشرباصي: المعجم الاقتصادي صـ ٤٠٣؛ المقدسي: صـ ٣٨٩ – ٣٩٠ – ٣٩٣ – ٣٩٨.

١٧ - النقشبندي: ناصر السيد محمود: الدرهم الإسلامي المضروب على الطراز الساساني، المجمع العلمي، بغداد، ١٣٨٩هـ، جـ ١، صـ ٤- ٥، - ١٠، الحسيني: محمد باقر: تطور النقود العربية الإسلامية ، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٦٩ م، صـ ٥٢ – ٦٢؛ الريس: المرجع السابق، صـ ٣٥٢ – ٣٥٤ .

١٨ - المناوي: النقود و المكاييل و الموازين، صـ ٨٠.

١٩ - المعجم الاقتصادي: صـ ١٥٢.

٢٠ - المكاييل والأوزان الإسلامية : صـ ١٥ .

٢١ - المرجع نفسه: صـ ١٥ – ١٧ .

٢٢ - ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد: العبر و ديوان المبتدأ و الخبر، مكتبة المدرسة و دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩ م، جـ ١، صـ ٤٦٤؛ الكرملي : أنستاس ماري: النقود العربية و علم النميات، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٣٥٨ هـ، صـ ١٠٦، فهمي: عبد الرحمن: فجر السكة العربية، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٣٨٥هـ، صـ ٣٠ .

٢٣ - ابن خلدون: العبر، جـ ١، صـ ٤٦٤؛ الكرملي: المرجع السابق ، صـ ١٠٦.

٢٤ - النقشبندي: الدرهم الإسلامي ، جـ ١ ، صـ ٥ – ١٠؛ محمد باقر الحسيني: المرجع السابق، صـ ٤٨ – ٥٠.

٢٥ - العش: النقود العربية الإسلامية ، صـ٣٦ ، محمد باقر الحسيني: المرجع السابق صـ٥٨

٢٦ - العش: المرجع السابق، صـ ٤٩٠؛ رمضان: عاطف منصور: موسوعة النقود في العالم الإسلامي ، دار القاهرة ، القاهرة ، ٢٠٠٤ م ، صـ ٨٩،

Norman D. Nicd and others, catalog of the Islamic coins, glass weights, dies and medals in the Egyptian National library, Cairo American research center in Egypt catalogs 1982, p. 36.

٢٧ – فهمي: فجر السكة ، صـ ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٣، ٢٦٧، ٢٧٦، ٢٧٧،

Broom Michael : Islamic Coins , London , p.62-65 , Walker: M. A. John : A catalogue of the Arab Sassanian Coins, London, 1967, p. cxxxvi, cxxxi, lxxvii

٢٨ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي الإسلامي صـ ١٦٣ – ١٦٤ .

٢٩ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي الإسلامي صـ١٦٤–١٦٥، التونجي: محمد: المعجم الذهبي، فارسي–عربي، صـ٢٨٧، الطراونة: خلف و دفتر: ناهض عبدالرزاق، المسكوكات و قراءة التاريخ، وزارة الثقافة، الأردن، ١٩٩٤م، صـ٤٨.

٣٠ – العش: محمد أبو الفرج ، النقود العربية الإسلامية [1] ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و التراث ، إدارة المتاحف و الآثار، الدوحة ، ٢٠٠٣ م ، صـ ٣٦، الطراونه و ناهض دفتر: المرجع السابق صـ ٤٨، عاطف رمضان: موسوعة النقود في العالم الإسلامي، صـ ١٧٥ – ٢٣٢.

٣١ -العش: النقود العربية الإسلامية [1]، صـ٣٦، الطراونه و ناهض دفتر: المرجع السابق صـ٤٩–٥١.

٣٢ - عاطف رمضان: موسوعة النقود في العالم الإسلامي ، صـ ١٧٥

٣٣ - المناوي: النقود و المكاييل و الموازين ، صـ ١٢٦ .

٣٤ - العش: النقود العربية الإسلامية [1]، صـ ٢٦٧ .

٣٥ - المرجع نفسه : صـ٤٨٤.

٣٦ - المرجع نفسه: صـ ٤٩٤ .

٣٧ - المرجع نفسه : صـ ٢٦٥ .

٣٨ - المرجع نفسه : صـ ٤٩٠ .

٣٩ - عاطف رمضان: موسوعة النقود في العالم الإسلامي ، صـ٢٥٠

٤٠ - العش: النقود العربية الإسلامية [1] ، صـ٢٧٢ .

٤١ - عبدالرحمن فهمي: فجر السكة، صـ٦٥٠؛ لطفي: مهاب درويش: نفائس الدراهم العباسية في المتحف العراقي، مجلة المسكوكات، العدد ٧ ، ١٩٧٦ م، صـ ٦٥٠.

٤٢ – لطفي : مهاب درويش : نفائس الدراهم العباسية في المتحف العراقي ، مجلة المسكوكات ، العدد ٧ ، ١٩٧٦ م ، صـ ١٤٨ – ١٤٩.

٤٣ - عاطف رمضان : موسوعة النقود في العالم الإسلامي ، صـ ٢٦٤ .

٤٤ - عبدالرحمن فهمي: فجر السكة العربية ، صـ٦٦٧

٤٥ - العش : النقود العربية الإسلامية ، صـ ٥٣٦ .

٤٦ – Broom Michael , Islamic Coins , London , p.65

٤٧ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٢٣ .

٤٨ - المرجع نفسه : صـ٢٤ .

٤٩ – ابن منظور: المصدر السابق، جـ١، صـ١٣٠، المناوي: النقود و المكاييل و الموازين، صـ٣٦–٣٧، ابن سيده: المخصص، جـ٣ ، صـ٢٦٦ .

٥٠ - ابن حوقل: المصدر السابق ، صـ٢٦٣ .

٥١ - المكاييل و الأوزان الإسلامية ، صـ ١٩ .

٥٢ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ٣ ، صـ٥٣٦ ، ابن سيده: المخصص ، جـ٣ ، صـ٢٦٤.

٥٣ - الإصطخري: المصدر السابق ، صـ١٥٦ ، هنتس: المرجع السابق ، صـ٤٥ .

٥٤ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي ، صـ٤٤٤ .

٥٥ - لسان العرب: جـ٣ ، صـ٣٢٣ .

٥٦ - المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣ ، ٣٩٨ .

٥٧ - المكاييل و الأوزان ، صـ٥٠ .

٥٨ - المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ٣٩٣ ، ٣٩٨ .

٥٩ - ناصر خسرو: أبو معين الدين القبادياني: سفرنامه، ترجمة أحمد البدلي، عمادة شئون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، بدون تاريخ، صـ١٥٤.

٦٠ - الاصطخري: المصدر السابق ، صـ١٥٦ ، ابن حوقل: صورة الأرض ، صـ٢٦٢ .

٦١ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٣٦ .

٦٢ - المرجع نفسه ، صـ٢٤ .

٦٣ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي ، صـ١٩٥ .

٦٤ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ١٨٠ ، ابن سيده: المخصص ، جـ٣ ، صـ٢٦٤ .

٦٥ - الخوارزمي: محمد بن أحمد: مفاتيح العلوم ،مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ، ١٤٠١ هـ ، صـ١١، الشرباصي: المعجم الاقتصادي، صـ١٩٥.

٦٦ - أحسن التقاسيم ، صـ ٣٩٧.

٦٧ - ابن سيده: المخصص ، جـ٣ ، صـ٢٦٤ .

٦٨ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي، صـ١٤٩ ؛ التونجي: المعجم الذهبي ، فارسي–عربي ، صـ٢٥٦

٦٩ - هنتس: المرجع السابق ، صـ ٢٣ .

٧٠ - المخصص ، جـ٣ ، صـ٢٦٤ ، مبارك: علي باشا: الميزان في الأقيسة والأوزان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ، صـ٥٤.

٧١ - التونجي: المعجم الذهبي ، فارسي-عربي ، صـ٢٣٧ .

٧٢ - سفرنامه: صـ١٥٤ .

٧٣ - الاصطخري: المصدر السابق ، صـ١٥٦؛ المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ٣٣٠ .

٧٤ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٧١ ، عامر: محمود علي: المكاييل و الأوزان و النقود منذ فجر الإسلام و حتى العهد العثماني ، مطبعة ابن حيان ، دمشق ، ١٤١٨ هـ ، صـ٣٥ .

٧٥ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ٣ ، صـ١٣٦ ؛ التونجي: المعجم الذهبي ، صـ٤٧١ .

٧٦ - نورالدين آل علي: التعريب ، صـ١٦٢ ، التونجي: المعجم الذهبي ، صـ٤٧١.

٧٧ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٦٦ .

٧٨ - الخراج: صـ٣٢٥-٣٢٨ ، و ذكر أن القفيز الذي هو ٣٣ لتراً يساوي تماماً مكعب قدم الذراع الفارسي الذي قدره (٠,٦٤) .

٧٩ - الريّس: الخراج ، صـ٣٢٨ ، الشرباصي: المعجم الاقتصادي ، صـ٣٦٧-٣٦٨ .

٨٠ - الاصطخري: المصدر السابق ، صـ١٥٦ ، ابن حوقل: المصدر السابق ، صـ٢٦٣ .

٨١ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ٤٢٩ ، وقد أضاف أن الجريب يساوي أربعة أقفزة ويساوي ٢٥٦ رطلاً و يساوي ١٠٤,٤٨ كغم ، كما أن الريس يرى أن هناك جريباً يعادل ٨ أقفزة ويساوي ٥١٢ رطلاً و يساوي ٢٦٤ لتراً . (الخراج صـ٣٢٨)

٨٢ - المخصص ، جـ٣ ، صـ٢٦٤ ، نورالدين آل علي: التعريب ، صـ١٢٠ .

٨٣ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٦١ .

٨٤ المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ٣٩٨ .

٨٥ - المصدر نفسه : صـ٣٩٨

٨٦ -الشرباصي : المعجم الاقتصادي ، صـ ٤٣٨ .

٨٧ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ٣ ، صـ٥١٦ .

٨٨ - المقدسي: أحسن التقاسيم: صـ٤٥٢ .

٨٩ - انظر صـ من هذا البحث.

٩٠ - ابن منظور: لسان العرب ، جـ٣ ، صـ٢٨٥ .

٩١ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٧١ ، محمود عامر: المرجع السابق ، صـ٣٤ .

٩٢ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي ، صـ٣٨٩ .

٩٣ - محمود عامر: المرجع السابق ، صـ٣٤-٣٥ .

٩٤ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٧١ .

٩٥ - ابن حوقل : صورة الأرض ، صـ٣٠٣ ، ٣٠٦-٣١٦ ، المقدسي: أحسن التقاسيم ، صـ٤٥٣-٤٥٩ .

٩٦ - الجريب و القفيز كما هما اسمان لوحدات من المساحة فهما اسمان أيضاً لمكيالين انظر تعريفهما في المكاييل في هذا البحث ، و لكن ينبغي عدم الخلط بين مقياس المساحة و المكيال في أي من الحالين (الريّس صـ٢٩٢) .

٩٧ -الاصطخري: المصدر السابق ، صـ١٥٧ .

٩٨ - الريّس: المرجع السابق ، صـ٢٧٤-٢٧٦ .

٩٩ - ابن منظور: لسان العرب ، جـ١ ، صـ٤٢٩ ؛ ابن سيده: المخصص، جـ٣ ، صـ ٢٦٤

١٠٠- نورالدين آل علي: التعريب ، صـ١٢٠ .

١٠١ - الريّس: الخراج ، صـ٢٨٩-٢٩٠ ، الشرباصي:المعجم الاقتصادي ، صـ٩٤
١٠٢ - الخراج: صـ٢٨٩-٢٩٠ .
١٠٣ - الاصطخري: المصدر السابق ، صـ١٥٧؛ ابن حوقل: صورة الأرض ، صـ٢٦٣ . هنتس: المرجع السابق ، صـ٨٩-٩٠ ، ٩٦
١٠٤ - القلقشندي: أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الترجمة والطباعة و النشر، القاهرة، بدون تاريخ، جـ٣ ،صـ٤٤٦ ؛ هنتس:المرجع السابق ، صـ٩٤ ؛ اليّس: المرجع السابق ، صـ٢٨٣ .
١٠٥ - المكاييل و الأوزان ، صـ٩٤-٩٦ .
١٠٦ - الخراج ، صـ٢٩٠، ٢٩٨ .
١٠٧ - المرجع نفسه ، صـ٢٩٠-٢٩١ ، و مساحة الجريب تساوي ٣٦٠٠ أذرع هاشمية ، صـ٢٨٦ .
١٠٨ - هنتس: المرجع السابق ، صـ ٩٤-٩٦.
١٠٩ - المرجع نفسه ، صـ٩٨ .
١١٠ - الخراج ، صـ٢٩٢ .
١١١ -المقدسي: صـ٣٩٧ ، هنتس: المرجع السابق ، صـ٨٣, ٩٣ ، و الريّس لم يتعرض للذرع.
١١٢ - الريّس: المرجع السابق، صـ٢٨٧، ٢٨٩-٢٩٠؛ هنتس: المرجع السابق، صـ٩٣، والذراع الشرعية عند الريّس = ٢, ٦٤ سم و قال وَهو الذراع الأصلي و المرسلة ، و الهاشمية = ٦, ٦١ سم وهو ذراع المساحة .
١١٣ - الأحكام السلطانية: صـ١٤٦ .
١١٤ - نورالدين آل علي: التعريب ، صـ١٤٦ .
١١٥ - التونجي: المعجم الذهبي ، صـ٣٣ .
١١٦ -هنتس: المرجع السابق ، صـ٨١-٨٣ .
١١٧ - سفرنامه: ترجمة يحيى الخشاب ، صـ١٧٨ .
١١٨ - المكاييل و الأوزان، صـ٨١، و يبدو أن هناك خللاً في الحساب لدى هنتس إذ يبلغ قياس ذراع الملك وهو الذراع الهاشمي أو ذراع المساحة ٦, ٦١ سم، ٦٦, ٥ سم حسب تقدير كل من الريّس و هنتس نفسه، و بالتالي فإن الآرش ينبغي أن لا يزيد قليلاً على ٤٠ سم (الريّس: صـ٢٨٩، هنتس: صـ٩٠).
١١٩ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ١٨٩ ، جـ٢ ، صـ١٠٧٣، جـ٣، صـ٥٥٧ ؛ التونجي: المعجم الذهبي، صـ٤٣٠ .
١٢٠ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ١٨٩ ، جـ٢ ، صـ١٠٧٣ ، جـ٣ ، صـ٥٥٧ ؛ الشرباصي: المعجم الاقتصادي ، صـ٣٣٨ ، ٤٥٢ .
١٢١ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٩٥ .
١٢٢ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ١٨٩ ، جـ٣ ، صـ٥٥٧ .
١٢٣ - الشرباصي: المعجم الاقتصادي ، صـ٣٣٨ ، ٤٥٢ .
١٢٤ - لسان العرب: جـ١ ، صـ١٨٩ .
١٢٥ - هنتس: المرجع السابق ، صـ٩٤-٩٥ .
١٢٦ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ١٨٩ .
١٢٧ - المكاييل و الموازين: صـ٨٢ .
١٢٨ - ابن منظور: المصدر السابق ، جـ١ ، صـ١١٤٣ .
١٢٩ - أحسن التقاسيم: صـ٤٥٣، ٤٥٩ .

دكتور/ مصطفى حبشى محمد زهران (*)

فرسان مالطه وسياستهم فى طرابلس الغرب دراسة وثائقية (٩٣٦ - ٩٥٨ هـ / ١٥٣٠ - ١٥٥١ م)

مقدمة

من دواعى سرورى أن أتطلع إلى الكتابة التاريخية الموثقة عن موضوع عزفت أقلام المؤرخين عن معالجته أكاديمياً وذلك لندرة المادة العلمية التى تحتويها بطون المراجع وهذا يعكس حرص الفرسان على طمس وإخفاء الكتابات التاريخية عن سياستهم الاستعمارية التى تكشف مخاذيهم فى كيان حيوى يجسد القلب النابض لشمال إفريقيا وبوابتها الشمالية المواجهة لأوربا التى تغمر سواحلهم مياه البحر المتوسط معاً.

وبالغرم من حيوية وتعاظم هذا الموضوع فى تلك الحقبة الزمنية التى تربو إلى ربع قرن والتى وقعت عقب أحداث جسام تمثلت فى أفول نجم القوى الإسلامية فى شبه جزيرة أيبريا قبل انصرام القرن الخامس عشر لذا فإن هذا الموضوع يكشف النقاب عن حرص أوربا على إنعاش الحروب الأيدولوجية من أجل تعقب وقطع دابر القوى الإسلامية فى عقر دارهم أن أمكن.

لذا فقد ظلت الحرب سيجال بين الغرب والعرب من أجل التنكيل بالقوى الإسلامية وسحب البساط من تحت أقدامهم حتى فى الديار الإسلامية بعد احتضان البابوية لتلك الحروب وغمرها بالدفء والدماء الجديدة وتفعيل آلياتها من أجل صب جام غضبها على المسلمين أينما وجدوا.

ومن هذا المنطلق وبحكم تخصصى فى الكتابات التاريخية الإفريقية وأيضاً حصولى على الكثير من المراجع والمصادر المتخصصة عن هذا

(*) محاضر التاريخ الحديث والمعاصر بالمعهد العالى للدراسات الأدبية - كينج مريوط - الإسكندرية

الموضوع أثناء عملي بجامعة التحدى بمدينة سيرت لمدة ثلاث سنوات - لذا فقد استعذبت كشف النقاب عن حكم هؤلاء الفرسان الذين زجت بهم أوربا فى الديار الإسلامية بعد حصولي على الوثائق الخاصة بهم من الأمانة العامة للتعليم بمدينة سيرت وهي مبوبة في مجلد تحت عنوان Gavalieri Gerosolimitomia Trpoli أو سيادة الفرسان على طرابلس.

وقد صدرت تلك الوثائق باللغة الأسبانية حيث ضمت بين طياتها معلومات شمولية عن حكمهم لمدينة طرابلس الغرب والذى تميز بالاضطراب والفزع الذى سرى فى وجدان هؤلاء الفرسان وأيضاً إلقاء الأضواء عن الأوضاع السائدة داخل المدينة الساحلية والقلاع التى تحميها والتى تميزت بعدم الانسجام من جانب فرسان مالطه بالعمل المخول لهم لأنه يتعدى معنوياتهم الهابطة بعد أن فلت الزمام من أيديهم بفضل توثب الهجوم عليهم من القوى الإسلامية ولذلك فقد الفرسان توازنهم وأصبحوا حاضرين بشخصياتهم غائبين بسلطانهم الأمر الذى أدى إلى إنزال الضربات الموجعة عليهم وتفكيك أوصالهم قلباً وقالباً، وظلوا يستصرخون البابوية إلى أن تم ا نسحابهم بداية من صدر النصف الثانى من القرن السادس عشر وهم يجرون ورائهم أذيال الخزى والعار. وبذلك تبددت أحلام البابوية واجترت مرارة الهزيمة والذى أعقبه ابتلاع أوربا لغيظها؛ وقد ألحقت عدد من الوثائق التى تهم موضوع البحث فى نهايته.

تدويل طرابلس قبل مجئ الفرسان:

كانت المقاومة وحركة الاسترداد قد انطلقت من أقصى بلدان أوربا الغربية من أسبانيا لإيقاع المسلمين بين فكى كماشة وحتى استطاعت فى عام ١٤٩٢ أن تطوى صفحة آخر الحواضر الإسلامية فى غرناطة وهى بنى الأحمر. وبذلك تلاشت السيادة الإسلامية فى شبه جزيرة ايبريا، وأعقب ذلك أن أصدر الملك الكاثوليكى فرديناند دارجونا والملكة ايزابيلا دى كاستيليا أمراً يقضى بقطع دابر جميع المسلمين ومواصلة تعقبهم فى عقر دارهم. (١)

وبالتالى أصبحت الحرب سيجال بين قوتين غير متكافئتين فى مياه البحر المتوسط حتى نجح الأسبان فى الاستيلاء على مدين طرابلس فى ٢٥ يوليو ١٥١٠ وغيرها من المدن الإسلامية فى الشمال الإفريقى وتثبيت أقدامهم وبالتالى احتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التى تأتى إليهم عن طريق القوافل من داخل قارة إفريقيا. (٢).

وقد استقبلت أوربا خبر سقوط طرابلس تحت أمرة الأسبان بابتهاج كبير، وبعد انتفاخ أوداجها شجع هذا الانتصار ملوك أسبانيا وأذكى أمانيهم وحرك

شهواتهم الاستعمارية فى ابتلاع ثروات البلاد سواء الطبيعية أو البشرية كما سرى هذا الخبر فى إيطاليا التى غمرتها السعادة والابتهاج المتدفق، أما المسلمون فقد شعروا بالمرارة وإصابهم الحزن على سقوط طرابلس منارة العلم والعلماء المسلمين، ولما استقرت الأمور نسبياً فى طرابلس رغب الكونت بدرو دى نافارا Comte Pedro DI Noverron (٣) فى جعل طرابلس قاعدة لغزو الشمال فأنطلق منها إلى جزيرة جربة فى تونس(٤).

وفى صدر عام ١٥١٣ م صارت مدينة طرابلس تابعة لصقلية إدارياً بعد أن تنازل ملك أسبانيا عنها لنائبه جوان فرانشيسكو Gohan Franchasco ، الذى أصبح والياً على طرابلس وقد شمر هذا الوالى عن ساعد الجد من أجل تعمير المدينة بجلب عائلات صقلية لتثبيت أقدامه على حساب أبناء البلاد (٥) وفى أوائل عام ١٥١٦ م مات ملك أسبانيا فردنياند وبذلك توقف اهتمام الأسبان بمسألة إفريقيا خاصة وأن خلفه الملك فورشال الخامس Fourchal V .

انغمس فى الحروب الأهلية داخل أسبانيا وبالرغم من هذا فقد ظلت الحرب سيجال بين الأسبان والطرابلسيين حتى عام ١٥٢٠ والتى كانت تعتمد على الكر والفر من كلا الطرفين(٦).

توالى تسرب الخوف إلى قلوب الأسبان من هجمات المسلمين المتدفقة والمتجددة لذا قاموا بتحصين المدينة بالأسوار والأبراج والقلاع التى تتخللها المدافع وبالتالى تقوقع الأسبان داخل الأسوار اتقاء هجمات القوى الإسلامية المستقرة فأصبح الأسبان حاضرين بشخصهم غائبين بسلطانهم فقاموا بتسليم المدينة إلى فرسان مالطه فى أوائل عام ١٥٣٠م الذين كانوا فى سابق عهدهم يشكلون منظمة خيرية مقرها القدس، مهمتها مساعدة حجاج بيت المقدس من المسيحيين وتحولت بعد ذلك إلى منظمة عسكرية فى أثناء الحروب الصليبية تعنى بمعالجة الجرحى فى المعارك الحربية(٧).

ولما تم النصر لصلاح الدين الأيوبى على الصليبيين طرد معهم هؤلاء الفرسان من القدس فلجأوا إلى عكا لكن طردوا منها أيضاً ١٢٩١م حيث تقوقعوا فى جزيرة رودس، وكونوا مملكة مسيحية تحت رعاية البابا واستولوا على جزيرة الروديكاينز(٨).

وفى رودس أخذوا يعرقلون الملاحة العثمانية فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط فتأهب السلطان سليم الأول لمحاربتهم فى البحر بعد نجاحه فى إحكام الحصار على جزيرة رودس حتى استسلم الفرسان وذلك فى ديسمبر ١٥٢٢م فى عهد السلطان سليمان الأول - ولم ينتقم منهم السلطان بل سمح لهم

بمغادرة الجزيرة، فرحلوا منها إلى إيطاليا بدعوة من البابا كليمنت السابع - بعد ذلك سال لعابهم على جزيرة مالطه بعد التوسل إلى الإمبراطور شارل الخامس لتكون مركزاً لهم يشنون منها الغارات على الحواجز الإسلامية فى شمال إفريقيا.

وفى صدر عام ١٥٣٠م وافق الأمبراطور على منحهم جزيرة مالطة بشرط درء الأخطار الإسلامية عن مدينة طرابلس والتعهد بحمايتها من الهجوم الإسلامى[٩].

وأخيراً وقع الإمبراطور الأسبانى فى ٢٤ مارس ١٥٣٠م المرسوم فى كاستل فرانكو فينيتو بأسبانيا مع القسيس سنقويسا (Sankousia) والوفد المرفق معه وقد ورد فيه رغبة منا فى تدعيم واستقرار الدير والمنطقة والهيئة الدينية لمستشفيات القديس يوحنا واستناداً إلى رغبتنا فى أن ينال المرشد الأكبر الجليل المبجل ورؤساء الهيئة وقادتها وفرسانها مقراً ثابتاً ومركزاً محدداً وانطلاقاً من محبتنا والعطف الذى نحمله لهذه الهيئة فقد قررنا عن طيب خاطر التنازل إلى المرشد الأكبر والمنطقة عن مقر دائم ثابت وأن مرسومنا هذا يعتبر سارى المفعول على جميع العهود القادمة بالنسبة إلينا وإلى جميع خلفائنا فى مملكتنا، نتنازل ونمنح بكامل الإرادة الحرة إلى المرشد الأكبر - إلى الدين - إلى المنطقة المعروفة باسم القديس يوحنا الجروسو لوميتانو إقطاعاً نبيلاً دائماً حراً ومشمولاً بالإعفاء - المدينة والقلعة - الموقع والجزر التابعة إلينا فى طرابلس ومالطه وجوزو مع جميع البقاع التابعة لها، وهذا يجسد مدى تدويل طرابلس الغرب بين أتباع البابوية لأحكام قبضتهم على الديار الإسلامية.

وكان على الفرسان أن يقدموا صقراً كل عام عن الاحتفال بعيد جميع القديسين بيد نائب الملك[١٠] وفى يونيو ١٥٣٠م كان مندوبو المرشد الأكبر الذى انتقل فى هذا الوقت إلى نيس ثم إلى سيراكوزه قد استلموا السيطرة على مالطة واتجهوا إلى طرابلس حيث استلموا من فرانشيسكو Francesco Velasquez نائب الحاكم كشفاً بالمدفعية التى كانوا ملزمين بإرجاعها إلى الإمبراطور وسرعان ما وصلت إلى طرابلس سفينتان تحملان العتاد والمؤونة وقافلة من الفرسان وفرقة من الجنود تحت قيادة جاسبارى دى سانجوسا Gaspare di Sanguessa، أول حاكم يوفد من المنطقة إلى طرابلس. [١١].

إن مسئولية النهوض بأعباء قلعة مهمة والتهديد المستمر من البر والبحر والأوضاع القلقة للمنطقة التى لم تنتظم شئونها فى مقرها الجديد فى مالطه وبعض الانقسامات الداخلية بين الفرسان أنفسهم كل هذا انعكس بالسلب على مركز الحاكم فى طرابلس الذى أصبح دقيقاً وحرجاً وبالتالى اسند

هذا المنصب إلى شخصيات من ذوى الشأن والشجاعة مثل أورليو بوتيجلا Aurelio Bottigella وهو قائد محنك فى البحرية وأيضاً القائد جيوفانى لافاليتى Giovanni la Vallettu من عام (١٥٣٠ - ١٥٤٩م) الذى تميز بالدهاء والمكر والتبحر فى الإدارة(١٢)

وكان إلى جانب الحاكم فى الغالب نائب له وفارس يشغل منصب أمين الخزانة ويهتم بإدارة البنود المالية التى لم تكن تغطى أعمال التحصين والدفاع وكان يقيم فى ا لقلعة خمسون من الفرسان ومائتان تقريباً من الجنود بينهم أثنا عشر مدفعياً. (١٣)

أما المدينة فقد كانت تتولاها حامية من الأهالى لا يزيد عددها على مائة بين فرسان ومشاة - أما التبادل التجارى مع الأهالى فقد كان يجرى فى الأسواق وهو ما يطلق عليه فى الوثائق (Coco).

وقد كان فى المدينة برجان يقعان عند طرفى الجانب المواجه للشرق أطلق عليها اسم القديس جورج (نحو المدينة) وسان جاكومو (نحو لمدينة) بينما أطلق على الساحة الواقعة بينها اسم القديسة بربرا Santa Barbra أما داخل القصر فقد كان يضم بيت الحاكم والفرسان والجنود والمخازن كما أن هناك بلا شك كنيسة يعتقد بأنها مسماة سان ليوناردو كان فى خدمتها أربعة من القساوسة التابعين للمنظمة - وكان هناك باب رئيسى إلى جانب برج القديس جورج يصل القلعة بالمدينة أما الميناء فقد توفرت له حماية طيبة بوجود البرج المسمى (سان بيترو) والذى يقوم قرب الجمرك فى نقطة التقاء السور الشمالى الشرقى بالسور الشمالى الغربى، كما كان هناك حصن آخر يسمى كاستيلاجو (Castellajo) يحمى مدخل الميناء فى أقصى أطراف الجزر. (١٤)

وقد فرضت ضريبة رؤوس على مدينة طرابلس وتخومها مثل جنزور والماية وزواغه تدفع بطريقة منتظمة سنوياً بواقع عشرة دنانير للفرد وفى تاجوراء التى تقع على مسافة اثنى كيلو متراً شرقى طرابلس تركزت مقاومة العرب والمغامرين الأتراك الذين كانوا يتطلعون إلى استرجاع طرابلس إلى أحضان الإمبراطورية العثمانية(١٥).

وفى المقابل كان سلطان تونس مولاى الحسن الذى تولى العرش عام ١٥٢٦م يدعى حقوقاً شرعية للسيادة على طرابلس الغرب وكان على علاقة حسنة مع فرسان مالطه ضد العرب، فكان عوناً لهم وعيناً ضد العرب، وأظهر منافسة قوية ضد خير الدين (بربروسا) سيد الجزائر الذى تزايدت قوته وأصبح قائدا عاماً للأساطيل العثمانية فى عرض المتوسط(١٦).

وفى خضم تلك الأحداث قاد أوريليو بوتيجيلا Aurelio Bottigella – الذى عهد إليه بحكم طرابلس عام ١٥٣٥م – حملة ناجحة لحماية طرابلس، أما خلفه جارسيا كورتس Garcia Cortes (١٧) فقد اصطحب معه من مالطة ١٥٣٣م مهندس المنظمة مايسترو بثينو Piconio وهو من فلورنسا وكان مكلفا بدراسة حاجات القلعة من التحصينات العاجلة، وقد تم فعلا تدعيم الأوضاع الدفاعية فى القلعة خلال الأعوام التالية فى عهد الحاكم سخلنج Schiling. وفى هذه الأثناء مات فى مالطة المرشد الأكبر ليزدى أدامو Lisde Adamo عام ١٥٣٣م وأصبحت أوضاع طرابلس مهددة بالخطر بعدما احتل خير الدين «بربروسا» تونس فى شهر يونية من عام ١٥٣٤م.

إدارة الفرسان لطرابلس:

أرسلت جماعة من الفرسان إلى طرابلس لتدعيم حاميتها فى ديسمبر ١٥٣٤(١٨).

وكان الخطر من وجود «بربروسا» فى تونس واضحا جدا حتى وجد شارل الخامس نفسه مضطرا إلى أن يقود بنفسه حملة قوية ضد تلك القلعة المنيعة وقد شاركت فيها منظمة فرسان مالطة بإرسال الرجال والسلاح، وهزم «بربروسا» وطرد من تونس وأعيد إلى العرش السلطان الحفصى مولاى الحسن فى يوليه ١٥٣٥(١٩).

أما «خير الدين تاجوراء» الذى يسنده ويعاضده المغامرون من الأتراك الذين يتدفقون عليه من كل مكان وكان بعضهم مرسلا إليه من «بربروسا» فكان يعمل على تشديد الضغط على طرابلس، واستطاع أن يشيد برجا سمى برج القيادة أو القائد Alquaide على بعد ميل فقط من القلعة– حيث كان الحاكم وقتئذ فراجورج نحلنج وكان أحد قادة البحرية الشجعان وقد حصل على نجدة أرسلت إليه من مالطة فى صيف عام ١٥٣٦ تحت قيادة بوتيجلا Bottigella الذى شن هجوما استولى فيه على البرج، وهزم خير الدين وقتل، وخلفه قائد، آخر هو مراد آغا(٢٠).

وفى عام ١٥٣٩ جاء إلى طرابلس فرناندو دى براكامويننى وكان يشغل منصب المرشد الأكبر جيوفانى دى هوميدس Fra Giovanni di Homedes الذى أخذ يوضح لشارل الخامس أهمية طرابلس وأوضاعها الدفاعية الضعيفة، وطلب منه أما أن يساعده فى تسوير طرابلس من جميع النواحى بأسوار حصينة محاطة بالأبراج الملكية والخنادق أو أن يأمر جلالته بأن تنسف القلعة بالألغام وتخريب الميناء بردمه وإغراق المراكب المشحونة بالصخور والرمال عند مدخله(٢١).

أما المكاتبات المتبادلة بن سلطان تونس الخاضع لحماية الأسبان ودون فرانتى جونزاجا Don Ferrante Gonzaga(٢٢) نائب الملك فى صقلية فتلقى أضواء

على طرابلس، وبقاعها فى تلك الأعوام، فهو يرد على جوانزاجا الذى يوصيه بإرسال قوة لتحرير جربة وتاجوراء فى ٢١ نوفمبر ١٥٣٩ بقوله: «أن الشوكة فى العين تؤلم أكثر من الشوكة فى القدم».

وفى العام التالى أخبر سلطان تونس جوزانكا بأنه قد وصلت مراكب تركية إلى سواحل الشمال الأفريقى وأنها تركت قسما من ركابها فى تاجوراء أما الباقى فيبدو أنه يتجه إلى المهدية(٢٣).

وأثناء ولاية فرناندو دى براكامونتى Fernando de Bracmonte نجد للمرة الأولى الإشارة إلى وجود أحد المسيحيين المعتنقين للإسلام يدعى مراد آغا Morataga الذى يقوم بمساعدة وتأييد «بربروسا» قائد الأسطول العثمانى بتضييق الحصار على المدينة، ويزحف بخطوط جبهتين إلى ثلاثة أميال عن القلعة(٢٤).

ولذا فقد تنامت الجهود من أجل حفر الخنادق وتعلية الحصن Castelleio لتأمين الدفاع عن المياه(٢٥).

من أجل هذه الغاية أرسل إلى طرابلس أكثر من مرة قائد عام البحرية فراجورج سنلخج فى ديسمبر ١٥٤٢ وفى أبريل ١٥٣٤ وقد رفض سكان السواحل الغربية الذين كانوا خاضعين فى البداية لطرابلس دفع الضريبة وأثناء حكم كريستوفا نو دى سوليس فرفان Cristofano de Solis Farfan (٢٦).

وفى عام ١٥٤٥م تقررت الحملة ضد حاضرة المابة المتاخمة لحاضرة جنذور(٢٧).

وتوجه حينذاك فراسينورينوجايتنارا Signarino Gattinara رئيس دير مسينا إلى طرابلس على رأس أربعة مراكب للمنظمة.

وفى ليلة أوائل أغسطس ١٥٣٤ خرج حوالى ألف من المسلمين قسم منهم عن طريق البر والآخر عن طريق البحر، وتجمعوا قرب القرية ولكن سوء تصرف ضارب الطبل الذى أدى إشارة الهجوم قبل موعدها، كان سببا فى إخفاق المباغتة ومع ذلك فقد كانت الغنائم وفيرة وتم أسر ٤٥٢ أسيرا(٢٨).

وقد قاد لافاليتى الذى حكم طرابلس من عام ١٥٤٦م إلى عام ١٥٤٩م عدة حملات متكررة ضد مراد آغا (٢٩) ووسع المجال أمام المدينة المحاصرة بأبعاد نطاق الحصار، بدأها بحملة مفاجئة فى أوائل عام ١٥٤٦م خرجت أثناء الليل للهجوم على تاجوراء عن طريق البر قوامها جنود مسلمون بالقربينات وتدعمها سفينتان قامتا بإنزال بعض المدافعين، الذى توغلوا حتى البرج الذى يحمى الميناء الصغير بتاجوراء، فأشعلوا النار فى أحدى المراكب

الخاصة بمراد آغا وعندما بدأ النهار تابعهم مراد آغا ولاحق جيش المنظمة فى طريق عودته إلى طرابلس، وقد أسر فى المعركة التى نشبت بين الفريقين الفارس مارزيليا Marziglia(٣٠).

وقد تزايد القلق حول الدفاع عن طرابلس وتوجه المرشد الأكبر بطلب المعونة من البابا أيضا وأرسل إلى روما فى ٨ يناير ١٥٤٧ رئيس ديرلومبارديا فراكارلو سفورزا لكى يتولى نقل الطلب والتركيز على الأوضاع الحرجة التى تواجهها المدينة(٣١).

وقد يكون من الملائم أن نورد هنا النص الكامل للتعليمات التى صدرت إلى المبعوث: «تعليماتنا إليكم أيها المتدين الجليل اللامع فراكارو لوسفورزا رئيس لومبارديا عن الأشياء التى ستتناولونها مع صاحب القداسة حول موضوع طرابلس أولا: قبلوا قدمى صاحب القداسة فور وصولكم إلى روما وبلغوه نيابة عنا رغبتنا فى خدمته كأبناء حقيقيين وخدام مطيعين وقدموا إليه الرسالة التى بعثناها باعتمادكم، وذكروه كيف أنه منذ أن منح قداسته جزر مالطة وجوزوا وقلعة طرابلس إلى المنظمة أبدينا اهتماماً دائماً بتدعيم هذه القلعة وتذويدها بالجنود وكافة الأشياء الضرورية متكبدين فى ذلك نفقات طائلة وإرهاقا كبيرا للمنظمة» (٣٢).

وقد استطاع مراد آغا أن يجمع بالإضافة إلى الأتراك الذين معه عددا آخر من العرب الذين ربطتهم به صلات ودية وتحالف ومن ذلك الوقت تعرضت القلعة إلى حرب متتابعة واشتباكات متواصلة عادت بالأضرار على الطرفين، ورغم أن ملك تونس بتأييد من منظمة الفرسان قد اهتم بطرد مراد آغا لكنه لم يتمكن من ذلك مما زاد من قوته كل يوم سواء بتأييد من «بربروسا» وأيضا من «طرغود» وهو قرصان كبير من الموالين إليه حيث نجحوا فى كبح جماح الفرسان وحلفاؤهم.

وبدأت الخطة من الجانب الإسلامى بالهجوم على الفرسان والاستيلاء على القلعة ومدينة طرابلس التى تحيط بها، حيث كانت إمكانيات المنظمة ليست كافية ولا صالحة لمواجهة المد الإسلامى وأشرأبت أعناق فرسان مالطة إلى تحقيق نصر سريع وحاسم وطرد الأتراك من أرض تاجوراء فإذا تم ذلك فسوف يحقق خيرا وراحة عظمى للمسيحية لذا فقد بدأ استصراخ المرشد الأكبر(٣٣) للبابا بالإغداق على الفرسان بالعون خاصة تجميع حملة تتكون من أربعة أو خمسة آلاف لطرد الأتراك من طرابلس(٣٤).

لقد أوضحت رسالة المرشد إيضاحا كاملا للإطار العام للأوضاع ولكن المساعدات لم تأت لا من البابا ولا من الامبراطور وبالتالى خاب أمل استصراخ

المرشد الأكبر وتوالت التداعيات عندما تلاشى نفوذ أسبانيا وسيطرتها على أفريقيا منذ أن منى جنود شارل الخامس فى عام ١٥٤١م وأسطول اندريادوريا بهزيمة منكرة فى الجزائر وأصبح الأسطول التركى المتحالف مع الأسطول الفرنسى سيدا للبحر المتوسط مرفوع الهامة(٣٥).

وفى عام ١٥٤٧م مات خير الدين «بربروسا» المؤسس الرئيسى للقوة البحرية التركية ولكن بقى للأتراك قادة لهم وزنهم وقيمتهم وكان فى طليعتهم من حيث الشهرة والمكانة «طرغود» الذى ورد ذكره آنفا(٣٦).

ولد هذا المغامر المحنك فى عام ١٤٨٥م فى مقاطعة منتشية Menteshe على السواحل الغربية للأناضول، وانصرف منذ نعومة أظافره إلى القرصنة حتى صار شاباً يافعاً بارعاً فى ركوب البحار. وفى عام ١٥٣٣ أصبح له باع كبير بين القراصنة العثمانيين الذين كانوا يهاجمون سفن البندقية فى عرض بحر إبجة ثم انتقل إلى العمل تحت قيادة بربروسا واشتهر بسلب السفن المسيحية فى مياه البحر المتوسط مما أرق مضاجع الأوروبيين(٣٧). وفى يونية ١٥٤٠م فاجأة جيانتينو دورياً Giannettino Daria عند سواحل كورسيكا فأسره وباعه إلى أسرة لومللينى Lomellini من جنوة الذين استخدموه فى التجديف فوق مراكبهم وأطلق سراحه عام ١٥٤٤م بناء على اهتمام شخصى من بربروسا فاستأنف نشاطه القرصانى بمزيد من الحيوية والقوة تحت علم سلطان القسطنطينية(٣٨).

ومن جانب الفرسان أصبح وضع طرابلس ضعيفا لا يقوى على الصمود بل مرت فترة وبالتحديد عام ١٥٤٨م وجدت المنظمة نفسها مدفوعة إلى التفكير فى تركيز قوتها فى طرابلس بعد أن تأكد لديها استحالة الاحتفاظ بطريقة مشرفة ومضمونة بطرابلس ومالطة، وقد خططت لذلك بناء على اقتراحات قدمها بعض الفرسان من ذوى المكانة والنفوذ منهم لافاليتى ولكن تغلب الاتجاه إلى ترك المشكلة دون حل نهائى وانتظار ما يسفر عنه الزمن والأحداث من توجيهه ونصائح(٣٩).

حركة الجهاد الإسلامية ضد الفرسان:

وفى عام ١٥٤٩م عند نهاية حكم جيوفانى لافاليتى كاد مراد آغا أن يقع أسيرا أثناء هجوم مفاجئ قام به فراجيوفانى دى شردان De Cerdan(٤٠) كان مصحوبا بعدد من الفرسان الطرابلسيين وبعض سكان المنشية بينما كان متجهاً بصحبة كوكبة صغيرة من الفرسان لحضور أحد الحفلات لصديقه عبد القادر بن الشوشانة شيخ أحد القبائل، وقد أسر بن الشوشانة وعربى آخر واقتيدا تحت الحراسة إلى طرابلس، أما مراد آغا الذى طوق فى البداية وحوصر

فقد تمكن من الفرار محتمياً بالمقاومة اليائسة التى أبداها حراسة المرافق ومعتمدا على سرعة جواده العربى، وبدلا من الاحتفاظ بابن الشوشانة أو الحصول على مبلغ كبير كشرط يستميلوا إليهم بعض سكان المنشية والساحل فبادروا إلى إطلاق سراح الأسير بشرط أن يعمل على إزاحة مراد أغا عن المكانة التى تمتع بها بين عرب الضواحى والدواخل(٤١).

وكان طرغود قد أقام فى سواحل الشمال الأفريقى «بربربا» أهم قواعد نشاطه القرصانى. وفى عام ١٥٤٩ تمكن بمساعدة مراد آغا الذى أرسل إليه مائة من الرماة من احتلال المهدية، ومن هناك كان يقذف بسفن لسلب المراكب والسواحل المسيحية(٤٢).

وفى المقابل قام دوريا بحملة تحت قيادة نائب الملك بصقلية جيوفانى دى فيجا ومساندة منظمة الفرسان التى بعثت أربعة مراكب ومجموعة من الفرسان، واحتل المهدية فى ١٠ سبتمبر ١٥٥٠(٤٣).

أما طرغود الذى ترك أحد نوابه فى المهدية فقد أخذ يجوب دواخل تونس عدة أشهر ثم جمع فرقته القرصانية فى مضيق القنطرة بجزيرة جربة، وحاصره دوريا هناك فى أبريل عام ١٥٥١ ولكنه استطاع أن يسحب سفنه عبر قناة أرضية حفرها وخرج بها إلى عرض البحار واستولى على المركب الرئيسى القادم من صقلية لدعم دوريا وفى نهاية أبريل باغت مالطة ونزل بجنوده فى سواحلها وقد سلبوا قرية سيجيوى Siggeai ثم تابع رحلته إلى الشرق حيث لحق بالأسطول العثمانى الذى جاء بعد ثلاثة أشهر لحصار طرابلس(٤٤).

وفعلا بدأ ينساب الأسطول العثمانى فى البحر وبالتالى أرسلت المنظمة منذ نهاية أبريل ١٥٥١ إلى طرابلس جاسبارى دى فلليس أوفاليرس Gaspare de Vallies ode Valliers وكان مارشالا فى المنظمة لكى يخلف بيترونونيز دى هريرا Fra Pietro Nunez de Herrera(٤٥)

فى منصب الحاكم مجددين له نفس التوصيات والتوجيهات المعتاد تقديمها إلى كل الحكام ملحين عليه بالتزام النظام والعادات الحسنة وحماية القلعة وحراستها هى والمدينة والحصن(٤٦).

وفى بداية يوليه عام ١٥٥١ دقت طبول الحرب عندما تواترت الأنباء بخروج الأسطول التركى من الدردنيل قاصده مالطة وطرابلس فأرسلت المنظمة بصفة عاجلة إلى طرابلس كوليلمو كوبيير Coupier بصحبة ٢٥ فارساً وفرقة من الجنود الذين جندوا فى مسينا بقيادة جيوفانى كالابرنبزى «Calabriesi»(٤٧) كان كوبير مكلفا بأن يتولى مهام نائب الحاكم، أما السفن التى حملت الجنود إلى

طرابلس قد نقلت عند عودتها النساء والأطفال الذين رأى الحاكم أنه من المناسب تسفيرهم من طرابلس، وأخذت المدينة تتهيأ لمواجهة الصدام بين القوتين(٤٨).

وتعطش الأتراك العثمانيين إلى استراداد طرابلس لذا فقد تهيأت البحرية العثمانية المكونة من ١٥٠ سفينة تحمل ما يقرب من خمسة عشر ألفا من الرجال تحت أمرة المغامرة سنان باشا ومساندة طرغود وصالح بك حاكم رودس وأبحرت في المتوسط قاصدة مالطة.

وهاجم الأسطول ودخل مدينة نوتابلي Notabile وابتلع جزيرة جوزو وأسر منها خمسة آلاف أسير(٤٩).

ثم اتجه إلى طرابلس حيث وصلها في الخامس من أغسطس ١٥٥١ وكان في القلعة من وسائل الدفاع وأيضا النجدة حوالي مائة من الفرسان وخمسمائة من الجنود وبعض المئات من العرب الموالين الذين سرى بينهم الخوف والرعب من تحفز وتوثب قوة الأتراك(٥٠).

وفي أثناء إعطاء سنان باشا شارة البدأ في الانقضاض على طرابلس وصل السينور دارمونت Daramont سفير ملك فرنسا لدى سلطان القسطنطينية، وكان ذو شخصية مرغوبة لدى الأتراك ووقف في مالطة أثناء رحلته من فرنسا إلى تركيا وتوسط لدى المرشد الأكبر للفرسان تارة ثم عرج إلى طرابلس لإقناع القائد التركي بالعدول عن خطة هجومه على طرابلس ولكن سنان باشا رفض الاستجابة والإصغاء إلى دعوة العدول عن هذه المهمة(٥١).

وعلى الفور بدأ سنان باشا في ضرب الحضار حول طرابلس وبعدها وجه إنذارا إلى حاكمها المسيحي بتسليم المدينة الأمر الذي رد عليه جاسباري فاليس بالرفض قائلاً: «أنه يفضل الموت على الاستسلام».

وفي ٨ أغسطس بدأ تضييق الخناق من جانب المهاجمين الأتراك بمدفعيتهم من القلعة تحت حماية الحواجز وتجمعوا في جبهة من الجانب الشرقي من القلعة في السهل الممتد بينها وبين «الظهرة» وعلى الفور انسابت طلقات المدفعية العثمانية كالسيل حيث ردت عليها مدفعية الفرسان رداً فتاكا عرض الأتراك لخسارة أربعة من مدفعيتهم واثنين من الشواش وبعض الرياس وعدد كبير من الانكشارية وبترت أحد طلقات المدفعية ساعد رئيس كتبة الانكشارية(٥٢).

لكن هذ لم يثن من عزيمة الأتراك، وفي ٩ أغسطس ١٥٥١ استؤنف القصف بطريقة أكثر عنفا ونجحت المدفعية التركية في الاقتراب من طرابلس على مسافة ١٥٠ مترا، وعند المساء تسبب انفجار البارود في قتل ٣٠ تركيا آخرين(٥٣).

وبصمود الأتراك وتفانيهم فى الانقضاض على الفرسان، تسرب الوهن إلي نفوس فرسان مالطة وتفككت أوصالهم، ودب اليأس فى نفوسهم من شجاعة المعسكر التركى لذا قرر الحاكم العام استسلامه للأتراك بمقتضى بعض الشروط وأرسل وفدا مكوناً من رسولين إلى سنان باشا لعرض هذه الشروط، التى أظهر سنان باشا قبولها والموافقة عليها(٥٤).

وكان من بين هذه الشروط أن تتاح الحرية للمقاومين للعودة إلى المسيحية، ولكن الحاكم الذى دعى إلى خيمة القائد التركى وتوجه إلى صحبة أحد الفرسان وضع فى القيود ونقل إلى إحدى المراكب، وعاد الفارس إلى القلعة لكى ينقل شروط الاستسلام وهى إطلاق حرية الفرسان للعودة إلى ديارهم فى أوروبا(٥٥).

وفى يوم ١٤ أغسطس ١٥٥١م فتحت القلعة والمدينة أبوابها للأتراك الذين اندفعوا إلى السلب والنهب وقد جرد الجميع باستثناء المدافعين عن حصن كاستليو Castellaio الذين كان فى وسعهم أن يخرجوا بكل ما يقتضيه الشرف العسكرى. أما جنود المرتزقة فقد كان مصيرهم الأسر والرق، أما العرب الذين كانوا فى خدمة الفرسان ووقعوا فى قبضة الأتراك فقد قُطّعوا تقطيعاً وقد استطاع بعضهم أن يلوذ بالفرار قبل الاستسلام بقليل وأن ينجو بنفسه إلى تونس وقد ذهب زعيمهم فيما بعد إلى مالطة وحصل على إقرار بالصداقة الدائمة مع المنظمة لنفسه ولخلفائه(٥٦).

واحتفل الأتراك بانتصارهم يوم ١٦ أغسطس ١٥٥١ فى الخندق المقابل للقلعة فى الجانب الشرقى وشارك فى حضور هذا الحفل بدعوة من القادة الأتراك السفير الفرنسي السينور دارمونت Senior Dramounte.

وفى المساء أشعل الأسطول التركى الأضواء احتفالا بهذه المناسبة وأصبح مراد آغا حاكما على طرابلس وعاد الأسطول التركى إلى القسطنطينية يحمل عدداً من المسيحيين الأسرى وغنائم وفيرة وعاد بعض الفرسان بصحبة السينور دارمونت إلى مالطة، حيث سجنوا وحوكموا.

إن حكم الفرسان لم يترك أثراً واضحاً فى طرابلس، ولكن من المؤكد أن بعض التحصينات فى القلعة كانت من أعمالهم وخاصة برج القديس جاكومو الذى دمرته فيما بعد القنابل، وأعيد ترميمه مع بعض التعديلات(٥٧).

وثائق من مخطوطات مالطة عن حكم الفرسان لطرابلس الغرب

تكشف مجموعة الوثائق التى ضمها هذا البحث مجموعة تقارير كان يقدمها حكام طرابلس وأيضا تعليمات شمولية صادرة من المرشد الأكبر

للفرسان ومجلس المنظمة عن إدارة طرابلس، ونظرا لأهمية هذه الوثائق من الناحية التاريخية، فقد رأيت إلحاقها بنصها مع تقديم خلاصة وافية عنها حتى يمكن استجلاء الحقائق التاريخية عن هذه الفترة الحيوية من تاريخ حكم الفرسان لمدينة طرابلس، وتخومها التى داعبت أمانى وأحلام أوروبا التى كشرت على أنيابها ومخالبها من أجل ابتلاعها.

وتتضمن الوثيقة الأولى الموجهة إلى برناردو سالفياتى المكلف بحملة جربة، أول إشارة إلى وجود خيرالدين فى تاجوراء، وفيها يصدر المرشد توجيهاته بوجوب العمل على أسر هذا القائد، قبل أن يتمكن من تدعيم وضعه فى تاجوراء.

أما الوثيقة الثانية الموجهة إلى نفس الشخص، فتتضمن جملة من التعليمات الصادرة من المرشد وتقضى بضرورة التركيز على أهمية العمل على إحراق وإتلاف مراكب ذلك الرئيس الذى يدعى «ملك تاجوراء»، كما يوصى المرشد بالعمل على تخريب برج تاجوراء، وتدعيم القلعة فى طرابلس بما يفوت على المسلمين أهدافهم.

أما الوثيقة الثالثة فهى موجهة إلى جارسيا كورتيس حول ما ينبغى الالتزام به من تعليمات فى حكم قلعة طرابلس، وتطلب منه العمل على استلام حكم القلعة وفقا للمراسم المعتادة فى تنصيب الحاكم، والحصول على قسم الولاء من جميع الضباط والجنود والعاملين فى خدمة المنظمة وتفقد سلاحهم الذى يستعملونه، وسد النقص فيه، وإقصاء العناصر غير الصالحة للخدمة، والتأكد من تأدية مراسم العبادة فى كنيسة القلعة وكفاية العدد المخصص لها من القساوسة، وتعهد مدفعية القلعة، ومطابقتها للقيود الرسمية، وتعميم التعليمات الواردة فى هذا المنشور، وتنفيذه دون تمييز بين أحد وإعداد السجلات اللازمة لقيد وتسجيل إمدادات القلعة وتجهيزاتها، وتركات الموتى، والمواد التى تباع للأهالى والرسوم البحرية، كما توضى باتباع الإجراء السابق فى دفع مخصصات الجند مرة كل أربعة أشهر، يؤخذ عقب تسديدها القسم بالولاء والإخلاص فى العمل، ويبدو من هذه الوثيقة أنه كانت تعطى حصة غذائية للعرب واليهود المقيمين فى القلعة، ويوصى المرشد بالنظر فى الغاية التى قررت من أجلها هذه الحصة، والعمل على إلغائها إذا تبين للحاكم أنها قد استخدمت استخداماً سيئاً، كما يوصى بالدقة فى إجراءات الدفع، وينبه المرشد إلى وجوب العناية بحرس القلعة، ويدعو إلى التشديد فى الحراسة الليلية على الأسوار، والنهارية عند الأبواب، وعدم التسامح إزاء المخلين بالواجب كما يأمر بعدم فتح بابى المدينة «الباب البحرى والباب البرى» فى وقت واحد.

ويتبين من هذه الوثيقة أن المرشد قد تلقى معلومات تفيد بأن بعض المسلمين يترددون على القلعة وخوفا من النتائج التى تجرها هذه الزيارات، يأمر بعدم السماح بدخول الأتراك أو العرب أو اليهود إلى القلعة، باستثناء الذين يراجعون من أجل أمور مهمة، فيسمح لهم بالدخول نهارا، على أن يتركوا أسلحتهم وخيولهم عند المدخل.

ويأمر المرشد بتعميم منشور يحظر بموجبه المالكين للرقيق، بقيد رقيقهم فى الأغلال وعدم الإبقاء - فى القلعة - على أكثر من أربعين أسيرا اللازمين للطحن أو القيام بالخدمات الأخرى للقلعة على أن ينقل بقية الأسرى خارجها حتى يمكن الاطمئنان إلى سلامتها وعدم تعرضها للأخطار.

ويبدى المرشد رغبة فى إبعاد اثنى عشر أو خمسة عشر أسيرا تركيا لأنهم يشكلون خطرا على القلعة، بما عرفوا به من جرأة ومكر، كما يوصى بإصلاح وترميم السوق رغبة فى استمرار الحركة التجارية، على ألا يقام هذا السوق عند الخندق القريب من القلعة.

ويوصى المرشد بضم تركة الموتى الذين ليس لهم وريث، أو لم يخلفوا وصية إلى أملاك المنظمة، كما يوصى بالاحتياط والوقاية ضد الوباء الذى انتشر فى قبرص والمشرق وتكليف المختصين بمراقبة الحالة الصحية خوفا من تسرب العدوى إلى جزيرة مالطة وصقلية، وينظم المرشد الطريقة التى تتم بها العمليات التجارية بالنسبة للمنظمة، والحرص على أن تكون الصفقات التى تعقدها مع القراصنة رابحة، وتحويل التاجر إلى مالطة إذا تعذر تسديد مستحقاته فى طرابلس.

ويطلب المرشد أن يقوم أمين الجمرك، بتقديم حساب للدخل والمدفوعات كل أربعة أشهر وتختم الوثيقة بالإشارة إلى تكليف المرشد لأحد المهندسين بإجراء فحص كامل للقلعة وتقديم تقرير شامل عن أوضاعها، والوسائل اللازمة لإصلاحها.

والوثيقة الرابعة، تعليمات موجهة إلى جورج سخنلج، وهى تدعو الحاكم إلى تفقد الفرسان، والتأكد من أحوالهم، وإمكانياتهم العسكرية، ويشير إلى أن القلعة أصبحت مهددة بخطر الهجوم عليها، من قبل بربروسا الذى استولى باسم السلطان على تونس، وأجزاء من ساحل بربريا ويدعو المرشد هذه النجدة إلى العودة حال تأكدها من زوال خطر بربروسا وخير الدين ملك تاجوراء تاركا لقائد النجدة حرية التصرف فى تقرير المواقف التى تقتضيها الظروف، والإبقاء على قسم من هذه النجدة للدفاع عن القلعة، ويطلب المرشد موافاته بصورة تفصيلية عن الأوضاع التى وجد عليها القلعة،

وإخطاره بحاجاته كما يوجه إليه التعليمات التقليدية حول الإجراءات الإدارية والمالية، طبقا لما وردت الإشارة إليه فى الوثيقة السابقة.

وتؤكد الوثيقة الخامسة الموجهة إلى أنطونيو دى بنييرو المكلف بقيادة إحدى النجدات الأهمية الكبرى التى تحظى بها قلعة طرابلس فى نظر المرشد لا بالنسبة للمنظمة، ولكن بالنسبة للمسيحية بصفة خاصة، والملك الكاثوليكى الذى يبدى اهتماماً بكل ما يتصل بسواحل شمال أفريقيا. وتشير الوثيقة إلى ما توافر للمرشد من معلومات حول خروج بربروسا من مضيق القسطنطينية، بأمر السلطان الأكبر، بعدد كبير من السفن ويبدى تخوفه مما تنطوى عليه هذه الحملة من دلائل، وتشير إلى نية بربروسا فى الهجوم على القلعة ومحاصرتها طبقا لما يتردد من شائعات فى الشرق.

ويطلب منه تعريف الحاكم بأسباب إيفادهم والتشاور معه فى التطورات الجارية مع توخى الحذر واليقظة، والقيام بجميع الأعمال التى تبدو أنها ضرورية.

ويدعو المرشد إلى تنسيق العمل والاستعداد لمواجهة احتمالات الحصار الطويل بالتوفير والاعتدال فى الإنفاق والتصرف بحكمة فى مواد التموين.

أما الوثيقة السادسة فهى تنقل معلومات إلى المرشد عن أحوال المدينة والقلعة وقيام فرقة من الفرسان بالاستيلاء على برج تابع لملك جنزور.

وتتضمن الوثيقة السابعة الموجهة باللغة الإسبانية إلى جورج سخلنج عقب تعيينه حاكما على طرابلس، الإشارة إلى وجود مراد أغا الذى يعمل بمساندة بربروسا بكل الطرق، على تهديد القلعة والمدينة الأمر الذى سيلحق أضرارا فادحة بالمنظمة والمسيحية، ويدعوه للتشاور مع رجال المنظمة وفرسانها للحيلولة دون تمكين مراد أغا من تحقيق أهدافه، ويوصى بإصلاح القلعة وترميمها، وإعدادها لمواجهة احتمالات الهجوم والحصار.

والوثيقة الثامنة لم نستطع الإحاطة بمحتوياتها لجهلنا باللغة التى كتبت فيها.

وفى الوثيقة التاسعة يطلب من فرانسيسكو بيكوتس السفر فورا إلى طرابلس، واستلام النقود الذهبية والفضية والأشياء الأخرى الثمينة ونقلها إلى مالطة وعدم السماح بشحن أية تجارة أو أى شىء آخر، من شأنه أن يعوق السفينة عن الوصول إلى مالطة، أو يعرضها للخطر، وألا يزيد عدد الأسرى المنقولين فوق ظهرها على أكثر من خمسة عشر أسيرا، وفى سنة ١٥٤٨ ظهرت فكرة انتقال هيئة الفرسان إلى طرابلس وتوقعا لهذا الإجراء أصدر المرشد العام فى فصل عام النظام والقواعد التالية التى تنطوى على معلومات مهمة ومفيدة من شأنها أن تلقى أضواء على أوضاع قلعة طرابلس، والحكم الذى كانت تمارسه المنظمة.

وتشير هذه الوثيقة، إلى أن الانتقال سيتم على مراحل تدريجية، بحيث يتم فى السنة الأولى إرسال خمسين فارساً، وحاكماً بدرجة «Balio» تخول له الصلاحيات التى يتمتع بها المرشد الأكبر فى مالطة، وتتم إقامة هؤلاء الفرسان طبقا للطرق المتبعة فى مالطة على أن تدرس نتائج هذه الإقامة والإمكانيات اللازمة لمواجهتها، بحيث يسهل الحكم عند نهاية العام بإمكانية رفع هذا العدد إلى مائة فارس، وهكذا كل عام حتى يتم نقل المنظمة، وتحظر الوثيقة صرف أية مرتبات إلى خدم الفرسان، كما تنص على حرمان موظفى الجمارك من رواتب يتقاضونها من القلعة، نظرا لحصولهم عليها من الجمارك، كما يمنع المرشد الإقامة فى القلعة وصرف المكافأة بالنسبة لمن يقيمون فيها من أجل أعمالهم الخاصة، أو افتداء أقاربهم أو قضاء عقوبة.

وتقضى الوثيقة باحتكار المنظمة للبيع أو الشراء فى القلعة وكذلك المتاجرة مع القراصنة التى يجب أن يقوم بها الحاكم أو أمين الخزينة مع مراعاة تحقيق الأرباح من وراء ذلك.

وينبه إلى وجوب المحافظة على فرن القلعة وتخصيص فران ممتاز وعدد من الرقاء اللازمين، وتهيئة المطاحن التى تدار بالبغال أو الجمال أو الخيل، وألا يسمح لأحد بالخبز لغير حاجات بيته، ويستثنى الهيئة الحاكمة التى يحق لها إعداد الخبز لمن يحتاجون إليه.

وتركز الوثيقة على ضرورة إبعاد العناصر العاطلة المقيمة فى القلعة، كما يوصى بتوزيع تركات المتوفين من القساوسة على زملائهم، بحيث لا يحق لهم المطالبة بمخلفات من مات من زملائهم فى مالطة.

نظرا لقيام عدد كبير من العرب وعائلاتهم وأبنائهم بشراء كافة حاجياتهم من القلعة، فينصح المرشد بالعمل على فتح متجر خارج القلعة أو حانة يباع فيها النبيذ والخبز والزيت والجبن والبقول والعسل وغيرها، لحساب الخزانة العامة، ولا يحق لغيرها بيع مواد التموين، بحيث يضمن الربح للمنظمة، والحيلولة دون دخول عدد كبير من العرب إلى القلعة، وتنص الوثيقة على أن يكون أمين الخزينة على علم بجميع المبيعات التى تجرى فى القلعة صغيرها وكبيرها.

إذا ذهب أحد الضباط أو الجنود فى إجازة، يقضيها فى بيته، أو أى مكان آخر بموافقة الحاكم فلا يصرف له مرتبه أو قسطه من التموين خلال هذه الفترة، ألا يمنح للعرب عددا من حصص الفرسان يتجاوز العشرين، ومن المشاة ما لا يتجاوز الأربعين. إن جميع الغنائم والأرباح التى تحصل عليها

القوارب والمراكب والسفن فى طرابلس ينبغى أن تخضع لرسوم الأميرالية التى تدفع إلى خزانة المنظمة، ويسرى ذلك على القراصنة الأجانب الذين يحققون غنائم فى طرابلس ويستثنى من ذلك السفن التى جهزت فى مالطة، تحت علم المنظمة فيحتفظ برسومها للمنظمة هناك.

والوثيقة الثانية عشرة موجهة من المرشد إلى عضو المنظمة كلاوديودى سنجلا، وتفيد بالقرار الذى تلقاه المرشد من الملك القاضى بقيام الأمير دوريا قائد البحرية الملكية على رأس السفن الإسبانية والإيطالية فى غرفتين لمباغتة درغوث رايس مع انضمام سفن المنظمة إليهم فى هذه الحملة، «ونظرا لما نراه من أن هذه المهمة فى خدمة الله والملك والمسيحية جمعاء فلم نشأ أن نتخلف عن النهوض لهذه المهمة وقررنا إيفادكم لذلك»، ويأمره المرشد بالتوجه إلى مسينا والانضمام إلى سفن دوريا حيثما وجدت ويركز على أهمية تاجوراء، كما يلح على أن أمر مراد أغا إذا لم يعالج بالسرعة الممكنة، فسيصعب طرده، حيث يزداد كل يوم قوة ويدعو المرشد إلى إيضاح هذه الفكرة وشرحها لنائب الملك والأمير، وبيان الخطر الذى يجره إهمال هذا العنصر الخطير، وإطلاعه على الرغبة القوية التى اندفعت بها المنظمة للمشاركة فى هذه الحملة خدمة للملك واستجابة لأوامره، ويطلب منه فى الختام أن يتصرف بما يقتضيه الموقف بالتشاور مع قدماء الفرسان والضباط والبارزين من الرجال.

والوثيقة الثالثة عشرة موجهة من المرشد إلى «جاسبارى دى فلليبس» عقب تعيينه حاكما على قلعة ومدينة طرابلس.

وهى تشير فى البداية إلى المراسم المتبعة فى استلام السلطة والاحتفالات المعتادة واستعراض القوات، وتفقد سلاحهم والحصول على قسم الولاء، كما تشير إلى التنظيمات السابقة حول الطريقة التى تحكم بها القلعة، وينصح المرشد بالاعتماد على الصالح منها، فإذا تبينت له الحاجة إلى تنظيم جديد، أخطر به المرشد ومجلسه لإصدار الأوامر اللازمة لتطبيقه.

ويوصى المرشد بمراعاة الفرائض الدينية واحترام الآحاد وأيام الأعياد ومعاقبة المتحللين والشتامين وعدم السماح بمزاولة ألعاب القمار بأنواعه، والعبث بالأسلحة واللعب بها، والانتباه إلى الحراسة النهارية على الأبواب والليلية عند الأسوار وعدم فتح الأبواب البرية والبحرية فى وقت واحد.

وتؤكد التعليمات السابقة الصادرة بخصوص الحذر من العنصر العربى، والتقليل قدر المستطاع من تردده على القلعة، مع مراعاة مصالح الجمرك وعدم حرمان القلعة من التموين، كما يأمر بعدم الإساءة إلى العرب القاصدين السوق أو العائدين منه، وألا يسمح بانتزاع أى شىء بالقوة، كما يحظر خروج

الجند من القلعة إلى السوق من غير سلاح، ويدعو إلى تجنب الاشتباكات التى لا طائل من ورائها، ولا تجر سوى خسارة بعض العناصر الصالحة، والذخيرة الحربية، وتنص الوثيقة على إيداع تركات المتوفين عن غير وريث أو وصية فى ذمة الخازن إلى أن يفصل فى أمر الجهة التى تؤول إليها التركة ويطلب إخطاره والمجلس بكل الأشياء المهمة التى تقع لهم.

والوثيقة الأخيرة صادرة إلى جاسبرى دى فلليبس ويشير المرشد فى هذه الرسالة إلى ما بلغه من معلومات عن طرق مختلفة، وخاصة ما تلقاه عن طريق زميلهم جورج دى سانتو جوان تؤكد خروج الأسطول التركى واتجاهه نحو مالطة وقلعة طرابلس، الأمر الذى أثار رغبة المرشد فى تدعيم حامية طرابلس، وتحصينها، وأصدر أمره بسفر عضو المنظمة غسو لييم كوبير مع بعض الفرسان وجيوفانى كالابريزى مع جنوده للتوجه إلى طرابلس ويقرر المرشد تنصيب كوبير نائبا للحاكم العام، ويوصى بصرف ما يحتاج إليه الجند من أقمشة من الخزانة العامة، على أن يسدد على حسابهم، وأن يحتكموا إليه فى المنازعات التى تقع بينهم، وأن تكون فرقة النجدة تابعة لقيادة ضباطها الذين يرافقونها، وأن تخول لقائدها كافة الصلاحيات والسلطات والتصرف وفقا لدرجته كقبطان للمدفعية.

إن المرتبات التى تدفع ينبغى أن تكون مماثلة لمرتبات جنود الملك، أى مرتبات حرب وليست مرتبات حامية، وهى تصرف طبقا للتقاليد السائدة أثناء الحرب، فى التاسع والعشرين من كل شهر اعتبارا من اليوم الذى ينتهى فيه أجل المرتب الذى دفع فى صقلية.

يجرى نقل الجنود على نفقة المنظمة إلى قلعة طرابلس والعودة بهم إلى مسينا دون خصم أى شىء عن الأكل والشرب أو النقل.

إذا انقضى شهر سبتمبر المقبل دون أن تقوم الحملة التركية بمحاصرة طرابلس فينبغى أن يعود هؤلاء الجنود إلى مسينا على نفقة المنظمة دون الإبقاء على أحد منهم فى قلعة طرابلس، ولو أبدى الرغبة فى البقاء.

أن يزود الجنود بحاجاتهم الغذائية من خبز ونبيذ وأشياء أخرى بنفس السعر المقرر للجنود فى طرابلس.

أن يكون ما يغنمه هؤلاء الجنود من أسرى وسبايا وأشياء أخرى ملكا خاصا بهم ولا يحق لأحد تجريدهم منه.

إذا جرح أحد الجنود فى خدمة القلعة يقدم له الإسعاف والعناية والعلاج على نفقة المنظمة دون خصم من مرتبه.

أن يزودوا خلال الوقت الذى يقيمون فيه بالبارود والرصاص وفتيل الألغام على نفقة المنظمة.

الخاتمة

كشفت هذه الدراسة النقاب عن مدى تعنت وغطرسة القوى الأوروبية ومن ورائها البابوية فى تحقيق أحلامهم التى داعبت أمانيهم فى وأد القوى الإسلامية داخل ديارهم، لكن خاب أملهم وتضعضعت جحافلهم وتهاوت تحت ضربات القوى الإسلامية المتدفقة والمتوثبة التى أفقدتهم توازنهم فكان الغرم عليهم والغنم للإسلام فى النهاية.

[١] برهنت الدراسة عن مدى الأحقاد الدفينة التى تكتوى بها أوروبا تجاه القوى الإسلامية وعقد العزم على التنكيل بهم بعد سحب البساط من تحت أقدامهم من شبه جزيرة إيبيريا والتنكيل بهم.

[٢] أبرزت الدراسة تكتل القوى الأوروبية وتعاظم قوتها حتى أصبح لها اليد الطولى فى توجيه الضربات إلى القوى الإسلامية التى فقدت توازنها، وبالتالى تسيد القوى الأوروبية للمياه الإسلامية فى البحر المتوسط ومد نفوذهم إلى الحواضر التى تحتضن البحر المتوسط مثل طرابلس فى ليبيا وجربة فى تونس وغيرها من الأصقاع العربية.

[٣] كشفت الدراسة عن انتفاخ أوداج ساسة أوروبا بعد سقوط حواضر المسلمين وإحكام قبضتهم عليها وممارستهم شتى ألوان التنكيل والتشريد والتعذيب المألوفة لديهم بعد القضاء على الأخضر واليابس فى الديار الإسلامية.

[٤] أوضحت الدراسة تناوب وتداول السلطات بين ساسة أوروبا إلى أن وقعت طرابلس بين براثن فرسان مالطة تمهيدا لطمس وإخفاء معالمها الإسلامية بعد ممارسة شتى ألوان التعسف والاستبداد بعد وضع البذور المسمومة فى أرض طرابلس وتخومها.

[٥] أشارت الدراسة إلى الصحوة الإسلامية التى فجرتها الدولة العثمانية بعد تعاظم قوتها، وبالتالى تشمير سواعد الجد من أجل تضييق الخناق على الفرسان وتعقبهم أينما وجدوا تمهيدا لقطع دابرهم.

[٦] حققت الدراسة مدى تهاوى جحافل الفرسان بعد أن تفككت أوصالهم وأصابهم الذعر بعد أن تجرعوا مرارة الهزيمة وتمرغوا فى أوحالها بفضل توثب القوى العثمانية البارعة، وتوج ذلك بأفول نجم الفرسان عن طرابلس وسطوع نجم آل عثمان على المدينة الفاضلة التى تجسد مركز إشعاع حضارى عبر التاريخ بفضل موقعها الفريد بين أحضان البحر المتوسط، علاوة على كونها بوابة لأفريقيا من ناحية الشمال إذ تطل برأسها على مياه البحر المتوسط الجارية.

الملاحق

الملحق الأول

قائمة بأسماء ولاة منظمة فرسان مالطة فى طرابلس

قائمة بأسماء ولاة منظمة فرسان مالطة فى طرابلس

١- جاسبارى دى سانجوسا Gaspare De Sanguessa
١٥٣٠- ١٥٣١

٢- برناردينو ماشادو Bernardino Machado
١٥٣١- ١٥٣٢

٣- أوريليو بوتيجلا Auerlio Bottigella
١٥٣٢- ١٥٣٣

٤- غارسيا كورتس Gorcia Cortes
١٥٣٣- ١٥٣٥

٥- جورج سكيلنج Giorgio Schiling
١٥٣٥- ١٥٣٧

٦- فرناردو دى براكامونتى Fernardo De Bracamonte
١٥٣٩- ١٥٤٤

٧- كريستوفر دى سوليس فرفان Crisotoforo De Solis Farfan
١٥٤٤- ١٥٤٦

٨- جيوفانى لافليتى Giovanni La Valette
١٥٤٦- ١٥٤٩

٩- بيترو نونيز دى هريرا Pietro Nunes di Herrera
١٥٤٩- ١٥٥١

١٠- جاسبارى دى فالليس Gaspare De Vallies
أبريل ١٥٥١- أغسطس ١٥٥١

الملحق الثانى

نصوص الوثائق

Documenti dell'Archivio di Malta Relativi al Dominio dei Cavalieri a Tripoli

I

Il primo accenno alia presenza di Cairadino a Tagiura si trova nella seguente istruzione del Gran Maestro al priore di Roma, fra Bernardo Salviati, Capitano Generale delle Galere, incaricato di una campagna navale :

« ... quando non succedesse el caso iuxta l'intento nostro, che Dio no' lo voglia, ritornarete cum tuta la gente qui o pure alia volta de Tripoli secundo giudicarete meglio per li tempi et vittoaglie vi trova-rete, sforzandovi fare quelli effetti cognoscerete essere al proposito in

servicio della Christianita et honore de nostra Religione, maxime ob-vare ch'el Rays fatto Re de Tagiora non fermi 'l pede in quelle parte cercando tuti li expedienti de pigliarlo ». L'istruzione e in data 17 agosto **1531.**

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 415 (1531 - 1534), fol. 215 v.).

II

« Instructione a voi venerando prior de Roma, Capitano Generale de nostre Galere et armata de quanto haverete a fare in questo viagio che Dio vi conduca et riduca a salvamento.

« Et primo sapendo quanto importa brusiar la fusta di quel Rays che se dice Re de Tazora ct havendo cum voi li piloti et gente per far Feffetto sopra cio non vi dicemo altro excetto che partiate al nome de Dio et procediate in tuto cautamente si in mare come per terra cum I'antivedere si conviene, de manera che detta fusta sia brusiata et se possibile sera ruynata la torre.

« Item fatto questo como speramo farete con el governator de' Tripoli et havuta informatione di successi di quelle parte possendo fare alcuna bona opera in favor del Castello et danno delli inimici, pigliarete Foccasione como parera conveniente et bene.

« Item direte da parte nostra al detto govematore si como gli scrivemo che habiamo deliberato mandarlo da sua M.ta per alcune cose importante a nostra Religione et che se imbarchi sopra Ie gallere per venir con voi lassando '1 cargo et loco suo in sua absentia al comandator fra Bernardin Machado al quale farete obedire tutti quelli del Castello si Religiosi come altri incargandoli da parte nostra che sia vigilante in quel governo como in lui confidamo.

« Item parendovi andarete et farete un torno in sino alii Secagni si potresti riscontrare alcune fuste o presa procedendo cum consiglio delli patroni et de altri pratici de quelle bande et fatto questo ritor-narete qui al piu presto sera nossibile... Datum Melite — die 6 octobris 19531 ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 415 (1531 - 34), f. 221).

III

« Instructione a voi Religioso in Christo a not charissimo fra Garcia Cortes Comandator d'Ascon de quanto haverete a fare nel governo vostro del Castello et fortaleza nostra de Tripoli che Dio vi conduchi et incamini in tutte Ie action vostre :

« Et primo

« Havendove noi insieme cum nostro Consilio per la sufficientia vostra et fede tenemo in voi ellecto et deputato Govematore di detta fortaleza, mandamo nostro Galione aposta fatta per portarvi cum tre Cavalieri in compagnia vostra. Partirete donque al nome de Dio et gionto darete nostra lettera al Comandator fra Aurelio, al qual scrivemo si como lui a rechiesto che venga per deffendere Ie ragion sue del priorato de Pisa, et che vi facia dare a nome nostro et de nostra Religione, obedentia, sacramento et homagio da tutti li officiali et soldati cum tutta la sollemnita et cerimonie accostumate remettendo-*ve*. el governo et facendovi consignare el tutto.

«Item intrato in possessione del governo farete far la mostra o sia resigna de tutta la gente sta al soldo nostro pigliando da loro juramento de servir bene a noi et a nostra Religione ogni uno in suo officio secundo gli sera ordenato

et comandato et saperete si Ie arme porterano facendo la mostra sonno (sic) loro, et quando no' lo fusseno vederete che ne comprano et stiano ben in ordine come si conviene. Et per che intendemo ci sonno alcuni soldati manco di membri o altra-mente insufficienti et inutili, gli appontarete et notarete dextramente dandone aviso de quali et quanti sono a cio vi possiamo provedere d'altri al loco loro, et parendovi expedirne alcuno, lo farete provedendo in questo meso ch'el Thesoriere non anticipi denari ne robba a simili homini inutili a cio piu facilmente si possino expedire.

«Item essendo la chiesa del Castello accostumata tenere quatro Capellani, avertirete che sieno sufficienti provedendo ch'el culto divino sia ben fatto et revederete Ie joye et ornamenti d'essa chiesa, com-probandoli cum l'inventario antico et provedendo che stieno in man de persona secura che li doni bon recapito.

« Item revederete l'artelleria del Castello si tutta sera in essere conforme al inventario, qual sta in poter del Notario insieme cum quella habiam mandato dapoi che secundo intendemo alcuni versi et altre bombardete di ferro si sonno presi in un galione che fu mandate dal governatore a Capo di Mesurata et vedendo la difficulta tenemo de recuperar monitione non consentirete che della fortaleza se accommodi ne soccorra Corsari ne d'artelleria ne di qualsivoglia monitione.

« Item mantenendo noi a soldo per sustenimento detta fortaleza ducento persone tra officiali et soldati in li quali si comprende li quatro Capellani della Chiesa recognoscerete si ci sono tutti et si li officiali sono tutti sufficienti per loro officio dandone aviso a cio bisognando possiamo provedere.

« Item nel numero di detta gente sonno compresi dodici bombar-dieri, farete parimente rivederii si tutti sonno habili et sufficienti, or-denando che facino le pedre et altri artfici de monitioni como si acos-tuma in ogni altra fortaleza. Et farete recognosere lo legname tanto per l'artelleria come per la stantia et provisione dando aviso a cio si possa provedere.

« Item portate cum voi il quinterno de'bandi et gride altre volte fatte sopra il regimento de la fortaleza et bona guardia delle muraglie et porta, lo vederete bene et la prima festa poi che sarete gionto et intrato al governo detta la prima messa farete pregonare et gridare in pubblica piaca con intervento del Notaro et argusino, cum lo tamborlo como s'acostuma le cose contenute in detto quintemo, o parte d'esse como vi parera meglio provedendo che detto bando sia executato senza haver respetto a nessuno a cio che ministrando bona justitia in la fortaleza ogni un possa vivere quietamente et in pace.

« Item havendose de consignar in man del thesoriere tutte le cose che di qua se mandano per provision del Castello, farete ch'el Notaro registri tutti li responsali et cossi medesmo tutti li denari et robbe che mtrano in potere

di detto thesauriere como denari di cavalcata, arren-damento di furno, beni de morti robe et provision che si vendino a mori, dretti de' Armiragliato et di qual si voglia altra cosa che intri in poter de detto thesauriere, qual registro farete tenere da esso Notaro in bona forma.

« Item la paga de la gente si costuma fare de quatro in quatro mesi per man del thesauriere in presentia delli officiali et con intervento del Notaro, et facendosi detta paga si sol pigliare juramento di soldati di ben servire. Pero cossi lo farete exequire notando la summa che havera montato la paga, della quale farete cautela al thesauriere per suo discarico, similmente si da alia gente soldata ogni mese sua ration di pane et vino qual ancora vedrete quanto monta facendone cautella al thesauriere et per che siamo informati che si da ratione ad alcuni mori et judei avertirete per qual effetto si da detta ratione et parendovi esser mal empleata, la levarete.

« Item tutto quello che si dona alii soldati, in denari robbe et provisioni per conto di lor salario a d'essere con polica sottascrita de vostra mano, fatta et registrata per il notaro. Et si accostuma ad alcuni soldati per subvenire a loro necessita anticipar lor salario di quatro mesi cossi lo farete continuare pur che non sieno homini di mala fama et da poco.

« Item essendo la bona guardia dil Castello como sapete piu im-portante de tutto il resto, sarete molto vigilante

sopra la guardia si fa di notte in la muraglia et di giorno in la porta, non perdonando a nessuno che mancasse, ordenando al capitano et tenente della porta non la debbiano aprire che prima non sia sonata la campana, a cio quelli a chi toca la guardia possano venire alia porta et che in nessu-na manera Ie doe porte cioe della marina et della terra non si aprino ae stieno aperte in un tempo.

« Item perche siamo informati che in la fortaleza intrano moiti mori con lor armi si a cavallo como a pede per evitar ogni scandalo et mconveniente che potesse uccedere, volemo che non lassiate intrare nel Castello nulla sorte de turchi, mori, ne judei excetto si alcun ve-nesse per negociar cose importante, qual lassarete intrare como acca-de alia giornata facendoli pero lassare Ie armi et cavalli alia porta.

« Item farete gitar bando che ogni uno habia de tenir soi schiavi ferrati in doi piedi et non comportarete che piu di quaranta simili schiavi che sono necessarij per macinare et altri bisogni stieno in la fortaleza et questi quaranta potrano essere di quelli che anno meso de rescattarsi; tutti gli altri farette che lor patroni li mandano o por-tano via per star piu securi et fora d'ogni suspicione et per che semo mformati che in la fortaleza sonno XII o XV schiavi turchi quali, come sapete, sono per loro astucia et valore molto periculosi, volemo che li faciate levar et portar tutti fora della fortaleza excetto quelli che forse haverano dato principio a lor rescato.

« Item a cio che li mori possino star con lor commoditate et ne-gociar con li Christiani facendo lor mercato o sia goco volemo che faciate rifare et restaurare dettc coco o mercato come lo fece fare et tenia el Comandator fra Gaspar Sangoessa, non permettendo che al fosso si facia piu detto coco.

« Item accadendo che in detta fortaleza morisse alcuno senza testamento o senza herede ordinate che tutti li beni soi pervenghino in potere del thesoriere con intervento del Notaro al beneficio de nostra Religione.

« Item per che intendemo Cypro et alcune altre parte de levante sonno suspette di peste provederete pr adesso et per lo avenire sopra cio deputando persone idonee che vedano et sieno vigilanti sopra la sanita cum la diligentia si conviene che importa la salute non sola-mente della fortaleza ma di questa insula et Sicilia.

« Item como sapete e stato provisto in nostro Capitolo Generale che li Governatori non facino mercantia excetto a nome de nostra Re-ligione ; per questo vi dicemo che quando capitasse in la fortaleza alcun corsaro o altra persona cum mercantia et robbe che Ie debbiate comprar a nome della Religione, avertendo in li precii che si guadagni al manco fine a cinquanta per cento, piu o manco como meglio parera a voi, et si in mano del thesoriere non fusseno denari nostri ne lli man-darete pagar qui a not, essendo contente tale persone da cui compra-rete dette mercantie.

« Item ordenarete al secreto et credenciere della doana che de quatro in quatro mesi vi debiano dare li conti della doana cioe delli introiti et exiti et preso juramento da loro che detti conti sono justi et senza fraude et che hanno cercato Futile della doana como si con-viene mandarete qua alii signori del thesoro detti conti ogni quatro mesi.

« Item mandamo cum voi maestro Pichino nostro ingenieri et il maestro di far calsina cum il carbone. Farete che detto ingenieri reve-da bene il Castello per saper darne qua relatione dicendo in quali termini sta et como si devera reparare et che Faltro faci calcina et farete far il forno per detta calcina nel fosso del Castello in chel loco vi par-ra piu al proposito et tanto in Ie cose sopra scritte como nel resto succedera alia jornata, provederete como in voi confidamo dando sempre aviso del seguito. ... Melite, die X mensis junii 1533 ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 415 (1531 - 34), fol. 246 *v.* et seg.).

IV

« Instructione a voi venerando gran Balio fra Georgio Scling de quanto haverete a fare in questo viagio per visitar, et soccorrere nostra fortaleza et Castello de Tripoli che Dio vi conduca a salvamento.

«... Partirete cum nostro Galione accompagnato da questi cava-lieri, quali mandamo per soccorso, et gionti al

Castello farete la visita si delli soldati se sono ben in ordine et sufficienti come delle muni-tione conforme a vostra preminentia secundo se accostumava al Castello de Sancto Petro, scrivendo particularmente ogni cosa per farcene poi bona et sufficiente relatione.

«Item, per stare el Castello in periculo, respetto a Barba Rossa, qual al nome et cum Farmata del Gran Turco se e fatto signor de' Tunes et di quelle parte de Barbaria, parendovi conveniente et bisogno secundo Ie nove trovarete cum el parere del Govrnatore, restarete per eoccorso nel Castello cum l'auttorita jurisditione et superiorita tanto sopra detti Cavalieri come sopra li soldati, et in tutte Ie cose concer-nenfce la guerra de manera che siate obedito et reverito como se fusse la persona nostra dicemo del Maestro che cossi lo commandamo et volemo confidandone in la defensione del Castello et in tutto il resto farete come di voi si spera.

«Item, restando a Tripoli cum l'aviso del Governatore, provede-rete de uno maestro d'ostal per tenire l'albergio et fare la spesa orde-nando al thesoriere che lo proveda de vittuaglie et de quanto sera bisogno, ma che si vadi moderatamente et tenghi bon conto accomo-dandosi al loco et tempo et secundo la necessita.

«Item, trovando Ie cose in tal dispositione che non fusse bisogno restare, cioe quando non se dubitasse de Barba rossa ne di Caradino Re di Tajora, potrete ritornare cum detti

cavalieri o parte d'epsi las-sandone alcuni secundo cum l'aviso del governatore vi parera meglio et piu expediente.

«Item, restando scrivirete particularmente in qual dispositione havete trovato el Castello ben o mal provisto cum Ie nove se havera-no in quelle parte, avisandone di quello haverete bisogno et in questo mezo sopra tutto attenderete che si facino bone guardie provedendo al resto come la importantia del caso ricerca et sopra voi ne riposamo. ... Melite, die XXII decembris 1534 ». (Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 416, fol. 190).

V

« Instructione a Voi Commendator fra Antonio de Binero de quanto haverete a fare in questo soccorso de Tripoli che Dio vi con-duca a salvamento.

« Et primo

« Per essere la fortaleza et Castello nostro de Tripoli di tanta importantia come sapete non solamente a nostra Religione ma a tut-ta la Christianita et in particulare adesso di suoa Cesarea Maesta per Ie cose di Barbaria, havendo nova come Barbarossa era uscito del streto de Constantinopoli per Comandamento del gran Turco cum XL galere ben in ordine ultra XVIII o XX fuste cum scale piconi et sappe, confidandone in la prudentia et valor vostro et dubitando che detto Barbarossa secondo gia se parlava in levante non andasse per dar un salto al detto Castello o

assediarlo, vi havemo electo et depu-tato per Capitano de soccorso con XXV Cavalieri et alcuni soldati, et a questo effetto per non tardare mandamo Ie gallere et in compa-gnia el Navilio per voi noleggiato con alcune vittuaglie et legna vo-lendo et intendendo che ditti Cavalieri et soldati vi habiano de reve-rire et obedire come Ie persone nostre et facendo el contrario, che li possiate castigare o pur mandarii qua conforme alii usi et stabilimen-ti de nostra Religione.

« Pero partirete al nome di Dio et gionto al Castelio farete inten-dere al Reverendo gran baylio Governatore la cagione de vostra an-data et consultate insieme Ie cose occurrente, serete vigilante et vi sforzarete dal canto vostro col vostro soccorso de far tutte quelle cose vi parerano et trovarete essere necessarie et al proposito per la bona guardia et defensione de detta fortaleza, offensione de gli inimici et favore de nostri amici la propinqui, accomodandovi cum detto gran bailio et altri di manera che siate sempre in bona unione.

« Item, pigliarete dal thesauriere tutte quelle vituaglie et altre cose che serano bisogno per Ie tavole de Cavalieri et li provederete de mangiare et bevere, spendendo piu moderatamente yi sera possibile et cum quella restrintione et cautella si conviene et si suol fare in Ie fortaleze quando si dubita de assedio, provedendo al tutto como di voi confidamo cum dar al continue aviso di quello occurrera alia

giornata a tal che bisognando vi possiamo provedere et che sapiamo li progres-si et ben star vostro et della fortaleza.

... Datum Melite etc. die VI mensis Augusti MDXXXVI ». (Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 416, fol. 205).

« Instructione et ricordo a voi Religiosi in Christo a noi charissi-mi fra... de Belengniere et Petro Felizes di quello haverite a fare'in questo viagio per darle et lassarle poi a monsignor Reverendissimo nostro Maestro.

« Et **primo**

« Partirete cum el bergantino et de Palamos o Barcalona secundo 11 tempi et che meglio vi parera andarete in diligentia alia volta de Caspe dove gionti darete nostre lettere et la bulla de sua electione a sua Reverendissima signoria besandoli la mano cum la debita obe-dientia da parte nostra.

« Item la informarete di successi di queste parte como laudato Dio stamo bene, suo convento unito, et in pace non tropo mal provisto de vituaglie et d'altre cose, et cossi medemo sua fortaleza et Castello de Tripoli dove fano pochi giorni che li nostri, essendo ite Ie galere per tal effecto, presero la Torre del Re de Zanzor (sic) et quelle altre terre ultra Ie tre galeote cum la presa del navilio de mori come sapete et che lion si manca de ogni banda maxime cum Ie galere fare al convento bonissime opere contra infideli.

. . . .

. . . .

... Datum Melite etc., die III mensis novembris MDXXXVI ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 416, fol. 205 seg,).

VII

« Instruciones a vos vendo religioso et fray Jorge Schiling gran baylio de Alemanja y capitan de nuestras galeras de lo que aveys de hazer eneste viaje que partis para Tripol que nuestro senor Dios os lleve y trayga a salvamento.

« Et primo

« Con el primer buen tiempo partireys en el nombre de Dios deste nuestro puerto de Malta con nuestras quatro galeras para la vuelta de Tripol con toda la diligencia que fuerc possibile porque ay mucha nc-cessidad de vueatra llegada porque como sabcys es llegado en Tajora un renegade llamado Morataga el qual con el favor de Barbaroxa pro-cura por todas las vias y modos que puede damnificr el castillo y cib-dad que seria no poco danno nuestro y de la Christianidad; por tanto por que las cosas maduramente pensadas suelen tcner buenos fines, con consulta del religioso nuestro fray Hernando de Bracamonte

y de los patrones de nuestras galeras y de otros cavallcros de la Religion que a vos paresciere procurareys de cxpelcr al dicho Morataga que no pueda effettuar su dannado proposito buscando todas a quellas vias y modos que con el parescer dc todos los sobredichos vieredes ser mas convinientes.

« Item, por quanto el dicho Morataga haziendo algun danno en la cibdad o apoderandose della, redundaria no enpoco danno al castillo por la vezindad quo con el tiene, vos dczimos que si os pares-ciere ser necessario fortaleceria y repararia, sacareys de las galeras gente para ello, poniendo en ello toda buena ordcn y guardia por quo a causa dela gran cantidad desclavos que llevays y de los cnemigos, nuestras galeras y vos otros no seays damnificados.

« Item por que mandamos municiones de polvora y salmitre y sacres dexareys lo todo ally por que nos a parescido ser necessario para mayor fortificacion del dicho castillo.

« Item, por quanto ultra de los soldados de las galeras llevays otros dexar los eys ala placa del dicho castillo si vieredes que son todos necessaries, y si todos no fueren necessarios restaran a quellos que a vos y al governador parescieran traycndo los demas en las dichas galeras. Mas si las cosas estuvieren en tal estado que pares-ciera no ser bastandes los dichos soldados, sacareys de las galeras los que os parescieran con tal que las galeras no queden desarma-das.

« Item, dexareys dos lombarderos que llevays para el dicho castillo. y, si fuerc menester mas tomareys los de las galeras, mi-rando siempre que lo uno y lo otro quede proveydo.

« Item, por no ser tan ciertos como al presente estan las cosas del castillo, y de loque podria succeder despues de vuestra Ilegada no determinamos el tiempo que ally estareys salvo lo dexamos a vuestra buena discrecion y prudencia para que lo mesureys justa la necessidad y tiempo y lugar que vieredes necessario confiando de vuestra continua diligencia y vigilancia que en todas las cosas siem-pre aveys tenido y teneys.

« Item, todas las cosas suso dichas complidas como sea dicho quando vieredes ser tienpo conviniente de venir os podreys venir por Secanos por si toparedes algun navio o fusta de infideles para venir con alguna ganancia en lo qual todo os governareys como os aveys governado y como per experiencia lo avemos siempre conoscido, y eomo de vos sespera.

« Item, con gran studio y diligencia procurareys con todos quan-tos son en las dichas galeras que ayan siempre de honrrar el nombre de Dios y de su bendita madre y de todos los santos trabajando y apartando fcoda blasfemia y todo mal.

« Item, comendamos a todos los cavalleros que ayan de tener y observar la obidiencia y hazer onrra a vos y a todos los patrones.

« Item, sobre toda cosa estareys atento haziendo hazer buena guardia en las dichas galeras como de vos sespera por que por negli-gencia no os acontesca algun escandalo, en las galeras especial que como vos sabeys llevays buena cantidad de esclavos turcos.

« Item por quanto jsxta la forma de los establimentos a la digni-dad y preheminentia de gran baylio de Alemana conviene visitar el castillo de san Pedro, estando la religion en Rhodas, por tanto vos dezimos por la razon suso dicha que conforme a vuestra preheminen-cia visiteys y reformeys el dicho Castillo y fortaleza de Tripol juxta la forma y tenor de los establimentos y costumbres de nuestra Religion... Melite, die nona mensis decembris 1542 ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 418, fol. 283 v.).

VIII

« Instructiones a vos venerando Religioso etc. fra georgio Schi-ling gran baylio de Alemanja y capitan de nuestras galeras de lo que aveys de hazer en este viaje que partis para Tripol que nuestro seftor Dios os lleve y trayga a salvamento.

« Et primo

« Como ya sereys informado a complimjento por otras instruc-tiones nuestras que llevays de nueve de diziembre del afto passado de lo que se avia de hazer en este dicho viaje ansi cerca del fortalescer el dicho castillo y cibdad como de otras cosas que vos parescieron en-tonces necessarias. Por tanto por agora no nos paresce tornar las areplicar salvo referirnos a ellas, queriendo que hagays segun el tenor y forma dellas, con annedir los capitulos infrascriptos.

« A nos parescido sera bien que antres que vays a Tripol os pas-seys por los Secaftos y ally podreys sperar algun navio de ynfideles que segun somos informandos se speran cadadia de alexandria. .... con talquc no ayayis de retardar mas de hasta quinze o veynte dias por que no se pierda vuestro viaye tarn necessario annydiendo que si os paresciere que sera bien no esperar tanto lo remitimos a vuestra buena discrecion para que segun la necessidad occurriere lo hagays y como mas al servicio y utilidad dela Religion y del castillo conviniere.

« Item, por que aegun emos sabido por letras del governador que de un castillo que esta cerca del castillo podria padescer no poco dan-no y detrimcnto el castillo si los enemigos lo tomassen, y estando for-talcscido mucho provecho, por esto vos dezimos que seyendo tan necessario

voa con el governador dareys orden que se repare el dicho Castillejo lo mejor que scr pudiere.

« Item dexareys a la placa del dicho castillo los soldalos que llevays paresciendo ser todos necessaries y si todos no fueren necessaries restaran a quellos quo a vos y al governador paresciere, trayendo los otros en la dichas galeras. y en lo demas como emos dicho nos referimos a las instructiones arriba dichas, para que os governeys por ellas y a lo que con voa emos platicado y en todo a vuestra buena diligentia saber y prudentia lo remitimos que lo hagays como de vos scspcra por que en vos nos descargamos. In cujus rei etc... Mclite, die VII mcnais aprilis MDXLIII ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 418 (1541 - 43), fol. 285).

IX

« Instructione a voi religioso in Christo a noi charissimo fratri Francesco Becutis patrono de nostra galera Santo Joanni di quello ch'haverete a fare in questo viagio de Tripoli che Dio vi conduca et reduca a salvamento.

« Et **primo**

« Partirete con la maggior diligenza che vi sia possibille et anda-rete alia volta de Tripoli a golfo lanciato senza tocari li Sechagni ne altro luoeo, se il tempo non vi sforzase et gionto sarete in Tripoli da-rete nostre lettere al

thesorero de ditto castello et a fra Bernardino Morosio ali quali scrivemo che tutti li denari, oro argento et altre joye che del formento sarano riscotuti si donino et consigneno contati et numerati et sigillati al ditto nostro fra Bernardino Morosio che per questo effecto sta in Tripoli che li porta in qua et se per caso detto fra Bernardino non potra venire ve li donino contati et numerati come di sopra e ditto a voi li quali portarete securi et a bon recapito.

« Item, per che nostra intencione e che detta galera cossi a la andata come a la tornata vada expedita per alcuno pericolo che po-trebbe succedere, non consentirete che si carrica alcune robbe ne mer-cantie ne altre cose che donino impedimento, ne mano ala retornata se porte niuno negro ni sclavo de particulari per che altramente sera-no perduti et confiscati ala signoria. Benche se si trovano alcuni schiavi de la signoria in Tripoli, ne levarete in fino a quindeci et non piu, et in tuto vi governarete comme di voi si spera procurando di essere presto et con diligentia qua in Malta per la necessita che si ha delle galere et como da voi spettamo... Datum Melite, etc., die quarta mensis junii MDXXXXV ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 419, fol. 49).

« Instructiones a vos religioso etc. fray Hernando de Bracamon-te commendator de Ruviales y capitan de nuestras galeras de lo que aveys de hazer en este viaje que

partis para Berveria que nuestro seftor Dios os lleve y .trayga a salvamento.

« Por que la causa principal por que os embiamos es por si po-dreys tomar la galeota de Morataga la qual segun somos informados la quiere embiar alevante por ciertos designos que tiene contra el nuestro castillo de Tripol, por tanto en el nombre de Dios os partireys con diligentia con nuestras quatro galeras. y para effectuar lo suso dicho guardareys el orden infrascripto.

« Que partidos de a qui procurareys tomar tierra en la costa de Berberia de noche de lante de Tajora dexando dos galeras a XXV o XXX millas en mar en jolito, y las otras dos yran a tomar la posta ala xar dexando el vergantin de Brandano a doze o quinze millas segun paresciera alos officiales en cima de Ta ora el qual vergantin podra estar en jolito tada la noche hasta la manana, y siendo de dia tomara su camino hazia Tripol y si la galeota saliere tomara la buelta de mar acercandose a las galeras, y las dos galeras que daran en la xar procuraran de tomarle la tierra que no pueda tornar a Tajora y entonces todas quatro seguirla. Mas si la galeota no saliese el vergantin seguira su camino a Tripol lo mas secreto que sea possible y echa-ra un hombre en tierra qual os paresciere infonnandose si la galeota esta en Tajora. o no. y sabiendo que no es partida dicho vergantin de dia tomara la buelta de las galeras por que podria ser que en esta segunda buelta la galeota saliesse, mas si caso fuesse la

galeota partida de Tajora dicho hombre se informe quantos dias a que sea parti-do, y dicho vergantin vaya a las galeras por dalles la nueva, y en tal caso las dos de dichas galeras yrsean costa a costa hasta el cabo de Mesurata, y las otras dos por mar lexos ocho millas hasta el dicho cabo, y si en el camino hallase des algunos navies de infieles putiendo los tomar los tomareys, o veramente a quellos que dexastes la otra buelfca.

« Item, por que nuestra intencion es que en el dicho camino no tardeys mas de quinze dias, si llegados al cabo de Mesurata y perdida la esperanza de tomar dicha galeota sobrassen algunos dias de los quinze, podreys yr la buelta de los Secanos, y de ally alos Gelbes por si hallasedes algun navio de ynfieles, hasta complir el dicho tiempo, y lo mesmo hareys si la galeota estando en Tajora, y ala yta ny ala tornada saliese que nos sera necessario yr al cabo de Mesurata, mas yreys derechos alos Secanos, y de ally alos Gelbes hasta aver gastado el tiempo de los quinze dias, los quales complidos tomareys la buelta de Malta con toda diligencia... Datum Melite etc., die XIIII mensis Ju-lii MDXXXXVI) ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 420, fol. 210 v.).

XI

Nel 1548 in previsione del progettato trasferimento dell'Ordine a Tripoli veniva stabilito in un « Capitolo Generale » il seguente ordi-namento, che da notizie interessanti sul governo della citta :

« Ordinationi sopra Tripoli.

« Et prime.

« Attento che in tutti li rolli si e supplicate che la Religione si transferisca in Tripoli hano ordinato che in questo primo anno si man-dino in detto luogo cinquanta cavallieri, e tun governatore, qual sia baglio, accio sia obedito in detto Castello, come monsignor Reveren-dissimo qui in Malta, tenando alii detti cavallieri albergia, secondo fanno li piglieri qui in Malta, et facendosi questo bastaria di tenere Bolum ducento sessanta soldati in circa al soldo del Castello, come appare particularmente per una lista, et che li Reverendi Signori pro-curatori del comun thesoro tengano il detto luogo sempre ben pro-visto de vittoaglie, accio che complito che sia l'anno si comprenda t'acilmente se in la seguente annata si potrano mandare et accrescer fino al numero de cento cavallieri, e tconsequtivamente de anno in anno, mandarne di piu cinquanta fino che tutta la Religione fusse in detto luoco, et vedendosi che non si potrano trattenere in detto luoco nel primo anno li cinquanta cavallieri, o nel secondo anno li cento, et in lo terzo, li cento cinquanta, si vederia chiaramente che tutta la Religione nel prefatto luco non si potria sustentare.

« Item che il portaro del detto Castello sia religioso dando ricom-pensa a Joanico Alfers al presente portaro in qualche altra parte, il quale per esser gia vecchio, et non veder quasi piu, non puo suppor-tare il travaglio necessario al detto officio.

« Item che mandandosi nel. detto loco de Tripoli Cavallieri de ar-mamento, li loro servitori non habbiano da tirare soldo alcuno, ne manco li servitori de alcuni altri cavallieri che vano col governatore et thesoriero reservando solum quatro servitori il soldo, per doi del Govematore, Faltro del capitanio delli cavalli, et l'altro del thesoriero, con questo che siano sufficient!.

« Item. che quelli che hanno officii in la doana tanto per essi come per altri non habbiano soldo nessuno dal castello poi che l'hanno dalla detta duana.

« Item che, andando alciini ad habitare in detto castello per fare suoi negocii particulari, o per riscatare alcuni lor parenti, over in detto luoco mandati dalla giusticia, non debbiano aver soldo nessuno, at-tento che con il soldo o senza hanno da stare in detto loco.

« Item per quanto in detto castello vi sono quatro capellani che tirano soldo de soldato, comandamo che li tre di essi siano del'habito, cioe li doi de caravana, et uno sia vicario, sensa soldo che habbia con-tinuamenti residere la, li

quali pigliarano li trentanarii delli frati che ibi morirano, et l'alfcro potra esser seeulare.

« Item che nessuno in detto castello, tanto dentro come di fuora, non possi vendere formento o biscotto, eccepto la signoria, et venendo alcun corsaro, over mercante, che ne portasse per venderne il gover-natore et il thesorero lo comprino a nome del thesoro, a precio hones-to con questo che la signoria habbi poi alcun utile.

« Item che venendo alcun corsaro con alcuna presa et portando alcune robbe, nelle quali la signoria potesse haver alcun guadagno comprandole, il detto governatore et thesoriero Ie comprino a conto del thesoro, et havendo alcun altra persona fatto partito con alcuno de detti corsarii per avanti la Religione sia preferita precio per precio.

« Item si havisa che si la signoria tenesse il forno de detto castello, mettendo un buon fornaro, et schiavi necessarii, con doi molini da mulla o da cavallo over da camello per far farina, et si ordinasse che nessuno facesse pane eccepto per uso di sua casa, solum la signoria, che forniria chi ne avesse di bisogno si awansaria per anno tre-cento saime di formento piu presto de piu che di manco, et seria causa che molta gente inutile che sta in detto castello che non serve ec-ceto di fare pane et venderlo se ne partiria et cosi restara il loco piu alleggerito de persone inutili.

« Item che Ie dispuglie delli frati che ibi morirano siano distri-butte fra li frati della lingua dovi sarano li morti, li quali frati noc possano pretendere alcuna despoglia de quelli che morirano in Malta.

« Item attento che in la citta di Tripoli vi habitano moiti mori con loro moglie et figlioli, li quali comprano quasi tutto quello che gli e necessario per il loro vivere dal castello, se potra ordinare fuor del detto castello uno magazeno, o ver taverna, nel quali si vendi pane vino oglio formaggio legume, mele, et moltre (sic) altre cose minute che *si* vendono in detto loco, tutto al conto del thesoro, et che nessuno fuora di esse castello possi vendere alcuna vittoaglia, eccetto in ditto loco deputato, che saria oltra il guadagno siguiria alia Religione, evi-tare che tanti mori non entrino nel prefatto castello.

« Item che la thesoreria sia tenuta provista de tutte Ie cose che si pono vendere in esso castello grosse e menute, et che il govematore, capitanio et thesoriero ne altra persona non possi vendere robba alcuna sopra soldo a soldati eccepto Ie robbe del thesoro et se alcuno contra fara non gli sia fatto buono, immo il thesoriero, l'habbia a satis-fare de altra tanta robba del thesoro cargando al tale soldato ie precio sopra suo soldo, se pure havra de havere.

« Item accadendo che alcun soldato tenente o altro officiale ha-vesse de andare in casa sua o in altra parte con

licencia del governa-tore per alcun tempo che al tale non li corra il soldo ne ratione del tempo che stara fuora.

« Item che non siano alia ratione de cavalli piu de vinti mori et alia ratione de pedoni, non vi siano piu di quaranta mori.

« Item che non s tenga al soldo et ratione piu de vinticinque negri franchi et cada passaggio si faccia la visita, et quelli che sarano de piu delli vinticinque il govematore li faceia imbarcare ritenendo li mi-gliori per servicio della fabrica.

« Item che de tutte Ie prese et guadagni che farano Ie barche, fragati, bergantini o altri vasselli de Tripoli si habbia a pagar l'armi-ragliato al thesoro, et il simile tutti li altri corsari forastieri che fa-cesseno bottino in Tripoli, eccetto quelli che havessero armato in Malta sotto la bandiera della Religione con licentia de Monsignor reve-rendissimo tal armiragliato sia reservato ala signoria reverendissima».

(Archivio di Malta. Capitula Generalia, vol. 287 (1543 - 1548), fol. 65 v. e seg.).

XII

« Instructione a voi venerando religioso fra Claudio de la Sengia hospitalier di nostra Religione et capitaneo de nostri galere di quello havete da fare in questo viaggio che Dio vi conduca e torni a salva-mento.

« Et primo.

« Havendoci scrito la maesta Cattolica esser sua deliberatione ch'el illustrissimo principe Doria capitan generale di sua magiesta per mare con Ie galere di Spagna et de Italia andasse per due bande per buscar Dargut rayz et che nostre galere si giontasero con quelle, noi vedendo la cosa esser in servicio de Dio et di sua magiesta et de tutta la christianita con bona volonta havemo deliberate di mandarii non volendo mancar a simile impressa come e debito et costume nostro.

« Partirete adunque nel nome de Dio et andarete alia volta de Messina et gionto che sarete pigliarete Faltre due galere che sono li, li qualli credemo che alia gionta vostra sarano acconciate.

« Item, sapendo voi la volunta nostra, vi ordmamo che debbiate andare con detto illustrissimo principe con detta armata et far quello che per sua excellencia sara ordinato fin al suo ritorno in Messina o in altro luoco et ch'habbiate havuto licentia da lui.

« Item come sapete il negocio di Taiora e di tanta importanza che si non vi si remedia col tempo sara imposibile cacciar quel rinegato Morataga de li per tarsi ogni giorno piu potente, per tanto non lascia-rete di praticar il negocio con la excellencia del detto Signor vicere comme anchora col illustrissimo principe con farle conoscere la

utilita che di questo ne seguira et ancho il danno che se aspetano si non si provede per tempo come voi del tutto sette benissimo informato.

« Item benche non sappiamo del certo se l'armata ha da venire in Palermo o pur a Messina non di men oper che e necessario che Ie dette galere pigliano panatica andarete alia volta di Palermo dove vi fomirete de panatica et altre vituaglie necessarie.

« Item gionto in Palermo vi pofcrete informare dove l'armata se aspetera, o in Palermo, o in Messina et secondo intenderete, potrete andare aspectare et se non havesse da venire in detti lochi la potrete andar a cercare dove si trovara se detto Signor principe havesse las-ciato tal ordine, et non havendo lasciato farete quello che meglio vi ne parera circa di andarlo a trovar, o aspectar.

« Item gionto, con delta armata andarete a visitar l'illustrissimo principe capitaneo general di sua magiesta et farete nostre recomen-datione a sua excelentia dicendole con quanta volunta vi habbiamo expedito, per andar in questo viaggio, per servicio di sua magiesta Cattolica offrendovi promtissimo in tutto quello che sua excellencia vi comandara.

« Item per che nostra volunta e che dette galere nostre vadino bene armate non lasciarete de pigliar per ogni galera

dieci soldati che siano ben disposti et persone che possano ben servire.

« Item fornite Ie dette cose vi potrete tornare qui in Malta con ogni diligenza rimettendo tutto quello che de piu succedera in vostra prudenza e discrecione che provedete et vi governate in tutte Ie occor-renze secondo il tempo et loco pigliando sempre consiglio dalli patro-ni et cavaglieri anciani et de altri officiali a voi benvisti, per che in voi confidamo... Datum Melite etc., die XXII mensis martij MDXLIX ab Incarnatione (1550)».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 422, fol. 208 v. e segO. XIII

.« Instructione a voi venerando religioso etc., fra Caspar de Val-lies commendatore de Prillar (?) et de Salins del priorato de Alvernia et manescallo di nostra eligione, di quanto havrete a far circa il go-vemo del castello et cita de Tripoli che Dio vi conduca et incammini in tutte Ie occorrenze et actioni vostre.

« Et primo.

« Essendo voi per la sufficientia et capacita vostra stato eletto et deputato governatore di Tripoli mandiamo nostre galere per con-durvi al detto loco ove gionto che sarete darete Ie lettere et provisioni nostre al venerando religioso nostro fra Pietro Nunez de Herrera ba-glio de la Boneda al quale comandiamo che vi faccia dar a nome nostro et di

nostra Religione obedienza sacramento et homagio di tutti gli officiali et gente soldati et mori del detto castello con tutte Ie so-lennita et ceremonie acostumate rimettendovi il governo e consignan-dovi Ie chiave della fortaleza.

« Item intrato che sarette nella possessione del governo farete far al solito la mostra et resigna generale di tutta la gente che sta al soldo ricognoscendo Ie arme et pigliando lo giuramento di ben et fidel-mente servire advertendo che le arme che portano nella mostra siano sue et se alcuno non ne havesse li constringerete a comprarle.

« Item per che circa il governo del castello sono molte ordinationi antiche et moderne et boni costumi quelle ben vederete et considera-rete et conforme ad esse vi regerete, et se alcuna cosa de importanza vi parera inovare darete prima aviso a noi et a nostro venerando con-siglio a cio che in quelle vi sia dato ordine.

« Item per che supra tutte Ie cose si ha da guardar il servitio di-vino, procurarete che nel detto luoco si guardino li giorni delle dome-niche et feste comandate per la santa matre Chesia cosi nel contratar delle mercantie come nelle opere servili, ponendo la pena a voi bene-vista contra quelli che farano il contrario.

« Item vi ordinamo che con tutto il rigor facciate punir et casti-gar li dissoluti et vitiosi et bestemiatori et non permetterete che gio-chino alii dati se non alle tavole, o alle

carte al luoco deputato, et non in parte secrete, prohibendo che in modo alcuno non si giochino l'arme et cavagli et se alcuno temerariamente Ie giocasse li farete castigar ad arbitrio vostro et tali arme et cavagli seranno restituire a quello che rhavera perse.

« Item, essendo la buona guardia del castello cita et castellego piu importante che il resto, sarete molto vigilante sopra la guardia che si fa di note nella muraglia et di giorno nella porta, non perdo-nando a nessuna che manchase, advertendo che Ie due porte del castello cioe quella della terra et quella della marina non siano insieme aperte.

« Item vi ordinamo che siate attento che li mori entrino nel cas- tello il mancho che si potra, et per che siamo informati che gli mori habitant! nella cita sono costreti de intrar al detto castello per com-prar cose necessarie al loro vivere cotidiano, ordinarete che de tal cose se ne venda fuora del castello accio che li mori non habbiano causa di intrar dentro advertendo che in questo la doana non sia in alcun modo defraudata et che il castello non resta per questo dispro-visto.

« Item ordinarete che alii mori che vengono al coco non gli sia fatto maltratamento venendo ne tornando, non consentedo che gli sia tolto per forza cosa alcuna commandando che nessuno soldato vada fuora del castello al coco o ad altra parte senza archibuso o lanza o balestra et quello che sara ginete non habbia andar piu lontano del

fosso senza il suo cayaglio inselato et infrenato con sue arme accio che non habbia occasione de intrar dentro per eavalcar se per caso si toccasse in quello instante air anna.

« Item vi ordinamo et incarghiamo che procurate di levar l'oca-sione de tante scaramuccie nelle quali non si guadagna altro che per-dita de gineti buoni soldati et munitioni.

« Item accadendo che moresse alcun soldato senza herede ordinarete che li suoi beni per inventario siano posti in poter del nostro thesoriero fin che sia provisto de giustitia a cui pertineranno.

« Item de tutte Ie altre cose ardue et de importanza che potranno succedere ci darete aviso a noi et a nostro venerando consiglio.

... Datum Melite etc., die XXVIII mensis aprilis MDLI (1551)». (Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 422, fol. 220 (v.).

XIV

« Instructione per il Venerando religioso fra Caspar de Vallies manescallo di nostra Religione et governator di Tripoli como si ha da govemar sopra gli infrascripti negocii.

« Et primo.

« Havendo havuto notitia per diverse sie specialmente dal religio-sc nostro fra Georgio di Santo Joanne il quale e arrivato qui hoggi, come l'armata turchesca e uscita fnori et che si tiene per certissimo quella esser per Malta, o per il castello di Tripoli; per questo volendo provedere di presidio et aiuto per la fortificatione di detto castello, habbiamo ordinato che il. religioso nostro fra Guilleimo Coupier, commendatore de Tortobesa con alcun numer di cavaglieri et il magnifico Giovan Calabresi con sua compagnia de soldati venghino costi in Tripoli per tal effecto, con li quali volemo che siano observate Ie cose infrascripte.

« II. Item che il detto fra Guileimo Coupier in presentia vostra si chiame vostro locotenente cioe locotenente di governatore ma in ab-seneia vostra cioe se piacesse a Dio ordinare altro di vostra persona che allora resti in loco di governator et se il medessimo havenesse della persona di esso Coupler resti il religioso nostro fra Bartolomeo Vasco, et cosi per ordine se intende degli altri anciani.

« III. Item volemo che il detto fra Guilleimo Coupler et gli altri cavaglieri siano alia obedienzza vostra alii quali farete sue tavole a conto di nostra Religione.

« III. Item si dette cavagliere haverano bisogno di qualche panno o tela per vestire li farete accomodar dal thesoriero, sopra loro soldo a quello vi parera necessario.

« V. Item quanto al detto magnifico capitaneo et soldati vogliamo che siano alia obedienza vostra et havendo alcuna discordia fra loro in cosa de giusticia habbiano ricorso a voi.

« VI. Item. A petitione di detto capitaneo et soldati gli havemo concesso gli infrascripti capituli. et primo :

« VII. che detta compagnia de soldati sia in piede con li proprii medesimi officiali che in essa compagnia si trovino et ch'el detto magnifico Giovan capitaneo habbia ogni vigore et auctorita et potesta che ad un capitaneo de fanteria si richiede, et che detta sua auctori-tate non gli sia punto diminuita.

« VIII. Item che la paga che si fara alii detti soldati sia cosi et tanta come e quella di sua magesta Cattolica cioe paga di guerra, et non paga di guarnitione et secundo Fuso di guerra cioe in ciascun **XXIX** giorni mentre serano in detta fortalezza de Tripoli, incomin-ciando dal giorno che sara finita l'altra paga che glie donata in Sicilia.

« Vni. Item che a proprie speee della Religione debbiano far condure detti soldati alia detta fortaleza de Tripoli et di poi tomarii in la cita di Messina senza scontar cosa alcuna tanto del mangiar et del bevere quanto del passaggio.

« X. Item che passato il mese de Setembre proximo future non havendo Parmata turchesca assediato detto castello debbiano far ritor-nar detti soldati fin a Messina a

spese di nostra Religione senza rite-ner alcuno per guarnicione di detto castello sino quelli che di loro spontanea volonta volessero restar.

« VI. Itme che detti soldati sian provisti delle cose necessarie per il viver loro come di pane vino et altre cose comestibile per il medemo precio che si dona agli altri soldati in Tripoli.

« XII. Item che guadagnando detti soldati schiavi o schiave et altre cose de infideli siano di essi soldati et non de altri, et che huomo alcuno di nostra Religione non se li possi levare.

« XIII. Item, accadendo che alcuni de detti soldati fossero feriti in servicio di detto castello volemo che siano curati et medicati et datoli Ie medicine a spese di nostra Religione senza scontar cosa alcuna sopra il soldo loro.

« XIII. Item che siano provisti per il tempo che starano nel detto castello di polvere piombo et micci a spesa di nostra Religione di quello che parera necessario.

« XV. Item per quanto mandiamo due galere aposta per levar detti soldati esse galere sbarcati che sarano detti soldati subito si retornarano portando seco quella quantita de done et garzoni che vi parerano.

In cuius etc... Datum Melite etc. die sexta mensis Julij MDLI ».

(Archivio di Malta, Libri Bullarum, vol. 422, fol. 223 v.).

الهوامش

(١) راسم رشدي: طرابلس الغرب (طرابلس ١٩٥٣) ص ١٤.
(٢) عمر الباروني: الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس (طرابلس ١٩٦٠) ص ٩.
(٣) أنظر الوثيقة رقم (١) التي توضح التحرش الأوربي بالمسلمين - ملحق البحث.
(٤) E.Rossi, I, Daminio du Cavailieri di Malta A Tripoli in (Archidum Melitense) VI Malta 1924, p. 16. Ibid. . 180
(٥) Ibid. p. 180
(٦) مصطفى بعيو: المجمل في تاريخ ليبيا (القاهرة ١٩٤٧)، ص ٢٢.
(٧) محمد فريد سيالة: نحو غد مشرق (طرابلس ١٩٥٨).
(٨) أنظر الوثيقة رقم (٢) التي تدلل على شدة وطأة القوى الأوربية تجاه الحواضر الإسلامية الساحلية
(٩) Rossi, I: Op. Cit; P.P.22 - 23.
(١٠) C. Manfroni, L' Italia melle viende marinare della tripolitaria Intra Airoldi Maita (1935) P. 21 - 22.
(١١) Rossi, I: Op. Cit: P. 28.
(١٢) C. Manfroni: Op. Cit. p.25.
(١٣) عمر الباروني: المرجع السابق، ص١٤.
(١٤) S. Aurigenna, I Castello di Tripoli die Darberia In Rinascita Della Tripolitaria (Roma, 1926). P.P. 17 -18
(١٥) مصطفى بعيو: المرجع السابق، ص ٢٧.
(١٦) محمد فؤاد شكري: ميلاد دولة ليبيا الحديثة (القاهرة ١٩٥٧)، ص٨.
(١٧) انظر ا لوثيقة رقم (٣) التي توضح نظام العمل داخل طرابلس - ملحق البحث.
(١٨) على مصطفى المصراتي: صحافة ليبيا في نصف قرن «بيروت١٩٦٠» ص ٢٥..
(١٩) محمد فؤاد شكري: المرجع السابق ذكره ص ٤١.
(٢٠) G.Pantanelli, Tripoli in un Documento Bolognese del secolo X Bologna 1942,p.21.
(٢١) Ibid:p.24.
(٢٢) انظر الوثيقة رقم (٤) التي تدلل على صراحة العمل بين الفرسان من أجل أحكام قبضتهم على طرابلس - ملحق البحث.
(٢٣) أحمد النائب الأنصاري: المنهل العذب في طرابلس الغرب «بيروت ١٩٥٠، ص ١٩.
(٢٤) محمد فؤاد شكري: المرجع السابق، ص١٣.
(٢٥) أحمد النائب الأنصاري:المرجع السابق ص ٢١.
(٢٦) انظر الوثيقة رقم ٥ التي تبرهن على ضرورة رصد تحركات القوى الإسلامية على الساحل «ملحق البحث».
(٢٧) G. Pontanelli: Op. Cit.p29
(٢٨) C. Manfroni,; Op.Cit. p32.
(٢٩) انظر الوثيقة رقم ٦ التي تشير إلى أحوال الفرسان داخل طرابلس - ملحق البحث
(٣٠) انظر الوثيقة رقم ٧ التي تعكس للفرسان مدى الخطر المتنامي على طرابلس من القوى الإسلامية - ملحق البحث.
(٣١) على مصطفى المصراتي: المرجع السابق ، ص ٣٣- ٣٤.
(٣٢) عمر الباروني: المرجع السابق، ص ٦٩.

(٣٣) انظر الوثيقة رقم «٨ ,٩» التى تبرهن على ضرورة شحذ همم الفرسان للدفاع عن طرابلس - ملحق البحث.

(٣٤) S.Aurigenna,: OP. Cit, .p 40 - 41

(٣٥) E. Rossi: Op. Cit p. 72.

(٣٦) عمر البارونى: المرجع السابق، ص ٨٩

(٣٧) مصطفى بعيو: المرجع السابق، ص ٣٠١.

(٣٨) S.Aurigenna: Op. Cit.p.91.

(٣٩) راسم رشدى: المرجع السابق، ص ٩٨.

(٤٠) انظر الوثيقة رقم ١٠، ١٢ التى تدلل على تهاوى قوة الفرسان أمام تأسد قوة العثمانيين - ملحق البحث.

(٤١) E. Rossi: Op.Cit, p. 92.

(٤٢) Ibid.p.94.

(٤٣) محمد فريد سيالة: المرجع السابق، ص١٩.

(٤٤) محمد فريد سيالة، المرجع السابق، ص٢١.

(٤٥) انظر الوثيقة رقم ١٢ التى تشير إلى استصراخ الفرسان لأوروبا من أجل إرسال حملات الإنقاذ إليهم، ملحق البحث.

(٤٦) على مصطفى المصراتى المرجع السابق، ص ٩٧.

(٤٧) انظر الوثيقة رقم ١٣، ١٤ التى توضح تهاوى قوة الفرسان أمام آل عثمان، ملحق البحث.

(٤٨) G. Pontanelli:Op. Cit, p.53

(٤٩) عمر البارونى: المرجع السابق، ص ٨٤.

(٥٠) عمر البارونى، المرجع السابق، ص ٨٧.

(٥١) E.Rossi: Op. Cit, . p. 102.

(٥٢) محمد فريد سيالة، المرجع السابق، ص ٩٧.

(٥٣) C. Monfroni, Op Cit, p. 49.

(٥٤) Ibid, p 51.

(٥٥) على مصطفى المصراتى: المرجع السابق ص ٧٨

(٥٦) أحمد النائب الأنصارى: المرجع السابق، ص ٩٧.

(٥٧) G.Pontanelli, Op. Cit. .p. 88-89.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأسبانية:

- C-Monfroni,L'Italia melle viende marinare della
Tripolitaria Intra Airoldi, Malta (1935).
- E-Rossi, I, Doninio die Cavailieri di Malta a Tripoli in (Archidun Melitense) VI Malta, 924.
- G-Pantanelli, Tripoli in un Documento bolognese del
secolo X (Bologna, 1942).
- S.Aurigenna I Castello di Tripoli die Barberia in
Rinascita della Tripolitania (Roma, 1926).

ثانياً: المراجع العربية:

- أحمد النائب الأنصاري: المنهل العذب فى طرابلس الغرب (بيروت ١٩٥٠).
- راسم رشدي: طرابلس الغرب (طرابلس ١٩٥٣).
- عمر الباروني: الأسبان وفرسان القديس يوحنا فى طرابلس (طرابلس ١٩٦٠).
- على مصطفى المصراتي: صحافة ليبيا فى نصف قرن (بيروت ١٩٦٠).
- محمد فريد سيالة: نحو غد مشرق (طرابلس ١٩٥٨).
- محمد فؤاد شكري: ميلاد دولة ليبيا الحديثة (القاهرة ١٩٥٧).
- مصطفى بعيو: المجمل فى تاريخ ليبيا (القاهرة ١٩٤٧).

د.. عبدالله محمد على بن حيدر (*)

القاضى عياض وكتابه ترتيب المدارك

لا شك أن دراسة تراجم الشخصيات ومؤلفاتهم يساعد على توضيح كثير من الحقائق العلمية، ولذا أردت فى هذا البحث أن أعرف بكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك لعلامة المغرب المحدث الفقيه أبى الفضل عياض بن موسى اليحصبى السبتى، والقصد من ذلك دراسة الكتاب دراسة علمية تحليلية لأنه من خلال إطلاعى لم أجد أحد من الباحثين من درس الكتاب دراسة موسعة وبصفة كافية غير ما كتبه د. أحمد بكير فى مقدمة تحقيقه لكامل ما وجد من نصوص الكتاب(١) وما كتبه الشيخ محمد بن تاويت الطنجى فى مقدمته التى وضعها لتحقيقه الجزء الأول من كتاب ترتيب المدارك(٢) وقد تلته أجزاء سبعة حققها مجموعة من كبار محققى المغرب وهى تعريفات مناسبة لمقدمات يضعها المحققون بين يدى نصوص الكتاب الذى يصدرونه محققا، ثم دراسة ثالثة كتبها محمد الطالبى فى مقدمة تحقيقه للتراجم الأغلبية التى استخرجها من كتاب ترتيب المدارك(٣) فوقع اختيارى لهذا البحث للتعريف بالكتاب والمؤلف ودراسة مناهجه وخصائصه ومحتوياته ومصادره وأهميته بصفة أوسع.

ترجمة القاضى عياض

على الرغم من توافر ترجمات القاضى عياض فى المصادر والدراسات فقد رأيت أن أصدر هذا البحث بترجمة تعريفية بالمؤلف أحاول فيها أن تكون صادرة عن قراءة شخصية لترجمة الرجل، ويظل الباحث والكاتب لترجمة القاضى عياض فى اطمئنان وثقة كبيرة فى ما يكتبه فى بحثه عن شخصية الرجل مراحل حياته، وذلك لأسباب:

أ- أن المصدر الأساسى الأول هو كتاب «التعريف بالقاضى عياض» الذى وضعه ابنه محمد ونشرته وزارة الأوقاف المغربية «دون تاريخ»

(*) كلية الشريعة والدراسات الإسلامية قسم التاريخ والحضارة الإسلامية جامعة أم القرى مكة المكرمة

بتحقيق محمد بن شريفة (٤) فإن ابنه محمدا هذا عاش فى ظل والده قرابة الأربع والعشرين سنة، حيث تشير المصادر إلى أنه توفى سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م عن عمر يقارب ٤٨ سنة ووالده توفى سنة ٥٤٤هـ /١١٤٩م وقد اعتنى محمد بن عياض بترجمة والده عناية كبيرة وقال فى مقدمة كتابه: «فبادرت . . إلى جمع فضائل اقتضيتها، وفصول انتخبتها وأحاديث انتقيتها وأسندتها وملح أجتلبتها وأوردتها جهدى». (٥) وفعلا فقد نقل معطيات وأخبارا كثيرة عن حياة والده وشيوخه وتلاميده ومروياته وعلومه وغير ذلك.

ب – ترجمة أساسية ثانية وضعها لعياض شهاب الدين المقرى فى كتاب خصصه لذلك هو كتاب «أزهار الرياض، فى أخبار عياض» (٦) فى خمسة أجزاء جمع فيها كل ما فى كتاب «التعريف» مع إضافات واسعة نتجت عن مطالعاته وكثرة ما قرأ وجمع من أخبار مترجمة وشيوخه ومعاصريه ومواقفه فى مجتمعه وغير ذلك.

ج – وفرة ما كتب عن القاضى عياض من تراجم فى المصادر القديمة ووفرة ما كتبه عنه المعاصرون من بحوث ودراسات وقد وضع الشيخ الدكتور حسن الوراكلى كتابه: ألو الفضل عياض السبتى «ثبت ببليوجرافى» جمع فيه ٤٨١ عنوانا لتأليف وبحوث ورسائل جامعية وموضوعات نشرت فى المجلات والجرائد(٧) اكتفى بإحالة الدراسين إلى هذا الثبت الوافى والدقيق للتعريف بمصادر ترجمة القاضى أبى الفضل عياض والدراسات التى كتبت حوله.

اسمه، أصله، شبابه:

أبو الفضل: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى(٨).

ولد فى النصف من شعبان عام ٤٧٦هـ/ أواخر ديسمبر ١٠٨٣م وتوفى فى التاسع من جمادى الآخرة سنة ٥٤٤هـ/ ١٥ أكتوبر ١١٤٩م.

فى اسم القاضى عياض ما يدل على أنه عربى المحتد يعود نسبه إلى الجد العربى يحصب بن مالك بن زيد من «حمير القحطانية» انتقل أجداده إلى المغرب فى تاريخ لا يعرف بالتحديد وإنما ظهر أمرهم فى القيروان وهو ما سجله أحد الشعراء بقوله فى مدحهم: وكانت لهم بالقيروان مآثر عليها لمحض الحق أوضح برهان، كما ظهر أمرهم بمدينة بسطة Baza القريبة من وادى آش شمالى غرناطة(٩).

ويذكر محمد بن عياض أنه لا يدرى هل نزلوا القيروان قبل الأندلس أو أنهم نزلوها بعد ذلك لمدة محدودة المهم أنهم انتقلوا إلى فاس حيث بلغوا فيها

إلى البيوتات النابهة، ولكن الجد الثانى للقاضى عياض واسمه عمرون انتقل إلى سبتة قريبا من سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م فكان فيها معروفا بخيره وصلاحه وحفظه للقرآن وكثرة حجه وقد حبس على المسلمين أرضا لتكون مقبرة بنى فيها مسجدا وديارا حبسها على المسجد الذى لازمه للعبادة، وتوفى سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٧م أقامت العائلة بسبتة فنالت الاحترام لسلوك أبنائها الاجتماعى وخاصة عند ظهور قاضى سبتة عياض بن موسى[١٠].

شيوخه:

اشتمل كتاب الغنية الذى وضعه القاضى عياض لترجمة شيوخه تراجم لثمانية وتسعين من شيوخ القاضى عياض[١١] يمكن أن نوزعهم إلى خمسة أنواع بحسب بلادهم وجهاتهم:

١- الشيوخ الذين أخذ عنهم بسبتة يبلغ عددهم ثلاثة وثلاثين شيخا أغلبهم من أهل سبتة، إلا أن من بين الذين أخذ عنهم بسبته من كانوا غير سبتيين وإنما هم من شيوخ العلم مغاربة أو أندلسيين ممن مروا بهذا الثغر عند سفرهم فى قصدهم المشرق للحج وطلب العلم ذهابا أو رجوعا أو ممن كانو ينتقلون بين العدوتين المغربية أو الأندلسية.

٢- الشيوخ الذين أخذ عنهم ببعض مدن المغرب الأقصى كمدينة فاس أو مراكش وعددهم خمسة.

٣- الشيوخ الذين أخذ عنهم فى بلاد الأندلس وعددهم ثمانية وأربعون شيخا وفى أغلب تراجم هؤلاء كان يعين المدينة التى أخذ فيها عن الشيخ ويهمل ذلك أحيانا فقد عين مكان لقائه بتسعة عشر شيخا من قرطبة وعين لقاءه لبعضهم فى أشبيلية أو غرناطة أو شاطبة أو بلنسية أو شرق الأندلس، وأهمل تحديد المدينة الأندلسية التى لقى فيها الباقين من الشيوخ.

٤- وقد أخذ عن شيخين من أفريقية وبالتحديد من المهدية كتبا له بالإجازة ولم يقابلهما.

٥- أما شيوخة المشارقة الذين كتبوا له بالإجازة فعددهم عشرة، خمسة منهم كتبوا له من مصر وأربعة من مكة وواحد من بغداد.

نختار من بين هؤلاء الشيوخ ثمانية من كبار علماء العصر وممن اشتهروا بالعلم وبرزا فى مختلف الاختصاصات.

١- الحافظ أبو على الصدفى هو الحسين بن محمد فيره بن حيون السرقسطى المعروف بابن سكرة، المتوفى سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م.

آخذ بالأندلس عن الكبار مثل أبى الوليد الباجى رحل للحج والسماع. فأخذ بمصر وبغداد والشام علوم الحديث والفقه والأصول والتاريخ وعلم الرجال، ثم عاد إلى مرسية للتدريس بها فرحل إليه الناس قال عنه ابن بشكوال: هو أجل من كتب إلى بالإجازة لزمه القاضى عياض فى مجالسه العلمية فسمع منه كثيرا ثم جمع له فهرس شيوخه وهم نحو مائتى شيخ، كما ألف له ابن الأبار معجما آخراً(١٢).

مات الحافظ الصدفى مجاهدا فى معركة قتندة «كتندة» سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م التى تعتبر من حروب النصارى بالأندلس ضد المسلمين قاد المسلمين فيها إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وشارك فيها من العلماء الصدفى هذا وابن الفراء والقاضى أبو بكر بن العربى الفقيه فاستشهد الأولان وسلم الثالث وقتندة من عمل سرقسطة(١٣).

٢- الحافظ الحسين بن محمد الغسانى الجيانى أبو على المتوفى سنة ٤٩٨هـ/١١٠٥م وصفه القاضى عياض فى الغنية بقوله: شيخ الأندلس فى وقته وصاحب رحلتهم وأضبط الناس لكتاب، وأتقنهم لرواية، مع الحظ الوافر من الأدب والنسب والمعرفة بأسماء الرجال وسعة السماع أخذ عن علماء كثيرين العديد من كتب الحديث واللغة والفقه كابن عبد البر النمرى وأبى عبد الله بن عتاب، وأبى الوليد الباجى وهو مثل القاضى عياض لم يرحل إلى الشرق(١٤).

٣- الحافظ أبو طاهر السلفى أحمد بن محمد الأصفهانى المتوفى سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م نشأ وتعلم بأصبهان ثم رحل إلى مختلف بلاد المشرق من الحجاز إلى العراق إلى الشام ثم مصر حيث أقام بالإسكندرية أخذ علما كثيرا من شيوخ كثيرين فوضع لهم ثلاثة معاجم معجم أصبهان والمشيخة البغدادية ومعجم السفر من أجل شيوخه ألكيا الهراسى والشاشى والمدينى وغيرهم له مؤلفات عديدة فى الحديث منها إملاءات كما كتب فى تراجم الشيوخ والتعريف برجال الحديث (١٥).

٤- الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى المعافرى المتوفى سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م من أكابر علماء وفقهاء ومحدثى أشبيلية رحل إلى المشرق فجمع علما من مختلف البلاد واتسعت روايته عاد إلى الإندلس فكثر طلابه ومنهم القاضى عياض الذى أخذ عنه بسبتة عندما كان ابن العربى مجتازا من الأندلس إلى المشرق ثم قصده ثانية هو بأشبيلية ألف فى التفسير قانون التأويل وفى الحديث عارضة الأخوذى فى شرح الترمذى مع شرح الموطأ، وفى أحكام القرآن كتابا مشهورا مع عناوين عديدة فى الفقه المالكى.

٥- الحافظ أبو عبد الله محمد بن على بن عمر التميمى المازرى المتوفى

سنة ٥٣٦هـ/ ١١٦٨م صفه القاضى عياض بقوله «إمام بلاد أفريقية وما وراءها من المغرب، وآخر المستقلين بتحقيق الفقه ورتبه الاجتهاد ودقة النظر.. ولم يكن فى عصره للمالكية فى أقطار الأرض أفقه منه». [١٧] له مؤلفات كبيرة منها المعلم فى شرح مسلم، وشرح البرهان للجوينى فى الأصول وشرح التلقين فى الفقه المالكى أخذ عن كثير وأخذ عنه كثير أضاف إلى علومه الشرعية علم الطب حيث كان يفتى فى الطب كما يفتى فى الفقه كتب المازرى من بلده المهدية إلى عياض يجيزه فى العلم[١٨].

٦- الحافظ أبو بكر الطرطوشى وهو محمد بن الوليد الفهرى المالكى، يعرف بابن رندقة المتوفى سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م نشأ بالأندلس فأخذ عن أبى الوليد الباجى ثم انتقل إلى المشرق فتجول فى أنحائه طالبا العلم، أقام بدمشق ثم استوطن الإسكندرية وبها دفن، اشتهر بمحاربة البدع وألف فى ذلك، مع سعة عمله بالعقيدة وتفسير القرآن. كتب للقاضى عياض بإجازته[١٩].

٧- الفقيه القاضى أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمى السبتى المتوفى سنة ٥٠٥هـ/١١١١م أول شيوخ القاضى عياض المذكورين فى الغنية وأوسعهم ترجمة فيه «كتبت فى ١٦ صفحة» فى هذه الترجمة عرض المؤلف عددا مهما من الكتب التى أخذها عنه بأسانيدها، ووصفه بقوله: «أجل شيوخ أهل بلدنا سبتة رحمه الله ومقدم فقهائهم... كان كثير الكتب حافظا عارفا بالفقه.. أعقل أهل زمانه.. لازمته كثيرا للمناظرة.. وسماع المصنفات»[٢٠].

٨- الشيخ الأستاذ أبو الحسن على بن أحمد بن خلف الأنصارى المعروف بابن البيذش المتوفى ٥٢٨هـ/١١٣٤م ذكره عياض فى الغنية وقال: «من أهل غرناطة شيخ مقرئيها ورواتها فى علم القرآن والحديث والآداب والأصول والضبط للحديث والقراءات واللغات والإتقان فى ذلك». أخذ عن المشهورين من القراء والمحدثين والفقهاء والنحاة واللغويين. رحل إليه الناس لعلمه بالقراءات والنحو ورواية الحديث لقيه عياض بقرطبة وأخذ عنه كتبا كثيرة منها أدب الكتاب لابن قتيبة وفصيح الكلام لثعلب وغريب الحديث للخطابى وغيرها[٢١] .

تلاميذه

للقاضى عياض تلاميذ كثر أحصينا منهم عشرين ذكروا فى كتاب شجرة النور الزكية [٢٢] نعرض لبعض أسماء المشتهرين من تلاميذه مع الإشارة العابرة لقيمهم واختصاصاتهم وتآليفهم:

١- أبو بكر محمد بن خير الأموى الأشبيلى، المحدث الراوية صاحب البرنامج المشهور والمطبوع قديما توفى سنة ٥٧٥هـ/١١٨١م.

٢- الفقيه القاضى محمد بن سعيد الأنصارى المعروف بابن زرقون الأشبيلى، اختص بالقاضى عياض ولازمه كثيرا وكان كاتبه فى قضاء غرناطة. له كتاب كبير فى الحديث عنوانه الأنوار، توفى سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م.

٣- عبد الله بن سعيد العبدرى البلنسى المعروف بابن أبى الرجال، مقرئ محدث فقيه شرح صحيح مسلم وشرح رسالة ابن أبى زيد القيروانى توفى سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م.

٤- إبراهيم بن يوسف المعروف بابن قرقول من أهل المرية محدث مقرئ فقيه ألف كتاب مطالع الأنوار على منوال كتاب شيخه عياض مشارق الأنوار توفى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م.

٥- أبو الحسن على بن محمد الغرناطى المعروف بابن المقرئ، محدث متكلم، ألف فى الحديث والسيرة والأصول، توفى سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م.

٦- أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الأنصارى المعروف بابن حبيش، من أهل المرية. اشتهر شهرة واسعة برواياته وآدابه وقراءاته، ألف فى المغازى كتابا توفى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م.

مؤلفات القاضى عياض:

تعددت اختصاصات القاضى عياض وتنوعت العلوم التى درسها وأتقنها وعلمها لطلبته لذلك كانت مؤلفاته عديدة الاختصاصات فقد ألف فى العقيدة وفى الحديث وفى الفقه المالكى وفى التاريخ وفى التراجم وفى الأدب نثرا وشعرا.

فى العقيدة:

الإعلام بقواعد الإسلام: وقد يسمى بالإعلام بحدود قواعد الإسلام كما سمى أحيانا بالقواعد: ذكره ابنه فى التعريف (٢٣).

والقلصادى (٢٤) وحاجى خليفة (٢٥) طبع الكتاب بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى بعناية وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب فى طبعات ثلاث دون تاريخ.

شرحه أحمد بن قاسم الجزامى فى كتاب(٢٦) منه نسخة مخطوطة بالمكتبة الوطنية بتونس رقم ٩٢.

السيف المسلول، على من سب أصحاب الرسول: اختص بذكره حاجى خليفة (٢٧) وتبعه البغدادى. (٢٨)

كتاب الصلاة على النبى معانيها، أحكامها، فضائلها:

هو كتاب لم نجد له ذكرا فى المصادر التى ترجمت للقاضى عياض ولا فى الدراسات الحديثة الكثيرة التى أطلعت عليها إلا أنى وجدت نسخة كتاب مطبوع يحمل هذا العنوان(٢٩) على الغلاف ما نصه قدم له وراجع أصوله محمد عثمان الخشت وهو يقع فى ٦٩ صفحة فيه مقدمة وضعها المحقق لم يذكر فيها الأصول المخطوطة التى اعتمدها ولا المكتبة التى حفظ بها ولا وصف المخطوط ولا وثق شيئا من كل ذلك ولم يذكر المحقق هل حقق وقابل على نسخة واحدة أو أكثر، مع الملاحظة أننا لا نجد فى هوامش المحقق أى إشارة إلى أى اختلاف بين نسختين أو أكثر.

يلاحظ أن صياغة الكتاب متينة وصناعته دالة على أنه يمكن أن يكون من تأليف القاضى عياض وقد اشتمل على ثمانية فصول متعلقة بالصلاة على النبى معانيها حكمها، المواطن التى تستحب فيها، كيفيتها فضيلتها، ذم من لم يصل على النبى، تخصيصه، بها، الاختلاف فى جواز الصلاة على غيره.

- المقاصد الحسان، فى ما يلزم الإنسان:

ذكر فى المصادر القديمة لترجمة عياض دون أن يوضح موضوعه وأرجح أن يكون متناولا ما يلزم الإنسان فى الاعتقاد.

فى الحديث والسيرة:

- اختصار شرف المصطفى:

هو اختصار لكتاب شرف المصطفى أو شرف النبوة لأبى سعد عبد الملك بن محمد النيسابورى الخركوشى المتوفى سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م. أخذه عنه ابن خير مشافهة وذكره فى فهرسة شيوخه، (٣٠) كما ذكره حاجى خليفة (٣١)

- إكمال المعلم، فى شرح مسلم - إكمال المعلم، بفوائد مسلم:

وهو شرح لكتاب المعلم بفوائد مسلم لأبى عبدالله محمد بن على المازرى ذكره مؤلفه فى بداية كتابه مشارق الأنوار وكذلك أغلب المترجمين للقاضى عياض منه نسخة فى الخزانة الحسنية بالرباط ونسخ أخرى غيرها بالمغرب الأقصى.

- الإلماع فى ضبط الرواية وتقييد السماع= الإلماع إلى معرفة الرواية وتقييد السماع: حققه أحمد صقر (٣٢)

- بغية الرائد، لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد:

شرح فيه الحديث المذكور، ذكره ابنه فى التعريف به وغيره من المترجمين له (٣٣) منه نسختان فى المكتبة الوطنية ببرلين رقم ٣٠٩, ٣٧٧، وأخرى بمكتبة آل ابن عاشور بتونس، نشر بتحقيق صلاح الدين الألبى ومحمد الحسن أجناف ومحمد الشرقاوى (٣٤).

- الشفاء، بتعريف حقوق المصطفى:

هو أشهر كتب القاضى عياض وضعه في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار فى المغرب والمشرق من بين أكثر كتب السيرة رواجا قال عنه بعض الشعراء:

- عوضت جنات عدن يا عياض عن الشفاء الذى ألفته، عوضجمعت فيه أحاديثا مصححة فهو الشفاء لمن فى قلبه مرض.

اهتم به المؤلفون فوضعوا له شروحا وحواشى واختصارات وتعاليق كثيرة ذكر منها حاجى خليفة تسعة عشر تأليفا (٣٥) وجمع منها بركلمان أربعة وثمانين كتابا طبع طبعات عديدة قديمة وحديثة.

- غريب الشهاب:

اختص بذكره حاجى خليفة (٣٦) والبغدادى (٣٧) وهو عنوان غير واضح حيث لم يتبين أى كتاب عنوانه الشهاب يوضح عياض غريبه اللغوى، ويترجح عندى أنه كتاب شهاب الأخبار فى الحكم والأمثال والآداب الشرعية، مؤلفه محمد بن سلامة القضاعى المصرى المتوفى سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م(٣٨)

- مشارق الأنوار علي مبهم الآثار:

شرح فيه كثيرا من غوامض الأحاديث الواردة فى موطأ مالك وصحيحى البخارى ومسلم، مدحه ابن الصلاح فى بيت من الشعر فقال: مشارق أنوار تسنت بسبتة وذاعجب كون المشارق بالغرب. (٣٩) قال الشيخ محمد مخلوف (٤٠) وقيل عنه: «هو كتاب لو كتب بالذهب ووزن بالجوهر لكان قليلا فى حقه». طبع بفاس على نفقة السلطان عبد الحفيظ (٤١) وصدرت بالمغرب طبعة ثانية بتحقيق أحمد يكن فى ٣ أجزاء (٤٢).

- منهاج العوارف إلى روح المعارف فى شرح مشكل الحديث:

لم يذكره غير بروكلمان ولعله عنوان آخر للكتاب السابق مشارق الأنوار.

فى الفقه:

- أجوبة القرطبيين:

ذكره ابنه فى التعريف (٤٣) وقال: أنه تركها غير مبيضة، وذكره ابن فرحون(٤٤)

- الأجوبة المحيرة، عن المسائل المتخيرة = الأجوبة المحبرة، على كشف المسائل المحيرة: وهو من الكتب التى تركها المؤلف ولم يبيضها (٤٥).

التنبيهات المستنبطة، على الكتب المدونة والمختلطة:

شرح فيه وأصلح إشكالات مع تحرير الروايات وتسمية الرواة الوارد ذكرهم فى المدونة والمختلطة ذكر عنوانه فى أغلب المصادر، منه نسخة فى الخزانة العامة بالرباط [٤٦] منه نسخ أخرى بالرباط وفاس.

- سر السراة، فى أدب القضاة:

وهو من الكتب التى تركها لم تبيض ذكر فى كثير من مصادر ترجمته.

- مذاهب الحكام فى نوازل الأحكام= نوازل القاضى عياض = أجوبة القاضى عياض فى ما نزل فى أيام قضائه من نوازل الأحكام.

ترك عياض أسئلة فقهية وأجوبتها نقلها ابنه من خطه ورتبها وذيل عليها وأضاف إليها بعض ما عن له ثم وضع لها العنوان الأول المذكور أعلاه واشتملت هذه الفتاوى على نوازل منسوبة لفقهاء كثيرين منهم ابن عياض وابن الحاج وابن رشد ومحمد بن خير ومحمد بن إسماعيل وغيرهم، بقيت من الكتاب نسخة وحيدة بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم ٤٠٤٢ حققها محمد بن شريفة ووضع فى مقدمتها دراسة مفيدة[٤٧].

- مسألة الأهل المشروط بينهم التزاور: ذكره ابنه فى التعريف[٤٨]
- مطامح الأفهام فى شرح الأحكام: اختص بذكره حاجى خليفة[٤٩] والبغدادى[٥٠].
- المقاصد الحسان، فى ما يلزم الإنسان من الإحسان:

قال عنه ابن المؤلف فى التعريف: أنه فى جزء واحد، ولم يبيضه عياض[٥١] وذكره حاجى خليفة دون أن ينسبه لأحد[٥٢]

- نظم البرهان على صحة جزم الآذان:

ذكر فى أغلب المصادر الأساسية فى ترجمة القاضى عياض وحاجى خليفة[٥٣] والبغدادى[٥٤].

فى التراجم والطبقات:

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك = المدارك:

هو من أهم كتب طبقات المالكية الأولى، وهو الذى نهتم به ونعرف به فى القسم الثانى من هذه الدراسة.

- جمهرة رواة مالك:

ذكره عياض فى مقدمة ترتيب المدارك فقال: «قد أودعنا ذلك كتابا آخر

فى جمهرة رواة مالك انطوى على أزيد من ألف وثلاثمائة راو تقصيتها من الكتب المؤلفة فى ذلك». من الكتاب نسخة فى تونس وأخرى بفاس[٥٥].

- الغنية فى شيوخ القاضى عياض:

هو فهرسة شيوخه اشتملت على ٨٩ ترجمة لأهم شيوخه، ومما يدل على اهتمام القاضى عياض بالفهارس أنه فى نهاية الكتاب[٥٦] وضع قائمة للفهارس التى رواها عن شيوخه عددها تسعة وعشرون فهرسا منها ما هو من تأليف شيوخه أخذها عنهم مباشرة، ومنها ما هو فهارس شيوخ سابقين أورد سنده إليها ممن رواها عنه ابن خير[٥٧]. قام بدراستها عبد العزيز الأهوانى فى بحث عنوانه كتب برامج العلماء بالأندلس[٥٨]. حقق كتاب الغنية محمد بن عبد الكريم[٥٩] ثم طبعت بعد ذلك بتحقيق ماهر زهير جرار[٦٠].

- المعجم فى شيوخ أبى على الصدفى= ابن سكرة:

أبو على الصدفى هو الحسين بن محمد السرقسطى الصدفى والمعروف أيضا بابن سكرة، ترجمه القاضى عياض فى الغنية فذكر بمناسبة ذلك كتابه هذا: «وقال:«وقد جمعت شيوخه فى كتاب المعجم الذى ضمنته ذكره وأخباره وشيوخه وأخبارهم، وهم نحو مائتى شيخ..». وقال أيضا متحدثا عن شيخه هذا وقد بسطت أخباره وأخبار شيوخه فى كتابنا المعجم المذكور». اطلع عليه وذكره ابن رشيد [٦١] والنمنتورى فى فهرسته [٦٢].

فى التاريخ

-أخبار القرطبيين لم يذكره إلا حاجى خليفة [٦٣] والبغدادى [٦٤].

تاريخ المرابطين: انتهى فيه إلى سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م قال الشيخ محمد بن تاويت الطنجى فى مقدمة ترتيب المدارك ذكره ابن خاتمه فى مزية المرية ونقل عنه المقرى فى أزهار الرياض [٦٥].

-الجامع فى التاريخ: ذكره القاضى عياض فى ترتيب المدارك[٦٦] فقال: وقد بسطنا أخباره فى التاريخ» [٦٧].

- الفنون الستة، فى أخبار سبتة:

مات عياض ولم يكمله، ذكره ابن عياض ولسان الذين بن الخطيب والمقرى بهذا العنوان، وذكره بعض مؤلفى المصادر بعنوان «العيون الستة» مثل ابن فرحون وحاجى خليفة.

فى الأدب واللغة:

كان الفقيه المحدث القاضى عياض مع سعة علومه الشرعية أديبا يتقن النثر ويحسن الشعر والمطالع لكتابه الشفاء يجد نثرا بديعا متينا مؤثرا دالا على براعة تعبير وحسن انتقاء وموهبة كما كان القاضى شاعرا ولم يكن شعره من نوع شعر الفقهاء المتكلف وإنما كان لا يخلو من موهبة وإحسان وإنتاجه فى فنون الأدب يشهد له بذلك.

خطبه: ذكره ابن عياض فى التعريف(٦٨) وقال ابن فرحون فى الديباج المذهب: كتاب خطبه، وكان لا يخطب إلا بإنشائه (٦٩).

ديوان شعر: نسبه له بروكلمان فى تاريخ الآداب العربية وابن الشنب فى تعاليقه الموسعة على إجازة عبد القادر الفاسى(٧٠).

وإن كنا لا نعرف نسخة من ديوانه فإن بعض المترجمين له ذكروا مكانته فى الشعر، فقال ابن فرحون (٧١) «له شعر كثير حسن رائق». كما نقل المترجمون له بعضا من أشعاره، منهم الفتح بن خاقان(٧٢) وابن فرحون(٧٣).

جمع له الباحث المغربى عبد الخالق أرواشى ديوانا ضمن رسالة علمية أعدها وقدمها لجامعة القرويين بمراكش حيث توجد نسخة مرقونة(٧٤).

رسائل كتبها عند القبر المقدس:

هذا العنوان أورده محمد الطالبى(٧٥) ونحن نشك كثيرا فى صحة نسبة هذا العنوان إليه لأسباب: أولها: أن الباحث لم يذكر مصدره.

ثانيها: أن القاضى عياض ليس من أولئك المبتدعة الذين يصفون قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه مقدس.

ثالثها: أن عنوان الكتاب يدل على أن عياضا ألفه فى المدينة المنورة، والمعروف عند المؤرخين والمترجمين للقاضى عياض أنه لم يرحل إلى المشرق ولم يزر المدينة ولا غيرها.

سؤالات وترسيل: ذكره المقرى: نقلا عن ابن خاتمة(٧٦).

غنية الكاتب وبغية الطالب فى الصدور والترسل:

فى العنوان ما يدل على أن القاضى عياض أراد أن يضع كتابا يرجع إليه فى فن كتابة الرسائل الديوانية، وهو فن كان له الرواج الكبير فى عصره، ذكره كثير من مترجميه.

- قصيدة نظمها فى سورة الطلاق: ذكرها محمد الطالبى (٧٧) دون أن يحيل على مصدر.

كتاب ترتيب المدارك:

عنوانه: هوكتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك، لمعرفة أعلام مذهب مالك، وقد يكتفى الكثير من المؤلفين بتسميته بالمدارك.

وموضوعه: يذكر القاضى عياض فى مقدمته أنه قصد فى كتابه أن يتجه إلى مقصد أساسى وهو أن يضع كتابا حاويا لأسماء وتراجم «أعيان المالكية وأعلامهم ويبين طبقاتهم وأزمانهم، ويجمع عيون فضائلهم وآثارهم، ويضم نشر فنون سيرهم وأخبارهم(٧٨).

ولكن اقتضى نظره كما يقول: «بين يدى العرض تقديم مقدمات تمس الحاجة إليها، وتتم الفائدة بالوقوف عليها، تشتمل على أبواب فى ذكر المدينة وفضلها وتقديم علمائها وعلمها، ووجوب الحجة بإجماع أهلها وترجح مذهب مالك بن أنس أمامها، وتقصيت هذه الأبواب تقصيا يشفى الغليل»(٧٩).

وبذلك كانت غايته وضع كتاب جامع لتراجم علماء المالكية مقدما لذلك بوضع دراسة للتعريف بالمدينة وأهميتها مع ترجمة موسعة لإمامها مالك بن أنس.

فخصص بذلك الجزءان الأولان «من الطبعة المغربية» لهذه المقدمة الطويلة وجعل الأجزاء الباقية لتراجم فقهاء المالكية بداية من تلاميذ مالك وانتهاء بأبناء عهده ومعاصريه.

مخطوطات كتاب ترتيب المدارك للقاضى عياض:

تعدد النسخ المخطوطة للكتاب وهو ما يدل على كثرة عناية الباحثين والقراء وأهل العلم بهذا الكتاب ووفرة استفادتهم منه إلا أن هذه النسخ فى أغلبها يعود تاريخ نسخها إلى القرن الثانى عشر والثالث عشر من التاريخ الهجرى وأقدم نسخة منها هى تلك التى حفظت بجامع الزيتونة بتونس ونسخت فى القرن التاسع الهجرى سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٣م عدد هذه النسخ تقارب ٢٥ نسخة توزعت فى البلاد بين المكتبات العامة والخاصة نذكر بعض ما عرفناه منها أو تلك التى وصفها الباحثون والمحققون.

ففى المغرب توجد النسخ التالية:

- نسخة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ٣٣٥ اعتمدها محققو الأجزاء الأربعة الأولى من طبعة المغرب نسخة ثانية بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ٣٢٤٣ اعتمدت فى طبعة المغرب فى الأجزاء الثانى والسادس والسابع والثامن.

– نسخة بالخزانة العامة بالرباط برقم ٣٤٠٢د، واعتمدت فى طبعة المغرب فى الأجزاء الثانى والثالث والرابع والسادس.

– نسخة ثانية بالخزانة العامة بالرباط برقم ٦٢٣٤د، اعتمدت فى تحقيق الجزء الأول من طبعة المغرب.

– نسخة ثالثة بالخزانة العامة بالرباط برقم ٢٦٣٥د، اعتمدت فى تحقيق كامل أجزاء الطبعة المغربية.

– نسخة رابعة بالخزانة العامة بالرباط برقم ٢٦٣٣د، اعتمدت فى تحقيق كامل أجزاء طبعة المغرب إلا الجزء السادس.

– نسخة فى جزءين من المكتبة الكتانية بالرباط نسخا سنة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م.

و١٢٤٦هـ/١٨٣١م.

– نسخة فى قسم المنصورية من مكتبة القرويين بفاس ذكرت فى مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، المجلد الخامس، الفصل ٤٤ ص ١٢ من العدد ٣٩.

– نسختان بمكتبة الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى الخاصة ذكرهما فى مقدمة تحقيقه للجزء الأول من طبعة المغرب.

وفى تونس توجد النسخ التالية:

– نسخة بالمكتبة العبدلية بجامع الزيتونة بتونس تحت رقم ٥١٣٢ وهى تمثل قرابة ثلثى الكتاب مؤرخة بسنة ٨٣٧هـ/١٤٣٣م وهى أقدم النسخ المعروفة عندنا اعتمدت فى طبعة لبنان.

– نسخة ثانية بجامع الزيتونة بالمكتبة العبدلية فى ثلاث مجلدات بالأرقام التالية:٦٥٠٩، ٦٥١٠, ٦٥١١. نسخت فى ما بين سنتى ١٢٥٥هـ/١٨٤٠م و١٢٦٠هـ /١٨٤٥م. اعتمدها محمد الطالبى فى تحقيقه لتراجم أغلبية مستخرجه من مدارك القاضى عياض.

– نسخة ثالثة بجامع الزيتونة بالمكتبة الأحمدية رقم ٣٢٤١ وهى منقوصة أيضا اعتمدت فى تحقيق تراجم أغلبية، وهى حديثة الكتابة.

– نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس برقم ٧٠ وهى تمثل النصف الثانى من الكتاب.

– نسخة بمكتبة حسن حسنى عبد الوهاب برقم.. تقع فى مجلدين، نسخت سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢١م.

– نسخة بمكتبة آل ابن عاشور بتونس وهى نسخة كاملة فى أربع مجلدات

كتبت فى ما بين سنتى١٢٣٠هـ/١٨١٥م و١٢٣١هـ/١٨١٥م. اعتمدها أحمد بكير فى طبعة لبنان.

نسخة بمكتبة الجامعة التونسية وأصلها من مكتبة الشيخ أبى الحسن النجار وهى تمثل جزءا واحدا كتبت فى القرن الثانى عشر هجرية تقريبا اعتمدها ووصفها أحمد باكير.(٨٠)

- نسخة بمكتبة الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين التابعة للجامعة التونسية - سابقا - وهى نسخة كاملة حديثة الخط اعتمدت فى طبعة لبنان.

وتوجد فى مختلف الأقطار بعض النسخ الأخرى:

ففى الجزائر ذكر محمد بن الشنب الجزائرى أنه كان يملك نسخة اعتمدها فى بحثه الذى نشر فى الكتاب المخصص للمستشرق الإيطالى أمارى Amari طبعة بالرم Palerme سنة ١٩١٠ص٢٥١وما بعدها.

- نسخة فى دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ٢٢٩٣ وهى كاملة أنجزت سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٥مفى مجلدين.

- نسخة بالإسكندرية محفوظة فى مكتبة مسجد الشيخ إبراهيم باشا برقم ٤٢ وهى تمثل القسم الأخير من الكتاب.

- نسخة بمكتبة الأكاديمية التاريخية بمدريد برقم ٣٥ نسخت سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م.

- نسخة بمكتبة المتحف البريطانى برقم ١١٥٧٠ وهى نسخة منقوصة.

- نسخة بمكتبة برلين الوطنية برقم ٣١٣٣ نسخت سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م وهى نسخة تامة.

طبعات الكتاب وتحقيقاته:

طبع كتاب ترتيب المدارك للقاضى عياض طبعتان كاملتان فى لبنان والمغرب الأقصى وثالثة جزئية فى تونس.

أما الطبعة الجزئية فهى التى صدرت بتحقيق محمد الطالبى تحت عنوان «تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضى عياض» وهى طبعة علمية دقيقة مضبوطة اهتمت بترجمات الأفريقيين الذى عاشوا الفترة الأغلبية التى امتدت طوال القرن الثالث الهجرى وقبله بقليل والمحقق اختصاصى فى تاريخ الدولة الأغلبية بأخبارها وشخصياتها وضع لتحقيقه مقدمة باللغة الفرنسية.

الطبعة الكاملة الأولى طبعة لبنان:

المجلد الأول: صدر فى ٦٤٥ صفحة والثانى فى ٨٩٥ صفحة والفهارس فى

٣٦٠ صفحة الواقع أني لم أعتمد هذه الطبعة في تعريفي بكتاب ترتيب المدارك وذلك لأنها اشتملت على أخطاء كثيرة وتصحيفات كما وقعت فيها اضطرابات وأنقاص مع هنات في التحقيق. وليس من عملنا أن نقوم بنقد التحقيق ولكن نشير إلى بعض العينات منها ما وقع في الجزء الثالث بداية من ص٢٧٦ حيث سقطت عشرات التراجم كما حدث أحيانا خلط في ترتيب التراجم فقد وضعت ٨ من الترجمات الأفريقية تحت عنوان (من أهل الأندلس) وغير ذلك كثير أما ضبط النص ففيه ما فيه من التصحيفات ما لا يدخل تحت حصر ونترك ذلك للقارئ المختص.

أما الأخطاء في الفهرسة فهي كثيرة، ففي فهرس الأماكن وردت بعض الأسماء في خلط كما وقد وقع في الفهرسة أكثر من هذا حيث لم يخصص الباحث فهرسا خاصا بالكتب وإنما كانت فهرسة جزئية للكتب وقع أقحامها ضمن فهرس الأعلام فجاءت عناوين بعض الكتب التي وردت بعنوان «كتاب كذا» أي في مادة الكاف من فهرس أعلام الأشخاص. وذلك وقع في المجلد الثاني من الفهارس ولم يقع في المجلد الأول من الفهارس. وغير ذلك مما لايدخل تحت حصر إلا بعد دراسة واسعة وطويلة لا طائل ورائها في هذا البحث.

وعلى الرغم من كثرة هذه الأخطاء في التحقيق فإننا لانرد ذلك إلى محدودة ثقافة المحقق - رحمه الله - فإن له مؤلفات وتحقيقات أخرى ليس فيها من هذا شيء، بل ربما يعود ما وقع في هذا الكتاب كان بسبب السرعة في الطبع مع أخطاء المصححين واعتماد بعض المخطوطات المنقوصة والمشتملة على اضطراب النساخ.

الطبعة الثانية (طبعة المغرب):

نشرتها وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمملكة المغربية في ثمانية أجزاء، طبع الأول منها ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٥م والثامن سنة ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.

وقد توالى على تحقيق هذه الطبعة أربعة محققين.

الجزء الأول: طبع سنة ١٣٨٣/ ١٩٦٥ تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي الذي وضع مقدمة عامة ومفيدة ترجم فيها للمؤلف وأحصى تأليفه وعرّف بالمخطوطات المعتمدة في التحقيق وأورد قائمة بأسماء المترجمين في كتاب ترتيب المدارك، وقد بلغوا ١٥٦٩ فقيها مالكيا.

الجزء الثاني طبع سنة ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م يقع في ٢٦٤ صفحة حققه عبدالقادر الصحراوي وألحق به فهارس.

الجزء الثالث طبع ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨ م يقع في ٤٥٠ صفحة وحققه الصحراوى أيضا وله فهارس.

الجزء الرابع طبع سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م يقع فى ٤٩٣ صفحة وحققه الصحراوى كذلك وصدر خاليا من الفهارس غير فهرس المحتوى.

الجزء الخامس طبع بعد سنة ١٩٧٠م ولم يذكر تاريخ الطبع، حققه محمد ابن شريفة، وصدر في ٣٥٢ صفحة مع خلوه من الفهارس غير فهرس المحتوي.

الجزء السادس طبع سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠ م حققه الأستاذ سعيد أحمد أعراب وصدر فى ٣٧٢ صفحة مع فهارس.

الجزء السابع طبع سنة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٣ م بتحقيق سعيد أعراب أيضا وفى نهايته فهارس.

الجزء الثامن طبع سنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م بتحقيق سعيد أعراب أيضا. وفى نهايته أربعة ملحقات مفيدة وفهارس.

يعتبر تحقيق الطبعة المغربية رغم تعدد محققيها عملا علميا ناجحا ومفيدا سواء فى جانب ضبط النص وضبط أسماء الإعلام والأماكن وغيرها، وعملا جيدا لأنه لم يهمل من النص شيئا، ولم يقع فيها خلط للتراجم فى التقديم والتأخير، ولم تقع فيه أخطاء كثيرة ومؤثرة على المادة التاريخية وذلك لأنه نص اعتمد مخطوطات أمهات قديمة أو حديثة مضبوطة ودقيقة.

ولذلك يمكن أن نعتبر تحقيق النص لهذه الطبعة المغربية يستجيب لما يتطلع إليه الباحث فى تاريخ المذهب المالكى ورجاله ويستفيد منه أغلب الباحثين فى التاريخ عموما وتاريخ أفريقيا والمغرب والأندلس بصفة خاصة، لأن أغلب المترجمين فى الكتاب من هذه البلاد التى شاع بين أهلها مذهب أمام المدينة وانتشر.

وطبعا لم يسلم تحقيق الطبعة المغربية من بعض الهنات نذكر منها بعض النماذج فقد وقع فى كامل الكتاب بعض الخلط فى ضبط عناوين الموضوعات داخل النص المحقق. نعرض أمثلة قليلة:

فقد سقط عنوان «الطبقة السادسة» فى ص ٤٦٣ من الجزء الثالث.

وسقط عنوان «من أهل العراق» من ص ٤٤ فى الجزء السابع.

وسقط عنوان «من أهل الأندلس» من ص ٢٨٤ فى الجزء السابع.

وسقط عنوان «من أهل أفريقية» من ص٩٢ فى الجزء السابع. وغير ذلك.

وقد وقفت على بعض الملاحظات حول فهارس هذه الطبعة من كتاب ترتيب المدارك ولاشك أن للفهارس أهمية كبرى خاصة للباحثين المستفيدين من النصوص المحققة فى أعمالهم العلمية لذلك تظهر أهمية التحقيق واستفادة القارئ منه. وعادة ما يقع المحققون فى أخطاء فى وضع الفهارس وضبط الأرقام وضبط إحالتها إلى الجزء والصفحة مع عدم دقة مكان ذكر الإعلام والشعوب والكتب وغير ذلك حيث يعود الباحث إلى الجزء والصفحة من المطبوع فلا مسافة يجد فيها طلبه فى محله.

وتختلف أهمية الدقة فى الفهارس باختلاف أهمية الباحث ودقة التحقيق وحسن عمل الطباعة على أن الأخطاء يعفى عنها إذا كانت قليلة فإنه يكاد لايسلم منها كتاب محقق ومفهرس.

وبما أن كتاب ترتيب المدارك حققه أربعة من المحققين فإن الفهارس تختلف باختلاف شخصياتهم وظروفهم. فقد وضعت فهارس خاصة بكل جزء من الأجزاء الستة من الكتاب، إلا أن الجزء الرابع خلا من الفهارس، ولعل ذلك يعود إلى وفاة محققه وهو عبدالقادر الصحراوى قبل إنجازه، وكذلك خلا الجزء الخامس الذى حققه محمد بن شريفة من فهارس، وقد لاحظت بعض الأخطاء التى وقعت فى عمل الفهارس، أنبه إلى نماذج منها:

لاحظت كثرة وجود الأخطاء فى فهرسة الجزء السادس وذلك فى دقة إحالة الأرقام إلى الأسماء والأعلام وغير ذلك. ومن أمثلة ذلك:

فى فهرسة الإعلام: ابن الفرج غير مذكور فى مكانه.

فى فهرسة الجماعات: بنو حدير لم يذكروا فى صفحة ١٠٧.

فى فهرس الأماكن: حمام الجزارين ذكر أنه فى صفحة ٦٢ وهو يقع فى ص٦٣.

فى فهرس الأماكن: قلسانة لايوجد فى ص١٠٧، وكذلك دار بنى حدير.

فى فهرس الكتب: تاريخ ابن فرج غير موجود فى مكانه.

فى فهرسة الكتب أيضا: كتاب طبقات فقهاء المالكية لايوجد فى ص٢٦٣ وغير ذلك كثير. لذلك يمكننى أن أقول بأنه نظرا لتعدد المحققين للكتاب - وهم أربعة - فإن الفهارس اختلفت قيمتها وأهميتها. وقد فهرست أغلب الأجزاء وهى الأول والثانى والثالث والسادس والسابع والثامن، وأهملت فهرسة الجزءين الرابع والخامس، وتفصيل ذلك كما يلى:

ففى الجزء الأول وجدت فهارس الأحاديث والإعلام والطوائف والأماكن والكتب والمحتوى.

وفى الجزء الثانى: فهارس الأحاديث والكتب والإعلام والطوائف والأماكن والمحتوى.

وفى الجزء الثالث: فهارس الأحاديث والكتب والإعلام والطوائف والأماكن والمحتوى.

وفى الجزء الرابع: لم ترد فهارس إلا فهرس المحتوى.

وفى الجزء الخامس: لم ترد فهارس إلا فهرس المحتوى.

وفى الجزء السادس: فهارس الآيات والأحاديث والإعلام والطوائف والبلدان والكتب والأشعار والمحتوى.

وفى الجزء السابع: فهارس الآيات والأحاديث والإعلام والطوائف والبلدان والكتب والأشعار والمحتوى.

وفى الجزء الثامن: لم يشتمل هذا الجزء على فهرسة للإعلام الخاصة به وإنما اشتمل على فهرس عام لجميع المترجم لهم فى كامل كتاب ترتيب المدارك فى أجزائه الثمانية تحدد أماكن ترجماتهم كما اشتمل هذا الجزء على فهرس الشعوب والجماعات والبلدان والأشعار والكتب والمحتوى.

محتوى كتاب ترتيب المدارك فى أجزائه الثمانية:

الجزء الأول من نص الكتاب احتوى على ما يلى:

خطبة الكتاب ومقدمة المؤلف التى بين فيها دواعى التأليف وغاياته مع عرض ما كان عاما من مصادره التى اعتمدها، كما ذكر منهجه الذى يريد أن يسلكه فى إيراد محتوياتها. ثم انتقل إلى عرض أبواب متعلقة خاصة بمسائل أهمها:

- فضل المدينة المنورة والآثار حولها وفضل علم أهلها وأهمية علمهم وترجيح مذهب مالك مع ترجمة مستفيضة للإمام مالك امتدت إلى نهاية هذا الجزء المطبوع ثم تتواصل إلى كامل الجزء الثانى.

اشتمل الجزء الثانى على تحقيق ما بقى من ترجمة الإمام مالك التى احتوت على ٢١ بابا من أبواب التعريف بالإمام مالك، أنهاها بعرض قوائم نظم فيها أسماء شيوخه وأقرانه وطبقاتهم وبلدانهم سواء من المشاهير أو من غير المشاهير وقد رتبهم على حروف المعجم فى قرابة الخمسين صفحة خصص الجزء الثالث بتراجم أصحاب مالك الذين قسمهم المؤلف إلى ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى من أصحاب مالك: وهم الذين ظهر لهم علم فى حياة الإمام مالك وقاربت وفاتهم مدة وفاته.

ص٢: من أهل المدينة (١٢ ترجمة)/ ص٣٥: من أهل اليمن (ترجمة واحدة)/ ص٣٦:

من أهل المشرق (ترجمة واحدة)/ ص٥٢ من أهل مصر (١٠ تراجم)/ ص٦٥: من أهل أفريقية (٥ تراجم)/ ص١١٣: من أهل الأندلس (٧ تراجم).

الطبقة الثانية (الوسطى) من أصحابه: وهم الذين صحبوه وطالت ملازمتهم له واشتهروا بعده بالفقه المالكى.

ص ١٢٨: من أهل المدينة (٢٨ ترجمة) ص١٧٤: من أهل مكة والحجاز (ترجمة واحدة)/ ص١٩٦: من أهل اليمن (ترجمتان)/ ص١٩٨: من أهل البصرة والعراق وما وراء النهر (٥ ترجمات) / ص٢٢٨: من أهل مصر (١٠ تراجم)/ ص٢٩١ : من أهل أفريقية (٧ تراجم) / ص٣٢٥: من أهل الأندلس (٩ تراجم).

الطبقة الثالثة (الصغرى) من أصحابه: وهم الذين صحبوه فى صغرهم وكان لهم حضور له وسماع منه.

ص ٣٤٧: من أهل المدينة (٥ ترجمات)/ ص٣٥٣ : من أهل مكة (ترجمة واحدة)/ ص٣٦٠: من أهل المشرق (ترجمة واحدة) / ص٣٦٣: من أهل مصر (١٠ ترجمات)/ ص٣٧٩: من أهل الأندلس (ترجمة واحدة).

يبدأ الجزء الرابع بتصدير قصير يذكر فيه المؤلف أنه سيبدأ بعرض طبقات عموم المالكية ممن ظهروا بعد أصحاب مالك، وأنه سيعرض تراجمهم ضمن طبقاتهم متتابعين إلى زمن المؤلف فقال:

«وجئنا بهؤلاء ثم بمن جاء بعدهم إلى زمننا، مرتّبا لهم على طبقاتهم من تقدّم الزمان وتأخره، ذاكرا لكل واحد ما بلغنى عنه من مفيد شمائله وخبره».

الطبقة الأولى: الذين انتهى إليهم فقه مالك.

ص٢: من أهل المدينة (٤ تراجم)/ص٥: من أهل العراق (٣ تراجم)/ ص١٧: من أهل مصر (١١ ترجمة مع ٢ ثانوية)/ ص٤٥: من أهل أفريقية وأقصى المغرب (٩تراجم مع ٤ تراجم ثانوية)/ ص١٠٤: من أهل الأندلس (١٩ ترجمة مع ٢ ثانوية).

الطبقة الثانية:

ص ١٥٠: من أهل المدينة (ترجمة واحدة) / ص١٥٠: من أهل العراق (ترجمتان)/ص ١٥٤: من أهل مصر (١٧ ترجمة مع ٨ تراجم ثانوية)/ ١٩٠: من أهل أفريقية (٢٥ ترجمة مع ترجمة واحدة ثانوية)/ ص٢٣٨: من أهل الأندلس (٦١ ترجمة مع ٧ تراجم ثانوية).

الطبقة الثالثة:

ص٢٧٦: من أهل المدينة (ترجمتان)/ ص٢٧٦: من أهل العراق والمشرق (٦ تراجم) /ص٣٠٢ من أهل مصر (٣١ ترجمة مع ٢١ ترجمة فى ٧ صفحات)/ ص٣٠٨: من أهل أفريقية (٣٧ترجمة مع ترجمة واحدة ثانوية)/ ص٤٠٩: من نفس هذه الطبقة الأفريقية وهم من تلاميذ سحنون (٣٢ ترجمة مع ٣ تراجم ثانوية)/ ص٤٢١: من أهل الأندلس (١٠٦ ترجمة مع ٥ تراجم ثانوية).

فى الجزء الخامس أورد تراجم كامل الطبقة الرابعة وأغلب المترجمين فى الطبقة الخامسة.

الطبقة الرابعة:

ص١: من أهل المدينة المنورة (٢١ترجمة)/ ص٥١: من أهل مصر (٢٥ترجمة)/ ص٦٦: من أهل أفريقية (٤٨ترجمة)/ ص١٤٨: من أهل المغرب الأقصى (ترجمتان)/ص١٤٩: من أهل الأندلس (١٥٩ترجمة).

طبقة أخرى وهى الطبقة الخامسة:

ص ٢٥٥: من أهل المدينة (ترجمة واحدة)/ ص٢٥٦: من أهل مكة (ترجمة واحدة)/ ص٢٥٦: من أهل العراق (١١ترجمة)/ ص٢٧٤: من أهل مصر (١٤ترجمة) / ص٢٨٤: من الشاميين: (ترجمة واحدة)/ ص٢٨٦: من أهل أفريقية (٢١ ترجمة فى هذا الجزء والبقية فى الجزء السادس، وعدد الترجمات فيها ٣١ ترجمة).

فى الجزء السادس:

ص٩: بقية أهل أفريقيا فى الطبقة الخامسة (٣١ ترجمة)/ ص٨١: من أهل أقصى المغرب (ترجمتان)/ ص٨٥: من أهل الأندلس (١٠٠ ترجمة).

الطبقة السادسة:

ص ١٨٠: من أهل الحجاز (٣ تراجم)/ ص١٨١: من أهل العراق (١٨ ترجمة)/ص ٢٠٣: من أهل مصر (١١ترجمة) / ص٢١٠: من أهل أفريقية (١٩ترجمة)/ ص٢٧٦: من أهل المغرب الأقصى (٤ تراجم، ترجمتان لسبتيين وترجمتان لفاسيين) ص٢٨٠: من أهل الأندلس (٢٤ ترجمة. وهو القسم الأول من ترجماتهم والباقى بالجزء السابع وعددهم ٤٩/ مجموعهم ٤٩ + ٢٤= ٧٣).

فى الجزء السابع

ص٥: بقية أهل الأندلس من الطبقة السادسة (٤٩ ترجمة).

الطبقة السابعة:

ص ٤٣: من أهل الحجاز (ترجمتان)/ ص٤٤: من أهل العراق والمشرق، وأكثرهم أصحاب أبى بكر الأبهرى الباقلانى (٢٤ترجمة)/ ص٨٦: من أهل الشام (ترجمتان)/ ص٨٧: من أهل مصر (١٨ ترجمة)/ ص١١٠: من أهل المغرب الأقصى (٦ ترجمات)/ ص١١٤: من أهل الأندلس (٤٩ ترجمة).

يلاحظ أنه لم يورد ترجمات لأهل أفريقية فى هذه الطبقة.

الطبقة الثامنة:

ص ٢٢٠: من أهل العراق (٧ تراجم)/ ص٢٣٧: من أهل مصر (ترجمتان)/ ص ٢٣٩:من أهل أفريقية (٢٧ترجمة)/ ص٢٧٨: من أهل سبتة (٣ تراجم)/ ص٢٨٤: من أهل الأندلس (١١ ترجمة).

فى الجزء الثامن:

ص٥: بقية أهل الأندلس من الطبقة الثامنة (٤٦ ترجمة)

الطبقة التاسعة:

ص ٥٣: من أهل العراق (٥ترجمات) / ص٥٦، من أهل مصر (٣ترجمات)/ ص٥٧: من أهل الشام (٣ترجمات)/ ص٥٨: من أهل إفريقية (٣١ترجمة) / ص٨٣: من أهل سبتة (٥ ترجمات)/ص٨٧: من أهل الأندلس (١٩ ترجمة).

الطبقة العاشرة:

ص ٩٩: من أهل المشرق (ومنهم أهل إفريقية والأندلسيين المنتقلين إلى المشرق ومعهم بعض المصريين)/ ١٠٥: من أهل إفريقية (٢٠ترجمة)/ ص١١٧ - ١٦٦: من أهل الأندلس (٣٨ ترجمة).

من ص ١٦٧ تبدأ الملاحق - وهى أربعة فيها إضافات - أضافها المحقق من كتاب مختصر المدارك لابن حمادة تلميذ القاضى عياض اعتمادا على مخطوطة المكتبة الملكية فى الرباط بالمغرب تحت رقم ٦٧٢.

الملحق الأول: يشتمل على الطبقة الحادية عشر:

ص ٢٦٧: من أهل المغرب (ترجمة واحدة)/ ص١٦٨ : من أهل سبتة (٢٠ترجمة)/ ص١٨٠: من أهل الأندلس (١٠تراجم).

الملحق الثانى: ص١٨٨: فيه إضافات واستدراكات على الطبقة التاسعة (٦ ترجمات).

الملحق الثالث: ص١٩١: فيه استدراكات على الطبقة الحادية عشر (٧ ترجمات)/ ص١٩٦: الطبقة الثانية عشر (١٩ترجمة).

وجملة الملحقات تقدم ٥٣ ترجمة وجميعها لم ترد فى طبعة لبنان.

مصادر الكتاب:

اهتم القاضى عياض فى مقدمة كتابه بذكر الكثير من مصادره التى اعتمدها فى التأليف ونوعها إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: هى المصادر التى اعتمدها فيها ترجمة الإمام مالك فعرض فى هذه المقدمة ٣٥ مؤلفا كتبها أصحابها وألفوها فى الموضوع. وتأليف هؤلاء فى أغلبها تحتمل عنوان «فضائل الإمام مالك» وبعضها يستعمل عنوان «مناقب مالك أو أخباره» واكتفى عياض بعرض قائمة أسماء المؤلفين فأوردها فى المقدمة متوالية دون ذكر عناوين كتبهم. وليس من المفيد أن نعيد عرض هذه القائمة بل يكون من الأجدر أن نعرف بمن كان له منهم مؤلفات مهمة ومكانة مشهورة فى ذلك سواء من المشارقة والأندلسيين وأهل أفريقية:

فمن المشارقة:

الحسن بن إسماعيل بن الغمر الغسانى المعروف بالضراب المصرى - أبومحمد المتوفى سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م.

يبدو أنه ألفّ كتابا مهمة فى ترجمة مالك بن أنس اعتمده القاضى عياض وجعله من الكتب التى عول عليها(٨٢).

محمد بن أحمد بن عمر الشترى المالكى (أبوأحمد). توفى سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م. له كتاب فى مناقب مالك يقع فى ثلاثة مجلدات.

وهو أيضا من أهم معتمدات المؤلف فى ترجمة الإمام مالك. بالإضافة إلى كتاب آخر له فى فضائل المدينة(٨٣).

محمد بن القاسم بن شعبان المصرى المالكى أبو إسحاق. توفى سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٦م. له مؤلفات فى الفقه وفى ترجمة الإمام مالك وهى مناقب مالك وشيوخ مالك والرواة عن مالك (٨٤) أحمد بن مروان الخياش المالكى المصرى - أبوبكر - توفى سنة ٢٩٨هـ/ ٩١٠م. له كتاب فضائل مالك (٨٥).

ومن الأفريقيين:

أبوالعرب التميمى: محمد بن أحمد بن تمام الإفريقى. توفى سنة ٣٠٣ هـ/ ٩١٥م. هو صاحب كتاب طبقات علماء أفريقية وتونس، له أيضا كتاب فى فضائل مالك (٨٦).

أبوبكر بن اللباد: محمد بن محمد بن وشاح القيروانى. توفى سنة ٣٣٣ هـ/ ٩٤٤م. له كتاب فضائل مالك (٨٧).

ابن أبى زيد القيروانى: عبدالله بن عبدالرحمن النفزى صاحب كتاب الرسالة الشهيرة فى الفقه المالكى. توفى سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م. له كتاب الاقتداء بأهل المدينة وكتاب ألفه عن مذهب مالك [٨٨].

ومن الأندلسيين:

عبدالملك بن حبيب السلمى القرطى: توفى سنة ٢٣٩هـ/٨٥٣ م. له كتب كثيرة فى التاريخ والتراجم وفضائل الرجال منها فضائل مالك[٨٩].

أبوعمر الطلمنكى: أحمد بن محمد بن عبدالله المعافرى. توفى سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م. له كتاب فى فضائل مالك وآخر فى رجال الموطأ[٩٠]

أبوالوليد الباجى: سليمان بن خلف. توفى سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م. عدّه القاضى عياض من جملة المؤلفين فى فضائل مالك وترجمته[٩١].

أمّا النوع الثانى: من المصادر التى اعتمدها القاضى عياض فى مداركه فهى تلك المؤلفات التى استفاد منها فيما ترجمه عن رواة الإمام مالك وأصحابه وتلاميذه وترجماتهم، فكان منها مؤلفات خصصها أصحابها لترجمة تلاميذ مالك والرواة عنه من مشارقة مثل كتاب «الرواة عن مالك» للخطيب البغدادى صاحب تاريخ بغداد المشهور، وكتاب ابن شعبان المصرى الذى ألف فى نفس الموضوع وكذلك كتاب ابن ال ضراب المذكور أعلاه.

كما اعتمد عياض كتبا أخرى من التراجم العامة أو تراجم المحدثين وكتب الرجال فى القائمة التى أوردها فى ج ١ ص ١٣ - ١٤.

والنوع الثالث من المصادر هى تلك التى اعتمدها ونقل عنها فى تأليفه لعموم طبقات المالكية أى فى غير ترجمة الإمام مالك وتراجم تلاميذه والرواة عنه بداية من الطبقة الأولى من الفقهاء.

لقد كانت مصادر القاضى عياض فى هذا المجال كثيرة ومتعددة. منها بعض كتب التاريخ مثل تاريخ بغداد للخطيب البغدادى وكتاب التعريف بصحيح التاريخ لابن الجزار القيروانى.

وبما أن الكتاب كتاب تراجم فإنه من الطبيعى أن تكون أغلب مصادره كتب تراجم وطبقات منها كتب طبقات محدثين مثل كتاب الضعفاء للعقيلى، أو كتب طبقات القضاة والفقهاء وغيرهم من رجال العلوم الدينية مثل كتاب طبقات القضاة لوكيع وطبقات القضاة لابن الجزار وطبقات قضاة قرطبة للخشنى وكتاب قضاة مصر للكندى وكتاب طبقات القراء لأبى عمرو الدانى وكتاب طبقات الفقهاء للشيرازى وكتاب الزهاد لابن يونس القرطبى. مع نقل نصوص

كثيرة من مؤلفات تعددت منه الإحالة عليها، منها كتاب رياض النفوس للمالكى وكتاب تاريخ العلماء والرواة بالأندلس لابن الفرضى ومختلف مؤلفات ابن حارث الخشنى القروى وكتاب الطبقات الكبرى لابن سعد.

ولعل الرجوع إلى فهارس الطبعة المغربية بأجزائها يدلنا دلالة واضحة على وفرة مصادر القاضى عياض فى كتابه هذا وأهميتها.

الكتب التى نقلت عن المدارك:

اشتهر كتاب المدارك بين المؤلفين اشتهارا كبيرا وذلك لأسباب كثيرة أهمها:

- شهرة مؤلفه القاضى عياض بين علماء المسلمين عامة وفى المجتمعات المغاربية والأندلسية خاصة لشهرة مؤلفاته فى الفقه والحديث والتاريخ وغير ذلك.

- اشتهار الكتاب بأنه يعدّ من أوائل الكتب الكبيرة التى تناولت موضوع تراجم الفقهاء المالكية.

- اهتمام المؤرخين للفقهاء المالكية بوضع تكملات وذيول له تواصل إيراد تراجم المالكية الذين ظهروا فى العصور التالية لعصر القاضى عياض.

- اشتمال الكتاب على العديد من الأخبار التاريخية التى يستفيد منها المؤلفون فى التاريخ والتراجم، واشتماله على عرض لأخبار الفقهاء وآرائهم الفقهية ومواقفهم ومؤلفاتهم التى يستفيد منها أحيانا الفقهاء فى بعض كتبهم فى الفقه والفتاوى.

وللدلالة على تنوع الكتب التى استفادت من كتاب ترتيب المدارك أذكر بعضا من عناوين المؤلفات التى نقلت عنه علي اختلاف اختصاصاتها وموضوعاتها:

- من كتب التراجم «كتاب الديباج المذهب، فى معرفة أعيان علماء المذهب» للقاضى برهان الدين إبراهيم بن فرحون. وهو كتاب يعتبر تكملة لما ورد فى المدارك، حيث إنه اتبع الكثير من مناهجه وطرائقه وغاياته. لذلك نلاحظ أن المؤلف ابن فرحون فى مقدمة كتابه لم يذكر مصدرا واحدا اعتمده فى كتابه غير كتاب المدارك للقاضى عياض(٩٢) ومن كتب التراجم أيضا كتاب نيل الابتهاج، بتطريز الديباج»، لأحمد بابا التنبكتى الذى اعتمد أيضا كتاب المدارك واعتبره أهم كتاب ألف فى الموضوع وأعلاها قيمة(٩٣). ونقل عنه مرات النباهى المالقى الأندلسى فى «كتابه تاريخ قضاة الأندلس» (٩٤)- كما نقل عنه محمد مخلوف فى «كتابه شجرة النور الزكية، فى طبقات المالكية».

ومن المؤلفين لكتب التاريخ الذين نقلوا عن المدارك محمد بن مرزوق التلمسانى فى «كتابه المسند الصحيح الحسن، فى مآثر ومحاسن مولانا أبى

الحسن»[٩٥] طبع بالجزائر سنة ١٤٠١/١٩٨١م وشهاب الدين لمقرى فى «كتابيه نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب» و«أزهار الرياض، فى أخبار عياض» وكذلك المؤرخ محمد الوزير السراج فى كتاب الحلل السندسية، فى الأخبار التونسية.

ومن كتب الفقه التى نقلت عن المدارك فتاوى البرزلى وفتاوى الونشريسى[٩٦]. وغير ذلك كثير من الكتب التى استفادت من المدارك على مختلف أنواعها.

نتائج البحث:

من خلال هذا البحث ظهر لى بعض النتائج أجمل بعضها:

١- التعريف بكتاب من أمهات كتب التراث والتراجم فى مذهب الإمام مالك.

٢- تحديد ووصف لمخطوطات كتاب المدارك المتناثرة فى المكتبات العربية ووصفها وذكر أرقامها ليسهل للباحثين الرجوع إليها.

٣- وصف طبعات الكتاب والتحقيقات المختلفة التى وقعت عليه.

٤- إظهار محتوى كتاب المدارك فى أجزائه الثمانية.

٥- وضع إحصاء دقيق للمترجمين لهم بالعدد والبلدان فى الكتاب.

٦- تحديد الملاحق التى ألحقت بالكتاب.

٧- وصف لمصادر القاضى عياض فى كتابه المدارك.

٨- تحديد لبعض الكتب التى نقلت عن كتاب المدارك للقاضى عياض.

الهـوامش

(١) الطبعة الأولى دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
(٢) طبعته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمملكة المغربية بالرباط سنة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥م.
(٣) طبع بتونس سنة ١٩٦٨م.
(٤) ابن عياض، التعريف بالقاضى عياض، ص١٢.
(٥) ابن عياض، التعريف بالقاضى عياض، ص١٢.
(٦) ازهار الرياض فى أخبار عياض ١/٢٣.
(٧) طبعته دار الغرب الإسلامى بيروت سنة ١٩٩٤م.
(٨) ازهار الرياض ١/٢٣، المعجم ابن الابار، ص ٣٠٦، وفيات الأعيان ٣/٤٨٥
(٩) الزركلى: الأعلام ٥/ ٩٩.
(١٠) ابن عياض: التعريف بالقاضى عياض، ٢ -٣ .
(١١) القاضى عياض: الغنية ص ٩٩ - ٢٩٠.
(١٢) ابن بشكوال: الصلة. . انظر عياض: الغنية ١٩٣ ت ٢٠١؛ الذهبى: تذكرة الحفاظ ٤: ١٢٥٣؛ مخلوف: شجرة النور الزكية ١: ١٢٨ ت ١٢٩.
(١٣) المقرى: نفح الطيب ٤:٤٦١.
(١٤) انظر عياض: الغنية ٢٠١ - ٢٠٤؛ الغنية ١٤٠، الذهبى: تذكرة الحفاظ ٤: ١٢٣٣ - ١٢٣٥.
(١٥) انظر ترجمته الموسعة والضافية فى كتاب عنوانه: الحافظ أبوطاهر السلفى تأليف حسن عبدالحميد صالح، نشر المكتب الإسلامى، دمشق ١٣٩٧/ ١٩٧٧م. ولم يعتمد الباحث على كتاب الغنية لعياض لأنه ظهر مطبوعا بعد إنجاز بحثه. انظر أيضا عياض: الغنية ١٦٨ - ١٦٩.
(١٦) انظر عياض: الغنية ١٣٣؛ الذهبى: تذكرة الحفاظ ٤: ١٢٩٤ - ١٢٩٨.
(١٧) عياض: الغنية ١٣٢ - ١٣٣.
(١٨) انظر عياض: الغنية ١٣٣ - ١٣٤؛ مخلوف: شجرة النور الزكية ١: ١٢٧ - ١٢٨.
(١٩) انظر عياض: الغنية ١٣٠ - ١٣١؛ ومصادر ترجمته كثيرة فى كتاب معجم المؤلفين لكحالة ١٢: ٩٦.
(٢٠) انظر عياض: الغنية ٩٩ - ١١٥؛ المقرى: أزهار الرياض ٣: ١٥٩.
(٢١) انظر عياض: الغنية ٢٣٨ - ٢٤٠.
(٢٢) ص ١٤٠.
(٢٣) التعريف ص ١١٦.
(٢٤) رحلته القلصادى تحقيق د.محمد أبوالاجفان ص١٢٢.
(٢٥) كشف الظنون ١: ١٢٧.
(٢٦) ص١٤٠.
(٢٧) فى كشف الظنون ص ١٠١٨.
(٢٨) فى هدية المعارفين ١: ٨٠٥.
(٢٩) طبع الكتاب بالقاهرة نشر المختار الإسلامى سنة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٤م
(٣٠) ابن خير، الفهرسة ص ٢٨٩ و٤٩٧.
(٣١) كشف الظنون ١٠٤٥.
(٣٢) نشرته دار التراث بمصر والمكتبة العتيقة بتونس سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.

(٣٣) ابن خير، الفهرسة ص١٩٧.
(٣٤) نشرته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالرباط سنة ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥م.
(٣٥) كشف الظنون ١٠٥٢ - ١٠٥٥.
(٣٦) كشف الظنون ص ١٢٠٧.
(٣٧) هدية العارفين ١: ٨٠٥.
(٣٨) ابن العماد: شذرات الذهب ٣: ٢٩٣.
(٣٩) ابن رشيد: الرحلة ٣: ٢١٨.
(٤٠) شجرة النور الزكية ص١: ١٤١.
(٤١) سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠م.
(٤٢) نشرته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب ١٤٠٢ - ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٢ - ١٩٨٨م.
(٤٣) ص ١١٨.
(٤٤) الديباج المذهب، ص ١٧١/ط١.
(٤٥) ذكره ابن المؤلف فى التعريف ص ١١٨.
(٤٦) ابن تاويت: مقدمة ترتيب المدارك ص كج.
(٤٧) نشر دار الغرب الإسلامى بلبنان .ط١/١٩٩٠ م.ط٢/ ١٩٩٧م.
(٤٨) الغنية: ص١١٧.
(٤٩) كشف الظنون ١٧١٨.
(٥٠) هدية العارفين ١: ٨٠٥.
(٥١) الغنية: ص١١٧.
(٥٢) كشف الظنون ١٧٧٩.
(٥٣) كشف الظنون ١٩٦١.
(٥٤) هدية العارفين ١: ٨٠٥.
(٥٥) انظر مقدمة المدارك ١: ١٣، - طبعة المغرب.
(٥٦) عياض: الغنية ص ٢٨٤ - ٢٩٠.
(٥٧) فهرسة ابن خير: ٤٣٧، ٥١٢.
(٥٨) نشر فى مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، العدد الأول ص١٠٤ - ١٠٦.
(٥٩) نشرتها الدار العربية للكتاب بتونس سنة ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م.
(٦٠) نشر دار الغرب الإسلامى بيروت ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م.
(٦١) رحلة ابن رشيد: ٣: ٤٤٩.
(٦٢) المنتورى، فهرسته، ص ١٠٧.
(٦٣) كشف الظنون، ص ٢٨.
(٦٤) هدية العارفين ١: ٨٠٥.
(٦٥) ترتيب المدارك: ١: كج.
(٦٦) طبعة لبنان ٤: ٧٨٢.
(٦٧) انظر أيضا قول الشيخ محمد بن تاويت الطنجى فى مقدمة الجزء الأول من ترتيب المدارك ١:كج.
(٦٨) ص ١١٧.
(٦٩) انظر الوراكلى: أبوالفضل القاضى عياض السبتى - ثبت ببليوجرافى - ص٢١.

(٧٠) انظر الطالبى: مقدمة تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضى عياض، ص ٢٠/ باللغة الفرنسية.

(٧١) الديباج المذهب، ٢: ٥٠.

(٧٢) قلائد العقيان: ص ٢٣٢ - ٢٣٥.

(٧٣) الديباج المذهب: ١/٥٠ - ٥١.

(٧٤) .حسن الوراكلى: أبوالفضل القاضى عياض السبتى، ثبت ببلوجرافى، ص ٨٨.

(٧٥) تراجم أغلبية: المقدمة، ص٢٠.

(٧٦) أزهار الرياض: ج٥/٥.

(٧٧) تراجم أغلبية: المقدمة، ص٢٠.

(٧٨) عياض: المدارك ١:٦/ طبع المغرب.

(٧٩) المصدر السابق: ١:٨/ طبع المغرب.

(٨٠) ترتيب المدارك: طبعة لبنان ١/٣٤.

(٨١) نشرته الجامعة التونسية سنة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م.

(٨٢) شذرات الذهب ٣: ١٤٠، ومقدمة ١/١٢.

(٨٣) ابن فرحون: الديباج، ط١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٨٤) ابن فرحون: الديباج، ط١/ ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٨٥) جلال الدين السيوطى: حسن المحاضرة ١/٤٥٢.

(٨٦) ابن فرحون: الديباج ط١، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

(٨٧) ابن فرحون: الديباج، ط١، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٨٨) ابن فرحون: الديباج ط١، ص ١٣٦ - ١٣٨.

(٨٩) ابن فرحون: الديباج، ط١، ص١٥٤ - ١٥٥.

(٩٠) ابن فرحون: الديباج، ط١، ص ٣٩ - ٤٠.

(٩١) ابن فرحون: الديباج، ط١، ص ١٢٠ - ١٢٢.

(٩٢) ابن فرحون: الديباج، ط١، ص٢.

(٩٣) التنبكتى: نيل الابتهاج، ص ٨، ٩.

(٢) نشره المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت

(٣) طبع بالجزائر سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٤) طبع الكتابان بعناية دار الغرب الإسلامى، بيروت، الأول فى ٧ مجلدات والثانى فى ١٣جزء.

قائمة المصادر والمراجع

الأهوانى: عبدالعزيز
– كتب برامج العلماء بالأندلس: بحث نشر فى مجلة معهد المخطوطات العربية. المجلد الأول، العدد الأول.
بروكلمان: كارل.
– تاريخ الأدب العربى. مجلدان، ملحقات، ليدن ١٩٣٧م.
ابن بشكوال: خلف بن عبدالملك.
– الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وآدابهم. مجلدان. تحقيق عزة العطار الحسنى. القاهرة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
البغدادى: إسماعيل باشا
– هدية العارفين، فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مجلدان. طبع اسطنبول سنة ١٩٤٥م.
التنبكتى: أحمد بن أحمد بابا
– نيل الابتهاج، بتطريز الديباج. ط١، مصر ١٣٥١هـ.
حاجى خليفة: مصطفى بن عبدالله.
– كشف الظنون، عن أسامى الكتب والفنون مجلدان. نشر محمد شرف الدين. طبع اسطنبول ١٩٤١ – ١٩٤٣.
ابن خاقان، الفتح، محمد بن عبيدالله، مكتبة السيد محمد عبدالواحد بك القاهرة، مطبعة التقدم القاهرة ١٣٢٠هـ.
ابن خير: أبوبكر محمد بن خير
– فهرسة ما رواه عن شيوخه، تحقيق Codera سرقسطة ١٨٩٣م.
الذهبى: محمد بن أحمد بن عثمان
– تذكرة الحفاظ. تحقيق عبدالرحمن المعلمى، حيدراباد ١٩٥٨م.
ابن رشيد: محمد بن عمر الفهرى السبتى
– الرحلة = ملء العيبة، بما جمع بطول الغيبة، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، الجزء الثالث تونس ١٩٨١م.
الزركلى: خير الدين.
– الأعلام ٨ أجزاء. طبع دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٠ م.
السيوطى: جلال الدين عبدالرحمن
– حسن الحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، طبع القاهرة جزءان.
الحافظ أبوطاهر السلفى. نشر المكتب الإسلامى دمشق ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
ابن عذارى المراكشى: البيان المغرب، فى أخبار الأندلس والمغرب، صدر فى خمسة أجزاء، باهتمام محققين خمسة. طبع فى ما بين ١٩٤٨ و١٩٨٥م.
ابن العماد: عبدالحى بن على

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ٨أجزاء طبع دار الفكر بيروت ١٣٩٩/١٩٧٩م.
عنان: محمد عبدالله
- عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس، القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.
عياض : أبوالفضل عياض بن موسى اليحصبى السبتى.
أ) الإعلام بقواعد الإسلام، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، وطبع بعناية وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب.
ب) تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضى عياض، تحقيق الأستاذ محمد الطالبى، نشر الجامعة التونسية ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م.
ج) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.
الطبعة الأولى، لبنانية، بتحقيق أحمد بكير. نشر دار مكتبة الحياة، بيروت ودار الفكر بطرابلس ليبيا بين سنتى ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧ م و١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م طبع فى أربعة أجزاء وفى مجلدين ثم مجلد ثالث للفهارس. الطبعة الثانية، مغربية. فى ثمانية أجزاء. اشترك فى تحقيقها أربعة من المحققين.
فالجزء الأول حققه محمد بن تاويت الطنجى، طبع سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٥م.
والأجزاء الأول والثانى والثالث والرابع حققها عبدالقادر الصحراوى من سنة ١٣٨٦هـ ١٩٦٦ م وسنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.
الجزء الخامس حققه محمد بن شريفة وطبع سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.
والأجزاء السادس والسابع والثامن حققها الأستاذ سعيد أحمد أعراب فيما بين سنة ١٤٠١ هـ/ ١٩٨٠ م وسنة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
وطبعت الأجزاء الثمانية بالمغرب الأقصى بعناية وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية فى مطابع المتعددة.
د) الغنية (وهو معجم شيوخ القاضى عياض).
الطبعة الأولى: تحقيق محمد بن عبدالكريم نشر الدار العربية للكتاب، تونس، ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨م.
الطبعة الثانية: تحقيق الأستاذ ماهر زهير جرار. نشر دار الغرب الإسلامى، بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
هـ) كتاب الصلاة على النبى: معانيها أحكامها فضائلها. (كتاب منسوب للقاضى عياض ولم يذكر فى المصادر) مراجعة محمد عثمان الخشت. طبع بالقاهرة، نشر المختار الإسلامى. سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.
و) مذاهب الحكام فى نوازل الأحكام = نوازل القاضى عياض = أجوبة القاضى عياض.
تحقيق محمد بن شريفة نشر دار الغرب الإسلامى، بيروت. ط ١ سنة ١٩٩٠م ط ٢ سنة ١٩٩٧م.
ابن عياض: محمد ابن القاضى عياض اليحصبى.

- التعريف بالقاضى عياض تقديم وتحقيق محمد بن شريفة نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمغرب (دون تاريخ).
ابن فرحون: إبراهيم بن على بن محمد اليعمرى
- الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب، تحقيق وتعليق محمد الأحمدى أبوالنور، دار التراث مصر، القاهرة ١٣٩٤هـ.
القلصادى: أبوالحسن على الأندلسى الباجى.
الرحلة = رحلة القلصادى، تحقيق محمد أبوالأجفان، طبع الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٨م.
كحالة: عمر رضا
- معجم المؤلفين - تراجم مصنفى الكتب العربية. نشر مكتبة المثنى بيروت ودار إحياء التراث العربى بيروت. ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٧م.
مخلوف: محمد المستيرى:
- شجرة النور الزكية، فى طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م
ابن مرزوق التلمسانى: محمد بن أحمد الخطيب.
- المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن أبى الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا الجزائر سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
المقرى: أحمد بن محمد التلمسانى.
- أزهار الرياض، فى أخبار عياض، ٤ أجزاء. نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامى بين حكومتى المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة. طبع المغرب ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٨ أجزاء، تحقيق إحسان عباس، طبع دار صادر بيروت ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م.
النباهى المالقى: أبوالحسن بن عبدالله.
- تاريخ قضاة الأندلس = المرقبة العليا، فى من يستحق القضاء والفتيا. نشر المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (دون تاريخ).
الوراكلى: حسن
- أبوالفضل عياض السبتى (ثبت ببليوجرافى) طبع دار الغرب الإسلامى، بيروت ١٩٩٤م.
- مجموعة أبحاث ألقيت بندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة (دورة القاضى عياض) وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية المملكة المغربية مراكش، المجلد الأول ١٤٠١ هـ/١٩٨١م
- مكانة عياض العلمية، السعيد بوركبة.
- القاضى عياض، حياته، وشخصيته العلمية، الأستاذ إدريس أعزوزى.

طبع بمطابع

طبع بمطابع

روزاليوسف